محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

السيد عبد الماجد الغوري

الجزء الأول

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

(١)

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

مقدمة

بقلم الداعية الكبير
الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ

إنها صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة؟ عندما قرأنا للداعية الإسلامي الجليل العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي رسائله التي سبقت مقدمه إلى مصر ، ثم عندما قرَّت عيوننا برؤيته ، وطابت نفوسنا بعشرته ، تأكدت لنا هذه الحقيقة الكريمة ، وزدنا بها إيماناً ، وهي أنَّ الإسلام على اختلاف الأمكنة والأزمنة يصنعُ نفوسَ أتباعه على غرارٍ واحد ، ويجعل المشابهةَ قريبةً جداً بين نظرتهم إلى الأشياء ، وأحكامهم على الأمور ، وأنَّ انفجار الوعي الإسلامي في مصر والشام والهند والمغرب تمخَّض عن نفرٍ من الرجال الأمجاد أحسنوا فهمَ الإسلام ، وأحسنوا العملَ له ، فضمَّهم ـ من حيث لا يشعرون ـ نهجٌ واحدٌ في الإصلاح ، ولفتهم عاطفةٌ واحدة نحو ما يعترض المسلمين من عوائق ، ويرمون به من مكايد وخصومات.

أصغينا إلى الأستاذ وهو يحدِّث إخوتنا المسلمين بالهند ويؤرِّخ لسير الإسلام هنالك ، فرأيناه يبصر الأسباب الخفية ، ولا تخدعه حركةٌ عما وراءها ، وأصغينا إليه يصف مشاعره نحو إخوته المسلمين بمصر خاصةً والشرق الأوس عامَّة ، فرأيناه فطناً إلى التيارات المتضاربة ، مقدِّراً لجهود الدعاة المخلصين ، ومقدِّراً كذلك ما يزحم طريقهم من صعاب ، وهو مع تمسُّكه الشديد بالإسلام شكلاً وموضوعاً ـ حتى ليظنُّه السطحيون متزمتاً ـ تراه واسع منادح النظر ، مرناً في مواجهة ما يرضى وما يسخط ، مرونة الخلق العالي ، لا مرونة التحلُّل وقلَّة الاكتراث.

وكم يحتاج رؤساء الهيئات الإسلامية عندنا إلى هذا المسلك الراشد.

زارنا الأستاذ أبو الحسن ـ ونحن نكافح الأمر العسكري بحلِّ جماعتنا ـ فتعهَّدنا الرجلُ الحصيف بنصحه، وقام بحقِّ الإسلام عليه في توجيهنا إلى مرضاة الله وخدمة دينه، وحفظ المقدسات العظيمة التي آلت إلينا من أسلافنا الأمجاد، والثبات ضد أمواج الغزو الصليبي والتبشير الثقافي الذي يرمينا الغرب به بين الحين والحين.

وتحرى أن نلتزم في جهادنا للإسلام الأساليب الإسلامية نفسها، فإنَّ الخير لا يدرك إلا بالخير، وهيهات أن نصل إلى حق بباطل، وقد سجل هذه النصائح في الرسالة التي نتشرف بتقديمها للإخوة المسلمين.

ونحن إذ نشكر الله سبحانه على ما أتاح لنا من خيرٍ عندما ساق لنا الأستاذ أبا الحسن، فإنا نعاهده على أن نظلَّ ما حيينا أبناءً بررةً للقرآن الكريم، وجنوداً مهرةً في تنفيذ أوامره، وبلوغ أهدافه[١].

محمد الغزالي

القاهرة ٢٤/ ٢/ ١٩٥١م

---

(١) هذه المقدمة كتبها الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ لمحاضرة العلامة الندوي الّتي ألقاها في مكتب الإرشاد بالقاهرة ـ حين نشرها في شكل رسالة مستقلة بعنوان «الإسلام والحكم».

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد عمل العلامةُ الكبير الإمام السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ منذ عنفوان شبابه على تناول كل ما يتصل بقضايا الفكر الإسلامي ومعضلاته ، وكل ما يتصل بالشبهات المثارة ، عارضاً ذلك باللغة العربية الفصحى ، متحدثاً بها من فوق منابر مكة والقاهرة ودمشق ولبنان وبغداد خلال رحلاته في الدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة ، وبالكلمة المسموعة والمقروءة.

وقد وُفِّق أن يتشرف أولاً وهو في بداية العقد الثلاثين بزيارة الحجاز؛ الّذي هو مهدُ الإسلام ، ومهبط الوحي ، وأرض اليقين والإيمان ، ومهوى أفئدة المسلمين ، ومرمى أبصارهم في أرجاء المعمورة ، فألقى فيها عدة محاضرات أثناء إقامته فيها ، ومنها ما اشتهر ونال قبولاً حسناً وتلقياً عظيماً ، ومنها : «بين العالم وجزيرة العرب» أذاعتها الإذاعة السعودية .

وقد أصبح ـ العلامة الندوي ـ بعد إلقاء هذه المحاضرة معروفاً في الأوساط الدينية والعلمية والأدبية بالحجاز ، وقد أبْدَى في هذه المحاضرة آراءه وانطباعاته بأسلوب أدبي رصين ، وعبّر عن قلبه وضميره على لسان

العالم ، ثم أدار عليه بلسان جزيرة العرب ، الّذي يفتح فيه العالم الإنساني ـ بعد أداء حقوق الشكر والتقدير على تلك المنن والهدايا الكريمة الّتي قدمتها إليه جزيرة العرب عن طريق سيدنا محمد ﷺ ، والتي أعادت الحياة من جديد ـ صفحات الشكوى ، ويعرض جروح قلبه ، وفزع نفسه؛ على أنه لماذا تخلت الجزيرة العربية ـ التي كانت قد طلعت من أفقها الوضاء شمسُ الإسلام الساطعة ـ عن قيادته وإمامته ، وخَاطَبها في صراحة ووضوح: إننا لسنا في حاجة إلى زيتك الّذي تسير به العجلات والماكينات ، إننا في حاجة إلى ذلك الإيمان وتلك الحرارة والنور الّذي اختصَّك الله به ، وتستضيء به العقول والقلوب.

ثم رَدَّدَ على العالم من جزيرة العرب ، رداً فيه اعتراف بالقصور ، واعتذار ومواعيد ، تلقى هذا الحديث باستحسان وقبول ، واستُمع إليه في رغبة وشوق.

ثم قيَّض اللهُ له الزيارة لمصر عام (١٩٥١) وشعر خلال إقامته فيها بضرورة أن يخاطب مصر خطاباً يذكرها برسالتها ودورها ومكانتها ، أشاد فيه أولاً ـ برحابة صدر وسخاء ـ بدور مصر الديني والعلمي القيادي الرائع ، ومآثرها العظيمة في النشر والتوزيع ، وفتوحه الأدبية والعلمية ، وتاريخ الأزهر الزاهر ، ومآثرها القيمة في خدمة العلم والدين ، ثم صارحها فقال: «يا مصر ، إن لك يدين ، فخذي بأحدهما الأشياء النافعة المفيدة وأعطي بالأخرى الروح والحياة ، وقدِّمي إلى الغرب تكاتف الإيمان والإسلام ، ولا تنسي هذه الحكمة النبوية: إن اليد العليا خير من اليد السفلى».

نال هذا الخطاب قبولاً بالغاً في مصر ، وتلقَّفه الناسُ ، وتلقوه بشوق ورغبة واستحسان ، فنُشِر بعد مدة قليلة في صورة رسالة مستقلة.

ثم سَافَرَ إلى سورية ، فألقى الحديثَ على رغبةٍ من بعض أصدقائه الأجلاء بعنوان: «اسمعي يا سورية» وباح إليها بما يجيش في قلبه من أحزان وآلام وآمال وأمانٍ ، وقال أخيراً: «إن نعمةَ الإسلام التي حظيت بها الهند على يد محمد بن قاسم الثقفي ، الّذي كان أحد القادة الدعاة في عهد

الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وكانت دمشق هذه هي عاصمة الوليد ، إن هذا النداء والاعتراف إنما هو نوعٌ من المكافأة والشكر على ذلك الإحسان والمنّة العظيمة ، وإنما هي ضريبة الحب والوفاء والإخلاص .

وكذلك زار الكويت ، فخاطبها بعنوان «اسمعي يا زهرة الصحراء» وحلب لها شطري الحقائق : الحلو والمرّ .

وزار إيران ففاتحها بعنوان : «اسمعي يا إيران» .

وزار المغربَ الأقصى ، فخاطب أهله الفضلاء وأبناءه البررة بعنوان : «نحن الآن في المغرب» .

وزار أوربا ، فتحدَّث إليها من المستوى العالي ، والقمة الشامخة ـ شأن المؤمن الواعي المدرك للحقيقة ـ بعنوان «حديث مع الغرب» .

وزار أمريكا ، فناداها بعنوان : «أحاديث صريحة في أمريكا» ودلَّ على الأخطار التي تهدِّد النوعَ البشري، وذكر الجاليات الإسلامية ، وأبناء الإسلام الّذين يعيشون في أمريكا أو يقيمون فيها لتحصيل العلوم والثقافة ، أو لتحصيل ذات اليد ، ودورهم الأصيل ، ومسؤوليتهم الأساسية ، ورسالتهم المشرَّفة ، لكنه ظلَّ يشكو بلسان الحال على لسان الشاعر الفارسي :

«ما بحت إليكم إلاّ بشيء قليل من أشجاني وآلامي ، ورغم ذلك أخاف أن يسوءكم قولي ، ويؤذيكم شكواي ، وإلا فإنّ الحديث ذو شجون وفنون» .

ثم زار باكستان ، ونادى من خلال محاضراته التي ألقاها فيها بعنوان : «حديث مع باكستان» يخاطب كل مسلم واع مخلص معنيّ بقضايا الإسلام والمسلمين في أنحاء العالم؛ أن يعمل ـ جهده ـ على تمهيد الطريق للانتفاضة الإسلامية بكل إخلاص وعزيمة وجهد دائب ، وشعور صائب ، فقد تراكمتْ على هذه الطريق أنقاضٌ لا يعلمها إلاّ الله بفعل إهمالنا وتقصيرنا ، وثورتنا على أحكام الله ، بل وبمؤامراتنا المتواصلة ، وعملياتنا الهدامة المتتابعة ، وإزالة هذه الأنقاض تحتاج إلى ثورة عارمة شاملة في المجتمعات الإسلامية المتغربة ، وهذه الثورة وحدها هي القاعدة الصلبة المتينة الّتي يمكنُ عليها تشييد صرح الانقلاب الإسلامي اليوم .

وكذلك قيض الله له السفر إلى أوربا ، وزار خلال هذه الزيارة عواصمها الكبرى ، وألقى عدة محاضرات ، طبعت بعد فترة بعنوان: «حديث مع الغرب» وقف في تلك المحاضرات موقف الداعية الإسلامي ، يدعو الغرب إلى الإسلام من غير تأويل وخجل واستحياء ، ويحثّه أن يلعب دوره الخطير الهام في قيادة الإنسانية ، ووجَّه في تلك المحاضرات حديثه إلى الشباب المسلم المثقف المقيم في ديار الغرب ، محذّراً لهم أن تسحرهم هذه الحضارة الخادعة ، ويدعوهم إلى أن يعيشوا في الغرب كالدعاة والقادة ، لا كالمقلدين والتلاميذ ، ويفتحوا قناة جديدة بين الغرب والشرق على أساس النفع المتبادل ، ويرجعوا إلى أوطانهم وبلادهم ، وهم أشدّ إيماناً بخلود الإسلام ، واعتزازاً به ، وأكثر إشفاقاً على الغرب وعلى الإنسانية الّتي كادت تهوي في الهاوية.

وكذلك أتيح له السفر إلى اليمن والأردن ، فألقى خلال إقامته فيهما محاضرات وأحاديث في مناسبات مختلفة ، أثار في تلك المحاضرات والأحاديث غيرة مسلمي اليمن الدينية ، وأعاد إلى ذاكرتهم ارتباطهم بالإيمان ، وكان التركيز على هذه النقطة «الإيمان يمان والحكمة يمانية» فليكن اليمن إيمانياً ، فقوبل جميعُ ما ألقاه العلامة الندوي في اليمن بالترحاب ، وصار له دويٌّ في الأوساط العلمية والسياسية والشعبية ، وألقى بعض محاضرات وخطابات في الأردن ، وهي بمناسبة الإسراء والمعراج ، ففاضت في تلك المحاضرات والخطابات طبيعة العلاّمة ، وتأثرت من الواقع المرير ، فتحدَّث بكلمات كانت حديث القلب الجريح ، تُثير الهمم ، وتُحيي القلوب من غفوتها ، فحركت هذه الكلمات أوتار القلوب؛ لأنها كانت تفيض من قلب اجتمع فيه شجى المكان والزمان ، والاعتزاز بالماضي المجيد ، والتألم بالواقع المرير.

فهذه بضع محاضرات وخطابات وأحاديث مشهورة ألقاها العلامة الندوي خلال رحلاته إلى الشرق والغرب ، ونالت كلّها إقبالاً كبيراً ، واستحساناً عظيماً بين المستمعين حيثما ألقاها ، وصدرتْ بعد مدة في

صورة رسائل وكتيبات صغيرة في لغات مختلفة ، فتكررت طبعاتها بشكل متتالٍ ، يستحيل إحصاؤه.

لكن هناك عدا هذه المحاضرات والخطابات والأحاديث القلائل ، كان عددٌ كبيرٌ من المحاضرات والخطابات والأحاديث المهمة والمفيدة للعلامة الندوي ، وبعضها مسجَّل في الأشرطة ، وبعضها منشور في طيّات الجرائد والمجلات ، وبعضها الآخر مطبوع في صورة كتيبات ، وحين نفدت طبعاتها ، لم تُستأنف طباعتُها حتى صارت كلها شيئاً منسياً.

وكانت كل هذه المحاضرات والخطابات في حاجة إلى الجمع ثم التحقيق والتعليق ، وشعرت بهذه الحاجة ، وكنت جديد العهد بقراءة مؤلفات ومقالات العلامة الندوي بالعربية ، وكان هذا العمل لا يليقُ بمثلي ، وانتظرت مدة غير قصيرة تاركاً المجال لمن يقوم بهذا العمل العظيم من تلاميذ العلامة الندوي الكبار ومن جماعة الندويين المنتشرة في الخافقين ، فبدا لي بعد هذا الانتظار الطويل (الّذي يزيد عن خمس سنوات) بأنه لم يلتفت أحدٌ منهم إلى هذه الضرورة ، أو لم يشعروا بأهميتها ، فتهيأتُ لجمع جميع تلك المحاضرات والخطابات والأحاديث ، باذلاً من الاستطاعة ما وسعني الجهد ، وما ساعد في القدر ، ناقلاً تلك المحاضرات التي كانت مسجّلة في الأشرطة ، ومصوّراً تلك المحاضرات الّتي كانت منشورة في الجرائد والمجلات ، ومطبوعةً في صورة الكتيبات ، منذ كنت طالباً في مدرسة ضياء العلوم الإسلامية ، الواقعة في مقر العلامة الندوي.

وهكذا بدأت دون أن أذكر أو أستشير أحداً ، وكنتُ أعرف لو ذكرت هذا لأساتذتي ، أو استشرتُهم لأشاروا عليّ بالعدول عن الخوض في هذا العمل ، مستصغرين شأني ، ورائين العملَ غير لائق بمثلي؛ الّذي لم يتجاوز العقدَ العشرين من عمره.

فلما التحقتُ بكلية الشريعة في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، اتَّسع لي المجال للتفرغ لهذا العمل مستفيداً من مكتبتها الرئيسية ، حتى فرغت من جمعها ، فقيَّض الله لي السفر إلى دمشق على منحة من أحد معاهدها

الإسلامية المعروفة ، فرأيتُ هناك إقبال الناس على بعض محاضرات كبار العلماء المعاصرين المطبوعة في مختلف العلوم والفنون كمحاضرات في التاريخ ، ومحاضرات في التشريع الإسلامي ، ومحاضرات في الأدب العربي ، ومحاضرات في كذا وكذا . . .

فخيِّل إليَّ أنَّ محاضرات العلامة الندوي التي جمعتها في الهند هي أكثر منها استحقاقاً للنشر ، بيد أنها لا تحتوي على موضوع واحد مثلما رأيتُ ، لكنها ليست أقلّ من موسوعة تجمع جميع الموضوعات ، فشعرتُ بعدما رأيت تلك المحاضرات بدافع يدفعني برغبة غامضة ملحة ، لم أستطع أن أغالبها ، كأن سائقاً يسوقني إلى طلب محاضرات العلامة الندوي من الهند ونشرها؛ كي تعمّ منها الإفادة بين الناس ، فطلبت هذه المحاضرات ، واستأنفت فيها النظر ، وتفرغت لها كل التفرغ ، أرتِّب ، وأحقق ، وأعلّقُ عليها بجهد الخاطر ، وكدِّ النَّاظر ، وعرق الجبين ، وتعب اليمين ، لكني تعمدت فيها لذَّة الجدة ، ورونق الحداثة ، وإضافة المعلومات ، فصار عملي من مختلف جوانبه في هذه المحاضرات شغلي الشاغل في أوقات فارغة بعد الدراسة في الجامعة ، حتى يسَّر الله إتمامه في غُرَّة رمضان المبارك سنة ١٤١٩هـ ، وها هو الآن بين يديك عزيزي القارىء .

إن هذه المحاضرات والأحاديث قوية مؤشرة ، صدرت عن قلب مؤمن فيّاض ، ونفحة من نفحات الداعي إلى الله بروحه وقلبه ، ودعوة صريحة إلى الرباط الدائم ، والسهر على مصالح الأمة الإسلامية ، ونداء إلى صلاح الدين الجديد ، تضرب على الوتر الحساس ، وتحرك القلوب ، وتنير العقول ، وترسل الضوء على الطريق ، وتبعث على التفكير من جديد في قضايا الإسلام والمسلمين .

وهي تدورُ حول وضع العرب والمسلمين الراهن في بعدهم عن الجدّ والصرامة ، أو وقوعهم فريسة التغافل والتخاذل ، وحول ضرورة العودة إلى الصفات العالية للأنفة العربية ، والغيرة الإسلامية ، والإيمان العميق الّذي

يدير دفة الحياة ، ويسيطر على التفكير والتصرفات ، وسيرة العرب والمسلمين في خطاباته.

وأرجو من النداء الّذي أرسله العلامة الندوي من خلال هذه المحاضرات والخطابات والأحاديث أن يخاطب كلَّ مسلم واع مخلص ، منسلك بسلك الدعوة إلى الله ، ومعنيّ بقضايا الإسلام والمسلمين في أرجاء الأرض المعمورة ، يحرِّك من قلوب المسلمين في كل بلد إسلامي وعربي كل ساكن ، وتعين على فتح الأبواب الموصدة التي استعصى فتحها على قوة السواعد والبنان ، وقوة الخطابة وطلاقة اللسان ، والتي تنتظر منذ مدّة ذلك الفاتح العبقري الّذي يستطيع أن يفتح القلوب والعقول معاً.

ولا شكَّ أن هذه المحاضرات هدية ثمينة إلى جميع أبناء الإسلام ، ورجال الدعوة ، وقادة الفكر ، وساسة البلاد ، ورجال التربية والتوجيه ، وزعماء الأحزاب والحركات في كل الدول والمجتمعات الإسلامية والعربية.

وأخيراً أرى واجباً علي أن أشكر فضيلة الأستاذ محمد هارون الندوي ـ أمين مكتبة شبلي النعماني بدار العلوم ، ندوة العلماء بلكهنؤ ـ على إتاحته فرصة الاستفادة من مكتبة دار العلوم خلال جمع هذه المحاضرات.

وكذلك لزاماً عليّ أن أشكر أخي العزيز الشقيق السيد أحمد زكريا الغوري ـ الطالب في كلية الشريعة بدار العلوم ـ على ما تَجَشَّمَ في تصوير بعض المحاضرات من مختلف الجرائد والمجلات ، وتوفير بعض الأشرطة كان من الصعب عليّ الحصول عليها هنا في بلدٍ بعيد ناءٍ.

وأخيراً أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يتقبله قبولاً حسناً ، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

دمشق ٩/ شعبان/ ١٤٢٠ هـ
١٧/ نوفمبر/ ١٩٩٩ م

كتبه
المعتز بالله تعالى
عبد الماجد الغوري

ملامح مِن حَياة العلاّمة
أبي الحسن علي الحسني الندوي وشخصيته

اسمه ونسبه وأسرته:

* علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، أول من استَوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧ هـ) وقد بارك الله في ذرية الأمير السيد قطب، وتقبلها بقبول حسن ونفع بها المسلمين، إذ كثر فيها العلماء والمربُّون والمجاهدون في سبيل الله والدعاة إليه، كان من أشهرهم وأبرزهم العارف الكبير والمربي العظيم السيد علم الله بن السيد فَضيل الحسني النقشبندي (١٠٩٦ هـ) خليفة الشيخ الجليل السيد آدم البنوري، والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، قائد حركة الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله في تاريخ الهند الإسلامي المجيد، وأوّل من أقام دولةً إسلاميةً في الهند على منهج الخلافة الراشدة في الحدود الشمالية الغربية للهند في العصر الحديث لمواجهة الاستعمار البريطاني، استشهد الإمام في معركة «بالاكوت»[(١)] في ٢٤/من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ[(٢)].

---

(١) قرية في مديرية «هزارا» في غربي باكستان.

(٢) اقرأ للاطلاع على حياة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد كتاب «إذا هبت ريح الإيمان»=

* أبوه العلاّمة الطبيب السيّد عبد الحيّ بن السيد فخر الدين الحسني(١) الذي استحق بجدارة لقب «ابن خلكان الهند» «لمؤلفه القيم» «نزهة الخواطر» في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم، طُبِعَ أخيراً باسم «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام».

* أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات، المربّيات النادرات، المؤلّفات المعدودات، والحافظات للقرآن الكريم، تقرض الشعر، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ.

ميلاده ونشأته:

* أبصرَ النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣ هـ الموافق عام ١٩١٤ م بقرية «تكية كلان» الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش).

* بَدَأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت، ثم دَخَلَ في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية).

* توفي أبوه عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية سماحة الشيخ الندوي.

* بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤ م، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي، ثمّ توسَّعَ فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠ م.

= لسماحة الشيخ الندوي، طبع في دار القلم بالكويت، وفي دار عرفات براي بريلي، لكهنؤ (الهند) وأخيراً في دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٩ م.

(١) انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين».

* التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧ م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونالَ منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتَعَلَّمَ الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر.

* التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩ م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاّهوري في لاهور عام ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م ، وحَضَرَ دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً.

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويّة :

* انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤ م ، وعُيِّنَ أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين.

* قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩ م ، تَعَرَّفَ فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية

المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي[١] ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبَقِيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتَلَقَّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأَسَّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها.

* أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣ ، وأَسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١ م ، والمجمع الإسلامي العملي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩ م.

* عُيِّنَ أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١ ، (ولا يزال يترأس أمانتها إلى يومنا هذا).

* شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠ م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤ م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢.

أهمّ مؤلفاته:

* نشِرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة «المنار» للعلّامة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١ م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً.

* ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧ م يحمل عنوانه اسم «سيرت أحمد شهيد» ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان.

---

(١) اقرأ للاطلاع على حياته وجهوده في مجال الدعوة إلى الله كتاب سماحة الشيخ الندوي «الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته» صدر عن دار ابن كثير دمشق عام ١٩٩٩ م.

* بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّل كتاب فيها بعنوان «مختارات من أدب العرب» عام ١٩٤٠ ، و«قصص النبيين» للأطفال و«القراءة الراشدة» عام ١٩٤٤ م. وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية.

* أَلَّفَ كتابه المشهور «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عام ١٩٤٤ م. الّذي نال قبولاً بالغاً منذ صدوره في جميع العالم الإسلامي والعربي ، ونقل إلى سائر اللغات العالمية ، وقد صدر له حتى الآن ست وستون طبعة شرعية بالعربية[١].

* دعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦ م ، وألْقىٰ محاضرات بعنوان «التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي» نُشِرتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

* أَلَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان «القادياني والقاديانية» عام ١٩٥٨ م ، وكتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية» عام ١٩٦٥ م وكتابه «الأركان الأربعة» عام ١٩٦٧ ، و«السيرة النبوية» عام ١٩٧٦ م ، و«العقيدة والعبادة والسلوك» عام ١٩٨٠ و«المرتضى» في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨ م.

* شارك في تحرير مجلة «الضياء» العربية الصادرة من دارالعلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢ ومجلّة «الندوة» الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠ ، وأَصْدَرَ مجلّة باسم «تعميرحيات» في الأردوية عام ١٩٤٨ م ، وكَتَبَ مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمّات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : «الرّسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات و«الفتح» للأستاذ محب الدين الخطيب و«حضارة الإسلام» للدكتور مصطفى السباعي.

---

(١) صدرت طبعته الأخيرة في «دار ابن كثير» بدمشق عام ١٩٩٩ م.

* أشْرَفَ على إصدار جريدة «نداي ملّت» الأردوية عام ١٩٦٢ م ، وكذلك أشرف على مجلّة «البعث الإسلامي» العربية الصادرة عام ١٩٥٥ م وجريدة «الرائد» العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩ م ومجلة «تعميرحيات» الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣ م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند).

تـقـديـر وتـكـريـم:

* انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها.

* اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢ م.

* اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١ م.

* اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠ م ، لتأليفه القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

* منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١ م.

* اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣ م.

* اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن).

* اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤ م.

* أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه

المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩ م في إستانبول «تركيا».

* اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩ هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقَدَّمَ إليه الجائزةَ في الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم ولي العهد.

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

* تولَّى العلامةُ الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال:

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الّتي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتَـفَوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الّتي تَهْتَمّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع).

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض).

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند).

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا).

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلايمة لعموم الهند.

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش).

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلام بمكة المكرمة.

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية الأردني.

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن.

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان).

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند).

* وعدا ذلك تولّى العلامة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه.

وفاته:

توفي - رحمه الله - عن ستة وثمانين من عمره بمقره ومسقط رأسه «تكية كلان» (الهند) في يوم الجمعة ٢٢/ من شهر رمضان المبارك ١٤٢٠هـ الموافق ٣١/ من شهر ديسمبر ١٩٩٩م، وذلك عقب نوبة قلبية مفاجأة، تغمده الله تعالى بواسع رحمته، وأكرم نزله في فسيح جناته، وجعله ممن أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً[١].

* * *

(١) انظر كتاب «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» للمحقق، للاطلاع على حياة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية، ومآثره القيمة في مجال الأدب، وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية، وتعريف لأهمّ مؤلفاته، صَدَرَ عن «دار ابن كثير دمشق - بيروت ١٩٩٩ م».

أريد أن أتحدّث إلى الإخوان

ألقى سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي هذه المحاضرة في منزل الأستاذ منير دلة بالجيزة ، خلال زيارته الأولى لمصر عام (١٩٥١م) حضرها عدد وجيه من كبار علماء مصر ، وأساتذة الجامعات المصرية المختلفة ، وعلّق عليها الأستاذ محمد الغزالي .

أيها الإخوان والسادة! كان من أعزِّ الأماني وأحلى الأحلام عندي أن ألتقي في مصر بفضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان ، ولكن تأخرت زيارتي لمصر لأسباب قاسرة ، واستأثرتْ به رحمة الله ، وسبقت له الحسنى ، ولا أزال طول عمري ألوم نفسي على هذا التقصير والتأخير في السفر ، على أنَّ ما فات الإنسان من خيرٍ لم يكن ليدركه ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وليس لي عزاءٌ عن هذا الحرمان إلا في وجودكم ، والاجتماع بكم ، والحديث معكم ، فأريد أن أحييكم تحيَّةً كنت أحييها فقيد الإسلام ، وأبثُّ إليكم ما في قلبي من خواطر ، وأفكارٍ ، وآمال ، وآلام ، وما أحمل لهذه الدعوة العظيمة وصاحبها من التقدير والإجلال والحبِّ والإخلاص ، وما يخامر نفسي في ذلك من سرورٍ وأمل ، وما يساور نفسي كذلك من إشفاقٍ ووجل ، فأرجو أن تسمحوا لأخيكم بشيءٍ من التفصيل ، وتتكرموا عليه بشيْء من وقتكم العزيز .

لستم في حاجة أيها الإخوان الكرام أن أصوِّر لكم العالم الإسلامي ، وما تجتاحه الآن من موجات سياسيةٍ ، واقتصاديةٍ ، وخلقية ، وأصف لكم الأخطار المصلتة على رقاب المسلمين ، وما أصيب به هذا العالم ، ويستقبله من نكباتٍ ومصائب ، فأنتم من أعلم الناس بها ، ولكن الذي أريد أن أقول لكم : إنه في حيرةٍ عظيمةٍ ، وارتباكٍ شديد ، إنه يتأرجح بين عوامل متناقضة ، وقوى متنافسة .

إنَّ العالم الإسلامي حائرٌ اليوم بين دينٍ لا يسهل عليه العمل به والقيام بمطالبه لعاداتٍ نشأ عليها ، وحكوماتٍ أفسدته ، وتعليمٍ أزاغه ، وشهواتٍ لا تتفق مع عقيدته ورسالته ، وبين جاهليةٍ لا ينشرح لها صدره لإيمانٍ لا تزال له بقية فيه ، وقوميةٍ عجنت مع الإسلام ، وحضارة تخمَّرت مع الدين .

إنَّ العالم الإسلامي حائرٌ بين شعوبٍ مسلمة بسيطةٍ في عقليتها ودينها ،

وحكوماتٍ داهية لم تنشرح صدور رجالها لهذا الدين ، ولم تطاوعهم نفوسهم على العمل به ، ولكنَّهم يصرُّون على أن يحكموا هذه الشعوب التي تؤمن بهذا الدين ، ولا يرون حياتهم وشرفهم إلا في البقاء في الحكومة ، ولا يرون لهم محلاًّ في الحياة إلا الزعامة والحكومة ، ولا موضعاً في العالم إلا المجتمع الإسلامي الذي ولدوا ونشؤوا فيه ، فالشعوب في تعبٍ منهم ، وهم منها في بلاء وعناء.

إنَّ العالم الإسلامي حائر بين فطرته التي تنزعه إلى الدين ، وتاريخه الذي يدفعه إلى الإيمان والجهاد ، والكتاب الذي يُقبل به إلى الآخرة ، ويبعث في نفسه الثورة على المجتمع الفاسد والحياة الزائفة ، وبين التربية العصرية التي تزيّن له المادِّية ، وتطبعه على الجبن والضعف ، والزعامة التي تفرض عليه الاتكال على الغير ، والاعتماد على العدو ، والفرار من الزحف.

إنَّ العالم الإسلامي حائرٌ بين شبابٍ ثائرٍ ، ودم فائرٍ ، وذهن متوقِّدٍ ، وأزهار تريد أن تتفتح ، وبين قيادةٍ شائخةٍ شائبةٍ قد أفلست في العقلية والحياة ، وحُرِمت الابتكار والإبداع ، والشجاعة والمغامرة.

إنَّ العالم الإسلامي حائر بين مواد خامة من أقوى المواد ، وأفضلها في الإيمان والقوة والشجاعة ، وبين موجهين وصناعيين لا يعرفون قيمة هذه المواد ، ولا يعرفون أين يضعونها؟ وماذا يصنعون منها؟

هذا هو العالم الإسلامي الذي يواجهه العالم اليوم فلا يجد فيه غناءه ، ولا يجد فيه غوثاً ومعقلاً عن لصوص العالم المنظمين ، وذئاب الإنسانية التي تحكَّمت ، وعاثت فيها.

ثم هذا هو العالم العربي الذي تعيشون فيه أيها السادة ، وهو اليوم مع كل أسف أضعف أعضاء جسم العالم الإسلامي ، وقد كان واجباً أن يكون أقواها ، وأصحَّها ، وأن يكون في العالم الإسلامي بمنزلة الرأس ، أو القلب في البدن ، وقد تضافرت عليه عوامل الإفساد والضعف ، فأحدثت فيه عللاً كثيرة ، وقد ولَّد فيه ضعفُ الحكم التركي وغفلتُه عن تعليم

الشعوب ، وتربيتها ، وإنفاقُه الأموال في غير موضع ، والاحترام في غير وقت ، وعسفُه في غير هوادة ، أورث كلُّ هذا البطالة ، وسقوط الهمَّة ، والجهل المطبق في كثيرٍ من البلاد العربية ، وجاء الاستعمار الأوربي فأورث التفسُّخ في الأخلاق ، والانحلال في الدِّين ، والاندفاع المتهور إلى المادية ، والتهالك على الشهوات ، وقامت الحكومات الشخصية ، فأورثت التملُّق ، وكثرة المجاملات ، والنفاق ، والخنوع للقوة والمادة ، ثم جنى عليه قربُه من أوربا ، فكان هدفاً لتياراتها المدنية ، ومنتجاتها الصناعية ، وأفكارها المتطرفة ، وأساء إليه موقعه الجغرافي وأهميته السياسية والاستراتيجية ، فلجَّ به الغرب ، وطمع فيه الاستعمار ، وطوَّقته الجنود الأجنبية ، وكان من بقايا الحضارة الشرقية والنظام الإقطاعي والحكم الشخصي الترفُ ، والبذخُ ، والتفاوتُ الشديد بين الطبقات في المعيشة ، ثم كان أن خفَت في العالم العربي صوتُ الدعوة الدينية من زمان ، وانقرض الرجال الذين كانوا يكافحون المادية ، ويكبحون جماحها ، ويلطفون من حدتها بدعوتهم إلى الله ، وإلى الآخرة ، وإلى الزهد والاعتدال في الحياة وقمع الشهوات ، ويشعلون جمرة الإيمان ، واستسلم العلماء ورجال الدين أمام تيار الغرب ، وتغيرات العصر ، فوضعوا أوزارهم للمدنية الغربية ، وهجم عليه الأدب الشهواني ، والصحافة الماجنة ، فحلَّت العقد ، ونفخت في الشهوات ، واجتمع بعض ذلك إلى بعض حتى أصبح هذا العالم منحلاً ، منهاراً ، متداعياً ، لا يمسكه الإيمان ، ولا تحفظه القوة المعنوية ، ولا تقف في طريق اندفاعه دعوةٌ قوية .

في مثل هذه الفترات المظلمة ، والسحب المتراكمة ، كان الله يبعث الأنبياء والمرسلين في الزمن السابق ، ولكن نبوءة محمد ﷺ لم تُكسف شمسُها ، ولم يتوار نورُها ، وإن دينه لا يزال حياً ، وإنَّ الكتاب الذي جاء به لا يزال محفوظاً ، وإنَّ أمته التي أرسلت معه لتبليغ رسالته والقيام بدعوته لا تزال على وجه الأرض ، ولا تزال فيها الحياة والروح .

لقد أغنانا الله بفضل دينه المحفوظ ، وكتابه المتلو ، ونبوءة محمد ﷺ

الخالدة ، عن رسالة جديدةٍ ورسولٍ جديد ، ولكن لا بد من تجديدٍ واسع ، ودعوةٍ صارخة ، وكفاح شديد يغيِّر هذا الوضع الجاهلي الذي تورَّط فيه العالم الإسلامي تورطاً قبيحاً ، وأمعن فيه العالم العربيُّ إلى أبعد حد ، وقد وعد الله ، وأخبر رسولُه باستمرارِ هذه الدعوة الإسلامية ، وبقاء التجديد الديني ، ودوام الكفاح في تاريخ الإسلام ضدَّ الجاهلية التي ترفع عقيرتها زمناً بعد زمن ، وحيناً بعد حين ، وقد أصبح خطبُ العالم الإسلامي ، وفسادُ أحوال المسلمين ، وانحرافُهم عن جادة الإسلام ، وطغيانُ بحر المادية أعظمَ وأوسعَ من أن يتدارك بجهودٍ فردية ، وخُطَبٍ منبرية ، ودروسٍ دينية ، ورسائل دورية ، ومباحثاتٍ فقهية ، ومسائل جزئية ، ومحاربة الأفراد والأشخاص ، إنَّ السيل لا يمسكه إلا سيلٌ مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيارٌ أقوى منه ، فلا بدَّ من كفاحٍ عنيف ، وصراعٍ شديد يغير مجرى الزمن ، ويقلب تيار الحياة من جهةٍ إلى جهة ، ويحدث انقلاباً في المجتمع والحياة ، وفي الأذواق والرغبات ، وفي قيم الأشياء وموازينها .

من هنا كان سرورنا عظيماً لما رأينا نوراً جديداً على أفق العالم العربي ، ظهرت دعوة الإخوان من مصر ـ زعيمة العالم العربي ومصدر الخير والشر للشرق الأدنى ـ فتجدَّد الأمل في مستقبل الإسلام ، واعتقدنا أنَّها هي الدعوة المنتظرة لإحياء المسلمين ، وهي التي ستحقق آمال المصلحين وأحلامهم ، وتتدارك هذا العالم المنهار ، وتمسك به ، وما لبث أن تحولت هذه الدعوة إلى سيلٍ متدفق ، وتيارٍ جارف ، فأمسك سيول الإباحة ، والتحلل ، والإلحاد ، واللادينية ، وصدَّ تيارات المدنية الغربية التي كادت تجرف بالبقية الباقية من الغيرة الإسلامية ، والحياة الدينية ، وأصبحت تؤثر في حياة البلاد تأثيراً قوياً كاد يغير اتجاه البلاد ، وقد اجتمع لهذه الدعوة خصائصُ كثيرةٌ ، لم تجتمع على ما علمنا منذ أمدٍ بعيد لحركة دينية وإصلاحية في هذا البلد :

١ ـ منها شخصية الداعي الأول ، وهو فضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا رحمة الله عليه ، فقد كانت كما بلغنا شخصيةً فريدةً يظهر من حياة صاحبها ونشأته أنَّها قد أُعِدَّت لهذا الأمر العظيم إعداداً ، وقد كان رحمه الله يجمع

بين الفهم الواسع للإسلام ، والغيرة الملتهبة عليه ، والنشاط الدائم ، والعمل المتواصل لإعلائه ، والخطابة الساحرة ، والشخصية الجذابة ، والنفوذ العميق في نفوس أصحابه وإخوانه ، أو بلفظه هو نفسه «الفهم الدقيق ، والإيمان العميق ، والحب الوثيق» ، ولا بدَّ للزعيم المسلم ، وقائد الدعوة الدينية أن يجمع بين هذه الصفات.

٢ ـ اجتمع لهذه الدعوة ما قلَّما يجتمع للحركات الدينية من قوة الإيمان ، وقوة العمل ، والعلم العصري ، والتنظيم الحديث ، والأدب ، والصحافة ، والصناعة ، والتجارة ، مما جعل هذه الدعوة دعوةً شعبيةً عصريةً عامة ، يجتمع فيها العالم الديني ، مع المثقف المدني ، مع التاجر الكبير ، مع العامل الصغير ، مع الكاتب الأديب ، مع الصحافي البارع ، مع الصانع الماهر ، مع الفلاح القوي ، مع الطالب الشاب ، مع المعلم الوقور ، مع الموظف المسؤول ، مع الطبيب النِّطاسيّ ، مع المحامي الكبير ، مع السياسي المحنك ، تجمع بينهم رابطة الإخوان ، وتربطهم شخصية الداعي الكبير.

٣ ـ لقد بعثت تربية الداعي ، والاشتغال بالدعوة ، ورد الفعل ضد التحلل والتفسخ حماسةً عظيمة ، وتماسكاً عجيباً في نفوس الدعاة ، وجعلت من الشعب «الرخو الرقيق» ـ كما قال زعيم من زعماء الإخوان ـ شباناً أثبتوا بطولتهم في حرب فلسطين ، وجددوا ذكريات تاريخ الجهاد الإسلامي ، وأثبتوا رجولتهم ، وعصاميتهم في عهد الاعتقال والمحنة والتعذيب.

٤ ـ امتاز الداعي الأول والدعاة بدورهم بالتصريح بالحقائق الإسلامية ، والظهور في المظاهر الدينية التي كان الناس يخجلون منها ، فتشجع الناس ، وأصبح الدين في هذا البلد شيئاً لا يخجل منه المثقفون والمتظرفون ، وبدأ الناس يُصلُّون في المقاهي ، والأندية ، والولائم ، وقارعة الطريقة بعد ما كانوا يستحيون من ذلك ، وأصبح الخطباء والكتاب يطالبون بالحكم الإسلامي ، وتطبيق أحكام الإسلام الاجتماعية ، ويثيرون

موضوعاتٍ دينية كانت وقفاً على رجال الدين ، ولم تكن تتجاوز دائرة البحث العلمي ، ولا شكَّ أنَّ ذلك من نتائج الحركة الإسلامية القوية .

كان كلُّ ذلك ، ولو طالت حياة المرشد العام وجرت المياه في مجاريها لكان أكثر من هذا ، لتغير الوضع الاجتماعي ، والخلقي للبلاد ، وماتت بدعٌ كثيرة ، وعاشت سننٌ ميتة ، وأقفرت الحانات ، وعمرت المساجد ، وتوارى الفجار والدعاة إلى الإباحية والخلاعة ، وكسد الأدب السافر الفاجر ، واحتجبت المجلاَّتُ الماجنة والصحفُ الخليعة ، وخفَّ السفور الوقح واختلاط الرجال بالنساء ، إلى غير ذلك من العيوب الخلقية والاجتماعية التي يعانيها المجتمع .

ولكن البلاد لم تستطع أن تقدر هذه النهضة قدرها ، كما أن المعدة الضعيفة المريضة لا تستطيع أن تهضم الغذاء الصالح القوي فتتخم في بعض الأحيان ، فكان كلُّ ما يعلمه الجميع ، وكانت كارثةً إسلامية لم يخسر فيها الإخوان فقط ، بل خسر فيها الإسلام ورُزىء بها العالمُ الإسلامي .

ولكني أعتقد أيها السادة أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أراد بهذه الدعوة خيراً؛ إذ ردَّها قسراً إلى مرحلة الدعوة الأولى لتزداد هذه الدعوة نضجاً ، وليزداد رجالها تربية وحنكة ، ومبادئها رسوخاً وقوة ، وأخذ بنواصي العاملين الدعاة؛ ليفكروا في مستقبل هذه الدعوة ، ويرسموا خطتها ، ويحكموا وضعها وأسلوبها .

ليس خطب الدعوة الدينية والتجديد الإسلامي بهيِّنٍ أيها الإخوان الكرام ، فليست رسالتها ومهمتها قلب نظام فقط ، أو تغيير وضعٍ سياسي بوضعٍ سياسي آخر ، ونظامٍ اقتصادي بنظام اقتصادي آخر ، ولا نشرِ الثقافة والعلمِ ، ومكافحة الأميةِ ، والجهل ، أو محاربة البطالة والتعطل ، أو معالجة عيوبٍ اجتماعية أو خلقية ، إلى غير ذلك مما يقوم له الدعاة والمصلحون في أوربا وفي الشرق ، وإنما هي دعوة «الإسلام» التي تشمل العقيدة ، والأخلاق ، والأعمال ، والسياسة ، والعبادة ، والسلوك الفردي والاجتماعي ، وتتناول العقل ، والقلب ، والروح ، والجسم ، وتعتمد

على تغير عميقٍ في القلب ، والنفسية ، والعقيدة ، والعقلية ، وتنبع من القلب قبل أن تنبع من قلمٍ ، أو صحيفة كتاب ، أو منصَّة خطاب ، وتنفذ على جسم الداعي وحياته قبل أن يطالب بتنفيذها على المجتمع والأمة.

هذه الدعوة كانت جديرةً في الحقيقة بالأنبياء ومواهبهم ، وقواهم ، ورسالتهم ، وإيمانهم ، وجهادهم ، وثباتهم ، وفقههم ، وحكمتهم ، وإخلاصهم ، ولكنها ليست خاصة بالأنبياء بل هي دعوة خلفائهم وأتباعهم كذلك ، ودعوة كل عصر ومصر ، وحاجة الإنسانية كلها والعصور كلها ، فلا بدَّ أن تجدد في كل زمان ، وفي كل محيط ، وتكون على أساس دعوتهم ، مطابقة لسيرتهم ، مقتبسة من مشكلتهم ، فلنرجع إلى هذا المصدر ، ولندرسه دراسةً عميقةً واسعة.

إذا تتبعنا أيها الإخوان سيرة الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم رأينا جوانب كثيرة تمتاز بها سيرتهم ، وتقوم عليها دعوتهم ، وأريد أن أشارككم في دراسة هذه السيرة وطبيعة هذه الدعوة ، فأعرض على أذنكم بعض النقط المهمَّة التي تفرق بين سيرتهم ودعوتهم ، وبين سيرة القادة والمصلحين من عامة البشر ، منها:

١ ـ الالتجاء إلى الله في جميع مراحل الدعوة والجهاد ، بل في جميع مراحل الحياة ، والاطِّراح على عتبة عبوديته اطراح الفقير الكسير ، والارتماء في أحضان رحمته ارتماء الطفل الصغير في أحضان أمه ، والإيمان القوي بأنه هو النافع الضارُّ ، والناصر الخاذل ، وأن لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا كاشف لضره ، ولا ممسك لرحمته ، ولا سهل إلا ما جعله سهلاً ، وهو يجعل الحزْن سهلاً ، وينصر الضعيف على القوي ، والقليل على الكثير ، والضعيف مع نصره قوي ، والقليل مع رحمته كثير ، هذا الإيمان كان يوحي إليهم بالابتهال في الدعاء ، وإطالة الوقوف ببابه ، وشدَّة الالتزام بأعتابه ، والإلحاف في المسألة ، ويلهم المعاني العجيبة والتعبيرات الرقيقة . انظروا أيها الإخوان إلى قول سيد الأنبياء ، وسيد الدعاة إلى الله إلى يوم القيامة ، وهو يمثل خير تمثيل لإيمانه

وشعوره بفقره ، وضعفه ، وافتقاره إلى رحمة الله: «اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرِّي وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، وأنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، ودعاء مَنْ خضعتْ لك رقبتُه ، وفاضتْ لك عبرتُه ، وذلَّ لك جسمه ، ورغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً ، وكن لي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين!» واذكروا دعاءه ﷺ في الطائف ، وقوله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين إلى من تكلني؟! إلى عدوٍّ يتجهمني؟ أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن ساخطاً عليَّ فلا أبالي! غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن يحلَّ بي غضبك ، أو ينزل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» . واذكروا موقفه في بدر ، قال ابن إسحاق: «ثم عدَّل رسول الله ﷺ الصفوف ، ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه فيه أبو بكر ، ليس معه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر» ويقول فيما يقوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»[1] .

هذه كانت عُدَّة الأنبياء عليهم السلام ، وقوتهم ، ومفتاح دعوتهم ، فقد امتازت دعوتهم بتقديم الدعاء ، والاهتمام به ، والابتهال فيه ، وليس الدعاء إلا رمزاً للإنابة إلى الله ، والاعتماد عليه ، والاعتزاز به ، فامتازت دعوتهم وجهادهم في سبيلها بطابعهما الروحي والإيماني ، وقد روي: أنَّه كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وقال الله تعالى : ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥] ولا شك أنَّ مهمة الدعوة أعظم من أن يضطلع بها الإنسان بقوته الجسدية ، وعدّته المادية ، وكفاءته العلمية والعقلية ، لا يستقلُّ بها إلا بالقوة الروحية ، ونصر الله ، ومعونته ، وإنَّ هذه الصخور

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٧٩ .

العظيمة ، بل الأطواد الشامخة التي تقف في سبيل الدعوة ، وتهجم على رؤوس الدعاة ، وتصطدم بجهودهم ، لا تذوب إلا بنصر الله الذي يُستنزل بالدعاء ، والالتجاء إليه.

٢ ـ امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجردها من التفكير في المنافع المادية والثمرات العاجلة ، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم وجهادهم إلا وجه الله ، وامتثال أوامره ، وتأدية رسالته ، تجردت عقولهم وأفكارهم من العمل للدنيا ، ونيل الجاه ، وكسب القوة لأسرتهم أو أتباعهم ، والحصول على الحكومة ، حتى لم يخطر ذلك ببال أصحابهم وأتباعهم ، وكانت هذه الحكومة التي قامت لهم في وقتها ، والقوة التي حصلت لهم في دورها ، لم تكن إلا جائزة من الله ، ووسيلة للوصول إلى أهداف الدين ، وتنفيذ أحكامه ، وتغيير المجتمع ، وتوجيه الحياة ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١] ولم تكن هذه الحكومة قطُّ غايةً من غاياتهم ، أو هدفاً من أهدافهم ، أو حديثاً من أحاديثهم ، أو حلماً من أحلامهم ، إنما كانت نتيجةً طبعية للدعوة والجهاد ، كالثمرة التي هي نتيجة طبعية لنمو الشجرة ، وقوة إثمارها ، وقد قال كاتب هذه السطور في رسالته: (بين الجباية والهداية) ما يحسن نقله هنا:

«بُعث محمد ﷺ ، فدعا الناس إلى الإسلام ، فالتف حوله ﴿ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥] وكان هؤلاء الفتيان هدفَ كلِّ قسوة ، وظلم ، واضطهاد ، وبلاء ، وعذاب ، وقد قيل لهم من قبل: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣] فصمدوا لكل ما وقع لهم وثبتوا كالجبال ، وقالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٢٢] حتى أذن الله في الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشقُّ طريقها ، وتؤتي أكلها

حتى قضى الله أن يحكم رجالها في العالم ، ويقيموا القسط ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، فقد عرف أنهم إذا تولوا وسادوا ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج : ٤١].

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة ، كما تأتي الأمطار بالخصب والزرع ، وكما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرةً من ثمرات هذه الدعوة الإسلامية ، ولم تكن هذه العزَّة والقوة إلا نتيجةَ ذلك العذاب الذي تحمَّلوه من قريش وغيرهم ، وذلك الهوان الذي لقوه في مكة وغيرها.

وفرق كبير ـ أيها السادة ـ بين الغاية التي تقصد والنتيجة التي تظهر ، ويظهر هذا الفرق في نفسية العامل ، والساعي ، فالذي يقصد الحكومة يتوانى ، ويقعد إذا لم ينلها ، أو انقطع أمله فيها ، ويشتغل بها عن الدعوة ، ويطغى إذا نالها ، وخطرٌ على كلِّ جماعة تتكون عقليتها بحب الحكومة ، والسعي لها أن تقعد عن الجهاد في سبيل الدعوة ، أو تنحرف ، وتزيغ في قصدها ، لأنَّ أساليب الوصول إلى الحكومة تخالف أساليب الدعوة.

فيجب علينا أن ننقيَ عقولنا ونفوسنا ، ونجردها للدعوة ، وللدعوة فحسب ، والخدمة ، والتضحية ، والإيثار ، وإخراج الناس بإذن الله من الظلمات إلى النور ومن الجاهلية إلى الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان المحرفة ، والنظم الجائرة ، والمذاهب الغاشمة إلى عدل الإسلام وظله ، ولا يكون دافعنا إلى العمل والجهاد إلا امتثال أمر الله ، والفوز في الآخرة ، وما أعدَّ الله لعباده من الأجر والثواب ، ثم الشفقة على الخلق والرحمة بالإنسانية المعذبة ، والحرص على نجاة الإنسان ، فإذا كان ذلك لا يمكن في مرحلة من مراحل الدعوة ، أو في فترة من فترات التاريخ ـ بعد تغلغل مبادىء الدعوة في نفوس الدعاة ، ورسوخ العقيدة فيهم ـ إلا بالحكومة ، سعينا لها لمصلحة الدعوة والدين ، كما نسعى إلى الماء للوضوء ، ونجتهد لهذا السبب بنفس العقلية ، وبنفس السيرة ،

وبنفس العفة والنزاهة ، والصدق ، والأمانة ، والخشوع ، والتجرد الذي نجتهد معه لواجبات الدين وأركانه والعبادات الأخرى ، فلا فرق للمؤمن بين الحكومة وبين العبادات إذا حصل الإخلاص ، وصحت النية ، فكلٌّ في رضا الله ، وكلٌّ في سبيل الله ، وكلٌّ عبادةٌ يتقرب بها العبد إلى الله .

٣ ـ ومما امتازت به حياة الأنبياء عليهم السلام وسيرتُهم النبوية المثابرةُ على الدعوة ، والصبر عليها ، فلا يتخطون هذه المرحلة التي هي الأساس بسرعة وعجلة ، ولا يطفرون منها طفراً إلى مرحلةٍ أخرى ، بل يقضون فيها سنين طوالاً ، ولا يشتغلون بغيرها ، ولا يطمئنون إلى أن المجتمع قد عقل دعوتهم ، واستساغها ، ولا إلى الدعاة أنهم قد بلَّغوا رسالتهم ، وأدوا مهمتهم ، وإلى النفوس أنها قبلت هذه الدعوة وهضمتها هضماً صحيحاً وأحلتها منها محلاًّ لائقاً ، وأنست النفوس باتباع الأحكام ، وانقاد لها جماحها ، ولانت لها قناتها ، لا يطمئنون إلى كلِّ هذا حتى يتحققوه ويختبروه مرَّةً بعد مرَّة ، فلا يخدعون عن أنفسهم، ولا تغرُّهم بهرجةُ الكلام ، فيكون نتيجة هذه التربية المتينة والدعوة الطويلة أنها تؤتي أكلها ناضجةً شهية ، ولا تخدج الدعوة نتاجها ، فإذا قامت الحكومة قامت على أساس متين من الأخلاق ، وعلى أكتاف رجالٍ أقوياء: أقوياء في عقيدتهم ، أقوياء في سيرتهم ، أقوياء في خلقهم ، أقوياء في عبادتهم ، أقوياء في سياستهم ، لا يندفعون مع التيار ، ولا تجرف بهم المدنية ، ولا يلعب بعقولهم الغنى بعد الفقر ، واليسر بعد العسر ، والقوة بعد الضعف ، ولا تميل بهم المحسوبيات والأرحام والصداقات ، ولا تستهويهم المطامع والمنافع ، هكذا كان شأن الخلافة الراشدة ، وهذه كانت سيرة الخلفاء الراشدين» .

وهنا أنقل مرة ثانية ما قلته في رسالتي (بين الجباية والهداية):

«تأسست دولة الإسلام ، وفتحت فارس وبلاد الروم والشام ، ونقلت إلى عاصمة الإسلام ـ المدينة المنورة ـ كنوز كسرى وقيصر ، وانصبَّت عليها خيرات المملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين ، وطُرفها ، وزخارفها ما لم يدرْ قطُّ بخلدهم ، وقد انقضى على

إسلامهم ربع قرن وهم في شدة وجهد من العيش ، وفي جشوبة المطعم ، وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام إلا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس إلا ما يقيهم من البرد والحر ، فإذا بهم اليوم يتحكَّمون في أموال الأباطرة والأكاسرة ، ولو أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرى ، وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت والله هذه محنة عظيمة تزول فيها الجبال الراسيات ، وتطير لها القلوب من جوانحها ، وتعمش العيون ، ولكنهم سرعان ما فطنوا أنَّهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل إنهم خيروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم وإمامتهم ومبادئهم وينفضوا منها يدهم فلا يطمعوا فيها أبداً ، وبين أن يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية ، وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين ، وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين.

كان لهم أن يؤسسوا ملكاً عربياً عظيماً على أنقاض الدولة الرومية والفارسية ، وينعموا كما نعم ملوكها وأمراؤها من قبل ، فقد ورثوا الإمبراطوريتين: الفارسية ، والرومية ، وجمعوا بين موارد دولتين ، فإذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط ، وإذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفه بموارد الإمبراطوريتين ، ويبذخ بذخاً لم يبذخه أحدهما.

كان له ولأصحابه كلُّ ذلك بكل سهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] وكأنهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته: «لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتهلككم كما أهلكتهم» فهتفوا عن آخرهم قائلين: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة».

وهكذا حافظوا على روح الدعوة الإسلامية ، وسيرة الأنبياء والمرسلين ، وعاشوا في الحكومة كرجال الدعوة ، وفي الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا أنفسهم في هذا التيار الجارف الذي سال قبلهم

بالمدنيات ، والحكومات ، والشعوب ، والأمم ، وسال بالمبادىء ، والأخلاق ، والعلوم ، والحكم.

ما زال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ، و وصولهم إلى الشط الثاني ـ من غير أن يصابوا في نفسٍ ، أو مالٍ ، أو متاع ـ حادثاً غريباً من أغرب ما وقع في التاريخ ، إنَّ الحادث لغريب ، ولكن أشد منه غرابة وأدعى للعجب : أنَّ المسلمين في عهد الخلافة الراشدة وعصر الفتوح الإسلامية الأولى ، خاضوا في بحر مدنية الروم وفارس وهو هائج مائج ، وعبروه ، ولم يفقدوا شيئاً من أخلاقهم ، ومبادئهم ، وعاداتهم ، ووصلوا إلى الشط الثاني ولم تبتل ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون وأمراء الدولة الإسلامية من أصحاب النبي ﷺ محتفظين بروحهم ، ونفسيتهم ، وزهدهم ، وبساطتهم في المعيشة ، وتخشنهم في أوج الفتوح الإسلامية»[1].

٤ ـ ومن مزايا الأنبياء والدعاة إلى الله التجرُّد للدعوة ، والتفرغ لها بالقلب والقالب والنفس والنفيس والوقت والقوة ، فمن شأنهم أنهم يركزون جهودهم ، ومواهبهم ، ويوفرون أوقاتهم ، وقواهم لهذه الدعوة ونشرها ، والجهاد في سبيلها ، ويعطونها كلهم ، ولا يضنُّون عليها بشيءٍ مما عندهم ، ولا يحتفظون بشيءٍ ، ولا يؤثرون عليها شيئاً ، لا وطناً ، ولا أهلاً ، ولا عشيرةً ، ولا هوىً ، ولا مالاً ، ثم تثمر جهودهم ، وقد لا تثمر في الدنيا ، وقد تثمر بعد حياتهم ، فهذا هو النبي ﷺ يخاطب بقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٤٦] وإذا كان هذا شأن الدعوة بعد ما أعطاها الأنبياءُ كلَّ ما عندهم ، فكيف بها إذا أعطيناها بعض ما عندنا؟! وكانت الدعوة تملك عليهم عقولهم ، ومشاعرهم ، وتملك عليهم تفكيرهم ، وصحتهم ، فما زال القرآن يسلي النبيَّ ﷺ ويقول له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦].

---

(١) رسالة «بين الجباية والهداية» ص٧ ـ ٨ ـ ٩ .

٥ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السلام ومن كان على طريقهم في الدعوة إلى الله: أنَّ هذه الدعوة إلى الله وإلى الدار الآخرة تسري في حياتهم كما يسري الماء في عروق الشجر ، والكهرباء في الأسلاك ، وتظهر في أخلاقهم وعباداتهم ، فترق قلوبُهم ، وتخشع نفوسُهم ، وتزداد رغبتُهم في العبادة ، ويشتدُّ اهتمامهم بها ، وحرصُهم عليها ، وإيفاؤهم لحقوقها ، فعن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبيُّ ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(١) .
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام النبيُّ ﷺ بآية من القرآن ليلة ، والآية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٢) [المائدة: ١١٨] وانتقلت هذه اللذة بالعبادة والاهتمام بها إلى الصحابة رضي الله عنهم في أشدِّ الأوقات شغلاً ، وأقلقها خاطراً ، حتى كان أعداؤهم يعرفون ذلك عنهم ، وقد وصفهم رجل من الروم بقوله: «هم فرسان بالنهار ، رهبان بالليل» ويقول قائل: «لو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر».

٦ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السلام ومن كان على قدمهم: أنَّهم يأخذون بالعزيمة في الدين ، ولا يأخذون بالرخصة ـ إلا بياناً للحكم الشرعي ، وشكراً لنعمة الله ، ورفعاً للحرج عن الأمة ـ ولا يعفون أنفسهم ، ولا يتساهلون في العبادات ، لأنَّ اتباع الناس للدين وعملهم به بمقدار تصلب هؤلاء السادة في الدين ، وتمسكهم به ، فإذا اهتم هؤلاء بالنوافل اهتم الناس بالفرائض ، وإذا اكتفى القادة بالفرائض استرسل الناس إلى تركها والاستهانة بحقها ، لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم وقادة هذه الأمة يشمرون عن ساق الجد في العبادات والمحافظة على الجماعات ، والعمل بالسنن الدقيقة ، والاهتمام بالآداب ، ولا يكتفون بالأدنى ، ولا يقفون عند الفريضة ، وبذلك استطاعوا أن يورثوا الدين هذا

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه الترمذي .

الجيل موفوراً غير منقوص ، وهو أمانة عند هذا الجيل فلينظر كيف يورثه الأجيال الآتية!

٧ ـ ومما يمتاز به الأنبياء والمرسلون عن الحكماء والمؤلفين والعلماء المحققين: أنَّهم يعنون بتربية النفوس والأشخاص الذين يضطلعون بأعباء الدعوة بعدهم ، وينفذون تعاليمهم ورسالاتهم علماً وعملاً ، ومعلوم أنَّ دعوتهم العظمى لا تقوم إلا على أكتاف الأصحاء الأقوياء الحنفاء المخلصين في إيمانهم ، والمخلصين في تفكيرهم ، والمخلصين في نياتهم ، الذين قد تنقت رؤوسهم وصدورهم من ألواث الجاهلية ، والذين هضموا الإسلام هضماً صحيحاً ، وانقطعت كلُّ صلةٍ في حياتهم عن الجاهلية بأوسع معانيها ، وخُلقوا في الإسلام خلقاً جديداً.

ونرى ذلك واضحاً في حياة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، فلما كان بنو إسرائيل قد نشؤوا في حياة العبودية ، والذل ، والاضطهاد ، والسخرة الظالمة ، وماتت رجولتهم ، وإباؤهم ، ومردوا على الخنوع ، والاستكانة ، والخضوع للقوي الغالب ، وعلى الجبن ، والحرص الشديد على الحياة ، والخوف الشديد من الموت ، وأسبابه ، حتى لما قال لهم نبيُّهم: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة: ٢١ ـ ٢٢] ولم يشجعهم على التقدم والقتال قول موسى عليه السلام ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٢١] مع أنه كان ضماناً لانتصارهم ، وأخيراً قالوا بكل صراحة ووقاحة: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] فظهر أنَّ نشأتهم الأولى تأبى عليهم أن يخوضوا في معركة ، ويدخلوا في امتحان ، ويعرضوا أنفسهم للخطر ، وقطع موسى من هذا الجيل الفاسد الرجاء ، وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥] هنالك أمره الله بالاعتزال مع قومه ـ لا عن قومه ـ في بيداء سيناء ، حيث الشظف وخشونة الحياة ، وهنالك ينقرض هذا الجيل الفاسد الذي شبَّ على الجبن

والضعف ، وشاب عليه ، وينشأ الأولاد والشباب الإسرائيلي ـ الذين لا يزالون في مقتبل العمر ـ على التخشن ، والجلادة ، وتحمل شدائد الحياة ومكارهها ، وينشأ جيلٌ جديد يولد في هذه العزلة والبداوة على معاني الرجولة والفروسية ، وهكذا تتكون أمة جديدة تقوم بدعوة النبيِّ ، وتطبيق تعاليمه ومبادئه ، وتجاهد في سبيلها .

وذلك أيها السادة معنى بليغ من معاني الهجرة النبوية ، فقد استطاع سيد الأنبياء ، وسيد الدعاة إلى الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بانتقاله مع أصحابه من ضيق مكة إلى سعة المدينة وحريتها ، أن يكمل تربية أصحابه ، وأن ينشىء الجيل الإسلامي الجديد ، الذي لم يلبث أن اضطلع بأعباء الدعوة المحمدية ، ومثَّل الإسلام تمثيلاً كاملاً .

كذلك الدعوة الإسلامية التي تكفلتم بها ، والجهاد الذي أخذتموه على عواتقكم يفرض عليكم ـ أيها السادة ـ إنشاء جيلٍ جديد للإسلام : جديدٍ في قوة إيمانه ، جديدٍ في حماسته ، وثقته ، جديدٍ في أخلاقه ، جديدٍ في تفكيره وعقليته ، جديدٍ في كفاءته العلمية ، واستعداده العقلي ، وإن نجاحكم في هذا الإنتاج البشري مقياس نجاحكم في مهمتكم ودعوتكم ، فكلما كان نجاحكم كبيراً في إيجاد هذا الجيل ، وتكوين هذا الشباب ؛ كان نجاحكم باهراً في دعوتكم ورسالتكم ، ومعلوم عند حضراتكم : أنَّ إنشاء الجيل الجديد ، أو تقويم الجيل المعاصر ـ الذي لم يفقد صلاحيته ونموه ـ ليس بالأمر الهيِّن ، إنَّها مهمة لتنوء بالعصبة أولي القوة ، إنها تحتاج إلى تكريس الجهود ، وتركيز القوى على هذه الغاية ، والتفكير العميق الواسع ، والتعاون الشامل ، والتصميم الحكيم ، إنها تطلب أساليب التربية الحكيمة العميقة الأثر ، وجهوداً عملية في ميدان الدعوة والإصلاح ، إنها تطلب حركة التأليف والإنتاج الواسعة ، ومقداراً كبيراً من الابتكار ، إنها تطلب وضع منهاجٍ جديدٍ على أساسٍ جديدٍ للدراسات ، ومثالاً جديداً من المدارس والكلياتِ والجامعات ، ومؤلفاتٍ ، ومنشوراتٍ جديدةً في شرح الدين الإسلامي ، وعرض الفكرة الإسلامية ، وتأليفاتٍ جديدةً في السيرة النبوية ، وتدويناً جديداً للتاريخ الإسلامي ، وسبكاً جديداً للعلوم

الإسلامية ، وتفسيراً جديداً للعلوم الكونية ، وتلقيحاً علمياً جديد ، وطرازاً جديداً للصحافة والأدب والروايات والشعر . إنكم أيها السادة أمام أنقاضٍ عقلية ، وركامٍ بشري ، وخاماتٍ مهملة تبنون بها بيتاً جديداً ، وتصنعون بها سفينةً جديدةً تمخر عباب الحوادث والموانع! إنكم ستبدؤون في عملٍ جديد ، وجهادٍ جديد يستغرق منكم وقتاً طويلاً ، ويستنفد جهوداً عظيمة ، وذلك وإن كان عملاً شاقاً ، طويلاً ، متعباً ، مملاًّ ، متشعباً ، ولكن لا بدَّ من إنجاز هذا العمل ، ومن مواجهة هذه الحقيقة ، والتغلب على العقبات التي تعترض في سبيلها .

هذه مزايا الدعوة النبوية أيها السادة! ومزايا الدعوة التي تكون على قدم النبوة وواجباتها ، وبذلك تمتاز دعوتكم عن الحركات القومية ، والإصلاحات الاجتماعية ، والثورات السياسية ، والاقتصادية ، ومن هذه المنابع تستمد دعوتكم القوة والروح ، وتستحقُّ من الله النصر ، وتجلب الرحمة ، فلنحافظ عليها محافظتنا على الشعائر والعقيدة ، ولنحرص عليها حرصنا على الحياة والقوة .

عندكم ـ أيها السادة ـ ثروةٌ ضخمة من الصدق ، والإيمان ، والحبِّ ، والإخلاص ليست عند الدول الكبيرة والأمم العظيمة ، وعندكم أمانةٌ مقدَّسة جداً ، أمانة القلوب التي تجتمع على حبكم ، وتدين بولائكم ، وتثق بقيادتكم ، هذه الأمانة التي خلفها لكم الإمام الراحل فأحسنوا القيام عليها ، واخلفوه فيها .

إنَّ نكبة الدعوة بفقد داعيها الأول ومؤسسها العظيم كانت من غير شك نكبةً عظيمةً ، وخسارةً فادحةً ، ولكن كلُّ نكبةٍ أيسر ، وكل خسارةٍ أهونُ من وفاة رسول الله ﷺ ، وقد أصيب بها المسلمون بما لم يصب به جماعةٌ ، أو فرد؛ لشدة تعلق قلوبهم برسولهم ﷺ ، واجتمعت لهم يومئذٍ مصائب لم تجتمع قبل ، ولن تجتمع بعد ، فلننظر كيف تلقاها الصحابة رضي الله تعالى عنهم!

لقد أعدَّ الله سبحانه وتعالى لهذه المرحلة القاسية والمحنة الشديدة

الصحابة رضي الله تعالى عنهم من قبل سنين ، فلما طار في الناس يومَ أحد : أنَّ رسول الله ﷺ قد قُتل ، سُقِط في أيديهم ، وفقد كثيرٌ منهم شعورَهم ، وخذلتهم قواهم ، ولم يستطيعوا أن يتحملوا هذه الصدمة ، ثم تحقق أنَّ الشائعة كانت غير صحيحة ، ورسول الله ﷺ حيٌّ ، فانتعشت قواهم ، ولكن الله تعالى قد أعدَّهم في ذلك الوقت ليتلقوا نبأ وفاة الرسول ﷺ في صبرٍ وجلد ، وربطهم بالدعوة ، وذكر أنَّ الداعي تجري عليه سنة الله في خلقه ، فيرحل عن هذا العالم كما رحل من قبله من المرسلين ، فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

وكان ذلك ، فلما حدث برسول الله ﷺ حادث الوفاة تماسك المسلمون وعلى رأسهم خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ، فما وهنوا ، وما استكانوا ، ولم ينقلبوا على أعقابهم ، ولم يخذلوا الإسلام ، ولم يخذلوا الدعوة ، واجتمعت على الإسلام محنٌ وخطوبٌ لم تجتمع من قبل ، ولن تجتمع من بعد ، فقد ارتدَّت العرب إمَّا عامة وإمَّا خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ ، وقلتهم ، وكثرة عدوهم»(١) .

ولم يكن مسجد لله تعالى في بسيط الأرض إلا ثلاثة مساجد : مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس في البحرين في قرية جواثى ، وكثر المتنبئون ، ومنع الناس الزكاة ، وقصد المرتدون المدينة ، وسرح أبو بكر في هذه الحال جيش أسامة إلى الشام تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ ورغبته ، وكلَّمه في ذلك عمر وكبار الصحابة ، وأرادوا أن يمنعوه من ذلك ، فلم يمتنع ، وقال : «لو ظننت أنَّ السِّباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته»(٢) .

(١) رواه الطبري في التاريخ عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه .

(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير .

استحضروا أيها الإخوان هول الموقف وغربة الإسلام ، وضعف المسلمين ، فقد أشرفت الدعوة الإسلامية على أثر وفاة نبيها ﷺ على الانقراض ، واجتمع للمسلمين حادثان ، حادث وفاة الرسول ﷺ ، وحادث ارتداد أمتهم ، وقومهم ، ولكنَّ ذلك بالعكس أثار فيهم روح المقاومة والجهاد ، وألهب غيرتهم ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : «أينقص الدين وأنا حي» وأبى المسلمون أن يستسلموا لهذه الحوادث ، ويخذلوا الدعوة ، فلم يحافظوا على وضع الإسلام وتراثه فقط ، بل فتحوا فارس والروم ، الإمبراطوريتين اللتين كانتا تحكمان العالم ، وأضافوهما إلى ثروة الإسلام ، جزاهم الله عن نبيه ودعوته وعن المسلمين خير ما جزى خلفاء الأنبياء وقادة الدعوة الإسلامية الأمناء الأقوياء.

وفي الأخير تفضلوا بقبول تحيةٍ صادقةٍ من محبٍّ مخلص ، تجمعه بكم وحدة العقيدة الإسلامية وجامعة الفكرة الدينية ، على بعد الدار ومن وراء البحار ، ويتمنى لكم ولكلِّ داعٍ مخلصٍ ، ومجاهدٍ صادقٍ السداد والتوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الحاجة إلى الإصلاح والتجديد

طلبت كلية الشريعة في الجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) من العلامة الندوي إلقاء محاضرات على طلابها في موضوع ديني علمي ، وأجاب العلامة إلى رغبتها ، فسافر إلى دمشق في شعبان سنة ١٣٧٥ هـ ، (الموافق أيار سنة ١٩٥٦ م)، واختار عنوان محاضرته الأولى بـ «الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد واتصالهما في تاريخ الإسلام» ، وكانت له محاضرات أمام طلاب الجامعة غير هذه المحاضرة فقد طُبعت في كتاب مستقل بعنوان «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد واتصالُهما في تاريخ الإسلام

الحيـاة متحركـة ومتطـورة:

سادتي وإخواني: من الحقائق الأولية أن الحياةَ متحركةٌ ومتطورةٌ، دائمةُ الشباب، مستمرةُ النّمو، تنتقل من طورٍ إلى طور، ومن لونٍ إلى لون، لا تعرف الوقوف ولا الركود، ولا تُصاب بالهَرم والتعطل، فلا يُسايرها في رحلتها الطويلة المتواصلة إلا دينٌ حافلٌ بالحركة والنشاط، لا يتخلّفُ عن ركب الحياة، ولا يَعجزُ عن مسايرتهِ وزمالته، ولا تقصُر عنه خطواته، ولا تنفُد حيويتُه ونشاطه.

وذلك شأن الإسلام، فإنه ـ وإن كان مؤسّساً على عقائدَ ثابتةٍ وحقائق خالدةٍ ـ زاخراً بالحياة، حافلاً بالنشاط، له من الحيوية معين لا ينضُب، ومادة لا تنفد، صالحاً لكل زمان ومكان، وعندَه لكل طورٍ جديدٍ من أطوار الحياة ولكل جديدٍ من أجيال البشرية، ولكل عهد مستأنَفٍ من عهود

التاريخ ، ولكل مجتمع عصري من مجتمعات البشر ، مددٌ لا يقصُر عن الحاجة ، ولا يتأخر عن الأوان.

إن الإسلام بخلاف ما يعتقدهُ كثيرٌ منِ المسلمين ، وبعكس ما يُصوِّره أكثرُ المُستشرقين والمؤرّخين الغربيين ـ ليس حضارَة عهدٍ خاص ، ولا فنَّ فترةٍ من فترات التاريخ ، يمثله آثار العهد ومبانيه ، يعيش في الأحجار والرسوم والصور لا في واقع الحياة ، وقد فقد صلاحيته للحياة وأدى رسالته ، كالذي يتحدث عن الحضارةِ اليونانية والرومية ، أو الفن التركي والمغولي.

إنه دينٌ حيّ ورسالةٌ خالدة ، إنه حيٌّ كالحياة نفسها ، وخالدٌ كخلود الحقائق الطبيعية ونواميس الحياة ، إنه تقدير العزيز العليم وصنعُ الله الذي أتقن كل شيء ، وقد ظهر في شكله النهائي وطوره الكامل وأعلن يوم عرفة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فهو يجمع بين الكمال الذي لا انتظار بعده لدينٍ آخر ، ولا حاجةَ معه إلى رسالةٍ جديدة ، وبين الحيوية التي لا نفاد لها ، والنشاطِ الذي لا آخر له ، ولذلك استطاع أن يُساير الحياة ويراقبها في وقتٍ واحد ، ويُتابعَها في صلاحها واستقامتها ، ويُنكر عليها في انحرافها وزيغها ، فلا هو مسايرٌ مائع ككثير من الأديان المحرَّفة ، ولا هو مراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية ، وذلك مَثَلُ الدّين الكامل ، ومَثَلُ الدّين الحيّ للإنسان الحيِّ الذي يشعر بشعوره ، ويعترف بحاجاته ، ويرشده في مشاكله ، ويعارضه في اتجاهاته الفاسدة.

عَهد الأمة الإسلامية أكثرُ العهود تَقلُّباتٍ ومشاكل:

ولمّا كان الدين الإسلامي هو الدين الأخير والدِّين العالمي ، ولما كانت الأمة الإسلامية هي الأمّة الأخيرة التي اختيرت لتبليغ الرسالة السماوية إلى أهل الأرض «إنه لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم». وكُتب لها الخلود والانتشار في الآفاق ، كانَ من الطبيعي أن تمر في رحلتها الطويلة الواسعة بمراحل عصيبة ، ومواقف دقيقة لا عهد للتاريخ بها ،وتُبتلى بعصورٍ وأجيال لم

تعرفها أمةٌ قبلها ، وأن تواجه صراعاً في ميدان العقول ، والعلم ، والحضارة والاجتماع والتشريع ، لم تواجهها أمةٌ في التاريخ ، ولذلك نرى أن الفترة التي منحت هذه الأمة لتوجيه الأمم والوصاية على العالم هي أكثر الفترات التاريخية تقلباً وتطوراً ، وأكثرها تنوعاً واختلافاً ، ينشأ فيها من المشاكل والمسائل الدقيقة ما لم يخطر من أمةٍ على بال ، ولم يحلم به جيلٌ من الأجيال ، ويمتحن الذكاء وقوة التشريع والثبات على المبدأ والمحافظة على الروح ، والصلاحية للحياة ، فالأمة التي تتغلب على هذه المشاكل كلّها ، وتخرج من هذه المعارك ظافرةً منتصرةً ، هي أمةٌ جديرة بالحياة ، صالحةٌ للقيادة ، ولا يُمكن لقوة سياسية أو غارة خارجية أن تقضي على كيانها ، وتمحوها من الوجود.

كيف استطاعت الأمـة أن تُقاوم تغيراتِ الزمانِ والمكـان:

ولكم أن تتساءلوا كيف استطاعت الأُمّة أن تُقاومَ المؤثرات الخارجية العنيفة والتقلبات التي لا تكاد تنتهي ، واختلافَ الزمان والمكان ، وقد كان بَعْضُه يكفي للقضاء على ديانة قوية قديمةٍ ، أو تحريفها على الأقل كما وقع مراراً في تاريخ الأديان؟

والجواب؛ أنها استطاعت ذلك بقوتين:

القوة الأولى: هي الحيوية الكامنة في وضع الإسلام نفسِه ، وصلاحيته للحياة والإرشاد في كل بيئةٍ وفي كل محيطٍ ، وفي كل عَهدٍ من عهودِ التاريخ ، فقدَ خَصَّ اللهُ محمداً ﷺ برسالةٍ وتعاليم كاملة للإنسان صالحة لكلِّ زمان ومكـان ، تستطيع أن تُواجه ما يتجدَّد من الشؤون وأطوار الحياة ، وتحلَّ كلَّ ما يعتري من المشكلات والمعضلات ، والدراسةُ العميقة الشاملة للقرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح ومصـادر الإسـلام ،كافلـةٌ بالاقتنـاع بما أقـول ، ولكنـه موضوع الفقـه الإسلامي والنُّـظُم الإسلامية.

والقوة الثانية: هو أن الله قد تكفَّل بأن يمنح هذه الأمة التي قضى ببقائها

وخلودها رجالاً أحياءَ أقوياء في كل عصر ، يَنقُلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة ، ويُعيدون إلى هذه الأمة الشباب والنشاط ، إن هذا الدين نفسه هو من أقوى العوامل في وجود هؤلاء الأشخاص في كل عصرٍ ومصر ، لأن يُثيرَ في دارسيه كوامن القوة ، ويبعث فيهم الثورة والتمرُّد على الأوضاع الفاسدة ، والمجتمع الزائغ والأخلاق المنحلّة ، والسياسة المستبدة ، والحكم الجائر ، والتَّرف المسرف ، ويَفْرِضَ عليهم إنكار المُنكر ، وكلمةَ حقٍّ عند سلطان جائر ، ويُحرِّمَ عليهم الاستنامة إلى الأوضاع الفاسدة ، والرضا بالحياة الدنيا ، وَبيعَ الضمائر ، ويَهَبَهُم كذلك الأصول والنصوص المتينةَ الحكيمة التي يَحلّون في ضوئها المشاكل الطريفةَ ، والمسائلَ المعقدة ، لذلك نرى أن هذه الأمة لم تَعْدَم في عصر من عصورها مُجدِّدين في الدين ، وأئمةً في العلم ، وعماليقَ في الفكر ، وأبطالاً في الجهاد ، وأعلاماً في الإصلاح ، لا يوجد نظيرهم ـ لا في الكمية ولا في الكيفية ـ في أُمةٍ من الأمم ، ولم يكن ذلك من المصادفات والاتفاقات ـ وأنا لا اؤمن بالمصادفات في صنع الله وسَيْرِ الكون ـ إنَّما هو طبيعةُ هذا الدين ، وقدرتُه العجيبة على الإنتاج والتوليد ، وطبيعةُ هذه الأمة وصلاحيتُها للبعْثِ الجديد ، وإنما هو لُطفُ الله بهذه الأُمة بل بالإنسانية ، إذ لو ضاعتْ هذه الأمة لضاعتْ أمانة السماء ، ولضاعت أمانة الإنسانية ، وإنما هي حراستُه الكريمة وخفارتُه القوية لهذا الدين الذي فُرِض عليه أن يرافق الحياة إلى آخر مرحلة من مراحلها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩].

هَجَماتٌ على الإسلام :

وقد كان الإسلام من أوَّلِ عهده هدفاً لهجماتٍ عنيفةٍ قاسية لا تحتملُها ديانةٌ من الديانات ، هجماتٍ على قلبه وأعصابه لا تعرف الهوادة ولا الرِّفق ، ولا تَرضَى إلاّ بالفناء ، إنَّ الديانات التي فَتحتْ في عصرها الدُّنيا، وأخضعت الأمم والحضارات قد ذابت وتحلَّلتْ أمام هجماتٍ أضعف منها بكثير ، وفقدت شخصيها وكيانها ، ولكنَّ الإسلام بالعكس من

ذلك ردَّ هذه الهجمات كلّها على أعقابها وكسرَها ، وظل محافظاً على قُوته وشخصيته ، وعلى مزاياه وروحِه .

قد كانتِ الفرق الغالية خطراً على روح الإسلام النقية ، وعقائدِه الصافية الواضحة تتهدَّد وضع الإسلام الحقيقي ، وكذلك كانت الغارةُ الصليبية ، ثم هجومُ التتار ـ ذلك الجرادُ المنتشر ـ صاعقةً نزلت على الإسلام والأمةِ الإسلامية ، وكانت جديرةً بأن تقضي على الإسلام وتُقصيهِ من مِيدانِ الحياة ومصافِّ الأمم الحية ، فلو كان غير الإسلام من الديانات للفَظَ نفسَه الأخير ، وأصبحَ أُسطورة من الأساطير .

ولكن الإسلام تحمّل كل هذه الصدمات وكل هذه الصواعق ، واستطاع أن يعيش رغم كل ذلك ، ولم يكن أنه عاش وبقي يلعب دوره ، بل إنه شقَّ طريقه إلى الأمام ، وفتح فتوحاً جديدة في ميدان العلم والعقلِ والسياسة .

وقد مُنِيَ الإسلام في سَيره الطويل بمؤثرات وثورات ومقاومات داخلية وخارجية ، فقد كان مراراً عُرضة لتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المُبطلين ، ودخلتْ فيه البِدع والأفكار العجمية وتسرب إليه الشِّرك والجاهلية عن طريق الأمم التي كانت تُسْلِمُ ، وعن طريق التقليد والجهل ، وفشَتْ فيه الأعمال والتقاليد الجاهلية ، ثم امْتُحِنَ ـ منذ العهد الأموي ـ بمادية جارفة ، وترفٍ فاحش ، وعبادة البُطون والشهوات ، ثم ابتُلي ـ من العهد العباسي ـ بالإلحادِ والزندقة ، والفلسفات العجمية ، إلى غير ذلك مما يحويه تاريخ الإسلام الدينيُّ والعقليُّ ، وقد كانتْ هذه الهجماتُ شديدةً ودقيقةً؛ حتى أصبح كثيرٌ من الناس يَشُكُّون في قدرة الإسلام على مقاومة هذه الهجمات ، وأصبح بعضُهم يتوقع نهاية الإسلام بصفته ديناً من الأديان ، ونهايةَ الأمة الإسلامية بصفتها أمةً ذاتَ عقيدةٍ ورسالة .

ولكنَّ الإسلامَ أبى أن يستسلم لهذه الهجمات ، وأن يخضعَ ويستكينَ لأعدائه ، وأَبَتْ رُوح الإسلام أن تنهزمَ ، وأبى ضميرُ الأمة المسلمة أن

يُصالح هذه الفتن ، وأن يتفاهم مع أعداء الإسلام والمتآمرين ضدَّهُ ، وأن يتنازل عن بعض ثروته ، وقام في كل عهدٍ وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي رجالٌ فضحوا المحرِّفين والمتآمرين ، ورفعوا اللِّثام عن وجه الإسلام ، ونفضوا عنه غبار الجهل والضلالات ، وأنكروا على البدع والخرافات والأفكار العجمية ، ودافعوا عن السُّنة دفاعاً قوياً ، وردوا على العقائد الباطلة ، وشنُّوا الحربَ على الجاهلية وأعمالها وتقاليدها ، وحاربوا الماديةَ والتَّرف بكل قوة ، ونَعَوْا على المترفين في عصرهم ، وجهروا بالحق في وجوه السلاطين الجائرينَ والملوكِ المستبدين ، وحَدُّوا من سلطان العقل الذي قد طغى وتخطى الحدود ، ونفخوا في الإسلام روحاً جديدةً ، وخلقوا في المسلمين إيماناً جديداً وثقةً جديدةً ، وقد كان هؤلاء الأفراد نوابغ عصورهم ، عقليةً وعلماً وخُلقاً ، وكانوا أصحاب شخصية جذّابةٍ ، وكفاية فائقةٍ ، وكانت عندهم لكل فتنة وظلمة «يد بيضاء» تُبدِّدُ الظلماتِ وتُنير السبيل .

وقد وضح من وجود هؤلاء المصلحين المجدِّدين للدين الإسلامي باستمرار لا يُحْمَلُ على مجرد المصادفات ، أنَّ هذا هو الدين الذي اختاره الله لتوجيه العالم وإرشادِ الإنسانية ، وقضى بخُلوده وبقائه ، وأنَّ مهمة الهداية والإرشاد الجليلةِ التي كان الأنبياءُ يُبعثون لها في العصور الماضية قد أُلقيتْ على عاتق هذه الأمة التي تَخْلُفُ خاتم النبيين ﷺ في هذه المهمة ، وأنه لا يخلو زمان من الأزمان من خُلفائه ودُعاته .

نُـدْرَةُ شخصَيْـاتِ التجديـدِ في الأديـان الأُخـرى :

بالعكس من ذلك يَندُر في الديانات الأخرى شخصياتٌ عظيمةٌ تعيد إليها الحياةَ والشباب ، وتُوجد في أتباعها وأصحابِها الحركة والنشاط ، وتُـوجدُ فيهم الثقـة بأديانهم وعقائِدهـم ، وتنفُـض عنهم غُـبارَ القـرون الماضية ، ورُكامَ عصور الانحطاط .

إننا إذا استعرضنا تاريخ هذه الديانات رأينا فتراتٍ طويلة قد تمتدُّ على مئاتٍ وآلافٍ من السنين لم يظهر فيها من رجال الدين والإصلاح من يُجدِّد

هذا الدِّين ويُدِيلُه من أعدائه الذين تآمروا ضد رُوحه ونظامه ، وينقِّيه من شوائب البدع وألوانِ التَّحريف ، ويَعرضُه في صورته الصادقة ، ويدعو إلى أصل الدين وحقيقته دعوةً قوية سافرة ، ويُجرِّده من التقاليد والبدع التي لصقت به وهو منها براء ، ويحارب المادية والترفَ الذي ابتُليَ به أتباع هذا الدين ، ويُوجد بإيمانه القوي وبروحانيته الصادقة وبجهاده المتواصل روحاً جديدة في هذه الأمة ، وثقة جديدة بدينهم.

ونضرب لذلك مثلاً بالمسيحية ، فقد امُتحِنت في عهدها الباكر - يعني في منتصف القرن الأول المسيحي - بتطور لا يوجد له نظيرٌ في تاريخ الديانات في عهدها الأول ، فقد انتقلت من ديانة بسيطةٍ توحيدية إلى ديانة خاصة تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس Paul (١٠ ـ ٦٥م) وكان هذا الانتقال أشبهَ بقفزةٍ من رُوح إلى روح ، ومن وضع إلى وضع ، ومن نظام إلى نظام ، لا يشارك الثاني الأول إلا في الاسم وبعض الطُقوس ، ويتحدث عنه عالم مسيحي Ernest de bunsen فيقول:

«إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس الذي دعا إليه السيِّدُ المسيح بقوله وعمله ، إن مَردَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليومَ وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ، وشَرحِه للصُّحف المقدسة على طريقة التجسيم Essenie والتمثيل ، ومَلئِه هذه الصحفَ بالنُّبوءات والأمثلة ، إن بولس في تقليده لإسطفانوس Stephen داعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليدَ البوذية ، إنه واضعُ ذلك المزيج ، من الأحاديث والقصص المختلفة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم ، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً ، ليس المسيحُ ، بل بولس والذين جاؤوا بعده من الأحبار والرهبان ، همُ الذين وضعوا تلك العقيدة والنظامَ الديني الذي تلقَّاه العالم

المسيحي كأساسٍ للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً»[١].

وبَقيتِ المسيحيةُ قروناً طوالاً ـ ولا تزال ـ تحمل روح بولس وتحافظ على تُراثه ، ولم يظهر في العالم المسيحي في هذه المدة الطويلة من يثورُ على هذا الوضع الطارىء الدخيل على المسيحية ، ويحاول نَقْلَها إلى وضعها الأول الذي ترك عليه سيدنا المسيح خلفَاءَه المخلصِينَ من أتباعه ، وانسلختْ قرون ومضت أجيالٌ إثر أجيالٍ ولم يظهرِ الرجل المنتظرُ لتجديد المسيحية وتجريدِها من الأجزاء الأجنبية ، حتى كان القرن الخامس عشر المسيحي ، فظهر «مارتن لوثر» Martin Luther في ألمانيا وقام بإصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جُزئية ، وعارض بضع عقائدَ ألحَّتْ عليها الكنيسةُ النصرانية ، ولم يكن إصلاحها جوهرياً شاملاً ، ولا ثورةً ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل ، ثم لم يخلُفْه رجلٌ في العالم المسيحي يرفعُ صوته ضد انحرافات الكنيسة واعتداءاتها ، ويقومُ بمثل الدور الذي قام به لوثر على ضعفِه.

ويقول الكاتب الفاضل (J.Bass Mullinger) في مقاله في: «دائرة معارف بريطانيا»:

«إذا بحثنا عن الأسباب التي جعلتْ جهُود الإصلاح الديني قبل القرن السادس عشر لم تنجحْ أيَّ نجاحٍ نستطيع أن نقولَ بلا تلعثمٍ: إن السبب الوحيد في ذلك هو خضوع عقلية القرون المتوسطة للمُثُلِ القديمةِ».

ويقول في محل آخر:

«إنَّ إخفاقَ الجهود المتتابعة لاتخاذ قرارٍ جامعٍ حول إصلاح الكنيسة من حقائقِ التاريخ الأوربيِّ الثابتة».

ويقول:

---

(١) Islam or true Christianity P. 128.

«وُجدتْ جهودٌ كثيرةٌ ذاتُ أهميةٍ بالغةٍ لإصلاح المذاهب قبل القرن السادس عشر. ولكنها وقعتْ فريسةَ ضغطِ الكنيسة وأخفقت».

وظلَّتِ المسيحية تمشي على الدَّرب الذي اختارته أو بالأصح فُرض عليها، وضَعُف تأثير الكنيسة وانحلَّ سُلطانها في العهد الأخير، وقامت دولة الماديَّةِ في أوربا، وأصبحت الديانةَ الحقيقية التي خَلفتِ المسيحية وخلفتْ كل ديانةٍ في هذا العالم الغربي، فلَم يظهرْ في الأوساط المسيحية من يحارب هذه المادية ويُعيد المسيحية إلى مركزها في الحياة، أو يُوجد الثقة في المسيحيين بديانتهم، ويُنشىء فيهم القوة الروحية والخُلقية التي يقاومون بها إغراءات الماديَّـةِ القاهرة، ويتظاهرون بحياةٍ فاضلة تقوم على العلمِ والأخلاق والعقائِد المَسيحية، ويواجهون مُعضلات العصر وأزَماتِه، ويحاولون حَلَّهـا في ضوء الدِّيـن، بالعكس من ذلك نـرى أن المفكريـن والمؤلفين المسيحيين في أوربا يائسون من مُستقبل المسيحية، ومُصابون بمركَّبِ النقص أمام الماديَّة اللادينية.

وهكذا الديانات الشرقيةُ الأخرى، فالبَرهميَّةُ قد انحرفت انحرافاً شديداً عن جادَّتها الأولى، وفقدت بساطتها والاتصال الروحي المباشر بفاطرِ الكون، وفقدت قُوتها الخُلقية، وتعقَّدت تعقداً أصبحت به فلسفةً دقيقةً غير عملية، وفقدت ـ على مَرِّ الأيام ـ التوحِيدَ الخالص في العقيدة، والعَدل في الاجتماع، وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما بناءُ ديانةٍ في الباطن وفي واقع الحياة، وقد بدأ ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد وحاول مؤلفو أبنشد ـ شروح الكتب المقدسة عند البراهمة ـ أن يتداركوا هذا الفساد فرفضوا التقاليد والطقوسَ التي استحوذت على الديانة البرهمية والمجتمع الهندي، وقدّموا نظاماً فلسفياً تصورياً يقوم على وجود الوحدة في الكثرة، ونال هذَا العرضُ الجديد للديانة البرهمية رضا الأوساط العلمية لنزعتها الدائمة إلى «وحدة الوجود»، ولكنه لم يُرض الشعبَ القاصر في الفكر، المُفتقرَ إلى النظم العملية والتعاليمِ الواقعية، وبقيتِ الديانة البرهمية تَفقدُ قُوتها ونفوذها، وبقيَ التذمُّر منها وعدمُ الثقة بها يزداد ويقوىٰ على مر الأيام،

وتجسَّم هذا التذمر وهذا القلق المتفشي في المجتمع الهندي والتماسُ العِوَضِ عن الديانة الهرِمة في شخص بوذه Buddha ولم يكن ذلك إلا في القرن السَّادس قبل الميلاد.

ظهر بوذه بفكرةٍ جديدة أو ديانةٍ جديدة ـ إذا كان لا بد من هذه الكلمة [١] ـ تقوم على تجريد النفس وتهذيبها، وقمع الشهوات، والعفة والمواساة، واللهج بالعمل، وعلى رفضِ التقاليد والطقوس والتفاوت الطبقي الذي أُصيب به المجتمع الهندي في العهد الأخير، وانتشرتْ هذه الفكرة أو الديانة بسرعة، وشملت الجزءَ الجنوبي والشرقي من آسيا الواقعة بين بحر الهندِ والبَحر الكاهل.

ولكنْ ما لَبِثَتْ هذه الحركةُ الدينية العظيمة أن انحرفتْ وتحرَّفت، وهجمتْ عليها الأوثانُ والتماثيل والطقوسُ التي حاربتها البوذية وثارت عليها، حتى أصبحت في الزمن القصير ديانة وثنية لا تمتاز عن الديانة البرهمية إلا بأسماء الأوثان والتماثيلِ وعددها، وأُصيبت بانحطاط في الأخلاق، والتعقدِ في الأفكار، والكَثرة في المذاهب والفرق، يقول أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند: «لقد قامت في ظل البوذية دولةٌ تُعنى بمظاهر الآلهة وعبادة الأوثان، وتغير محيط الرابطة الأخوية البوذية وظهرت فيها البدع» [٢]. وتقول مؤلفة أوربية Mrs. RhysDavids كما ينقل عنها رئيس الجمهورية الهندية Sir Radha Krishnan «لقد أظلتِ الأفكارُ العليلة تعليم بوذا الخُلقي حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة، لقد نشأ مذهبٌ جديد في الديانة وازدهر وملك على الناس القلوب، ثم اضمحلَّ وخلفه مذهبٌ آخر، وهلم جرا، حتى تراكمت هذه الأوهامُ الخلّابة وحجبتِ الجوَّ، وساد الظلام، وقد

(١) أتردد في إطلاق كلمة الديانة على البوذية لأنها لاتحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون وعن المبدأ والمعاد كما يرجح أكثر المؤلفين والمؤرخين (راجع دائرة المعارف البريطانية كلمة «بوذه» Buddha).

(٢) «الحضارة الهندية» لمؤلفه ايشورا توبا.

اضمحلتْ دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتَّنطعات».

ولم يظهر في العالم البوذي الواسع وفي المدة الطويلة التي حكمت فيها البوذية وسادت ، مُصلحٌ كبير ينتصر للبوذية الأصلية ، ويُحارب البوذية الدخيلة بكل قوته ومقدرته ، يُجدِّد لهذه الديانة العظيمة شبابها الأول وبساطتها الضائعة ونقاءَها المفقود.

وهكذا بقيت الديانة البرهميَّةُ منكسرة أمام البوذية التي تغلَّبت عليها وعلى رقعتها حتى جاء شنَكر أجاريه Shankiracharia [١] في القرن الثامن المسيحي.

وقام بنشاط عظيم في محاربة البوذية ونَشر البرهمية حتى تمكَّن من إجلاء الديانة البوذية من الهند وتضييق دائرتها وإضعاف سُلطانها حتى ضعفت جداً وبقيت ديانةً من الديانات الهندية القَديمة الدارسة ، استطاع شنكر أجاريه بنشاطه وحماسته وذكائه أن يُقصي البوذيةَ من الحياة ولكنه لم يستطع ـ ولعل الأصح أنه لم يُرد ـ أن يُعِدِ البرهميةَ إلى وضعِها الأول ، ويُعيدَ عقيدة التوحيد والاتصال المباشر بفاطر الكون ورفض الوسائط بين العبد وربه والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات.

ويقول كاتب مقال «موسوعة الديانات والأخلاق» C.V.H Chate الذي كان أستاذ السنسكريتية بكلية «الفستن» في «بمباي» ويمتاز باطلاع واسع على الديانات القديمة وفلسفاتها ، وهو يتحدث عن (شنكر أشاريه):

«إن الغاية الأولى التي استهدفها (شنكر أشاريه) في حياته ، هي إحياء ذلك النظام الديني والفلسفة الدينية التي تَحثُّ عليهما «اوبنشد» (شروح الكتب المقدسة عند البراهمة) إنه نشَرَ العقيدة المطلقة لوحدة الوجود ، وكانت غايته الرئيسة أن يقوم بتعليم الناس أن «ابنشد» و«بهكوث كيتا»

(١) ولد في ملابار جنوبي الهند، وجال في الهند من أقصاها إلى أقصاها ومات في الثانية والثلاثين من عمره.

لا يتعرَّضان للقانون ، وإنما جُلُّ ما فيهما هو تعليم وحدة الوجود في أكمل صورها. إن شنكر أشاريه لم يستنكر الوثنية ولا هاجمها. إن الأصنام عنده مظهرٌ للإله ورمز له. إنه ذَم الغُلوَّ في الطقوس والتقاليد وفلسفة الأعمال ، ولكنه دافع عن عبادة الآلهة التي حَظيت بالقبول ، يقول: «إن الوثنية حاجةٌ طبيعية لنا في مرحلة خاصة لنشأتها ، وعندما تبلغُ الروحُ الدينية النضجَ والاكتمال تستغني عن الوثنية. فكلما تبلغ الروحُ الدينية مرحلة النُّضج يجب الإعراض عن المظاهر والرموز» وقد سمح شنكر أشاريه بعبادة الأصنام كرمز للإله. ولكن لمن لم يبلغ مبلغ البراهمة الذين تحرروا عن الصفات ، وأصبحوا من النضج بمكانٍ لا يقبلون أي تغيير وتبديل»[١].

ولا تزال هاتان الديانتان الهنديتان ـ البرهمية والبوذية ـ محتفظتين بوضعهما المحدَث ، محتفظتين بتُراث عصور الانحطاط محتفظتين بالطقوس والتقاليد والأصنام والتماثيل ، وأخفقتْ جميع المحاولات والجهود التي تبتدىء من شنكر أشاريه وتنتهي إلى ديانند سرسوتي[٢] إلى غاندي الزعيم ، أن تُعيدَ هذه الديانة القديمة إلى وضعها الأول ، وإلى الوضع الصحيح الذي يَتَّفق عليه مع رسالات الأنبياء والفطرة السليمة والعصر المتجدِّد ، وقد ألقتْ أوزارها أخيراً للمادية واللادينية واعتزلَتِ الحياة وانحصرَتْ في المعابد وفي بعض المظاهر والتقاليد ، ولا يُعرف في الهند دعوةٌ قوية ذاتُ بالٍ شعارُها وهتافها «إلى الدين من جديد» بينما نعرفُ دعواتٍ قويةً نشيطةً شعارها وهتافها «إلى الحضارة القديمة من جديد» وإلى لغة الهند القديمة الدارسة «السَّنْسكريتية» من جديد.

---

(١) مقتطف من مقالة شنكر أشاريه باختصار وتلخيص، اقرأ كتاب:

Encyclopaedia of Religion and Echics (Fourth Edition 1958). Volume XI Article Shankar Acharya.

(٢) واضع الديانة الآرية الثائرة على الوثنية وهي أشد الفرق حماسة وعداء للمسلمين وتقول بقدم العالم.

حَاجــةُ الأديـان إلى الرِّجـال الأَحيـاء:

والسِّرُّ في ذلك أن الأديان لا تعيش ولا تزدهر ولا تعود إلى نشاطها وشبابها بعد اضمحلالها وضعفها، ولا تنسجمُ مع المجتمع المعاصر ولا تتـلاءمُ مع روح العـصر إلا عن طريق الرجـال النوابـغ الذين يظهرون فيها حيناً بعد حين، يملكون الإيمان القويَّ الجديد وسمُوّاً روحياً لا يُشاركهم فيه عامَّةُ الناس، ونزاهةً ممتازة عن الأغراض وعزوفاً عن الشهوات وتفانياً في المبادىء والعقائد وفي سبيل الدعوة؛ ومستوىً عقلياً وعلميّاً أرقى من الكثير، ينفخون في أمتهم روحاً جديدة، ويخلقون في أتباع دينهم إيماناً جديداً وثقة جديدة، ويُلهبون نفوسهم بحاسة دينية جديدة.

وذلك لأن مطالب الحياة وتكاليفَها مُتجدِّدة، وإغراءات المادية قويةٌ جديدة دائماً، وشجرةَ المادية لا تذوي ولا يعروها الذبول وهي خضراء لا تنقطع أثمارها، وللمادّية ـ مع أنها غنيةٌ بسحرها على النفوس وإغرائها للطبائع عن الدعاة والترغيب ـ في كل عصر دعاة متحمسون ورجال مخلصون، فإذا أصاب الدعوةَ الدِّينية الوهن، وإذا أُصيب أهل دينٍ بضعفٍ في العقيدة، أو ضَعفٍ في الخُلق أو ضَعْفٍ في الدعوة، لم يستطيعوا أن يقاوموا المادّية الفتية والدعواتِ المعارضةَ القوية. إنَّ الأصنام ـ باختلاف أنواعها ـ لا تزال مُحتلةً للحياةِ، وإنَّ اللات ومناة ـ وهما رمزان للوثنية والهوى ـ لا تزالان في شبابهما وجِدَّتهما كما يقول إقبال، فلا يَظُنَّ الدَّاعي أنه قد انتهت مهمته، ولا تُمكن مقاومة المادية الفتاة، ولا يمكن سحبُ اللات ومناة عن الحياة إلاّ بالدّين القوي والإيمان الجديد والدّعوة المتحمسة والعِلم الراسخ والعقل الواسع.

تـاريخُ الإصلاحِ والتَّجديـد مُـتَّصـلٌ في الإسـلام:

من الحقائق التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتَّجديد متصلٌ في الإسلام، والمُتقصِّي لهـذا التـاريـخ لا يـرى ثَغـرة ولا ثُلمـة فـي جُهـود الإصـلاح

والتجديد ، ولا فَترة لم يظهر فيها من يُعارض التيار المنحرف ويُكافح الفساد الشامل ويرفعُ صوت الحق ، ويتحدى القوى الظالمة أو عناصرَ الفساد ويفتحُ نوافذ جديدةً في التفكير.

والدّارسُ لهذا التاريخ والمُتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلامُ فيه على العالم الإسلامي ، وخبتْ مصابيحُ الإصلاح وخفتتْ أصواتُ الحق ، وماتَ الضمير الإسلامي ، وتبلَّدَ الشعور ، وأضرَب الفكر الإسلامي عن العمل.

إن هذه الثغرات التي قد نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلامي وفي نظرتنا العجلى في كتبه ، إن مردَّها إلى منهج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديماً وحديثاً ودرجت عليه الأجيال ، إن النقص ـ ومعذرتي إلى المؤلفين الذين أَدين لهم في معلوماتي ومحاضراتي ويدينُ لهم كل مؤلِّف ودارس ـ في التأليفِ وليس في التاريخ ، أو بكلمة أخرى: إن المسؤولية على المؤرخين والمؤلفين ، لا على المُجدِّدين والمصلحين الذين ظهروا حيناً بعد حين ، وحفظوا على الإسلام جِدَّته وشبابه ، وقضوا على كثير من الفِتن والبدع والمؤامرات والتحريفات ، حتى أصبحت مطمورةً في رُكام الماضي ، لا يهتـدي إليها أحدٌ في هذا العصر إلا بعد بَحث وعناء ، وكثيرٌ من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها إلا بشق الأنفس وإجهادِ العقل والعين ، وقد كان بعض هذه المذاهب وبعض هذه الحركات تتمتع بحماية البلاط ، وتستندُ إلى المُلك والسلطان والمال والجاه ، وقد كانت في عصرها صاحبة حَوْلٍ وطَوْل ، ولكنها طُويت ـ بفضل جهود هؤلاء المصلحين المخلصين ـ في صحائف الماضي ، وأصبحتْ موضوعَ علماء الآثار لا محل لها إلا في المتاحف والصحائف.

التَّجَنِّي على صَلاحيـة الإسـلام:

إنّ هذا النقصَ في التأليف الذي صَرَّحْتُ به مع الاعتذار ، جعل كثيراً من الناس يعتقدون أن تاريخ الإصلاح والكفاح في الإسلام مُتقطعٌ يحتوي على

ثَغرات واسعة وفترات طويلة ، لا ترى فيها إلا المندفعين مع التيار ، المستسلمين للفساد ، وأقزاماً في العقل والتفكير والعلم والإنتاج ، لقد كان يظهر «عملاق» أو نابغة أو عبقريٌّ بعد عصر طويل ، وقد تخلو قرونٌ ومئات سنينَ عن عظيم يستحق أن يُسمّى عملاقاً أو عبقرياً أو مجدّداً في العلم والدين.

إنَّ هذه العقيدة الخاطئة التي لم تَقُم إلاّ على الدراسةِ القاصرة المستعجلة للتاريخ ، وعلى منهاج التأليف الذي اتخذه مع الأسف أكثر المؤرخين ، وهو تأليف التاريخ الذي يدور حول الملوك وحاشيتهم ، وحول الحوادث التي لها اتصالٌ بالسياسة والحكم ، قد تنتهي ببعض الشباب المتحمسين وببعض رجال الدعوة إلى سُوء الظن بالإسلام وضَعف إنتاجه ، إنها نتيجة خطرة تُضعِف الثقة بالإسلام ، وتُضعف العاطفة والإرادة للكفاح في هذا العصر ، فإن القوة الباطنة التي تدفع إلى الكفاح والعمل للدعوة ، لا تنبعُ إلا من الثقة بالماضي ، وبأن هنالك رصيداً من الجهاد والإخلاص ، وسنداً من الكفاح والنجاح.

مَصادرُ التَّاريخ المهجُورة:

والذَّنْبُ ليس على المؤرخين فقط ، إن الذَّنْبَ على من يقتصُر على كُتب التاريخ «الرسمي» والمصطلح ، ولا يتعدّى هذه الكتب إلى الكتب التي لا تحمل اسم التاريخ ولا تُوجد في ركن التاريخ في مكتبة ، ولكنها مادة واسعة للتاريخ ، ومصدرٌ قيِّمٌ من مصادر التاريخ ، هي كتب الأدب وكُتب الدين والكتب التي دَوَّنَ فيها بعضُ العظماء اعترافاتهم وسجلوا حوادث حياتهم وتجاربهم ، والكتبَ التي حفظ فيها بعضُ التلاميذ وأصحاب الشيوخ كلمات شيوخهم أو مواعظَهم ، أو ما دار في مجلسهم من حديث أو حوار ، ومجاميعُ الرسائل والخطب التي تدلُّ على روح أصحابها وفكرتهم ، أو الكتُب التي أُلِّفتْ في الحسبة وفي انتقاد المجتمع وإنكار البدع والمنكرات ، فلو اتسعت الدِّراسة وشملت هذه المصادرَ المهجورة وتخصَّص لهذا الموضوع باحثٌ واسعَ الفكر ، صبورٌ على المطالعة ، دقيق

في الملاحظة؛ استطاع أن يُنتج تاريخاً متصلاً شاملاً للإصلاح والتجديد والتفكير الجديد في الإسلام، يدل على أن الإصلاح والكفاح مرافقان لهذه الأمة لا يتخلَّفان عنها.

كيف يُـؤلَّفُ تاريـخُ الإصـــلاح؟

ويجب على هذا الدارس ألا يقتصر على بعض النقول، وأن لا يقتضب العباراتِ المنقولةَ عن كُتب هذه الشخصيات العظيمة، ولا يضُنَّ بالألفاظ والكلمات، وألا يمرَّ بها وبمؤلفاتها ومنتجاتها مرّاً سريعاً في دراسته التاريخية، بل يجب أن يعيش في كُتبها ومؤلفاتها وأفكارها مدةً، ويتذوَّق أدبها وفكرتها، ويتنسَّم طِيبها، ويحاولَ أن ينتقل من جَوِّهِ إلى جَوِّ هؤلاء الرجال، ومن عصره إلى عصرهم، حتى يعرفهم على حقيقتهم، ويُصوِّرهم في حقيقتهم ويُشعرَ القارىءَ أنه انتقل إلى عصرهم وعرفهم معرفةً شخصية، وعاشَ معهم مدة من الزمان.

لذلك تسمحون لي بأن أَعرض لكلٍّ واحد ممن أذكرهم في محاضراتي أمثلةً من كتاباتهم وخطبهم ورسائلهم، وقد تكون متنوعة، وقد تكون مُسهبَة، لأني أعتقد أن الرجل لا يُعرف إلا في كتاباته المتنوعة الطويلة، ولا يجوز الحكم عليه إلا بعد مشاهدة طويلة، ومجالسَ وألوانٍ من الحياة عديدة، ولا سبيل لنا إلى هذه المشاهد وإلى هذه المجالس إلا عن طريق هذه الكتابات والمؤلفات.

تَطبيـقُ مقاييسِ العصر على الشَّخصياتِ القديمة:

ثم الخطيئةُ الثانية التي يرتكبها بعضُ المتحمسين والمؤلفين في هذا العصر، أنهم يُكوِّنون في ذهنهم صورةً خاصّة للمُجدِّد أو المصلح، ثم يلتمسونها في تاريخ الإسلام ومجموع صور الأعلام، فإذا لم يجدوا هذه الصورة الحبيبةَ في التاريخ الإسلامي أو في عصر من العصور، تذمَّروا وأنكروا، وكثيرٌ منهم عندهم مقاييس خاصةٌ، وهي مقاييسُ عصريةٌ يَقيسون بها «العظيم» أو «الداعي» أو «المصلح» أو «المفكر» في كل زمن وفي كل بيئة، فإذا لم تنطبقْ هذه المقاييسُ ـ التي هي مقاييس العصر ـ على

رجل مهما كان عظيماً ، ومهما كان قديماً ، ومهما كانت خدمتُه للإسلام عظيمة ، ومهما كان مخلصاً ، ومهما نجح في مهمته التي تكفَّلها أو أُسندت إليه ، أسقطوه أو بخسوه حقه ، ولم يَعدُّوه من المصلحين ، وبعضهم يلتزم مقياساً واحداً كمقياس الإبداع في الأفكار مثلاً ، أو فتح باب الاجتهاد مثلاً ، أو الكفاح لإقامة الحكم الإسلامي ، أو معارضةِ الدولة القائمة في عصره مثلاً ، فإذا لم يُحققْ هذه الشريطة ، لم يكنْ رجلَ عصره ، ولم يَستحقَّ أن يَدخُلَ في صفِّ المُصلحين.

إن هذه المقاييسَ والمعايير لها قيمةٌ عظيمة ، وأنا لا أنكر أهميتها ومكانتها في الإصلاح ، ولكن الذي أريد أن أقول لكم: إن الزمان والبيئة عاملان هامان في حياة الرجال ، فلكل عصر مشاكلُ ومسائل ، وملابساتٌ وعوائق ، قد تحدد نطاق العمل ، وقد تفرِض منهَجاً دون منهج ، وأسلوباً دون أسلوب ، والغايةُ واحدة. فلا يجوز لنا أن ننقل رجلاً من عصره ، ونُطبّق عليه مقاييس هذا العصر ، ثم نحكُم عليه بالفشل والإخفاق ، أو الضعف والعجز ونسلبَه محاسن نفسه ، ونحرِمَه من كل مأثرةٍ وكل عظمة ، لأنه لم يحقق شرطاً من شروطنا ، ولم يكن «المثل الكامل» في الإصلاح المنشود ، والتجديدِ المطلوب.

التُّراثُ الإسلامي مجموعةٌ تَدِينُ لكل مُصلحٍ وعامل:

إن هذا التراث الذي وصل إلى أيدينا اليوم ـ ولستُ أسميه التراثَ بالمعنى الذي يريده الغربيون من كلمة Legacy ، لأن الإسلام دين حي خالد ، ولكنْ أسميه بمعنى الثروة التي انتقلتْ إلينا من أسلافنا: تُراثَ العلم الواسع ، والعقيدة المحفوظة ، والإيمان القوي ، والسُّنة الخالصة ، والأخلاق المستقيمة ، وثروة الفقه والتشريع الزاخرة ، والأدب الإسلامي الرائع مجموعةٌ فيها نصيب لكل من ساهم فيها بإقامة حُكم على منهاج الخلافة الراشدة ، ومُحاربة الجاهلية والمادية ، وبالعودة إلى الله وإلى دار السلام ، وإحياء ما درس من الخصائص الإسلامية ، وبثِّ الروح الإيمانية في هذه الأمة ، ولكلِّ منَ أوجد الثقة

بالدين ومصادره وتعبيراته ، وردَّ هجماتِ الفلسفات الأجنبية ، ولكل من دافع عن الفكرة الأصيلة وعصم هذه الأمة من فتنةٍ هددتِ الإسلام ، ولكل من حَفِظ على هذه الأمة دينَها ، ومصادرَهُ ، وقام بتدوينٍ جديدٍ للحديث والفقه ، أو فتحَ باب الاجتهاد ، ومَنحَ هذه الأمة ثروة واسعة في التشريع ، وقانوناً مُنظِّماً للحياة والمجتمع ، ولكل من حاسب المجتمع في عصره ، وأنكر انحرافه عن مُثل الإسلام ونُظُمِهِ ، ودعاه إلى الإسلام الصحيح ، ولمن سلك سبيل الإقناع العلمي في العصر الذي كثُرت فِيه الشكوكُ ، واضطربتِ العقائد ، ووضع لعصره كلاماً جديداً ، ولكل من خَلف الأنبياءَ في الدعوة والتذكير ، والإنذارِ والتبشير ، وحرك الإيمان في النفوس ، وقام في وجه المادية الجارفة في عصره ، فحدَّ من تأثيرها ، وأنقذ خلقاً كثيراً من الاندفاع والغرق فيه ، ولكُلّ من حفظ هذه الأمة وقُوّتها السياسية من الانهيار ، ومن أن تكونَ فريسةً للغاراتِ الأجنبية ، ولمنْ أَخضع بدعوته الحكيمة الرفيعة عدوّاً لم تَعملْ فيه السيوف ، ولم تُقاومه الجنود ، وحطَّم العالمَ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، فسخَّرهُ أصحاب الدعوة بقُوتهم الروحية وإيمانهمُ القوي للإسلام ، وجعلوه من أتباع محمد عليه السلام ، ولمن أخضع بأدبِه القوي وشعره البليغ عقولاً لم تُخضعها المباحثُ العلمية والفلسفات الدينيةُ إلى غير ذلك ، ولكُلٍّ فضلٌ ، وما التاريخ إلا تأديةُ الأمانات إلى أهلها ، والحُكمُ بالعدل ، والاعترافُ بالفضْلِ ، وقد قام كلٌّ واحدٍ منهم بدوره، وساهم بقسطه؛ القسط المطلوب منه، وكلٌّ كان مرابطاً على ثغر من ثغور الإسلام ، وكلٌّ كان سهماً مُصيباً في كنانة الإسلام ، ولولا هذه الجهودُ المخلصة ، ولولا هذه الأقساط التي قد لا تُرى إلا بِمُكَبِّرَة التاريخ ، لما وصلتْ إلينا هذه المجموعة التي نَعتزُّ بها ونَستندُ إليها ، ونقتبسُ منها النور سليمةً مَوفورة نتباهى بها على الأمم والديانات .

وعلى هذا المنهاج الذي أعتقدُ أنه المنهاج العادل الواسع ، سأتحدّث عن هذه الشخصيات الإصلاحية ، وعن عصورها والظروف والملابسات

التي تكتنفها، ومقدارِ نجاحها في حقل الدّعوة والإصلاح والتجديد [١]، وبِيَدِ اللهِ التوفيقُ.

* * *

(١) من يريد أن يستزيد من الاطلاع على هذه الشخصيات وعلى جهودها في مجال الفكر والدعوة والإصلاح عليه أن يقرأ كتاب «رجال الفكر والدعوة» للعلامة الندوي صدر عن دار ابن كثير دمشق ـ بيروت، ودار القلم بالكويت.

خليج بين الإسلام والمسلمين

وَجَّهَ صاحب السموِّ الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم إمارة «الشارقة» (دولة الإمارات العربية المتحدة) دعوة زيارة الشارقة إلى العلامة الندوي، وخلال زيارته للشارقة نظمت دائرة الأوقاف محاضرة للعلامة الندوي مساء اليوم الخامس من محرم ١٣٩٥هـ في مسجد علي بن أبي طالب الّذي يختصّ بعقد الاجتماعات وإلقاء المحاضرات في المناسبات الدينية.

وكان عنوان المحاضرة «خليج بين الإسلام والمسلمين» قدَّم الشيخ عبد الودود سماحة المحاضر، فأحسن التقديم، ثم ارتجل العلامة هذه المحاضرة التي استغرقت ساعة، فصادفت آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، وقد سجلت إذاعة وتلفزيون الشارقة المحاضرة بطولها وأذيعت في اليوم التالي.

بعد الحمد والصلاة ، أما بعد ، سادتي وإخواني! أنا سعيد بهذه الزيارة التي أكرمني الله بها لإمارة الشارقة العزيزة ، وقد كتب الله لي زياراتٍ عدَّة ، زيارة تلو أخرى للجزيرة العربية ، وللحرمين الشريفين ، ولكننا نعتبر الجزيرة كلها حلقة واحدة ، وامتداداً لرسالةٍ واحدة ، ولدعوةٍ واحدة ، ولمائدةٍ واحدة ـ إذا صح التعبير ـ لذلك لا أشعر هنا وأنا بين ظهرانيكم ، وبين بيت من بيوت الله ، بأنني في حاشية من حواشي هذه الجزيرة ، بعيدة عن قلبها ، وعن مركزها ، بل أشعر بأني واقف في ظل الكعبة ، وفي رحاب البيت العتيق ، فإذا لم تكن الكعبة ، وإذا لم تكن الرسالة المحمدية؛ لما كان بين مسلم ولد بعيداً ونشأ عن مركز الإسلام وبين هذه الجزيرة صلة وشيجة ، ورباط حب وإجلال ، فهذه الجزيرة كلها في تاريخها الجديد الذي يبتدىء من ظهور الإسلام وحياتها ونهضتها الحقيقية تدين لمكة ، وبالأصح لابن مكة الخالد الذي حمل الأمانة المقدسة ، وأوثر بالرسالة الأخيرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ﷺ.

إنني أعرف رجالاً في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وفي البطولات الإسلامية ، والبعث الإسلامي الجديد ، كانوا يعيشون في حلم لذيذ ، وهو أنه ستقدر لهم زيارة لمكة والمدينة ، وكان الزمن زمن السفن الشراعية ، فكانوا إذا وقع بصرهم على أول قطعة من هذه الجزيرة ، التي انبثق منها النور ، وطلع منها الصبح الصادق للإنسانية بالمعنى الحقيقي ليس بالمعنى الأدبي ، قطعة قاحلةً تتراءى من بعيد ، كأنه هلال العيد ، خروا لله سجداً ، يحمدون الله تبارك وتعالى على أنه فسح في حياتهم ، حتى نالوا هذه السعادة ، وأقروا عيونهم برؤية بلاد العرب ، وقد كانوا يعتبرون هذه القطعة الأرضية قطعة من قلوبهم ، وفي الحقيقة نحن كلنا عرباً وعجماً متطفلون على فتات هذه المائدة ، عائشون في ظل هذه الجزيرة أينما كنا ، بل ليس العالم الإسلامي كله من أقصاه إلى أقصاه ، من جبل الأطلس إلى المحيط الهندي ، إلا امتداداً لهذا الظل الكريم ، ولهذا الحادث التاريخي ، الذي

كان خطأً فاصلاً بين عهدين ، وبين عقليتين ، وبين نفسيتين ، وبين الحياتين ، وبالأحرى بين حيوانية وإنسانية ، بين موت وحياة ، بين وجود وفناء ، وبين إسلام وجاهلية ، فنحن إذا تحدثنا إليكم تحدثنا إلى نفوسنا وقلوبنا وعقولنا وضمائرنا ، وإذا تحدثنا إليكم تحدثنا عن كل ما ينطوي عليه وجودنا ، من عقلٍ وتفكير ، ومشاعرَ وأحاسيس ، وعاطفةٍ ووجدان ، ومعانٍ كريمة لا يأتى عليها الحصر.

إخوتي وسادتي! إننا هنا في إمارة من إمارات الخليج العربي والخليج هو الماء الذي يدخل في بر فيفصله بين جزئين ، وأنتم أعرف بمعاني الخليج ، وما يضمره من معانٍ ونتائج ، وأبعاد وآماد ، من الذين ما شاهدوا خليجاً ، وما شاهدوا فجوةً أو حاجزاً مائياً بين برين ، فهل تصدقون إذا قلت لكم: هناك خلجان معنوية ، وفجوات واسعة بين الأمم والجماعات الإنسانية ، وبين الأديان التي تعلن أنها تؤمن بها ، وعقائدها التي تزعم أنها تدين بها ، ومبادئها التي تعتقد أنها تتمسك بها ، وقد تكون هذه الفجوات والخلجان أعمق وأوسع من هذه الخلجان المائية الجغرافية التي أوجدها الله منذ آلاف من السنين ، إنكم تعرفون نوعاً واحداً من الخلجان ، وهو الخليج الذي تعيشون على ساحله ، ولكن هناك خليجاً آخر أكثر خطراً ، وأطول مدى ، وأشدَّ عمقاً من خليجكم ، هو الخليج الذي قد يقع في بعض الأحيان بين الإسلام والمسلمين.

يا أهل الخليج العربي! إني أحدثكم عن خليج لعلَّكم لم تتصوروه إلى الآن ، مع أننا كلنا نعيش في هذا المعنى ، وهو الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي ، وهو أنَّ هنالك فجوةً بين الإسلام والمسلمين ، قد تكون أكثر خطراً من هذه الخلجان التي تفصل بلاداً عن بلاد ، وبراً عن بر ، وقطعةً من أرض عن قطعةٍ أخرى من الأرض ، وكان يجب أن لا يكون هناك خليج وأيُّ فاصل بين الإسلام والمسلمين ، بل يجب أن يكون الإسلام ممثلاً في المسلم ، ويكون المسلم هو الإسلام الذي يسعى على قدميه ، إذا قيل لإنسان: ما هو الإسلام؟ أشار بكلِّ سهولة إلى أيِّ مسلم ، واثقاً بأنه يفسر الإسلام تفسيراً صحيحاً ، ويصوره تصويراً دقيقاً ، هكذا كان المسلمون في

الصدر الأول ، يقول الله تبارك وتعالى في قصة الإفك: ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] هذه ثقة المسلم بالمسلم ، الثقة التي لا نظير لها في المجتمع البشري ، وفي تاريخ الأخلاق وعلم النفس.

يقول الله تبارك وتعالى في هذا الحادث مخاطباً للمسلمين: لماذا لم تستعرضوا حياتكم وأخلاقكم حين وجهت التهمة إلى فرد من أفرادكم ، ثم قلتم في ثقة واعتزاز ، وفي قوة وجراءة: لا يمكن أن يقع المسلم في هذا الحضيض ، إننا نربأ به عن هذه السفالات ، عن هذا المستوى الخلقي ، عن هذا الهبوط ، لأننا نربأ بنفوسنا عن أمثالها ، إنه إذا سمع أيَّ تهمة توجه إلى أيِّ عضوٍ من أعضاء المجتمع الإسلامي ، كان يجب أن يقول: لا ، لا! لا يمكن ، لأني لا أستطيع أن أفعل كذا ، فأنا أقول بثقة: إن أخي المسلم لا يستطيع أن يفعل كذا ، هذا معنى «المسلم مرآة المسلم» وهذا هو المجتمع المثالي الذي لم يشاهد التاريخ أفضل منه.

ولكن ، ما هكذا كان أيها الإخوان! بل وقع نوعٌ من الفجوة بين الإسلام والمسلمين ، فقد يكون الإسلام في واد ، والمسلمين في واد ، وقد لا يكون هناك قنطرةٌ تصل بينهما ، وقد أصبحنا بسبب ما يشبه الفجوة الواقعة بين الإسلام والمسلمين ، وهذا الخليج الحاجز بين حياة المسلمين الواقعية وبين تعاليم الإسلام الحقيقية ، حجة على الإسلام والقرآن ، وسبة وعاراً ، لا عزاً وفخاراً ، لأسلافنا العظام ، وآبائنا الكرام ، بل قد تبعد المسافة أحياناً بيننا وبين الرسول الأعظم ﷺ ، فكثيرٌ من مظاهر حياتنا وسلوكنا ، وأخلاقنا ومثلنا لا يتفق مع البعثة المحمدية ، ورسالتها الجليلة ، وأهدافها النبيلة ، وتعاليمها السامية ، ومثلها العليا ، بل يقع ـ مع الأسف ـ كثيرٌ من أفراد هذه الأمة ، في بعض الأزمنة والأمكنة؛ فريسةَ الشرك ، والعقائد الباطلة ، والعادات الجاهلية ، يقتبسونها من الشعوب المجاورة ، ويقلدون فيها الأمم الجاهلية ، ويتبعون سنن من كان قبلهم

شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع [١]، كما أخبر بذلك لسان النبوة ، وأسفَّ كثير من أفرادها إلى ما لم يكن يتصور المسلمون في الزمن السابق ، في عبادة النفس والشهوات والشيطان ، والمال ، والجاه ، والسلطان ، حتى حقَّ للمسلم أن يستحيي من نسبته إلى نبيه ﷺ ، ويرى في ذلك إساءةً إلى مقامه الرفيع .

وقد أجاد شاعر الإسلام محمد إقبال في تصوير هذه الحقيقة ، والواقع الذي يعيشه المسلمون الآن في غالب أجزاء العالم الإسلامي ، وبلاده ودوله ، ومجتمعاته ، فقال وهو يتمثل وصوله إلى المدينة المنورة في رحلته الخيالية الشعرية؛ التي حكاها في ديوانه «أرمغان حجاز» (هدية من الحجاز) ومثوله أمام الرسول ، وما فاضت به قريحته من نجوى وشكوى ، وتصوير حال المسلمين ، فقال: «لقد نصبنا جباهنا أمام الخلق ، وما سوى الله ، واسترسلنا في تعظيم غير الله ، والخشوع له مثل العلوج[٢] إنني لا أشكو أحداً ، إنما أشكو نفسي وإخوتي ، وجملة القول أننا ما كنا جديرين بك يا رسول الله!»[٣].

وليس هذا الخليج الذي قد يقع بين الإسلام والمسلمين محدوداً بين الحكومات ، والأحكام الإسلامية ، والتعاليم النبوية ، فليست الحكومات الإسلامية وحدها هي التي لا تطبق الإسلام في دائرة نفوذها تطبيقاً أميناً دقيقاً ، وتحكم في غالب الأحيان بغير ما أنزل الله ، وقد اعتاد كثير منا أن يلقوا كل مسؤولية على هذه الحكومات ، ويتخلوا عنها ، ولكن الواقع أنَّ هذا الخليج ـ بين الإسلام والمسلمين ـ اخترق البيوت والمنازل ،

---

(١) جاء في حديث صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «لتتبعنّ سنن من قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً، حتى لو دخل حجر ضب تبعتموهم» (رواه البخاري).
وفي رواية له عن أبي هريرة: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون شبراً شبراً وذراعاً بذراع».

(٢) العلوج: جمع علج. وهو الرجل القوي الضخم من كفار العجم.

(٣) «الطريق إلى المدينة» للعلامة الندوي: منقولاً من «أرمغان حجاز» طبع في دار ابن كثير دمشق ـ بيروت.

والعلاقات بين الأفراد، والأحوال الشخصية، والعقود والمعاملات، والأسواق والمكاتب، فنحن لا نطبق الأحكام الشرعية الإسلامية والقانون الإلهي، في الأمور والقضايا التي نملك فيها كل حرية وتصرف، ولا تمنعنا قوة عن العمل بأحكام الإسلام وتعاليمه، وأسوة الرسول ﷺ ووصاياه، وذلك لأنه ضعف الدافع (وهو الإيمان) الذي يدفعنا إلى تطبيق الأحكام الشرعية على حياتنا، وقوي الإيمان بالمصالح الشخصية، والمنافع الدنيوية، فعطلنا شريعة الله في بيوتنا، وفي حياتنا الفردية والاجتماعية، من غير أن يجبرنا أحد على ذلك.

وبذلك أساء المسلم إساءتين: إساءةً إلى نفسه، وإساءةً إلى الإنسانية، أساء إلى نفسه أنه حرم تلك الجائزة التي وعد الله بها المسلم؛ لأن هذه الجائزة، وهذه المواعيد الإلهية كانت منوطة بالحقائق، لم تكن منوطة بالصور والأشكال، والدعاوى والأقوال، والأسماء والألقاب، إنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] هذه كفالة من الله، ولكنه يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، ولكن متى؟ يقول الله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، فكل الوعود الإلهية مرتبطة بالحقائق، لا بالأشكال، إن الله سبحانه وتعالى لم يعد بشيءٍ على الصورة الظاهرة، بل قال عن بني إسرائيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] وقال: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، هذه كلها مطالبات بتحقيق الحقائق، إنَّ الله سبحانه وتعالى لم يعد بشيءٍ على الدمىٰ والتماثيل، أو تجسيمات بالحجر والجبس، إن الله وعد على الحقائق، وعلى ذلك يسير نظام الكون كله.

إنكم تعرفون جميعاً أنَّ الإنسان إذا علق لافتةً فخمةً كبيرةً، مكتوب فيها بقلمٍ عريض «دكان عطار أو صيدلية» ثم لا توجد هناك أدوية، فهل تغني هذه اللافتة الكبيرة التي تتلفت الأنظار، هل تصدقون أنه إذا كان هنالك بناء

خاوٍ على عروشه لا يسكنه أحد ، ولكن لافتة كبيرة مكتوب عليها «المعهد الفلاني» أو «الكلية الفلانية» أو «الجامعة الفلانية» هل تغني هذه اللافتة؟! هل تصدقون إذا كان هناك رجل نحيف ناحل ، يصفق جسمه في الثياب ، وتحركه الرياح ، هيكل بال ، ثم يعلن عن نفسه أنه مصارع كبير ، وأنه بطل عملاق ، وأنه قائد جيش ، وأنه اللواء فلان ، وأنه المشير فلان ، هل يغني عنه ذلك شيئاً؟ إذا دعاه أحد إلى المبارزة ، فهل يغني إعلانه؟ وهل يغني عنه هذا الاسم الكبير ، الذي يحمله؟ لا! لأن الله ربط نظام الكون ، كما ربط نظام الشرائع والأديان السماوية ، بالحقائق ، لا بالأشكال ، إذا كنا في أيام برد قاس في الشتاء ، وكانت أمامنا صورة نار ملتهبة ، قد أبدع في تصويرها المصور الحاذق بريشته الفنانة البارعة ، حتى تراءت هذه النار ناراً حقيقية من بعيد ، ولو كان ذلك كالصرح الممرد من قوارير ، الذي بناه نبي الله سليمان عليه السلام ، امتحاناً لملكة سبأ ، ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾ [سورة النمل: ٤٤] ، فقيل لها: إنه صرح ممرد من قوارير كذلك أبدع مصور في تصوير هذه النار الملتهبة ، يرتفع لهيبها إلى السماء ، والمظهر مظهر نار ملتهبة ، ولكن هل يستطيع الإنسان أن يتدفأ بها؟ يضع هذه النار الملتهبة أمامه ، ويستدفىء بهذه النار ، ويستعين بها على هذه البرد اللاذع ، هل يعتبر هو عاقلاً أم مجنوناً؟

فلماذا تطلبون من صورة النور حقيقة النور الذي هو من الله ، أنتم تطلبون من المشاعل المصطنعة التي خمدت نارها ، واحترقت ذبالتها ، ونفد زيتها ، ما يطلب من الذبالة التي تستمد قوتها ونورها من النور الذي لا ينقطع ، ولا ينطفىء ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].

ثم هنالك مصيبة أخرى ، نحن نؤدي ضريبة الإسلام ، ويمكنكم أن تقولوا غرامة الإسلام ، فنحمل الاسم العظيم ، الاسم الإسلامي الفخم ، وبذلك نستحق من الأمم والشعوب الحروب الطاحنة ، والمعاداة التي

لا نهاية لها. والمؤامرات التي لا آخر لها ، والعداء والحقد الشديد ، ولكننا لا نتشرف بالجائزة ، لأننا لا نحمل الحقيقة ، نحن دفعنا قيمة الاسم ، ولم نتسلم جائزته ، هذا شقاء عظيم ، الطفل يضرب لأنه قد دخل في المدرسة ، وانتسب إليها ، ولا يعطى الجائزة ، لأنه لم يحفظ الدرس ، ولم يهيئه ، فماذا كان حظه؟ حظه الضرب المهين ، حظه الهراوة التي تنزل عليه ، لأنه قد انخرط في سلك الطلبة ، ولكنه لم يعد نفسه لهذا الشرف ، فيكون طالباً مجداً مجتهداً ، فانفرد بالغرامة دون الجائزة ، يقولون: «الغرم بالغنم» ولكن هنا غرم ولا غنم ، فنحن كلنا هدف عداء طويل ، هدف أحقاد لا نهاية لها ، هدف حروب تشتعل ، هدف مؤامرات تتجدد ، وكل هذا في سبيل الإسلام ، لأننا نحمل لافتة الإسلام ، وتفرض علينا ضريبة الدكاكين ، ولكنا لا نملك في هذا الدكان شيئاً نبيعه ونربح به ، ونتعيش به ، فماذا أشقى هذا التاجر الذي علق لافتةً استحق بها المكس والضريبة ، والجباية على الدكاكين والتجارات ، ولكنه لم يعتن بأن يضع في دكانه بضاعةً تشترى ، ويربح بها ، ويقوت نفسه وعياله. فهو التاجر الشقي الفلاح تفرض عليه ضريبة من الحكومة لأنه فلاح ابن فلاح ، عريق في الفلاحة ، ولكنه لا يزرع شيئاً ، ولا يصب عرق جبينه ، ولا يستخدم كدَّ يمينه لمهنته ، عاطل مشلول ، عاجز كسول ، يبقى في ركن من أركان بيته ، فإذا جاءت أيام الحصاد ، وحصد الناس ، فرضت عليه ضريبة الفلاحة ، لأنه فلاح ، كذلك نحن المسلمون أبناء المسلمين ، وأحفاد المسلمين ، عريقون في الإسلام ، فمفروض علينا أن ندفع هذه الضريبة ، ضريبة التسمِّي بالإسلام ، ولكننا يجب علينا أن نتحلىٰ بحقيقة الإسلام كذلك ، حتى نستحق الجائزة الكاملة ، ولكن إذا آن أوان الجائزة فقدنا ، كأنه لا وجود لنا ، ولم يعترف بنا ، وإذا جاء أوان الحصاد ، وأوان الضرائب والإتاوات ، بحث عنا ، فوجدنا ، فما أشقانا ، نحن نسيء إلى نفوسنا أكثر ما يسيء إليها أعداؤنا.

أما الإساءة إلى غيرنا ، فقد وقفنا حاجزاً بين الإسلام المشرق الصافي ، الخلاب للعقول ، الجذاب للنفوس ، وقفنا حاجزاً بين هذا الإسلام

الحنيف ، المشرق الوضاء الجميل وبين هؤلاء الحيارى من غير المسلمين التائهين من الأوربيين وغير الأوربيين ، فإذا لم نكن وكان الإسلام مدوناً في كتاب ، ربما كان الطريق أيسر لهم للوصول إلى الإسلام والاهتداء به ، ويروى عن السيد جمال الدين الأفغاني أنه عندما رجع من زيارة أوربا ، قيل له: هل لك أمل في إسلام الأوربيين؟ قال: نعم ، ولكن بشرط واحد ، شرط أن نبرهن على أننا لسنا مسلمين (في الحقيقة) فإذا تحقق عندهم أن هؤلاء الذين هم يقيسون الإسلام بهم ليسوا مسلمين حقيقيين ، أقبلوا على الإسلام ، وأقبلوا على دراسته برغبةٍ وشغفٍ ، وحبٍّ وتقدير.

إخواني! إنكم أهل الخليج ، تستطيعون أن تتذوقوا هذا المعنى الذي شرحته لكم تذوقاً صحيحاً ، هو أن بيننا وبين الإسلام خليجاً ، وأن من عاش في البر ولم ير خليجاً قط ، لم يتصور هذا الخليج تصوراً صحيحاً.

إننا إذا قارنا أنفسنا بالتعاليم التي جاء بها الإسلام وبسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبحياة الصحابة رضي الله عنهم ، عرفنا أنَّ بيننا وبين الإسلام الحقيقي شيئاً من الفجوة أو الجفوة ، فمن الواجب المتحتم قبل كل شيء أن نملأ هذه الفجوة ، ونزيل هذه الجفوة؛ التي وقعت على رغم جهود المصلحين والدعاة في كل زمان ، هذه الفجوة المعنوية ، العملية الواقعية؛ التي وقعت بين الإسلام وبين حياة المسلمين.

نحن كلنا مسلمون والحمد لله ، نتشرف بذلك ونفتخر ، ونعض عليه بالنواجذ ، وانتسابنا إلى الإسلام ، وإيماننا به ، ونشوءنا في بيوت عريقة في الإسلام ، وفي بلدٍ عريق في الإسلام يسهل لنا مهمة العودة إلى الإسلام الحقيقي ، والتحلي بفضائله ، وتمثيله تمثيلاً كاملاً ، والله سبحانه وتعالى قد لطف بنا إذ أوجدنا في هذه البيئة الإسلامية الكريمة الأصلية ، وفي هذه الجزيرة العربية التي هي مهد الإسلام وموئله ، وقد كان من تقدير الله سبحانه وتعالى ، ولطفه بنا وحكمته ، أن اختار هذه الجزيرة لنا ، واختارنا لها ، فربط مصيرنا بهذه الجزيرة ، وربط مصيرها بنا ، فكان من السهل

الميسور لنا في كل وقت أن نردم هذا الخليج ، وأن نملأ هذه الفجوة ، وأن نكون مسلمين حقيقيين بكل معنى الكلمة.

وأقول لكم أخيراً أيها الإخوان! إذا وجدت الحياة الإسلامية بحقيقتها وجمالها ، في هذه الإمارة ، وهي بالنسبة إلى البلاد الواسعة المترامية الأطراف ، منطقة صغيرة لا تسترعي انتباه كثير من الناس ، الذين لا يقيسون عظمة البلاد وأهميتها إلا بالمساحة الواسعة ، والعمران الكثير.

إنه إذا وجدت الحياة الإسلامية ، في هذه المنطقة بجمالها وكمالها وخصائصها وسماتها ، وفقد كل ما ينافي الإسلام ، من أخلاق وعادات ، وأعراف ومعاملات ، وحلَّت الآداب الإسلامية محلَّها ، وكان الزائر لهذه المناطق كلها يستنشق أريج الإسلام في الحقيقة ، يمر السائح فيشعر كأنه في معبد كبير ، ليس هذا المسجد المحدود ، وأنَّ البلد قد أصبح كله مسجداً يعبد الله فيه ، يُعبد الله في الدكاكين ، وفي المتاجر ، وفي المكاتب ، لا يُعصى على أيِّ شبرٍ من أشبار هذه الأرض أبداً ، حتى يكون الدين كله لله ، فإذا كان الدين كله لله ، وإذا كانت الحياة كلها عبادة ، وإذا كانت الأخلاق كلها إسلامية ، وإذا طبقت الشريعة تطبيقاً عملياً ، لا أقول تطبيقاً دستورياً فحسب ، إذا طبقنا الشريعة الإسلامية على نفوسنا ، قبل أن يطبقها ولاة أمورنا ـ وفقهم الله ـ نطبقها على نفوسنا في بيوتنا ، وفي متاجرنا ، وعلى أطفالنا ، وعلى نسائنا ، وعلى تجاراتنا ، وعلى صناعاتنا ، وعلى معاملاتنا ، وعلى سلوكنا الفردي والاجتماعي ، فصدِّقوا أنَّ كبار المفكرين والفلاسفة في العالم سيقصدون هذا المكان ، ولو سعياً على الأقدام ، أو مشياً على العيون والأهداب؛ ليشاهدوا المكان الذي يعيش فيه الإسلام ، والذي يستطيع به الإنسان أن يمسَّ الإسلام بأنامله ، حينئذٍ يُضرب الناس عن المصائف الشهيرة ، وعن المدن الجميلة ، وعن المناظر الفاتنة ، ويؤمُّون هذا المكان؛ ليستنشقوا هنا رائحة الإسلام ، وليقضوا فيه من عمرهم ساعات ، هي أسعد أوقاتهم ، وأفضل أيام حياتهم ، ويحسبون أنهم

في جنة ونعيم ، هذا سيكون إحساناً منكم إلى العالم الإنساني كله ، والإنسانية كلها .

وختاماً أشكركم على هذا الاستماع الكريم ، وعلى هذه الحفاوة البالغة ، التي استقبلتم بها إخوةً لكم في الإسلام حكومة وشعباً ، وأسأل الله أن يرعاكم ، ويسدد خطاكم ، ويوفق المسؤولين ورجال الشعب لصالح الأعمال، وخدمة الإسلام والمسلمين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

نظرة مؤمن واعٍ إلى المدنيات المعاصرة الزائفة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ٣/ محرم الحرام ١٣٩٧هـ الموافق ٢٣/ ١٢/ ١٩٧٦م في الديوان الأميري ، بمدينة «أبو ظبي» مركز الإمارات العربية المتحدة في الخليج العربي ، التي زارها على دعوة من سماحة الشيخ أحمد عبد العزيز آل مبارك رئيس القضاء الشرعي ، وقد حضر الاجتماع عدد كبير من الوجهاء المثقفين والأساتذة والمربين وقدم العلامة الندوي إلى الحفل الكريم فضيلةُ الشيخ أحمد إسماعيل اللبيلي قاضي المحكمة الشرعية ، وأشاد بجوانب شخصيته العديدة ومؤلفاته المتنوعة ، وكان للمحاضرة دوي في جميع الأوساط ، وقد نقل هذه المحاضرة من الشريط الأستاذُ محمد واضح رشيد الندوي ، أستاذ الأدب العربي في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، ورئيس تحرير جريدة «الرائد» العربية ، وكان مرافقاً للعلامة .

قال بعد ما حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى وسلم على نبيه ﷺ :

سادتي وإخواني! قصة يرويها المؤرخون العرب ، نمر بها مراً سريعاً عابراً ، تستحق منا لفتةً كريمةً عميقة ، وبها أفتتح حديثي هذا ، ولها اتصال وثيق بالموضوع ، وهي تدل على وضعية نظرة المؤمن الواعي إلى المدنيات المعاصرة الزائفة ، لعلكم أيضاً مررتم بهذه القصة فيما قرأتم من كتب تاريخ الفتوح الإسلامية في العصر الأول ، ولست أدري هل استوقفتكم هذه القصة كما استوقفتني ، وهل استلهمتم منها تلك المعاني الواسعة العميقة ، والنتائج الكبيرة الخطيرة التي استلهمتها ، وقد تلفت قصةٌ أو حديثٌ قارئاً من عامة القراء ، ولا يلفت ذلك الحديث قراءً آخرين ، وإن كانوا يفوقون القارىء الأول في كثيرٍ من الفضائل العلمية ، والنبوغ ، وبعد النظر والعمق. قصة رواها المؤرخون العرب ، على عادتهم في بساطةٍ واختصار ، ومن غير تعليقٍ واستنتاج ، يقولون: إنَّ «رستم»[(١)] قائد قواد الفرس طلب من سيدنا سعد بن أبي وقاص قائد جيوش المسلمين في فارس أن يرسل إليه رجلاً يستوضحه عن أغراض هذا الغزو الذي لم يكن للفرس به عهد ، ولم يكن للعرب به شأن ، إنما عرف العرب بالانطواء على نفوسهم في باديتهم قروناً طويلة ، فكانت هذه مفاجأةً لم يكن الفرس يتوقعونها ، والعرب قد عرفوا القناعة والتقشف في الحياة ، والانعزال عن العالم الخارجي في عامة الأحوال ، وعدم الطموح إلى فتح إمبراطوريات

(١) كان قائد الجيوش في إيران ووزير الحربية فيها ، وكان من أبطال الفرس المعدودين الذين يضرب بهم المثل في الشجاعة والشدة ، وهو الذي سعى في تنصيب الملك يزدجرد الثالث سنة ٦٣٢م ، وقلد مهمة دفع العرب المسلمين حين قدومهم لفتح فارس، قتل سنة ٦٣٥م (محرم ١٤هـ) في يوم القادسية ، وكان من بيوتات السبعة التي تم شرفها ، وكانت قيمة قلنسوته مئة ألف ، وهي علامة من تم شرفه في ذلك العهد . (ملخص من كتب التاريخ) .

جاورتهم ، فلما خرج العرب لأول مرة في التاريخ الطويل يغزون فارس والروم ، استلفت ذلك نظر المتأملين ، ونظر الذين واجهوا هذا الغزو وجهاً لوجه ، فأرسل سعدٌ ربعيَّ بن عامر [(١)]، وكان «رستم» قد بالغ في التزيين ، وبالأصح التهويل ، قد زين مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحريرية ، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة ، وعليه تاج ، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب[(٢)]. جاء ربعي بن عامر لا يكترث بشيءٍ ، ولا يحتفل بهذه الزينة العظيمة ، التي لم يعهدها ، فجلس بجنب «رستم» كأنه جالس بجوار رجل من زملائه ، فقال «رستم »: ما جاء بكم؟ فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[(٣)].

أيها الإخوة! إنني لا أريد أن أتناول هذه الأجزاء الثلاثة التي جاءت في هذه الكلمة البسيطة البليغة كلها شرحاً وإيضاحاً ، ولكنني أتناول شيئاً واحداً ، وهو قول ذلك المؤمن الواعي يخاطب «رستم» وهو في غاية أبهته ، وفي زهوه ، وعلى قمة مجده ، يقول له: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» إنني لا أستغرب قوله: «لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله» ولا من قوله: «من جور الأديان إلى عدل الإسلام» فقد كان كل حقيقة بديهية للمسلمين الذين غرس رسول الله ﷺ عقيدة التوحيد في نفوسهم ، وحبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ينظرون إلى جميع أنواع الشرك والوثنية وعبادة الإنسان للإنسان بعين الازدراء والاحتقار ، وكانوا يعافونها ، وكانت أذواقهم تمجها وتأباها ، وكان ربعي بن عامر يعرف أنَّ ملوك فارس وأمراءها قد استعبدوا

---

(١) كان من الصحابة كما صرح به الحافظ ابن حجر في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» وكان من أشراف العرب ، ولاه الأحنف على «طخارستان».

(٢) راجع الإصابة في تمييز الصحابة «ج١، ص ٥٠٣.

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير ج٧ ، ص ٣٩ طبع بيروت ١٩٦٦.

الناس ، وكانوا يعاملونهم معاملة الآلهة للعباد ، لا معاملة السادة للعبيد ، وكان الناس يكفرون[(١)] لهم ويسجدون ، ويرون أنهم فوق البشر ، يجري في عروقهم دم إلهي مقدس[(٢)]، وكانوا يؤمنون بأن الإسلام هو الشريعة العادلة ، وأن غيره من الأديان قد أصبحت جائرة تستعبد الإنسان للإنسان ، وتسخره للأحبار والرهبان ، وتقيده بأغلال وقيود وأحكام ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد قرؤوا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧]. وقرؤوا قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٤]. وقد آمنوا بذلك وشاهدوا آثارها في الأمم والديانات التي عرفوها ، كنصارى الروم ، ومجوس فارس ، ويهود المدينة.

ولو قال ربعي بن عامر: «لنخرج من شاء من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة» لم أستغرب ذلك ، لأنه آمن بالآخرة التي لا آخر لها ، وبالجنة التي لا حدَّ لها ، ولا نهاية ، وقد قرأ في الكتاب الذي قرأه ، وآمن به ، وعاش فيه ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣] ، ويقول رسول الله ﷺ في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»[(٣)]، وقال: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[(٤)].

ولكنني أستغرب قوله: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» هنا أتساءل: ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس ، وما هي السعة التي كان فيها العرب؟ حتى

---

(١) كفر الرجل للرجل: خضع بأن يضع يده على صدره، ويطأطىء رأسه، ويتطامن تعظيماً له.

(٢) راجع للتفصيل كتاب «إيران في عهد الساسانيين» لآرتهر كرستن سين.

(٣) رواه مسلم.

(٤) حديث متفق عليه رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

ساغ لربعي بن عامر رضي الله عنه ، أن يقول: إنا معشر العرب المسلمين نريد أن نخرجكم أيها الفرس الأشقياء المنكوبون من ضيق الدنيا إلى سعتها! هل كان ما كان فيه العرب يستحق أن يسمى السعة ، وهل كان ما كان فيه الفرس يستحق أن يسمى الضيق؟ ونسأل التاريخ عن ذلك ، وهو شاهد عدل ، وتاريخ العرب وتاريخ الروم والفرس مسجل مدون ، لا يتطرق إليه الشك ، قد جاء برواية الرواة العادلين الموثوق بهم ، وتضافرت الروايات والشهادات على ذلك ، فإذا كان العرب يعيشون في بحبوحة من العيش ، لم يكن ذلك مجهولاً أغفله التاريخ ، وإذا كان الفرس يعيشون في ضيق لم يكن ذلك خافياً.

وقد قرر التاريخ وأجمع المؤرخون على أنَّ الفرس والروم كانوا يعيشون في رغدٍ من العيش ، ويتقلبون في أعطاف النعيم ، قد اتسعت لهم الدنيا ، ولانت لهم الحياة ، أما العرب فبالعكس كانوا يعيشون ـ حتى بعد الإسلام ـ في شظف ، وكان العهد عهد خلافة عمر ، وكان الناس على الفطرة ـ العربية الإسلامية ـ وكانت المدنية لم تتعقد ولم تتوسع بعد ، وكان عمر ـ وهو خليفة المسلمين ـ يعيش حياةً متقشفةً زاهدة ، ويأخذ الناس بالتقشف والتخشن في الحياة ، وكانت هذه الحياة التي يحياها العرب في الجزيرة ، حياة بداوة ، وتخلف في نظر الفرس والروم ، وكانوا يتأسفون على حالهم ، ويرون أنهم في جهد من العيش ، وضيق من الدنيا.

فهنا نتساءل: ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس ، حتى رثى له ذلك المسلم العربي ، وما كانت السعة التي كان فيها العرب ، حتّى افتخر بها ذلك الصحابي؟ هل هو ضرب من ضروب المبالغات الشعرية؟ إن العرب لم يتعودوا ذلك ، إنَّ الإسلام لم يبح لأيٍّ واحدٍ من أفراد الأمة المسلمة أن يتبجح [1]، ويبالغ هذه المبالغة الشعرية ، إنهم كانوا بعيدين كلَّ البعد عن المبالغات والقول الجزاف ، كانوا أصحاب جدٍّ وصدق ، وأصحاب صراحة وشجاعة ، فما هو الضيق؟ إنه كان إذا دخل هذا المجلس ، بل إذا دخل في

(١) «يتبجح»: يفتخر ويتعظم ويتباهى.

حدود المملكة الفارسية العظيمة؛ كان جديراً كلَّ الجدارة بأن يسيل لعابه ، ويتحلب فمه على هذه الزخارف التي كان يتمتع بها الفرس ، وعلى هذه الأنواع من الأطعمة والأشربة ، إنه لا بدَّ قد شاهد الكثير من نفائس الأشياء وغوالي الطرف ، ومظاهر الحضارة والأناقة والترف ، إنه واجه هذه المدنية الزاهية الزاهرة ، التي بلغت قمتها ومجدها ، فقد وسعها الفرس بذكائهم واختراعهم ، وبتجاربهم الطويلة الأمد ، وبمغانمهم الكثيرة وفتوحهم الواسعة ، وكانت فيها مدن بقصورها الفاخرة ، ومبانيها العظيمة ، وحدائقها الغناء ، ومتنزهاتها الساحرة ، وأسواقها الزاخرة ، وطرفها ووارداتها العظيمة ، فمن أي نوع كان هؤلاء العرب الذين تمردوا ، وقسوا على هذه المظاهر الفتانة ، المظاهر التي يجنُّ بها الإنسان جنوناً؟ إنه لا ينقضي عجبي من قوله: «إن الله ابتعثنا (أيها الفرس) لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها» لماذا؟ لأنه كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء ، كما ينظر العاقل إلى دمى قد كسيت ملابس فاخرة جميلة ، إلى تماثيل قد أحكمت صناعتها. وتأنق صانعوها في تصوير قسماتها وملامحها ، ولكنها علىٰ كل حال تماثيل من حجر ، أو جبس ، لا حياة فيها ، ولا حراك بها.

كان ربعي بن عامر ـ وهو أحد أفراد الجيش الإسلامي ـ ينظر إلىٰ «رستم» كطائر مدلل في قفص من ذهب ، وكان كسرىٰ يزدجرد ـ الذي لم يره بعد ـ كذلك كعندليب وكطاووس ، أو كأي أجمل طائر ، لكنه علىٰ كل حال ، طائر محبوس ، هذا الطائر يوضع في قفص ، والقفص من ذهب ، أسلاكه كلها من ذهب ، والإناء الذي يأكل ويشرب فيه الطائر ، من ذهب كذلك ، ولكن هل يحسد هذا الطائرَ أيُّ إنسانٍ عرف قيمة الحياة ، وعرف قيمة الحرية والشعور ، وعرف قيمة العقل ، وعرف قيمة العلم؟ هل يحسد هذا الإنسان الذي أكرمه الله بالإنسانية ، يحسد هذا الطائر المدلل ، لأنه في قفص من ذهب ، وهو في بيت من مدر أو وبر؟ بل نخطو خطوة أخرىٰ ، هل نحسد كلباً مدللاً ، كلباً يربيه صاحبه الأوربي ، ويغذيه بأطايب الطعام ولذيذ الفاكهة ، ويسقيه اللبن ، ويقلده قلادة ذهبية ، وينيمه علىٰ فراش وثير ناعم؟!

إن نظرة ربعي بن عامر لم تكن تختلف عن نظرتنا إلىٰ طائر مدلل في قفصٍ ذهبي ، أو إلىٰ كلبٍ مدللٍ عند سيد أوربي ، وذلك كله لأنه كان كبير الاعتزاز بالعقيدة التي آمن بها ، وبالدعوة التي حملها ، وبالشخصية التي ملكها ، وبالرسالة التي اضطلع بها ، وبالقرآن الذي درسه ، وشغف به ، وأحبه ، وإنه كان معتزاً بالمعاني وبالقيم وبالحقائق التي هي أسمىٰ من تلك الزخارف والمظاهر ، فلم تبهره هذه المدنية ، ولم تسحرة مفاتنها ، إنه كان يعرف أن «رستم» ولو كان قائد قواد الفرس ، يعبد النار ، ثم إنه يعبد نفسه ، كما أنه يعبد سيده ، ويعبد عاداته .

وليست القضية قضية «رستم» أو قضية قائد من القواد أو أميرٍ من أمراء الفرس ، بل هذا هو الشأن مع سيدهم جميعاً ، مع الإمبراطور يزدجرد ، إنه كان يعرف أنه عبد لعاداته ، أو عبد لعبيده ، لا يستطيع أن يتحرك إلا بهم ، ولا يستطيع أن يصول ويجول إلا علىٰ أكتافهم ، إنه ليس إنساناً حراً ، بأيِّ معنىٰ من معاني الكلمة ، بل هو إنسان استعبدته الشهوات ، واستعبدته العادات ، واستعبدته الأعراف ، واستعبدته المظاهر ، واستعبدته النفس الأمارة بالسوء ، واستعبدته اللذات الجسدية الخسيسة ، والمطالب الحيوانية الحقيرة .

أنتم تعرفون أنَّ الإمبراطور «يزدجرد» هو ثاني الإمبراطورين العظيمين اللذين توزعا العالم المتمدن المعمور : كسرىٰ إيران ، وقيصر الروم ، وقد انتهت بي دراستي الحديثة للتاريخ المعاصر للفتح الإسلامي إلىٰ أن إمبراطورية الفرس كانت تفوق الإمبراطورية البازنطينية ، كانت أوسع منها ، وكانت ولايات من الهند تحت حكم الإيرانيين ، ومنها ولايات موغلة في الهند ، ولكن هذا الإمبراطور العظيم ، قد روىٰ عنه التاريخ أنه لما هرب من عاصمته «المدائن» ناجياً بنفسه ، وكان في حالة اللجوء والفرار ، حمل معه ألف طاهٍ (طباخ) هل تصدقون ألف طباخ ، وألف مغن وألف قيم للصقور والنمور ثم كان يقول : يا ويل نفسي إنني لم آخذ معي إلا هذا العدد القليل من الأعوان ومن الخدم والحشم ، كان يقول : أنا أستحق

الرحمة والرثاء ، فهل يعدُّ هذا الرجل رجلاً حراً سعيداً ، صاحب شخصية ، وصاحب إرادة ؟! ، ثم إنه لما لجأ إلىٰ عجوزٍ فقيرة ، وقدمت له الطعام وهي ترثي له ، وقد توسمت فيه الملك والشرف ، قال: لا أستطيع أن أستسيغ هذا الطعام حتىٰ يغنى لي[١].

إلىٰ هذه النقطة وصلت عبوديتهم ، ووصل رقيُّهم ، ووصل خضوعهم للعادات القاهرة ، إنه لم يكن يستطيع أن يتناول طعاماً وهو في حاجة إلىٰ الطعام ، حتىٰ يغني له المغنون ، أما من غير أغنية ، فهو غير قادر علىٰ أن يتناول الطعام.

ونذكر أن «الهرمزان» ـ ملك الأهواز ، وأحد كبار أمراء الفرس ـ لما أسر ، وجاء إلىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه في المدينة ، وكان ـ رضي الله عنه ـ نائماً في المسجد متوسداً برنسه ، فاستيقظ بالجلبة ، ودار الحوار بينه وبين عمر ـ رضي الله عنه ـ وشعر «الهرمزان» بالعطش فطلب الماء ، فأتي به في قدح غليظ ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا ، فأتي به في إناء يرضاه ، فشرب[٢].

ونبه أمير المؤمنين أصحابه علىٰ ذلك ، وحثهم علىٰ الحمد لله تبارك وتعالىٰ ، والشكر على نعمة الإسلام ، الإسلام الذي حررهم من هذه العبوديات ، ومن هذه الأصنام التي ينحتها الإنسان بنفسه ، ثم يفرضها على نفسه ، ويقول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] وهذه عادات وأعراف إنما نضعها نحن ونتفق عليها ، إنه لا يعتبر الإنسان شريفاً إلا إذا سكن في كذا من البيوت ، ولبس كذا من اللباس وظهر في المظهر الفلاني ، وكان له من الأثاث والرياش كذا وكذا. وإنَّ الفرس في العصر الذي نتحدث عنه ، كانوا يعيِّرون الرجل الكبير الذي لا تبلغ قيمة

---

(١) راجع للتفصيل «إيران في عهد الساسانيين» لآرتهر كرستن سين ، وكتاب العلامة الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الفصل الثاني من الباب الأول ، طبع في دار ابن كثير دمشق.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٧ ، وفتوح البلدان/ ٣٧٤.

قلنسوته مئة ألف ، ومن بلغ نصف الشرف؛ كانت قيمة قلنسوته خمسين ألفاً ، وكانت منطقة كبرائهم تقوَّم بخمسين ألفاً[١] .

وهذه الأعراف والمثل كلها من مخترعات الناس التي «ما أنزل الله بها من سلطان» أليست هذه المدنية الأوربية مجموعة من الأعراف المصطنعة ، والقيود المزورة ، والمصطلحات الموضوعة ، والالتزامات التي التزمها الأوربيون ومن قلدهم ، ما هو مصدرها؟ ومن أين جاءت هذه الالتزامات التي التزمناها؟ وقد خضعنا لتأثير هذه الحضارة وابتعدنا عن الطبيعة والتقشف الذي عرف به العرب ، وحثَّ عليه المربون للأمة الإسلامية ، كعمر بن الخطاب رضي الله عنه»[٢] .

وكان ربعي بن عامر بنظره البعيد ، وبإيمانه القوي وحسه العميق ، وإن كان قصير النظر في عين كثير من الذين يدعون العلم والمدنية ، ينظر إلىٰ هذه الالتزامات التي التزمها الفرس كقيود وأغلال ، وأطواق وأصفاد ، وهو لا يعرف منها إلا قليلاً ، ولكن الذي عرفه كان كثيراً ، وكان كافياً للشهادة ، وبذلك استطاع أن يقول : «الله ابتعثنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها» أيها الفرس لا تغرنَّكم أنفسكم ، ولا تخدعنَّكم هذه البهرجة ، لا تخدعنَّكم هذه المظاهر الجوفاء ، أنتم تعيشون في قفص ، والقفص قفص ، وإن كان من ذهب ، القفص قفص ، وإن كان من زجاج ، القفص قفص وإن كان واسعاً سعة المدينة ، ولكنه قفص ، وما هو السجن ، لماذا يسمىٰ سجناً؟ ألا يكون واسعاً؟ ألا تكون فيه الغرف؟ الغرف التي قد لا يوجد مثلها في بيوت كثيرٍ من أوساط الناس ، لكنه سجن علىٰ كل حال ، وليس منا من يريد أن يعيش في السجن ، مهما توفرت فيه أسباب الراحة والرفاهية ،

---

(١) راجع تاريخ الطبري ٤/ ٦ ـ ١١ ـ ١٣٤ .

(٢) فقد كتب إلىٰ بعض عماله العرب وهم في بلاد العجم : إياكم والتنعم وزي العجم ، وعليكم بالشمس ، فإنها حمام العرب ، وتمعددوا (يعني تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف) واخشوشنوا (أي تخشنوا في المطعم والملبس) . . . الخ رواه البغوي عن عثمان النهدي .

ومهما اتسع وانفسح ، وكانت فيه حدائق وبرك ، ومتاحف ومتنزهات .

إنَّ هذا العربي المسلم الواعي الذي كان بعيداً عن كل ظلٍّ من ظلال ما نسميه اليوم؛ «مركب النقص» ومن كل شبحٍ من أشباح الانهزامية وفقدان الثقة ، لو عاش إلىٰ هذا العصر ، لنظر إلىٰ المدنية الغربية ، والمدنية الباذخة التي يعيشها العرب ، والمسلمون في كثير من بلادهم ، لنظر إليها بنفس النظرة التي نظر بها إلىٰ المدنية الإيرانية ، والمدنية الرومانية ، ولرثىٰ لأهلها كما رثىٰ للفرس والروم ، وتمنىٰ أن يخرجهم من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، كما تمنىٰ ذلك للفرس والروم .

كان هذا العربي يتنعم بالحرية التي عرفه بها الإسلام ، فنقله من دنيا ضيقةٍ محدودةٍ خانقة: دنيا المعدة والمادة ودنيا الشهوات والأغراض ، ودنيا العبودية والاستعباد ، دنيا الحياة الفانية الزائلة المكدرة بالهموم والأمراض ، والأحزان والآلام ، إلىٰ دنيا واسعة غير محدودة ، إلىٰ دنيا اليقين والإيمان ، إلى دنيا القلب والروح ، والإيثار والمواساة ، والعدل والمساواة ، والعطف والرحمة ، والطيب والصفاء ، والخلود ، والبقاء ، دنيا لا كدر فيها ولا فساد ، ولا خوف فيها ولا حزن ، إنه كان يتمتع بهذا النعيم الذي حرمه الفرس والرومان في وقتٍ واحد ، فكان ينظر إلىٰ مدنية الفرس والروم وحياتهم كقفص ضيق يختنق فيه الإنسان الحرُّ الكريم ، المؤمن الواعي ، كما تختنق السمكة إذا أخرجت من الماء ، ووضعت علىٰ فراش وثير ناعم ، أو في علبة ذهبية مزخرفة .

هذه نظرة أعرابي مسلم ، فكيف نظرتنا نحن أيها الإخوان المثقفون؟ أيها المعلمون الكبار! يا أساتذة الجامعات! يا موجهي التربية والتعليم! يا حملة الأقلام! يا سائحين في أوربا! كيف نظرتنا إلى المدنية المعاصرة الزائفة؟ هل هناك نسبة بين نظرة ذلك الأعرابي الذي لا ثقافة له ، والذي لم يعرف العالم مثلما عرفنا ، ولم يدرس التاريخ مثلما درسنا ، ولم يعرف تجارب الأمم مثلما عرفنا ، ولم يقرأ الفلسفات ، ولم يتعمق فيها كما تعمقنا ، هذه نظرة رجل من العرب ملأه رسول الله ﷺ ، وملأه الإسلام ثقة واعتزازاً ، وإيماناً

وشجاعة ، واحتقاراً للدنيا ، ومعرفةً للحقيقة ، كان يستطيع أن يقول لأكبر قائد في العالم المعاصر «رستم» ، الذي كان اسمه يخلع القلوب ، وكان بعد كسرىٰ ، وفوق كل قائد وأمير في فارس ، كان يستطيع أن يقول له وبصوت ملؤه التحكم والتهكم: أنا أرثي لك يا رستم ، أنت في الشقاء ، أنت في ضيقٍ من الدنيا ، ونحن العرب المسلمين الذين أبدانهم نصف عارية ، والذين أجفان سيوفهم بالية ، وثيابهم مرقعة ، ونعالهم مخصوفة ، نحن نعيش في الجنة وأنت تعيش في جهنم.

ما الذي حمله علىٰ هذا القول ، القول الجريء القوي ، الكلمة المدوية المجلجلة؟ إنما هو إيمانه ، وثقته بشخصيته ، وبفضل رسالته والتعاليم التي أكرمه الله بها ، فكم منا أيها الإخوان! قولوا لي بصراحة ، كم منا في جامعاتنا ، وفي مكاتبنا ، وفي مكتباتنا ، وكم منا في أدبنا ، وفي شعرنا ، وصحافتنا ، من يستطيع أن يخاطب أوربياً أو أمريكياً ، يعيش علىٰ فتات مائدتنا ، نحن الذين يغذونهم ، فلولا هذا النفط الذي يفيض من جزيرتكم ، لما كان لأمريكا ، ولما كان لأوربا هذه الصولة ، الأوربي الذي أفلس في إيمانه ، وفي خلقه ، وفي شخصيته ، وهو الآن مصاب بالجذام الخلقي ، وبذلك دخلت حضارته في دور التفسخ والتعفن ، وهو لا يعرف لها علاجاً ، ولا يملك لها زماماً ، تاجر مرتزق ، مستأثر مستغل ، تنكر للمسيحية قبل مدة طويلة ، فانقطع آخر خيط كان يربطه بالسماء وبالنبوات والأخلاق ، بل بالعكس ننظر إليه نظرة تمجيد وإجلال ، نظرة تقديس وتأليه ، ونحتقر نفوسنا وحضارتنا ومثلنا وديننا ، أمام حضارته ومثله ، ونذوب أمامه كما يذوب الندىٰ أمام الشمس ، والشمع أمام وهج النار ، ذاك العربي المسلم الذي عرف قيمته وقيمة رسالته ، يقول لرستم: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها» والله إن هذه الكلمة لو وضعت على الجبال لزالت ، ولو وضعت علىٰ البحر لتبخَّر ، فكيف بالقلوب؟ كيف بالنفوس؟ كيف بالضمائر؟ هذه النظرة التي كان ينظر بها المؤمن الواعي في عصر الدعوة الإسلامية الأول ، إلىٰ المدنيات المعاصرة الزائفة ، وهذه النظرة التي يجب أن ينظر بها المؤمن الواعي إلىٰ المدنية

المعاصرة الزائفة ، هذا الذي أريد أن أقوله اليوم وأتركه أمانة لكم في هذه المدينة الجميلة الزاهية ، العاصمة التي قفزت من الصحراء كزهرة جميلة ، فوصلت إلىٰ هذه القمة من المدنية ، أريد أن أقوله هنا ، وأرسله إلىٰ أقصىٰ ما أستطيع أن أرسله إليه.

يجب أن ينظر العرب ، يجب أن ينظر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، بهذه النظرة الواعية ، بهذه النظرة المؤمنة المملوءة بالاعتزاز ، إلىٰ المدنية الزائفة المعاصرة التي تحيط بنا ، لسنا متطفلين ، لسنا أدعياء[١] ، لسنا من الذين لفظتهم الأرض ، ما لنا نسب ، ما لنا أصالة ، ما لنا تراث ، ما لنا حضارة ، ما لنا تاريخ ، ما لنا أجداد ولا أمجاد ، لا ، لا ، أيها السادة! إننا أغنياء ، إننا معلمون للعالم ، إننا موجهون للأمم ، لكن ما هو الواقع المرير الأليم ، الواقع أننا مسيرون لا مخيرون ، إننا موجَّهون ـ بفتح الجيم ـ لا موجِّهون ـ بكسر الجيم ـ إننا تلاميذ لا أساتذة ، إننا متطفلون ، لسنا أصحاب موائد ، وأصحاب كرم ، لسنا أصحاب شخصية.

وجزىٰ الله المؤرخين العرب المسلمين الذين حفظوا هذه الكلمة الخالدة التي تلقي الأضواء على شخصية العرب الأولين الذين أكرمهم الله تعالىٰ بالرسالة الإسلامية الخالدة ، والتي كانوا معتزين بها كل الاعتزاز ، مكتفين بها كل الاكتفاء ، وكانوا يعتبرونها أفضل من كل شيء ، وكانوا يرون أن الشيء الذي لا ينبع من هذا المصدر ، ولا يرجع إلىٰ هذا الأصل ، إنه شيء لا قرار له ، وإنه شيء لا قيمة له.

هكذا يجب أن يكون موقفنا إزاء المدنيات ، إزاء التحديات الجديدة التي تتحدانا بها هذه المدنية ، وهذه الفلسفات المعاصرة ، ليكن موقفنا موقف عملاق معتد بكرامته ، معتزٍّ بشخصيته ورسالته ، مستخدمٍ لعقله ومواهبه ، حرٍّ في رفضه وقبوله ، مقتبسٍ منها ما ينفعه ولا يضرُّه ، ويطابق أهدافه ومثله ولا ينافيها ، ويضفي عليه قوةً جديدة ، ولا يوهن هيكله

---

(١) أدعياء: جمع دعي وهو المتهم في نسبه ، والَّذي يدعي غير أبيه ، أو غير قومه.

وينخره ، لا موقف قزم فقد الثقة وخسر الإيمان ، وتضاءل وانضوىٰ أمام كلِّ شبحٍ من أشباح القوة والسلطان ، وأحبَّ الحياة وأشفق من الموت ، وبعد عن ميدان المغامرة والطموح ، والأصالة والابتكار ، والإمامة والقيادة ، فهو ينظر إلىٰ المدنية المعاصرة الزائفة كما ينظر طفل صغير واقف في سفح جبل ، إلىٰ قلته ، يتمنىٰ لو ارتقىٰ إليها .

وأختم حديثي هذا بمقطوعة شعرية لشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، خاطب فيها الشباب المسلم المثقف ، الذي سحرته المدنية الغربية ، فجهل شخصيته ، وجهل أبعادها ، وأعماقها ، ومضمراتها ومكنوناتها ، فعشق المادة ، وعاش في خوف من الموت ، يقول :

«عجباً لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك ، إلىٰ متىٰ تظل غافلاً جاهلاً؟ وتجلس ضائعاً عاطلاً ، إنك نور قديم ، فأنر به الليل البهيم ، في كمك اليد البيضاء ، فاعمل بها عمل الكليم[1] ، تخط حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها ، والفائق عليها ، فقد كنت ولم تكن ، وستكون ولا تكون ، هل تخاف الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟! لقد كان جديراً بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له وترصد به ، اعلم يقيناً ، أنَّ الكريم إذا وهب شيئاً لا يسلبه ، ولا يسترده ، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح ، إنما حتفه في ضعف الإيمان والحرمان من اليقين»[2] .

* * *

---

(١) يعني بها موسى الكليم .

(٢) انظر : «روائع إقبال» للعلامة الندوي ص٩٨ .

هـذه الـدنيـا وقـفٌ مُقـدَّسٌ، ولـيست بـدكَّـان تـاجـر

ألقىٰ العلامة الندوي هذه المحاضرة في حفلة ترحيبية عقدت علىٰ شرفه في المكتب المركزي لمصلحة الأوقاف بمدينة «لاهور» في ٢٧/ يوليو ١٩٧٨ م حضرها العلماء والقضاة والمحامون ، ورجالات القانون والمثقفون.

أصحاب الفضيلة والسعادة العلماء ، والمسؤولون عن وزراة الأوقاف والعاملون فيها ، والمستمعون الكرام!

إني أشكر وزارة الأوقاف علىٰ أنها شرفتني بتوجيه الدعوة إليَّ للحضور في هذا الحفل الكريم والحديث إليه ، وقد كنت ظننت لما تلقيت الدعوة أنَّ الحفل سيكون مشتملاً علىٰ عددٍ محدودٍ من أولئك السادة الذين يتصلون بإدارة الأوقاف ، وأني سأسعد بالتعرف عليهم والاستفادة منهم ، ولكني لما حضرت فوجئت بأنَّ المطلوب مني الحديث في الحفل الكريم حول موضوع «حاجة العالم المعاصر إلىٰ الإسلام».

وشغلني التفكير فيما عسىٰ أن تكون صلة هذا الموضوع بمصلحة الأوقاف الكريمة ، ولم يطل تفكيري ، وتوصلت إلىٰ الحقيقة ، وأدركت عمق هذه الصلة ، حيث إنَّ دنيانا هذه في الواقع هي وقف مقدس ، وإنما يصلح لتوليها أولئك الذين يعرفون تمام المعرفة مقاصد هذا الوقف ، ولا يهتمون بأهداف الواقف فحسب ، بل يخلصون لها في غاية الأمانة والوفاء.

وأصبحت الدنيا اليوم وقفاً مظلوماً ، لا يعرف الذين يتولون أمره ، ويقومون عليه المقاصد التي أريدت من ورائه ، بل إنَّهم يحاربون هذه المقاصد ، ولم يكتشفوا بعد من هو واقف هذا العالم الإنساني ، وهذا الكون؟ . . . إنَّكم تعرفون جيداً عن تجربةٍ أنَّه لا بدَّ أولاً من الاطلاع على الواقف ، ثم الاطلاع علىٰ غايته ، ولا بد ثالثاً أن يكون المتولي يشعر نحو الوقف بأنه متوليه الأمين الوفي . . . وقد جاء التعبير في القرآن الكريم عن تولية هذا الوقف بألفاظ كثيرة ، فجاء في موضع : ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] . . . . إنَّ هذا «الاستخلاف» أيضاً نوع من التولية ، فقد خلق الله هذا الكون ، وفطر هذه الأرض ، وعمر عليها هذا الإنسان وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩] ،

فكأنه ولىٰ الإنسان جميع ما في الأرض ، ولكن أكَّد عليه أنه ليس مالكه الحقيقي ، بل إنَّه خليفته فيه ، فيتصرف فيه حسب مشيئة المالك الأصلي ، ولا يجوز له أن يتخطىٰ رضاه ، ويتعدَّىٰ أوامره وإرشاداته في هذا الصدد.

ولكل وقف ـ مهما كان صغيراً ـ قوانين مقررة ، والمنبر الذي نتحدث منه إليكم مكتب مركزي من مكاتب مصلحة الوقف؛ التي أساسها الحفاظ علىٰ الأوقاف ، وأرجو أنكم جميعاً أوفياء أمناء في عملية الحفاظ ، وتحقيق الأغراض المنشودة من الأوقاف. . . ولكن مسكينة هذه الدنيا ، ومسكينة هذه الكرة الأرضية الواسعة ، لأنها وقف لا تجد نظيره في تاريخ الأوقاف ، فقد يتصرَّف القائمون عليه كما يشاؤون ، ويعيشون ، ويفسدون. . وقد كان الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي وقف هذا الوقف ، وجعل الأنبياء والرسل وأممهم متوليةً وقائمةً عليه ، وكان متوليه الأخير هو سيدنا محمد ﷺ ، فدته أنفسُنا وأرواحُنا.

الأمـة المسلمـة لـيست كحشائـش الغابـة والشجيـرات التي تنبت عفواً:

ومزية سيدنا محمد رسول الله ﷺ من بين جميع الأنبياء والرسل ، أنَّه لم تكن بعثته بعثة نفسه وحدها كالأنبياء الآخرين ، بل كانت بعثة أمةٍ أيضاً ، ومعنىٰ ذلك أنَّ هذه الأمة ليست حشائش الغابة أو الشجيرات التي تنبت عفواً ، أو ليست كهوام الأرض. إنَّ القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة كلاهما يذكران هذه الأمة بكلمات تنبىء عن المسؤولية الجسيمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . . . كلمة «أخرجت » تدل علىٰ أنها أنشئت لغاية: للحفاظ علىٰ الإنسانية ، ولتحقيق أهداف ربِّ العالمين ، فاطر السموات والأرضين ، وكخليفة الله في الأرض ، ووصفها الحديث النبوي بما يلي: «إنما بُعثتم ميسِّرين ، ولم تُبعثوا معسِّرين»(١) ، قد دلَّت كلمة «بعثتم» أنَّ الأمة أسند إليها عمل ، وكلِّفت بتحقيق غاية ، ونُصبت لأجل تحقيق غرضٍ كريم ، ودلَّت كلمة «ميسِّرين» أنها خلقت لكي توفر

(١) أخرجه البخاري في الوضوء والأدب والطهارة ، وأحمد في المسند ج ٢ ، ص٢٣٩.

السهولة ، لا لكي تخلق الصعوبة. . . الحكومة مسؤولة عن ضياع وقف مهما كان ضئيلاً ، وسواءً كان الوقف عبارة عن مسجد ، أو عن دار لليتامىٰ والعجزة ، أو عن عقار ، أو ما إلىٰ ذلك ، فهي تستخدم جميع إمكانياتها ووسائلها في سبيل الحفاظ عليه ومنعه من أن يقع عرضةً للضياع والهدر. . . وذلك شيء تمرون به ليل نهار ، ولكن يا لضياع هذا الوقف ، إنَّ القائمين عليه يتصرفون فيه كما يشاؤون ، وأصبحوا ملاكاً له بدون جدارة وبدون شرعية ، وعلىٰ الرغم من ذلك يقفون منه موقف الأعداء الحانقين ، ويعاملونه معاملة مقبرة ليست بها داعٍ ولا مجيب ، بل معاملة أشنع منها وقد «حوله الإفرنج إلىٰ مواطن الميسر والقمار» كما يقول الدكتور محمد إقبال رحمه الله.

هل تستطيعون أن تصبروا وقد حُوِّل مسجدٌ إلىٰ دار القمار؟ ولكن هذه الأرض التي قال فيها النبيُّ الأعظم ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» حوَّلها الإفرنج إلىٰ مخبأ القمار ، وأنتم هادئون ساكتون.

أعتقد أن الذين حددوا للكلام هذا الموضوع الذي نتحدث حوله كانوا أذكياء بعيدي النظر ، وقد أصابوا المحزَّ ، حيث لفتوا الأنظار من هذا الوقف إلىٰ الوقف الأعظم.

لو ألقيت نظرة علىٰ هذا العالم لوجدت أن الذين كان عليهم أن يكونوا بناةً أصبحوا معاول الهدم ، والذي كان عليهم أن يكونوا أمناء حارسين؛ أصبحوا لصوصاً غاصبين ، وقطاعاً شطاراً ماكرين ، والذين كان عليهم أن يرعوا ضروريات ساكنيه وأهله ، وحوائجهم ، وعواطفهم؛ صاروا يصيدون في كلِّ ماءٍ عكر ، وجعلوا يقيمون قصور تنعمهم علىٰ أنقاض أحلامهم ، وأطلال آمالهم ، وعادوا يفكرون في الإطاحة بهذا العالم ، ويحفرون قبوراً للأفراد ، بل للأقوام والأمم والبلاد ، بل للإنسانية؛ لكي يدفنوها للأبد.

إنَّها لمؤامرةٌ ضدَّ الإنسانية ، مؤامرةٌ ضدَّ الأخلاق كما يقول إقبال ، ومؤامرةٌ ضدَّ مصير الإنسان ومستقبله ، ولا أدري ما إذا كانت هذه المؤامرة ضدَّ حاضر الإنسان قبل مستقبله ، ويومه قبل غده.

وحقاً إنَّ هذا الوقف عرضةٌ للضياع والهدر ، وحق لكلِّ أفراد بني آدم أن يقوموا للدفاع عنه ، ويحطموا أيدي الغاصبين والمعتدين عليه ، وأن يقيموا عليه الدعوىٰ.

أقـيمـوا محكمـة الإسـلام:

يحقُّ لجميع الجنس البشري أن يقيم دعواه علىٰ ما يتعرض له هذا الوقف العظيم الكريم من معاملةٍ قاسية ، ومن غصب ونهب ، ومن إضاعة وإهدار . . . إنَّكم ترفعون قضيتكم الشخصية إلىٰ المحاكم العادية ، إلىٰ المحاكم العليا ، وإلىٰ محكمة قاضي القضاة، فأين تقام الدعوة ـ يا ترىٰ ـ ضدّ هذه المؤامرة الأليمة العالمية ، ضدّ الإنسانية والنوع البشري؟ ، اسألوا الحقوقيين ، اسألوا المعنيين بالقضايا الإنسانية ، اسألوا العطوفين علىٰ الإنسانية: أين تقامُ هذه الدعوىٰ؟ .

إنَّ الذي عقّد الأمر ، أنَّ المدَّعىٰ عليهم هم القضاة ، وإذا كان الأمر كذلك فماذا يرجىٰ من النتيجة ، وماذا ينتظر من العاقبة ، ولماذا يرجىٰ القضاء العادل والحكم الحقيقي الحاسم؟ . . . فلنقم أوّلاً تلك المحكمة التي ترفع إليها هذه القضية ، وتقام فيها هذه الدعوىٰ ، وتلك المحكمة ستمتاز بميزتين بارزتين؛ الميزة الأولىٰ: هي العدل والإنصاف ، والميزة الثانية: هي القوة والتمكين ، لأنك اليوم لو تقدمت بقضيتك إلىٰ معنيٍّ بالإنسانية ، إلىٰ محبٍّ للخير ، إلىٰ عاقلٍ نبيلٍ مؤمن ، يقضي فيها بقضائه ، ويحكم فيها حكمه ، ويبدي فيها رأيه ، لكنه يكون لا يتمتع بالسلطة التي تمكنه من تنفيذ هذا القضاء ، وإمضاء هذا الحكم ، فلا تجني منه فائدةً ، ولا تعود منه بطائل.

ولا يملك اليوم بلدٌ من البلاد الإسلامية أن يغيث الإنسانية البائسة ، بل لا يقدر أن يدافع عن الأخطار التي تدقُّ بابه ، ويطرد العدوان علىٰ نفسه وأبنائه.

إنَّ مأساة اليوم بلدٌ من البلاد الإسلامية أن يغيث الإنسانية البائسة ، بل

لا يقدر أن يدافع عن الأخطار التي تدقُّ بابه ، ويطرد العدوان علىٰ نفسه وأبنائه.

إنَّ مأساة المآسي اليوم أنَّ الخيانة متحكمة في العالم البشري كله ـ الذي هو كوقف مقدس ـ أصبح يتحكم فيه قانون الغابات ، يأكل القوي فيه الضعيف ، وعاد كلُّ إنسان يرىٰ كلَّ شيء مباحاً له ، بل سائغاً حلواً ، هنيئاً مريئاً ، كلبان الأم لدىٰ الطفل الرضيع.

كان هذا السلوك مع الوقف المقدس ؛ الذي أنشأه الله تبارك وتعالىٰ بذلك الاهتمام العجيب؛ الذي ذكره مراراً وتكراراً في كتابه العظيم ، القرآن الكريم ، والكتب الأخرىٰ التي أنزلها علىٰ عباده المرسلين من قبل ، وكان يكفينا ، لتقدير قيمة هذا الوقف المقدس تنويه الله سبحانه بشأن ذلك مرةً واحدة ، فكيف وهو يكثر من ذكره وتفصيل أوصافه وملامحه ، ويذكر نوعية إنشائه للأرض ، وطريقة دحيه لها ، ونصبه لخيمة السماء ، ورفعه سقفها على طريقة هي أعجوبة العجائب ، وأنه جعل الشمس سراجاً ، وجعل القمر فيهن نوراً ، وأنبت في الأرض جناتٍ وزروعاً من نبات شتىٰ ، وفجر الأنهار. . . إلخ.

لماذا كلُّ هذا التفصيل في الوصف؟ . . لكي يدرك بنو آدم عظمة هذا الوقف ، ويضعوا في اعتبارهم قداسته. . . وذلك أنكم حينما تعلمون أنَّ هناك وقفاً له سجِّل فيه تفاصيل مساحته ، وتحديده الجغرافي ، وأبنيته ، وأنَّ فيه ـ مثلاً ـ مكتبةً عظيمةً تحتوي علىٰ عدد كذا من الكتب ، حينما تعلمون كل ذلك تحسبون له ألف حساب ، وتعيرونه كلَّ اهتمام ، فكذلك أراد الله جلَّ وعلا أن يثبت في قلوبنا أهمية هذا الوقف الأعظم ، حينما فصَّل وصفه ، وأكثر ذكره ، وحدَّد قسماته وملامحه ، ولكن نراه اليوم يعاني معاملة قاسية ، ففي ناحيةٍ تجري عملية هدم سافرة ، وفي ناحية توجد الوسائل بأنواعها ، ولا يعرف أصحابها الأهداف والغايات ، لا يعرفون فيم يستخدمونها ، وكيف يستعملونها ، ولأي غرض يسخرونها ، وبأي طريق يحققون بها سعادة العالم البشري ، ويخففون بها بعض ما يعانيه من آلام

مبرحة، ويصلون بها فيما بين أفراد الجنس البشري، ويقلِّصون الفجوة التي وقعت فيما بين قلوبهم، ويزيلون الإحن، والحقد، والعداء، ويحلُّون محلَّه الحبَّ، والثقة، والتعاطف، ويلقنون الإنسان درس الإنسانية.

المسيحية واليهودية عاجزتان عن التوجيه:

هذه الأغراض الشريفة لا يمكن تحقيقها إلاَّ عن طريق الأنبياء، ولا يستطيع اليوم أن تحققها ديانةٌ سوىٰ الإسلام، أما المسيحية فهي عاجزة عن ذلك عجزاً كلياً، لأنها تعاني الفراغ الهائل، فرغت جعبتها عن كل ما لديها من إثارة النور الإلهي، وبقايا التعليم السماوي، فلا تقدر أن توجه أبناءها، وتحل عقدها ومشكلاتها، وتكبح جماحها، وتحدَّ من تطرفها، فضلاً عن توجيه العالم، وقيادة الدول والأمم، لأنها مسيحيةٌ مشوهة تماماً، لا تمتُّ بصلةٍ ما إلىٰ المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام.

أما اليهودية، فعهدها بالانحراف عريقٌ في القدم، إنَّها ليست إلا عبارة عن طقوس، وتقاليد، وعنصرية، وتدور حول سلالة سيدنا يعقوب عليه السلام وأسباطه، ولا تبالي بسلالةٍ إنسانية أخرىٰ، ونوع بشري آخر، بل إنها تخطط تدمير الأسر الإنسانية، وتحطيمها خلقياً وسلوكاً، يصارح أبناؤها أنهم يهدفون إلى إشاعة الفاحشة والمنكر في أمم العالم، وأن يضربوا علىٰ جذور قيمها ومثلها، وأن يوقعوها في الفوضىٰ والقلق، ويجعلونها مفلسةً في الفكر والرأي والمعنوية، حتىٰ تكون هي كقطع الشطرنج بأيديهم يديرونها كيف يشاؤون، وأن يجعلوها ذليلةً مهانةً حتىٰ تستسلم لهم، وتخضع لإرادتهم، وتكون رهن إشارتهم... تلك هي اليهودية.

فلا رجاء إذاً إلا في الإسلام، فهو وحده يستطيع أن يوجه العالم، والعالم اليوم بأمس حاجة إلىٰ الإسلام؛ لكي ينقذه من الأزمة الأخلاقية التي تهدد كيانه... لو عامل هؤلاء هذا العالم معاملة دار الأيتام، وظنوا أهله يتامىٰ يحتاجون إلىٰ من يمسح دموعهم، لو وقفوا هذا الموقف، لرضيناه،

ولو علىٰ غصص ومضض ، لرضينا لو وقفت أوربا من هذا العالم وأهله موقف الناس من اليتامىٰ المنكوبين ، فواسته مواساة الناس للفقراء والمساكين ، وحدبت عليه ولو حدب اللئيم علىٰ اليتيم الكريم.

عاد العالم اليوم مكان قنص وصيد :

ولكن ـ للأسف ـ لم يعد العالم داراً للأيتام أو العجزة والمساكين ، بل تحوَّل إلىٰ مصاد ، تتدفق دفعات الصيادين من هنا وهناك ويصيدون الأمم والأقوام ، ويدوسون الدول والبلاد . . إنَّ الأمم الشرقية والبلاد الإسلامية أصبحت كبقرةٍ حلوب للقوى العظمىٰ والدول الكبرى ، إنَّ قيمة البلاد الشرقية لدى الدول الكبرى تكمن في استيراد المواد الخام (Raw Material) منها واستيراد البترول ، أما الدول الشرقية أو الإسلامية فلا تنال منها مقابل ذلك كله إلا مساعدة مزعومة لدىٰ الحروب لمقاومة الأعداء ، إذاً فإنها كحطب لمطبخ الدول الكبرىٰ أو كوقود لتنورها ، ولا تحمل هي عندها قيمة أكثر من ذلك ، قد رأيت كلَّ ذلك ، وجرَّبت عن كثب ومشاهدة ، فقد زرت الشرق والغرب ، كانت أوربا تدعو الدول الشرقية من قبل «دولاً متخلفة» وبدأت اليوم تدعوها «الدول النامية» ومهما تغيرت في إطلاق الأسماء ، فإنَّ المسميات عندها لم تختلف عن أنها كوقود توقد به موقدها ، وتشعل به نارها ، لأنها تعلم أنَّ مصائر الأمم الشرقية كلها بيدها ، تقودها كما تشاء ، وتظن أنها قادرة علىٰ أن تعامل هاتي الأمم معاملة العجماوات والبهائم ، بل معاملة الجمادات الصَّماء البكماء ، ومن المؤسف جداً أنه ليس هنا قوة تقف في وجهها ، لأنَّ الأمم كلها فقدت قوتها وتماسكها ، وتعودت الخنوع والاستسلام ، ونسيت رسالتها وقيمها ، وتخلَّت عن سيرتها ، وتجرَّدت من سلوكها ، وانسحبت عن الميدان.

الأمر يتوقف اليوم كلياً علىٰ الإسلام والمسلمين :

ومن هنا فإنَّ الأمر يتوقف تماماً علىٰ الإسلام وأبناء الإسلام ، وتشتد حاجة البشرية إليهم كحاجة الذين وقعوا فريسة الحريق إلىٰ فريق الإنقاذ ، والإسعاف ، ورجال المطافىء ، وذلك ما يضخم مسؤوليتكم أنتم أيها

السادة! عليكم أن تتداركوا هذه البلاد ، وتبذلوا عليها عنايتكم ، وتصرفوا جهودكم إلىٰ إصلاح المجتمع ، إنَّ المجتمع في كل بلد إسلامي قد بلغ اليوم إلىٰ حالة أسوأ من التفسخ والانهيار ، ويحتاج إلىٰ كل إسعافٍ طبيٍّ سريع ، إنَّ عيب المجتمع ليس في أنه عاد فاسد الأخلاق والسلوك ، بل في أنه صار فاسد الطبيعة والعقلية ، إنَّ المجتمع لو وقع فريسة الفساد الخلقي ، يمكن علاجه بآلاف الأدوية ، ومئات الطرق ، أما إذا فسدت طبيعته ونفسيته ، فإنه لا يؤثر فيه دواء ، ولا تنفع فيه حيلة ، ولا يغني فيه طبيب نطاسي .

إنَّ مصلحة الأوقاف تستطيع أن تقوم بدورٍ كبيرٍ في هذا الصدد بفضل إمكانياتها ، ووسائلها ، تستطيع أن تقوم بعملٍ عملاقٍ عن طريق خطباء المساجد وأئمتها الذين لهم اتصال مباشر بالشعب ، ولو بذلت مصلحة الأوقاف عنايتها على هؤلاء الأئمة والخطباء ، واستقطبت اهتمامهم إلىٰ جانبٍ واحد: إلىٰ جانب إصلاح المجتمع وحده ، دون تعرض للمسائل المختلف فيها التي من شأنها أن تثير الخلاف في صفوف المسلمين ، وأن تشتت شملهم ، لو صنعت ذلك لتكون قد قامت بعملٍ جليلٍ جداً ، ولخدمت العالم الإسلامي خدمةً عظيمة ، ولأنقذت هذه البلاد من كثيرٍ من الأخطار والويلات .

تعلمون أنَّ محمداً الفاتح لما غزا القسطنطينية وكانت جيوشه تقتحمها ، وتتغلب عليها ، كان أهلها متشاغلين في نوعية الخبز الذي تناوله سيدنا المسيح عليه السلام في العشاء الرباني ، وجرت حول ذلك مناقشات حادة ، وتقعير وتنقيب فلسفي ، في تلك الساعة الحرجة التي كانت فيها جيوش محمد الفاتح تقتحم القسطنطينية . . . أخاف أن تدور هناك في بلادكم أمثال هذه المسائل الخلافية في وقت تغزو فيه بلادنا الحضارة «الفاتحة» والمدنية الفاتحة . إن الحضارة الغربية اليوم تتقدَّم اليوم فاتحةً تقدماً جنونيّاً ، وتزعزع قيمنا ومثلنا ، وتفكك عرىٰ البلاد الإسلامية بما فيها بلادكم هذه ، وتؤثر علىٰ المجتمع الإسلامي ، وتعاني الحضارة الإسلامية الاحتضار والانهيار ، وأصبح المسلمون فريسة الردة الفكرية والعقلية ، في مثل هذه الساعة

الحرجة يجري عندنا البحث في مسائل علم الغيب ، وبشرية الرسول ، وملكيته ، وعلمه للغيب ، وما كان من المتوقع لدىٰ العقول أن تثار أمثال هذه المسائل في مثل هذا الوقت الحساس ، لكن الدهر حبلىٰ ليس يُدرى ما تلد ، في هذا العالم ما لا يكون في الحسبان ، إذاً فيمكن أيها السادة! أن نضيع قوانا العقلية والفكرية وذكاءنا ومواهبنا في أمثال هذه المسائل ، في مثل هذا الوقت الدقيق. . . نرجوكم أن تدركوا هذه الأخطار ، إنَّ بلادكم واقفة علىٰ منعطف حساس ، يجب عليكم الآن أن تركزوا عنايتكم علىٰ التراث الإسلامي ، والاحتفاظ بأعزِّ متاعٍ في الدنيا والآخرة ، ألا وهو الدين ، والعقيدة ، والإسلام ، إذا نجحتمً في الاحتفاظ بهذا المتاع العزيز الحبيب الأثير يأتي بعده دور هذه المسائل الفرعية والخلافات الجانبية. إنَّ هذه الأبحاث يجب أن تكون رهينة المدارس ، والمعاهد العلمية ، والجهات العلمية والدينية ، يجب أن لا تتجاوزها إلى الساحة المكشوفة .

وقد قلت في مؤتمر عقدته جماعة ذات اتجاه خاص من الجماعات الإسلامية في الهند: إنَّ الخلافات لا تزل قائمة بين المسلمين منذ القديم ، ولا تزال هناك خلافات في أحكام الصلاة فيما بين المذاهب الأربعة وغيرها ، لكنها لم تسبب الفوضىٰ في داخل صفوف المسلمين قطُّ في الماضي ، وإنما أثارت الفوضىٰ حينما جعل العلماء والمثقفون يتعرضون لها على الشارع ، وفيما بين الشعب ورجل الشارع ، وتجاوزوا بها حدود المدارس والمعاهد العلمية ، إنَّ من الخطأ الفاحش أن نتعرض لهذه المسائل في الأسواق وفي الشوارع وعلىٰ مفترقات الطرق ، وأن تُحول إلىٰ نعرات وهتافات نستغلها لمصالح خاصة ، وأن نفوضها إلىٰ الجماهير ، حتىٰ تتسع فيما بينهم هوة الانفصال بدل أن يتقاربوا. . . . إنَّ البحث في هذه المسائل لم يزل منذ القديم ، ظلّ موضع النقاش والبحث ، وهذا البحث والنقاش شحذ الأذهان وأضاف إلىٰ الثروة العلمية إضافات ، وزاد الذكاء حدّةً وقوة. إن من خصائص الإنسان الحيّ أن يتباحث ، ويتناقش ، ويتأمل ، ويتدبر ، وأن يحاول الفهم والإدراك والوصول إلىٰ الحقيقة ، ولا يمكن أن يُفرض حدٌّ علىٰ ذلك.

إنَّ ذلك كله لا يضرُّ أبداً إلاّ إذا استغل لتحقيق الأغراض السياسية ، أو الأغراض الحزبية ، أو الجماعية ، أو لإثبات التفوق الذاتي على الآخرين ، أو استخدمه كدرع واقية للمصالح الذاتية ، والشخصية ، إنَّ هذه المسائل فقهية أو كلامية علمية ، فلنقتصر بها على مكتباتنا ، وعلىٰ مدارسنا ، وعلىٰ مجالس علمائنا ومتعلمينا ، ولنتفاد بها من الدهماء ، لأنها إذاً تزيد المجتمع فوضىٰ وقلقاً ، واضطراباً ، وتزيد صفوف المسلمين تشتتاً ، لأن الأمة المسلمة إنما جاءت لكي يصل الإنسان بالإنسان أيّاً كان ، فما بالك بالإنسان المسلم .

القضايا التي تواجهنا ستقرر مصير الأمم والبلاد ، فخذوا الحذر ، أما المسائل العلمية والأبحاث العلمية فلن يضع عاقل قيداً عليها ، ولن يسدَّ أحدٌ في وجهها الأبواب ، وسوف أعارض أنا ـ بصفتي طالباً للعلم ـ من اتجه هذا الاتجاه ، لكني أرجو ألف مرة ألا يستغل ذلك لتحقيق غرض سياسي ، أو حزبي ، أو جماعي ، أو لكسب الجاه والنفوذ ، أو لإثبات التفوق الشخصي . إنَّ الوقت يتطلبنا أن نخلص لله العهد لإصلاح المجتمع لكي تسلم البلاد من الردة الحضارية والمدنية .

مصلحة الأوقاف هذه التي نحن مجتمعون الآن في مكتبتها تستطيع أن تلعب دوراً هامّاً ، بل دوراً حاسماً في هذا الشأن؛ لأن العلماء وأئمة المساجد وخطباءها لا يزال لهم سلطانٌ علىٰ القلوب ، ولا تزال قلوب المسلمين مفعمةً باحترام المساجد ومنابرها ومحاريبها ، فإذا انطلق صوتٌ من منابر المساجد ومحاريبها فسينفذ في النفوس ، ويدخل في سويداء القلوب ويصل إلىٰ موطن سوف لن يصل إليه صوت قادتنا وزعمائنا السياسيين وحكامنا الإداريين ، مهما حاولوا ، فلنتق الله فيما يتصل بهذا الصوت ، واستخدامه ، ووضعه في غير موضعه .

ونشكركم أخيراً حيث وفرتم لي فرصة الحديث إلىٰ هذه النخبة الممتازة من العلماء والخطباء وأئمة المساجد والمخلصين من المسلمين .

* * *

المرحلة الانتقالية للعالم الإسلامي

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في حفلة أقامها مجلس تنسيق القانون الإسلامي الباكستاني في ١٨/ يوليو ١٩٧٨ م في فندق إسلام آباد تكريماً وترحيباً به ، رأسها قاض قضاة المحكمة العالية الباكستانية صاحب السعادة أنوار الحق ، وحضرها قضاة المحكمة ، والوزراء الاتحاديون ، وأعضاء مجلس تنسيق القانون الإسلامي ، والعلماء المثقفون .

سيادة رئيس الحفل والسادة المستمعين والحاضرين! إنَّ من دواعي الشكر الجزيل والسرور الغامر أن يجتمع في هذا الحفل الكريم ، للاستماع إلىٰ حديثي أولئك السادة الكرام؛ الذين كانوا يستحقون أن أحضر إليهم أنا بنفسي فرداً فرداً ، وأضع أمامهم حصيلة دراستي ونتيجة تفكيري ، وأبوح إليهم بما يموج في قلبي من أشجان وأحزان مريرة . . لكنهم من حسن حظي تجمعوا بأنفسهم في موطن واحد ، وتسنىٰ لي أن أتحدث إليهم جميعاً في وقتٍ واحد.

لكن المناسبة مناسبة السرور والمسؤولية معاً ، ولا أكاد أبت: هل أستجيب لدواعي الفرح والاغتباط ، أم أستشعر المسؤولية فأجدُّ وأتفكر ، علىٰ كلٍّ فإني أمام هذا الموقف المزيج والشعور المزدوج من الفرح والشعور بالمسؤولية.

لحظة من الغفلة قد تُخلِّف الركب بمسافة قرون:

العالم الإسلامي اليوم يمر ـ أيها السادة ـ بمرحلة حرجة جداً ، بمرحلة انتقاليةٍ قاسيةٍ دقيقةٍ ، فإذا أضاعت قيادات الدول الإسلامية وعقولها المفكرة ، ورؤوسها المدبرة لحظةً واحدةً في قضية شخصية ، أو وقتية؛ فإنَّ ركب الحياة السباق سوف لا يربع عليهم ، ولا يرفق بهم؛ لأن السيل لا يتوقف إلا بسيل مثله ، وأنه لا يبالي بسفينة ، غرقت أم وصلت إلىٰ شط النجاة ، وساحل المراد.

رسالة عزيزة من تربة الأندلس:

قد ترك الآن صاحب السعادة قاضي القضاة «أفضل جيمه» المحترم هزةً في قلبي حينما ذكر إسبانيا (الأندلس المنكوبة المرحومة) وأثار ذكرياتٍ مريرةً في صدري ، قد أتيح لي ـ من حسن حظي أو سوء جدي ـ أن أزور هذه التربة الحبيبة ، وأقرأ تاريخها ، كما وفقت أن أزور معظم العالم

الإسلامي والأقطار الإسلامية ، لكني حينما وطأت قدماي أرض الأندلس ، شعرت كأن أجواءها تلاصقني ، وأرواحها الطاهرة ونفوسها الزكية الوديعة في التراب تعانقني ، وتصافحني ، وأنَّ كلَّ ذرَّةٍ من ذراتها تحملني رسالة ، وتقول لي: حذار أن تذوق دولة من الدول الإسلامية هذه المأساة التي ذقناها ، إنَّها أمانة أضعها في عنقك ، ومسؤولية أُحمِّلها كاهلك: أن تبلغ هذه الرسالة إلىٰ أقصىٰ ما تستطيع أن تبلغها إليه ، وأن تنادي بأن المسلمين لا يستطيعون أن يذوقوا هذه المرارة مرة ثانية ، وأن يقع على ساحة قطر إسلامي ما وقع في إسبانيا ، وأيم الله إني لأشعر بمضض الألم حينما أؤدي هذه الكلمات! لكني أرىٰ من مسؤوليتي أن أرددها في كل قطرٍ إسلامي.

العالم الإسلامي يمر بمرحلة انتقالية:

العالم الإسلامي الآن يمر بمرحلة انتقالية ، يفض الهيكل القديم ، ويصاغ له هيكل جديد ، وفي مثل هذا الوقت الحرج قد تتبدل مصائر الأمم وتبتديء مرحلةٌ جديدة من نوعها في حياتها ، ويكتب لها مصير آخر ، ويقدَّر لها قدر جديد. إنَّ هذه المرحلة كما تتطلب قوة الإيمان والعقيدة كذلك تتطلب دراسةً عميقةً دقيقة ، وتفكيراً جدياً هادئاً متعمقاً ، وتضحيةً وإيثاراً. إنَّ هذه المرحلة لا يمكن مواجهتها بدون استيفاء هذه العناصر في الماضي ، ولا يمكن في الحال ، ولن يمكن في المستقبل ، إنَّها محنة العقيدة والإيمان ، ومحنة الذكاء في وقت واحد؛ لأنَّ العملية هي عملية بناء مدنية جديدة وتشكيل مجتمع جديد ، وتطبيقه مع التعاليم الإسلامية ، وتطهيره من العناصر المضادة لها.

وقد قلت لكم بالأمس(١): إنَّ الإسلام اليوم ـ بصفته عقيدة ـ موجودٌ ومعمولٌ به ، لكنه جرد من مدنيته وكانت هذه مؤامرة خطيرة نسجها الغرب ، إنَّها رأت أن المسلمين ليس بالإمكان تجريدهم من العقيدة ، وأنَّ شعورهم أرق فيما يتصل بهذا الجانب ، لأنهم قد مروا في هذا الصدد

(١) في حفل أقيم في فندق بإسلام آباد للترحيب بالعلامة الندوي.

بتجارب مريرة جداً ، واكتووا بنارها منذ الحروب الصليبية إلىٰ سحق الكيان الإسلامي وتصفيته في إسبانيا ، فلجأت إلىٰ استراتيجية (strategy) أخرىٰ ، وقررت أن تجردهم من مدنيتهم ، وتسلخهم من نظامهم الاجتماعي ، وتحملهم علىٰ قبول مدنية أخرىٰ أجنبية ، وأعتقد أن أوربا قد كسبت في ذلك نجاحاً باهراً.

والحمد لله لم يقع تحريف فيما يتصل بالعقائد الإسلامية ، كما وقع في المسيحية حيث حادت عن خطّها الصحيح تماماً ، وصارت تعدو علىٰ الخط الذي رسمه «سينت بال» على خط التثليث ، وإبنية المسيح ، والمدنية الرومية ، ثم تجددت أسباب كثيرة ضاعفت سيرها على ذلك الخط المنحرف ، ويا ليت المسيحية المعاصرة كان عهدها بالشعب الشرقي المتباطئ كالسلحفاة ، والركب الشرقي النائم المستريح ، لكن كان عهدها بالغرب الذي كان يتدفق بالحياة والنشاط ، وروح الرقي والتقدم والانطلاق ، تجري في عروقها دماءٌ فائرةٌ هادرةٌ فائضةٌ تريد أن تشق طريقها إلىٰ الأمام ، فتجري في عروق أبناء الشرق والجنوب والشمال وأرجاء المعمورة كلها ، فتضاعفت سرعة هذا الانحراف مع تضاعف سرعة الرقي في جميع جوانب الحياة ، لأنَّ الأمة التي تبنت هذه المسيحية المنحرفة وحملت لواءها ما كانت لترضىٰ بالبطء؛ إذ أنها صارت تأخذ «بمبدأ التنازع للبقاء» بضغط من أسباب كانت وليدة المكان والزمان ، وأصبحت تثبت جدارتها في معركة الحياة الساخنة.

إنَّ الإسلام لم يمن بمثل هذا الانحراف والتحريف ، وسوف لن يقع هذا الانحراف والتحريف فيما يتعلق بمبادئه وعقائده وأوليائه؛ لأنَّ الله ضمن صيانته من ذلك قائلاً: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] أما ما يتصل بالمدنية والحياة والمجتمع فمن الواضح: أنَّ العقيدة والثقافة أو الأمة التي تحمل هذه العقيدة أو هذه الثقافة لا تعيش في الجو ، بل إنَّها تحتاج ـ لكي تعيش وتؤدي دورها في الحياة ـ إلى مناخٍ ، وإلىٰ حرية ، إلىٰ وسائل ، وإلىٰ تسهيلاتٍ لتكوين مجتمعها. . . لم يقع انحراف في العقائد والأصول ، لكن الأخلاق والسلوك وأسلوب الحياة التي تكون وليدة هذه

العقائد تحتاج في تمثلها في الواقع العملي إلىٰ مجتمع حرٍّ ، إلىٰ بيئة منفتحةٍ ، إلىٰ قطعةٍ من الأرض تتنفس فيها بحرية ، ودون حدٍّ وقيد ، وتتجلىٰ بنواحيها وأجزائها ، وأصولها وفروعها ، ونجحت أوربا فيما استهدفته من تجريد المسلمين من المدنية الإسلامية العريقة ، وفرضت عليهم مدنيتها ، وزينتها في أعينهم.

الإسلام يحتاج إلىٰ السلطة:

يا سادة! إني أنتمي إلىٰ أسرة وإلىٰ مدرسة فكر آثرت التسبيح والتكبير على صهوات الخيل علىٰ المناجاة قابعة في زاوية البيت الآمنة الهادئة ، وجمعت بين السيف والمصحف ، أعني بذلك مدرسة الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي وجماعته وأتباعه من أصحاب العزيمة ، والطموح ، والشجاعة ، والشهامة ، والتفاني ، والمغامرة ، والعقل ، والعاطفة ، الذين قاموا بمحاولات الإصلاح والتجديد الموسعة ، وجاهدوا جهاداً كبيراً في سبيل إحياء الخلافة الإسلامية الراشدة ، ولا أعرف في القرون الأخيرة في أيِّ جزء من أجزاء العالم الإسلامي نظيراً لهذه الجماعة ، في شمولها وجامعيتها ، وعزيمتها وشهامتها ، وإخلاصها وتضحيتها ، أنتمي أيها السادة ، إلىٰ هذه الجماعة المؤمنة الواعية الجامعة ، وأعتقد أنَّ الإسلام يحتاج إلىٰ السلطة ، والمسلمون يحتاجون إلىٰ مجتمع حُرٍّ آمن ، ولا يزال قول الرب تبارك وتعالىٰ المعجز صادقاً ، وسيظل إلىٰ يوم القيامة ، كما كان صادقاً وقت نزوله:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [الحج: ٤١].

ومما يدعو إلىٰ التفكير أنَّ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كليهما يستخدمان في صدد «المعروف» و«المنكر» كلمتي «الأمر» و«النهي» ، ولم يستخدما كلمات «الالتماس» و«الرجاء» و«الطلب» و«السؤال» إلىٰ القائمة الطويلة من الكلمات التي تنم عن بعض الخضوع والتواضع ، وصغر الشأن والمكان ، واللغة العربية هي ما هي في غنائها

وسخائها ، ولكن الكتاب والسنة يقتصران في التعبير عن القيام بهذين العملين الجليلين: «المعروف» و«المنكر» على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر».

والأمر والنهي يتطلبان شيئاً من القوة والغلبة يمكن الرجل من أن يقول - في قوةٍ وجرأة ، وعن ثقةٍ واعتمادٍ -: هذا خطأ ، وهذا صحيح ، ومعنىٰ ذلك أنَّ الإسلام يحتاج إلىٰ القوة وإلىٰ السلطة ، حتىٰ لا يضطر أبناؤه دائماً أن يقولوا للعالم الذي يعيش من حولهم في ظلام الجاهلية: «ينبغي العمل بكذا» ، و«الأخذ بكذا شيء مستحسن ومعقول» أو «ندعوك إلىٰ كذا» و«نرغبك في كذا» و«نبشرك بكذا» نعم لقد أجاز الإسلام كلَّ هذه الطرق والأساليب ، والقرآن الكريم لا يستخدم لذلك إلا كلمة «الأمر» وكلمة «النهي». . . ثم إنَّ إصلاح النوع البشري الكامل لا يمكن بدون هذه القوة والغلبة اللتين رتب عليهما القرآن «إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر».

لا بدَّ من الاهتمام بالغصن الذي يقوم عليه العش:

وإني وإن أنتمي إلىٰ هذه المدرسة الفكرية ، وهذه الحركة الدينية العملاقة التي أشرت إليها ، لكن لا بدَّ أن أقرر أنه يجب الاهتمام أولاً بالغصن الذي نريد أن نضع عشّنا عليه: فالأمر يتوقف علىٰ ذلك الغصن قوياً متيناً ، وكان أخضر أنضر ، محكم الاتصال بالساق ، فهنالك تأتي مرحلة التفكير في نوعية العشِّ وطرازه ومنهجه ، ولكن الأمر الذي يجب أن يسبق هذه المرحلة هو أن نرىٰ: هل الغصن موجود أم لا ، وما هي نسبته من القوة ، والمتانة ، والحياة ، وقدرة الاحتمال.

والغصن الذي قام عليه العش هو المجتمع ، ذلك المجتمع الذي يتكون من الحياة العامة في البلد ، ومن الغادين والرائحين في المدن والقرىٰ ، والبائعين والمشترين في الأسواق ، والعاملين في المصانع ، والمعلمين ، والمتعلمين في معاهد التعليم والتربية ، أولئك الذين تكون الحياة عبارة عنهم ، وعليهم يتوقف بهاء المدن ، والذين هم مادة العمران ، فلا بدَّ أن

نستعرض أولاً مشاعرهم ، وأحاسيسهم ، ومقاييس الحسن والقبح لديهم ، وموازين الخير والشر عندهم ، لكي ندرك جيداً مدىٰ قدرة الغصن لاحتمال ثقل العش.

أيها السادة! مهما استخدمتم الذكاء والبراعة في صناعة العش ، وفي إحكامه ، وإتقانه ، وإحسانه ، ولكن جهودكم تذهب ضياعاً ، إذا كان الغصن ـ الذي يقوم عليه العش ـ واهياً ، يقول بلسان حاله: إني لن أتحمل عبء العش ، ومن هنا يجب أولاً الاستعراض الدقيق ، حتىٰ نطلع جيداً علىٰ وضع المجتمع أخلاقياً ، وعقيدياً ، وإلىٰ أيِّ حدٍّ يأخذ بضروريات الحياة المبدئية ، وأصولها الأساسية ، وبشروط الإنسانية الأولية.

فلئن كان هناك مجتمع قد بلغ من عبادة النفس والهوىٰ والولوع بالمعاصي والجرائم إلىٰ أنه يختنق بالدعوة إلىٰ الصلاح والخير ، وإلىٰ الأخلاق والمعاني الإنسانية ، والإقلاع عن المعاصي والفسق ، كما يختنق السمك لو أخرج من الماء ووضع علىٰ الأرض. . . وإني أقضي من عجبي كلما أقرأ الآية الكريمة من القرآن ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] ، وأقف مدهوشاً أمام صدقها وإعجازها وروعة بيانها وبلاغة تعبيرها عن نفسية المجتمع الفاسد الذي صار وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة من أجل الدعوة إلىٰ الخير ، حتى صاح صيحته ، وأعلن صراحةً أنه لا يستطيع التنفس في هذا التيار الذي تدفق أخيراً من الطهر والصفاء والعفة ، لأنه تعوَّد أن يكون غارقاً في حمأة الذنوب والآثام إلىٰ الأذقان والآذان.

لئن كان المجتمع وصل إلىٰ هذه النقطة النهائية من الفساد والتفسخ والتعفن؛ فلا يرجىٰ فيه نجاح نظام ، أو تنفيذ خطة اتخذت بمعزل عن مراعاة الوضع الذي يعيشه ، والحياة التي يحياها.

يا سادة! إنَّ المجتمع هو الغصن الكريم الذي يقوم عليه عش نظامٍ صالحٍ ، فإذا كنتم تريدون إقامة هذا العش ، فلا بدَّ أن يكون ذلك الغصن موضعَ عنايتكم ورعايتكم ، وذلك لأنه إذا كان الغصن في خطرٍ أو وضعٍ

مخوف تتوجه إليه الضربات من الجوانب الأربعة ، ويتقدَّم إليه آلاف من الأعداء ، بينما الحارس عليه واحد ، فإنَّ هذا الواحد ـ مهما كان مخلصاً ذكياً ذا أهليةٍ ودهاء ، وذا وسائل وأسباب ـ لن ينجح في محاولته ، أفهل يمكن ـ يا ترىٰ ـ أن يتم بناءٌ يقوم ببنائه أناسٌ ، ويهجم عليه أناس في عدد أكثر من عدد البنائين ـ بمعاولهم ـ؟! حقاً إن مثل هذا البناء المسكين لا يمكن أن يصل إلىٰ درجة التمام والاكتمال ، فضلاً أن يبقىٰ على حياته ولو بعض حين .

المجتمع كتربة :

إنَّ المجتمع كتربة ، فإذا كانت هذه التربة كريمةً ، ثابتةً ، ذات قرار مكين ، ولا تكون «كثيباً مهيلاً» ـ في التعبير القرآني البليغ ـ لا قرار له ، ولا ثبات ، تهوي بذراته الريح إلىٰ حيث تشاء ، ولا رجاء في بقائه في مكانه بعد حين ، لأنه رهن إشارة الرياح ، وطوع أمرها . . . إذا كانت التربة علىٰ صفاتها الأولىٰ الكريمة تستطيع أن تأتي بحاصلٍ كبير بجهد ضئيل ، ووقت قليل ، وأن تنبت عليها الأشجار ، وتخضر عليها الزروع ، وتكثر فيه الفواكه والأثمار ، كما يمكن أن تقام عليها قصورٌ شامخة ، وأبنيةٌ ناطحات السحاب ، ومصانع تعانق قبابها عنان السماء .

أما إذا كان المجتمع ﴿ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ ورمالاً زائلة ، فإنه يمكن أن يستغله ويسكره ويخدره كلُّ رجل داهية ، ويميل به إلىٰ حيث يشاء ، ويجعله يهرع وراءه ، ويطبق آراءه ، ويجسد أفكاره ، وينفذ أوامره ، ويتجنب عن نواهيه . . . ولا يحمل قوة علىٰ مقاومة خطر ولا يتصف بتماسك عقلي ومعنوي ، بل يكون علىٰ استعداد للانحراف كغثاء السيل مع كل تيار جارف من الدعوات المضللة ، أو القوىٰ المفسدة ، أو النظم الجائرة والفلسفات المنحرفة ، فيتناغم معها ويتفاعل ، وينحاز إليها ، ويقف بجانبها ، ويذهب ـ في كل ثانية أو أقل ـ كلُّ محاولات الإصلاح والبناء هباءً منثوراً ، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً . . إذا كان المجتمع قد وصل إلىٰ هذا الحضيض ، فلا ثقة به ، ولا رجاء فيه ، وعلىٰ المجتمع السلام .

والواقع أنه لا يوجد اليوم في أيِّ مكانٍ مجتمعٌ إسلامي كامل ، نثق به ونضع فيه رجاءنا ، ونعلق عليه آمالنا . وإنه لحديث أمس – ومعذرة إلى من لا يتفق مع رأيي – رأينا جمال عبد الناصر في مصر كيف ركب على أعناق الشعب المصري وفعل به الأفاعيل ، وكان المجتمع المصري هادئاً ، يبدو كأنه لم يحدث شيء ، وليس هناك أحد يعارض جمال عبد الناصر ، بل كأنَّ الشعب كله كان مستعداً في كل وقت للتجاوب مع صوته ، والتصفيق له ، والجري وراء سيادته حيث تتجه بالنعرات والهتافات مسروراً فخوراً ، حتى خلع عليه بعض الناس لباس القداسة والعصمة والبراءة ، وأحلُّوه محلاًّ مرموقاً من القبولية والعظمة التي لا يحظى بها إلا الأنبياء والرسل عليهم السلام ، ولكن جاء الوقت الذي تجلت فيه الحقيقة ، وانكشف فيه الغبار عن الحمار[١] ، ولم يعد أحد يذكره بالخير ، أو يتلفظ باسمه بانشراح القلب .

وكذلك جميع المجتمعات التي تعيش حولنا ، مهما نهض فيها رجل لبق ، فإنها ترتمي في حضنه ، وتخضع لإرادته ، وتسبح بحمده ، وتقدِّس لمجده . . . إنه لوضع مخوف ، ونذير خطر كبير .

يجب ألا يكون هناك تأجيل في تطبيق الشريعة الإسلامية .

وليس معنىٰ ذلك أنني أشير بتأجيل تطبيق الشريعة الإسلامية ، كلا ! إنني لن أسمح لأحدٍ بهذا الخطأ في الفهم ، لأنني لا أرىٰ لهذه المحاولات السعيدة المباركة أن تتوقف للحظة واحدة ، أو تؤجل لدقيقة واحدة ، لكني أريد أن ألفت أنظاركم إلىٰ الواقع ، وهو أن نجاح هذه المحاولات يتوقف علىٰ هذا المجتمع . . . فلو حبذه المجتمع ، وركزنا نحن ، ودعاتنا ، ومؤلفونا ، وكتابنا ، وصحافتنا ، وتلفازنا ، وإذاعتنا ، وجميع وسائل

(١) يشير المحاضر إلى البيت العربي القديم :

وسوف تَرى إذا انكشف الغُبارُ
أفرسٌ تحت رِجلك أم حمارُ

الإعلام والإبلاغ علىٰ ذلك ، وتبنينا جميعاً هذه المهمة ، وقررنا أن نغير موازين الحسن والقبح المجحفة ، وأن نغير مشاعرنا وأحاسيسنا ، وأن نعمم روح التقوىٰ والصلاح والاحتساب ، وحياة الجد والصبر ، والصرامة والتحمل ، وروح الصمود والمقاومة للإغراءات المالية ، أو الجنسية ، أو الأخلاقية . . . لأمكن أن يحمل المجتمع أثقل عبء ، وأضخم مسؤولية ، لأنه عندئذ سيستطيع أن ينهض بعبء الخلافة الإسلامية أيضاً ، وإني علىٰ يقينٍ كاملٍ بأنه لو تم التنسيق والتعاون بين هذه القوىٰ والأدوات المؤثرة الفعالة ، واتجهت كلها اتجاهاً واحداً نحو إصلاح المجتمع ، ليس ببعيد أن يتحقق حلم «الخلافة الإسلامية». لكن من المؤسف المحزن: أنّ وسائل الإعلام يديرها اليوم أولئك الذين وصفهم القرآن الكريم بما يلي :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩].

إن الآية معجزة حقاً ، إنَّها نزلت من أجل قصة خاصة حدثت في مجتمع المدينة المنورة المحدود ، وصار الناس يتحدثون عنها في محافلهم ومجالسهم ، فحذرتهم الآية هذا التحذير الصارخ ، وأوصتهم بالانتهاء عن هذا العمل الشنيع .

ومهما كانت القصة عظيمة ، ومهما كان الذين يتصلون بها ، فإنَّ الآية الكريمة ـ بموجب عموم بيانها ، وشمول معناها وتعبيرها ـ تستوعب تلك القصة ، والذين كانوا يتذاكرونها ، وتستوعب كذلك ـ متخطية الحدود الزمانية والمكانية والمسافات الجغرافية ـ ما يقع في القرن العشرين ، في عصر الصحافة ، وعصر التلفاز ، وعصر الراديو ، وعصر القصص والروايات ، وعصر السينما والتمثيل والمسرحيات ، وعصر الكتابات والفلسفات ، ويمكنك اليوم أن ترىٰ هذا الواقع في أجلىٰ مظاهره وأبشع أشكاله ، وأشنع صوره التي لم يكن من الممكن رؤيتها من ذي قبل ، إنَّ الذين عاصروا نزول الآية الكريمة في المدينة المنورة ـ علىٰ منورها ألف سلام وتحية ـ كانوا قد آمنوا بالغيب ، وطبقوا الآية علىٰ الحادث الذي

عهدوه ، غير أنَّ الدور الفعال الذي يمثله العالم المعاصر المجنون في إشاعة الفاحشة ، وفي تطبيق «أن تشيع الفاحشة» لم يكن بالإمكان تقديره من ذي قبل.

السلحفاة نائمة على بطئها في السير والأرنب دؤوبة في الجري ، علىٰ ما لها من خفة وسرعة:

إخواني! قد سمعت في صباي ـ وربما تسامعتم أنتم كذلك ـ أنه وقعت المسابقة بين أرنب وسلحفاة ، فأحرزت السلحفاة قصب السبق ، لأنها علىٰ بطئها كانت دؤوبة مجتهدة ، لا تعرف الاستجمام والاستراحة ، أما الأرنب فاطمأنت إلىٰ خفتها وسرعتها ، فنامت؛ لتأخذ نصيبها من الراحة ، وظنت أنَّ النجاح في المسابقة طوع أمرها ، لأنها هي ما هي في سرعة سيرها ، فكانت عاقبة أمرها خسراً.

ولكن القضية اليوم انعكست ، وأصبحت قصة نجاح السلحفاة وفشل الأرنب مقابلها أمانة التاريخ ، ووديعة كتب القصص والحكايات القديمة ، فنرىٰ اليوم مسابقة بين السلحفاة والأرنب ، ونرىٰ الأرنب دؤوبة في سيرها ، مستمرةً في قفزاتها ، مع ما تتمتع به من سرعة مثالية في الجري ، والسلحفاة غارقةٌ في نومة الضحىٰ ، مع بطئها المعروف في المشي. . وذلك هو مثلنا ومثل القوىٰ الهدامة العالمية ، فالجهود المبذولة لبناء العالم الإسلامي كسلحفاة نائمة مع بطئها. . . والقوىٰ الهدامة نشيطة باستمرار دائب في تنفيذ خطتها ، مع خفة أيديها وسرعة عملها. . . وكلما قارنت بين قوىٰ البناء وقوىٰ الهدم رأيت قصة السلحفاة النائمة والأرنب الدؤوبة في العمل.

نرىٰ أنَّ القوىٰ الهدامة الشيطانية تبث الفوضىٰ والشذوذ الخلقي في مجتمعنا ، ولديها من الوسائل والإمكانيات ما تستطيع أن تجعل الليل نهاراً والنهار ليلاً ، والنور ظلمةً. . . والظلمة نوراً ، أما المحاولات البنائية ، والمؤسسات البنائية؛ فنراها مجردةً من الوسائل ، وعزلىٰ من قوة التنفيذ والعمل ، وأسباب الاستقطاب والجذب والاستهواء (CHARM).

إنَّ مشكلة المجتمع الإسلامي أصبحت اليوم خطرة جداً ، تتطلب عناية جدية ، فقد صار الناس يعتقدون ـ في بساطة ، وعن جهل ـ أن قضية الفرد ليست بذات أهمية ، وإنما المهم هو قضية المجموعة ، والمجتمع. . . إنَّ هذا العصر ، هو عصر تقديس الجماعة ، وركزت فلسفة الاجتماع والعمران اليوم كل عنايتها علىٰ المجموع فأشادت بفضله ونوهت بذكره ، وعمقت في القلوب والأذهان أهميته ، حتىٰ أذهلت الناس قضية الفرد وأهميتها ، وعادوا يعتقدون: أنَّ الأفراد مهما بلغوا علىٰ الانفراد من الفساد والنقصان ، ولكن المجموع الذي يتكون منهم يكون صالحاً ، ومعنىٰ ذلك أنَّ الألواح علىٰ انفرادها مهما كانت متآكلة منخورة واهية لكن السفينة المصنوعة منها ، تتحول فجأة إلىٰ أسطول ، ويغيب عنها الفساد والضعف والوهن. . . ولكي نتبين الحقيقة جليةً واضحةً يمكن أن نأخذ مثلاً من أن قُطَّاع الطريق ، قُطَّاع بالانفراد ، فيهم خبثهم ومكرهم وشيطنتهم ، أما إذا اتحدوا واتخذوا «اتحاد القطاع» فإنهم يتحولون فجأة حراساً أمناء ، وخفراء أوفياء. . . ولكن لا أكاد أدري ، ولا يقبل منطق أن يكون السارقون والقُطَّاع علىٰ صفتهم ما داموا علىٰ الانفراد ، ولكنهم إذا ما تكثفوا ، وكانوا مئة قاطع أو سارق مثلاً ، فهم يتبدلون صلحاء ، وحراساً. . . ولكن المؤسف جداً ، أنّ العالم المتحضر قد آمن بهذا المنطق ، وقد تكاتف الشرق والغرب ، بمن فيهم الروس والأمريكان والناس من كل مكان ، فيهم الخبثاء الماكرون ، والدهاة الظالمون ، وأولياء الشيطان الذين مطامعهم توسعية ، وأغراضهم خبيثة ، وحياتهم فاجرة وأخلاقهم فاسقة ، واتخذوا جميعاً منظمةً اجتماعية تتحكم في مصير الأمم والدول ، وتقضي لها أو عليها.

السهم الفعال في كنانة الإسلام:

أيها السادة! إنَّ الله ـ بمجرد فضله ـ قد أتاح لنا اليوم فرصةً مباركةً في هذه البلاد ، حيث جعلنا نشعر بالحاجة إلىٰ تكوينٍ جديد للمجتمع ، وألقى في روعنا أن نطبّق الشريعة الإسلامية ، وأن نجعلها صاحبة الحول والطول والسلطة العليا في هذه البلاد التي برزت إلىٰ حيز الوجود باسم الإسلام

وحده ، إنه لمن فضل الله علينا ، وإنها لسعادة ساقها الله إلينا ، وليس من المصادفة ، وإني لا أؤمن بمنطق المصادفة ، لأنه لا يحدث شيء إلا بأمر الله وتقديره ، ولا تسقط ورقة إلا بإذنه ، وأعتقد أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد راعىٰ الانتماء الكريم إلىٰ الاسم العظيم الذي برزت هذه البلاد تحمل لافته ، ألا وهو الإسلام ، فأوصيكم ـ يا إخواننا في الإسلام ـ بأن لا تفوتكم هذه الفرصة الذهبية ، وأن لا تضيع عليكم هذه النعمة الإلهية .

ولتلاحظوا أنَّ السهم من كنانة ما يمكن أن يتفاءل به الإنسان ويتشاءم به ما لم يجرب ، لكنه إذا أخرج من الكنانة وجرب ، لا يبقىٰ هناك غموض ، ويتجلىٰ الواقع وتتكلم الحقيقة ، وتحكم التجربة حكماً نهائياً بالفشل أو النجاح . . . إنَّ لديكم اليوم سهماً أمضىٰ سهام كنانة الإسلام ، فأنتم في موقف دقيق ، وليكن ملحوظاً أنَّ تطبيق الشريعة الإسلامية ، ليس يعني تطبيق بعض حدوده وحدها ، إنَّ تطبيق الشريعة أوسع معنىٰ من ذلك بكثير ، فلا أستطيع أن أشهد لبلد من البلاد ، وأتنبأ له بالخير ما لم نجرب أحواله كلها ، وما لم نطلع علىٰ أهدافه وغايته ، لكن ما يمكن أن يقال : هو أن هناك شيئاً في الدنيا ، كان هناك أناس يتفاءلون به ، ويرون أنه أمضىٰ سهم ، وما أن خرج من الكنانة إلا وتتفتح أبواب الخير والسعادة على مصراعيها ، وما لم يخرج هذا السهم من كنانته ، ولم يتأت رجاء في خروجه ، كانت الألسن ساكتة ، والأقلام ساكنة ، وكانت لنا فرص العذر متوفرة ، وكان لنا أن نتخلص قائلين : كيف يرجىٰ خير ، ويؤمل في سعادة ، والشريعة الإسلامية غير مُطبَّقة بجميع أجزائها ، والمجتمع كله فساد في فساد ، وأمر الناس كله فوضىٰ وشذوذ وشر . . . ولا يعود لنا عذر بعد ما يبرز هذا السهم من الكنانة ، وتتم تجربته التي لا تتكرر .

ولا بد أن أصارحكم ـ في ضوء دراسة التاريخ ـ أن مثل هذا السهم لا يعاد استخدامه ولا تتكرر تجربته ، إنَّه لا يعود إلىٰ الكنانة بعد ما ينفصل عن القوس . . . ومن ثم فذلك وقتٌ حرج ، وموقفٌ حساس ، تقفونه أنتم أيها السادة أصارحكم ـ وأنا بين مرأى ومسمع من سعادة رئيس قضاة هذه البلاد وعدد وجيه من الوزراء الكبار والعلماء والمثقفين الكرام ورجالات

العلم والفكر ـ بكل أدب واحترام ، إنها لمرحلةٌ دقيقة صعبة ، لا في تاريخ باكستان وحدها ، ولكن في التاريخ الإسلامي كله ، إنها مرحلة يحبس الإنسان عندها الأنفاس .

والتجارب قد تنجح وقد تخفق ، والحياة البشرية كلُّها في الواقع هي مجموعة تجارب مخفقة وناجحة ، فقد يتعثر الإنسان ثم يستقيم ، وقد يزل ثم يتماسك ، وقد يسقط ثم يقوم ، وتلك هي قصة جميع الأمم والملل علىٰ هذه الأرض ، قد تغور سفينتها ، ثم تطفو ، وقد تغوص ، ثم تطيش ، وهي سنة الله في الكون ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧] وقال : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾ [النور : ٤٤] .

لا يعزبنَّ عن بالكم ـ وأنتم مقبلون علىٰ هذا العمل العملاق المبارك ، عمل تنفيذ القوانين الإسلامية في هذا المجتمع وهذه البلاد ـ أنه لا بد أن يكون لدىٰ المجتمع استعداد لتلقيها بالقبول واحتماله ، وإساغته . . . لأنَّ الغذاء مهما كان طيباً لذيذاً سائغاً ، لا يفيد المرء إذا كانت معدته فاسدة لا تقبله . . . ومن ثم يتحتم العمل علىٰ إصلاح المجتمع علىٰ أوسع نطاق ، ولتركز عليه منابر المساجد ، ومعاهد التعليم والتربية ، وأعمدة الصحف ، وصفحات المجلات والجرائد ، والتلفاز والإذاعات ، وليكن ذلك موضع عناية خطبائنا السياسيين . . . وإذا كانت أسواق الرشوة نافقة في كل مكان ، وإغراءات المال والمادة علىٰ قدم وساق ، والقسوة والوحشية علىٰ شدتها وحدتها ، وكان الأصدقاء والزملاء ، وأهل مدينة واحدة وقرية واحدة ، بل وحارة واحدة ، لا يعرفون الأُخوَّة والمساواة والعطف والحدب فيما بينهم ، ولا يعرف موظفونا في المكاتب وعمالنا في المصالح والإدارات ومختلف القطاعات روح التناصر والتعاون؛ فإن ذلك شيء لا يبشر بالخير ، ولا يبعث على الأمل ، لأنه نذير خطرٍ عظيم .

أسباب جلاء المسلمين عن إسبانيا:

يعرف الدارس الخبير أنَّ السبب الكبير في جلاء المسلمين عن إسبانيا ، أنهم لم يعتنوا بنشر الإسلام في أرجائها ، فلم يتقدموا إلىٰ الجانب الشمالي ، بل ظلوا يتقهقرون إلىٰ الجانب الجنوبي ، ولم يحتكوا بأهلها المسيحيين ، وما تغلغلوا في قلب أوربا ، ولم يقوموا فيها بتبشير الإسلام خير قيام ، ولم يقوموا بإصلاح ذلك المجتمع ، وشغلوا عن هذه الوظيفة الأولىٰ بتوسيع تراثهم الحضاري وتصعيده ، واسترعت الفنون الجميلة ، والشعر والموسيقا جلَّ عنايتهم ، ولكن مصيبتهم العظمىٰ كانت في اضطرابهم الداخلي ، الذي كان يمثله الصراع والخلاف بين ربيعة ومضر ، وقبائل اليمن والحجاز والعصبية القبلية.

حقّاً إن العصبية ـ سواء أكانت عصبية لغوية أو عصبية إقليمية ، أو عصبية حضارية ، أو عصبية عنصرية ـ داء عضال ، ومن أجل التفادي من ذلك قد أعطانا القرآن هذا التوجيه السديد:

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ [الحجرات: ١١]. والخطاب في الآية الكريمة ليس موجهاً إلى الأفراد وحدهم ، بل إلىٰ الجماعات والأمم أيضاً ، لأنَّ الداء الذي يريد القرآن أن يحذر منه ، ربما قضىٰ علىٰ الدول والحكومات ، والأمم والأقوام ، وقلت لعديد من إخواننا في الهند الذين كانوا يريدون أن يشدو الرحل إلىٰ باكستان: أوصيكم أن تتجردوا من شعوركم المتطرف بالتفوق ، وبكونكم أولي حضارة خاصة ، ويجب عليكم أن تندمجوا مع إخوانكم في باكستان ساكني تلك المناطق التي قامت فيها دولة باكستان.

أيها السادة! إنَّ باكستان اليوم تستطيع أن تؤثر في خريطة العالم ، وأن تؤدي دوراً فريداً يسجله التاريخ بالحروف الذهبية ، إذا اندمجت الجنسيات ، وتجاوبت العناصر المختلفة التي تشكل سكان باكستان ، من الواردين إليها ، والقاطنين فيها من القديم ، وعادوا إخواناً متحابين

متفاعلين ، لا فرق بينهم ، يشعرون شعوراً واحداً؛ لأن الشعور الزائد بالتفوق والامتياز هو الخطر المدلهم الذي كان السبب في سقوط المسلمين في إسبانيا ، والأفعىٰ التي ابتلعت دولتهم ، فالعصبية القبلية والعنصرية هي التي فعلت فعلها ، فلم يرفعوا رأساً إلىٰ خطر المسيحية الذي كان يترقبهم كالسيف المصلت علىٰ الرأس ، وتشاغلوا بمصالحهم القبلية ، والعناية بالاحتفاظ بأغراضهم وأهدافهم ، وأرجو أن إخواننا أهل باكستان سوف لا يسمحون لهذا الخطر يجوس خلال ديارهم. . . وأعتقد أن هذا الحفل الكريم الذي ضم عناصر خيرة صالحة من أهالي باكستان ، هو خير مناسبة للدلالة علىٰ الأخطار ، والإبداء عن الخلجات التي تساور نفسي ، حتىٰ تأخذوا حذركم ، وتصعدوا عملية الإصلاح ، والقضاء علىٰ العصبيات ، التي سوف لا تموت بالضربات الموجهة إليها مباشرة ، وإنما تموت عن طريق تعميم السلوك الإسلامي ، والوحدة الإسلامية ، والأخوة الإسلامية والتربية القرآنية ، والعدل والمساواة التي علمهما الإسلام ، حتىٰ لا تعود هناك قضية تهمُّ شعب باكستان في أرجائها إلا الإسلام ، والإسلام وحده.

إني أعتقد أنه ليس في العالم البشري اليوم إلا جبهتان متعارضتان ، جبهة الإسلام ، وجبهة الجاهلية ، والمعارك كلها تتلخص في المعركة بين الإسلام والكفر بين الدين واللادينية ، وإذا كان هناك تقصير ما فإنه سيؤدي إلىٰ أسوأ عاقبة ، ويحلو لي أن أتلو عليكم الآية التي خاطب بها القرآن الكريم المجتمع الصغير ، المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة ، ذلك المجتمع الذي كان مكوناً لا من الجنسيتين المختلفتين: من الأنصار والمهاجرين فحسب ، بل كان الأنصار كذلك تتوزعهما قبيلتان ، الأوس والخزرج ، اللتان قد سبقت بينهما سلسلة من الحروب الدموية ، ومواقف أخذ الثأر والانتقام ، فقد حاربت إحداهما الأخرى طول ٤٠ عاماً تباعاً ، وكانت لا تزال بينهما البقية الباقية من الإحن والحقد ، وروح الانتقام ، قد يشغل عواطفهما بيت واحد ، وقد حدث مرة أن أخلاطاً من الأوس والخزرج كانت قد ضمَّها المحفل ، إذ طلع عليها رجل من اليهود داهية ، وانتهز الفرصة ، وبدأ يتلو قصيدة كانت تحكي القصة الدموية التي قد وقعت

بينهما، فاشتعلت العواطف، وكادت السيوف أن تتقارع، واحمرت العيون، إذ حضر رسول الله ﷺ، وأطفأ الجذوة المشتعلة، ولفت الناس إلىٰ الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية التي لا نعمة فوقها، هذا المجتمع الصغير، والوحدة المتواضعة، ما شأنهما أمام هذا العالم الفسيح، أمام الدولة البازنطية، والمملكة الساسانية، وقوىٰ الشرق وقوىٰ الغرب، لكنهم طولبوا بإحكام هذه الوحدة، وتعميقها وتأصيلها، ووجه إليهم الإنذار: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [سورة الأنفال: ٧٣]، وذلك لأنهم ـ إن كانوا في عددٍ ضئيل ـ كانوا جوهر الإنسانية، وخلاصة البشرية، وكان مصير الإنسانية مرتبطاً بهم، وكانوا موضع رجاء البشرية، وكان بوسعهم أن يؤثِّروا في مصير الأمم والملل، ومصير الإنسانية كلِّها، ومن ثم قيل لهم: إنّ زلةً واحدةً منهم، وثغرةً واحدةً في وحدتهم تسبب فساداً شاملاً كبيراً في الأرض، ولا يقتصر الأمر على مصيبتهم وشقائهم وحدهم.

أيها السادة!

إذا نشطت هذه العصبيات الجاهلية في باكستان، تلك العصبيات التي يستغلها المكرة، والدهاة، وأعداء الإنسانية، فليست هناك قوة تنقذ باكستان من هاوية الهلاك والدمار... وإذا أخفقت تجربة تنفيذ الشريعة في ربوع باكستان ـ لا قدر الله ـ فسوف لا يعود أحد يفكر في هذه التجربة في أرجاء المعمورة.

أقول لكم بكل تأكيد: إنَّ أوربا، وجميع دول العالم غير الإسلامية، تحسب كل الحساب للدول الإسلامية التي يرتفع فيها صوت تطبيق الشريعة الإسلامية، فلئن أخفقت هذه التجربة، فإنها تكسب المعركة، وتستغل الموقف، وتفعل أفاعيلها... فأنتم في مرحلة حرجةٍ جداً، تتطلب منكم أن تكرسوا لإنجاح هذه التجربة كلَّ قواكم، وكفاءاتكم، وذكاءكم، ومواهبكم العقلية والفكرية، إنها لمحنة العزيمة والهمة، والشهامة، والإخلاص، وروح الإيثار، والتعاون، والتناصر... يجب أن تضربوا

ـ بهذه المناسبة العظيمة ـ عرض الحائط جميع الخلافات ، يتطلب الموقف أن تترفعوا عن المصالح الحزبية في صالح باكستان ، بل في صالح الإسلام ، وإذا استوفيتم هذه الشروط ، فستبتدأ صفحة جديدة للتاريخ ، ويبتدىء عهد جديد ، إذا تمَّ قيام هذا المجتمع الإسلامي الذي نتوخاه ، فسوف يرتاد باكستان السياح والمراقبون ، والمعلقون ، لكي يشاهدوا بعيون رؤوسهم ، ويتحدثوا عنه في أجزاء العالم ، فيقول الواحد منهم : قد رأيت مجتمعاً لا يعرف الإثم والعدوان ، ولا يبتلع فيه الإنسان الإنسان ، يحدب كل عضو فيه علىٰ الآخر حدب الأمهات علىٰ البنين ، إنه لمجتمعٌ مثالي ، تجد النفس فيه هدوءها ، ويجد القلب طمأنينته ، وتقرُّ به العين ، وتهدأ فيه الروح ، ويشعر الوارد فيه كأنه دخل في الجنة والنعيم .

لكن ذلك لا يتم بالعصا السحرية ، وحجر الفلاسفة ، وإنما تحتاجون في سبيله إلىٰ التضحيات التي تتطلبها مثل هذه النعمة العظمىٰ الفريدة ، التي يتوقف عليها في الغد رقيُّكم ، ورقيُّ هذه البلاد ، وامتداد الإسلام وانطلاقه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

الـوحـدة الإسلاميـة ومـتطلَّباتُهـا

ألقىٰ العلامة الندوي هذه المحاضرة في حفل أقامته «مؤسسة همدرُد» الأهلية علىٰ دعوة من رئيسها سعادة حكيم محمد سعيد المرحوم وذلك في فندق أنتر كانتيننتال بكراتشي (باكستان) في ١٣/ يوليو ١٩٧٨ م ، وحضر الحفل مجموعة كبيرة من أعيان البلد والأساتذة الكبار ورجال الفكر والخبرة ، والبارزين في الحياة الاجتماعية .

كلمـة الـوحدة جـذابـة كالمغنـاطـيس :

أيها السادة! إني مدين لسعادة الأستاذ حكيم محمد سعيد ـ حفظه الله ـ حيث وفَّر لي فرصة التحدث إلى هذه النخبة المختارة ، وإلىٰ هذا الحفل الكريم ، وأتاح لي أن أبوح بأفكاري ، وأعبر عن مشاعري وعواطفي . إنَّ ذلك لمنةٌ علىٰ غريبٍ إقامتهُ بهذه البلد محدودةٌ بالأيام والليالي ، والذي لا يعرف بالضبط والدقة أعيان البلد ووجهاءه وقادة الفكر ورجال العلم والتربية فيه ، ولا يعرف شأنهم ومكانهم حتىٰ يتصل بهم مباشرة ، ويتحدث إليهم فرداً فرداً ، فمن تيسير الله تعالىٰ أن تدعى للاستماع لحديثه هذه النخبة الممتازة من أولئك السادة الذين يجدر كثير منهم بأن تُشدَّ الرحال للقياهم وحدهم .

ولكن بجانب ذلك كله تتضخم مسؤولية الخطيب أو الضيف ، ويجعله الموقف في امتحان : إلىٰ أيِّ مدىً سيستطيع أن يستغل هذه النعمة ، ويستخدم تلك الفرصة ، وهل تدعه موجة الأفكار والانطباعات ، وتزاحم العواطف ، وفيضان القلب بمزيج من مشاعر الشكر والعرفان بالجميل والشعور بالواجب ، أن يحسن التعبير ـ أمام السادة الحاضرين ـ عن مشاعره وأفكاره ونداء ضميره ، أم لا؟ .

وقبل أن أدخل في صلب الموضوع ، أرىٰ لزاماً عليَّ أن أحبذ سعادة الشيخ محمد سعيد المحترم علىٰ اختياره للحديث هذا الموضوع الذي يضرب على الوتر الحساس ـ نظراً إلى حرج الموقف ودقة الظروف : ظروف الصراعات والظنون ، والشكوك والشبهات ، وظروف الدوافع والأسباب المتضاربة في مجتمع وبلد ، مُني ـ ولا يزال ـ بأن يعبر طريقاً مفروشاً بالأشواك ، وأجمة شائكةً مائجةً بالقتاد .

أيها السادة! كلمة «الوحدة» من تلك الكلمات العديدة الحبيبة الأثيرة التي تحمل جاذبيةً ومغناطيسية في دنيا الناس ، والإنسان يعشق «الوحدة»

بطبيعته لأنها نداء ضميره ، وصوت قلبه ، ورضا ربه ، ولا غرو فإنه يعيش في دنيا الإنسان هذه ، ويتمتع بالحياة ، ويتجمل بوجوده هذا البستان الأرضي ، ويستخدم مواهبه ، ويستغل تلك الأهليات التي حباه الله إيَّاها ـ هو في حاجة ملحة إلىٰ أن يعيش متعاضداً ومتعاوناً ومتضامناً .

الصـراع بـين الـوحـدات :

لكنَّ التاريخ يشهد أنَّ هذه الوحدات ـ علىٰ حساب طبيعتها ووظيفتها ومعانيها ـ قامت بدور التخريب أكثر من القيام بدور التعمير ، فقد كانت الوحدة لتُوحِّد الإنسان ، وتثير فيه عاطفة الحب والحنان والأمن والسلام ، ولتوجد جوَّ الاعتماد المتبادل ، لكن «وحدة» اصطدمت وحدةً أخرىٰ أحياناً ، كما اصطدمت (وحشة بوحشة) أخرىٰ أحياناً كثيرة ، علىٰ حين كان من المتوقع ألا يكون هناك صراع ما بين الوحدات ، مهما تصارعت القوىٰ ومهما تصارعت الأشياء مع مثلها أو ضدها . . . من الممكن المعقول أن يتصادم التخريب مع التخريب ، وأن تحارب الفوضىٰ الفوضىٰ ، وأن تتصارع السلبيات مع السلبيات ، أما أن تقع الحرب بين جمعية وجمعية ، ووحدة ووحدة ، فتلك هي تجربة غريبة فريدة من نوعها ، وانحراف عن الطبيعة لا يوجد له نظير في التاريخ البشري ، وحكايةٌ أليمةٌ مؤلمةٌ مخجلة ، يتندىٰ لها جبين التاريخ ويسودُّ بها وجهه .

إلا أنَّ ذلك يرجع إلىٰ الأساس الذي تقوم عليه الوحدة ، فلئن كانت الوحدة قائمة علىٰ أسس سلبية : على عاطفة العدوان ، علىٰ إذلال الإنسان ، علىٰ شعور بسط النفوذ والسلطان ، علىٰ التسامي والكبرياء ، واستعباد العباد الأبرياء ، فلا بدَّ ألا تقرَّ مثل هذه الوحدة بوحدة أخرىٰ سواها ، لأنَّ غمداً واحداً لا يسع سيفين ، فحين تقرؤون تاريخ أمة أو ديانة تجدون رواية متصلة الحلقات من الحروب الدامية ، تجري أنهار الدماء ، وتقطع الرؤوس البشرية ، وتؤلف منها القباب وتجعل البلاد خاوية علىٰ عروشها ، وتثل العروش ، ويهلك الحرث والنسل ، وتداس الحضارات والمدنيات ، أما إذا بحثتم عن الأسباب ـ في ضوء فلسفة التاريخ ـ وجدتم

أنه كانت قد نشأت هنالك وحدة ترىٰ سِرَّ بقائها في القضاء علىٰ الوحدات الأخرىٰ.

مجرد الوحدة لا تحمل قيمة، ولـيس لها وزن حبـة خـردل فـي الميـزان:

وقد دلَّت التجارب ـ تجارب النوع البشري ـ: أنَّ مجرد الوحدة لا تجدي نفعاً، ولا تغني غناء، وإنما المناط بأساس الوحدة، والغاية التي أريد من ورائها.

وأول وحدة نجدها في تاريخ ارتقاء النوع البشري، هي الوحدة الأسرية والعائلية، والوحدة القبلية، والوحدة السلالية والعنصرية، والوحدة الجنسية، ثم نجد ـ بعد ما تقدَّم العالم البشري ـ الوحدة اللغوية، ثم الوحدة الحضارية والثقافية.

وكانت الوحدة الحضارية والثقافية من بين هذه الوحدات الكثيرة، أكبر محط للآمال، وذلك لأنَّ الحضارة والثقافة شيء لا يمت إلىٰ إيذاء العباد وإهانة النوع البشري بصلة ما، لأنهما ـ الحضارة والثقافة ـ تعنيان الإعانة علىٰ زوال الشكوك والشبهات، وارتفاع الحاجز بين إنسان وإنسان، وأن تنشأ عن طريقهما عاطفة الحب والوئام والتعاون والسلام، والعدل والإنصاف، وأن يحرص المرء على الاطلاع علىٰ حوائج أخيه وعلى أعذاره، وعلى مواضع ضعفه، فيشمله بعطفه وحنانه، ويسعى لتحقيق حاجته، وأن تنتبه في نفسه الدوافع على الاطلاع على أدبه وشعره، ولغته وثقافته... ومستغربٌ كلَّ الاستغراب أن تشتمل الوحدة الثقافية والحضارية على جانب من العدوان، واستعباد المجموعة البشرية، والحرب ضدَّ الحضارة البشرية.

لكن الحقيقة أنَّ الحياة البشرية مجموعة من أنواع المتضاربات والمتناقضات، contradication حتى يعجز علم النفس الحديث أيضاً عن إدراك أبعادها وأعماقها، فقد ينشأ في داخل الإنسان إنسان آخر، وقد يتبنىٰ الإنسان أغراضاً تستهدف الإطاحة بالإنسان، وربما تقوم هذه الأغراض علىٰ

أنقاض أغراض إنسانٍ آخر ، فلو كانت هناك فلسفة للحياة لا تحيا ، ولا تنمو ، ولا تترعرع ، ولا تخضر ، ولا تثمر ، إلاَّ بموت الإنسان ، وهلاكه ، وانهزامه ، وشقوته ، ونكبته ، فذلك هو الداء العضال الذي يستعصي على المعالجة ، واللغز الذي يعيي فكر العقول البشرية .

التـصور الإسـلامي للـوحــدة :

أما الإسلام فلا يقرُّ من بين هذه الوحدات المصطنعة الكثيرة إلاَّ بوحدتين حقيقيتين ، ويدعو إليهما دعوةً مؤكدة وهما أعظم الوحدات عصمة وبراءة ، وأكثرها نفعاً وخيراً للبشرية ، وأغناها إيجابية وفعاليةً ، وتعميراً وإنتاجاً .

وهما : الوحدة الإنسانية ، والوحدة الإيمانية ، أما الوحدة الإنسانية فهي تعني : أنَّ السلالة البشرية كلها أبناء أب واحد ، وهو آدم أبو البشر عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقد وقَّع سيدنا محمد ﷺ علىٰ هذه الوحدة وختمها بكلمات معجز ، جعلتها من التأكيد والتوثيق بمكان سوف لا يقرُّ به أي ميثاق (CHARTER) للوحدة الإنسانية في العالم ، فقال ﷺ : «إنَّ ربكم واحد ، وإنَّ أباكم واحد» فوحدة الأب ووحدة الرب ، هما الوحدتان اللتان أكرمت بهما الأفراد البشرية ، فيرجع وجودها الجسمي وينتهي نسبها الطيني إلىٰ شخصٍ واحد ، مهما اختلفت ألوانها وأجناسها ، وتنوَّعت لغاتها ولهجاتها ، وتناءت ديارها ، وتباينت في الأعمار والسنين ، والسمنة والهزال ، والطول والقصر ، وكذلك ربُّها وخالقها ورازقها واحد ، فهذه المناداة بالوحدة الإنسانية بهاتين الكلمتين الوجيزتين لا توجد مناداة بها أعمق منها ، وأشمل ، وأدق ، وأكمل ، وأكثر منها اتفاقاً مع العقل والمنطق .

إذاً فإنَّ هاتين الوحدتين تربطان الإنسان بعضه ببعض ربطاً موثقاً ، وتجعلان البشرية المنتشرة في الآفاق وحدة متراصة ، وتجعلان الإنسان إخواناً متعاونين متماسكين من ناحيتين : ناحية آصرة الأبوة ـ وقد تعرض رسول الله ﷺ للأبوة أولاً ، لأنها الحقيقة العادية المساغة لكلِّ إنسان ـ وناحية الربوبية ، هذه هي الوحدة الإنسانية الحقيقية الواقعية التي أعلن عنها

النبيُّ الأعظم سيدنا محمد ﷺ من خلال خطبته العالمية التي تخاطب النوع البشري في أرجاء المعمورة إلىٰ يوم القيامة ، وكأنها شهادة أدَّاها سيِّد الأنبياء والرسل عليه صلوات الله وسلامه ، وذلك بمناسبة حجة الوداع .

وحـدة جديـدة فـريـدة:

أنشئت في القرن السادس المسيحي وحدة جديدة أنشئت علىٰ أساس عقيدة توحيد الله ، وإفراد الله بالعبودية والربوبية ، وعلىٰ روح المواساة ومبادىء العدل والمساواة ، وخدمة الإنسانية والعطف عليها .

آخىٰ النبيُّ ﷺ بين المهاجرين من مكة إلىٰ المدينة ، وبين الأوس والخزرج من أهل المدينة المنورة ، وأقام بينهم صلة الأخوة القوية ، وألَّف من هؤلاء وهؤلاء وحدة؛ لأن هؤلاء المهاجرين كانوا غرباء يحتاجون إلىٰ مأوىٰ يأوون إليه فكانت هذه الآصرة آصرةً جديدةً من نوعها ، ما عهدتها البشرية علىٰ مدار التاريخ ، قامت علىٰ مجرد أساس العقيدة والهدف . . . وكلُّ من درس السيرة دراسة عميقة يعرف أنَّ هذه الوحدة لم تكن وحدةً حضارية ، أو وحدة اجتماعية ، نعم . . . كان هناك نوع ما من وحدة اللغة ، إلا أنَّ ما كان يوجد من الفارق بين اللهجتين المكية والمدنية وبين الأسلوبين اللغويين: المكي ، والمدني ، كان كافياً لتوسيع الفجوة بين أهل مكة وأهل المدينة ، وتعرفون أنتم أنَّ الأساليب اللغوية تختلف بعد قليل من المسافة ، ويتعصب لها أهلها تعصب الناطقين باللغات المختلفة تماماً ، وقد جربت باكستان ذلك تجربةً أعتقد أنَّه لم يجربها إلا قليل من البلاد .

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أؤكد أنَّ ما يراه عامة الدارسين للسيرة النبوية من الاتحاد الكلي فيما بين المجتمعين: المكي والمدني ، والمدنيتين: المكية والمدنية ، ليس من الصحة في شيء ، فإن الدراسة الحديثة للسيرة تقرر: أنَّ اختلافاً واضحاً كان يوجد بين المدنيتين ، وكان أهل مكة ـ ولاسيما قريشاً ـ يحملون الشعور الزائد بالتفوق (Superriority Complex) يدلُّ على ذلك ما دار بين القرشيين الثلاثة وبين الأنصار ، في غزوة بدر الكبرىٰ ، وأخالكم تتذكرون: أنَّ ثلاثة أبطال قرشيين وهم عتبة ،

وشيبة ، والوليد بن عتبة ، قد برزوا في الميدان ـ ميدان بدر ـ ونادوا المجاهدين المسلمين للمبارزة بدءاً بالحرب علىٰ عادة العرب ، فبرز لهم ثلاثة فتية من الأنصار ، فقالوا : «ما لنا بكم من حاجة» ثم نادى مناديهم : «يا محمد أخرِج إلينا أكفاءنا من قومنا» ، فلما برز لهم عبيدة وحمزة وعلي رضي الله عنهم بأمر النبي ﷺ قالوا : «نعم أكفاء كرام» مما يدلُّ علىٰ نخوتهم القبلية ، وأنهم كانوا يعتزون بقبيلتهم وجنسهم ، ولا يرون غيرهم أكفاء لهم في قليلٍ أو كثير ، وبجانب ذلك كان العنصر الأهم من العناصر التي كانت تشكل المجتمع المدني هم اليهود الذين كانت لهم السيادة (Domination) والكلمة المسموعة ، فقد كانت اليهود لها حضارتها ، وثقافتها ، ولغتها ، وكانت هي الأمة الوحيدة المتحضرة الراقية في الجزيرة العربية ـ التي كانت لها مدارس ومعاهد تعليمية كانت تسميها «المدارس» (بكسر الميم وسكون الدال المهملة) ـ وكانت تدعو غيرها من الشعوب أمية ، فقد حكىٰ القرآن الكريم علىٰ لسانهم ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : ٧٥] ولا تزال اليهود تعتقد ذلك ، فهي تصف الشعوب كلهم بكلمة «GOYIM» التي تعطي معنىٰ «غير المتمدن» و «سيىء الأدب» .

علىٰ كلٍّ فلو توسعتم في دراسة السيرة لعلمتم مدى اختلاف المجتمعين : المكي والمدني ، أحدهما عن الآخر ـ رغم الوحدة اللغوية ، والوحدة النسبية في آبائهم العليا ، وبما أنَّ المجتمعين قطعا مراحل الارتقاء في بيئتين مختلفتين اختلافاً تاماً ، فعادا وكأنهما مجتمعا دولتين مستقلتين ، ومن ثَمَّ فكان من الممكن ألا يندمج المهاجرون والأنصار اندماجاً كلياً ، ولا تتألف منهم وحدة تحمل طبيعةً واحدةً كالأدوية المركبة بالعناصر المختلفة ، والعقاقير المتنوعة ، ولا يتنازل كلٌّ من المهاجرين والأنصار عن شخصيتهم المستقلة ، وإذاً فلا تفيدُ الأدوية المركبة من المفردات الكثيرة ، ولا تعطي تأثيراً خاصّاً؛ إذا كانت المفردات لم تنحلَّ فيها ، ولم تذب .

ولم تكن القضية قضية المهاجرين والأنصار فحسب ، فقد كانت الأنصار تتوزعهما القبيلتان العظيمتان ـ الأوس والخزرج ـ اللتان كانت

بينهما معاركُ وحروبٌ في الماضي القريب ، كما تنشب الحروب بين أمتين متنافستين متخاصمتين ، أو بين دولتين تتربص إحداهما بالأخرىٰ الدوائر ، وكانت حرب بُعاث ـ التي وقعت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بخمس سنوات ـ الحلقة الأخيرة من سلسلة الحروب الدامية ، وقتل فيها الطرفان أحدهما الآخر شرَّ قِتلة ، وأذاق أحدهما الآخر ألوان الشقاء وسوء العذاب ، وكانت لدىٰ كلٍّ من القبيلتين «مزدوجة» تتحدث عن تاريخها وتتغنىٰ بمجدها ، ومآثرها ، ومفاخرها ، وكان اليهود يواصلون المحاولات ـ حتىٰ بعد ما تشرفت القبيلتان بالإسلام ـ لإثارة نخوتهما القبلية ، وغيرتهما الجاهلية؛ بتذكير هذه الوقائع الماضية في النوادي والمحافل التي تضمهما ، فهناك رواية في كتب السيرة تقول : إنَّ القبيلتين أوشكتا في إحدى المناسبات ـ بفعل مكيدة اليهود فقد أشاروا لأحد إخوانهم بإنشاد ما نُظِم ، وقيل في حرب بعاث ـ أن تشتبكا وأن توقع كلٌّ منهما بالأخرىٰ؛ إذ خرج عليهم رسول الله ﷺ ، فأطفأ هذه الجذوات المستعدة للاتقاد بماءٍ بارد من الإخاء الإسلامي ، والإيمان ، والعطف ، والحنان[1] .

علىٰ كلٍّ فكان بالإمكان أن تحدث هناك فوضىٰ جديدة مكان الأمن والسلام والتضامن ، وأن تنشأ فتنةٌ جديدة بدل أن تبرز قوةٌ موحدةٌ متعاونة ، وكانت الأسباب لذلك متوفرة ، كما سبقت الإشارة إليها في السطور السالفة ، وكان الكيان اليهودي فعلاً أكبر ، وأنشط ، وأقوىٰ عامل (Factor) لكلِّ هدم وإفساد ، ولا غرو فإنَّ اليهود يملكون من مؤهلات الإفساد والتخريب ما لا تملكه أمَّةٌ في عالم البشر ، ولا يزالون يستأثرون بهذه المزية ، إذاً فكان في الحسبان أن يوقع العنصر اليهودي بينهما العداوة والبغضاء ، ويجدد بينهما الحمية الجاهلية التي تجعلهما صفين متقابلين متحاربين .

هذا بالإضافة إلى أنَّ الحياة المكية كان عمادها التجارة ، علىٰ حين كانت الحياة في المدينة تتوقف علىٰ الزراعة والفلاحة ، والغرس

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ، الجزء الأول ، ص/ ٥٥٥ .

والتشجير ، وكان هذا الاختلاف في الحياتين ناشئاً عن الاختلاف في الأوضاع الجغرافية ، وقد كان هناك فرق بين الحياتين بالنسبة إلىٰ المعاشرة العائلية والحياة الأسرية ، وكما أشار إلىٰ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إحدىٰ المناسبات .

وحـدة الـعقيـدة والـهدف :

ولا أعرف أنه أقيمت هناك أخوة فيما قبل ، أو أوجدت آصرة ـ في مثل هذا التنسيق والدقَّة والوضوح ـ على مجرد أساس الوحدة في العقيدة والغاية ، قامت هذه الأخوة فيما بين المؤمنين المخلصين؛ الذين كانوا يؤمنون بالوحدة الإنسانية ، والوحدة الربانية ، وكانوا يتمتعون بالثبات علىٰ وحدة العقيدة ووحدة الهدف ، وكان ذلك قوةً جديدةً أنشئت لإنقاذ العالم المنهار ، وتخليص الإنسانية عن بؤسها وشقوتها .

قليـل فـي العـدد، جليـل فـي الهـدف :

وما هو مركز هذه الجماعة الناشئة الممثلة لتلك الأخوة المنقطعة النظير؟ وما هو مكانه من الثقل والاعتبار؟ وما عدد أعضائها وأفرادها؟ يتحدث القرآن الكريم عن كل ذلك ، فيقول :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

إذاً فكانوا من القلة بحيث يُعدّون بالأصابع ، وكانوا من الخفة بحيث لا يحسب الناس لهم حساباً ، ولا يلقون إليهم بالاً ، فكانوا يخافون كلَّ لحظة أن يتخطفهم الأعداء تخطف الغربان والحدآن قديد اللحم دون أن ينالوا منهم بشيء ، أو يؤذوا جنبهم بشوكة .

كانوا في هذه الحالة من الضعف والعجز والقلة والخوف ، التي عبر عنها القرآن الكريم تعبيراً لا أبلغ منه ، ولا أروع وأدق ، ولكن ـ علىٰ الرغم من ذلك لننظر ما هو المركز الذي كان يحتله هؤلاء المسلمون المستضعفون؟ ، لنعلم ضخامة المسؤولية التي ألقيت على عاتقها . . . .

أيها السادة! أؤكد لكم أني أقضي من عجبي كلما أقرأ الآية التالية التي تتحدث عن مسؤولية هذه القلة الموحدة. . . ما أضخم المسؤولية وأدقها وأصعبها وما أعظمها لدىٰ الله وأكرمها! يقول الله عز وجل: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣]. . يخاطب الله المهاجرين والأنصار مؤكداً عليهم: أنهم إن لم يقوموا بتحقيق هذه الوحدة ، ولم يدعموها ، ويحكموها بكل ما يلازمها ، تكن في أرض الله فتنةٌ عظيمةٌ ، وفساد كبير. . . لو سمع هذه الكلمات رجلٌ سياسيٌّ يقيس الأمور بظواهرها ، لوقف مدهوشاً ، حائراً ، واجماً ، ولتساءل: ما هو رصيد هذه القلة من القوة ، وما هو واقعها من الاعتبار؟. . . . إنها كاللسان المسكين يحاصره ٣٢ سناً ، أو كنقطة في المحيط ، أو كقطرة أمام البحر الزاخر الهادر ، فمن أين لهذه الوحدة القليلة المؤلفة من المهاجرين والأنصار قدرة القضاء على الفتنة العظيمة؟!. . .

لكن الله ـ العليم الخبير ـ أكرمها بهذا «الوسام» ومنحها هذه المرتبة من الشرف ، لأنه يريد لها القيام بعملٍ جليل ، وقيضها لحاجة ملحة ، حاجة الإبقاء علىٰ الحضارة الإنسانية ، وإنقاذ العالم البشري الحائر.

لم يكن ليدرك صدق الآية القرآنية هذه إلا الذين يؤمنون بقدرة الله المطلقة ، وكانوا يدركون روح هذه الوحدة الناشئة ـ رغم قلتها العددية ـ وكانوا يدركون قيمتها -Merit- وأهليتها ، وثقلها المعنوي ، وما كانت تتمتع به من الحماس والنشاط ، والتألم والتفجع للإنسانية المنكوبة ، وما كان يتصف به أعضاؤها من الرهبنة في الليل ، وقضاء النهار على صهوات الخيل ، والآلام ، والأشجان التي كانوا يعيشونها ، وكانوا يدركون كيف يضحون هم بأنفسهم وبأفلاذ أكبادهم وبأموالهم في سبيل الله ، ومدىٰ القلق الذي يعيشونه في التفكير في إنقاذ النوع البشري من الدمار ، ولنشر الهداية والفضيلة والفلاح في شرق الأرض وغربها ، ولمنع الإنسان أن يحارب بعضه بعضاً ، ويأكل القويُّ منه الضعيف.

لا يدرك صدق هذه الآية إلا هؤلاء الصنف من الناس ، لأنه كان صعباً على العقول والأفهام ـ حتى بالقياس إلىٰ الفتنة المعاصرة لهذه الوحدة

الناشئة ، وفي تلك الملابسات السياسية والحضارية والمدنية ـ أن تدرك هذا السرَّ ، سرَّ تشريف هذه الوحدة بهذه المرتبة العظيمة ، وتكليفها بهذه المسؤولية الضخمة ، حتىٰ قيل في حقها: إذا لم تتحقق ولم تتقوَّ؛ تموج الدنيا الإنسانية بالفتن والويلات ، وتذوق ألوان الشقاء والبلاء ، ونيط بها مسؤولية إنقاذ العالم من نار الفساد والدمار التي كادت تأتي عليه ، وتدعه رماداً. لو نظرتم في خريطة العالم المسيحي في القرن السابع ـ ولا أريد الخريطة الجغرافية، وإنما أريد الخريطة الحربية ، وخريطة الشعور المتطرف بالتفوق ، والتبجح بالعَدد والعُدد والقوة ـ وما ترك من تأثير مؤلم علىٰ العالم؛ لعرفتم صدق ما صوره شاعر الإسلام حكيم الشرق الفيلسوف الإسلامي الدكتور محمد إقبال في أبياته الرائعة البليغة الآتية:

«إنَّ الإنسانية ذاقت ألوان الشقاء والبلاء ، والدمار والهلاك ، علىٰ أيدي «الإسكندر» و«جنكيز» ، وتاريخ الأمم العريق ينادي رجال الفكر والتجربة ، ويتقدَّم إليهم برسالة خالدة: إنَّ الشعور الزائد بالقوة خطر أيّ خطر علىٰ المرء ، إنه كسيلٍ جارفٍ يكتسح البلاد والعباد ، ويبقي العقل والفكر ، والإدراك والعلم ، أمامه كغثاء السيل».

عبء العالم كله على وحدة قليلة متواضعة:

ألقيت مسؤولية العالم كله على وحدةٍ جديدةٍ متواضعةٍ نشأت حديثاً علىٰ أرض المدينة المنورة ، وأكد علىٰ هذه المجموعة الإنسانية ، بألا تألو جهداً في إحكام هذه الوحدة ، وتعميق جذورها ، وريها ، وسقيها ، والسهر عليها ، والإيمان بها ، والولاء لها ، وألا تدَّخر وسعاً في التفجع علىٰ الإنسانية الشقية ، ولا يحولنَّ بين هذه الغاية الكريمة الجليلة مصلحةٌ ذاتية ، أو مصلحةٌ جماعية ، أو أغراضٌ حزبية. . . وحكم بأنها لو أهملت في هذا الشأن فإنَّ الإهمال يؤدي إلىٰ سلسلةٍ من الويلات وإلىٰ سيلٍ جارف كاسحٍ من الشقاء اللامتناهي.

صدقوني: أني كلما أقرأ هذه الآية الكريمة ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الإنفال: ٧٣] يأخذني العجب العجاب وأسائل

نفسي ـ في حيرة ـ أين هذه القلة المتواضعة من هذه المسؤولية الجسيمة؟ هذه القلة التي كانت من صغر الحجم بمكان يحتاج المرء فيه للرؤية إلىٰ الألمعية والفراسة ـ وإن لم يحتج إلىٰ استخدام المكبرة ـ.

ضغط علىٰ تلك المجموعة المتواضعة أن تركِّز كلَّ عنايتها علىٰ تأصيل هذه الوحدة وتنميتها؛ لأنها لو قصرت في ذلك، لسوف تأكل هذه الوحدات ـ المنتشرة في أرجاء الأرض، والناعقة هنا وهناك ـ النوع البشري كله، وذلك لأنها ليست في الواقع وحدات، وإنما هي وحشيات، إنما هي مؤامرات ضد النوع البشري، لأن هذه الوحدات تريد بعضها أن تنمو على حساب البعض، وتتكون مجموعة، فتكون نذر خطر للمجموعات البشرية كلها، ولا تزال اليوم وحشيات تقوم على قدم وساق باسم الوحدات، ونرىٰ اليوم أنواع الفوضى والتفريق والتمييز باسم التجمعات، والجمعيات، والجامعات، وأنصارها دائماً يصفونها بوحدات، فمثلاً: هي وحدة كذا، وهي دولة كذا، وهي كتلة كذا، وهي فلسفة كذا، وهو النظام الفلاني، لكن هذه الوحدات كلُّها تكذب بعضها بعضاً، وتحارب بعضها بعضاً، ولا تعترف أيُّ واحدة منها بأخواتها الأخرىٰ أبداً، وكلُّ وحدة منها قررت أنها لا تحيا إلا إذا غابت كلُّ الوحدات سواها في ضمير الغيب.

إذاً فإذا كانت هناك وحدةٌ يمكن أن تكون رحمةً للإنسانية كلِّها، فإنما هي الوحدة الإنسانية والوحدة الإيمانية ـ التي يصحُّ التعبير عنهما بالوحدة الإسلامية، ليس إلا.

الوحدة اللغوية وجناياتها:

هذه اللغة التي هي غاية في البراءة والعصمة، والتي تتساقط كلماتها عن الأفواه البشرية كالأزهار في جمالها وبهائها، هذه اللغة التي وضعت للتأليف بين القلوب، ولإدخال السرور والفرح عليها، ولكي تكون وسيلة التغني بالحبِّ والمودة، ولتقريب الإنسان بعضه من بعض، هذه اللغة التي استخدمت كترجمان صادق لعواطف الحب، وللكشف عن أسرار الطبيعة

والحياة ، هذه اللغة التي طالما أطربت الإنسان ، وجعلته يهتز من النشوة ، وطالما كانت رسول الحبِّ والسلام ، والرحمة والأمان ، والعطف والحنان ، ورفعت الحاجز النفسي فيما بين القلوب المتقاطعة ، وجبرت القلوب المتكسرة ، فجَّرت أنهار الود والوئام ، إنها كانت السبب في بعض الأحيان في الفتك بمئات الآلاف من النفوس البشرية ، هذه هي التي قامت من أجلها مجازر وحشية وذُبح فيها الذين كانوا يحملون اللسان الذي كان يحمله القتلة الوحشيون .

هذه الوحدة اللغوية المزعومة ، والحب الزائد لها ، والعصبية العمياء من أجلها ، قد فعلت الأفاعيل بأولئك الذين لم ينبسوا بشيء سوىٰ كلمة الحب والحنان ، والذين أحيوا الليالي بذكر الله وعمروا خلوات الليالي بالتسبيح والمناجاة مع الله ، إنها جرعتهم كأس الموت ، وولغت في دمائهم .

إنَّ هذه اللغة إذا جعلت أساس وحدة مصطنعة ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس لها وزن حبة خردل في الميزان ، فإنها تدع جهود الأنبياء كلها هباءاً منثوراً ، وتتحول إلىٰ قوةٍ هادمةٍ تهدم كل ما بنته الأوائل في آن واحد ، وتذهب بكلِّ ما قام به السلف من جهود الإصلاح ومحاولات البناء ، وتأتي علىٰ الثروة الحضارية والثقافية كلها في ثانية أو أقل . . . إنَّ الوحدة اللغوية ـ أيها السادة ـ جرَّت من الويلات والشرور ما جعل الإنسانية تقف أمامه مدهوشة واجمة ، وأفقدها الشعور والوعي ، وقد اكتويتم بهذه النار(١) ، ولا يزال هذا الخطر الأسود يحدق بكم ، إني أخاف أن ينهض داهيةٌ مغرض ، ويستخدم اللغة كوسيلة ناجحة لإقامة الحواجز والفروق ، ولإثارة الحمية الجاهلية ، وأن يستغلها لأغراضه السياسية . . . حقاً إنَّ هذه اللغة تستطيع اليوم أيضاً بكل جدارة ، أن تلعب ذلك الدور التخريبي الذي لعبته السيوف في أيدي «سيرز» و«قيصر» و«جنكيز» .

---

(١) إشارة إلىٰ مجزرة باكستان الشرقي ، وليرجع للتفصيل رسالة «جاهلية اللغة» طبع «المجمع الإسلامي العلمي» ندوة العلماء، لكهنؤ، الهند.

الـوحـدة الـحضاريـة ونتائجهـا الـوخيمـة:

وكذلك الحضارة، فقد كانت رسالتها الوحيدة: أن يتحضر الإنسان، وأن يشعر بمواضع الضعف في نفسه، ويعترف لغيره بالفضل لو كان يتصف به، يعشق الحسن والجمال حيثما وجد، ويقدر الفن والأناقة في شتَّى صورهما وأشكالهما، ويطرب إذا أنشد عليه أحد شعراً بليغاً يجمع الجمال الفني والموسيقي، ويعجب بالذكاء والعبقرية والبطولات والمآثر مهما اتصف بذلك شعبٌ وأمة، وأن يعتبره ملكاً لنفسه بصفته ثروة إنسانية مشتركة.... كان من اختصاص الحضارة أن ينفخ في الإنسان الشعور بأن المآثر مهما وجدت وحيثما وجدت هي كأنها ملكه الشخصي، فليحتضنها، وليقدرها حق قدرها، لكن.... الحضارة، حينما تحرم التوجيه الرباني، وتحيد عن الهدي النبوي، لا تعود حضارة، بل تتحول آلة تعذيبٍ، وإبادةٍ، ودمارٍ للإنسانية، أفما قرأتم قصة محاربة الحضارات للحضارات، وقصة صراع الثقافات مع الثقافات.

أيها السادةً قد افتضحت اليوم الأسطورة القائلة بغناء مجرد الوحدة، وقد تقرر بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ الوحدة ـ أي وحدة كانت ـ إذا لم تمدها الوحدة الإيمانية، والوحدة الإنسانية؛ فإنها تتحول إلٰهاً يُعبَد، وتقدم له القرابين، وربما تصبح بدل أن تتنعم بها الإنسانية، ويطيب بها العيش، وتلتذ بها الحياة وتتحقق بها الأماني، وتتجسد بها الأحلام، وتتعلل بها البشرية، وتشبع بها العواطف، وترضىٰ بها الرغبات ـ ديناً، لها كل ما للدين من تحمس وإخلاص، وتقديس وإجلال، وربما تعود فلسفةً ونظاماً يفرض على الإنسان، رغب فيه أو رغب عنه، ويرغم على الإذعان له والخضوع لجلالته... إنها جرَّت الويلات على الإنسانية آلاف مرات، وعهدتها الإنسانية في أدوارها الكثيرة ذئباً ضارياً شرساً.

السبب فـي الحربيـن الـعالميتيـن: الأولـى والثانيـة:

أيها السادة! قد يكون فيكم كثير ممن أدرك الحربين العالميتين: الأولى (١٩١٤ م) والثـانيـة (١٩٣٩ م)، وقـد يكـون فيكـم مـن لـم يعهـد إلا

الأخيرة. . . فماذا كان السبب ـ يا ترىٰ ـ في هذه المجازر ، وهذه الإغارت والهجمات ، والحروب الدامية ، هل كان ذلك صراعاً بين الحق والباطل؟ ، هل كان هناك باطلٌ يطارد الحقّ ، فأرادت دولةٌ ، أو أمةٌ أن تأخذ للحق الثأر ، وتقف بجانبه؟ ، لا ، وكلا!.

إنَّ العامل الحقيقي في كل ما يجري على الساحة العالمية من الفساد الذي لا نهاية له ، ومن الجرائم التي لا آخر لها ، والفوضى التي لا انقطاع لها ، هو الشعور الزائد بالتفوق والكبرياء ، وأصارحكم ـ أيها السادة ـ ليس هناك شعبٌ يريد أن يعيد للإنسانية هدوءها وقرارها بالقضاء على أسباب هذه الجرائم والفوضى ، بل كأنّ كل شعب يقول: ما لي ولذلك. . . تأكدوا. . . إنه لا يهم أحداً الإصلاح ، وإنما يريد ألا تكون هذه الجرائم إلا تحت إشرافه هو. . . كأنَّ كلَّ أمةٍ تقول: إنَّ هذا العالم بخير إذا عادت السيطرة عليه إلينا ، وتكون لنا الكلمة المسموعة دون الأمة الفلانية.

فمثلاً ، هذه الحرب العالمية الأولى ، ماذا كان السبب فيها؟ ، شعرت ألمانيا شعوراً قوياً ملحاً أن تكون لها تلك السيطرة على الأسواق العالمية ، والمتاجر الدولية ، والوسائل ، والذخائر ، والبضائع في العالم ، التي لا تزال بريطانيا تستأثر بها منذ أمد بعيد.

وتلك هي طبيعة أحزابنا السياسية كلِّها دون استثناء ، وقد كرَّرتُ القول في كثير من الحفلات والتجمعات التي ضمت أخلاط الناس في الهند أيضاً ، أكدتُ فيها: أنّ هذه الأحزاب السياسية لا تهمها في شيء إزالة الفوضى والفساد ـ وإن لم يُصرِّح بذلك بلسان المقال ـ وإنما يعنيها ألا يجري الفساد ، وألا تدور الفوضى إلا تحت تصرفها ، وأمرها ونهيها ، ولكم أن تجربوا ذلك. فلو حولتم إليها سلطتكم ، لما وجدتم جديداً ، وتقدماً في القضية أو تأخراً ، لأنها لا تختلف اختلافاً مبدئياً منهجياً ، أو أخلاقياً.

ولو ألقيتم نظرة على المسرح العالمي ، لرأيتم أن هاتي الأمم الأوروبية التي شنت بعضها حرب إبادةٍ على البعض وأراقت الدماء بكل سخاءٍ عدة مرات ، لم تكن محاربة بعضها بعضاً من أجل الاختلاف في المبادىء

والأهداف أو بين المسيحية وغير المسيحية ، أو بين العدل والظلم ، أو من أجل إعداد خريطة أخرى جديدة للحياة الإنسانية ، لا ، بل لمجرد أن ينضمَّ الإنسان إلىٰ المعسكر الفلاني ، وأن تجتمع الدنيا تحت الراية الفلانية .

ومعذرةً إليكم ـ أيها السادة ـ إنَّ أحزابنا السياسية في الدول الشرقية لدينا تفكر نفس هذا التفكير ، وتنحو نفس المنحى ، فهي لا تتفجع على أنَّ المواهب الإنسانية تضيع ، وأنَّ الشباب يقع فريسة الشذوذ والانحراف والفساد الخلقي وأنَّ النظام التعليمي المعاصر خاطىء ، أو عقيم ، فيحتاج إلى التغيير والتعديل . . . كلُّ ذلك لا يهمُّ أحداً ، وإنما الهمة مصروفة في الحصول على الملك والسلطان .

المشكلات التي تواجه المسلمين :

أيها السادة! قضية مسلمي باكستان لا تنحصر في أنهم يحملون لواء الوحدة عبر باكستان فحسب ، بل قضيتهم أعمق وأشمل من ذلك ، فهم يتقلدون مسؤولية تمثيل هذه الوحدة في خريطة العالم السياسية ، ويتبنون تحقيقها وتجسيدها (demonstration) والدعوة إليها ، وجمع الناس تحت رايتها . . . ومن هناك فلئن تراجعوا عنها وخذلوها ، أو حدث في هذه البلاد التصارع علىٰ أساس اللغة ، أو الثقافة والحضارة ، أو ظهرت فتنة إحياء الحضارة المحلية القديمة ، فينهض هناك أناس يتحمسون لإحياء الحضارة الهندوكية العريقة فيما قبل الإسلام . . . . فالويل لهذه البلاد ، ولا يستطيع أحد أن ينقذها من مخالب الدمار إلا الله العلي القدير ، وذلك لأنَّ ما يأخذ بحجز هذه البلاد ، ويربط بين العناصر المتباينة التي تشكلها ، هو هذه الوحدة الإيمانية ، والوحدة العقيدية ، والوحدة الإسلامية ، فإنْ رحتم تقيمون هذه الوحدات الجديدة المصطنعة ، وجعلتم تنصبون هذه الأصنام التي نحتتها الأيدي البشرية ، والتي ثار عليها شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، ونعىٰ عليها في شعره البليغ قائلاً : «حطموا أصنام الألوان ، والعناصر ، والأجناس ، وانصهروا في بوتقة الإسلام ، حتىٰ لا يبقىٰ هناك «توراني» أو «إيراني» أو «أفغاني» ، فإنَّ هذه الأصنام من اللون والجنس

والعنصر والثقافة والحضارة و. . . و. . . ، سوف تفعل فعلها ، وتعطي تأثيرها الأسود الذي يؤدي بهذه البلاد إلىٰ ما تقشعر منه الجلود ، وتشيب لهوله الولدان ، فقد ذاقت علىٰ أيدي هذه الأصنام بلادٌ من أرض الله ألواناً من الشقاء. . . هذه تركيا انتبه فيها الشعور بإحياء «حضارة آسيا الوسطىٰ» وتولى كِبَرَ ذلك «ضياء كوك ألب» وكان بطل هذه المسرحية «كمال أتاتورك» ، وكذلك هَبَّ في إيران من حين لآخر هذا الفكر الأسود ، وهتف أشواب من الناس بإعادة «الحضارة الإيرانية قبل الإسلام». . . فحذار ـ أيها السادة ـ أن يستيقظ هذا الشعور في بلادكم في قلوب أناس ، وينادوا هذه النداء الجاهلي؛ لأنه نذر خطر لا نهاية له.

وتأكدوا أنَّه ليس هناك شيء يمكن أن يكون ضماناً على الأمان إلا الوحدة الإيمانية والوحدة الإسلامية التي هي صمام الأمن والسلام في الواقع ، وإذا قامت هناك وحدة ما سوى هذه الوحدة؛ فسوف تشتت شمل هذه البلاد ، وتمزِّق هذا المجتمع الهادىء تمزيقاً ، وتضرب القوىٰ بعضها ببعض ، وتنفخ في العصبيات الجاهلية ـ تلك التي ضرب الإسلام على جذورها ـ روحاً جديدة ، فتنفض عن نفسها الغبار ، وتهتز وترتص.

ولا أعلم أنَّ النبيَّ ﷺ قد شدَّد في الكلام في قضية من القضايا ، أو في مناسبة من المناسبات ، ما شدد فيما يتصل بالحمية الجاهلية؛ لأنه ﷺ كان يدرك ـ بفراسته النبوية وبإدراكة للحقائق ، واطلاعه على تاريخ الأمم والديانات: بجانب كونه منزل الوحي والإلهام الرباني ـ أنها أضرّ الفتن ورأس الفساد ، قال عليه الصلاة والسلام:

«من تعزَّى عليكم بعزاء الجاهلية فأعِضُّوهُ بِهَنِ أبيه ، ولا تَكْنوا»[(١)].

يعني: إذا نادى أحد بنداء الجاهلية ، واستعداها عليكم ، وقال: يا لهذه القبيلة ، ولتلك الأمة ، أو يا لهذه اللغة والثقافة ، أو نال من أمة وشعب على أساس العنصرية والجنسية والنسب ، أو على أساس عصبيةٍ من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٥ ، ص ١٢٦.

أمثال هذه العصبيات ، فتناولوه بألسع الكلام وألدغه ، ولا تلتجئوا إلى الكناية والإشارة في التشديد والتشنيع .

وتعلمون ـ بدوركم أيها السادة ـ أن هذه العصبية تستطيع أن تبيد في آنٍ واحد الثروة العلمية ، والأدبية ، والثقافية ، والحضارية الغنية التي تكونت في آلاف الأعوام والسنين ، وأن تجعل المحاولات الإصلاحية المخلصة التي قام بها عباد الله المؤمنون الصالحون بعد تضحيات جسام هباءً منثوراً ، ورماداً تذروه الرياح في مكانٍ سحيق ، إنها أعمى العمى ، إنها لا تبصر ، ولا تعي ، ولاتعقل ، ولا تراعي في أحدٍ إلاًّ ، ولا ذمة .

إنِّي أريد أن أحذركم ، وأن أبلغ هذا التحذير إلى أقصى ما يمكن أن أبلغ إليه : إنَّ أخوف ما أخاف على هذه البلاد هو العصبية اللغوية ، أو العصبية الحضارية ، والدعوة إلى إحياء الحضارات القديمة ، وأريد أن أطلق هذا الحديث؛ لأنَّ ذلك لا يخصُّ بلداً دون بلد ، إنه خطر مدلهم على كل بلد يمنى بهذه المصيبة ، خطر على مصر الحبيبة ـ مثلاً ـ إذا دعت إلى الحضارة الفرعونية ، كما حدث قبل أعوام ، وخطر على إيران الشقيقة؛ إذ تعزت بـ «سائرس» واعتبرته «البطل النموذجي» .

وتفادياً من ذلك تشتدُّ الحاجة إلى إحكام هذه الوحدة الكريمة ، الوحدة الإسلامية؛ لأنها هي وحدها رسول الأمن والسلام ، وقادرة على البناء والإصلاح ، وهي وحدها التي تجمع ، ولا تفرق ، تؤاخي ، ولا تعادي ، ترحم ، ولا تقسو ، تبني ، ولا تهدم ، قد امتنَّ الله علينا بهذه النعمة الجليلة :

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

يعني : اذكروا كيف كان بعضكم حرباً على بعض ، يلغ كلٌّ منكم في دم أخيه ، فألَّف بين قلوبكم ، وقامت بفضله بينكم أخوةٌ قويةٌ منقطعة النظير ، تركت العالم البشري يقف منها موقف المدهوش المتحير ، ويقضي من عجبه حينما يرى في كتب السيرة مظاهر هذه الأخوة العجيبة. . . هذا

أبو عزيز أخو مصعب بن عمير رضي الله عنه ، يُشَدُّ بالوثاق فيمر به مصعب ، فيشير على الموثق بالإحكام؛ لأنه ثري يمكن أن يؤدي في فديته مبلغاً خطيراً ، فيقول أبو عزيز ـ حينما يرى من أخيه الشقيق موقفاً لم يكن يتوقعه ـ: كنت أرجو أن ترق لحالي ، وتتوسط في تخليصي ، وتشفع لي بخير ، فيتبرأ منه مصعب ، ويقول: لست أخي ، وإنما الذي يوثقك هو أخي. إلى هذه المبلغ قد بلغت هذه الأخوة ، يا سادة! وإلى هذا الحد وحَّدتهم هذه الوحدة ، وحدةُ العقيدة والغاية.

أما الوحدة اللغوية ، فلا تغني غناءً ، وإنكم تعرفون علاقة ما بين الناطقين باللغة الواحدة بعضهم ببعض ، هل استطاعت أن توحدهم ، وأن تجردهم من الأنانية ، والأهواء النفسية ، والأغراض الذاتية الرخيصة ، وأن تجعلهم إخواناً متحابين متجاوبين متعاطفين حينما يجدون فرصة من الوقوف في وجه الناطقين بغير لغتهم ، وأن توقظ فيهم الشعور الإنساني ، فيكرم بعضهم بعضاً ، ويحترمون دماء إخوانهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، كاحترامهم لدمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم.

حقّاً: إنَّ الوحدة اللغوية ليست بشيء ، ما لم تكن هناك وحدة قلبية ، وتجاوب عاطفي ، وانسجام روحي ، فقد رأيتم أنَّ اللغة وحدها ، تعجز عن أن توحد ، بل إنها بالعكس من ذلك تقوم بدور سلبي ، إنها تؤلب الإنسان على الحرب ضدَّ الإنسان باسم اللغة.

أنتم تـتشرفـون بمنـصب الـدعـوة إلـى الـوحـدة الإسلاميـة:

يا سادة! قبل أن أنهي حديثي ، أريد أن أصرح بأنَّ الله لم يكرمكم بنعمة هذه الوحدة ـ الوحدة الإسلامية فحسب ، بل أسند إليكم مسؤولية الدعوة إليها ، فيتحتم عليكم أن تمثلوها أمام العالم ، حتى يرى الناس بأم أعينهم آثارها وثمارها الحلوة ، أرجوكم أن تكونوا على مستوى هذه المسؤولية العظيمة ، وعلى مستوى هذا الشرف الكبير ، حتى إذا أراد هذا العالم الذي يضطرب من حولكم أن يرى نموذج الوحدة الإسلامية ، يمكنه أن يجد في باكستان متمناه وطلبته ، فلا تسمحُنَّ لوحدةٍ جاهلية في داخل حدودها

بالنشوء والارتقاء ، والترعرع والنماء ، لأنها تجعل قلوبكم شتى ، وتوزعكم في كتلٍ وجماعات ، وتخلق لكم مشكلاتٍ معقدةً ، يعجز عن حلها العقلاء ، وقادة الفكر ، ورجال السياسة مهما بلغوا من عمق الفكر ، ورجاحة العقل .

إنَّه كفرٌ بنعمة الله ، ونكرانٌ لفضله أن تزعزعوا تلك الركيزة التي عليها تأسس هذا المجتمع ، وأن تضيعوا ذلك الهدف الأسمى الذي من أجل تحقيقه أقيمت هذه الدولة . . . لا بدَّ أن تلاحظوا ما هي الدوافع التي جذبت أبناء الإسلام إلى هذه المنطقة ، الغرض الذي من أجله تجمعوا ، والنور الذي عليه تساقطوا ، هل اللغة هي التي جمعتهم هنا ، أو الحضارة هي التي جاءت بهم؟ لا ، وكلا ! وربما يمكن أن يختلف سكان مقاطعة في هذا البلد عن سكان مقاطعة أخرى في المدينة والاجتماع اختلاف الأمتين ، وهذا الاختلاف طبيعي ، ولو ألقيتم نظرةً واحدةً على هذا الحفل الكريم لرأيتم هذا الاختلاف فعلاً ، فما هي الجامعة التي تجمعهم على هذا الاختلاف؟ وما هي الرابطة التي تربط بعضهم ببعض رغم هذا الفرق الكبير؟ .

إنما هي الوحدة الإيمانية بكلِّ تأكيد ، وتلك هي التي تستطيع أن تظلَّ توحدكم ، وتقويكم ، وتشدُّ عضدكم ، في المستقبل ، وتستطيع أن تبقي على عزكم ، وشرفكم ، ومكانتكم ، وتعطيكم ضمان السلام الدائم ، فاحتضنوها ، وقدِّروها حقَّ تقديرها ، وتقلدوا مسؤولية الدعوة إليها ، وسوف يكون ذلك منكم خدمة قيمة لهذا العالم الجريح المثخن بالجروح من التمزق ، والتشتت ، والانشطارية ، بجانب كونها خدمة دينية مشرِّفة .

وأخيراً فأشكركم جميعاً على حسن إصغائكم لحديثي ، وعلى ما منحتموني من الحبِّ والتقدير ، فجزاكم الله جميعاً ، وشكر سعيكم ، وضاعف أجركم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

❋ ❋ ❋

الصـراع النـفسي والـقلـق الـفكـري
فـي البـلاد الإسلاميـة وعواملـهُ

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في «جامعة العلامة محمّد إقبال المفتـوحـة» (Open Uinversity allama IQBAL) فـي ١٨/ يـوليـو ١٩٧٨ م ، واستمع إليها أساتذة الجامعة وطلابها ، وأعيان المدينة ، ورجالات العلم والثقافة والسياسة ، وقضاة المحكمة العليا . قدَّم المحاضر صاحبُ السعادة الدكتور محمد صديق الشبلي ، وألقى الكلمة الختامية رئيسُ الجامعة صاحبُ السعادة الدكتور شيرزمان) .

صاحب السعادة رئيس الجامعة! وأصحاب الفضيلة: أساتذة الجامعة، وإخوتي الكرام! قد غمرني بزيارة هذه الجامعة والحضور فيها على دعوةٍ منها ـ بحكم انتمائها إلى شخصيةٍ عظيمةٍ عزيزةٍ حبيبة ـ سرورٌ ربما لم يحصل لي مثله لدى زيارة مؤسسةٍ علمية، وكنت أفكِّر أن أبدأ حديثي بشطر بيت فارسِّي معناه:

«إنَّ للغريب حقُّ المقال»

لكنها إذا كانت تنتمي إلى الدكتور محمد إقبال، فإني أستهلُّ حديثي بشطر بيت أرديٍّ للشاعر الأرديِّ الكبير الشهير «جكر» المراد آبادي:

«أستحق أن أجلس على أيٍّ من فروع الحديقة، وأنشيء عليه وكري، لأن لي حقاً ثابتاً على فصل الربيع كلِّه».

إذا كانت هذه حديقة «إقبال» فإني بلبل شادٍ من حديقتها، ولي حق التحليق في أجوائها، والتغريد في كلِّ أنحائها، والتمتع بكل أجزائها، ولست إذاً غريباً، بل كأني أحد سكان هذه المدينة.

إقبال قدوةٌ لطلاب العلوم الغربية في الاحتفاظ بخصائصه الإسلامية مع خوضه في بحر علوم الغرب:

أيها السادة! تعرفون جميعاً ما قاله الدكتور محمد إقبال حول التعليم والتربية، ورجائي من المسؤولين عن الجامعة أن يضعوا آراء إقبال حول التعليم في مقرراتها الدراسية وأن يجعلوها مادةً من المواد الدراسية، ولئن كان الكتَّاب، والعلماء، والمفكرون قد أفردوا كتباً في موضوع وجهة نظر إقبال عن التعليم والتربية، وآرائه، وأفكاره، وملاحظاته على الموضوع، فإني أودُّ أن تعيرها الجامعة بالغ اهتمامها، وأن تتناولها بالدراسة والبحث كفنٍّ مستقلٍ، وموضوع بذاته... لقد كان الدكتور محمد إقبال ـ كما صرَّح بنفسه في أبياته الفارسية ـ من السعداء المعدودين الذين خاضوا بحر نظام

التعليم الغربي الجديد ، فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل محتفظين بشخصيتهم ، وخصائصهم الإبراهيمية ، وازدادوا إيماناً بخلود الرسالة الإسلامية ومضمراتها الواسعة ، يقول في شعره الفارسي :

«كسرت طلسم العصر الحاضر ، وأبطلت مكره ، التقطت الحبَّة ، وأفلتُّ من شبكة الصياد ، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلداً لإبراهيم ، فقد خضت في هذه النار واثقاً بنفسي ، وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيتي» .

كان شباب الشرق يتوافدون إلى أوربا ، ولا سيما إلى إنكلترا ، ولم تكن الرحلة إلى أوربا أو إلى إنكلترا سهلةً ميسورةً كعصرنا هذا ، فكان لا يحلم بهذه «الكرامة» إلا الذين كانت تحالفهم سعادة الجدّ وحسن الحظ ، وكانت الرحلة إليها تعتبر أعظمَ كرامة ، وأجلَّ نعمة ، كان الفائز بها محطَّ أنظار الناس ، يشار إليه بالبنان ، ويقال : «إنه لذو حظ عظيم» .

بلغتُ سِنَّ الرشد والوعي حين وضعت الحرب العالمية الأولىٰ أوزارها ، ورأيت «حركة الخلافة» عن كثب ، وكانت للإنكليز في البلاد دولةٌ وصولة ، وكانت البيوتات الارستقراطية ترى أعظم مفخرة أن يقوم أحد أبنائها برحلة تعليمية إلى أوربا ، وكان شباب شبه القارة الهندية لهم نصيب أوفر في هذه الرحلات بالنسبة إلى مصر ، والشام ، وغيرها من البلاد الشرقية . . . رحل إلى أوربا خيرة الشباب في شبه القارة الهندية الذين كانوا يمتازون بمواهبهم وذكائهم ، وتعلموا في جامعاتها ، ولا سيما في جامعة «أكسفورد» وجامعة «كمبردج» (Cambridge) .

إقبال ومحمد علي جوهر من خريجي المدرسة الغربية لكنهما رمزان للصمود في وجه الغزو الحضاري الغربي :

ويحقُّ لنا نحن المسلمين الهنود أن نقدِّم في اعتزاز وافتخار شخصين عظيمين كمثالٍ كريمٍ للسعداء الذين تعلموا في أوربا ، وعاشوا في محيطها الفاسد المفسد ، ومجتمعها الفاسق الفاجر ، الهادم للأخلاق والمروءة

والعفاف ، وعادوا منها حانقين عليها ، ناقمين منها ، ثائرين عليها ، محتفظين بشخصيتهم الإسلامية ، وبثقتهم بالذات ، بل داعين متحمسين إلى الثقة بالذات ، والاعتماد على النفس ، ألا وهما : الدكتور محمد إقبال ، ومولانا محمد علي جوهر . . . ولئن كانت هناك أسماء كثيرة يمكن أن نقدمها في هذا الصدد ولكني أكتفي بهذين الاسمين الكريمين اللذين لا يمكن أن يتحداهما أحدٌ في هذا الجانب الخاص الذي نتحدث عنه .

حقاً إننا لا نعرف رجلاً مثل المرحوم مولانا محمد علي جوهر في ثورته على السياسة الغربية ، كما لا نعرف رجلاً مثل الدكتور محمد إقبال في ثورته على الحضارة الغربية ، لا نعرف لهما مثلاً في أيٍّ بلدٍ من بلاد الشرق الإسلامية ، أما الحقيقة والسرائر فلا يعلمها إلا الله العليم الخبير الذي يعلم السرَّ وأخفى ، لكننا حينما نقرأ شعر إقبال ، وكتابات محمد علي جوهر في صحيفتيه : «كامريد» (Comrade) و«همدرد» وحينما ندرس مواقفهما من الدين والعقيدة ، ودورهما في خدمة الإسلام والعمل الإسلامي ، ونرىٰ محمد علي من خلال الدور الذي لعبه على مسرح حركة الخلافة ، ونقرأ خطاباته التي تتأجج بالغيرة الإسلامية ، والثورة العارمة على السياسة الإنجليزية والغربية . . . لا نجد أحداً يعدلهما في ذلك ممن تخرجوا في جامعات أوربا وعاشوا في المجتمع الأوربي ، وقضوا فيه مدةً طويلة . . . . وحقَّ لإقبال أن ينشد :

«ما رأيت يوماً أنحس وأشقى في حياتي من اليوم الذي جالست فيه أعيان الإفرنج وعقلاءهم» .

ويقول : «رغم أن شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكني لم أترك في «لندن» التبكير في القيام» .

ذلك أنَّ إقبال رأى الغرب عن كثب ، وسبر غورها ، وعجم عودها ، واطَّلع على مواضع الضعف والسقطة فيها ، فاستفاد من ذلك كله . . .

ومفخرةٌ أيُّ مفخرة لجامعتكم الكريمة هذه أنها تنتمي إلى الدكتور محمد إقبال.

يا سادة! إنَّ الوقت قصير لا يسمح بأن آتي على كل ما يجيش في خاطري، ولكني أريد أن أطرح أمامكم قضيةً ذات أهمية قصوى، تستحق لفتة التفكير من جميع رجال الفكر والعلم من أولي التجارب الحكيمة الذين يخططون «الاستراتيجية» التعليمية لجامعاتنا ومعاهدنا العلمية.

ما هو مصدر الشقاء والاضطراب في العالم الإسلامي؟:

إنَّه لحديث عامين أو ثلاثة أعوام، كنت في زيارة بيروت، وكان هناك صديق لي من أهل العلم والذكاء، يجول بي في أنحاء بيروت على سيارته لكي أشاهدها، فقال لي خلال الجولة: أستميحكم السؤال عن قضية هامة، وأريد إجابةً مقنعة... إنَّ ما يموج في الدول الإسلامية من القلق الفكري، والاضطراب السياسي، والصراع النفسي، لماذا لا يوجد في غيرها؟ لماذا لا يوجد ـ مثلاً ـ في الهند، واليابان، وسيلان؟ لماذا لا يوجد في الدول غير الإسلامية ما نعهده في الدول الإسلامية من جبهتين متعارضتين: جبهة الحكام والقادة وأولي الحل والعقد، وجبهة الشعب الساذج الذي لا يعرف المكر والخداع، مما يسبب الانقلابات المتكررة، وتحوّل أزمة الحكومات من أيد إلى أيد، وقد فقد الشعب ثقته بحكامه وقادته بتاتاً، كما يعيش الحكام دائماً في جوٍّ من سوء الظن، وذعر من الشعب. والواقع أنني لم أستطع أن أعطي إجابة مشبعة عن هذا السؤال الهام، وشغلت صاحبي بحديث وبآخر في الموضوع، لكن هذا السؤال قد أثار في نفسي تساؤلاً لا عهد لي به، ورحت أتساءل في نفسي: لماذا هذا الواقع المرير؟ وما هو السبب في هذه الظاهرة المشؤومة؟ ما هو العامل الحقيقي في هذا الاصطراع النفسي والتبلبل الفكري؟ نسمع كل يوم عن ظاهرة الصراع والصدام في الدولة الفلانية، ونتسامع بأن هناك تصارعاً فيما بين الحضارات، وفلسفات الأخلاق؟

وبعد تفكير هادىء توصلت إلى الإجابة، وأريد بهذه المناسبة أن

أعرضها عليكم؛ لأنها قد تثير في قلوبكم وفي قلوب المسؤولين عن هذه الجامعات شعوراً بضخامة المسؤولية التي تعود عليكم.

إنَّ الفلسفات التعليمية والتربوية التي استوردتها هذه البلاد غير الإسلامية ما كانت تتصادم مع قيمها ومعتقداتها؛ لأنَّ هذه القيم أولاً: كانت باردةً ميتة، وثانياً: إنها كانت مرنةً جداً، رقيقةً مائعةً جداً، تستجيب لكل فلسفة، وتخضع لكل نظرية، فها هو «جواهر لال نهرو» رئيس وزراء الهند الأسبق حينما سئل عن «الهندوكي» وتعريفه، فقال بعدما أطال التفكير: «كل من ادعى أنه هندوكي فهو هندوكي»، وقد حكى لي صديق لي ـ وكان أستاذاً في كليةٍ حكومية ـ قال: كنا جالسين في حجرة الأساتذة نتجاذب أطراف الأحاديث؛ إذ تطرق الحديث إلى الديانة الهندوكية، فقلت لصديقٍ لي هندوكي ـ وكان بروفيسوراً ـ: لو طلب منا أحد أن نوجز له تعريف الإسلام، لقلنا: إنه الإيمان بـ«لا إله إلا الله محمد رسول الله».. وإذا ما سألكم أحد أن توجزوا له التعريف بالهندوكية؛ فماذا تقولون؟ ـ وقلت له لا أريد منك فلسفة متعمقةً متعقدةً، فلدي مكتبة أستطيع أن أطالع فلسفات الديانات، وأوسع دراستي لنظرياتها ومعتقداتها، وإنما أريد منك تعريفاً بالهندوكية بكلمة موجزة ـ فقال بعدما أجهد الفكرة: يا أخي! الواقع أنَّ الذي لا يعتقد في شيءٍ فهو هندوكي، والذي يعتقد في كلِّ شيء هندوكي كذلك.

إلى هذا المبلغ يبلغ نظام عقائدهم من المرونة والميوعة، تنسجم مع كلِّ فلسفة، وتقبل كل نظرية مستوردة، ولا تتصارع معها في قليلٍ، أو كثير، ومن هنالك حينما غزا نظام التعليم الغربي الهند، لم يحدث قلقاً ما في المجتمع الهندوكي، اللهم إلا بعض الهنادك المتزمتين الذي قد لا يعدو عددهم رؤوس الأصابع، كانوا يرون فيه معارضة خفيفة لأمور تافهة من معتقداتهم... وإنما حدث القلق في المجتمع الإسلامي؛ لأنه يؤمن بوحدانية الله جلَّ وعلا، لديه مفهومٌ معلومٌ محددٌ للتوحيد، لا يسمح بأن يخلص الإنسان ولاءه في وقتٍ واحد لديانات شتى، ويجمع بين الإشراك والتوحيد، ثم لا يجمع بين الإيمان بأن الغرب مرجع كلِّ شيء،

ومصدر كلِّ تقدم وازدهار ، وهي وحدها الجديرة بالإمامة ، والسيادة ، والقيادة ، والوصاية ، وبين الإيمان بأنَّ النبي الأعظم محمداً ﷺ هو هادي السبل ، وخاتم الرسل ، وإمام الكل ، لكلِّ الأجيال البشرية في كلِّ عصر . . . نعم لا يمكن له أن يؤمن بكل ذلك ، ويؤمن ـ في ذات الوقت ـ بأنَّ الحضارة الغربية هي منبع كلِّ سعادة وخير ، وأنَّ العلم هو آخر ما وصل إليه الإنسان من التقدم ، وأنها نقطة الرقي الأخيرة التي لا يمكن أن يتعدَّاها أحد .

النور والظلام لا يجتمعان :

على كلٍّ فلِمَ لم يقع اضطراب ما في المجتمع الذي كان متميعاً سيالاً ، رقيقاً ناعماً يتفاعل مع كلِّ نظريةٍ ، ويتلاحم مع كلِّ غريبٍ مستورد من الأفكار ، والفلسفات ، والآراء ، والاتجاهات ، والقيم ، والحضارات؟ وَلَمْ يحدث قلقٌ في الدول التي لا تحمل نظاماً إيجابياً أبياً ، شامخاً مستقلاً ، ولا تعرف طريق الرحمن من طريق الشيطان ، ولا تلتزم بمبدأ ، ولا تصرُّ على حقيقة ، ولا تفرق بين الضلالة والهداية ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس : ٣٢] يرى الإسلام أنَّ النور فرد والظلمات لا حدَّ لها ولا عدَّ ، ويلحُّ على أنه هو الحق وحده ، وما سواه كفرٌ وطغيان ، وبغيٌ وعدوان ، وإلحاد وجاهلية ، ويحدِّد الإيمان والكفر ، ويعيِّن الخط الفاصل بينهما ، ويصرُّ على أنه يحمل حضارةً خاصة ، وليس هو مجرد عقائد معدودة ، وأحكام مرسومة .

فلما غزت الحضارة الغربية ، والمجتمع الإسلامي بكلِّ ما عندها من تصوراتٍ ، وقيمٍ ، وأغراضٍ ، وأهداف ، وقع بينها وبينه صدامٌ ، وصراع شديدٌ عنيف ، وكان هذا الصراع طبيعياً . . . ثم حدثت كارثة أخرى ، وهي أنَّ الشباب الأذكياء من بيوتات الأغنياء والأسرياء والطبقة الإرستقراطية في هذه البلاد الإسلامية ، قد تثقفوا بالثقافة الغربية ، وبقي الشعب على حاله ، فنشأ من ذلك أنَّ هذه الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية عادت لا تعرف ما يعيش فيه الشعب من عواطف وتصورات ، وأمانٍ وأمال ، ومشاعر

وأحاسيس ، كما يكون شأن أمة جديدة بأمة أخرى جديدة ليس بينهما سالف تعارف ، ولا سابق لقاء. . . ومما زاد الطين بلَّة ، والطنبور نغمةً: أن الطبقة العصرية شعرت شعوراً قوياً ملحاً ـ أو علمت بعد تجاربها «المريرة» أنَّه لا بدَّ ـ من أجل الإبقاء على القيادة والزعامة ، وحتى من أجل أن تستطيع أن تعيش عيشة هدوء وسلام ـ لا بدَّ من القضاء على ما يتحلَّى به الشعب من العواطف الدينية ، والغيرة الإسلامية ـ أو على الأقل ـ لا بدَّ من توهينها إلى حدٍّ يجعلها لا تقف حجر عثرة في طريق تحقيق أغراضهم الدينية ، فركزوا عنايتهم على القضاء على الحمية الدينية ، والغيرة الإسلامية ، والوعي والإيمان ، والذكاء الديني في الشعب المسلم عن طريق الثقافة ، والصحافة ، ووسائل الإعلام ، والشعر ، والأدب ، وهنالك خاضت قيادات هذه البلاد والأقطار الإسلامية معركةً حاميةً مع الشعب؛ لأنها رأت سرَّ حياتها ونموها ، وازدهارها في إماتة الوعي الديني لدى الشعب؛ لأنها أدركت أنَّ الشعب قد يكوِّن جبهةً متحدةً لمحاربتها ، ويشكِّل العقبات في طريق مطامعها.

الوضع في العالم الإسلامي وضع متناقض شعوب تغمرها روح الفداء للإسلام وحكومات تؤمن بتفوق الغرب وعظمته:

أيها السادة! إني أحكي لكم قصة هذه البلاد الإسلامية قصة مصر والشام ، وقصة العراق وتركيا ، ولا أقول: إن هذه القصة قد حدثت في كلِّ بلدٍ من البلاد الإسلامية ، ولا قدَّر الله ذلك ، ولا رماكم الله بهذه المصيبة ، ولا تُعرض فصولُها على مسرح هذا البلد الكريم أبداً. . . لكنها على كلِّ حالٍ قصة الدول الإسلامية المتقدمة ، حيث نشأت طبقة لم تكن زاهدة في الدين فحسب ، بل تنكَّرت له ، واستوحشت منه ، وكانت تنعى على الشعب تمسكه بالشريعة ، وعضَّه على جميع أجزائها وأحكامها بالنواجذ ، وكانت ترى أنه إذا كان هناك أفراد في المجتمع يعاقرون الخمر ، ويشاهدون على الشاشة الصغيرة والكبيرة والتلفاز كلَّ غثٍّ وسمين ، ويقع بعض التحول في أخلاقهم وسلوكهم ، أو يتأثر جانب من سيرة الصغار ، فماذا

يضرهم وأيُّ شيء ينقصهم؟ وأيُّ خسارة تلحقهم؟...! ما لهم ولهذه القضايا؟ لهم أن يأكلوا ويتمتعوا، ويعيشوا وينعموا، ويكسبوا المعاش، ويحوزوا الثروة، ويجربوا نصيبهم في الحياة، وقد علَّم هذه الطبقة أساتذتها من الغرب الذين تتلمذت عليهم، والجامعات الأوربية التي تخرجت منها: أنَّ الدين قضية شخصية، وخير لهذا الدين ـ إذا أراد البقاء والحياة ـ أن يظلَّ على صفته هذه... قد تلقنت هذا الدرس من أساتذتها، وأساغته إساغةً كاملةً، واقتنعت به، فلما عادت إلى بلادها هذه الشرقية؛ وجدت أنَّ أفراد الشعب يتدخلون في شؤون الحكومة، وينتقدون القيادات، ويؤاخذونها، ويحسبون لكلِّ شيءٍ حساباً دقيقاً، وحين يرون شيئاً لا يوافق ما يعتقدونه يستشيطون غضباً، ويتَّقدون حنقاً.

الطبقة الحاكمة ترصد كل إمكانياتها لقهر شعوبها وكبت عواطفها:

لما شاهدت هذه الطبقة كلَّ ذلك، ورأت أنَّ أحلامها ستتبعثر؛ فتحت جبهةً مستقلة لتوجيه الهجوم منها على الشعب، قد كان ذلك في مصر في عهد جمال عبد الناصر، فتوجهت القوى الرسمية بخيلها، ورجلها، وبكل أجهزتها، ووسائلها، وطاقاتها، لتصبَّ الويلات على الشعب المصري البريء، وحلَّت القوات محلَّ الشرطة، ورصدت كلَّ إمكانيات مصر، وثرواتها، وخيراتها، وقواها، وذكاء الطبقة الحاكمة لكبت عواطف الشعب التي كانت القيادة ترى أنها قد تكون كنار في الهشيم لا تبقي ولا تذر، فتأتي على اليابس والأخضر من أمانيهم وأحلامهم....

وعلى ذلك فعاش العهد الناصريُّ في مصر في الجهاد في غير عدوٍّ، في محاربة الشعب الهادئ الوادع، والقضاء على الحركات الإسلامية والمؤسسات الدينية، مكان محاربة الإلحاد والشيوعية، ومحاربة إسرائيل والقوى الصهيونية، وإلى أيِّ مدى تركت هذه «الحرب السلبية» مفعولها، وإلى أيِّ حدٍّ استطاع «ناصر» أن يحرز النجاح في مقصده، لا يمكن الحديث عنه بالتحديد والضبط، ولكن هذه الحرب هي التي استنفدت كلَّ وقت الظالمين، جهدهم، ورصيد فكرهم.

وهذه الحرب نفسها قائمة اليوم في معظم البلاد لا تختلف معركة اليوم عن معركة الأمس في النوعية ، نعم إنَّها حامية في مكان وهادئة في مكان آخر ، ولن أسمّي لكم بلداً غير عربي ، فقد كفتني في ذلك البلاد العربية ، وليكن ملحوظاً أنَّ هذه المعركة «المصطنعة» هي من صنائع الفلسفتين المتنافستين المتقابلتين ، والنظامين الممتازين للتعليم والتربية ، فإنَّ التعليم الذي يتلقاه طلاَّبنا وأفلاذ أكبادنا في المدارس الدينية يمحوه ـ كحرف مكررٍ ، أو كلمةٍ خاطئة ـ ذلك النظامُ الغربيُّ للتعليم .

ما فات فرعون تداركه قادة التربية الغربيون :

ومن هنالك لما اقتحم النظام الغربي التعليمي شبه القارة الهندية ، إِثْرَ نفوذ الإنجليز وسيطرتهم السياسية على الهند غير المنقسمة ، قال السيد أكبر حسين الشاعر الأردي العظيم بيته الخالد السائر ؛ الذي لم يقل أحدٌ بيتاً أدقَّ منه في التنديد بنظام التعليم الغربي الإلحادي ، والدلالة على فعله البعيد المدى ، لا أعرف نثراً أو نظماً يعبِّر هذه التعبير البليغ ، البارع الدقيق ، الرائع العميق عن نظام التعليم اللاديني ، وبهذه الكلمات البسيطة الخفيفة ، يقول أكبر :

«لو فتح فرعون كُلِّيةً في مصر (أراد بها نظام التعليم الغربي) . . لم يكن هدف الملام والتهم من بني إسرائيل ، فقد كان مستغنياً بذلك عن قتل أطفالهم جسدياً ، ولكن المسكين لم يتفطن لهذه النكتة» .

إن «أكبر» يشير إلى حقيقة كبيرة ، إنَّه يقول :

إنَّ فرعون بغباوته وبلاهة ذهنه ، وقلة عقله ، جرَّ عليه هذه اللعنات ، وخلق له هذه المشكلات ، ومهَّد الطريق لدعاياتٍ غير متناهية ضدَّه ، حتى صار رمزاً للظلم والوحشية وقساوة القلب وسجلت له الصحف السماوية صفحاتٍ سوداء من استكبار ، وإفساد ، واستعلاء ، ولو أنه غيَّر نظام التعليم لكفاه عن التقتيل والتشريد ولكسب سمعةً طيبة ، ولعُدَّ المربي الجليل الأكبر ، ووليّ العلم والثقافة ، ولأسست باسمه جامعات ومجامع علمية .

يا سادة! قد بدأ هذا الصراع ـ الذي نتحدث عنه ـ في المملكة العربية

السعودية أيضاً ، بفعل هذا النظام التعليمي الغربي اللاديني . . . وكلُّ دولةٍ تريد أن تخدم الإسلام ، وتعلي كلمته يجب عليها أولاً أن تتجنب هذا الصراع النفسي الخبيث ، لأنه يستهلك كلَّ القوىٰ العقلية والفكرية ، وكل نصيب من الذكاء والقدرة ، ولا يدع هذه القوى والطاقات ، والمواهب والقدرات ، تقبل على تعمير البلاد ، وتدعيمها وصيانتها من القلق والاضطراب واللاأمن ، وتعود كل طبقة تفكر أن تتغلب هي وحدها ، وأن يكون المسيطر على البلاد ، والمقبول المتداول في أرجائها ، ما لديها من فلسفة الأخلاق وفلسفة الحياة ، أو فلسفة ما بعد الطبيعة ليس إلا . . .

الـتعليـم الـعصـري حامض يذيب الشخصيـة ويكونهـا مـن جديـد :

وإني أتوقع من هذه الجامعة الموقرة أنها ستخطو هذه الخطوة الإصلاحية قبل أيِّ جامعة أخرى ، لأنها تنتمي إلى ذلك المفكر الإسلامي العظيم الذي كان عظيم الكراهية لهذا النظام التعليمي الغربي العصري ، شديد المقت له ، كثير التنديد به ، وكان كثير الخوف من تطبيقه في الأقطار الإسلامية ، وأعتقد أنه لو كان بقيد الحياة لركز أولاً على تغيير النظام التعليمي الحالي ، لأنه كان يرى أنَّ نظام التعليم الحديث هو «كحامض» يذيب شخصية الإنسان ، يقول في أبياته :

«إن التعليم هو «الحامض» الذي يذيب شخصية الكائن الحيّ ، ثم يكونها كما يشاء ، إن هذا «الحامض» هو أشدُّ قوةً وتأثيراً من أيِّ مادة كيميائية ، وهو الذي يستطيع أن يحوِّل جبلاً شامخاً إلى كومة تراب» .

الشخصيـة الإسلاميـة لـن تـتكـون إلا بـنظـامٍ تـعليمـيٍّ يـتطابـق مـع طـبيعـة الشعـوب الإسلاميـة وعقيدتهـا :

انعقدت ندوة علمية في عمَّان في عام ١٩٧٣ م كان يديرها الأستاذ محمد إبراهيم شقرة ، وشاركها كاتب هذه السطور ، وسعادة الأستاذ أحمد محمد جمال ، ومعالي الأستاذ كامل الشريف ، وكان الحوار الذي يجري في هذه الندوة تذيعة محطات الإذاعة ، وقد وجه إليّ السؤال عن سبب الحيرة

المردية التي يعيشها العالم الإسلامي كلُّه بصفةٍ عامة ، والشباب المسلم بصفةٍ خاصة .

فقلت فيما بعد :

«من أعظم أسباب الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم اليوم هو التناقض في المجتمع الذي يعيش فيه ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقيناً وبين ما يطلبه علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذي سلّط عليهم ، ومنوا به ، هو السرُّ في هذه الحيرة المردية . . . هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت إسلامي ، في أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد ، وتلقاها بوعي أو بغير وعي ، ثم إنه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادىء الإسلام ، وقرأ التاريخ الإسلامي - إذا أكرمه الله بذلك ، وتسنَّت له هذه الفرصة الكريمة - وكان سعيداً بوجوده في بيئةٍ واعيةٍ دينية ، ثم سيق - ومعذرتي على اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال في سن مبكرة وليس له خيار - إلى دور ثقافةٍ يسمع فيها من أولئك الأساتذة الذين يجلُّهم - كلّ ما ينقض ما أبرمته البيئة ، وكلَّ ما غرسته في قلبه وعقله من التربية الإسلامية ، أو يقلل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقضٍ عجيب ، وصراع فكريٍّ عنيف ، وفي ارتباكٍ نفسيٍّ (CONFUSION) .

إنه يتلقى هذا الصراع من مؤسسة الإعلام ، ومن التلفزيون ، ويسمع إذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية الباقية من آثار التربية القديمة ، ومن الصحافة التي هي «صاحبة الجلالة» تقدِّم إليهم في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف . . . إنه يقع في أيديهم كتب علمية من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشكِّكهم في الدين .

إنَّ مثل ذلك أيها السادة! كمثل عجلة أو مركبة رُكِّب فيها فرسٌ في الأمام وفرسٌ في الوراء ، وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون رُكَّابُها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرُّها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحة يميناً وشمالاً» .

لا بد من تضييق الفجوة بين رغبات الشعوب الإسلامية، وأجهزة التربية والسياسة:

وحلُّ هذه المشكلة: هو إزالة هذا «التناقض» الذي يعبِّر عنه لسان الشريعة، ولسان القرآن بكلمة «النفاق» وإنَّ ذلك يحتاج إلى قلب نظام التربية والإعلام، ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام، والتلفزيون ـ الذي جاء حديثاً ـ رأساً على عقب، ويحتاج إلى ثورةٍ عارمةٍ دقيقة شاملة، وإلى أناس عندهم الأصالة الفكرية، وإلى الاجتهاد في المواد الدراسية، ويحتاج إلى أن تتبنى هذه القضية الحكومات الإسلامية الكبيرة، وإلى ملء الفجوة بين الكهول والشباب، وبين الدعاة إلى الدين والشباب الجامعيين، ويحتاج إلى مكتبةٍ جديدة، وأسلوب جديد في الحديث مع الشباب.

أيها السادة!

أختم حديثي بهذه الكلمات، وأوجه شكري وتقديري لصاحب السعادة رئيس هذه الجامعة، وصاحب السعادة رئيس القضاة أفضل جيمه اللذين وفرا لي فرصة الحديث إلى هذه المجموعة الكريمة... وإني على يقينٍ كاملٍ بأنكم مهما تنسون كلمتي هذه، فإنكم لن تنسون رسالة «إقبال» ويحلو لي أن يكون بعض أبيات إقبال هو مسك الختام لحديثي هذا:

«حيّا الله شبيبتك يا مربي الجيل الجديد! ألق عليهم درسِ التواضع وهضم النفس، مع الاعتزاز بالنفس، والاعتداد بالشخصية، علِّمهم كيف يشقُّون الصخور، ويدكُّون الجبال، فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج، إنَّ عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم، وأوهنت قلوبهم، فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم، وتحارب الفوضى الفكرية».

* * *

دَرس مـن الـحَوادث

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في المركز الإسلامي بالشارقة في ربيع الأول ١٣٩٩ هـ الموافق فبراير ١٩٧٩ م على أثر حدوث الانقلاب في إيران.

لقيت هذه المحاضرة استجابة كريمة وآذاناً صاغيةً من كبار المثقفين في البلد وعلمائها وأعيانها ، والآن إلى القراء هذه المحاضرة.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أيها السادة! إنني في هذا الموقف الكريم ينازعني عاملان متناقضان، فأشعر بنزاع نفسي، العامل الأول: أنَّ الموضوع هو موضوع الساعة، وحين يقع الحريق ـ لا قدَّر الله وأعاذكم الله وإيانا جميعاً منه ـ وتلتهب النار في قرية، فهناك تخرس الألسن، ينطق الواقع، والواقع أبلغ وأبين من ألف لسان وألف قلم، فيستطيع الولد أن يقوم على ربوة، أو يرتقي مكاناً عالياً وينادي: الحريق! الحريق! وكلمة الحريق هي أبلغ من ألف خطبةٍ ومن ألف محاضرة، لأنَّ النار تنطق بلسانها، وتقول: اتقوني! احذروني! وأعدوا لي عدتكم، كذلك إذا جاء فيضان وتحدى القرية فإن هذا الفيضان يغني عن كل خطبة، وعن كل محاضرة، هذا هو العامل الأول الذي ينازعني، ويقول لي: ماذا عسى أن تقول، أليس الواقع المؤلم، الواقع البين الظاهر مغنياً عن كل بيان، ألسنا نعيش في حالة طوارىء؟ ألا تحدث حولنا حوادثُ تنطق بخطرها، وتنبه النائم، وتعلم الجاهل، وتنطق الأخرس.

والعامل الثاني: هو سنوح هذه الفرصة للاعتبار والادِّكار، وتلقِّي الدورس، والانتفاع بالواقع، فهناك حوادث لا تدع فرصةً، وإنما يحضر الإنسان أو المجتمع ويكون كما قال الله تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٣٠] فليس هذا هو الشأن والحمد لله الآن، فلا نزال نعيش، ولا نزال نبصر ونعي، ولا تزال أمامنا فرصةٌ مفتوحة لتلقي الدروس والعظات والعبر، فأنا أنتهز هذه الفرصة السانحة، فقد تفوت الفرصة ولا تعود، وقد تُغلب الأمم والشعوب على أمرها، فلا تملك من أمرها شيئاً:

ولا تستطيع أن تقدِّم رِجلاً وتؤخر أخرى ، إنما تؤخذ على غِرَّة ، ولسنا ندري هل تقصر هذه الفرصة أو تطول؟ ومتى يحال بيننا وبين الادكار والاعتبار ، وتلقي الدروس من الحوادث والأخبار؟

إنَّ مما أكرم الله تعالى به الإنسان وشرفه على جميع خلقه أنَّه منحه صلاحية الاعتبار ، وصلاحية تلقي الدرس عما حوله ، فالحجر لا ينتفع ، ولا يغير موقفه ، إنما هو حجر جامد ميت لا حراك به ، ولا وعي ولا عقل ، كذلك الأشجار والنباتات ، وكذلك كثيرٌ من الحيوانات والعجماوات ، ولكن من الحيوانات من يتعظ ، ويعتبر ، وينتفع بما يقع حوله ، اضرب الكلب مرةً أو مرتين لا يقصدك ، إنه يعرف من يطعمه ، ويعرف من يضربه ، الكلب يعرف البيت الذي يجد فيه عظماً ، أو كسرة خبز ، ويعرف البيت الذي يستقبل فيه بهراوة ، وينزل عليه بالضرب ، فهو يميز بين البيتين ، ويقصد البيت الذي يجد فيه كسرة خبز ، أو لقمة عيش ، ويترك البيت الذي جرب مراراً أنه يضرب فيه ، أما الفَرَس فهو معروف بذكائه ، وخصوصاً إذا كان جواداً عربياً ، فهو معروف بالذكاء الموهوب ، الذكاء غير المعتاد ، وبعض الحيوانات تنتقم ، وتثور فيها الغيرة ، فتأخذ الثأر ، والفيل والبعير مشهوران بالحقد وأخذ الثأر وبالطبيعة الموروثة ، والذاكرة القوية ، يعرف البعير من أهانه ، ومن قسا عليه قسوة زائدة فينتقم منه ، فكيف بالإنسان؟ والله سبحانه وتعالى يمدح الإنسان بهذه الميزة ، فيثير فيه العقل الواعي ، ويريد أن يستخدم الإنسان عقله ، ويقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٣] ، ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢] ويقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣] ويذم الذين لا ينتفعون بما يقع حولهم من حوادث وآيات ، وهذه هي الغاية الأخيرة التي يصل إليها الإنسان في البلادة والشقاوة إذا فقد الوعي ، ولم ينتفع بالدروس القاسية ، والحوادث الصارخة التي تقع حوله ، فهناك لا يُمهل ، فيُؤخذ ، ويُبطش به البطش الشديد ، يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] ويقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي

ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وأرجو أن تتأمّلوا في الآية القارعة الزاجرة المنبهة؛ التي وصف الله فيها الكفار، وشنع فيها على غفلتهم، وتماديهم فيما هم فيه من باطل ولهو، وإطباقهم العين عما يقع حولهم من حوادث وزواجر، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد ٣١] إن موضع الإعتبار في قوله ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ [الرعد: ٣١] هذا هو الكتاب المعجز الذي ينطق من قبل أربعة عشر قرناً بما يقع بعد قرون وعلى مسافات بعيدة، كأنه كتاب طري ينزل الآن، لا يقول ﴿ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١] إلا الكتاب السماوي المعجز الذي نزل بالوحي.

فنحن كلنا يجب أن نكون على حذر من أن ينطبق علينا قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] وأن نتعظ بالحوادث التي تقع منا على غلوة سهم كما يقول العرب القدماء، وأن نقرأ هذه اللوحة البارزة المكتوبة بقلم عريض، أو «الكتابة على الحائط» (نوشته ديوار) كما يقول المثل الفارسي، إنها أمارةٌ تظهر وتبدو على الأفق القريب لا البعيد، يقرؤها أمِّيٌّ ويفهمهما غبيٌّ، وهنالك موجات تموج حولنا، وعواصف تهب علينا، وصواعق تنزل على مقربةٍ منا: قد كان زمن كنا نستطيع أن نبصر كل ذلك ببصائرنا، بفراسة المؤمن، وبوعي العاقل، وبدراسة المؤرخ الدارس لنهضة الأمم وسقوطها، والمطلع على سنن الله تعالى في الكائنات، ولكن الحوادث الأخيرة نستطيع أن نبصرها بأبصارنا، وبعيون رؤوسنا، لا نحتاج في ذلك إلى المعية، أو بعد نظر، أو فراسة صادقة.

أيها الإخوان! إنَّ موضع الساعة هو الموضوع الملتهب كما يقال بالإنجليزية (Burning Topic) وكالسيف المصلت على الرؤوس، إنَّ هذه الحياة التي يعيشها كثيرٌ من الناس في بلادنا الإسلامية والعربية حياة ما أنزل

الله بها من سلطان ، وما تكفل الله لها بتأييد ونصر ، هذه الحياة لا تصلح للبقاء طبيعياً، وعقلياً، ودينياً، وخلقياً، هذه الحياة اللاهية الساهية ، هذه الحياة الباذخة المترفة ، هذه الحياة التي مثلها الأعلى المادة والمعدة ، هذه الحياة التي تدور حول فردٍ واحد ، أو حول أسرةٍ واحدة ، أو حول طبقةٍ واحدة ، هذه الحياة لا تصلح للبقاء إذا تركت وشأنها ولم تنزل صاعقة من السماء ، ففي هذه الحياة من عناصر التدمير ، ومن عناصر الشقاء ما يكفي للقضاء عليها ، لا تحتاج في ذلك إلى عامل خارجي ، الشرارة إذا كانت كامنةً في حطب؛ فلا تحتاج إلى إشعال نار ، لا تحتاج إلى مروحةٍ تحرك ، أو يدٍ قويةٍ تشعل ، الشرارة وحدها تكفي ، إنَّ طبيعة الشرارة أن تلتهب وتحرق.

إنَّ الحياة التي لا يشاهد الإنسان فيها إلا مسابقة مجنونة ـ كسباق الخيل المضمرة ـ للحصول على أكبر مقدار من الثروة ، مسابقة تتخطى المبادىء الإنسانية ، والحدود الخلقية ، جديرة بأن تزول وتنهار ، اسمحوا لي بالصراحة ، فهذا منبر رسول الله ﷺ ، وهذا هوا لمقام الذي كان ينطلق منه الإنذار ، أنا أعرف قدري ورحم الله من عرف قدره ، فأنا لا أنطلق تلقائياً ، ولكن الوضع الحاضر هو الذي ينطقني ، إنَّ الحوادث هي التي تنطقني وتمسك بتلابيبي وتقول لي: انطق وتكلم ، ولا تخف أحداً ، أنا طائر وقع على فرع شجرة ، وبدأ يرفرف بجناحيه ويسجع ، ثم طار ، إنَّ هذا المجتمع الذي يساق سوقاً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة إلى غاية عمياء ، إلى غاية جاهلية ، مجتمعٌ لا يدوم ، ولنا عبرة في البلاد القريبة التي ما قصرت في صيانة هذا المجتمع ، واعتمدت على كبرى الطاقات في الدنيا ، واستخدمت الطرق الحكيمة الداهية ، والوسائل الجبارة القوية ، والمخططات البارعة الدقيقة التي لم يستخدمها أي بلدٍ وأي شعب في هذا العصر ، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر : ٢] إنَّ ساعة الزمان لا تقف ، وإنَّ عقرب الانقلاب والتحول دائمٌ سائر ، إنَّه يتجه إلى بلدٍ دون بلد ، وإذا اتجه إلى بلدٍ في دورانه؛ فإنه يستطيع أن يتجه

إلى بلادٍ أخرى ، فلنكن كلنا على حذر ، ولنأخذ عدتنا قبل أن يتجه هذا العقرب إلينا ويستهدفنا ، إننا نلقي المسؤولية على حوادث سياسية ، نعم إنَّ لها تأثراً ، وإن الانقلابات السياسية يجب أن يحسب لها الحساب.

ولكن الذي يفتح الطريق لهذه الحوادث ، ويمهد الأرض لها ، ويقرب البعيد ، ويجعل شبه المستحيل ممكناً وما لم يكن يتصوره الإنسان واقعاً ، هو الأسلوب الذي تحياه بلادنا ، وهو توفير أسباب الخذلان من الله ، والسخط من الناس ، والحياة التي لا تتفق مع الدين والعقل.

إنَّ تاريخ حضارة الأمم ، وتاريخ نهضتها وزوالها يعلمنا أنَّه إذا أصيب مجتمع بشريٌّ بالتخمة بالمدنية والرفاهية ، وابتلي بالمسابقة المجنونة في الحصول على وسائل الترفيه وترقية المدنية ، وفي رفع مستوى المعيشة ، ويلغ رجال هذه المدنية قمةً في البذخ ، وقمةً في الترف ، وكانت عندهم جيوش كثيفة جرارة ، والعدد والعدة التي يحاربون بها العدو ، ويقهرونه ، فإنَّ هذا المجتمع يزول لا محالة ، وإنَّ هذه المدنية تنهار ، لا ينقذها شيء من هذا المصير المشؤوم المحتوم ، والنهاية الأليمة المقدرة.

قد أصيب المجتمع الفارسي الإيراني القديم في القرن السابع المسيحي الذي كان يحكمه أهل ساسان والأسرة الكيانية العريقة في المجد والعظمة بنفس الداء ، فقد بلغت المدنية فيها أوجها ، وذروة مجدها ، وزهوها. وهنالك أسماء معروفة في التاريخ الإيراني ، مذكورة بالأنساب ، كانوا يحافظون على هذه الأعراف ، ويوفون بهذه الشروط ، ولمَّا غزا العرب المسلمون هذه المملكة الساسانية المترامية الأطراف ، التي توزعت العالم المتمدن المعمور مع الدولة البيزنطية لم ينفعهم هذا الترف ، ولم يغن عنهم شيئاً ، بل كان من أكبر أسباب زوال هذه المملكة وانهيار هذه المدنية.

إلى هذه الحال وصلت المدنية الفارسية الباذخة ، وأصبح قادتها وأبناؤها لا يستحقون رحمة من السماء ، ولا ينالون رحمة من بين جلدتهم ، فكانوا يملقونهم إذا حضروا ، ويلعنونهم إذا غابوا ، وكانوا يبغضونهم بأعماق قلبهم ، ويمدحونهم بأطراف ألسنتهم ، رياءً ونفاقاً ،

وكانت المدنية تزخر بآلافٍ من الشعراء ، وآلاف من الأدباء ، ومئات من المؤسسات الكبيرة ، وثروة كان يحويها إيوان كسرى وقصر المدائن ، وتبدو ثروةً خياليةً أسطوريةً لا يصدقها الواقع ولا يسيغها العقل ، ولكن هذه المدنية الراقية ، وهذه الثروة الهائلة لم تنفع أهلها ، وكان هذا الجنون لترفيه النفس ، وإشباع الشهوات ، وإرضاء الغريزة ، هو الذي كان سبب هلاكهم ، وكان من أسباب سرعة الفتح الإسلامي العربي .

إخواني ! إنَّ هناك حياة لا تستحق التأييد والنصر من الله تبارك وتعالى ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو العدل البرُّ الرَّحيم ، وهو العزيز الحكيم ، وهو ربُّ العالمين ، ليس ربَّ أمة ، وليس ربَّ شعب ، وليس ربَّ بلد ، وليس ربَّ مجتمع ، إنها ليست حاجات يجوز أن تكمل ، ويجب أن تحترم ، إنما هي نهامة بالمال ، إنها معدة خيالية ، ولا وجود لها إلا في التصورات ، لا وجود لها إلا في الأرقام ، وفي حسابات البنوك ، إذا تولدت هذه المعدة الخيالية في مجتمع ، وكانت هي الحاكمة ، وكانت هي الآمرة الناهية ، اكتسحت المجتمع موجةٌ عارمةٌ من التنافس المادي ، والجشع المالي ، والفوضى الخلقية ، والقسوة والوحشية ، هنالك يأذن الله بزوال هذا المجتمع ، وينطبق عليه قوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦] .

إنَّ أخوف ما أخاف على هذه المناطق التي أكرمها الله بالثروات والخيرات وأدرَّ عليها الرزق الوفير والخير الكثير ، هو «البطر»(١) إنني إذا قرأت قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص : ٥٨] أخذتني رِعدةٌ ، وملكني الإشفاق والحذر على هذه المجتمعات السعيدة التي تعيش في عصر «ألف ليلة وليلة» وفي عصر الأساطير والأخيلة ، إنَّ أخوف ما أخاف عليها ليس هو العدو الخارجي ، لكن هو العدو الكامن في

(١) قال في القاموس : البطر : النشاط ، والأشر وقلة احتمال النعمة ، والدهش والحيرة ، والطغيان بالنعمة وكراهية الشيء من غير أن يستحق الكراهية .

النفوس ، الجاثم على المجتمع ، هو الذي أنذر به رسول الله ﷺ قريشاً في خطبته على جبل الصفا حيث قال: «إني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد».

وما كانوا يتوقعون حين سمعوا صوته: يا صباحاه! إلا أنه يخبرهم بعدوٍّ كامنٍ ، قاعدٍ بالمرصاد وراء جبل الصفا يغير عليهم على غِرَّةٍ منهم ، فيستاق إبلهم ومواشيهم ، وينهب أموالهم ويسبي ذراريهم فهذا الذي كانوا يعرفون من معنى هذا الهتاف ، ولم يجربوا إلا نوعاً واحداً من العدوّ ، وهو العدوُّ الخارجيُّ من إحدى القبائل المعادية المنافسة ، لكن الرسول ﷺ نبههم على خطر جديد ، لم يكن لهم به عهد ، وهو العدوُّ الباطنيُّ ، هو الحياة الجاهلية الوثنية التي كانوا يعيشونها بعقائدها وأخلاقها ومثلها ، إنَّ العدو إذا وجد في داخل مجتمع، وفي البيوت والمنازل، وعشش، وباض وفرخ في الأخلاق ، وفي الميول والرغبات ، وفي المثل العليا ، والمفاهيم والقيم ، فهذا هو العدو الحقيقيُّ الذي لا يؤمن حيناً ، ولا يفارق أبداً ، إنما هي حياةٌ جاهلية برَّأ الله العرب منها قبل أن يبرىء منها غيرهم. فكانوا حاملي راية المساواة الإنسانية ، وراية الرحمة بالإنسانية المعذبة ، وراية التقشف في الحياة ، وراية الزهد في حطام الدنيا ، وراية إيثار الآجلة على العاجلة ، وإيثار الغير على النفس ، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهم الذين خاطبهم مربي الأمة وحكيمها ، الخليفة الإسلامي العربي عمر بن الخطاب ، القرشي العدويُّ في وصيته الحكيمة للعرب «إياكم والتنعم وزي العجم ، وتمعددوا[١] واخشوشنوا[٢] ، واخشوشبوا[٣] واخلولقوا[٤] وأعطوا الركب أسنتها ، وانزوا نزواً[٥] وارموا الأغراض

(١) تمعدد الغلام: شبَّ وغلظ ، وقيل: معناه تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف.

(٢) اخشوشن: تخشن في المطعم والملبس.

(٣) اخشوشب: صار صلباً كالخشب في أحواله وصبره على الجهد.

(٤) تبذلوا في الملابس.

(٥) نزا ينزو ونزواً: وَثَبَ ، يعني: اركبوا الخيل وثباً ونزواً.

وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب»[(١)] فكان يجب أن يكون العرب أبعد الأمم عن الحياة الرخية الرقيقة ، وأكثرها محافظة على حياة البساطة والخشونة ، والأخذ بالعزيمة ، فإنها هي الأمة المهيأة لقيادة البشرية في كلِّ زمان ، فكيف إذا كانت بين فكي أسد ، ومحاطة بالأعداء والأخطار .

إنما شقيت الإنسانية ، وشقيت المدنية دائماً بالحاجاتِ الخيالية ، والغايات المختلفة ، والمثل الزائفة ، إنها لم تشق بالحاجات الطبيعية ، إنه لا ذنب على المعدة الحقيقية ، وقد أحسنت الشاعرة الجاهلية حين عيرت أخاها في طمعه الزائد في المال ، وقالت :

وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم؟

إنَّ المعدة الخيالية لا تملؤها الرمال ، ولا تملؤها الأحجار والجبال ، وصدق رسول الله ﷺ «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب» .

إنَّ أحد نوابغ هذه العصر وكان إسرائيلي السلالة ، يهودي الديانة ، غربي النشأة ، وهو محمد أسد النمساوي الذي كان يسمى سابقاً بليوبولد ويس Leopold Veiss يحكي قصة إسلامه فيقول : إني كنت مسافراً في سنة ١٩٢٦ م في قطار برلين تحت الأرض ، وكانت معي زوجتي ، وهي رسامة ، وفنانة ، كانت ذكية جداً ، وقد لاحظت أن كل زملائي في هذه الدرجة مكتئبون تعلو وجوههم كآبةٌ ، ويغشاها قتامٌ ، وكان ما يحملونه من متاع ، ويلبسونه من ملابس ، ويتحلون به من خواتم ، يدلُّ على أنهم من الطبقة الثرية في البلد ، وكان الزمن زمن الرخاء الذي عقب سنوات «التضخم» في أوربا ، فأنا تحيرت ، وفكرت ، وقلت : لماذا هذه الكآبة ، ما سبب هذا الحزن العميق الذي هم غارقون فيه؟ ولفتُّ نظر زوجتي ، وقلت : يا عزيزتي! انظري في وجوه هؤلاء القوم! ألا تشعرين بأنهم تعلوهم الكآبة ،؟ قالت : نعم ، إنهم جميعاً يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم ،

(١) رواه البغوي عن أبي عثمان النهدي .

فأردت أن أفسر هذه الظاهرة ، فلم أنجح ، ورجعت إلى مكتبي ، فإذا بالمصحف على منضدتي ، فأخذته من غير قصدٍ ، وفتحت من غير اختيار ، فإذا بسورة التكاثر تطالعني ، ويقول الله تبارك وتعالى:

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ١ ـ ٨].

وكنت متردداً: هل أدخل في الإسلام ، أو لا أزل أشرحه، وأعرضه في الأسلوب العلمي العصري كما كان شأني ، ولم أكن قررت بعد أن أعتنق الإسلام ، ولما قرأت هذه السورة ، قلت: والله إنَّ هذا الكلام لا يأتي به إلا من ينزل عليه الوحي ، هذا الكلام لا يقوله بشر قبل ثلاثة عشر قرناً ، إنه يصور المجتمع الغربي المعاصر الراقي بقسماته ومخايله ، ويتنبأ بالعذاب النفسي الذي يتميز به هذا القرن العشرون رغم رقيه الصناعي والحضاري ، ويعين مصدر هذا العذاب والشقاء الذي كان يعانيه ركاب القطار ، الذين رافقتهم ، ويعانيه المجتمع الأوربي بشكل عام ، وهو «داء التكاثر» لا غير ، فمن ساعتي خرجت إلى صديق لي مسلم هندي ، وقلت: يا أخي! ماذا يفعل من يريد أن يدخل في الإسلام؟ قال: يقول: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**» فنطقت بالشهادتين ، وأصبحت مسلماً[١].

إخواني! أنا أوصي أولاً نفسي وإيَّاكم بعد ذلك ، أن نعتبر بالحوادث التي تقع حولنا ، وأن نغير نفوسنا قبل أن تغيرنا العوامل القاهرة ، المفروضة علينا في الداخل ، أو الواردة إلينا من الخارج ، التي تجوس خلال الديار ، ولا ترحم أحداً ، ولنجعل المثل الكامل هو الحياة الإسلامية العادلة ، المؤسسة على إيثار الآخرة على الدنيا ، المؤسسة على الحقائق الغيبية الدينية ، والمثل الخلقية ، والمبادىء الفاضلة ، ونحترز من الذنوب والكبائر ، وقد كتب سيِّدنا عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيشه فقال:

(١) اقرأ القصة بطولها ونصها في «الطريق إلى مكة» لمحمد أسد ص٣٢٧ ـ ٣٢٩ ، ولقد لخصها العلامة الندوي في المحاضرة اعتماداً على ذاكرته.

«آمره ألا يكون من شيء من عدوه أشدَّ احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله ، فإنَّ الذنوب أخوف عندي علىٰ الناس من مكيدة عدوهم ، إنما نعادي عدونا ونُنصر عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم ، لأنَّ عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فلا استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منَّا في القوة والعدد ، فلا ننتصر عليهم بحقنا ، ولا نغلبهم بقوتنا ، ولا تكونوا لعداوة أحدٍ من الناس أحذر منكم لذنوبكم».

أقول هذا وأستغفر الله لي ولكم ، وأدعو لكم وللمسلمين جميعاً ببقاء العافية ، وطول السلامة ، والتوفيق والهداية.

* * *

إلى الإسلام من جديد

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مدينة أبو ظبي بدعوة من وزارة الإعلام في مسجد سعد بن أبي وقاص ، بعد صلاة المغرب ١٦ من صفر ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٠ من نوفمبر ١٩٨٣ م ، غصَّت قاعة الجامع بالحاضرين من أعيان البلد ، ووجهائه وعدد من رجال الحكومة والثقافة والتربية. وإلى القراء الآن هذه المحاضرة القيِّمة.

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد! فإنَّ موضوع الليلة ـ في هذه الأمسية المباركة ـ وهو «إلى الإسلام من جديد» وقد يبدو غريباً ، وقد يبدو تحدياً في هذا المجتمع الإسلامي؛ الذي تعيشون فيه ، ونعيش فيه هذه اللحظات المباركة ، وقد يبدو إساءةً إلى إخواننا المسلمين الذين نتحدث إليهم ، ونخاطبهم ، ودعوناهم بهذا العنوان ، فما معنى ذلك؟ ألسنا مسلمين؟ ويحقُّ لكلِّ واحدٍ منكم أن يتساءل: أما سمعتَ الأذان يدوي في الآفاق لما وصلت إلى هذا المكان؟ أما رأيت الناس يصلُّون؟ أما علمت شيئاً عن هذا البلد الإسلامي الكريم؟ فما معنى «إلى الإسلام من جديد؟!» .

لقد قررتُ هذا العنوان قصداً لا عفواً ، فإني أريد أن أثير فيكم التساؤلات الكثيرة حول هذا الموضوع ، معاذ الله! إنني لا أشك في إسلامكم أيها السادة وإخواني العرب! بل أنا مدين لكم في كل ما أكرمني الله به من إيمان وعقيدة ، وشعور ، وإنسانية رقيقة ، وغيرةٍ إسلامية ، وإنَّ كلَّ ذلك فيض من إيمانكم ، وغيرتكم ، ودعوتكم التي حملتموها في الماضي ، إني لا أقول عن نفسي ، فإنني عربيُّ النسب ، وعربيُّ اللغة ، وعربيُّ الأدب بدراسة ، ولكنِّي أقول عن المواطنين الذين نعيش بينهم كانوا يعبدون البقر ، وكانوا يعبدون النهر ، وكانوا يعبدون الشجر ، وكانوا يعبدون كل شيء إلا الله ، فأكرمهم الله ، وهبت عليهم نفحات الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ بهذه الجزيرة ، أنا قلت لإخواني الهنود: أنا لا أرى الجزيرة العربية كلَّها ـ بما فيها دولة الإمارات ـ إلا امتداداً لمكة ، لا أنظر إلى هذا البلد وإلى بلد أبعد عن هذا البلد إلا وكأنه من ضواحي مكة ، فإنَّ مكة والمدينة شرفهما الله تعالى هما مصدر كلِّ خير ، وهما مصدر الحياة الجديدة.

لولا الإسلام لما نلتم هذه السعادة ، ولما كانت لكم أهمية ، ومكانة ،

ليس في خارطة العالم الإسلامي بل في الخارطة السياسية ، بل في الخارطة الثقافية ، والخارطة المعنوية اللتان هما أهم من الخارطة السياسية ، فإنَّ الخارطة السياسية تتبدل في ظرف ساعات ، ولكن الخارطة الثقافية تدوم قروناً ، بل آلافاً من السنين ، والخارطة المعنوية ، والخارطة الخلقية المبدئية هي التي تدوم آلاف السنين ، وهي التي تصنع السياسة ، ليست السياسة هي التي تصنع العقيدة ، بل العقيدة هي التي تصنع السياسة ، أما تذكرون قول الرشيد؟ وما قيمة الرشيد؟ وما قيمة الخلافة العباسية؟ كله صدقة من صدقات النبوة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام ، استطاع الرشيد لما ورث الإسلام ، ولما حمل أمانة الإسلام ومسؤولية الحكم الإسلامي ، استطاع أن يقول لسحابة مرت فوق رأسه: «أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك هنا» تصوروا يا إخواني هل كان للرشيد ، ولابنه مأمون الرشيد ، أو لأخيه المعتصم أو لأي ملك من ملوك المسلمين أن يقول ذلك ولو مرت بهم قرون عديدة، كانوا يتسكعون في الجهالات، كانوا يتخبطون في الظلمات، لم يكن لهم وزن في كفة السياسة ، ولا في ميزان الثقافة ، ولا في ميزان المبادىء والأخلاق ، كل ذلك جاء عن طريق محمد عليه الصلاة والسلام.

معاذ الله ، يا إخواني من أن أدعوكم للإسلام من جديد إنَّ الإسلام هو الإسلام ، ولا يزال هو الإسلام ، المسلمون تغيروا ، ولكن الإسلام كما كان ولا يزال ، ولكن أريد أن نراجع نفوسنا ، وأن نراجع نمط حياتنا ، ونحكم على نفوسنا ، ونرى هل نحن نتحلى بحقيقة الإسلام؟ هل نحن نحمل حقيقة الإسلام؟ إن هنالك فرقاً شاسعاً بين الحقيقة والصورة ، وخذوا صورة أسد وأي حيوان أكثر منه مهابة ، وأعلى منه صوتاً ، وأشجع منه قلباً ، وإن كان الأسد مضخماً مجسماً مفخماً ، فإن صورة الأسد لا ترعب أحداً ، حتى ولو كان الطفل الصغير الذي يحمل حقيقة الحياة والشعور في أصابعه الصغيرة البريئة ، يستطيع ذلك الطفل أن يمزق صورة الأسد ، الذباب يجلس على صورة هذا الأسد ، والأسد لا يدافع عن نفسه كما يقول القرآن عن الأصنام ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

لقد أصبح كثيرٌ من المجتمعات الإسلامية صورة إسلامية وفقدت الحقيقة الإسلامية ، إنما ندعو نفوسنا وأنا أحشر نفسي معكم ، إنني أدعو نفسي وإياكم يا إخواني للتحلي بحقيقة الإسلام ، حقيقة الإسلام التي تدعو إلى التوحيد الخالص ، التي تدعو إلى أن لا يخاف المسلم أحداً فوق الأرض ، أو في الكون ، حقيقة الإسلام التي تدعو إلى معرفة الله تبارك وتعالى ، معرفة تحفر في عينه الدنيا وزخارفها ومظاهرها ، حقيقة الإسلام التي تعلم إيثار الآخرة على الدنيا. حقيقة الإسلام التي تعلم الاستهانة بالزخارف والمظاهر ، حقيقة الإسلام التي تنظر إلى متاع الدنيا كأنه متاع زائل ، حقيقة الإسلام التي تدعو إلى شيء من التقشف في الحياة ، حقيقة الإسلام التي تنكر البذخ والترف المدمر للأمم والشعوب؛ الذي كان يعيشه الفرس ، والرومان ، كان الأمير منهم يتمنطق بمنطقةٍ لا تقل قيمتها عن مئة ألف ، وإذا قلّت قيمتها عن ذلك عُيِّر ، وازدرته العيون ، وإذا لبس أحدٌ من كبراء الفرس ـ وهذا يقوله الإيرانيون أنفسهم ، والعالِم الدنماركي (A.I Christensess) الذي هو صاحب اختصاص في تاريخ إيران ، يسجل ذلك في كتابه «إيران في عهد الساسانيين» ـ إذا لبس أحدهم قلنسوةً قيمتها أقل من مئة ألف عُيِّر ، وما فسح له المكان ليجلس بجوار أركان الدولة ، وبجوار الكبراء والأغنياء ، ولمّا اضطرَّ يزدجرد آخر أباطرة إيران لمّا اضطر لمغادرة البلاد لينجو بنفسه أخذ ألف طابخ ، وألف مربٍ للصقور ، وألف مغن ، ثم يقول: يا أسفاه كيف أعيش بهذه القلة القليلة من الطهاة ، والمربين ، والمغنين ، فهو يختنق ، ويضيق صدره ، ويقول: ما يمكنني أن أعيش بهذه الحفنة من الخدم والحشم ، ولي ألف طاهٍ فقط.

إلى هذا الحد بلغت المدنية الإيرانية المزورة ، وإلى هذا الحد بلغت المدنية الرومانية البزنطية ، وفي التاريخ تفاصيل عن ذلك ، فماذا كان عاقبة هاتين المدنيتين؟ إنهما انهارتا أمام الإسلام الزاحف ، أمام الإسلام الحقيقي ، أمام الإسلام الإنساني ، الإسلام الذي جاء رحمة للإنسانية ، ولإنقاذ البشرية ، والشعوب المضطهدة المستعبدة من براثن القياصرة والأكاسرة ، فقد كان بسيطاً متقشفاً في الحياة ، زاهداً في الدنيا ، دافقاً

بالحيوية والقوة ، إنَّ من أسباب انهيار هاتين المدنيتين البذخَ والترفَ اللذان قد بلغا القمة ، وإلى حدٍّ لا يتصور ، لا أستطيع أن أُلمَّ بدقائق عن المدنية الرومانية وعن أناقتها ، وعن تفننها ، وعن دقة شعورها. وعن إمعانها في الإسراف ، وعن شغفها بالمظاهر والزخارف.

فالذي أخشاه على هذه الأمة يا إخواتي! وعليَّ أن أقول لكم بكل صراحة: إن هذا المنبر يفرض عليَّ أن أكون صريحاً. وما أدري هل تمتد حياتي إلى أن آتيكم مرَّةً بعد مرَّة ، وأثير فيكم هذه المعاني ، فأقول لكم بكل صراحة: إننا في أشد الحاجة إلى التحلي بحقيقة الإسلام ، وبروح الإسلام الحقيقية؛ التي تغلغلت في أحشاء الصحابة رضي الله عنهم ، واستطاعوا بذلك أن يفتحوا نصف العالم في نصف قرن ، كما يقول المؤرخون ، لولا التقشف في الحياة ، ولولا الصرامة والجلد ، وقوة الإرادة ، ولولا الفروسية العربية الإسلامية؛ لما استطاعوا أن يفتحوا نصف العالم في نصف قرن الشيء الذي لم يحققه أحدٌ من الفاتحين ، أو من المنشئين لتلك الإمبراطوريات.

أقول لكم: يجب علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن ينزل بنا ما نزل بالأمم السابقة؛ التي حصدها البذخ الخيالي ، لا يجوز لنا أن نعيش عيشة ألف ليلة وليلة ، عصر ألف ليلة وليلة انقضى من غير رجعة ، ليس له محلٌ الآن في العالم الواقعي ، يجب علينا أن نكون واقعيين ، يجب علينا أن نوطِّن نفوسنا على الجلد ، لا أقول الرهبانية ، بل أقول على شيءٍ من التقشف العربي: كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تمعددوا ، واخشوشنوا ، واخلولقوا. . . إلخ.

إن الدين هو الدين ، والإسلام هو الإسلام ، ولكن يحتاج إلى إيمان جديد بالإسلام ، ليس الإسلام قديماً ولا حديثاً ، الإسلام كالشمس ، بل أقدم من الشمس ، وأجد من الشمس ، ولكن نحتاج إلى إيمانٍ جديد ، إيمانٍ يستطيع أن يتغلب على المغريات العصرية ، كل شيء يتجدد ، الغِذاء يتجدد ، ودعوة المادية تتجدد ، وتقوى ، فلماذا لا يتجدد الإيمان؟ إنَّ

الإيمان البالي ، الإيمان الذي فقد الحيوية ، فقد القوة ، لا يستطيع أن يقاوم هذه المغريات الفارغة ، هذه الحضارة الساحرة ، هذه المادية الرعناء.

لو لم يكن عند الصحابة رضوان الله عليهم مثل هذا الإيمان الأسمى لما استطاعوا أن يقاوموا الحضارتين الرومانية والإيرانية اللتين قد بلغتا شأواً بعيداً ، وقد ضربتا الرقم القياسي في عالم الخيال ، ولكن بإيمانهم الحقيقي الثابت الملتهب كالشعلة ، استطاعوا لا أن يتغلبوا فقط ، بل أن يحرقوا هذه الأكوام من الحشائش ، وهذه المجموعة الكبيرة من الركامات ، تغلب إيمانهم على الركامات البشرية ، جاء الإيمان وسحق هذه الأنقاض المادية الملوكية الشهوانية الأنانية ، وبغير ذلك الإيمان الحي الدافق المتغلغل في الأحشاء المسيطر على النفس لا نستطيع أن نقاوم المغريات المادية الحديثة؛ التي جاءت بها أوربا لتلهينا عن أهدافنا وعن خلقنا وعن سيرتنا ، وأنتم إخواني العرب أولى بذلك ، فلولا هذه الفروسية العربية ، ولولا التمرد على الشهوات ، ولولا الاستهانة بالحياة ، ولولا الاستهانة بالمظاهر؛ لما استطاع العرب أن ينشروا الإسلام في أقرب وقتٍ ، وفي أوسع مجال.

جاءنا العرب في القارة الهندية ، حتى الآن ما يزال أثرهم باقياً في مقاطعة السند ، وما تزال هناك كلمات عربية ينطق بها أهل السند الهندوس ، لا يزالون يسمون يوم الخميس خميساً ، ولا يزالون يمسون الحصير حصيراً ، ولا يزالون يسمون الثوم ثوماً ، وما زال خطهم عربياً إلى أن انتشرت فيهم الدعوة الطائفية.

وكان أثر العرب أعمق في أندونيسيا وماليزيا ، ذهبت طوائف من تجار العرب ، وكونوا هذه المجموعة الكبيرة من المسلمين ، وما يزال المسلمون يشكلون المجموعة الكبيرة في جزر المحيط الهندي ، بأي طريق؟ بطريق إيمانهم الحي الدافق ، بطريق خلقهم المستقيم ، بطريق أمانتهم ، بطريق نصيحتهم ، وطريق مساعدتهم لك بائس ملهوف ، بطريق حرصهم على نشر الإسلام ، فيجب علينا أن نتحلى بهذه الحقيقة الإيمانية ، ولا نكتفي بالصورة ، إن الصورة الإسلامية بلا شك فيها خيرٌ كثير ، وهي أجمل وأروع

من كلِّ صورة ، ولكنها على كلِّ حال صورة ، إذا تجردت من الروح ، ولكن إذا اقترنت هذه بالحقيقة ، وسرى فيها الروح الإيماني كانت العجب العجاب ، وظهرت منها المعجزات .

والعالم اليوم ـ رغم ما تقرؤون من أخبار سطوة الشعوب الأوربية ـ عالمٌ منهار ، ومجتمعٌ مفكك ، مجتمعٌ متعفن ، مجتمعٌ فقد الروح ، لا يحتمل الصَّدمة ، ولكن أين تلك الصَّدمة التي تصدم هذه الحضارة ، الحضارة التي قد أينعت وحان قطافها ، ولكن أين السلة التي تقع فيها كما يقول محمد إقبال ، يقول : الحضارة العربية قد نضجت ، وأينعت ، وحان قطافها ، وقريباً تسقط من الغصن ، ولكن أين السلة التي تحملها ، ليس هنالك بديل ، والفراغ غير طبيعي ، الفراغ في الأمم وفي الحضارات ، وفي نظم الحكم ، وفي عالم الواقع لا يتصور ، لا بدَّ من بديل ، وكان المسلمون بديلاً عن الحضارة الرومية ، وعن الحضارة الإيرانية ، فاختارهم الله سبحانه وتعالى ، ومنحهم القيادة العالمية ، ومنحهم السيادة والريادة والحبَّ العميق . أحبتهم الأمم المفتوحة ، وفضلتهم على أصحاب ديانتها وجنسيتها .

لذلك أنا عينت موضوع المحاضرة في هذه الليلة «إلى الإسلام من جديد» ولو كان عندي فرصةٌ ، أو وسيلةٌ لإبلاغ صوتي إلى أقصى العالم الإسلامي وطلب مني هتاف واحد بعد «الله أكبر» لاخترت : إلى الإسلام من جديد» ولو قيل لي اختر لوحة مكتوبة نعلقها ؛ لكتبت عليها «إلى الإسلام من جديد» فإلى الإسلام من جديد أيها المسلمون من قديم ! أيها المسلمون من الأول !

* * *

لا بُدَّ من أولي بقية ينْهونَ عَن الفساد في الأرض في كلِّ زمان

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مدينة الشارقة بدعوة من رئيس مركز الدعوة الإسلامية في مسجد عمر بن الخطاب ، مساء يوم الإثنين في ١٧/ من صفر ١٤٠٤ هـ ، الموافق ٢١/ من نوفمبر ١٩٨٣ م ، حضرها عدد كبير من رجال الفكر والدعوة وأساتذة الجامعات ، وغَصَّت القاعة بالمستمعين بصورةٍ غير عادية. وإلى القراء هذه المحاضرة.

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

سادتي وإخواني! هذه آية من سورة «هود» كلما تلوتها يقشعر جلدي ، وتثور فيَّ المشاعر ، إن الآية في أسلوب قرآني مؤثر مرقق ، لا أجد تعبيراً يعني بحق هذه الآية ، ويقول الله تبارك وتعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ إن كلمة «أولو بقية» كلمة لا يفي بها تعبيرٌ ، ولا شرحٌ ، ولا تفسيرٌ ، يعني: لماذا لم يكن حين انتشر الفساد في قطعة من الأرض ، وفي العالم ـ كما كان الشأن في القرن السادس المسيحي ، في الجاهلية العالمية التي طبقت الآفاق ، ولا تصوير أدق من تصوير القرآن ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١] أولو بقيةٍ ينهون عن الفساد؟ وهذا أسلوب القرآن يحيل على الماضي ولكنه يثير في المعاصرين لنزوله ، المباشرين لتلاوته الشعور بالمسؤولية في الحاضر ، فإنَّ القرآن هو الكتاب الخالد الذي لا تبلى جدته ، هو الكتاب الذي يعاصر الأحداث ، ويعاصر الأمم والأجيال ، ولا يساير الزمن فحسب ، بل يسبق الزمان ، ويقود البشرية ، فيرجع بنا إلى الماضي لنرجع إلى الحاضر والمستقبل[1] ، فكأنه يقول: لماذا لا يكون في الجيل المعاصر لنزول القرآن ، والأجيال المخاطبة بالقرآن في كلِّ زمان ومكان أولو بقية؟ و«أولو بقية» كلمة لو ألف كتاب ضخم في شرح هذه

(١) والقرآن مملوء بشواهده وأمثاله .

الكلمة (أولو بقية) ولماذا يوصفون بأولي بقية ، وما هو الفرق بينهم وبين سائر الناس ، لقصر القلم ، وعجز اللسان ، وانتهى الكتاب.

إنَّ البشرية ، أيها السادة! ما زالت ولا تزال هدفاً لعوامل التدمير والإفساد ، منها عوامل داخلية باطنية ، من الشهوانية ، والأنانية ، وعبادة النفس ، وحب اللذات ، ومن قصور النظر ، ومن الانصراف إلى الدنيا ، والخضوع للمادة والقوة ، ولعوامل الشذوذ ، والانحراف ، ومنها عوامل خارجية ، من فساد البيئة والمجتمع ، وسوء التعليم والتربية ، وانحراف القوانين والنظم ، والإنسان يعيش في الواقع ، لا يعيش في الأحلام والأماني ، ولا يعيش في الفلسفات والتصورات ، يسعى على قدميه: ويتنفس في الهواء ، فإن كان الهواء فاسداً ، تنفس الفاسد ، وإن كان الهواء عفناً؛ تنفس العفونة ، وإن كان الهواء صالحاً نقياً؛ تنفس النقي الصالح. فلا يستغرب أن ينتشر الفساد الخلقي والفساد الاجتماعي انتشاراً عاماً إذا توفرت أسباب قاهرة لإفساد مجتمع خاص ، هذا وقع آلافاً من المرات ، وسيقع مراراً إذا كان في الوقت متسع ، والدنيا أجل ممدود.

ولكن المعوَّل على وجود طبائع صالحة ، وضمائر حية ، وعقول نيرة ، وعقائد جازمة راسخة ، ودعوات قوية مؤثرة ، والعمدة على خلفاء الأنبياء عليهم السلام ، وعلى حملة الرسالة ومشاعل النور ، ليس من الغريب أن يمرض الإنسان ، وليس شيئاً مروعاً مؤيساً ، الغريب المروع المفزع هو فقدان الطبيب ، وهو الذي حذرت منه الديانات السماوية ، وحذرت منه الأنبياء ـ وسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وسلم بصفة خاصة ـ وهو أن يفقد الأطباء ، ويفقد التألم النفسي بالفساد ، ويفقد من يواجهه وجهاً لوجه ، ويقف في تياره كالسد المنيع ، والطود الشامخ الذي لا يتزلزل ، ينتشر الفساد ، ولا يجد مقاومة ، ينتشر الفساد ولا يجد تحدياً ، ينتشر الفساد ولا يجد منكراً ، أو مستنكراً ، هذا هو البلاء ، هذا الذي عرض الركب البشري للنار أو الدمار ، والانتحار والانهيار ، وساد الفساد على المجتمع الإنساني كله ، وهو الذي يصوره القرآن بقوله المعجز البليغ ، ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الروم: ٤١].

فالشيء المثير للتأمل والقلق ، هو عدم وجود الأطباء الناصحين ، المتألمين المستنكرين لهذه الأوضاع الفاسدة ، الذين لا يطيب لهم طعامٌ ، ولا شرابٌ ، ولا نومٌ في هذا الوضع ، ويتعكَّر عليهم صفو الحياة ، فالشيء الأساسي الرئيسي هو وجود أولي بقية ، عندهم أثارة من شعور ، وبقية من غيرة إنسانية ، ومن حياة الضمير ، ومن الوعي الصحيح الديني ، بقية من التألم والاهتمام بمصير الإنسانية ، أو الاهتمام على الأقل بمصير المجتمع الذي يعيشون فيه ، وهؤلاء أولو بقية ما زالوا في كل فترة حالكة ، يبرز وجههم في فساد المجتمع ، ويقومون ، يتحدَّون الفساد ، ويصرخون به ، ويخاطرون بمستقبلهم في سبيل الدعوة والإصلاح ، كما يقول القرآن عن سيدنا صالح عليه السلام ﴿ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢] ، فكثير من المرجويين الذين كان لهم الغد المضمون والمستقبل المشرق ، كانوا يخاطرون بمستقبلهم وبإمكانياتهم ، ويجازفون بحياتهم ، ويخاطرون بأهلهم ، ويتحدَّون الباطل ، ويقفون في وجه الفساد ، ويقولون : لا نرضى بهذا الوضع أبداً ، قد كان هؤلاء أولي بقية في بعض الأحيان أفراداً يعدون على الأصابع ، وقد كان هؤلاء جماعة ، أو أمة في الزمن الذي عمَّ فيه الفساد ، وتفاقم الشر ، بحيث خرج إصلاح الحال من دائرة إمكان أفراد ، مهما أوتوا من المواهب ، ومهما أوتوا من الذكاء ، ومن النفوذ على النفوس ، وامتلاك ناصية البيان واللسان ، فقد كان الفساد أوسع وأعظم من أن يقف في وجهه أفراد أفذاذ من الناس ، هنالك أرادت مشيئة الله تعالى أن تنهض أمة .

وهذه قصة القرن السادس المسيحي الزمن الذي سبق الإسلام ، كان الفساد أوسع من أن يقوم له أفراد ، ولو كانوا عماليق في الفكر ، عماليق في قوة الإرادة ، وفي الشجاعة ، وفي الإخلاص ، ولكن لم يكن هذا يدخل في نطاقهم ، هنالك أراد الله أن تقوم أمة ، ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى بعثة آخر الرسل ، وسيدهم وخاتمهم ببعثة أمة بأسرها ، كانت بعثته صلى الله عليه وآله وسلم بعثة فردية تتجلى في شخص النبي صلى الله عليه وآله

وسلم ، وهو النبي الذي ختم به الله تبارك وتعالى الرسالات والنبوات ، فلا نبي بعده ، قرن هذه البعثة ببعثة أمة ، لأنَّ المهمة ضخمة جداً ، وهي الأمة الإسلامية ، والقرآن استخدم تعبيراً يدلُّ على أنَّ هذه الأمة التي رافقت النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في غزواتـه وفي دعوتـه ، وفي سلـوكـه ، وفي حمل رسالتـه ، هذه الأمـة لم تـكن أمة من الصدف ، ولا كالحشائش الطفيلية التي تنبت في الحقول غير مقصودة ، إنما هو نبت إلهي ، نبت رباني مقصود ، أراد الله أن تقوم هذه الأمة بأسرها كحاملـة الرسالـة ، فاستخدم لهـا القرآن تـعبيراً يختلف عن تعبير الأمم السابقة ، قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذا الشعور الذي كان يحمله الصحابة رضي الله عنهم؛ حتى الذين لم يكونوا على مستوى رفيع جداً من الثقافة والتربية النبوية ، كأن هذا الشعور قد انتشر في أفراد هذه الأمة على اختلاف مستوياتهم.

لمَّا كان الفساد مخيماً على العالم الإنساني كلِّه في القرن السادس المسيحي ، وكان الظلام حالكاً قاتلاً ليس قاتماً ، قاتلاً للضمائر ، قاتلاً للنفوس ، قاتلاً للعقول ، كان إصلاح الأوضاع خارجاً من إمكان أفراد ، مهما بلغوا من قوة الإرادة ، ومهما بلغوا من الذكاء ، وامتلاك الوسائل والأسباب ، هنالك بعث الله أمة بأسرها لتحارب هذا الفساد المنتشر حول هذه الأمة ، وحول هذه الجزيرة.

ولكن كيف كان ذلك؟ إنما كان ذلك بصفاتٍ امتاز بها أفراد هذه الأمة في الأمم ، منها قوة الإيمان ، وعمقه في نفوسهم ، وتغلغله في أحشائهم ، وكتب السيرة والتاريخ طافحةٌ بأمثلته ، فقد كان مدى إيمان الصحابة بمواعيد الله تعالى ، وبمواعيد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فوق ما يتصوره الإنسان ، ثم حسن الخلق واستقامة السيرة ، ثم بساطة المعيشة والتقشف في الحياة ، والبعد من البذخ والترف اللذَيْن ابتلعا الأمة الرومانية ، والأمة الفارسية ، ونخرتهما كما ينخر السوس العود ، الترف المدمر ، الفاتك بالكفايات ، الفاتك بالطبيعة البشرية.

والذي أخشاه على الأمة العربية ، الذي أخشاه على المجتمع العربي الإسلامي الكريم ، هو أن تكون مثالاً أو تكون نموذجاً لتلك المدنية المصطنعة ، المدنية التي حادت بهم عن كلِّ مكرمة ، وعن كل بطولة .

لما أراد الله بالأمة العربية أن تكون ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ ﴾ [هود: ١١٦] اصطفاها الله تبارك وتعالى وجعلها أمة متقشفة ، قوية الخلق ، كريمة السيرة ، حية الضمير ، تحمل قلباً متألماً ، متوجعاً للإنسانية ، وخلق في نفسها من الرحمة للبشرية ما لا يبلغها قياس ، ترق نفوسهم للبشرية ، وتدمع عيونهم على حاضر البشرية ومستقبلها ، وينسون أولادهم ، وأهلهم ، وأنفسهم في سبيل إخراج البشرية من هذا المستنقع المتعفن الذي كانت تتردى فيه ، خلقهم من جديد ، كأنهم ولدوا في الإسلام ولادةً جديدة ، لا يشبهون حياتهم الجاهلية في شيء ، كأنهم نبتوا من الأرض ، أو نزلوا من السماء ، إنسان غير إنسان ، وبشر غير بشر ، يصف الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الصحابة رضي الله عنهم ، فيقول: «أبر الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلهم تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإعزاز دينه» ولما استفسر قيصر الروم ـ الإمبراطور هرقل ـ الفلول المنهزمة من الجيش الروماني الداحر للفرس في الأمس القريب ، وسأل قادتها: لماذا تنهزمون كل يوم ومعكم الجيوش الجرارة التي دوخت إيران بالأمس؟ ما السر في ذلك؟ لماذا تنحسرون بهذه السرعة؟ من هم هؤلاء؟ أهم من الجن؟ أم من العفاريت؟ والله صفهم لي! فقال أحد قادة الرومان: هل يسمح لي يا صاحب الجلالة بالوصف الصحيح؟ قال: نعم ، قال : هم «فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه ، فقال: لئن كنت صدقتني ليملكنَّ موضع قدمي هاتين»(١) .

فاختار الله الأمة العربية ، وأفاض عليها لباساً جديداً من السيرة

---

(١) البداية والنهاية: ج٧ ص١٥ .

البشرية ، ومن الأخلاق الإنسانية ، بفضل القرآن ، وبفضل التربية النبوية ، فكانت هذه الأمة شامةً بين الأمم ، منارةَ نورٍ في بحر الظلمات. إذا كانوا أصحاب يسار وسعة في الرزق؛ كانوا متقشفين ، وإذا كانوا تجاراً؛ كانوا أمناء صادقين ، وإذا كانوا حكاماً أو قضاة؛ كانوا عادلين ، وإذا كانوا عملة ، أو خدماً؛ كانوا ناصحين مجتهدين ، وإذا كانوا رؤساء؛ كانوا متسامحين راحمين ، وإذا كانوا في الماضي لا يفكرون إلا في نفوسهم وعيالهم؛ أصبحوا يفكرون في الإنسانية كلها ، وإذا كانوا في الجاهلية ينامون الليل كالأموات؛ أصبحوا يحيون لياليهم بالذكر والتلاوة ، وإذا كانوا يجمعون الأموال لأنفسهم سابقاً؛ عادوا يبذلون الأموال لغيرهم ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فما تمكن العرب من فتح العالم ـ كما يقول كبار مؤرخي أوربا: إنهم فتحوا نصف العالم في نصف قرن ، وهذه معجزة تاريخية ـ وما استطاعوا ذلك إلا بفضل سيرتهم الخاصة ، ونمط حياتهم ، والمزايا التي كانوا يمتازون بها ، والسمة التي كانوا يتَّسمون بها.

يا إخواني! يقول الله تبارك وتعالىٰ ، ولو كان كلام البشر لقلت يقول متحسراً متفجعاً ، ولكن جل الله عن ذلك ، جلَّ عن التفجع ، والتوجع ، ولكن يجب علينا أن نقرأ هذه الآية متفجعين ومتوجعين ، وهذا دورنا في التدبر في القرآن ، القرآن نزل وحفظ ، وهو لا يختلف في أي زمانٍ ومكان ، ولكن يجب علينا أن نستشعر في أعماق نفوسنا بالروح التي تسيطر على هذه الآية ، فنقرأ متفجعين متوجعين ، متحسرين متألمين ، قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]. تأملوا في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ هذا كان شأن الأمم في كل زمان ، فقد اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ، وكانوا مجرمين ، فقد تهالكوا على أدوات الترف والبذخ ، وتنافسوا فيها ، واقتبسوها ، واستوردوها من الخارج ومن الشعوب السابقة فيها ، المخترعة لها ، ليس لها خيار ولا ابتكار ، ولا وقوف عند حدٍّ واستقرار.

إنَّ ضمير النوع البشري المعاصر أيها السادة! يصرخ بأعلى صوته شاكياً بلسان الحال ، «لولا كان من الأمة الإسلامية في هذا الزمان أولو بقية ينهون عن الفساد» والله لو قام أحد على قمة جبل ، وتكلَّم على مذياع عالمي يسمعه كلُّ واحد في كل قطعة من الأرض ، قال: فلولا كان من الأمة الإسلامية العربية ، فلولا كان من الجزيرة العربية التي طلعت منها شمس الإسلام ، والتي أكرمها الله بالقرآن أكرمها الله بالإيمان ، أكرمها الله بالمواهب التي خصها بها ، فلولا كان في الأمة الإسلامية العربية أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ، الفساد موجود ، ولكن الواقفين في وجهه ، المتحدين له ، المحاربين له ، وعلى الأقل المستنكرين له غير موجودين ، الداء موجود ، والطبيب مفقود ، وكما يقول الشاعر:

ما يُصلحُ الملحَ إذا الملحُ فسد؟

فالمسلمون ملح الأرض ، إذا فقد الملح ملوحته من يعيد إليه الملوحة؟

إنَّ القرآن لا يزال ينبهنا على هذه الآية ، ويجب علينا أن ننتبه ، وأن تقشعر جلودنا ، إن صوت الضمير الإنساني المعاصر يقول: «فلولا كان من الأمة الإسلامية ، هذه المنتشرة في أرجاء الأرض ، هذه التي قد ملأت الآفاق ، والتي تملك الحكومات ، وتملك رؤوس الأموال ، وتملك خيرات الأرض ، وتملك الطاقة البشرية ، وتملك وريد جسم الصناعة والحضارة ، لولا كان من الأمة الإسلامية العربية أولو بقية ينهون عن الفساد؟!

أنا أومن بأزمةٍ واحدة، أزمةِ عدم وجود القدوة الحسنة، القدوة الصالحة على مستوى الشعوب والأُمم ، ليس على مستوى الأفراد ، الحمد لله عندنا أفراد ، ولكن مصير الأمم لا يتغير بالأفراد ، مصير الأمم يحتاج في تحويله إلى مجهودٍ جماعي ، وإذا بقي هذا الفراغ طويلاً فإنه ليس خطراً على الأمم التي امتحنت به، والتي تمثله ، بل هي كارثة العالم كله، فتنهار هذه المدنية، وتنهار هذه النظم التي تقوم الآن ، ويطوي الله هذا البساط ، فلا بدَّ

أن تنهض هذه الأمة ، لا بدَّ أن توطن نفسها على ملء هذا الفراغ بقدر الإمكان.

ولكن ما قامت أيها السادة! أمة بحركة إصلاحية ، ثورية بناءة إلا حين كانت مدنيتها صالحة ، وحين كانت حياتها بسيطة ، وحين كانت تتصف بشيء من البطولة ، وبشيء من روح المخاطرة والمجازفة ، وأما الأمم المترهلة ، الشعوب الرخية الناعمة ، الرخوة الرقيقة ، الشعوب التي قد أخلدت إلى الأرض ، وأخلدت إلى الشهوات ، فإنها لا تستطيع أن تحدث انـقلاباً ، هـذا الذي أخافه على المجتمع الإسلامي بصفة عامة ، على المجتمع العربي حين أخاطبه وجهاً لوجه بصفة خاصة ، علينا أن نفكر في ذلك جدياً ، ونفكر مع الإنسانية ، ولا نفكر في إطارنا المحدود ، المنزلي أو المحلي ، أو البلدي ، أو الشعبي ، نفكر في مصير البشرية كأنه مصيرنا ، ونربـط مصيرنا بمصير البشريـة ، وفي الحقيقة مصيرنا مربوط بمصير البشرية ، لا يمكن أن تبقى أمة على حالها وعلى وضعها إذا كان العالم حوله يموج بفتـن ، يموج باضطرابات ، يموج بصراع نفسي ، فلا بدَّ لنا أن نفكر في مصير الإنسانية ، نؤمن بأن مصير الإنسانية مرتبط بمصيرنا ، ومصيرنا يرتبط بمصيرها ، الرسول عليه السلام ضرب مثلاً بليغاً لذلك بسفينة ، ولم أجد مثلاً أبلغ منه في أدب الدعوة ، وفي كلام أثر عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم ، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم؛ نجوا ونجوا جميعاً»[1].

نحن على سفينة البشرية ، والسفينة البشرية مضطربة مائجة ، فيجب

---

(١) رواه البخاري.

علينا أن نفكر في إيصالها إلى بر السلام ، وليس بر السلام إلا الإسلام الحقيقي الكامل ، البعيد عن النفاق ، البعيد عن كل ما كانت الجاهلية تتسم به ، الدافق بالحياة والقوة الحامل للرسالة والرحمة للإنسانية ، المالك للمثل العليا والنماذج الصالحة ، والقدوة الحسنة الفاضلة ، أفراداً ومجتمعات ، وشعوباً وبلاداً ، ونظماً وحكومات ، وبالله التوفيق.

* * *

أزمة هذا العصر الحقيقية

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مدرج جامعة الإمارات المتحدة في العين ، وقد غَصَّ بالحاضرين من أساتذة الجامعة وطلبتها ، والمستمعين الكرام في ١٥ من صفر ١٤٠٤ هـ ١٩ من نوفمبر ١٩٨٣ م. ونالت هذه المحاضرة إقبالاً عظيماً في الأوساط الدينية والعلمية في الإمارات بعد ما نُشرت في شكل رسالةٍ مستقلة.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين خاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد! فإني أحمد الله تبارك وتعالى أولاً على توفيقه ، وعلى ما هيّأ لي من هذه الفرصة الكريمة للاجتماع بهذه المجموعة الطيبة من المثقفين وأبنائنا الشباب العربي المسلم ، وأبناء هذه الجزيرة أشبال الأسود ، وورثة المجد الخالد القديم ، وموضع الأمل للمستقبل ، ولكن الشعور بالمسؤولية والشعور بالاستفادة من هذه الفرصة التي لا تسنح دائماً وفي كل مكان ، يدفعني إلى أن أتكلم بصراحة ، وإذا تكلمت بصراحة في هذه القطعة من العالم الإسلامي الذي تعلم منه العالم الإسلامي ، بل العالم الإنساني كله الصدق والصراحة ، وكان هذا الصدق والصراحة عاملين قويين حاسمين في تحويل التيار ، وفي إرغام التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، فأرجو عدم المؤاخذة على الصراحة التي سيتم بها حديثي.

إخواني! إنه كثر الحديث عن الأزمات ، وأصبح الشغل الشاغل للمثقفين الدارسين المعنيين بالقضايا البشرية ، حتى أصبح موضة من الموضات.

فيتحدث كثيرٌ من الناس عن الأزمة الاقتصادية ، وبعضهم يتحدث عن الأزمة القيادية ـ أزمة القيادة ـ وبعضهم يتحدث عن الأزمات السياسية ، حتى نزل الناس إلى مستوى الحديث عن أزمة العَمَلة ، وأزمة البنائين ، حتى وصلوا إلى أزمة الطباخين ، والسواقين في بلد راقٍ كبير ، ولكنها كلها أزمات جانبية طفيلية ، وبعضها خيالية.

إن الأزمة الحقيقية ، الأزمة العالمية الإنسانية ـ يا سادتي وإخواني! هي «أزمة عدم وجود القدوة الصالحة علىٰ مستوى الشعوب والأمم» إنني لا أتحدث عن أزمة الأفراد ، الأفراد كانوا ولا يزالون في كل عصر ، ولكن

الأفراد لا يستطيعون أن يغيروا التيار ، وأن يحدثوا انقلاباً ، الأزمة الحقيقية هي عدم وجود القدوة الصالحة على مستوى الشعوب والأمم ، فأصبحت الشعوب والأمم قطعاناً من الغنم لا راعي لها ، قد كان العالم ـ العالم الإنساني ـ في القرن السادس المسيحي عالماً جسداً بلا روح ، جسداً بلا قلب ، جسداً بلا ضمير ، لا إنسانية ، ولا خلق ، ولا وازع ديني ، ولا كتاب سماوي محفوظ في الحقيقة ، كان الناس من غير قيادة ، وكان الناس يتخبطون في الظلمات ، ويرسفون في الأغلال ، ويشحطون في الدماء ، ولا بصيص في نور.

فأرسل الله نبيه محمداً ﷺ في هذه الجزيرة العربية التي نلتقي في جزءٍ منها اليوم ، أرسل نبيه محمداً ﷺ وبعثه بعثة نبي ، ولكن بعثته كانت ـ أيها الإخوان ـ بعثةً مقرونةً ، بخلاف كثيرٍ من بعثات الأنبياء ، إنها كانت بعثة ثنائية ، بعثة نبي مقرونة ببعثة أمة.

وهذا ما لا يتفطن له كثيرٌ من المتأملين في القرآن ـ ولا مؤاخذة ـ إن الله سبحانه وتعالى يصف هذه الأمة بصفات لا تنطبق إلا على مبعوثٍ مأمورٍ من الله ، فيقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إنني في دراسة مقارنة للديانات والكتب السماوية لا أجد هذا الوصف الدقيق الشامل ، وهذا الخط الفاصل بين أمة وأمة ، أمة قُلِّدت مسؤوليةً ليس فوقها مسؤولية إلا مسؤولية النبوة فقط ، فكانت بعثة النبي ﷺ بعثةً مقرونةً مشفوعةً مرتبطةً ببعثة أمة ، هذا هو الشيء الذي أثر في مصير الإنسانية ، وكانت تجربةً جديدةً في تاريخ الديانات ، وفي تاريخ مصائر الأمم وفي تاريخ الاتجاهات ، ولعلَّ بعض أهل العلم والدراسات يستغربون هذا التعبير ، وربما يشعرون فيه بشذوذٍ ، أو تطرف ، ولكني أستشهد بقول رسول الله ﷺ حيث قال لجماعة من الصحابة رضي الله عنهم «إنما بعثتم

ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين»[١] وقد كان هذا الشعور بمسؤولية البعثة وبمسؤولية المأمورية يملأ جوانح الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان.

كان الواحد منهم ولو لم يبلغ مبلغاً عظيماً من الثقافة ، كان يشعر بأنه مبتعث ، ومسؤول أمام الله عن مصير الإنسانية وعن الشعوب والأمم.

فلمّا سأل رستم سيدنا ربعي بن عامر ، قال له: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ما الذي أخرجك من الجزيرة العربية؟

فقال القولة المجلجلة ، المدوية ، المسجلة في التاريخ ، التي لا أعرف لها نظيراً في الكلمات التي تقدم بها السفراء والرسل ، رسل الملوك ، رسل الحكومات ، وحملة المسؤولية الكبيرة أمام قادة البلاد ، أمام من كان يملك زمام الأمم والشعوب.

إنه أولاً خطأه ، وانتقده ، فكأنه يقول ما جاء بنا شيء ، ما جئنا لأنفسنا ، يسجل التاريخ الأمين هذه الكلمات وهذه النبرات ، وكأني أسمعه الآن يقول: «الله ابتعثنا».

إخواني! استحضروا هذه الثقة التي قد ملأت جوانح هذا الرجل الأعرابي البدوي ، ومدى ابتعاده عن كل نوع من أنواع مركب النقص ، رستم ، قائد قوات الفرس ، جالس على سرير ملَكي ، وهذا الرجل الأعرابي الذي نزل من فرسه ، وصار يطأ الزرابي المبثوثة ، ويستهين بهذه الزخارف المصطنعة ، لما قال له رستم: ما الذي جاء بك؟ كانت مئة ردود ، جاء بنا الجوع ، هذا أقل شيء ، جاء بنا الشعور بالمهانة ، هذا فوقه ، جاء بنا الواقع الأليم الذي نعيشه ، جاء بنا الشعور بالاضطهاد وبالظلم والجور الذين أنتم مصدرهما ، لا!يقول بكلّ ثقة وإعتزاز ، يقول بكل طمأنينة

---

(١) أخرجه البخاري ، ولفظ الحديث: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس ، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه وهريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين».

وسكينة ، كان الإيمان ينطق على لسانه ، ويفيض من صدره ، يقول : لا ! ما بنا شيء ، الله ابتعثنا .

هذه الثقة التي امتاز بها الرعيل الأول من حملة رسالة الإسلام في القرن الأول الهجري ، وفي القرن السادس المسيحي .

كانت بعثة هذه الأمة ، الفريدة في إيمانها ، الفريدة في ثقتها ، الفريدة في سيرتها ، وخلقها ، الفريدة في رحمتها للإنسانية ، الفريدة في بساطتها وجديتها ، الفريدة في اتصالها بالأسرة الإنسانية وبتألمها بواقع الإنسانية الذي كانت تعيشه في كل بقعة من بقاع الأرض ، كانت تجربة جديدة ، كانت هذه البعثة الجماعية ، البعثة التي انخرط في سلكها العرب كلهم ، فأصبحوا رواداً ، أصبحوا حملة الرسالة ، أصبحوا حملة المشعل ، أحدث هذا تحولاً في التاريخ ؛ لأنَّ واقع العالم الإنساني الذي كان يعيشه قبل القرن السادس المسيحي أوسع ، وأسمىٰ من أن يؤثر فيه الأفراد الصالحون ، إنَّ القرآن يشهد بوجود أفراد صالحين في اليهود المغضوب عليهم ، فيقول : ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ١١٣ - ١١٤] ولكن لا أثر لهم في المجتمع الإنساني وفي المسيرة الإنسانية ؛ لأنهم أفراد ، فبعثة الأمة على هذا المستوى من الإيمان والعقيدة والأخلاق ومن الصدق والصرامة ، ومن الجدية والفروسية ، ومن الإيثار على النفس ، ومن التضحية كان أعظم تحوُّلٍ شهده التاريخ الإنساني .

إنَّ الفراغ الهائل ، الفراغ الأعظم الوحيد هو عدم وجود أمة تُتَّخذ مثالاً وقدوةً للأمم ، الأمم لا تحسب للأفراد حساباً ـ هذا معلوم ـ الأمم والشعوب ، خصوصاً الشعوب السائدة التي تملك القيادة لا تحب لأفرادٍ صالحين ، يوجدون في كل أمة تقريباً وفي الشعوب العربية والأمم الإسلامية ، لا تحسب الشعوب الأوربية لهؤلاء الأفراد حساباً ، إنما تتطلَّع الشعوب إلى شعبٍ مثالي ، إلى شعبٍ قائد ، قائد الإنسانية ، شعب يمتاز

عن الشعوب الأخرى في متانة العقيدة ، وقوتها ، وفي روح الإيثار والتضحية ، وفي البساطة في المعيشة ، وفي التسامي على الشهوات والأنانيات ، لا يستهويهم الشيء الذي يستهوي هذه الشعوب رغم سيادتها وقيادتها ، ورغم تقدمها في الثقافات ، وفي الفلسفات ، وفي العلوم.

إنَّ الشعوب الأوربية ، بل العالم الإنساني المعاصر الآن لا يخضع أقلَّ خضوعٍ ، إنَّه لا يرفع لشعبٍ رأساً لا يتميز عن الشعوب رغم سيادتها وقيادتها ، ورغم تقدمها في الثقافات ، وفي الفلسفات ، وفي العلوم.

إنَّ الشعوب الأوربية ، بل العالم الإنساني المعاصر الآن لا يخضع أقلَّ خضوعٍ ، إنَّه لا يرفع لشعبٍ رأساً لا يتميز عن هذه الشعوب في شيء والذي يحسبُ أنَّ نصيبها أقلُّ من هذه الشعوب ، والذي يتحلب فمه ، وتتقطع أنفاسه في الجري وراء هذه الشهوات ، ووراء هذه اللذات التي يعبدها الأوربيون ـ صدقوني أيها الإخوان ـ لو ملك المسلمون أضعاف أضعاف ما خولهم الله تبارك وتعالى ، وما أعطاهم وكرمهم به من مال وثراء ، ووسائل للعيش الرخي الناعم ، والحكومات الكبيرة الواسعة ، والتقدم في العلوم والفنون لا يحسب العالم المعاصر للمسلمين وللعرب أيَّ حساب ، إنهم في اعتزاز بنفوسهم ، ويعرفون أنهم قادة العالم ، وقادة المدنية ، وأنَّ الشعوب كلها متطفلة على مائدتها ، إنَّ أكبر كبير يزور عاصمة أوربية أمريكية ويبذر فيها القناطير المقنطرة ، ويبني فيها القصور الشامخة ، ويسبح في عالم من الخيال ، وينقلب في أعطاف النعيم ، ويعيد تاريخ ألف ليلة وليلة ، لا يرفع الأوربي إليه نظره ، ولا يحني رأسه أمامه ، أما إذا رأى رجلاً ولو كان فقيراً يتسامى على هذه الشهوات التي يعبدها الأوربيون كالأصنام ، وأكثر من الأصنام ، يرى رجلاً لا تخدعه هذه البهرجة ، لا تخدعه هذه الزخرفة المصطنعة ، هذا الفسيفساء الصناعي ، هذه المدنية الباهرة لا تبهر عيونه ، بل يقف في طريقها وقفة عملاق ، وقفة منارة نور في بحر من الظلمات ، يسخر من هذه المدنية ، وينبذها نبذ نواة ، ويحتقرها ، ويؤمن ويعلن كذلك ، أنه منقذٌ للإنسانية ، أنه جيش الإنقاذ ، إنها فرقة المطافىء (Fire Brigade) العالم كله مريض ونحن جميعة الإسعاف ، هذه

الثقة هي التي تجعل الأوربي ، والهندوسي والياباني ، والصيني يفكر مئة مرة في صلاحية الإسلام وفي قدرته على إنشاء مثل هذا الجيل .

والفراغ الذي ملأته الأمة الإسلامية في القرن السابع المسيحي هو فراغ القيادة العالمية بجدارة ، وبقدرة ، واستحقاق ، وببعثة أمة بأسرها ، كلُّ فرد من أفرادها يحمل المشعل ، ويشقُّ الطريق في الظلمات ، كما قال عقبة بن نافع : «يا ربِّ! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»[(١)] .

وهكذا كانت الثقة تملأ نفوس المسلمين الأوائل ، كان المسلمون يؤمنون بأنهم مبعوثون أو مبتعثون (إذا أخذنا بالاحتياط والدقة) إذا كان النبيُّ مبعوثاً فهم مبتعثون ، مأمورون ، ولكن كل واحد كان يعتقد أنَّ عليه المسؤولية ، وأنَّ في يده أمانة ثمينة ، أمانة المصير الإنساني ، أمانة الحظ الإنساني ، أمانة مستقبل المدنية هذا هو الشيء الذي حدَّد المكان المعين المعلوم للأمة العربية الإسلامية ، وحدَّد دورها ، دورها القيادي في معركة الأمم والشعوب السياسية والاقتصادية وغير ذلك .

ففي الحقيقة نحن الآن في حاجة إلى أن نكون القدوة الصالحة على مستوى الشعوب والأمم ، الآن كما يقول أبو العلاء المعري :

.... ويا نفس جدي إنَّ دهرك هازل

فالدهر هازلٌ الآن ، الناس يعيشون في مهزلة ، هذه المهازل التي تقرؤون أخبارها في الجرائد ، كلَّ يوم تطلع عليكم الصحف والجرائد بمهزلةٍ ـ مع الأسف ـ وبمأساةٍ كذلك ـ ومع الأسف الشديد ـ قد التقت المهزلة بالمأساة في بيروت في لبنان ، وقد تلتقي المآسي بالمهازل ، والمهازل بالمآسي ، وليس ذلك إلا لأننا أصبحنا هزيلين وهازلين ، هازلين غير جادين ، أصبحنا فاقدين للإيمان الصحيح وللثقة ، العالم المعاصر ينادي الغوث الغوث! النجدة النجدة! أيتها الأمة الإسلامية العربية! إنَّ أوربا

(١) الكامل لابن الأثير ج٣ ص٤٣ .

أصبحت كلباً يلهث ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، وأصبحت المدنية الأوربية جملاً مجتراً فقط ، قد خلت جعبتها عن كلِّ جديد فريد مفيد. إنَّ ما تعب فيه علماء أوربا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، هو الذي يستعين به الأوربيون الآن ، قد فقدوا الجدارة والجدَّة ، والقدرة على حل المشاكل والأزمات ، والعبقرية القيادية المتحررة من التقليد والعمل الرتيب الروتيني ، والشجاعة الخلقية الإقدامية.

الآن هنالك فراغٌ واحد ، أنا لا أصدق أنَّ هنالك فراغاً آخر ، الفراغ الوحيد الذي يوجد في خارطة العالم المدنية والمصيرية ، هو فراغ وجود أمة تحمل الرسالة ، وتحمل السيرة ، تحمل الخلق ، هي صاحبة الإيمان ، صاحبة الجدِّ والصرامة ، صاحبة روح النضال ، صاحبة الفروسية ، صاحبة الإيثار والتضحية.

هذا هو الفراغ الوحيد الموجود الآن في خارطة العالم الإنساني ، ولا يملأ هذا الفراغ إلا المسلم ، ولا تملأ هذا الفراغ إلا الأمَّة العربية الإسلامية. قد كانت رائدة للإنسانية في القرن السابع وما بعده من القرون ، ولا تزل رائدة الرسالة الإسلامية الإنسانية في هذا القرن ، لو عرفت قيمتها ، ولو عرفت منابع قوتها ، ولو عرفت ضخامة رسالتها ، ولو عرفت عظم مسؤوليتها ، ولكننا لاهون ساهون.

متى تنهض الأمة العربية الإسلامية ، وتحمل الرسالة من جديد والنور الوحيد هو نور الإسلام؟ وهو النور الذي لا يزال عند العرب في صفحات القرآن ، وفي صفحات السيرة النبوية ، وإننا أبناء القارة الهندية ، ننظر إلى هذه الجزيرة كأمة رائدة ، كحاملةٍ لهذه الرسالة.

إنني اؤمل في أبنائي طلبة الجامعة ، أن يهيِّؤوا نفوسهم لهذا المنصب الرفيع لمنصب القيادة ، ليكونوا مثلاً كاملاً وقدوةً حسنة صالحة للمتمدنين الذين يتزعمون التمدن والتقدم والتقدمية.

إنني الآن ـ ولو كنت رجلاً صغيراً ـ أمثل الإنسانية ، إنَّ أذني المتواضعة الضعيفة تسمع هواجس النفوس ، وخلجات الضمير الإنساني ، أنا واقف

هنا ، وأسمع ما يجول في خاطر الأوربيين والأمريكيين في أقصى العالم ، ويمكنكم أن تسمعوا كذلك إذا اتصلتم بتيار الحياة.

إنني خصوصاً أوجه كلمتي إلى أبنائي الشباب ، اشحنوا بطاريتكم بالشحنة الإيمانية النبوية الإسلامية ، ووطنوا نفوسكم على الجدِّ والصرامة ، والبطولة والفروسية ، وعلى التسامي على الشهوات والأنانيات ، لا يستعبدكم المال ، ولا تستعبدكم المادة ، ولا تستعبدكم المناصب ، كونوا عبيداً لله تبارك وتعالى حتى يسوغ لكم أن تقولوا: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

والعالم الإنساني مصغ بأذنه ليسمع الكلمات الرنانة الحنانة ، هذه الكلمات التي قسمت التاريخ بين قسم وقسم ، والإنسانية بين شقية وسعيدة. والأمم بين متردية وناجية.

أنتهي بهذا ، وأشكركم أيها السادة مرةً ثانيةً على إتاحة هذه الفرصة الغالية للاجتماع بكم ورؤيتكم هنا ، ورؤية أبنائي الشباب والحديث إليهم في صراحةٍ وصدقٍ وإخلاص.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

شلال الإيمان والإخلاص وكيف يستفاد منه؟

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي بجامعة صنعاء في ١٤/ من شعبان ١٤٠٤ هـ (١٥/ مايو ١٩٨٤ م) أمام جمع حاشدٍ من الطلبة والمثقفين من أهل عاصمة اليمن ، وقد غصَّت القاعة بالحاضرين وامتلأت الساحة الخارجية بالمستمعين. والآن إلى القراء هذه المحاضرة القيمة.

بعد الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله :

سادتي ، وإخواني! لقد تقدمت الصناعة والمخترعات تقدماً كبيراً ، واخترعت الأشياء التي لم تكن تخطر بالبال ، ولكن لم تخترع إلى الآن آلة تكشف عن مدى السرور ، وموجة الفرح التي تغمر القلب ، وليس من الممكن أن يضع الإنسان قلبه أمام الأخوة حتى يعرفوا ما يجيش في القلب ، ولكن بالله الثقة ثم بحبكم وبعاطفتكم الإسلامية في أن تقيسوا ، وتعلموا مدى سروري لرؤية هذه المجموعة الطيبة من الشباب المسلم ، فهم الجيل المرتقب وأمل الإسلام والمسلمين في هذه البلاد .

إخواني! كلكم تعرفون الشلال الذي ينبع من الأرض ، يتدفق بقوة ، وينزل بقوَّةٍ على الأرض ، وهنالك شلالات تتدفق وتنزل منذ آلاف من السنين ، ولكنها لم تستخدم في صالح الإنسانية ، وصالح المدنية ، ومنها ما هو مجهول ، ومنها ما هو مهمل ، إنني زرت «كندا» وزرت «تورنتو» مدينة كندا التي يقع فيها (Niagara Fall) يعني «شلال نياجرة» ، فرأيت العجب ، رأيت هذا الشلال الكبير الذي يعتبر من عجائب العالم السبعة ، ينزل من ارتفاع[(١)] لا يقاس حتى يراه الإنسان ، وهو ينزل على الأرض منذ آلاف من السنين بقوة عجيبة ، ولكن البلاد التي وضع الله فيها هذا الشلال قد وفقت لتستخدم هذا الشلال الطبيعي في صالح الإنسانية ، وفي صالح المدنية ، فتأخذ منه القوة الكهربائية[(٢)] التي تستطيع أن تنير هذه البلاد وتملأها حرارة ودفئاً ، وهنالك طاقات جبارة وثروات هائلة لم ينتفع بها الإنسان بعدُ في كثير من البلدان ، فهي ضائعةٌ ، مهجورةٌ ، مظلومةٌ .

ولكني أريد أن أحدثكم عن شلال لا يقاس به هذا الشلال الكندي في

(١) ينزل هذا الشلال من ارتفاع ١٠٨ متر ، وارتفاع الماء ٥٤ متر .

(٢) ويهيأ منه خمسة ملايين من القدرة الحصانية (Horse power) .

القوة والتأثير ، والفائدة التي تعود على الإنسانية ، ذلك هو شلال الإيمان ، والإخلاص ، والحماس؛ الذي أكرم الله به الأمة الإسلامية بصفة عامة ، وأكرم به بلادكم بصفة خاصة ، وشهد بهذا الاختصاص لسان النبوة الذي كان مجرى الوحي ، لقد شهد بهذا الشلال الإيماني ؛ الذي أكرم الله به القطر اليماني محمدُ بنُ عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي النبي العربي ﷺ بقوله لما جاء وفد من اليمن : «أتاكم أهل اليمن أرق أفئدةً ، وألين قلوباً ، الإيمان يمان والحكمة يمانية»(١) .

إنَّ الدول الكبيرة والبلاد الراقية المتحضرة التي تقود الآن ركب الإنسانية بجدارة أو من غير جدارة ، وبحق أو من غير حق ، والتي تزعمت الحضارة ومصائر الأجيال البشرية ، عندها كل شيء ، ولكنها لا تملك هذا الشلال الإيماني ، إنها تجرَّدت ـ على مدى التاريخ ـ من الإخلاص لله تبارك وتعالى ، ومن التسامي على المصالح الفردية والجماعية والحزبية ، والسياسية المحدودة ، إنها وإن بلغت قمة الرقي والحضارة ، وتملك الشيء الكثير من أسباب الرفاهية ومظاهر المدنية ، والطاقات العلمية والفكرية ، ولكنها لا تملك هذا التدفق الإيماني ، وعمقه ، وأصالته التي يملكها الشعب الإسلامي المؤمن ، ولا تملك سلامة القلوب ، وصفاء الصدور ، والحبَّ البريء البعيد عن الأغراض والفوائد ، والشوق إلى الجنة ، والحنين إلى الشهادة ، والإيمان والاحتساب ، ورجاء الثواب على الأعمال الحسنة ، إنَّ المعسكرين الغربي والشرقي يفترقان في أشياء كثيرة ، ولكنهما يلتقيان على أنَّ زعماءهما وأقطابهما لا يملكون السيطرة على القلوب والحب والاحترام في النفوس ، والولاء الصادق ، البعيد عن الاعتبارات السياسية والمصالح الفردية والجماعية ، والدوافع الدينية النابعة من أعماق القلب لفعل الخير .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي باب «قدوم الأشعريين وأهل اليمن» وفي رواية أخرى للبخاري «والفقه يمان ، والحكمة يمانية» (الجامع الصحيح للبخاري ج/ ٣).

أنا تكلمت على غلوة سهم من البيت الأبيض (White House) في واشنطن ، في أمريكا ، وكنت أتمنى أن يصل صوتي إلى البيت الأبيض وإلى صاحبه ، قلت :

«أيها السادة! إنَّ لكم مساهمة فعالة كبيرة القيمة للنهوض بالشعوب الشرقية ، ولكني أقول لكم : إنَّ هذه الشعوب التي تنفقون عليها ملايين الملايين لا تحبكم ، إنها لا تتمنى لكم السعادة. إنها تتمنى لكم كل عثرة ، وتتربص بكم الدوائر ، وتشمت بكل ما يصيبكم من أحداث ، وتشفي نفسها بذلك. إنها تنعم في ظل مساعداتكم ، ولكنها لا تحفظ لكم هذه اليد ، ولا تعترف بالجميل ، لأنها تصدر عن غير إخلاص ، إنها مساومات سياسية ، واقتصادية ، وتجارية ، فهذه الشعوب تأكل من رفدكم ، وتتطفل على مائدتكم ، ولكنها لا تضمر لكم الإخلاص والحب ، لماذا؟ لأنَّ عطاءكم الحضاري ، وما تغمرون به هذه الشعوب من روافد ، ومن مساعدات لا تصدر عن إخلاص ، لا تصدر عن أعماق القلب. إنها كلها مساومات ، ومبادلات تجارية».

إن الإيمان والحبَّ العميق الذي يضمره الشعب المسلم للقادة المؤمنين الصالحين لا يوجد له مثيل أبداً ، لا في المعسكر الغربي ولا في المعسكر الشرقي ، فهنا نفاق وسياسة فقط. إنَّ هذه البلاد فقيرة مفلسة في هذا الإيمان ، مفلسة في هذا الحب ، مفلسة في هذا الحماس ، إنَّ ذلك أنشطة الدعايات ، والصحافة ، ووسائل الإعلام ، والجامعات ، والمؤسسات ، كلُّ ذلك قد ربط هذه الشعوب برباط صناعي ، لا ثقة به ، إذا استطاعت أن تكسر هذه الأغلال؛ فإنها في أول فرصة تكسرها ، وتقرؤون أخبار الثورات والمؤامرات والمحاولات لقلب الأوضاع كلَّ يوم ، ولكن رباط الإيمان الذي كان يربط الأمة الإسلامية برسولها الأعظم ﷺ ، ثم بالخلفاء الراشدين ، ثم بالقادة المصلحين ، ثم بالعلماء الربانيين ، ثم بالزعماء المخلصين ، هذا الرباط القوي ، الأمين ، الوفي ، العميق ، المحكم لا يوجد له نظير ، وصدق الله العظيم : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : ٦٣].

ولكني أقول لكم والحزن يملأ قلبي : إنَّ هذا الشلال الإيماني الذي أكرم الله به أرض الجزيرة ، أكرم الله به أرض الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، أرض أنصار الرسول ﷺ ، وأرض دعاة الإسلام ، وحملة مشعله في العالم ، إن هذا الشلال من الإيمان والاحتساب، ورجاء الأجر والثواب، والشوق إلى الجنة ، والحنين إلى الشهادة ، والحبِّ لله ولرسوله وللمؤمنين لم يستخدم بعد ، ولم يقتبس منه هذا التيار المضيء المنير ، القوي المفيد ، هذا التيار كان يستطيع أن يملأ العالم كله نوراً وبهاءً ، ويحلّ كلّ مشكلة ، ويتغلبَ على كلِّ معضلة ، ويربط القلوب بعضها ببعض، والشعوب بعضها ببعض، والمجتمعات بعضها ببعض، ويزيل كل مشاكل الإنسانية، ولكنه شلال مظلوم، إنه ضائع من قرون.

إنَّ من المؤسف والمحزن أنَّ كثيراً من قادتنا إلى الآن ما عرفوا مدى قوة هذا الإيمان ، مدى قوة هذا الرباط ، مدى قوة العقيدة الإسلامية ، لم يعرفوا إلى الآن هذه القوة الكامنة في النفوس؛ التي وضعها الله عن طريق الرسالات السماوية ، والنبوات الصادقة بجهود المخلصين في قلوب المؤمنين إلى الآن ، ما عرفوا قيمة هذه الطاقة البشرية الهائلة. إنَّ الطاقة النووية لا تساوي الطاقة التي يحملها قلب المؤمن ، هذه الطاقة التي ولدت عالماً جديداً ، وأرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً. إنها جعلت الأشياء التي كان لا يتخيلها الإنسان حقائق واقعية.

مع الأسف الشديد أنَّ قادة الفكر والرأي في كثير من البلاد الإسلامية لم يكتشفوا بعد هذه الطاقة ، بل إنهم مع الأسف الشديد يمرون في هذه الطاقة أكبر خطرٍ عليهم ، فهم في حرب معها ، وإنهم يعتبرون هذه البقايا الإيمانية التي لا تزال تحملها الأمة الإسلامية رواسب تاريخية ، وقد يسمونها أنقاضاً تاريخية ، وخرائب يجب نقلها وإزالتها ، فأكبر مجهودهم ، وأكبر ذكائهم ، بل وعبقريتهم تصرف إلى نقل هذه «الأنقاض» وإلى الآن لم

ينجحوا في ذلك بل باءت مساعيهم بالفشل والإخفاق؛ لأنهم يعارضون طبيعة الأمة ، ويغالطون نفوسهم في الحقائق ، ويريدون أن يقضوا على مجهودات قرون. إنهم في جهادٍ في غير عدو؛ لأنهم يرون في الإيمان الذي لا يزال الشعب المسلم في بلادهم يحمله ويتصف به الخطر الداهم والعدو المنافس لهم ، مأساة لا أقول مأساة إيمانية فقط ، بل هي مأساة عالمية إنسانية ألا يستفاد من هذه الطاقة.

والله إن شعوبنا المسلمة الوادعة السليمة التي تؤمن بالله ورسوله وتؤمن بأن الآخرة خيرٌ من الأولى ، والتي تؤمن بأن العاقبة للمتقين ، والتي تؤمن بأن النصر للمؤمنين ، والتي تؤمن بأن هذه الدنيا فانية عاجلة ، والتي لا تزال ترى فيما وعد الله به عباده المؤمنين من نعماء الجنة وفضل الشهادة في سبيله ما لا تراه الشعوب الراقية في لذات هذه الدنيا ، وتترنح أعطافها ، وتخفق قلوبها مما يتلى عليها من القرآن ، ويذكر لها من مبشرات الرسول ومواعيده فتنسى نفسها ، وتهب حياتها لله ولرسوله ، إنَّ هذه الشعوب تتصف بصفاتٍ من الرجولة ، والبطولة ، والمروءة ، والفضيلة ، والسمو الخلقي تتجرد عنها غالب الشعوب المتحضرة الآن، إذا رزقت هذه الشعوب قائداً مخلصاً وفياً يعرف قيمة هذه الطاقة ، قيمة هذا الإيمان الذي لا تعطيه إلا النبوات، لا تعطيه إلا التربية الربانية ، لا يعطيه إلا الإخلاص ، إنَّ هذا الإيمان لو كان عشر معشاره عند الأمم الأوربية لجعلت العالم غير العالم ، ولكنها دائماً تنتقل من مشكلة إلى مشكلة ، إنها تنقش الشوكة بالشوكة ، وضلعها معها(كما يقول سيدنا علي بن أبي طالب) ، فتنكسر هذه الشوكة التي استخدمت لإزالة هذه الشوكة ، وتجتمع شوكة بشوكة ، هذه قصة الحضارة الغربية ، لا تحل مشكلة إلا وتواجه عشر مشكلات ، لأنها تحرم ذلك الإيمان وتلك الثقة التي تربط قلب الإنسان بالإنسان ، إنني لا أعرف عالماً بعلم النفس ، وبفلسفة الأخلاق تصور ما قاله القرآن قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] ، هذا غاية ما يتصوره الإنسان ، يعني «المسلم مرآة المسلم» فإذا سمع مسلم عن أخيه المسلم شيئاً يستعرض نفسه أولاً ، ويقول: أنا لا أستطيع أن

أعمله ، أنا أربأ بنفسي ، وبإيماني عن هذه السفالة ، فكيف يصدر ذلك عن أخي المسلم؟! ويبادر ويقول: أنا لا أصدق أنَّ أخي المسلم فعل هذا ، أيُّ مجتمعٍ في التاريخ قام على هذا التصور الرفيع السامي لأعضاء المجتمع الإنسانيِّ؟.

إنَّ قادة الغرب والشرق يريدون أن يملؤوا فراغ الإخلاص بالقوة العسكرية ، وبالمخابرات ، وبالجاسوسية ، فلا يثق إنسان بإنسان في روسيا ، ولا يثق أخ بأخ ، ولا زوج بزوجته ، ولا زوجة بزوج ، قد فقد المجتمع الشيوعي الثقة بالأفراد ، الثقة بأقرب الناس إليهم حتى الجدران لا يأمنونها ، لعل لها آذاناً ، أو سماعات ، ولعلَّ هنالك مسجلات ، لا يستطيع الإنسان أن يتكلم في زاوية من زوايا بيته بسره مثلاً ، أو ينفس عن ضميره الكئيب ، فمن القصص الطريفة: أنَّ كلباً جاء من مثل هذه النواحي ، فقدم له الكلاب بنو جنسه ما عندهم من أنواع الطعام ، فإذا هو غير مقبل على أكل هذا ، يعافه ، يزهد فيه ، فقالوا: لماذا لا تأكل وأنت ضيفنا؟ قال: ما لي حاجة في طعامكم أني أريد أن أنبح ، قد كنت في بلد لا أستطيع أن أنبح فيها ، فأنا جئت هنا لأنبح ، وهو شيء فطري عندي ، فالطعام لا شأن لي به ، ولكني أريد أن أسلي ضميري ، وأرضي طبيعتي.

يا إخواني! اعرفوا نفوسكم قبل أن تعرفوا نفوس غيركم اعرفوا ما أكرمكم الله به من ثروات إيمانية ، ومن خصائص كريمة يمانية ، إذا عرفتم نفوسكم؛ فقد عثرتم على الكنز الدفين ، وعلى شلالٍ قوي ، أقوى شلالٍ في العالم ، هذا الشلال الإيماني الذي تستطيعون ، ويستطيع الذين منحهم الله فرص الاستفادة من هذه البلاد الغنية ، يستطيعون أن يقتبسوا منه التيار الكهربائي الذي يستطيع أن ينير ما حولكم من بلاد الله ، وينير العالم كله ، لقد كان سلفكم هم الذين أناروا العالم؛ لأنهم قد اقتبسوا ، وأخذوا هذا التيار الكهربائي من صدورهم المليئة بالإيمان ، وحملوه إلى أقصىٰ الشرق ، إلى الهند ، جاءنا علماء ربانيون منكم ، فقهاء ، ومحدثون ، ومربُّون ، وأنقذوا الشعب المسلم الهندي من مستنقع الوثنية ، من عبادة البقر ، والشجر ، والنهر ، هـؤلاء كانوا آبـاءكم الغرّ الميـامين ، ونحن

لا نزال متطفلين على مائدتكم ، ولكن اعرفوا نفوسكم أيها الإخوان ، وليعرف قادة البلاد الإسلامية في باكستان ، وفي بنغلاديش ، وفي البلاد العربية ، بصفة خاصة ، ليعرف قادة هذه البلاد ماذا يملكونه في هذه الشعوب ، ماذا يملكونه في بلادهم ، هم دائماً ينظرون إلى الخارج ، ليقتبسوا ثمرات الحضارة الغربية ، والعلوم التطبيقية الميكانيكية ، آلات يستوردونها من الغرب ، ولكن هذه الآلات لا تغير مصير الإنسانية ، ولكنَّ الإيمان الذي تحملونه في قلوبكم يستطيع أن يغير مسيرة الإنسانية ، ومن المجون أن تنسلخ قرونٌ بعد قرون ، وأن تأتي أجيال بعد أجيال ، وهذا الشلال الإيماني لا يستخدم في صالح البشرية ، وفي صالح هذه البلاد ، إنَّ العالم في حاجةٍ اليوم إلى هؤلاء المؤمنين الذين يتدفق الإيمان من صدورهم ، ويفيض على لسانهم ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾ [التحريم : ٨] هؤلاء المؤمنين الذين يتجردون عن الأنانيات ، يتجردون عن القوميات ، يتجردون عن الوطنيات ، يتجردون عن الشهوات ، ويخدمون الإنسانية ، وينقذونها من جديد .

إخواني! إنَّ لسان النبوة لمَّا وصفكم بالإيمان ، والفقه ، والحكمة ، فإنه لا يكون شيئاً موقتاً؛ لأنه إذا جرى وصفٌ أو شهادةٌ على لسان حكيمٍ ، أو مؤرخٍ ، أو بصيرٍ ، أو طبيبٍ ، يكون مقصوراً على ذلك الفرد أو الجيل ، ويكون محدوداً في ذلك الزمان ، ولكنها كلمة النبيِّ الخالد ، النبيِّ العالمي الإنساني ، الذي ختمت به الرسالات ، وأكملت به الأديان والشرائع ، إذا قال : «الإيمان يمان» ، فيجب أن يكون الإيمان يمانياً في كل عصر ، وأنتم بدوركم تغارون على هذه الشهادة والكرامة ، وتحاولون أنَّ ذلك لا يكون مختصاً بزمانٍ دون زمان ، هذه شهادةٌ لكم قائمة مسجلة في التاريخ ، حفظها الحديث النبوي الصحيح ، فيجب عليكم أن تعتزوا بهذه الشهادة .

إنَّ كثيراً من الشعوب الإسلامية مستعدة للمساومة وللمبادلة معكم ، أعطوها هذه الشهادة الإيمانية ، الشهادة بالإيمان ، والفقه ، والحكمة ، وخذوا منها ما شئتم ، وأنا أقول بلسان مسلمي الهند على الأقل ، أقول خذوا منا ما شئتم من مكتبات ، ومن مدارس ، ومن علوم ، ومن ثروات ،

وأعطونا هذه الكرامة التي أكرمكم الله بها: «الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية» ، والله إنَّ كبار الأولياء من هذه الشعوب العجمية مستعدون ليتفاهموا معكم فتعطونهم ، ولكن من المؤسف المحزن أنَّ أكبر جزء من الطاقات البشرية تنفق في إزالة الأنقاض المتخيلة المفروضة.

يا جماعة! إنها ليست أنقاضاً ، إنها أسسٌ صالحة لبناء الإنسانية من جديد ، ولبناء الخلق الكريم والمجتمع الصالح ، إنها أعلام في متاهات الإنسانية ، إنها ليست أنقاضاً ، ليست خرائب قد فقدت قيمتها المعمارية ، فقدت قيمتها الصناعية ، لا ، ولكن كثيرٌ من زعمائنا يتخليون ما يعتزُّ به المسلمون في بلادهم من عقيدةٍ ، وإيمانٍ ، وأخلاقٍ ، ومبادىء ركاماتٍ قد فقدت قيمتها، وانقضى دورها، إنهم يعتقدون: أنَّ الإسلام بطارية قد نفدت شحنتها ، كثيرٌ من هؤلاء يقولون: إن الإسلام قد قام بدورٍ عظيمٍ حين كان الإنسان بدائياً حين كان الإنسان في سن المراهقة الفكرية ، ولكن الآن تقدَّم العالم وتقدَّمت العلوم ، وتقدمت المدنية ، فلا حاجة إليه ، لا يا إخواني! إن هذا الإيمان يستطيع أن ينقذ أمريكا ، يستطيع أن ينقذ روسيا ، يستطيع أن ينقذ الهند البرهمية ، يستطيع أن ينقذ اليابان ، يستطيع أن ينقذ العالم كله ، ولكن الذنب علينا، الذنب على الذين إلى الآن لم يقيسوا هذا الإيمان، وهذه القوة بمقياس صحيح ، ولم يزنوا بالميزان الصحيح الأمين ، ليس هذا الإيمان مجرد كلمة ، لا ، هذا الإيمان يستطيع أن يصنع عجائب كما صنع عجائب من قبل ، ويحلّ كلَّ مشكلات الإنسانية؛ لأن كلَّ مشكلات الإنسانية نبعت عن عبادة النفس ، والشهوات ، نبعت عن الأنانية ، نبعت عن النظر القاصر المحدود ، نبعت عن الحزبية ، نبعت عن شهوة الرئاسة ، والإيمان يستطيع أن يتغلب على كل هذا ، ويصنع من الأمة أمةً جديدةً ، ومن البلاد بلاداً جديدة ، ومن العهد التاريخي عهداً تاريخياً جديداً، ولكن أين الذين هم يستطيعون أن يستخدموه في صالح بلادهم وفي صالح الإنسانية؟

هذا هو الفراغ الأكبر الموجود الآن في المجتمع الإسلامي ، كلُّ شيء مهيَّأ ، وكلُّ شيء موجود ، ولكن لا نجد أحداً يستخدمه ، فأنتم يا أهل اليمن. أيها الإخوة! أنتم تستطيعون أن تفيضوا على العالم الإسلامي إيماناً

جديداً ، العالم الإنساني الآن يلهث ويلهث ، ويقول كما سيقول أهل جهنم «أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله» واذكروا قول الله : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

أنتم أبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، الذين قال رسول الله ﷺ عنهم . «لو سلك الناس شعباً ووادياً وسلك الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار وواديها ، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، والناس شعار والأنصار دثار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»[١]، أين هذه الشهادة الفريدة ، وأين هذه الكرامات المجيدة لأمة من الأمم ، خصَّكم الله ورسوله عليه الصلاة والسلام بهذه الشهادات الخالدة وبهذه الكرامات المطوقة المشرفة ، فعليكم أن تشكروا هذه النعمة الجليلة التي تكادون تنفردون بها ، ولكن المعوَّل على الشيء الذي أشاد به الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا على الموارد ، ولا على التقدم ، ولا على الحضارة ، المعوَّل على الإيمان ، المعوَّل على الفقه ، المعوَّل على الحكمة .

يا شباب الجامعة! أنتم تستطيعون أن يكون دوركم أكبر وأسعد على الإنسانية من دور كولمبس الذي اكتشف العالم الجديد ، قارة أمريكا من غير إرادة ، إذا اكتشفتم العالم الجديد في أمتكم وبلادكم وفي أرجاء العالم الإسلامي ، وانتفعتم بهذا الإيمان الذي أكرم الله به الأمة الإسلامية ، واستخدمتموه في صالح الإنسانية والعالم الإنساني المحتضر ، هذا الإيمان الذي لا يخلقه إلا النبوة ، ولا يخلقه إلا إرادة الله تبارك وتعالى .

هذه كلمتي لكم، وأنا مغتبط مسرور، فالله يعلم مدى سروري برؤية هذه المجموعة الغضة الطرية ، الصافية النقية ، الإيمانية اليمانية ، أقول لكم : اخرجوا إلى عالمٍ جديد، اكتشفوا عالماً جديداً، ولا تقنعوا بالميسور الموجود ، أبحثوا عن الكنوز الدفينة ، والثروات المطمورة في أرض القلوب المؤمنة .

* * *

(١) زاد المعاد.

المسلمون في رباطٍ دائم

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في جامع المظفر وتعز في ١٥/ من شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق ١٦/ من مايو ١٩٨٤ ، بعد صلاة المغرب في جمع حاشد فيه كبار العلماء وأعيان البلد.

سادتي وإخواني! قد قدَّر الله لي تجولاً في صفحات التاريخ ، وتجولاً في البلاد الإسلامية ، وهكذا وفقني الله تبارك وتعالى لأن أجمع بين الجولتين: جولةٍ في التاريخ عن طريق الدراسة والمطالعة وجولةٍ في الأرض الإسلامية بالرحلات العديدة ، والزيارات المتكررة ، فعليّ حقٌّ أن أتحدث إليكم بشيء من تجاربي وانطباعاتي ، وأن أقدم إليكم بعض ملاحظاتي وتوصياتي ، وقديماً قالت العرب: «الرائد لايكذب أهله» فإن لم أكن شيئاً فإني رائدكم ، أنا رائد العالم الإسلامي كله على أساس العقيدة والإيمان ، والحمد لله ، ورائد العالم العربي؛ لأني ألتقي معه ، وأتصل به عن طريق النسب ، واللغة ، والثقافة ، وأقلُّ واجبٍ على الرائد ألا يخفي شيئاً من الحقائق عن الذين وضعوا فيه ثقتهم ، وقلَّدوه هذه الأمانة ، وهذه المسؤولية.

أيها الإخوة الكرام! إنِّي أبدأ حديثي هذا بكلمةٍ سجَّلها التاريخ ، كلمةٍ حكيمة بليغة على مدى الأعصار والأمصار ، وعلى مدار التاريخ ، كلمة قالها الصحابي الجليل والفاتح العظيم عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه ، فاتح مصر ، إنَّه لما شرفه الله بإخضاع مصر ، وبالأصحِّ إدخالها في حظيرة الإسلام ونقلها إلى ظلِّ الإسلام الوارف ، إنَّه لما استطاع أن يفتح هذه البلاد التي استعصت على كثيرٍ من الفاتحين ، ولها تاريخ طويل في تقدم المدنية ، والحضارة ، والعلوم ، وقامت على أرضها حكومات من أقوى الحكومات ، وملكها ملوكٌ خلَّد القرآن بالذكر منهم فرعون ، لما فتح سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ومعه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عددٌ كبيرٌ ومن تبعهم من المسلمين ، كان له كلُّ الحقِّ في أن يطمئنَّ إلى الوضع السياسي ، وإلى الوضع الاستراتيجي ، وإلى الوضع الجغرافي لما دانت له مصر بأرضها ، وخصبها ، وغلاتها ، وخيراتها ، حتى وثقافتها ، وحضارتها ، ولغتها ، تعلمون جميعاً أنَّ مصر من البلاد السعيدة التي قبلت اللغة العربية كلغتها ، والخط العربي والحضارة العربية

الإسلامية ، وكانت كلُّ القرائن ، وكلُّ الشهادات تدلُّ على أنَّ مصر ستظلُّ جزءاً من أجزاء الإمبراطورية الإسلامية ، وكان لا شيء يهدِّد بالخطر ويشكك في مصير مصر ، فلو كان أحد مكانه من الفاتحين الكبار الذين حدّث عنهم التاريخ ، لأثنى على جيشه وشهد له بالفروسية ، والعبقرية ، هنأه على هذا الفتح العظيم ، وطمأنه إلى آخر الدهر ، وقال لهم كونوا على ثقةٍ بأن مصر قد دانت لنا ، وخضعت ، ولا خطر ولا خوف ، انعموا في ظلالها ، واشربوا من ماء النيل ، وسيحوا في الأرض كما شئتم وابنوا فيها قصوراً مشيدة ، واسكنوا فيها كأبناء البلاد ، وسادة البلاد ، وحكامها.

ولكنكم تعلمون ماذا قال هذا الفاتح العظيم؛ الذي شرَّفه الله بصحبة النبي الرسول الأعظم ﷺ ، وألهمه الحكمة والفراسة المؤمنة الصادقة التي حدَّث عنها الرسول ﷺ فقال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ، ماذا قال سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه؟ قال: «إنكم في رباطٍ دائم لكثرة الأعداء حولكم ، وتصرف قلوبهم إليكم». إنَّه قال لهم: لا تخلدوا إلى الراحة ، ولا تضعوا السلاح ، ولا تعتبروا نفوسكم قد نفضتم غبار الغزو ، فلكم الآن كلّ حق في أن تعيشوا عيشة الفاتحين الحكام ، لا! إنكم في رباط دائم ، أنتم محاطون بالأعداء كاللسان في الأسنان ، أنتم حفنةٌ بشرية ، ونقطة مغمورة في هذا البحر الطامي من الأجناس والديانات والحضارات في قارة إفريقية؛ التي تكاد تكون عالماً بمفرده ، فلا مساغ لكم في أن تخلدوا إلى الراحة ، وأن تناموا نوم الفاتحين على أسرة الملوك الباذخين.

هذه وصيةٌ وصَّى بها سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ، يجب أن يحفظها المسلمون ، ويجعلونها نبراساً لهم ، ودستوراً لهم في الحياة ، إنَّ محنة الشعوب الفاتحة والأسر الحاكمة أنها تبدأ حياتها بالتقشف ، والفروسية ، والمغامرات ، وتنتهي بها ـ في فترة قد تطول أحياناً ، وتقصر أحياناً ـ إلى حياة النعومة والفسولة[1] ، وفاكهة وشراب ، وعزف ،

(١) فسل فسلاً وفسالة وفسولةً أي: ضعيفاً ، لا مروءة له ، ولا جلد.

وقصف ، كما قال الشاعر العظيم الدكتور محمد إقبال: «أنا أحكي لك قصة الفتوح ، وقصة الحكومات ورجالها في لفظٍ وجيز: إنهم يبدؤون بالسيف والسلاح وينتهون إلى المزمار والغناء ، تلك بدايتهم ، وهذه نهايتهم ، هذه قصة جميع الحكومات التي قامت على أكتاف هؤلاء الشبان المتقشفين ، الزهّاد ، المغامرين بالنفس والنفيس ، وإلى أي شيء انتهت هذه الحكومات؟ انتهت هذه الحكومات إلى ملوك مرفّهين باذخين ، قد استحوذ عليهم الشيطان واستهوتهم المادّة والشهوات ، وجنَّ جنونهم ، وتفننوا في الألعاب ، والأغاني ، وفي المطاعم ، والمشارب ، وأبعدوا النجعة ، إنَّ القائد الحكيم سيدنا عمرو بن العاص نصح العرب الفاتحين لمصر بأن لا يشتغلوا بالدواب الفارهة ، والقصور الباذخة ، وبالمطاعم اللذيذة الخيالية ، كأنه قال لهم: لا تعيشوا عيشة «ألف ليلة وليلة» ، عيشوا عيشة جدٍّ وصرامة ، عيشة فروسية ورباط ، عيشة مجاهدين مناضلين.

اقرؤوا يا إخواني! تاريخ الحكومة المغولية في الهند التي كانت أكبر الإمبراطوريات في القرن العاشر الهجري على وجه الأرض ، وكانت تلي الدولة العثمانية فقط ، كانت بداية هذا الأمر من «ظهير الدين بابر» ، وكان من الشدَّة والقوة أنه كان يحمل رجلاً على كتفه اليمنى ، ورجلاً على كتفه اليسرى ، ويمشي على السور العالي ، بعد ذلك ، انتقلت الحكومة إلى ابنه نصير الدين «همايون» استمر على شيءٍ من الفروسية مع شيءٍ من تنعم الملوك ، ثم انتقلت الحكومة إلى نجله «جلال الدين أكبر» فكان كذلك ، وكان يقود الجيوش الجرارة ، ثم انتقلت إلى ابنه «نور الدين جهانكير» فتنعم ورقَّ أكثر ، حتى وصل الأمر بعد الإمبراطور شاهجهان الذي بنى «التاج محل» في آكره إلى ابنة الملك الصالح السلطان محيي الدين أورنك زيب عالمكير ، وكان فارساً ، وقائداً محنكاً ، وزاهداً اعتبرة بعض المؤرخين سادس الخلفاء الراشدين ، ثم دبَّ الوهن في هذه الأسرة ، فكانوا مثالاً في الترف ، والبذخ ، وحكاياتهم تشبه الخيال ، فلا يصدِّق الإنسان أنَّ الإنسان يبلغ إلى هذا التفنن الخيالي وإلى هذا الغرام بالملاذ والأغاني؟ فخسروا الدولة ، وضيَّعوا الملك.

وأنتم يا إخواني العرب! تعيشون في قطعةٍ من الأرض تتجه إليها الأنظار لأسباب لا أستطيع أن أشرحها الآن ، ويعرفها المتبصرون الدارسون ، أنتم تعيشون في قطعةٍ قد ركز الأعداء كلَّ جهودهم ، وكلَّ ذكائهم وكل مخططاتهم على إزالتها عن رسالتها وعن شخصيتها الإسلامية العربية ، وعن قيادتها للعالم الإسلامي ، هذه مؤامرة من أخطر المؤامرات التي عرفت في التاريخ ، إنَّ الشعوب على الرغم مما عندها من نظريات مختلفة قد تكون متناقضة تلتقي علىٰ نقطةٍ واحدة ، وهي : القضاء على مكانة الجزيرة العربية ، وقطع صلتها عن الإسلام ، هذا أقوله لكم كرائدٍ لا يكذب أهله ، كرجلٍ زار أوربا وأمريكا ، واطلع على كتب المستشرقين ، وهو متتبعٌ لما يقال وينشر ، ويكتب هنالك ، ثم أقول لكم في ضوء معلوماتي وفي ضوء مشاهداتي: إنه ليس للعالم الخارجي والشعوب والحكومات البعيدة عن هذه الجزيرة هي التي تشكل الخطر على كيان هذا الجزء من الجزيرة العربية وشخصيته ، بل إنكم محاطون بدعوات مناهضة للإسلام ، ومعسكرات تقوم على فلسفات تتناقض مع الإسلام ومع مقومات شخصيتكم ، وجوهر رسالتكم ، ومركزكم في العالم ، فأنتم لا يسوغ لكم أبداً أن تخلدوا إلى الراحة ، وأن تعيشوا عيشة المنعمين المترفين ، أقول لكم بصراحة: الترف هو العامل الأكبر لهدم الحكومات ، وانقراض المدنيات ، وسقوط المجتمعات ، وهو الذي ذمه القرآن ، فيقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦]و«المترفون» كلمة قرآنية تتكرَّر وتتردَّد في القرآن ، وهو يقول: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨] ، الترف والبطر من أقوى العوامل الحضارية ، والنفسية ، والخلقية التي قد قضت على الحكومات المسنة ، الطويلة ، وعلى المدنيات المزدهرة بالزوال ، فلا بدَّ أن ترجعوا إلى حياة البساطة ، وشيءٍ من التقشف ، لا أقول لكم عيشة البدو ، والأعراب الأولين ، وكلوا لحوم الإبل ، واشربوا ألبان الإبل ، ولا تتمتعوا بشيءٍ مما أنعم الله به عليكم ، لا! أنا لا أدعو إلى الرهبانية ، فلا رهبانية في الإسلام ، وأنا

لا أدعو إلى تقشف غير طبيعي ، ولكن إلى شيءٍ من التقشف ، إلى شيءٍ من البساطة ، تحرروا من عاداتكم التي لا تتصورون الحياة واللذة بغيرها ، إنني لا أسمي هذه العادات ، وهذه الهوايات ، ولا أحدِّدها ، فأقلِّل من قيمة حديثي المبدئي العام ، إنما أتركه إلى ذكائكم ، ومعرفتكم بالمجتمع ، وارتباط قلوبكم به ، لا تستأسركم هذه العادات ، والهوايات ، والأعراف والتقاليد حتى تتحكم فيكم ، وتستعبدكم. إن الأمم التي تقوم بدور بناءٍ إيجابي وبدورٍ يذكر في التاريخ لا تكون أسيرةً لعاداتها ، ولا تكون مترفةً مترفهة إلى آخر الحدود ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أبو الأمة ومربيها ، كان يقول للمسلمين: «تمعددوا ، واخشوشنوا ، واخلولقوا ، وانزوا على ظهور الخيل نزواً» يجب عليكم أن تحمدوا الله على نعمه الكثيرة ، وتشكروها وتقدروها قدرها ، ولكن لا تلينوا الحياة ، ولا ترققوها إلى حد لا يمكنكم أن تواجهوا فيه أي محنة وأي شدَّة. إنَّه يا إخواني! ليس عصر «ألف ليلة ولية» ، ليس عصر الأغاني؛ الذي ألفه أبو الفرج الأصفهاني ، ولا عصراً خيالياً ، إنما هو عصر صراع الطاقات الكبيرة ، والمعسكرات العظيمة المقررة للمصير ، أنتم بين فكّي الأسد ، أنتم بين طبقتي الرحى ، لسان بين الأسنان ، وأنتم لا بدَّ لكم أن تحسبوا لهذا الزمان ، ولهذا المكان ، ولهذه الأحوال ، ولهذا الوضع القاسي ، ولهذا الواقع المرّ حسابه.

هذا الذي أريد أن أقول لكم ، كان في إمكاني والحمد لله أن أزيد ثقة إلى ثقتكم ، وأن ترجعوا من هنا مرتاحين فرحين تقولون بشرنا فضيلة الشيخ بشّرنا بكذا وكذا ، وحكى لنا حكايات مثيرة ، حكايات شائقة ، لا! هذا ليس من الأمانة ، إنَّ الإكرام الذي لقيته منكم يملي عليَّ أن أكون صريحاً ، وقد قال رسول الله ﷺ قبل قرون وقرون: «ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب» فكيف بهذا الزمان الذي هو عصر المحن ، والفتن ، وعصر العداء للإسلام ، وعصر المادية الرعناء ، والردَّة الفكرية ، والعقائدية ، أنتم هنا حملة أمانة كبيرة ، وورثة جيل عظيم ، ورثة العلماء الربانيين والأولياء الصالحين ، ورثة الحكام العادلين إلى قرون عديدة ، فيجب لكم أن تسهروا

على هذه الأمانة ، وأن تحسبوا لها كلَّ حساب ، وأن تنظروا إلى الواقع المحيط بكم ، تستعرضوا الوضع السياسي ، الوضع المبدئي ، الوضع الدعوي الذي تعيشونه ، ويعيشه اليمن ، وتعيشه الجزيرة العربية كلها ، وإني أهنئكم بأن الله اختار لكم هذه الأرض الطيبة ، فاحمدوا نعمة الله ، واشكروا الله تبارك وتعالى على هذه النعمة ، ولكن كونوا أكفاء هذه الوراثة ، أكفاء هذه الأمانة ، أكفاء هذه المسؤولية .

* * *

معجزة الإسلام الخالدة

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي في معهد النور في الحديدة ميناء البحر الأحمر في اجتماع عام عقد في الساحة الفسيحة للمعهد ، بعد نشيد الأطفال في الترحيب ، وتعريف الأستاذ عبد الله إبراهيم مدير المعهد بالعلامة الليلة وقصيدة له ، وذلك في ١٦/ من شعبان ١٤٠٤ هـ/ الموافق ١٧/ ٥/ ١٩٨٤ م.

سادتي وإخواني! حضرتني وأنا جالس معكم آيةٌ قرآنيةٌ هي قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، فسَّر كثير من المفسرين هذه الآية بالشرف[1] يقول الله تعالى مخاطباً للعرب الأولين الذين نزل القرآن بلغتهم، وقد خاطبهم القرآن قبل أن يخاطب غيرهم، فقال: لقد أنزلنا أيها العرب المسلمون كتاباً فيه شرفكم، يعني: هذا الكتاب الذين يخلد ذكركم في الدنيا، ويحفظ تاريخكم الجليل، ويقيم للغتكم المحدودة في الجزيرة العربية دولةً عالميةً من أوسع الدول، وأقواها، دولةً لا تقوم على القوة والإرغام، بل على الحبِّ، والطوعية، والعقيدة والإيمان، من أوسع دول اللغات ورقاعها؛ التي عرفت في تاريخ الثقافات، واللغات. ويفرض دراستها، والتوسع، والدقة فيها ـ لأجل هذا القرآن العربي المبين ـ على أبناء العجم الذين يعتزون بلغاتهم، وآدابهم، هذا الكتاب الجليل الذي نزل بلغة الجزيرة العربية على لسان النبيِّ العربيِّ الأميِّ، مطلع صبح صادق في ليلٍ دامسٍ غاسق، ومولد تاريخ جديدٍ للأمة العربية التي مضت عليها قرونٌ وأحقابٌ، فلولا هذا القرآن، ولولا هذه النبوة الأخيرة العالمية التي آثر الله لها الجزيرة العربية؛ كانت الأمة العربية ـ ولا تؤاخذوني أيها الإخوان! ـ مطمورةً مغمورةً في أنقاض التاريخ، وكانت في مؤخر الركب الإنساني، تعاني الفراغ العقلي والعلمي والعزلة والانطواء.

هل كان العرب ـ تصوروا أيها الإخوان! ـ ولو عاشوا مئات السنين، يستطيعون أن ينشروا لغتهم العربية في العالم من أقصاه إلى أقصاه، حتى يأتي رجل وُلِدَ في الهند ـ والهند بلد له لغات وثقافات ومدنية خاصة ـ

---

(١) جاء في تفسير روح المعاني للآلوسي أنَّ فيه ما يوجب الشرف لكم؛ لأنه بلسانكم ومنزل على نبيٍّ منكم، تتشرفون بشرفه؛ وتشتهرون بشهرته، لأنكم حملته، والمرجع في حل معاقده، ج/ ١٧، ص١٤ ـ ١٥.

ويدرس اللغة العربية ويجيدها ثم يأتي إلى زبيد بلدكم ، ويأخذ من علمائها ، وأئمة اللغة والحديث فيها [١] ، ويشتهر بالزبيدي حتى تغلب هذه النسبة على نسبته الوطنية ، ويصبح الكثير من الدارسين والمثقفين لا يعرفون أنه من الهند ، ومن الولاية الشمالية التي أنتمي إليها ، هل تعرفون من هو؟ هو العلامة السيد مرتضى بن محمد الحسيني الزبيدي (١١٤٥ هـ ـ ١٢٠٥) يتناول القاموس المحيط من أشهر المعاجم العربية للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي م ٨١٧ هـ (وهو دفين بزبيد) بالشرح ، ويؤلف «تاج العروس» في عشر مجلدات كوامل[٢] في أربعة عشر عاماً وشهرين ، ولا أعرف في لغة من اللغات التي لي مشاركة فيها ، أو إلمام بها: أنَّ معجماً اعتُني به هذا الاعتناء ، وشُرح هذا الشرح المستفيض ، وجمعت فيه هذه الثروة اللغوية الهائلة ، والتدقيق الذي اتسم به هذا الشرح الكبير ، ويعتبر هذا الكتاب حجة ، ويبلغ من القبول والشهرة حتى يتنافس فيه المتنافسون من أفاضل العلماء ، وكبار الملوك والأمراء ، فاستكتب منه ملك الروم نسخةً ، وسلطان دارفور نسخةً ، وملك المغرب نسخةً ، وطلب منه أمير اللواء محمد بيك أبو الذهب نسخةً ، وجعلها في خزانة كتب مسجده الذي أنشأه بالقرب من الأزهر ، وبذل في تحصيله ألف ريال[٣] .

وكذلك ما الذي جاء بالإمام مجد الدين الفيرزآبادي الذي ذكرته آنفاً ، صاحب «القاموس المحيط» وصاحب «سفر السعادة» ومن كبار القضاة والمؤلفين ، من بلده فيروزآباد في إيران إلى مدينة زبيد في اليمن ، يؤثره بالإقامة ، ويقضي فيه آخر أيام حياته ، ويلقى حِمامه ، ويدفن في أرضه ،

---

(١) من أخصّهم العلامة السيد أحمد بن محمد مقبول الأهدل ومن في طبقته .

(٢) وقد ظهر الكتاب في عشرين جزءاً من الكويت بتحقيق الأستاذ عبد الكريم الغرباوي حديثاً .

(٣) يراجع للتفصيل كتاب «نزهة الخواطر» للعلاّمة عبد الحي الحسني ، المجلد السابع ترجمة العلاّمة السيد مرتضى الزبيدي . طبع في «دار عرفات» برأي بريلي (لكهنؤ) الهند، وفي «دار ابن حزم» ببيروت .

هل شيء غير رابطة الدين ، ورابطة اللغة العربية ، ومكانة زبيد الدينية والعلمية؟

وإلى هذه النقطة لفتُّ النظر وأنا أحاضر في جامعة جنيف بسويسرا في اللغة العربية ، في حفلةٍ عقدت بمناسبة مولد الرسول ﷺ ، وتساءلت وفي الاحتفال عددٌ من كبار الأساتذة والمثقفين ، أليس من معجزات القرآن والإسلام أن هندياً يحاضر في اللغة العربية في عاصمةٍ أوربية ، تصوروا أيها الإخوان العرب!! كيف انتشرت هذه اللغة ، وطبقت الآفاق حتى فاق فيها غير العرب ، لقد كانت الجزيرة العربية رغم سعتها منطوية على نفسها ، منعزلةً عن العالم ، كان فيها شعراء ، وخطباء ، ولكن لم ينبغ فيها شاعرٌ ولا أديبٌ عرفت مكانته في الخارج ، وتوفر كبار الأذكياء ، ونوابغ العلماء على دراسة شعره وشرحه ، ولكن لما منَّ الله على الجزيرة العربية بالبعثة المحمدية ، انطلق الإسلام ، وفتح القلوب ، وسخَّر العقول ، وخرجت اللغة العربية من نطاقها الضيق ـ وإن كان واسعاً ـ إلى خارج الجزيرة ، ونبغ فيها باحثون ، وعلماء ، ومحققون .

وفي إحدى زياراتي(١) سألت العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي(٢) صاحب «سمط اللآلىء» و«أبو العلاء وما إليه» ، وأحد أعضاء لجنة تصحيح «لسان العرب لابن منظور» كم تحفظ من شعر العرب؟ فوقف ثواني ، ثم قال : بين خمسةٍ وسبعين ألف ومئة ألف من الأبيات ، ولم يكن في ذلك مبالغاً ، ومجازفاً بالقول ، يعرف ذلك تلاميذه ، والذين عرفوه ، فهل يوجد مثال لذلك في أيِّ لغة من لغات العالم يدرسها أجنبي ، فيحفظ منها هذا العدد الكبير من أبياتها؟ .

---

(١) كان ذلك في يوليو سنة ١٩٧٨ في كراتشي باكستان . انظر : «رحلات العلامة أبي الحسن الندوي» طبع في «دار ابن كثير » دمشق ـ بيروت .

(٢) توفي بكراتشي في نوفمبر ١٩٧٨ م . انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» طبع في «دار ابن كثير» بدمشق .

ونزول القرآن باللغة العربية سرٌّ بقاء اللغة وانتشارها كما قرره الكاتب المسيحي جرجي زيدان ، وقاله كثير من الباحثين.

قبل قرن كان الإنجليز يحكمون الهند ، وكان أبناء شبة القارة الهندية يتظرفون ، ويتنبلون بدراسة اللغة الإنجليزية والمهارة فيها ، بها يكتبون ويخطبون ، وفيها يؤلفون ويدرسون ، ولكن لما خرج الإنجليز من الهند بدأ الناس يكرهون اللغة الإنجليزية ويعتبرونها رمزاً للاستعمار ، وبدأت حركة محو الخط الإنجليزي والحروف الإنجليزية من الألواح واللافتات ، وقد حكم المغول الهند مدة ثلاث قرون ، وكانت لغتهم القومية التركية ، ولكن اندرست هذه اللغة وجهلت بعد انقراض الحكم المغولي ، وهكذا فقدت اللغة الفارسية التي كانت لغة الديوان الشيء الكثير من أهميتها ، والعناية بها ، ولكن المسلمين في شبه القارة لا يزالون متمسكين باللغة العربية ، محتفظين بها ، لهم مدارس تعلم اللغة العربية ، والعلوم الدينية تعد بالآلاف؛ لأنها لغة القرآن ومفتاح كنوز السنة ، ومدخل المكتبة الإسلامية العربية ، ولغة نبيهم وصحابته.

يوصي كبار علماء الهند ، وقادة الإصلاح والتجديد في هذه القارة بالعناية باللغة العربية ، والاعتزاز بها ، والحرص على معرفتها ودراستها ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي المتوفى ١١٧٦ هـ في رسالته التي أسماها: «المقالة الوضيئة في النصيحة والوصية»:

«نحن رجال غرباء ، هاجر آباؤنا إلى الهند ، وإنّ عربية النسب ، وعربية اللسان مفخرتان لنا ، وهي التي تقربنا إلى سيد الأولين والآخرين ، وأفضل الأنبياء والمرسلين ، ومفخرة الوجود ﷺ. . . السعيد منا من حصلت له مشاركة في لسان العرب والصرف والنحو ، وكتب الأدب ، واطّلع على الحديث والقرآن ولا بد لنا من حضور الحرمين الشريفين ، وتعلق القلب بهما ، وفي ذلك سرُّ سعادتنا ، والشقي من أعرض عنهما».

أين رابطة الشعوب والبلاد بلغات حكامهم ومستعمريهم ، أو باللغات

التي لا يتصلون بها إلا عن طريق السياسة ، أو الثقافة ، أو الاقتصاد؛ من هذه الرابطة التي تقوم على العقيدة ، والإيمان ، والحبِّ ، والغرام ، ولا تستطيعون أيها الإخوان أن تقدروا مدى حب أهل الهند من المسلمين ومسلمي أنحاء العالم الإسلامي الأخرى لكم ، وتقديرهم لدوركم في التاريخ ، ومدى احترامهم للغتكم ، وثقافتكم ، إنه هو الحب الخالص الذي يقول الله تعالى عنه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آل عمران: ٦٣].

ولذلك لما سمح بالأذان باللغة العربية في تركيا ـ كان ذلك ممنوعاً في عهد أتاترك ـ خرج الأتراك من بيوتهم وبدؤوا يرقصون فرحاً ، وذبحت مئاتٌ من النعاج شكراً وسروراً بأنَّ الله مدَّ في حياتهم حتى أدركوا هذا اليوم السعيد ، وسمعوا الأذان العربي في لغة نبيهم التي كان يؤذن فيها بلال ، وأبو محذورة وابن أم مكتوم ، والذي كان يدوي على منائر مساجدهم قبل أن يصدر هذا الحكم القاسي السفيه.

هذا هو الرباط الذي يربط الشعوب بكم ، وهو الذين يضمره قلوب غير العرب لكم ، وهو نابع عن شعورٍ واحد ، وهو الشعور بعظم نعمة الإسلام وضخامتها التي جاءتهم عن طريقكم ، إنهم ينظرون إليكم كحامل رسالة الإسلام ، وناقل التعاليم الإسلامية ، ينظرون إليكم كالمنقذ من الضلال ، وكالمخرج من الظلمات ، ذلك الذي رفعكم أيها العرب إلى مستوى القيادة العالمية ، فهل تتخلون عن هذه المنزلة الرفيعة ، وتنزلون إلى مستوى القيادة العالمية ، فهل تتخلون عن هذه المنزلة الرفيعة ، وتنزلون إلى مستوى القوميات والعصبيات ، والنظريات الضيقة ، والقوانين التي تغيَّر صباح ومساء؟

نذكركم يا أبناء اليمن ، ويا أبناء الأنصار! ما سجله الحديث الصحيح من حوار دار بين رسول الله ﷺ والأنصار ، حين تقاول بعض شبابهم في أنَّ الرسول آثر بأكبر الغنائم رجال قريش من المؤلفة قلوبهم ، فجمعهم رسول الله ﷺ في حظيرةٍ ، وقال لهم:

«يا معشر الأنصار! ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً ، فهداكم الله بي ، وعالةً ، فأغناكم الله بي ، وأعداءً ، فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا : الله ورسوله أمنُّ وأفضل . ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنُّ والفضل ، قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتكم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك ، وأوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعةٍ من الدنيا ، تألّفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ ، فوالذي نفس محمّدٍ بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وادياً ، وسلكت الأنصار شعباً وواديا لسلكت شعب الأنصار وواديها .

الأنصار شعار والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً» .

والزمان قد استدار كهيئته يوم كان الخيار بين الغنائم وبين رسول الله ﷺ ، فأعلن الأنصار «رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً» وتقوم معركةٌ جديدةٌ بين المعسكرات والدعوات ، والنظم ، والفلسفات ، وتعقد ألويةٌ جديدةٌ يرفعها قادة الجاهلية الجديدة ، وزعماء الثورة على الإسلام ، فليكن هتافكم في هذا المنزل الجديد ، والتخيير الجديد بين أتباع الإسلام ، والانضواء إلى راية محمَّد عليه السلام وبين الانضواء إلى رايات منافسيه ، ليكن هتافكم في هذا : «رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً» .

وأنتم أبناء أبناء الأنصار ، وأبناء أولئك البررة الذين شهد لهم لسان النبوة بالإيمان ، والفقه ، والحكمة ، وكفى به فخراً وشرفاً .

أكتفي بهذا وأشكر منظمي هذا اللقاء العظيم ، والذين جاؤوا من أماكن بعيدة ، وسمعوا هذا الحديث بآذانٍ صاغيةٍ ، وقلوبٍ واعيةٍ ، وأحمد الله

تبارك وتعالى على أنه كتب لي هذه الزيارة لهذه الأرض الطيبة الحبيبة ، وحقق لي الأمنية العزيزة القديمة التي راودتني وخامرت قلبي منذ أعوام طوال ، لما بيني وبين اليمن الميمون ـ وقد اعتاد كثيرٌ من علماء الهند ألا يذكرون اليمن إلا مقروناً بالميمون ـ من صلاتٍ ثقافية[1] ، وروابط دينية وعلمية ، فله الحمد في الأولى والآخرة.

* * *

(١) تتلمذ العلامة الندوي على الشيخ خليل بن محمد بن حسين الأنصاري اليماني الّذي كان من أبناء الحديدة في اليمن ، وتخرَّج عليه في اللغة العربية والأدب العربي ، وشيخه العلامة حيدر حسن شيخ الحديث في دار العلوم ندوة العلماء ووالده العلامة عبد الحي الحسني ، تلميذان للعلامة حسين بن محسن الأنصاري السبيعي اليماني في الحديث ، وهو من مواليد الحديدة ، وتلاميذ الشيخ أحمد بن محمد بن علي الشوكاني (وهو تلميذ والده الإمام محمد بن علي الشوكاني صاحب «نيل الأوطار») وتلميذ العلامة المحقق محمد بن ناصر الحسيني الحازمي ، وقد انتقل إلى بهوفال ، وشمّر عن ساق الجدِّ في نشر الحديث وتدريسه ، أخذ عنه عددٌ كبير من كبار العلماء والأساتذة ، كالعلامة السيد صديق حسن أمير بهوفال ، والشيخ محمد بشير السهسواني ، والشيخ شمس الحق الديانوي ، وغيرهم ، كانت وفاته سنة ١٣٢٧ هـ.

مـصـدر قُـوة الـمُسْلِـم

هذا الحديث ألقاه العلامة الندوي في لواء المدرعات بصنعاء صباح ١٩/ من شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٠/ مايو ١٩٨٤ م ، ونُقِل من الشريط المسجّل .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

إخواني الأعزاء! تعلمون جميعاً وأنتم والحمد لله مثقفون متعلمون أبناء هذه التربة الكريمة الندية، الإيمانية اليمنية أنَّ الدعوة الإسلامية قامت على أكتاف البشر، والفتوح، والانتصارات التي تحققت وتمت في الشرق والغرب إنما تحققت على أيدي بني آدم، لم يكن الأمر أنَّ المسلمين كانوا من جنس الجنِّ، أو الملائكة، ومنافسوهم كانوا من البشر، لا! كلُّهم بنو آدم، وكلُّهم من لحم ودم، وكلُّهم كانوا يحملون أجساماً خاضعة لناموس السنن الإلهية، والطبيعة البشرية، تجرح وتكلم، وتتأذّى، وتتألم. هم في ذلك سواء، فإذا قسنا هذه الأجسام البشرية، وهذه المواد الإنسانية بمقياس الطبيعة، كانوا سواءً في ذلك.

ولكنَّ الله سبحانه وتعالى يقول للمسلمين ويعلمهم كما يعلم الأستاذ الكبير، والمربي العطوف الأطفال الصغار: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ ﴾ [النساء: ١٠٤]، تقولون: لا قِبل لنا بالأعداء، فإنا نحمل أجساماً بشرية تتأذى، وتتألم، وتصيبها جراحات وكلم، فيقول الله تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ ﴾ [النساء: ١٠٤]، يعني: إن كنتم تشعرون بالألم، فإنَّ منافسيكم كذلك يشعرون بالألم، فإنهم يحملون أجساماً بشرية مثلكم.

ولكن هنالك فرقٌ كبير، وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجو هؤلاء، إنكم ترجون عند الله الثواب العظيم، إنكم تؤمنون بأنكم إذا متم في ساحة القتال؛ فأنتم من الشهداء الذين يقول الله تبارك وتعالى عنهم ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤] ويقول: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

﴿يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠] ، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

ويقول رسول الله ﷺ: «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما في الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة»[١] ، ويقول: «والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم وريحه ريح مسك».

وفيه أنه قال: «والذي نفس محمد بيديه لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل[٢] ، ويقول: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»[٣] ، وفي روايةٍ: «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[٤] ، وقال: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع على عبدٍ غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم»[٥].

وتؤمنون بأنَّ كلَّ جراحةٍ تصيبكم إنما هي في سبيل الله ، وكلَّ قطرةٍ من دمائكم تسيل على الأرض تغير مصائر الأمم ، وتنقل الناس من الظلمات إلى النور وأنتم تقضون على شقاء الإنسانية ، وعلى شقاء الأمم ، إنما خرجتم لنشر هداية الله ، وإنقاذ البشرية كما قال سيدنا ربعي بن عامر لرستم قائد قواد الفرس حين قال له: ما الذي جاء بكم؟: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[٦].

ما أعظم هذا الفارق! وما أكبره تأثيراً على المشاعر ومنهج التفكير ،

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم وروى البخاري بعضه.
(٣) رواه مسلم.
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه الترمذي.
(٦) البداية والنهاية.

وإثارة القوة المعنوية التي هي أكبر من قوة السلاح ، وقوة الأجسام ، بل أعظم من الطاقة الذرية ، والتي انتصر بها العدد القليل على العدد الكبير ، والإنسان الضعيف على الإنسان القوي مئاتٍ وآلافاً من المرات في تاريخ الحروب والغزوات ، فإذا أصابكم ألمٌ؛ فقولوا: هذا في سبيل الله ، فلا يهون هذا الألم فقط ، بل ينتقل إلى لذةٍ وعزَّةٍ. وقد دميت إصبع رسول الله ﷺ في القتال فتمثل بهذا البيت :

هــل أنــت إلا إصبــع دميــت وفــي سبيــل الله مــا لقيــت[(١)]

إنَّ عقيدة الإيمان ، وعقيدة الثواب والأجر ، والشوق إلى الجنة ، والحنين إلى الشهادة ، يأتي بعجائب لا يتصورها العقل ، ويحدث نشوة الإيمان التي تقضي على ألم الجراح ، وقد روى التاريخ أنَّ جعفر بن أبي طالب أخذ راية رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة[(٢)] ، فقاتل بها حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه ، فعقرها ، ثم قاتل ، فقطعت يمينه ، فأخذ الراية بيساره ، فقطعت يساره ، فاحتضن الراية بعضديه حتى قتل ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ، ما بين ضربةٍ بالسيف ، وطعنةٍ بالرمح ، كلُّها في الأمام ، ومات فتى الفتيان وهو يحنُّ إلى الجنة ، ويتغنى بنعمائها ، يستهين بالعدد والعدد وبزخارف الدنيا[(٣)] .

هل يتصور هذا من غير عقيدة تتغلغل في الأحشاء ، ونشوةٍ إيمانيةٍ تسري في العروق ، ولذةٍ روحية تتغلب على الشعور بالألم؟ .

وأنا أروي لكم ثلاث حكايات ونماذج من هذا الإيمان من عصر الرسالة ، وحياة الصحابة ، ثم أضمُّ إليها ثلاث حكايات من تاريخ الجهاد والدعوة الإسلامية في القرن الثالث عشر الهجري في عصرٍ متأخرٍ عن عصر النبوة ، وفي ناحيةٍ بعيدةٍ ـ شبه القارة الهندية ـ عن مركز الإسلام ، ومهبط

---

(١) في الصحيحين.

(٢) كانت في السنة الثامنة للهجرة.

(٣) ابن كثير ، ج/ ٣ ، ص/ ٤٧٤ ، وزاد المعاد ج/ ١ ، ص/ ٤١٥ .

الوحي ، ومنزل القرآن؛ لتعرفوا أنَّ تاريخ الإيمان متصل ، وأنَّ شجرة التربية الإسلامية تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها ، وخليةَ الإسلام تعسل في كلِّ مكان وزمان.

فمن حكايات عصر النبوة: لما تراجع المسلمون يوم أحد تقدَّم أنس بن النضر ، فلقيه سعد بن معاذ ، فقال: أين يا أبا عمر؟ ، فقال أنس: واهاً لريح الجنة يا سعد! إنِّي أجدها دون أحد[١] ، ويقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ كيف تجدك؟ قال فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، فقلت: يا سعد! إنَّ رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ ، فقال: وعلى رسول الله السلام ، وقل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار: لا عذرَ لكم عند الله إنْ خلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف. وفاضت نفسه في وقته[٢].

والحكاية الثالثة هي حكاية خبيب رضي الله عنه ، لما جاؤوا به ليصلبوه ـ وذلك في سنة ثلاثٍ للهجرة في الرجيع[٣] ـ قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين؛ ففعلوا! قالوا: دونك فاركع! فركع ركعتين أتمهما ، وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم ، فقال: أما والله لو لا أن تظنوا أني طولتهما جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة! وأنشد بيتين:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شقٍّ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوٍ ممزَّع[٤]

ولقائل أن يقول: أنت تحدثنا عن عصرٍ كله سعادة وبركة ، وعن أناس

(١) زاد المعاد ج/ ١ ، ص/ ٣٥٥ وأصل الرواية في الصحيحين.
(٢) أيضاً ص/ ٣٥٣.
(٣) وهو موضع بين عسفان ومكة.
(٤) رواه البخاري في كتاب المغازي ، وراجع للتفصيل سيرة ابن هشام ق/ ٣ ، ص/ ١٦٩ ـ ١٧٦.

نشؤوا في أحضان النبوة ، وفي مدرسة القرآن ، والإيمان ، وكيف يتوقع مثل هذه النفحات الإيمانية من رجال تأخر عصرهم وبَعُدَ مصرهم ، واختلفت بيئتهم ، فإني أعرض عليكم ثلاثة نماذج من هذا الإيمان والبطولة ملتقطةً من تاريخ حركة الجهاد والإصلاح التي قادها السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) في شبه القارة الهندية[١] ، يقول المؤرخ :

رجع المسلمون من ساحة القتال في «مهيار» ظافرين ، وقد اغبرت وجوههم ، وثيابهم من النقع ، حتى تقنعت وجوههم ، وتنكَّروا ، وقام الرئيس بهرام خان بالمنديل ينفض النقع عن وجه السيد الإمام ، فقال السيد : مهلاً يا أخا الأفغان مهلاً! فإنَّ هذا النقع هو الغبار الذي قال فيه النبيُّ ﷺ : «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»[٢] ، وما جئنا إلى هنا ، وما تحمَّلنا المشاقَّ إلا لأجل هذا الغبار ، مهلاً يا أخا الأفغان مهلاً! ومكث المجاهدون ولم ينفضوا عنهم الغبار في ذلك الحين .

والحكاية الثانية حكاية أحد المشاركين في هذه الغزوات الإسلامية : يقول فتح علي العظيم آبادي : بينما أنا أمرُّ بين القتلى والجرحى إذا بالسيد أبي محمد يجود بنفسه ، وقد أثخنته الجراح ، فدنوت منه وصرخت في أذنه : يا أبا محمد! إنَّ الله قد نصر أمير المؤمنين ، وهزم الأعداء ، ولم يلتفت أبو محمد ، ولم يتكلم ، وما زال يلحس شفتيه ويقول : «الحمد لله ، الحمد لله» فحملته إلى القرية ، وبه رمق ونَفَسٌ يتردد ، وهو يلحس شفتيه ، ويحمد الله ، وما لبث أن لفظ نفسه الأخير .

والحكاية الأخيرة : أنَّ القاضي الإنجليزي (أيدورس) أصدر حكم الإعدام (الموت شنقاً) على الشيخ محمد جعفر[٣] في محاكمة أنباله في

---

(١) راجع للاطلاع على هذه الحركة العظيمة الفريدة ودوافعها وتفاصيلها في كتاب العلامة الندوي «إذا هبَّت ريح الإيمان» طبع دار ابن كثير دمشق ، والمجمع الإسلامي العلمي ، بلكهنؤ (الهند) .

(٢) في السنن .

(٣) كان من كبار أنصار السيد الإمام وأتباعه ومن المنظمين لبعث الإمداد والمساعدين إلى مركز المجاهدين في الحدود الغربية الشمالية عن الهند .

٢ من مايو ١٨٦٤ م (١٢٨٠ هـ) وقال: ها أنا ذا أحكم عليك بالإعدام، ومصادرة جميع ما تملكه من مالٍ وعقار، ولا يسلَّم جسدُك بعد الشنق إلى ورثتك بل تدفن في مقبرة الأشقياء بكل أمانة، وسأكون سعيداً مسروراً حين أراك معلقاً مشنوقاً، ولكنَّ محمد جعفر استبشر حين سمع هذا، وتهلَّل وجهه فرحاً، كأنما مثلت له الجنة، وتمثلت له الحور، والقصور، وتمثَّل ببيت الشاعر:

هـذا الـذي كـانـت الأيـام تنتظـر فليـوف الله أقـوام بمـا نـذروا

هنا تقدم ضابط إنجليزي، وقال: لم أر كاليوم، قد حكم عليك بالإعدام وأنت مسرور مستبشر؟ قال محمد جعفر: وما لي لا أفرح، ولا أستبشر، وقد رزقني الله الشهادة في سبيله؟، وأنت يا مسكين! لا تدري حلاوتها.

وكذلك كان مولانا يحيى علي؛ الذي حكم عليه بالإعدام كذلك، فكان من أشدِّ الناس فرحاً، كأنه من شوق الجنة في الجنة، ومن انتظار النعيم في النعيم، ينشد الأبيات في حنين، ووجد يتمثل بما قال سيدنا خبيب رضي الله عنه عند شنقه[١].

ولكن هذا الفارق لا يأتي إلا عن طريق الرسالة السماوية وعن طريق الإيمان، والعقيدة، وعن طريق التربية الإسلامية، وعن طريق القيادة الإيمانية والشخصية القوية القيادية. إنَّ هذا فارق لا يشارككم فيه شعب، ولا جيش من الجيوش، ولا شباب من الشباب المسلمين المقاتلين، وما هزم المسلمون، ونكبوا بالنكبات الأخيرة، وفقدوا المراكز القيادية في العالم، وخسروا بلادهم، ودولهم، وما ذلوا، وما هانوا إلا حين ضعفوا في هذه القوة المعنوية، وفقدوها على مرِّ الأيام، ولا تمكن استعادة هذا المركز وهذه المهابة في القلوب، والرجحان في كفتين متساويتين في العدد والعدد، إلا باستعادة هذه القوة والشحنة الإيمانية والتربية الإسلامية، واستحضار فضائل الجهاد والشهادة في سبيل الله، ومدارستها.

---

(١) وقد مر البيتان.

والشيء الثاني هو تجنب ما يبعد عن نصر الله ، ويعرض لسخط الله ، وقد روي: أن الأمراء في اليرموك لما كتبوا إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم ، وما يقابلونه من خطرٍ داهمٍ ، وعددٍ لا قبل لهم به ، كتبا إليهم: أن اجتمعوا ، وكونوا جنداً واحداً ، والقَوا جنود المشركين ، فأنتم أنصار الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من خذله ، ولن يؤتى مثلُكم عن قلة ، ولكن من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا منها.

ولما أمر سعد بن أبي وقاص جيشه بعبور دجلة ، وليست هنالك سفن ولا جسر ، والعرب لا عهد لهم بالسباحة وعبور الأنهار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرنَّ الله وليه ، وليظهرنَّ الله دينه ، إن لم يكن في الجيش بغي ، أو ذنوب تغلب الحسنات[١].

وكتب سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيشه ، قال فيه: وآمره ألا يكون من شيءٍ من عدوه أشد احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله ، فإنَّ الذنوب أخوفُ عندي على الناس من مكيدة عدوهم ، وإنما نعادي عدونا ، ونُنصر عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوةٌ بهم؛ لأنَّ عددنا ليس كعددهم ، ولا عدَّة كعدتهم ، فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا في القوة والعدد ، فإن لا ننصر عليهم بحقنا؛ لا نغلبهم بقوتنا ، ولا تكونوا بعداوة أحدٍ من الناس أحذر منكم لذنوبكم ، ولا تكونوا بالقدوة لكم أشد تعاهداً منكم لذنوبكم[٢].

هذا هو الفارق النفسي العميق ، الطبيعي الدقيق ، بين مقاتل لغرضٍ مادِّي ، أو لمجرد نظامٍ عسكري ، وخضوعٍ لما يصدر من القيادة من تعليمات ، وترتيبات ، وبين من يقاتل في سبيل العقيدة وفي سبيل الإيمان ، وتصديق ما جاء من الله ورسوله من وعدٍ وأخبار. يتمثل ذلك في

---

(١) البداية والنهاية ج٢٧ ، ص٦٥.

(٢) سيرة ابن عبد العزيز لأبي محمد عبد الله بن حكم المتوفى ٣١٤ هـ.

ما روي في تاريخ الغزوات الشامية ، أنَّ رجلاً جاء إلى أبي عبيدة يوم اليرموك ، وهو قائد الجيش الإسلامي ، فقال : إني قد تهيَّأت لأمري ، فهل من حاجة إلى رسول الله ﷺ؟ قال : نعم ، تقرئه عني السلام ، وتقول يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً[١] .

ما أرسخ هذا اليقين ، وما أشد هذا الإيمان بأنه سيلقى الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا يقلُّ هذا الإيمان من إيمان رجلٍ يخبره له بأنه مسافر إلى مصر ، أو إلى الهند ، أو إلى الحجاز ، فيحمله رسالة إلى أسرته ، بل يخامر ذلك عشرة شكوك ، لعله يعدل عن السفر ، أو يتوجه إلى جهةٍ أخرى ، أو يموت في الطريق ، أو لا يقابل أعضاء أسرته ، أو ينسى الرسالة ، ولكن إيمان المسلم الذي يتهيأ للقتال بلقاء الرسول ﷺ وثقةُ أبي عبيدة بهذا اللقاء أعظم وأقوى من ثقتنا باتجاه أحدنا إلى بلد من البلدان ووصوله إليه .

وهذا الفارق النفسي يتجلى فيما ينقل من حوار بين كلب صيد ـ الكلب المعلَّم ـ وغزال ، قال الكلب للغزال : لماذا لا ألحقك يا غزال ، وأنا مضرب المثل في العدو والجري وقد مرنت على هذا ودربت ، ولكني لا أدركك؟! قال : لأنك تعدو لسيدك ، وأنا أعدو لنفسي . وشتان بين من يعمل عملاً ميكانيكياً لا دافع فيه ، ولا لذة ، ولا إيمان فيه ، ولا عقيدة ، وبين من يعمل مدفوعاً من عقيدته ، ومنبعثاً من أعماق نفسه ، ومن أعماق العقيدة الراسخة ، والإيمان الجازم ، وعن تمثلٍ للجنة ، واستنشاق أريجها ، وتنسم نفحاتها ، وطمعٍ في أجر الآخرة والقبول عند الله .

* * *

(١) البداية والنهاية ، ج٧ ، ص١٣ .

دَرسٌ مـن قَـوم سَبَـأ

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في جامع المشهد بصنعاء في ١٩/ من شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق ٣٠/ مايو ١٩٨٤ م ، في حفل كبير مَلأَ أرجاء الجامع الكبير.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩].

سادتي وإخواني! إنني سعيدٌ ومغتبطٌ برؤية هذه الوجوه النيرة المشرقة؛ التي اجتمعت في بيتٍ من بيوت الله لسماع حديثٍ من أخٍ مسلمٍ ناءت به الديار، وحالت بينهم وبينه البحار، ولا يعرفون عنه إلا ما قيل الآن، وإلا ما عرفوه من خلال كتاباته المتواضعة، إنَّ هذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنه يدلُّ على القوة التي لا تزال كامنةً في الإخاء الإسلامي، كامنةً في الرابطة التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، على بعد الدار، وحيلولة البحار، وقلة المزار.

إخواني! إنَّ الواقع أنَّ الجو الذي أتحدث فيه كان يفرض علي أن أبدأ بشيءٍ يبشركم، ويسركم، ويسرني، ولست الرجل المتشائم ـ والحمد لله ـ إني بفضل الله تبارك وتعالى وبفضل هذا الدين الذي أدين به وتدينون به قوي الثقة، كبير الأمل في نصر الله تبارك وتعالى، وفي صلاحية هذه الرسالة، وخلودها، وإني والحمد لله متفائل، ومستبشر، ولكن قرأت هذه الآيات لنلقي منها درساً، والرسول كان بشيراً ونذيراً، والقرآن فيه البشارة والإنذار، وقد حكى الله سبحانه وتعالى حكايات الأمم السالفة والحضارات البائدة، والمجتمعات المندثرة لتكون عبرةً لنا جميعاً، ولنتلقى منها دروساً، وقد ضرب الله الأمثال، وعرض النماذج المختلفة لأنَّ فيها عبرة ودرساً.

هذه الآيات التي تلوتها عليكم لها نسبٌ جغرافيٌّ وتاريخيٌّ[(١)] ـ لا أقول:

---

(١) تقع مأرب عاصمة مملكة سبأ في شرقي صنعاء على مسافة ١٧٣ كم منها، وكانت سبأ هي أقدم الدول اليمنية القديمة وأخلدها ذكراً، ومنها تسلسلت أنساب حمير وكهلان. =

نسبٌ آخر ـ لبلادكم ، وهي موضع العبرة ، لا لكم أيها الإخوان اليمنيون! بل هي موضع عبرة ودرس لكلِّ مجتمع إنسانيٍّ ، ولكلِّ بلدٍ مسلم وغير مسلم ، فإنَّ هذه الآيات تعرض علينا حقيقةً عالميةً خالدةً ، حقيقةً نفسية إنسانية ، حقيقةً تستحق التأمُّل والدراسة ، هي حقيقة أنَّ الإنسان يسأم ، ويضيق صدره ، ويتخم من نوعٍ واحد ، وإن كان هذا النوع النوع السامي الرفيع ، النوع الذي يتهالك عليه ويتقاتل في سبيله العقلاء ، والملوك ، والأمراء.

ولكن من مواضع الضعف في الطبيعة الإنسانية أنَّه إذا خُصَّ بنوعٍ خاص ، بنوعٍ لذيذٍ عزيزٍ ، كريم جميل ، ودام هذا النوع زمناً؛ فإنَّه يسأمه ، ويضيق صدره منه ، كما أنَّ الإنسان يتخم من مأكولات ، فيعافها ، ويزهد فيها. كذلك الإنسان يتخم بالنِّعم ، وهذا الذي وصفه الله تبارك وتعالى بالكلمة البليغة «البطر» : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، لم تكن فقيرة ، ولكن قد تضخَّم فيها الغنى ، وتضخَّمت فيها الثروات ، وتوفَّرت وسائل الرفاهية والنعمة ، فبطرت معيشتها ، واشتهت نوعاً آخر ، وإن كان نوعاً قاسياً يزهد فيه الإنسان العادي الذي رزق سلامة الفطرة ، وصحة الفكرة ، ولكن من خصائص الإنسان ، ومن مواضع الضعف في الفطرة الإنسانية : أنَّه إذا طال أمده بجوٍّ خاصٍّ ، ووضعٍ خاصٍّ؛ اشتهى نوعاً آخر ، وقال : قد سئمنا هذا الرَّخاء ، وهذا التوسع في المطاعم والمشارب ، وهذه النعم التي تغدق علينا صباح مساء ، والتي تنقلب في أعطافها ، وتتأرجح في أرجوحتها ، وتنعم في ظلالها ، لا حاجة لنا في هذه النعم ، نريد تجربة أخرى ، نريد التقشف ، والمشقة ، والتعب.

هذا موضع ضعف في الطبيعة البشرية ، كانت ولا تزال وقد حذَّر الله منها ، إنه دائماً يحثُّ على الشكر على النعمة ، حتى يقول لرسوله الحبيب : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١١] ، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، هنا قصَّ الله علينا قصة قوم سبأ ، وقصة قوم سبأ هي القصة الخالدة التي تصور جانباً دقيقاً عميقاً من جوانب الطبيعة البشرية ، يجب أن لا نتغافل عنها ، بل نعتبر بها؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى إنما قصَّ علينا القصص للاعتبار ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] ، وقال: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٦] ، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣] والقرآن ليس تاريخ الحضارة الإنسانية ، إنه يقصّ علينا قصص الشعوب القديمة والحضارات والمجتمعات الماضية؛ لتكون لنا عبرة ، ولأنَّ هنالك مماثلات عجيبة ، هي موضع تأمُّل علماء النفس ، ورجال الحكمة ، وأصحاب الاختصاص في التاريخ البشري ، وكذلك موضع دراسة وعبرة لقادة الأمم والشعوب ، والباحثين ، والأساتذة الكبار ، إنَّ الحكمة الإلهية تعرض علينا صورةً دافقة بالحيوية ، بارزة الملامح والقسمات ، صورةً بارعةً ، تنطق بلسانها ، إلى أي درجةٍ وصل قوم سبأ من السعادة والرخاء الذي يتمناه الإنسان ، ويجاهد في سبيله الفاتحون ، والمؤسسون للحكومات ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٦].

القرآن يضع أصبع الإنسان على الوتر الحساس ، على موضع الداء ، لماذا جاءهم هذا البلاء؟ لماذا انتزع الله عنهم هذه السعادة وهذا الرخاء العظيم الذي يتقاتل في سبيله الملوك؟ إنَّ القرآن يضع أصبع قارىء القرآن كما يضع الأستاذ أصبع تلميذه الصغير على حروف الهجاء في الكتاب ، فيقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨] ، يقول المفسرون: إن مساكن سبأ كانت لطيفة الهواء ، حسنة التربة ، لا تحدث فيها عاهة ، ولا يكون فيها هامة ، حتى إنَّ الغريب إذا حلَّها وفي ثيابه قمل أو براغيث ماتت ، وقد جعل الله بينهم وبين الشام قرىً ظاهرة ، وجعل نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين من السير ، فلا يحتاج مسافرهم لحمل زاد ولا ماء ، ولا مبيت في أرض خالية ، ولا يخاف من عدوٍّ ونحوه ، بل حيث نزل وجد ماءً ، أو ثمراً ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاج إليه في

سيره ، حتى إنَّ المرأة كانت تمشي تحت الأشجار على رأسها مكتل ، أو زنبيل ـ وهو الذي تخترف فيه الثمار ـ فيتساقط فيه من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفةٍ ، ولا قطاف لكثرته ، ونضجه ، واستوائه(١).

ولكنهم سئموا ما كانوا فيه من النعمة ، والغبطة ، والعيش الهنيء الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة (٢)، فطلبوا تبديل اتصال العمران ، وفضلوا المفاوز والقفار ، وقالوا: أيش هذا السفر؟ نقرأ في كتب الرحلات (وإن كان زمناً متأخراً قالوا في رحلات سندباد البحري ولكن الزمن متقدم) أو نسمع عن الجوابين والرحالين: إنَّه كانت القوافل تمشي وتخاف المغيرين ، وكانوا يأخذون الخريت والحرس معهم ، ويحملون السلاح لصبيانهم ، وبعد ذلك يبيتون ليالي ويحرسهم الناس ، ثم يمشي واحد ويأتي بالحطب ويشعل النار ، ثم يطبخ ويضع عليها القدر ، ويغلي ، ثم يطبخ الطعام ، ثم يأكله ، نقرأ هذه الحكايات بلذةٍ ، هذه كانت رحلات في الحقيقة ، رحلات هي تجارب ومغامرات ، رحلات فيها تنوع ، وتفنن ، ينتقل الإنسان من راحة إلى تعبٍ ، ومن تعبٍ إلى راحةٍ ، نحن سئمنا هذا! نمشي في ظلال الأشجار ، ونأكل من الثمار بطريق تلقائي ، لا! ما نريد هذا! نريد الأسفار المتعبة ، نريد الصحارى الموحشة ، والأراضي القاحلة ، نريد المشقة ، نريد المغامرات ، نريد المخاطر.

هذا من ضعف الفطرة البشرية ، بدل أن يحمدوا الله تبارك وتعالى على هذا ، ويبقوا في هذا النعيم إلى أن يشاء الله ، طلبوا العكس ، قالوا ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] ، كما أن الحجاج في هذا العصر يقولون: إيش هذه الرحلات المتنعمة ، نريد أن يعود الزمان الماضي ، ونركب الإبل ، ويموت بعض الناس عطشاً لعدم وجود الماء ، لا لذة في

(١) مستفاد من تفسير ابن كثير وروح المعاني.

(٢) اللفظ لابن كثير.

الحج الآن ، نريد تلك الأيام التي كان مئاتٌ من الناس يموتون عطشاً في عرفات وفي منى ، وكان يغير عليهم البدو.

فماذا كانت العاقبة؟ عاقبهم الله سبحانه وتعالى بسلب هذه النعم كلِّها ، وبدَّل بها تلك الأسفار الشاسعة الخطرة ، ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ : ١٩].

هذه قصةٌ ربما يتخيَّل الإنسان أنَّ هذه قصةٌ بسيطةٌ ، وربما يشكُّ فيها كثيرٌ من الناس ، كيف تمسخ الطبيعة البشرية إلى هذا الحدِّ؟ هل تصل الطبيعة البشرية في أمة متمدنة كقوم سبأ إلى هذه النهاية ، إلى هذا الحدِّ من المسخ والانحراف ، ومن الاعوجاج والفساد؟! تستبعد هذا ، ولكن القرآن قد حكى لنا هذه القصة ، والقرآن هو كتاب الله ، والرسول لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى ، لا يا إخواني! التاريخ يُصدِّق هذا ، والواقع يصدِّق هذا ، فهنالك شعوب نعرفها أنعم الله عليها ، وأغدق عليها النعم ، وأمطر عليها شآبيب من الراحة والرَّخاء ، ومن هذا الرخاء ، ومن رغد العيش ، وهناء الحياة ولينها ، ولكنها عادت سئمة ضيقة الصدور من هذا الرخاء ، تريد الفقر ، وتريد المخاطر ، وتريد ضنك العيش ، وتريد تفرق الكلمة ، وتريد أن تجرب حياةً قاسية. حكى لي بعض الإخوان الثقات أنَّ بلاداً سعيدة أكرمها الله بشيءٍ كثيرٍ من النعم والخيرات ، قال بعض رجالها المثقفين لبعض زعماء البلاد التي أخذت بالنظام الاشتراكي والشيوعي وهي بلاد فقيرة ، شيوعية منحرفة عن الدين وعن الخط السليم ، قال هؤلاء لهم : إن عندنا غنى ، وعندكم فقر ، عندنا دين وعندكم كفر ، أعطونا فقركم ونعطيكم غنانا ، أعطونا كفركم ونعطيكم ديننا ، هذا حقٌّ ، سمعته أنا بطريق لا يشكُّ فيه ، وهذا اعوجاج الفطرة البشرية كان ولا يزال ، والقرآن لا يتعرَّض لذكر شيء إلا وهو صالح للعودة وللبقاء ، أما الأمراض التي انقرضت ، ولا تعود أبداً؛ ما تعرض لها القرآن. الذي يدرس القرآن دراسةً عميقةً يعرف أنَّ القرآن ما ذكر من مواضع الضعف في الفطرة أمراض الأمم البائدة والشعوب المنقرضة الزائلة إلا ما هو من مواضع الضعف في الفطرة البشرية هو إمَّا موجودٌ ، وإمَّا يعود.

فالقرآن يحكي لنا قصة سبأ ، إنَّ الله الحكيم الخبير العليم يعرف أنَّ هنالك شعوباً ، وهنالك مجتمعات تسلك نفس الخط ، تسلك نفس الطريق ، بطر! بطر! الله سبحانه وتعالى يعطيها ما تحتاج إليها ، ولكنها تكفر بنعمة الله ، وتريد البؤس ، وتريد الفقر ، وتريد المخاطر والمهالك ، وتريد القسوة ، وشظف العيش ، لماذا؟ لإتخامها ، وسآمتها من هذه النعم ، وبتأثير الدعايات ، وبتأثير المغريات المضللة ، وبتأثير العوامل الاجتماعية ، والعوامل الخارجية ، والسياسية تتمنى أن تعود إلى الفقر ، وضنك العيش ، والضيق ، والشدة ، كذلك سجَّل القرآن هذه الحكاية التي لا يحويها كثيرٌ من كتب التاريخ ؛ لأن سبيل كتب التاريخ غير سبيل القرآن ، إنَّها تُعنى بالحوادث السياسية ، وتُعنى بما يختصُّ بالبلاد ، وبالملوك ، وبالوزراء ، والحروب ، والغزوات ، أما ما كان في صالح الإنسانية ، وما كان فيه درس للدارسين والمعتبرين ؛ فلا ، ولكنَّ القرآن بالعكس من ذلك لا يُعنى بهذه الحكايات ، حكايات تقلبات الأمم ، وتبدل الحكومات ، والفتوح ، والغزوات ، هذا موضوع التاريخ ، ولا بأس به ، ولكن القرآن يُعنى بأمراض البشرية ، يُعنى بمواضع الضعف في الطبيعة الإنسانية ، عني بما فيه عبرة وما فيه درس للإنسان في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمان.

إن الذي أخشى (أقول بصراحة) على المجتمعات الإسلامية الكثيرة هنا ، وفي آسيا في شبه القارة الهندية ، وفي أوربا ، وفي أمريكا البطر : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥٨] ، إننا نفهم ، ونشهد ، ونؤمن بأنَّ ما قاله القرآن هو حقٌّ ، ويمكن أن يُرى في مرآة الشعوب المعاصرة ، وبعض المجتمعات الموجودة.

إخواني! يجب أن نستعرض حياتنا في ضوء القرآن ، يقول القرآن: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠] ، يعني فيه الحديث عنكم ، فيه تصويركم ، كان سيدنا الأحنف بن قيس رحمه الله ـ من

أخصِّ أصحاب سيدنا عليٍّ رضي الله عنه وسيِّد قومه ـ! مرة جالساً؛ إذا به يسمع إنساناً جالساً قريباً منه يقرأ القرآن ، فإذا هو يقرأ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] ، فانتبه ، كأنه كان نائماً ، قال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ هل في القرآن حديث عني؟ ، عليَّ بالمصحف! عليَّ بالمصحف! فحضر المصحف ، فصار يقلب الصفحات ، يفتحه من غير قصد ، فإذا به يمرُّ بقوم يقول الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٤] ، قال: اللهم لا أجد نفسي في هؤلاء! ومرَّ بقوم يصفهم الله تبارك وتعالى ، ويقول: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] قال: اللهم لا أجد نفسي في هؤلاء ، أنا أصغر من هؤلاء ، ثم مر بقوم يقول الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] ، قال: اللهم إني لا أجد نفسي في هؤلاء! ثم قلب الصفحات ، فإذا به يمرُّ بقوم يصفهم الله تبارك وتعالى بصفات معاكسة ، فيقول: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٧] ، قال: اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء! ولكن أين أنا؟ أين صفتي؟ ، ويقلب الصفحات ، ويقلب ، حتى مرَّ بقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]. قال: اللهم إني ها هنا! اللهم إني ها هنا!

هكذا يجب أن نقرأ القرآن ، ونستعرضه ، ونستفسره ، ونستوضحه ، ونستوحي منه واقع الحياة ، ونبحث عن مكاننا في هذه المجموعة من صور الأمم ، ومن صور المجتمعات البشرية والنماذج الإنسانية ، ـ والقرآن مرآة وضيئة نرى فيها وجهنا فنمسح ما فيه من غبار ومن تراب ومن وصمات ـ ونعرف مواضع هذه الوصمات فنغسلها.

إخواني! أقول لكم ـ ولا أريد أن أطيل عليكم ـ يجب علينا أن لا نبطر ، ويجب علينا أن نحمد الله على النعم ، وأن نضعها في مواضعها الحقيقية ،

لا نبطر ، ولا نكون كما يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الاسراء : ١٦] ، لا نكون من المترفين ، ولا نكون من البطرين ، ولا نكون من الجاحدين للنعم ، ولا من الكافرين بالنعم ، ولا نكون من الذين يقول الله تبارك وتعالى عنهم : ﴿ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، هذا تبديل ﴿ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا ﴾ [إبراهيم : ٢٨] كما قال بنو إسرائيل لما أنزل الله عليهم المنَّ والسلوى وكان من ألذِّ الأطعمة ، قالوا : نتمنى القثاء والفوم ، والعدس ، والبصل : ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴾ [البقرة : ٦١] ، هذه هي الطبيعة البشرية ، فإذا أنعم الله عليكم بالنعم؛ فارجعوا إلى الله تبارك وتعالى ، واحمدوا الله على الموجود ، واطلبوا منه المزيد ، ولكن لا تكفروا بنعم الله ، ولا تبدلوا نعمة الله كفراً ، ولا تتورطوا فيما تورط فيه غيركم من الشعوب والبلاد ، فهم في عذابٍ أليمٍ ، وفي بؤس ، وشقاء ، وفي جحيم ، فأتتهم كلُّ نعمة حتى حرموا لقمة العيش ، وأصبحوا متشكِّكين ، متذمِّرين ، متشائمين ، لا يثق أحدٌ بأحدٍ ، حتى لا يثق الأخ بأخيه ، ولا يثق الزوج بزوجته ، كلُّ إنسان ينظر إلى أخيه بعين الشك ، حتى في الخلوات لا يستطيع الإنسان أن يبوح بما في ضميره ، يرى يميناً وشمالاً ، لعلَّ الجدران تسمع ، ولعلَّ هنالك مسجلاً ، ويخاف أن تعدَّ عليه الأنفاس . فيقال له : أنت تنفست كذا وكذا من الأنفاس ، أصبح المجتمع مجتمعاً معذباً منكوباً .

هذا الذي نخشاه على المجتمعات الإسلامية في البلاد الإسلامية التي أكرمها الله بالأمجاد ، والبطولات ، وبالصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وطئوا أرضهم ، ونشروا فيها الإسلام ، وربطوا المجتمع بالإسلام ، وكان لهذه البلاد ولهذه المجتمعات دورٌ عظيم في تاريخ الإسلام ، وفي تاريخ الدعوة الإسلامية ، وفي تاريخ الفتوح الإسلامية ، وشهد لهم العالم الإسلامي بالإيمان ، والفقه ، والحكمة ، وأكثر من ذلك؛ شهد لهم الرسول ﷺ

بالإيمان ، فقال. «أتاكم أهل اليمن ، أرق أفئدةً وألين قلوباً ، الإيمان يمانٍ ، والفقه يمانٍ ، والحكمة يمانية» أيستبدل المجتمع اليماني من كل هذا بماذا؟ بالشك، والريب ، والنهم ، والتعذيبات ، والمضايقات ، والمحاكمات ، والإجلاء ، والنفي ، والتشريد ، والتفتيك ، والتقتيل؟! فأحذركم مما حذَّر الله تبارك وتعالى في القرآن ، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧].

علينا بالمشي على الخط السليم الشرعي الديني ، نتبع الشريعة المحمدية الإسلامية الغرَّاء ، ونحكمها في حياتنا ، إننا نطالب بتحكيمها في الخارج ، وهذا صحيح ، ولكن نحكمها في نفوسنا أولاً ، نحكمها على رؤوسنا ، وفي نفوسنا ، وفي الحياة الداخلية المنزلية ، وبيننا وبين أفراد أسرتنا ، وفي معاملاتنا الفردية ، والاجتماعية ، هنالك يقدر الله تبارك وتعالى تحكيم هذه الشريعة في الحكم ، والمعاملات ، وفي التجارة ، وفي الخارج. لا ملجأ ولا منجى لنا من الله إلا إليه ، قد وصلنا إلى الدرجة التي وصفها الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾[التوبة: ١١٨] ، هذا الوصف الذي ينطبق على كثيرٍ من البلاد الإسلامية ، فلا ملجأ من الله إلا إليه ، ففروا إلى الله كما يقول القرآن.

أشكركم على هذا الاجتماع الكبير ، والجمِّ الغفير من المستمعين الكرام، وأدعو الله لي ولكم بالعافية ، يا إخواني! اطلبوا من الله أن يوفقكم ، ويوفقنا جميعاً للشكر على النعم ، وتتعوذون من البطر ومن الكفر والكفران بالنعم ، ومن تبديل نعمة الله بنقمة الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

من مَعاني الإسراء والمعراج

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي في مسجد سيِّدنا عمر بن الخطاب بالزرقاء في عمان في ليلة الإسراء والمعراج (٢٧/ من رجب ١٤٠٤ هـ).

وهذه المحاضرة كلها تدور حول الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى المبارك.

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

أيها الإخوة الكرام! إنَّ هذه الآية هي خير ما يفتتح بها هذا الاحتفال في ليلة الإسراء والمعراج، ونحن على غلوة سهم ـ على التعبير القديم ـ من المسجد الأقصى الذي أسري بالرسول ﷺ إليه، ومنه إلى السماء، إنَّ هذا الإسراء من مكة إلى القدس ومنه إلى السماء دلَّ على معانٍ عميقة بعيدة الأثر، طويلة المدى في تاريخ النبوات والديانات، وفي المسيرة الإنسانية.

فدلَّ أولاً على أنَّ شخصية الرسول تلتقي فيها الأرض بالسماء والجزيرة العربية بأرض النبوات الأولى، الأرض التي بارك الله حولها، ويلتقي زمن النبوات الأولى بعهد النبوة الأخيرة، فأيُّ التقاء أكبر وأوسع وأجمل من هذا الالتقاء، فالبشرية تلتقي بمصدر النبوات والهدايات السماوية، والأرض تلتقي بالسموات العلى، إنه إذا انقطت صلة الأرض بالسماء كانت هنالك متاهات وضلالات، وسخافات، وسفالات، فوصل الله الأرض بالسماء بنبوة محمد ﷺ والإسراء به. فهذه الأمة أمينة لهذا الاتصال، أمينة لهذا الالتقاء الأرضي والسماوي، والزمني والمكاني، القاضي على الحدود الجغرافية، والحواجز المكانية، والفوارق الزمنية، والاعتبارات العنصرية والجنسية، ويجب أن يتجلى هذا الالتقاء الكريم الفريد في كل مناهج حياتها، في حضارتها واجتماعها، وفي علمها وتفكيرها، وفي فلسفاتها وأدبها، وفي خيالها وجمالها.

وفوق ذلك إنَّ سورة الإسراء إعلانٌ بأنَّ بني إسرائيل قد فقدوا الجدارة والصلاحية للهداية الربانية، وتقلد الزعامة الدينية، وقيادة البشرية؛ لما أصابهم من أمراضٍ خلقية، وانحرافاتٍ عقائدية، ودينيةٍ روحية، باطنةٍ

وظاهرة ، فهذه السورة فصل وفارق بين عهدٍ وعهد ، وبين زمن وزمن ، لذلك سميت سورة بني إسرائيل كذلك ، إنَّ بني إسرائيل قد فقدوا ـ على مرِّ الزمان ـ الصلة الوثيقة العميقة بالإنسانية ، ومصيرها ، ووضعها ، ومشكلاتها وحلولها ، والتفكير الإنساني الرحيم الرقيق ، بالعكس عكفوا على السلالة يقدسونها ، وينظرون إلى كل قضية من قضايا الإنسانية من زاويتها ، ويزنونها بموازين تعود على السلالة بالنفع والقوة ، والله رب العالمين ، ليس رب بني إسرائيل فقط ، فعزلوا عن المنصب الذي قلدوه قروناً عديدة ، واختيرت له الأمة التي بعثها الله سبحانه وتعالى مع النبي الموعود الأخير محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي ﷺ ، الأمة التي عهد إليها نشر عقيدة التوحيد الصافية ، والأخوة الإنسانية ، والمساواة البشرية ، فأعلن القرآن في لفظ صريح واضح: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، ونادى رسول الله ﷺ في الحج الأكبر: «إنَّ ربكم واحد ، وإنَّ أباكم واحد ، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى»(١) .

ولما كان ذلك تحولاً كبيراً من أعظم التحولات في تاريخ الديانات ، وفي تاريخ مصائر الأمم ، وفي تاريخ الوقائع البشرية ، كان هذا الحدث العظيم جديراً بأن يطلب الله النبيَّ الكريم إلى السموات العلى ، ويسلمه منصب القيادة بطريقٍ مباشرٍ ، ويشرفه بالقرب والتكريم الذي لم يتلق به أحداً من قبله .

إخواني ! إنَّ اليهود لا مستقبل لهم إذا كان الله حكيماً رحيماً ، وإذا كان الله ربَّ الأجيال البشرية كلها ، وربَّ العالمين ، لا رب خراف بني إسرائيل الضائعة ، فلا مستقبل لليهود أبداً ولو فتحوا العالم كله ـ لا قدَّر الله ـ لأنَّ اليهود أمة تقوم على تقديس العنصر والسلالة ، أمةٌ تقوم على الحقد للبشرية

---

(١) ابن النجار عن أبي سعيد بزيادة بعض الكلمات (الجامع الكبير للسيوطي) .

والتاريخ كله ، أمةٌ تقوم على الأحلام والأماني السلالية والشعبية فقط ، ولا شأن للإنسانية بهذه الأماني والأحلام. إنَّ حاجة الإنسانية أمةٌ تقود البشرية كلَّها ، وتربط مصيرها بمصير البشرية؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الجيل البشري ليكون عبداً لسلالة خاصة ، هذا ما لا يسوغه ويسيغه عقلٌ بشري ، فكيف بالله تبارك وتعالى ، إنَّ اليهود ليست لهم أصول ، ولا جذور في الأرض ، إنما هو شيء طافٍ على سطح الماء.

إنَّ الإسراء أيها الإخوان لم يكن ليكون عيداً في الأمة يحتفل به كل عام ، إنَّ الإسلام ليس دين الأعياد كما هو الشأن في دياناتٍ أخرى ، فإنها تقوم على الأعياد والمهرجانات ، والأيام التي تحتفل بها ، وإذا أخذ كلُّ عيد تحتفل به طائفة من طوائفها ، كانت أيام السنة كلها أعياداً ومواسم ، والأعياد هي التي تربط المجتمعات في هذه البلاد بالديانات ، فلولا هذه الأعياد والمهرجانات لضاعت الديانات ، ونسيت ، فإنهم يجتمعون في هذه الأعياد ويذكرون ما عندهم من عادات ، وطقوس ، وعبادات ، فيقيمونها ، وبذلك ينتظم شملهم.

إنَّ الإسراء لا شك خاص بالرسول ﷺ ، ولكنه سموٌّ للإنسانية عن طريق محمد ﷺ ، إنَّ الله تبارك وتعالى قد ضرب مثالاً ـ وإن كان هذا المثال مختصاً بالرسول الأعظم ﷺ ـ ولكنه نبيٌّ بشر ، فيشير إلى أن هنالك يبلغ البشر وإن كان مرة واحدة ، ولكنه هو البشر الذي وصل ، ولم يبلغه غير البشر ، هذا يثير فينا السمو ، ويثير فينا الثقة بالإنسانية وكرامتها.

الشيء الثاني: أنَّ هذا الدين مرتبطٌ بالسماء ، مرتبطٌ بإرادة الله تبارك وتعالى ، ليس مرتبطاً بالتجارب البشرية ، ليس مرتبطاً بالعقل البشري ، ليس مرتبطاً بالمجهود البشري ، بل مصدر هذا الدين هو السماء.

والمعنىٰ الثالث: أنَّ سورة الإسراء تثبت أنَّ هذه الرسالة عالمية إنسانية ، فإذا كانت غير هذا ودون هذا؛ لما طُلب محمد ﷺ من جزيرة العرب ـ وهو نائم في مكة ـ إلى القدس ، ثم إلىٰ السموات العلى ، إنَّ

اتصاله أولاً بالأرض المقدس بفلسطين ، التي هي بعيدة من جزيرة العرب ، ثم اتصاله بالسماء ، يدل على أن هذه الرسالة عالميةٌ ، إنسانيةٌ ، آفاقيةٌ ، ليست محصورة في جزيرة العرب ، وإلا أيُّ حاجة دعت إلى أن يطلب الله رسوله إلى القدس أولاً ليصلي هناك بالأنبياء عليهم السلام ، ثم يطلبه إلى السموات؟ فلنعرف أنَّ مركزنا أكبر مما نحن فيه ، وإن مسؤوليتنا أضخم مما نضطلع بها ، وإنَّ البلاد مهما اتسعت بل إنَّ الأرض كلها ، أصغر من شخصيتنا ، نحن أمَّة الرسالة ، نحن أمة الهداية ، نحن أمة العالم ، وأمة الإنسانية ، لسنا عرباً ولا عجماً ، لسنا أردنيين ، وسوريين ، وفلسطينيين ، وهنوداً ، وباكستانيين فحسب ، نحن أمة نبي الإسراء والمعراج ، الذي انعدمت فيه الأبعاد والمسافات ، والحواجز الجغرافية ، والاعتبارات السياسية ، والفوارق الجنسية .

هذه كلها معانٍ ، وحقائق نستطيع أن نتلقاها ، ونتعلمها من ثنايا سورة الإسراء التي ضمنها الله القرآن الكريم الذي يدوم ، ويثبت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أهنئكم أيها الإخوان على ليلة الإسراء والمعراج ، وأنتم على مقربةٍ من مكان الإسراء والمعراج ، ولقرب الزمان والمكان أثر ومعنى ليس في البعد ، فكيف إذا التقى قرب المكان بحلول الزمان؟! لقد أدركت ليلة الإسراء والمعراج بعدما عقلت أكثر من خمسين مرة ، ولكنها هي المرة الأولى التي تصادفني فيها أو أصادفها على قربٍ من مكان الإسراء والمعراج ، فأثار ذلك في نفسي معاني وأحاسيس جديدة لم يكن لي عهد بها ، وفتحت لي نوافذ جديدة لتفهم معاني الإسراء والمعراج ، والتأمل في سورة بني إسرائيل ، والحنين إلى المسجد الأقصى ، والصلاة فيه ، والشوق إلى أن أراه في مكانه الطبيعي التاريخي العالمي ، وفي أيدي الوارثين للرسالة الأخيرة ، المؤمنين بجميع الأنبياء ، الغيارى على رسالاتهم وأماناتهم ، المحبين للإنسانية كلِّها ، المجاهدين في سبيل إسعادها ، والنهوض بها ، وحق لي أن أتمثل ببيتي الشاعر العربي القديم متمثلاً للمسجد الأقصى المبارك ، وأنا على مقربة منه في عمان :

ولما نـزلنـا منـزلاً طلـه النـدى أنيقـاً وبستـانـاً مـن النـور حـاليـا
أجـد لنـا طيـب المكـان وحسنـه منـى فتمنينـا فكنـت الأمـانيـا

إن القضية في إنقاذ فلسطين ، قضية العقيدة وقضية الأخلاق ، قضية العزم الصادق ، فإذا صحت العزائم ، وصدقت القلوب؛ زال اليهود كما يتقشع الضباب. نحن في حاجة إلى تربية جديدة ، تربية إسلامية ، إلى عقيدة كأنـها عقيدة جديدة ، لسنا في حاجة إلى دين جديد ـ حاشا لله ـ ولكننا في حاجة إلى إيمانٍ جديد ، إذا كانت الأحوال غير عادية احتاج الإنسان فيها إلى إيمان غير عادي ، إلى إيمان قوي عميق ، إلى إيمان حيٍّ دافق ، إلى إيمان إذا لم يكن إيمان الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم فليكن إيمان صلاح الدين الأيوبي ، وكثير من الجنود التي قاتلت تحت رايته ، يقول القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد عن صاحبه صلاح الدين الأيوبي:

«إنه تاب عن المحرمات وترك الملذات ، ورأى أن الله سبحانه وتعالى خلقه لأمرٍ عظيم لا يتفق معه اللهو والترف ، وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال. وكان كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها»(١).

هنالك تبرز من أطماركم وأجسادكم شخصيات جديدة تقفز من الداخل وتفاجىء العالم ، وقد وقع ذلك مراراً في التاريخ الإسلامي ، فإذا أظلمت الآفاق ، وإذا غارت النجوم ، طلع نجم جديد على أفق العالم الإسلامي ، هكذا كان ، وهكذا سيكون إن شاء الله.

قد قلت بالأمس: إذا كان هنالك استفتاءٌ عامٌّ في العالم الإسلامي ، استفتاءٌ حرٌّ عن الرجل المطلوب المحتاج إليه اليوم في العالم الإسلامي ، كان الجواب الوحيد: صلاح الدين الأيوبي ، فيجب أن تتشوف نفوسكم لهذا المنصب الرفيع ، وقد جاء في حديث خيبر أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «ليأخذن الراية غداً رجلٌ يحبه الله ورسوله ، يفتح عليه» ، فتطاول له

---

(١) النوادر السلطانية ص١٥٥ وليرجع إلى ص/ ١٦ ـ ٢١٣.

كبار الصحابة رضي الله عنهم ، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كلٌّ منهم يرجو أن يكون صاحب تلك ، دعا علياً كرَّم الله وجهه ، فكان على يده الفتح[١] ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولا بدَّ لذلك أن ننشىء نفوسنا على التقشف ، وتحمُّل المشاق ، وعلى الشدة ، والجلادة ، والغيرة الإيمانية ، وإيثار الآخرة على العاجلة ، والاستهانة بالحياة الدنيا وزخارفها.

وأختم حديثي ببيتين للزركلي ، مخاطباً للأمة العربية الإسلامية :

هاتي صلاح الدين ثانيةً فينا
وجددي حطّين أو شبه حطّينا

* * *

(١) الرواية في صحيح البخاري وصحيح مسلم في باب غزوة خيبر.

الشخصية الإسلامية ووُجُوب المحافظة عليها

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في كلية العلوم العربية في عمّان غرّة شعبان وفي جامعة اليرموك بإربد ، سلخ رجب ١٤٠٤ هـ ، وكلها تدور حول الشخصية الإسلامية ووجوب المحافظة عليها ، وأهمية الحضارة الإسلامية.

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله:

أما بعد! سادتي وإخواني! يسعدني ويشرفني أن أتحدث اليوم في قاعة جامعة اليرموك[١]، الجامعة التي اقترن اسمها باسم أكبر معركةٍ في تاريخ الخلافة الراشدة، المعركة الحاسمة الفاصلة في التاريخ، التي نستطيع أن نقول: إنها غيرت مجرى التاريخ، إنَّه يلذُّ لي، ويشرِّفني أن أتحدث في هذه الجامعة العزيزة المنسوبة إلى اليرموك. الجامعاتُ كثيرةٌ في العالم، وبلادي التي أنتمي إليها هي مليئةٌ بالجامعات، ولكن هذه الجامعات بانتسابها إلى اليرموك حبيبةٌ إلى نفوسنا، فلها صلة عميقة متغلغلة في أحشاء المسلمين، مالكة عليهم المشاعر والعواطف، تدلُّ على ذلك الحكاية التي أحكيها لكم في مفتتح هذه المحاضرة.

إنني لما دعيت لإلقاء المحاضرات في كلية الشريعة التابعة لجامعة دمشق، وذلك سنة ١٩٥٦ م والفضل في ذلك يرجع إلى العلامة الفاضل مرشد الإخوان في سورية صديقنا الجليل الدكتور مصطفى السباعي عليه رحمة الله، فأنزلني الدكتور مصطفى السباعي عميد الكلية في فندق اليرموك، وأعتقد أنه كان تقديراً من الله من غير تخير كبير، فكتبت كتاباً إلى أحد المؤلفين الباحثين الكبار في شبه القارة الهندية، قد أثرى المكتبة الإسلامية الهندية بمؤلفاته وبحوثه، وكان رئيساً للقسم الديني في الجامعة العثمانية في حيدر آباد[٢]، وكتبت فوق الرسالة «من فندق اليرموك»

---

(١) سميت جامعة إربد بجامعة اليرموك، لقرب ميدان اليرموك من هذا البلد، فإذا ترك الماشي إربد بجانب وواصل سيره إلى الحدود الشمالية حتى يصل إلى المنطقة الجبلية ووقف في قرية، «أم القيس» استقبلته مرتفعات الجولان، وما بينه وبينها إلا واد عميق يجري فيه نهر اليرموك منعطفاً ملتوياً وعلى ضفافه ميدان اليرموك.

(٢) هو العلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني (م سنة ١٩٥٦ م) راجع للاطلاع على ترجمته كتاب المحقق «الإعلام بهن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» طبع في دار ابن كثير، دمشق.

وصادف وصول هذا الكتاب وجوده في المستشفى ، فقد كان يعاني من الذبحة الصدرية ، وكان رهين الفراش ، وكان هو مرضه الأخير الذي مات فيه ، فلما وصله الكتاب ، واطّلع على عنوان الكتاب «فندق اليرموك» كتب إليَّ يقول : «إنني كنت مريضاً تنتابني أوجاع القلب ، وكنت رهين الفراش ، لا أستطيع أن أنهض ولكن لما جاءني كتابكم نفخ فيَّ روحاً جديدة ، وكدت أرقص طرباً لقراءة اسم اليرموك[١] ، فقد حضرتني الذكريات الجميلة الحلوة ، تلك الذكريات المشرفة للإسلام والمسلمين دائماً حين كان الأعداء يترامون في وادي الواقوصة ، وكنا نتقدم والدنيا تتقهقر ، ثم انقلبت الدائرة علينا ، ووقع ما وقع ، فكدت أغلب على أمري وأخالف تعليمات الأطباء ، وأرقص ، وأطرب ، وأبكي» .

هكذا كان أثر اليرموك في نفوس العلماء الكبار ، في نفوس الباحثين المؤلفين في بلادٍ نائية عن هذه البلاد وعن هذه البقعة المباركة آلافاً من الأميال ، وأذكر أنه كان من الأعراف الشائعة ، ومن العادات المنتشرة في أسرتنا : أنه إذا وقع هناك حادث مفجع ، مثل موت بعض أعضاء الأسرة ـ حماكم الله وبارك في حياتكم وحياة الجميع ـ كان الطريق الوحيد للتسلية ، والتغلب على الأحزان الشخصية والعائلية ، قراءة الملحمة الإسلامية التي نظمها أحد أفراد أسرتنا ، وهو عمُّ والدي رحمه الله تعالى[٢] ، فقد نقل كتاب «فتوح الشام» للواقدي إلى الشعر الأردي نظماً ،

(١) إن معركة اليرموك جزء من حوران ويشمل القسم الغربي منه ، كان عدد المسلمين أربعين ألفاً (٤٠٠٠٠) وبلغ عدد جيوش الروم إلى ما يقرب ٢٤٠ ألفاً أي ستة أمثال أعداد المسلمين ، اشتد الهجوم الإسلامي في الوقت المناسب ، وبدأ التراجع الرومي حتى لم يبق أمامهم سوى وادي نهر اليرموك السحيق ووادي الرقاد العميق ، وكلاهما لا يمكن عبوره ، فبدؤوا يلقون بأنفسهم فيها فراراً من القتل ، وكان هذا في وادي الرقاد إلى الغرب من (الواقوصة) حتى عرفت تلك المنطقة بـ(هوة الواقوصة) وكان مجموع من قتل من الروم ما يقرب من خمسة وثلاثين ألفاً ، ونجا الباقون فارين جرحىٰ أو مهيضي الجناح بسبب وقوعهم في الأودية وتسلقهم من جهات متعددة ، انظر : «ميدان معركة اليرموك ، للأستاذ محمود شاكر» .

(٢) وهو السَّيد عبد الرزاق الحسني رحمه الله .

فتضمنت هذه الملحمة خمسة وعشرين ألف بيت (٢٥٠٠٠) وكله في حماس إسلامي ، كأنها نار متأججة من الحماسة الإسلامية ، والشعر الإسلامي والغيرة الإسلامية ، وكنت طفلاً صغيراً ، وكنت أتردد إلى هذه المجالس مع السيدات وفيهن أمي ، فأرى الدموع تنهمر من العيون والإيمان يتجلّى في وجوههن المشرقة ، وفي قلوبهنَّ الرقيقة ، وكنت لا أفهم هذا المعنى؛ لأنني في الرابعة من سنِّي أو الخامسة ، أو السادسة : كن يسمين أخبار الغزاة في معركة اليرموك ، وفيهم السيدة خولة بنت الأزور رضي الله تعالى عنها ، كن ينسين حزنهنَّ ، وكنَّ يشتركن في هذه المعركة حماساً إسلامياً وإيماناً ، كن يستحضرن فداء المسلمين في سبيل الإيمان ، وفي سبيل الدين ، فكنَّ يستقللن ما أصاب العائلة من حزن ، ومن كآبة .

وأحلف لكم صادقاً أيها الإخوة والأخوات : أنَّ لهذه الملحمة فضلاً كبيراً في صمود المسلمين الهنود في المعارك الدعوية ، والمعارك الثقافية والحضارية ، والقومية والشعبية ، إنما ساعدهم على هذا . . . وعلى الرباط في سبيل الله ، والاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ، وهو مثل هذه الملاحم التي كانت تقرأ ، وتنشد في مناسبات عائلية ، فكان المسلمون ، ولا يزالون يستمدون منها الإيمان العميق والعاطفة الجياشة ، يستمدون الحماس المتأجج ، يستمدون الثقة العميقة الشاملة من هذه الملاحم التي نظمها بعض شعرائنا ، وحكوا فيها معارك وغزوات خاضها المسلمون ، وخاضها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بصفة خاصة ، فأنا أستحضر هذه الذكريات ، وأنا واقف أتحدث إليكم أيها الإخوة والأخوات في هذه القاعة في جامعة اليرموك .

أريد أن أقول لكم : إن فتوح الصحابة وبطولتهم وحماستهم لم تتجل في الانتصار في معركة اليرموك فقط ، وإن كانت معركة فاصلة ، كانت النسبة بعيدةً بين عدد المسلمين وبين عدد أعدائهم من الرومان ، أو أهل الشام ، فيكاد المؤرخون يطبقون على أن عدد المسلمين كان لا يزيد على أربعين ألفاً وعدد الرومان قد بلغ مئتي ألف وأربعين ألفاً (٢٤٠٠٠٠) ، إنها حقاً انتصارٌ رائع ، قد ظهرت فيه بطولة سيدنا خالد بن الوليد ، وسيدنا أبي عبيدة بن

الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وضرار بن الأزور ، والسيدة خولة بنت الأزور ، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ، ولكن عبقرية الصحابة رضي الله عنهم قد تجلَّت بأروع شكل ، في أجلى مظهر في المعركة المعنوية التي قامت في ذلك الحين بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبين الحضارة الرومانية ، والحضارة الساسانية الإيرانية ، الحضارتان اللتان قد ضربتا الرقم القياسي في الأناقة ، وفي الرقة ، وفي الخيال ، واجه الصحابة رضي الله عنهم وهم نشؤوا في صحراء العرب القاحلة الجديبة بشكل عام ، نشؤوا نشأة صحراوية في الأخبية والخيام ، وعلى متون الخيل وظهور الإبل ، لم يجرب هذه الحضارة الراقية إلا بعض من دخل بلاد الروم ، وبلاد فارس ، إنهم نشؤوا نشأةً محدودةً قاصرةً ، يلتفون الأرض ، ويقتاتون بلحوم الإبل ، ويسكنون في الخيام ، أو في بيوتٍ متواضعة بنيت باللبن ، إنها كانت محنة عظيمة أيها الإخوان ، إنهم لما خرجوا من الجزيرة ليبلغوا رسالة الله ، وليخرجوا الناس ـ على حد تعبير أحدهم وهو سيدنا ربعي بن عامر رضي الله تعالى عنه ـ «ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» ، لما خرجوا بهذه الرسالة واجهوا حضارتين معقدتين راقيتين من أرقى الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ ، وقد كتب لهاتين الحضارتين عدة قرون لتتقدما في مضمار الرقي ومضمار الآداب ، والشعر ، والخيال ، والصناعة ، وقد رقَّت حواشيهما ، وطالت ذيولهما ، وبلغتا درجة الخيال ، كأنَّ الإنسان يقرأ «حكاية ألف ليلة وليلة» كان الواحد منهم إذا لبس وانتطق بمنطقةٍ قيمتها دون مئة ألف كان يعيَّر ، كانت تتفاداه العيون وتزدريه ، وكان إذا لبس قلنسوةً قيمتها أقل من خمسين ألف أو من مئة ألف درهم بالعملة الفارسية كان يحتقر ، وكان لا يستطيع أن يجلس في جوار أمير من الأمراء ، وتستطيعون أن تعرفوا مدى ما وصلت إليه المدنية الفارسية : أنَّ يزدجرد آخر ملوك فارس لمَّا اضطرَّ إلى أن يغادر بلاده فاراً بحياته ، أخذ معه ألف طاهٍ ، وألف مغنٍّ ، وألف مربٍّ للصقور ، وكان يستقلُّ هذا ، ويقول : يا ويلتاه ، يا حسرتاه! ، أحمل هذه

القلة من الطهاة ومن المغنين ومن مربي الصقور ، كيف أعيش؟!

واجه الصحابة رضي الله عنهم هذه الحضارة الراقية الرقيقة الخيالية وهم أبناء الصحراء ، وتستطيعون أن تستحضروا البون البعيد ، والمسافة الشاسعة بين تجاربهم الحضارية ومدركاتهم الذهنية ، وبين ما بلغت إليه هاتان الحضارتان الراقيتان ، بما روي أنهم رأوا خبزاً رقاقاً في بعض المناسبات والولائم فحسبوها مناديل فأخذوها في أيديهم فإذا هي أرغفة ، ما كانوا يعرفون أن الخبز يكون في هذه الدرجة من الرقة والأناقة ، ولما رأوا الكافور حسبوه ملحاً ، فاستعملوه في الطعام فإذا هو شيء لم يجربوه.

إنني لا أقلل من شأن معركة اليرموك أبداً ، وأنا أعيذ سمعي وبصري ولساني من أن أستصغر شأن اليرموك ، ولكن المعركة الكبرىٰ هي المعركة الحضارية ، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم بدائيين ، وكانوا كأنهم في طفولة من الحضارة ، ومن المدارك العقلية ، ولكنهم استطاعوا أيها الإخوان أن يحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية القوية إزاء هذه الحضارات ، وفي هذه المعارك الدقيقة ، وما فقدوا شيئاً من عاداتهم الإسلامية العربية وما ذابوا وما انصهروا في بوتقة المدنية القوية التي أصهرت عناصر كثيرة ، ولم يحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية العربية فحسب ، بل استطاعوا أن يحتفظوا بمدنيتهم العربية ، وبحضارتهم الإسلامية ، وبقوا على ذلك سبعة قرون إلى أن جاء المغول والتتار ، وذلك في القرن السادس الهجري ، وكانت هنالك المدنية الإسلامية قائمة في بغداد وفي العراق ، وفي المملكة الإسلامية الممتدة إلى خراسان وتركستان ، وقد خضع التتار للإسلام بعد فترةٍ قصيرةٍ من الزمن للإسلام ، دعوةً وعقيدةً ، وللحضارة الإسلامية وآدابها وثقافتها.

وها نحن قد ابتلينا بالمدنية الغربية مدة ستين سنة أو سبعين سنة أي بعد ما مضت الحرب الأولى ، وذلك في سنة ١٩١٨ م ، نحن ابتلينا بالحضارة الغربية مدة نصف قرن ، ولكننا لم نستطع أن نحافظ على حضارتنا الإسلامية.

إنَّ علماءنا في الهند ظلُّوا يحثون أهل بلاد المسلمين على المحافظة على العادات الإسلامية الأصيلة العربية ، كما جاء ذلك في وصية حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي من رجال القرن الثالث عشر ، يقول : حافظوا على عاداتكم الإسلامية العربية وظلوا متمسكين بالثقافة العربية شعراً ، ونثراً ، وصرفاً ، ونحواً ، وبلاغةً ، وظلوا مرتبطين بالجزيرة العربية ، وظلُّوا متمسكين بحبِّ الرسول ﷺ ، لا تضعفوا في ذلك ، إن سعادتنا منوطة باعتزائنا إلى الدين الإسلامي العربي ، واعتزائنا إلى العادات الإسلامية العربية ، وبحبنا الزائد بالمصطفى ﷺ. يجب أن لا تنقطع هذه الصلة ليومٍ من الأيام عن مركز هذا الدين.

قارنوا أيها المستمعون الفارق والبون الشاسع بيننا وبين المسلمين القدامى ، إنهم واجهوا حضارةً كانت أرقى من الخيال ، وواجهوا التنظيم السياسي الإداري الدقيق ، والقضايا المعقدة في إدارة المدن الكبيرة ، وفي حماية البلاد ، وفي قيادة الجيوش الجرارة ، ولكنهم بفضل الاعتزاز بالشخصية الإسلامية ، وبفضل الإيمان العميق ، وبفضل ثقتهم بتعاليم الإسلام استطاعوا أن يظلوا محتفظين بشخصيتهم الإسلامية ، بل بالشخصية القيادية العالمية ، وقطعوا قروناً على مدار التاريخ الطويل ، بقوا متمسكين بالإسلام ، لا يعدلون بالإسلام ديناً ، ولا يعدلون بالحضارة الإسلامية حضارةً ، ولا يعدلون بالثقافة العربية ثقافة ، ولا يعدلون بالمجتمع الإسلام مجتمعاً ، لم يذوبوا كالملح أبداً في ماء الحضارات الأجنبية ، هذا درس نستطيع أن نتلقاه من معركة اليرموك ، فكانت المعركة الفكرية ، المعركة الحضارية المعنوية أكثر تعقداً ، وأكثر خطراً من معركة اليرموك.

كثيرٌ من المؤرخين يستغربون ، ويشكُّون في صحة الحكاية التي رواها الطبري في تاريخه المشهور الموثوق به : إنَّ المسلمين في قيادة سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه لما بلغوا إلى نهر دجلة ، وأرادوا أن يعبروها ليصلوا إلى المدائن عاصمة الفرس ، وجدوا أن القناطر قد أزيلت ، وأنَّ السفن قد أبعدت ، وأن دجلة ترمي بالزبد ، والعرب على فروسيتهم

كانوا بعيدين عن السباحة ، لأنَّ بلادهم ليس فيها نهر ، فكانوا يحسنون ركوب الخيل ، ولا يحسنون ركوب النهر ، فضلاً عن البحر ، إنهم لما وصلوا إلى الشاطىء وقف سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه هنيهةً واستعرض الواقع الجدي المرير ، نظر إلى سيدنا سلمان الفارسي لأنه ابن البلد ، وهو فارسي ، فقال: ماذا ترى يا سلمان؟! هل نعبر ، ونتوكل على الله ، أم نقف وننتظر السفن أو نصل بطريق آخر ، فقال سلمان الكلمة الحكيمة الخالدة التي لا يوجد لها نظير في تاريخ الديانات ، إنَّه أسلوب تفكيرٍ جديد ، ومنطقٍ فريد ، ماذا قال؟! إنه قال: يا سعد بن أبي وقاص! إن هذا الدين لجديد ، وإني لأستغرب وأستبعد أن يغرق هذا الدين وحملة هذا الدين في نهر ، إنَّ لله إرادة ، وإن لله حكمة في بقاء هذا الدين حتى يفتح العالم ، فكيف يغرق أهلها الذين يحملون رسالته في هذا النهر ، هذا النهر لا يتحوَّل عن فطرته ، والدين لا يتحول عن فطرته؟ هذا النهر شغله الإغراق ، وهذا الدين شغله إنقاذ الإنسانية من أوحال السفالة ، ومن أوحال الوحشية ، ومن أوحال الوثنية والشرك ، فكيف أصدق أن هذا النهر يتغلب على هذا الدين مع أن مصير الإنسانية مرتبط بهذا الدين ، وليس مرتبطاً بهذا النهر ، فكيف نسلم أن هذا النهر الصغير الذي يستطيع طفل صغير يعرف السباحة أن يعبره ـ إذا كان هنالك معبر ـ هذا النهر الصغير يتغلب على هذا الدين الكبير الذي جاء به محمد ﷺ؟! والله لا أصدق! إن هذا الدين لجديد ، وأمامه شغل طويل ، أمامه مسافة طويلة ، مسافات بشرية ، ومسافات حضارية ، مسافات دينية ، فكيف أصدق أن سفينة هذا الدين ستغرق في هذا النهر الصغير ، لا ولكن انظر في جيشك هل انتشرت فيه الذنوب أم لم تنتشر؟ أما إذا انتشرت فيه الذنوب فلا أستطيع أن أقول إننا سننجح ، وأننا سنصل إلى البر والشاطىء الآخر بسلام ، أما إذا كان الجيش محافظاً على سلامته ، على صفاته ، وعلى جذوة إيمانه ، وعلى صفاء قلوبه ، وعلى صفاء صحيفة أعماله ، فإنني بثقةٍ أننا سنعبر هذا النهر ، وإن كنا لا نعرف السباحة.

هنالك أمر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جيشه ، باسم الله نتوكل

على الله ، وعبروا النهر ، وكانوا يتكلمون فيما بينهم كأنما يمشون على البر (وهذا لفظ الطبري) يحيك الطبري ما قاله الفرس بالنص قالوا: «ديوان آمدند! ديوان آمدند! جاء العفاريت! جاء الجن! هذه قصة يرويها المؤرخ الطبري ، وهو مؤرخ أمين ، والعرب عرفوا بالأمانة في التاريخ أكثر من كلِّ أمة .

ولكن أغرب من هذا أنَّ المسلمين عبروا دجلة المادية ، عبروا فرات المدنية من غير أن تبتل ذيولهم فيها ، وهذا أروع وأغرب ، ونحن على البر ، لكننا فقدنا الشيء الكثير من مقومات شخصيتنا من مقومات حضارتنا ، ولولا الخطوط العربية الجميلة على اللافتات والألواح ، ولولا الأذان المدوي على منائر المساجد ـ حماها الله تعالى وصانها ـ لما استطاع الرجل الذي جاء بالطائرة ونزل بالأسواق أن يفرق بين مدينة عربية ، ومدينة إفرنجية إلا بصعوبة .

فأقول لكم: نحن في معركةٍ حضاريةٍ ، ثقافيةٍ ، معنويةٍ ، فكريةٍ ، فعلينا أن نصمد أمام هذه الهجمات ، أمام التحديات المعاصرة ، التحديات المدنية ، والتحديات الفكرية ، والمسلمون بقوا سبعة قرون تقريباً محافظين على شخصيتهم ، وعلى مدنيتهم ، إذا دخل واحدٌ في بيت مسلم رأى العادات العربية: البساطة ، والنظافة ، والتسهيلات للوضوء ، التسهيلات للاستحمام ، التسهيلات للاستنجاء وغير ذلك ، يأكلون بالبساطة جميعاً ، ولكننا نحن تغيرنا في ظرف سبعين سنة فقط . هذا درس يجب أن نتلقاه ، ويجب أن نقارن بين حاضرنا وماضينا ، حاضر هذه الأمة وماضي هذه الأمة .

لا تظنوا أنَّ الحضارة شيء طارىء ، وأنَّ الحضارة أداة فقط ، إنَّ الحضارة تكون نفسية خاصة هي من خصائص أصحاب هذه الحضارة ، ورواسب تاريخهم الطويل ، فإذا أخذنا حضارةً برمتها ، وبحذافيرها ، وطبقناها علينا ، كنا عبيداً لهذه الحضارة ، ويبقى الدين منحصراً في ساعات محدودة يقضيها الإنسان في مسجد ، ما نسبة هذا الوقت الذي

نقضيه في مسجد إلى هـذه الحياة التي نعيشهـا في البيوت والمنـازل ، وفي الفنادق؟! إنَّ الفنادق التي تبنى في بلادنا ينبغي أن يشترط معها أن تكون مطابقةً للإسلام.

لا أشعر إذا دخلت في بيت مسلمٍ بالعناية الزائدة بالطهارة ، وبالشعائر الإسلامية ، وتسهيلات لكل شيء ، ولا أشعر أني أدخل في بيت أمير من أمراء الخلافة الأموية والخلافة العباسية ولم تكن الخلافة الأموية والخلافة العباسية في مؤخر الركب ، إنما كانت قائدتين للعالم ، وكانوا على القمة من الحضارة. . . ولكني لا أشعر مع الأسف الشديد أني أعيش في عهد الأمويين ، وعهد العباسيين ، ولا أقول الخلافة الراشدة فإنَّ الخلافة الراشدة ، أسمى من ذلك. . . ولكن على الأقل ، لا أشعر بأنني في بغداد ، وإنني في البصرة والكوفة ، بل أشعر بأنني في بلد أوربي غربي.

إننا نستلهم ونستوحي من سورة الإسراء والمعراج ، ومن قصة الإسراء والمعراج ، أنَّ هذه الأمة يجب أن تكون شامةً بين الأمم ، أن تكون ذات شخصية ممتازةٍ مميزة ، ذات شخصيةٍ قيادية ، نحن الأساتذة والشعوب كلها تابعة. . . أقول لكم بصراحة: إن المسلم إذا لم يعتقد أنَّه هو الموجِّه للعالم ، فإنه لم يفهم الإسلام فهماً صحيحاً. . . جزى الله الشاعر الإسلامي العالم الدكتور محمد إقبال ، كان هناك اتفاق على عدم صحة الحديث: «لولاك لما خلقت الأفلاك» ، ولكن الدكتور محمد إقبال يثبت أنَّ أي مسلم إذا لم يعتقد أنه ينطبق عليه هذا الحديث إنما خلقت الأفلاك له ، وإنما خلقت الأرض له؛ فإنَّه مقصر في أمره ، يجب على كلِّ مسلمٍ أن يعرف أنه القطب الذي يدور حوله الرحى رحى المدنية ورحى البشرية ، ورحى العلوم ، هو بمكان القيادة والزعامة ، ليس مركزنا مركز المقتبسين فقط ، لقول الحديث الشريف: «الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ بها» ولكن كما يقول الأمير شكيب أرسلان في تعبيره البليغ: «من استرقَّ شيئاً وقد استرقَّه فقد استحقه» فإذا كنا مقتبسين فيجب علينا أن نكون مسترقين حتى نكون مستحقين ، من استرقَّ شيئاً أي: جعله خاضعاً لنفسه وأخضعه

لمقومات حياته ، أخضعه لشخصيته وكيفه من حيث إنه مسلم فليس بسارق . . بل هو مسترق .

أصبنا نحن الأمة الإسلامية والمسلمين بمركب النقص ، إنَّ المسيحيين يغارون على شعاراتهم ، ولكن نحن المسلمون لا نغار على شعاراتنا ، يجب أن تكون الفنادق في البلد العربي الإسلامي خاضعةً لحضارة هذه البيئة ، ولتاريخ هذه البيئة ، ولعقائد هذه البيئة .

يجب أن نصوغ الحضارة من جديد ، نصوغها صياغةً إسلاميةً جديدة تختلف عن الحضارات الأخرى ، هذا يحتاج إلى الاستقلال الفكري ، والاستقلال التخطيطي ، والاستقلال الشخصي ، ولكنا نحن فقدنا الاستقلال ، الاستقلال العقلي ، والاستقلال الفكري والاستقلال الحضاري ، كثير من البلاد قد تحررت من الاستعمار الأوربي سياسياً وإدارياً ، ولكن ما تحررت عقلياً ، وثقافياً ، ولا يزال الغرب جاثماً على رؤوسنا متغلغلاً في صدورنا ، يبيض ويفرخ . يجب أن نتحرر منه كلِّياً ، ونكون أمة حرَّةً بكل معاني الكلمة .

* * *

دور الأمـة الإسلاميـة فـي إنقـاذ الـبشريـة وإسعادهـا

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مقر المؤسسة الإسلامية الواقع بِستر قريب (لندن).

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين ، أما بعد:

حضرات الإخوان ، والضيوف الكرام ، والمستمعين الكرام! إنني أحمد الله تبارك وتعالى على أنه أتاح لي فرصةً أخرى لهذا اللقاء الكريم الحبيب ، والاجتماع بهذه المجموعة الطيبة الهادفة السليمة ، المتألمة لما يعانية العالم بصفةٍ عامة ، ولما تعانيه هذه القطعة التي كتبت لها القيادة العالمية ، والتوجيه ـ لحكمة يعلمها الله ـ بصفةٍ خاصة ، إنني سعيدٌ بأنَّ الله سبحانه وتعالى أتاح لي هذه الفرصة للحديث في هذا المكان الرئيسي الحساس الذي لا يزال له نفوذ كبير ، والذي لا تزال له مكانةٌ مرموقة ، واحترامٌ زائد.

إخواني! وأنا كذلك أحمد الله تبارك وتعالى على أنني أتحدث إليكم أولاً باللغة العربية التي هي لغة القرآن ، والتي هي لغة الإيمان ، ولغة الرسالة المحمدية ، والتي كانت ولا تزال ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ لغة ، لا أقول إنها لغة الإسلام الرسمية ، لأنني لا أومن بالرسميات ، ولكن لغة الإسلام الدينية ، ولغة الإسلام الإيمانية ، ولغة الإسلام العلمية ، ولغة الإسلام العقلية ، والثقافية.

إخواني! إنني تلميذٌ صغير من تلاميذ مدرسة القرآن العامرة الخالدة ، وإنَّ الله يشرفني ، ويكرمني ، ويمنحني فرصةَ القراءة وبعض التدبر في القرآن ، وأشعر بهذا النسب المشترك بيننا وبينكم ، النسب العقلي والإيماني ، وأقول اعتماداً على ذلك: إنكم كلكم تقرؤون القرآن ، ومن طبيعة الإنسان أنَّه إذا رأى شيئاً غريباً تملكه الحيرة في بعض الأحيان ، وتملكه الدهشة في بعض الأحيان ، ويملكه الروع في بعض الأحيان ، ولكن هذه الدهشة تزول سريعاً أو على فترةٍ ، وهذه الحيرة تزول كذلك ، ولكنني أقول لكم بكل صراحة ـ وقد ألقى الله في روعي أن يكون هذا

موضوع حديثي اليوم ـ: إنني كلما مررت بهذه الآية الكريمة التي هي من آخر آيات سورة الأنفال وهي: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] أنا أتساءل، كرجلٍ واعٍ، وكرجلٍ يعيش في هذا العالم، إنني أحار، ويملكني العجب، بل تملكني الدهشة والحيرة: لمن يقال هذا؟ ومتى يقال هذا؟ وفي أي مكانٍ يقال هذا؟.

يقال هذا لحفنةٍ[1] بشرية ـ إذا قيست إلى العالم المتمدن المعمور، وإلى النفوس البشرية العائشة الموجودة في ذلك الزمان يعني في سني الهجرة الأولى ـ فقد كان المسلمون في تلك الفترة الزمنية، قطرةً أمام البحر الإنساني الزاخر، كانوا حفنةً بشريةً فقط، كانت حول مدينة يثرب، (المدينة المنورة العزيزة المحترمة التي نفديها بنفوسنا وأرواحنا، ولكن اسمها القديم يثرب) بل كانت حول الجزيرة العربية إمبراطوريتان واسعتان ممتدتان إلى أقصى العالم، قد توزعتا العالم ـ كما يقول المؤرخون الأوربيون ـ العالم المتمدن المعمور، توزعته إمبراطوريتان، الإمبراطورية البازنطينية التي خلفت الإمبراطورية الرومية، والتي كان مقرها قسطنطينية، والإمبراطورية الساسانية، الإمبراطورية الإيرانية، قد استحوذتا، وسيطرتا على العالم المتمدن المعمور وكان هذا البحر المدني الحضاري يموج حول الجزيرة كلها، كانت هنالك حضارات، وكانت هنالك فلسفات، وكانت هنالك مؤسسات علمية، وكانت هنالك فتوحٌ مدنيةٌ، وعقليةٌ، وسياسيةٌ، واقتصاديةٌ، وعمرانية.

ما نسبة هذه الحفنة البشرية التي كانت قد وجدت في المدينة المنورة بفضل دخول الإسلام أولاً في المدينة، وبعد ذلك انتقال عددٍ قليلٍ من مكة إليها، وتعرفون كلكم أنَّ الهجرة ليست بالأمر الهيِّن، فإن الهجرة هي مغادرة الوطن والأهل، والانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى، إنها تطلب تضحيةً كبيرةً، وهمةً عاليةً، إنها تطلب مخاطرةً بالمال، ومخاطرةً بالنفس، ومخاطرةً بالأهل.

---

(١) الحفنة (بفتح الحاء) والحفنة (بضم الحاء): ملء الكفين.

وقد كان إحصاء المسلمين في المدينة بأمر رسول الله ﷺ ، فلم يتجاوز عدده ألفاً وخمسمئة (١٥٠٠) رجل ، وقد كان ذلك كما يرى بعض أصحاب السير ، عند الخروج إلى أحد ، وقد كانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فكان ذلك بعد ما مضى على الهجرة ثلاثة أعوام ، وجزم بعض علماء السِّير وشراح الحديث بأنَّ ذلك كان عند حفر الخندق ، وقد كانت غزوة الخندق ـ أو غزوة الأحزاب ـ في شوال سنة خمس من الهجرة ، فكان أمد الإحصاء أطول من الأول[1] .

على كلِّ حال كانوا حفنةً بشرية ، كانوا حفنةً بشريةً مغمورةً في بحر هائج مائج من البشر ، ومن الحضارات ، ومن الثقافات ، ومن الألسن واللغات ، ومن المدنيات والزخارف ، ومن المظاهر الخلابة ، يقال لهذه الحفنة البشرية : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ يعني : إن لم تتألفوا ، ولم تكونوا وحدةً بشريةً مميزةً ، تقوم على العقيدة الممتازة والهدف الواضح إلى إنقاذ البشرية وإسعادها ، وعلى نمطٍ خاص من الحياة والقيم والأقدار الخاصة ، وعلى التصميم على القيام بالدعوة ، وإن لم تتخذوا الحياة الإيمانية الخلقية المثلى شعاركم ، ولم تكونوا نموذجاً فريداً للإنسانية ، ولم تصمموا على نشر الدعوة الإسلامية إلى أقاصي الأرض ، وعلى إخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، ومن الدَّمار والهلاك والشقاء ، إلى السعادة الأبدية ، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

لمن يقال هذا؟ ومتى يقال هذا؟ وفي أيِّ بيئة ، وفي أيِّ محيطٍ يقال هذا؟ ولكن كما يقال «العبرة بالقيمة ، ليست العبرة بالقامة» فكان هؤلاء المسلمون الذين لا يتجاوز عددهم ألفاً وبضع مئات ، هؤلاء كانوا صغيرين

---

(١) جاء في صحيح البخاري ، عن أبي وائل ، عن حذيفة ، قال : قال النبي ﷺ : «اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس» فكتبنا له ألفاً وخمسئة (١٥٠٠) رجل ، وقلنا : نخاف ونحن ألف وخمسمئة؟ ولقد رأيتنا ابتلينا حتى أنَّ الرجل ليصلي وحده وهو خائف» (الجامع الصحيح للبخاري ، الجزء الأول ، كتاب الجهاد ، باب كتابة الإمام الناس) .

في القامة[1] ، لكنهم كانوا كبيرين في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة ، وقد أثبت التاريخ الإنساني المدون ، المحفوظ الموثوق به والمعتمد عليه: أنه دائماً غلبت وانتصرت القيمة على القامة ، وانتصرت القيمة الصغيرة على القامة الكبيرة ، هذا تاريخ الديانات ، هذا تاريخ الحركات الإصلاحية ، هذا تاريخ المدنيات ، هذا تاريخ المغامرات ، المغامرات السياسية ، والمغامرات المدنية ، والمغامرات العلمية ، دئماً غلبت القيمة على القامة.

فالقضية قضية القيمة ، ليست قضية القامة ، فكان المسلمون في المدينة المنورة صغاراً ، وقليلين في القامة ، ولكنهم كانوا كبيرين شامخين في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة.

فيا إخواني! أقول لكم: إنني كلّما مررتُ بهذه الآية الكريمة على كثرة مروري ومرور كلِّ مسلم بها عند التلاوة ـ والحمد لله كلكم تقرؤون القرآن ، وقد تقرؤونه أكثر مني ـ ولكن أقول لكم بصراحة ، ولا أجاملكم ولا أتملّق ، ولا أتظاهر بالعاطفة الإيمانية ، والإجلال القرآني ، أقول بكل إخلاص وبكل صراحة: إنني كلما مررت بهذه الآية الكريمة دهشت ، وقلت: يا سبحان الله! ﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] أيها المسلمون المعدودون بالمئات! إن لم تقوموا بالدعوة الإيمانية ، إن لم تقوموا بدعوة التوحيد ، إن لم تقوموا بالدعوة إلى العبودية الخالصة لله تبارك وتعالى ، والخضوع لحكمه ، وإنه لا خالق غيره ، ولا رب غيره ، ولا معبود غيره ، ولا حاكم غيره ، ولا قوي غيره ، إن لم تقوموا بهذه الدعوة ، تعرفون ماذا ستكون عاقبة الإنسانية؟.

تكون عاقبة الإنسانية وخيمةً ، ذميمةً ، شنيعةً ، هنا في الدنيا التناحر ، تناحر أفراد البشرية ، يتناحرون ، ويتقاتلون ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويسفكون الدماء ، ويرتعون في الشهوات ، ويعبدون النفس ، ويعبدون الهوى ، ويبتدعون طرائق للظلم والإهانة ، والاستبداد ، والقهر ، هذا

---

(١) المراد بالقامة هنا الكمية والعدد الكبير ، وثروة من الوسائل والطاقات.

سيكون مصير الإنسانية إن لم تقوموا أنتم بالواجب ، وبما أسعدكم الله به ، وفرضه عليكم ، فأنا أقول لكم إنَّ هذه المراكز الدعوية والتربوية مع إجلالي ومعرفتي لقيمتها ولغنائها ، ولفائدتها ، إنها في الحقيقة قطرةٌ في البحر ، ما نسبتها إلى هذا البحر الزاخر المائج الهائج ، الذي يزخر هنا في أوربا ، ومن هنا تمتد أمواج هذا البحر ، وعواصف هذا القطر إلى العالم الخارجي ، ما هي الاشتراكية؟ ما هي الرأسمالية؟ ما هي الشهوانية؟ ما هي عبادة النفس؟ ما هو استعباد الإنسان للإنسان ، كلها عواصفُ هوجاء ، ورياحٌ مشؤومة ، رياحٌ تقضي على البقية من الشعور الإنساني ، والمبادىء الفاضلة ، والقيم الإنسانية ، فهنا بحر موَّاج من المادية ، وهذا البحر من ورائه ومعه ثروةٌ زاخرة ، ومددٌ كبير من الرقي الثقافي ، وتقدُّمٌ كبيرٌ في مراكز الطبع ، وآلات النشر ، والإذاعة ، هذه أوربا كلها غنيةٌ في كل ما يستطيع أن يصلح الإنسان ، ويستطيع أن يفيد الإنسان ، ولكنَّها تحولت ، واتَّجهت لسوء قيادة الموجهين والمربين ، وللمعركة الحاسمة ، والحرب الشعواء التي وقعت بين الكنيسة والدولة ، وبين العلم والدين(١) اتجهت إلى الإفساد بدل الإصلاح ، إلى نشر عبادة النفس ، والاندفاع وراء الشهوات اندفاعاً أهوج ، اندفاعاً متحمساً متهوراً ، فأصبحت أوربا تملك زمام العالم ، وترتفع راياتها على الشرق الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وكانت هناك إمبراطورية سياسية ، وإمبراطورية فكرية ، وكان استعماراً سياسياً ، واستعماراً ثقافياً ، واستعماراً فكرياً ، واستعماراً خلقياً ، واستعماراً توجيهياً .

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد مكَّن لهذه الحفنة البشرية التي وجدت وتكونت في المدينة المنورة بفضل تعاليم الإسلام ، من انتزاع السلطة ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ والسيطرة على النفوس ، من جماعةٍ إلى جماعة ، ومن أمَّةٍ إلى أمة ، لا لمآرب النفس ، ولا للشهوات ، ولا للأغراض الخسيسة الفردية ،

---

(١) يرجع للاطلاع عليه إلى كتاب درابر Drapper المشهور (Conflict Between Religion Anód Science) «الصراع بين الدين والعلم» .

أو السيادة العنصرية ، أو القومية ، ولكن لصالح الإنسانية ، مكَّن الله لهذه الحفنة البشرية أن تظهر ، وتتغلب ، وتملك زمام القيادة ، زمام القيادة العقائدية ، زمام القيادة الخلقية ، زمام القيادة الفكرية ، زمام القيادة العلمية ، وزمام القيادة السياسية كذلك ، قد مكَّن الله لهذه الحفنة البشرية في القرن الأول في عصر النبيِّ ﷺ وفي عصر الخلفاء الراشدين حتى فتحوا الإمبراطورية البازنطينية ، ووصلوا إلى قسطنطينية في عصر محمد الفاتح .

وكذلك امتلكوا الإمبراطورية الفارسية الساسانية ، إذا قال إنسان : إن هذه الإمبراطورية ستزول ، رأى الناس إليه عجباً ، ودهشةً ، واستغراباً ، وظنوا بعقله سوءاً ، ما كان يتصوَّر ذلك ، ولكن كلُّ ذلك وقع لإرادة الله سبحانه وتعالى .

فالذي نحتاج إليه ، والذي جرت به سنة الله تبارك وتعالى في تاريخ الديانات ، وفي تاريخ الحركات الإصلاحية حتى في النبوات ، هو أن تقوم قلَّة مهما بلغت من ضآلة العدد والعدد ، تقوم بإخلاصٍ ، وبعزمٍ ، وبوعيٍ ، وبعقلٍ ، وبحكمةٍ ، وبتعاون ، وبتجريد النية لخدمة الدين فقط ، هنالك يُنزل الله نصره ، وقد جاءت في القرآن الكريم تصريحاتٌ كثيرةٌ بأنَّ الله سبحانه وتعالى ينصر الضعيف على القوي ، وينصر القليل على الكثير ، جاءت في هذا المعنى آياتٌ ، فيقول الله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

ويقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

فالمهم الآن أن تقوم منظَّمةٌ ، وتقوم جماعةٌ مؤمنةٌ ، جماعةٌ صاحبة دعوة ، صاحبة مبدأ ، صاحبة غاية ، تقوم بإخلاص ، وبإيمان ، وبحماس ، وبتعاون ، وباتحاد ، وبتجريد النية والقلوب من حبِّ الدُّنيا ، ومن حبِّ الرئاسة ، ومن التنافس في القيادات والعظمة ، هنالك ينصر الله سبحانه وتعالى ، وأتجرأ وأقول لكم ـ وأستغفر الله ربي ، وأعوذ به ـ

وأقول: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] أيها المسلمون في أوربا! أيها المسلمون في أمريكا! أيها المسلمون في إنجلترا! وأتشجع وأقول: أيها المسلمون في البلاد العربية! التي يُحارب في كثيرٍ من بقاعها الإسلام، ويُتخوف من الإسلام ما لا يتخوف من الشيوعية، وما لا يتخوف من الصهيونية، وما لا يتخوف من المسيحية الصليبية، وما لا يتخوف من فساد المجتمع، وانهيار المبادىء الخلقية والقيم المعنوية، يُتخوف من الإسلام أكثر مما يتخوف من أي شيءٍ، أقول لكم أيها الإخوان ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] الآن هنالك حربٌ واحدة تشن الآن، وتقوم، وهي الحرب بين الإسلام، وبين اللا إسلام، وبين عبادة الله، وبين عبادة النفس، وبين التعاليم الإسلامية وبين تقديس القيم الغربية، وإحلالها محل تعاليم الكتب السماوية، هذه هي الحرب الوحيدة القائمة الآن، وهي حرب مسعورة مسجورة.

هذه كلمتي التي حضرتني الآن، وأدعو الله سبحانه تعالى أن يمنحنا من قوة الإرادة، وحسن النية، والإخلاص، والعزم حتى نقوم بنشر الإسلام في هذه القارة التي أفسدت العالم كله زمناً طويلاً، والتي لا تزال لها سلطة كبيرة في إفساد المسؤولين عن المعارف والتربية، والمسؤولين عن الثقافة، والمسؤولين عن الجامعات والكليات، فلا يزال لها أثرٌ في ربوعنا الشرقية، في مناطقنا، وفي بلادنا الشرقية بما فيها البلاد العربية.

ونختم هذه الكلمة بترجمة أبيات لشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الفارسية مقتطفةً من كتابي «روائع إقبال».

يقول محمد إقبال مخاطباً للمسلم:

أيها المسلم! أنت للناموس الأزلي حارسٌ وأمين، ولسيِّد هذا الكون يسار ويمن[1] لقد كانت نشأتك من التراب، ولكن بك قوام العالم وبقاء

(١) يعني أنه آلة بيد القدرة الإلهية، وجارحة لها.

الأمـم ، اشرب كأساً فائضةً من اليقين ، وانهض من حضيض الظنّ والتخمين ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته .

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول ، وسحروا النفوس! الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرةً بالرقة والدلال ، ومرةً بالقيود والأغلال ، تارةً مثلوا دور «شيرين» وطوراً لعبوا دور «أبرويز»[١] لقد أصبح العالم كله خراباً يباباً بإغارتهم ، وغزوهم .

يا بانيَ الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته[٢] .

ونسأل الله أن يوفقكم ويوفقنا لنستحق نصر الله رغم قلة عددنا وعددنا ورغم كثرة عدد هؤلاء المنافسين للإسلام وأعداء الإنسانية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

(١) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال ، و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها ، واستأثر بها .

(٢) زبور عجم ١١٦ ـ ١١٨ باختصار ، وهي زيادة في المحاضرة عند نقلها وكتابتها ، مقتبسة من «روائع إقبال» للعلامة الندوي، طبع في دارابن كثير ، دمشق ـ بيروت .

المجتمع الإسلامي المعاصر

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين، الَّذي عقد في الجزائر في الفترة (٢٨/ محرم و٥/ صفر ١٤١٠ هـ) (٢٩/ أغسطس ٥/ سبتمبر ١٩٨٩ م).

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

استعراض المجتمع الإسلامي في ضوء الواقع :

وبعد! فيسعدني أن أتحدث في موضوع : «المجتمع الإسلامي المعاصر ، ووضعه الحاضر ، وما يحتاج إليه في عودته إلى الصفة اللائقة به ، وقدرته على القيام بدوره في العالم المعاصر ، وأداء رسالته التي يفتقر إليها العالم المعاصر أشد افتقار ، ولعدم وجودها ـ كما ينبغي ـ اختلَّ الميزان ، وامتحنت البشرية بأزمات أفقدت قيمتها ، وهددتها بالفناء العاجل ، أو الآجل .

واقعان يبدوان متناقضين :

إننا إذا تحدثنا عن المجتمع الإسلامي المعاصر ، فلا بد أن ننظر بعين الاعتبار إلى واقعين يبدوان متناقضين ، ولكن لا بدَّ لنا أن نضعهما في الاعتبار ، ونعطيهما حقهما من الاستعراض الأمين والحكم المنصف ، حتى يكون حديثنا ، والنتائج والمقترحات التي ننتهي إليها في ضوء الواقع العملي ، والحقائق الراهنة .

الفارق الأساسي بين المجتمع الإسلامي المعاصر والمجتمعات غير الإسلامية المعاصرة :

إن الواقع الأول هو أنَّ المجتمع الإسلامي المعاصر ، هو المجتمع الوحيد الذي لا يزال محافظاً على الخيط الذي يربطه بتعاليم السماء ، وبالرسالات عامة والرسالة السماوية الأخيرة التي ختمت بها النبوات خاصةً ، والإيمان بالحياة بعد الموت ، والحساب والجزاء يوم الآخرة ، والإيمان والاحتساب والطمع في الأجر والثواب ، والإجلال لكثيرٍ من

المثل والقيم التي جاءت في التعاليم السماوية ، وتمثَّلت أظهر تمثُّل في السيرة النبوية المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وفي حياة خلفائه ، وخريجي مدرسة النبوة ، يجعله هذا الخيط لا يرتاح إلى الحياة الجاهلية ارتياحاً كلياً ، والإخلاد إلى مثلها وقيمها إخلاداً تاماً ، ولا يزال هذا الخيط الرباني يربطه بما وراء هذا العالم المادي ، ويميزه بعض التمييز عن المجتمع الجاهلي العالمي المعاصر ، وذلك حين تقطع هذا الخيط في حياة كل مجتمع ديني يوجد على وجه الأرض ، من أعرق ديانة في القدم ، كالبوذية ، والزردشتية ، إلى متأخرةٍ في الزمان بعض التأخر ، كاليهودية ، والنصرانية.

مصدر قوة خارقة للعادة ، والوسيلة الأقوى للبعث الجديد:

إن الشعوب المسلمة ـ رغم جميع معايبها وجوانب الضعف فيها ـ لا تزال تحمل بقايا تلك العاطفة الفياضة الجياشة من الإيمان والحنان ، والتضحية والإيثار والطاعة والانقياد ، والحبِّ والإخلاص ، التي اتصفت بها هذه الأمة في القديم ، والتي لا توجد في أيِّ أمة مادية على ظهر الأرض ، إنَّ جماهير هذه البلاد الإسلامية ـ رغم جهلها المؤسف ، وتأخرها المؤلم ـ خاماتٌ بشريةٌ ممتازة تصنع منها نماذج إنسانية جميلة ، وطراز رفيع من البشر ، إنَّ أكبر قوتها الإيمان ، والإخلاص ، والبساطة والحماس ، وهذه القوة لعبت دوراً خطيراً في التاريخ ، وصنعت العجائب ، وأتت ببطولات وخوارق تدهش لها العقول ، وهي التي أنقذت هذه الدول الإسلامية ، وأمسكت بيدها في كلِّ وقت عصيب ولحظة حاسمة ، فيجب علينا ـ بناءً على مجرد حبِّ الواقعية والحقيقة ـ أن نقدر هذه القوة الكبرى حقَّ قدرها ، ونعتبرها أضخم رصيد وأمضى سلاح ، وأقوى وسيلةٍ للمحافظة على سلامة البلاد ، وأداء أي واجب كبير ، ودور خطير على مسرح العالم.

إنَّ وجود هذا الخيط الإيماني الذي لم يزل ، ولا يزال يربط المجتمع الإسلامي بفاطر هذا الكون ومدبره ، ومجازي الخلق على الإحسان

والإساءة ، وبخاتم الرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربطاً عقدياً وعاطفياً ـ على تفاوت قليلٍ في الضعف والقوة ، والخفاء والظهور ـ كان ولا يزال مصدر قوةٍ كامنة هائلةٍ لا يقوم مقامه السحر البياني ، والإقناع العقلي والإغراء المادي ، وخضوع لقيادة أو قوة سياسية ، وامتلاك قوة حربية ، ووسائل الإعلام والتربية الجبارة ، قد صنع العجائب ، وأظهر المعجزات التي احتار في تعليلها وتحليلها المؤرخون الأذكياء ، والفلاسفة النبغاء في القديم والحديث.

توفق قادة المجتمع الإسلامي الماضين في استخدام هذه القوة ، وعدم انتفاع القادة العصريين بهذه الثروة والطاقة:

وقد كان حكيماً وموفقاً كلَّ التوفيق من قادة قسم من أقسام هذا المجتمع الإسلامي ، ومجموعةٍ من مجموعات هذه الأمة الإسلامية ، من استخدم هذا الخيط ، وحقق بتحريكه ، من المرامي البعيدة ، والأهداف العويصة ما لم يكن يتوقع ، ويقاس ، من انتصار على قوة حربية كانت النسبة بعيدة بين ما كان يملك من قوة وبين ما كان يواجهه ، واسترداد ملكٍ مغصوبٍ أو دولةٍ زائلة ، وانتصاف من عدوٍّ قاهر ، ومنافسٍ غلاَّب.

نضيف إلى ذلك ما تحقق من النجاح الباهر ، ووقوع ما كان يعتبر شبه مستحيل لزعماء الإصلاح ، ورافعي راية الدعوة والكفاح ، وإثارة الإيمان والشعور في الجماهير المسلمة ، ومحاربة الحياة الجاهلية ، وعيادة النفس والشهوات ، والجمود والركود ، والبطالة والفسولة ، من المصلحين الكبار ، والعلماء الربانيين ، والشيوخ المربين الذين اعتمدوا في دعوتهم الإصلاحية ، وفي «استراتيجيتهم» الدعوية على تحريك هذا الخيط ، والانتفاع به ، في تحقيق مخططاتهم الدقيقة ، وأهدافهم الإصلاحية البناءة البعيدة المدى[١].

---

(١) ليرجع لبعض التفصيلات والأمثلة إلى كتاب صاحب الرسالة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (١ - ٢ - ٣ - ٤) طبع دار ابن كثير ، دمشق ـ بيروت.

وعدم وجود هذا الخيط الإيماني الذي يربط المجتمع غير الإسلامي بفاطر هذا الكون ، وبتعاليمه التي جاء بها الأنبياء في عصورهم ، وتضمنتها الصحف السماوية القديمة التي تناولتها بعد يدُ التحريف ، وفقد الكلمات الدينية ، والحث على مخافة الله تعالى وخشية الحساب والكتاب في الآخرة ، والطمع في الأجر والثواب عند الله ، الكثير من قيمتها وقوتها ، وأثرها على النفوس والعقول ، بل أصبحت في كثيرٍ من المجتمعات غير الإسلامية كلمات مجهولة المعاني ، مثيرة للاستخفاف والاستهزاء ، جعل عمل الدعوة إلى الله ، والمجازفة بالنفوس ، والمنافع المادية ، والثورة على الأوضاع الفاسدة ، والقيم والمثل المزيفة ، من أصعب الأعمال في هذه المجتمعات ، وأطولها طريقاً ، وأقلها نتيجةً وعائدة ، زهد فيه كبار القادة ، وزعماء الإصلاح والتلقين من فساد المجتمع ، فلم يطمحوا إلى قلب الأوضاع على أساس متينٍ ثابتٍ عميق.

تصوير المجتمع الإسلامي وتنويه بما يمتاز به:

وقد أحسن شاعر الإسلام الأكبر الدكتور محمد إقبال التعبير عن هذه الحقيقة على لسان أكبر عدوٍ منافس ، وأعظم معارضٍ بصراً بهذه الأمة ، وحذراً منها ، يقول محمد إقبال في قصيدته «برلمان إبليس» يحكي حديث رئيسه النهائي:

«إني لست خائفاً مما نوهتم به من مذاهب سياسية ، واقتصادية ، وفكرية ، كالشيوعية ، والملوكية ، والديمقراطية ، والإلحادية ، ولكني أخاف أمَّة لا تزال فيها شرارة الحياة والطموح كامنة في رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً. لا يخفى على الخبير المتفرس: أنَّ الإسلام هو فتنة الغد ، وداهية المستقبل ، وليست الاشتراكية.

أنا لا أجهل أنَّ هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فُتنت بالمال ، وشُغفت بجمعه ، وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأنَّ ليل الشرق داجٍ مكفهر، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد

البيضاء التي تشرق لها الظلمات ، ويضيء لها العالم ، ولكني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقضّ مضجعها، وتوقظ هذه الأمة، وتوجهها إلى شريعة محمدﷺ، إني أحذركم ، وأنذركم من دين محمدﷺ حامي الذمار ، حارس الذمم والأعراض، دين الكرامة والشرف، دين الأمانة والعفاف، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغي كلَّ نوع من أنواع الرق ، ويمحو كلَّ أثرٍ من آثار استعباد الإنسان للإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكي المال من كلِّ دنسٍ ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم(١) ، أمناء لله ، وكلاء على المال ، وأيُّ ثورة أعظم ، وأيُّ انقلاب أشدُّ خطراً مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل ، يوم صرَّح بأنَّ الأرض لله ، لا للملوك والسلاطين ، فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس .

وليهنكم أنَّ المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه ، قليل الإيمان بدينه ، فخير لنا أن يبقى مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات ، وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على أذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ، ويبطىء سحره ، اشغلوه يا إخواني عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا العالم ، ويعتزله ويتنازل عنه لغيره ، زهداً فيه ، واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه!»(٢) .

أسباب حيرة العالم الإسلامي: مصادرها، وأسبابها، ونتيجة هذه الحيرة:

والواقع الثاني المعارض للواقع الأول: أنَّ العالم الإسلامي حائر اليوم

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

(٢) «روائع إقبال» للعلامة الندوي طبع دار القلم الكويتية عنوان «برلمان إبليس» ص١٢١ ـ ١٣١ .

بين دين لا يسهل عليه العمل به والقيام بمطالبه لعاداتٍ نشأ عليها ، وتعليم أذابه ، وشهواتٍ لا تتفق مع عقيدته ورسالته ، وبين جاهلية لا ينشرح لها صدره ، لإيمان لا يزال له بقية فيه ، وقوميةٍ عجنت مع الإسلام ، وحضارةٍ تخمَّرت مع الدين.

إنَّ العالم الإسلامي حائر بين فطرته التي تنزعه إلى الدين ، وتاريخه الذي يقبل به على الآخرة ، ويبعث في نفسه الثورة على المجتمع الفاسد والحياة الزائفة ، وبين التربية العصرية التي تزين له المادية وتطبعه على الجبن والضعف ، والزعامة التي تفرض عليه الاتكال على الغير ، والاعتماد على العدو ، والفرار من الزحف.

إنَّ العالم الإسلامي حائرٌ بين شباب ثائر ، ودمٍ فائر ، وذهنٍ متوقد وأزهارٍ تريد أن تتفتح ، وبين قيادةٍ شائخةٍ شائبةٍ ، قد أفلست في العقلية والحياة ، وحرمت الابتكار والإبداع ، والشجاعة والمغامرة.

إن العالم الإسلامي حائر بين مواد خام من أقوى المواد وأفضلها في الإيمان ، والقوة والشجاعة ، وبين موجِّهين وصناع لا يعرفون قيمة هذه المواد ، ولا يعرفون أين يضعونها ، ولا ماذا يصنعون منها.

وقد وُجِّه إلي في حوار في بلد إسلامي عربي سؤال عن أسباب حيرة الشباب المسلم ، فقلت:

«إني كنت مستغرباً جداً إذا لم يكن الشباب الإسلامي في حيرة كما تجدونه وتشعرون به ، إن الشجرة لا تلام على ثمرتها ، إن في إمكان البستاني أن لا يغرس شجرة من الشجرات ، ولكن ليس من المعقول وليس من الطبيعي أنه إذا غرس شجرة معينة ثم سهر عليها ، وغذاها ونماها ، وسقاها ، وأحيا ليالي متوالية في سبيلها ، ووقف في وهج الشمس ، وفي البرد القارس ليحرس منها هذه الشجرة ، ولتؤتي أكلها بعد حين ، ثم إذا آتت أكلها الطبيعية لامها ونزل عليها غضباً ، هذا شيء غير معقول وغير طبيعي ، لأن طبيعة الشجرة ، هي طبيعة الشجرة ، منذ خلق الله هذا الكون،

ومنذ خلق هذه الشجرة ، فشجرة الزيتون هي ستعطي ثمر الزيتون ، وشجرة الرمان ستعطي الرمان ، وهكذا.

إن من أعظم الأسباب في هذه الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة ، هو التناقض في التوجيه ، والإعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقيناً ، وبين ما يطلبه منهم علماء الدين لهذا التناقض العجيب الذي سلط عليهم ومنوا به هو السر في هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت إسلامي ، في أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعي أو بغير وعي ، ثم إنه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادىء الإسلام ، وقرأ التاريخ الإسلامي ـ إذا أكرم الله بذلك وتسنت له هذه الفرصة الكريمة ـ وكان سعيداً بوجوده في بيئة واعية دينية ، ثم سيق ـ ومعذرة إلى اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال في سن مبكرة وليس له خيار ـ إلى دور ثقافة يسمع فيها أولئك الأساتذة الذين يجهلهم ، لأنهم أصحاب اختصاص ، وأصحاب زعامة في كثير من العلوم ، كل ما ينقص ما أبرمته البيئة ، ويقتلع كل ما غرسته في قلبه وعقله التربية الإسلامية ، يسمع ويرى كل ما ينفي كل ذلك ، أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقض عجيب وفي صراع فكري عنيف ، وهذا الصراع الفكري يدوم معه إلى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، إنه حقاً في هذه البيئة التي نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة ، إنه قد يواجه الصراع في ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وإن طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، إنه يعالجه في المسجد ، ويعالجه في المدرسة ، ويعالجه في البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، إنه يتلقى من مؤسسة «الإعلام» ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذي جاء حديثاً إذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية الباقية من آثار التربية القديمة وتحدث فيه ثورة فكرية وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي «صاحبة الجلالة» في نظر كثير من الناس تقدم إليه في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يكسر الصفراء (على تعبير إخواننا السوريين) وقبل أن

يتلو شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظره ، صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز ، أو مقالات مثيرة للشكوك مزعزعة للإيمان والثقة ، فيتلقى شبابنا هذا في رغبة ونهامة ، وفي شوق واستجابة ، إنه يقع في أيديهم كتب علمية لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة ، صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشككهم في الدين ، يشككهم في التاريخ الإسلامي ، ويشككهم في مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي يحملونها ، يشككهم في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادىء وإغراءات ، ومن نظريات علمية ، ويقعون من كل ذلك في حيرةٍ لا تعدلها حيرة ، فخليقٌ بكلٍّ هذا أن يوقع الإنسان ـ وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل ، حصيف الرأي ـ في حيرةٍ ، فكيف بالشباب الغضِّ الناعم؟! وكيف بهذه البراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد؟! كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة؟!

إنَّ مثل ذلك كمثل عجلةٍ أو مركبةٍ ، ركِّب فيها فرس في الأمام ، وركِّب فيها فرس في الوراء ، وكلاهما قويان ، فكما أنَّ هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون ركابها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرُّها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحةٍ يميناً وشمالاً .

إنَّ الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية والإسلامية الكبرى التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، غرس في قلوب الناشئة ، وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثيرٍ من الكهول ، بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى في وجودهم ، تشككوا في كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات . إنَّ هذه الكتب التي أريد من ورائها رزقٌ أو شهرة ، أو زعامةٌ فكرية ، أو هتافٌ وتصفيقٌ أخاذ ، إن هذه كلها غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسي والسر في حيرة الشباب» .

النقاط الرئيسية الحاسمة لتغيير الحال والعودة بالأمة الإسلامية إلى دورها الإصلاحي والقيادي:

ومع تقييم أساليب الدعوة والعمل الإسلامي الذي تقوم به المنظمات والجماعات الإسلامية ، وتقدير جهودها ، لا مانع من الإشارة ـ ولو في غاية الإجمال ـ إلى النقاط التالية التي يجب التركيز عليها في الانتفاضة الإسلامية الجديدة ، وصيانة المجتمع الإسلامي من الجاهلية التي يتطلبها القرن الخامس عشر الهجري في ضوء الواقع ، وتجارب الماضي:

١ ـ تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشعور الديني فيها ، فإنَّ تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمُّسها له هو السور القوي العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد وكثيرٍ من القيادات وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادة الإسلام ، ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأي غاية نبيلة ، وهي من أقوى المجموعات البشرية ، وأحسنها سلامة صدر ، وقوة عاطفة ، وإخلاص.

وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحق بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلب على المشكلات والانتصار على العدو ، كتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدين لله ، والابتعاد عن كلِّ أنواع الشرك ، والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد ، والحياة ، والقول ، والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها أنفسها ، وقادت العالم إلى النار والدَّمار.

هذا مع تنمية الوعي الصحيح ، وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر؛ حتى لا تتكرر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية ، والثقافية ، ولعبة القيادات الداهية ،

والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الديني والعقل الإيماني.

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية ، لأنَّ هذه الحقائق الدينية ، هو أساس الإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية ، وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصحف السماوية.

والحذر من كلِّ ما يقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد والإيمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله ، وطلب رضاه ، والإيمان والاحتساب، والقرب عند الله تعالى، وهذا التحول يفقد هذه الأمة شخصيتها وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كلِّ ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية، والشرك الجلي ، والعادات ، والعبادات الجاهلية، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات غير الإسلامية ، فإنَّ ذلك يتجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوي إلى المنهج الجديد السياسي.

٣ ـ تقوية الصلة الروحية والعاطفية بالنبي ﷺ والحبِّ العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل ، والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل ، والحذر من كلِّ العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحبِّ ، وإضعافه على الأقل ، وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنة ، وتجرؤاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به والولوع بدراسة سيرته ، وكلّ ما يحرك هذا الحب ويغذيه ، ولعل البلاد العربية ـ بفعل أحداث ودعوات قومية ـ أحوجُ إلى العناية بهذه النقطة ، وأحق بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمدية ، وفي لغتها نزل القرآن ونطق الرسول.

٤ ـ كذلك تجب العناية ببقاء الشعور بأهمية الجهاد في المفهوم القرآني

الشرعي الإسلامي ، وإحلاله المحلَّ اللائق من العقل والعاطفة ، ومن الإكبار والإجلال والغبطة على من اتصف به ومثل به دوراً بارزاً ، والحرص على تقليدهم ، والحنين إلى الشهادة ، فإنها ثروةٌ إيمانية ، تمتاز بها هذه الأمة من بين الأمم قديماً وحديثاً ، ومصدر خوارق ، وروائع من البطولة والفداء ، واقترن به نصر الله وتأييده في كلِّ زمان ومكان ، وتخلِّي الأمة عن هذه الطاقة والثروة خسارة لا تعوَّض بشيء ، وفراغ لا يملؤه شيء آخر من التوسع في العلم ، والتقدُّم في العقل والحضارة.

ويستعان في ذلك بكتبٍ تثير في العاملين الدعاة والمستمعين الحماس الديني وتشعل فيهم الحميةَ الدينية ، وترخص الحياة ومتعها وأمجادها في سبيل إعلاء كلمة الله.

٥ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ، ومَنْ بيدهم القيادة الفكرية والتربوية ، والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر ، وتطوراته ، وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى برِّ السلام والسعادة ، وإنقاذ المجتمع البشري من الانهيار والانتحار؛ الذي تعرَّض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنه ليس «بطارية» قد نفدت شحنتها ، أو ذبالة قد نفد زيتها ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلا من ركبها.

إن ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داءُ هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسؤول عن كل تصرفاتها ، وسبب الردة الفكرية والحضارية والتشريعية ، والتي تكتسح اليوم العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة ـ التي لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمس إلا للإسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق ، الواسع بين القيادات والحكومات ، والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فيما لا يعود على الأمة والبلاد بفائدة.

٦ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب المنتشر السائد في العالم الإسلامي رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً ، يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، لا يبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد أو المادية ، وتصور هذا الكون تصوراً مادياً ، والعلوم وحدات متناثرة متناقضة ، والطبيعة حرة قاهرة ، والتاريخ حوادث غير مرتبطة خاضعة لقلقٍ وصراع دائمين ، وهكذا ، ولا يصلحه إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً مهما استنفد من الطاقات ، وكلّف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقوم العالم الإسلامي على قدميه ، وبرأسه ، وعقله ، وإرادته وتفكيره ، ولا تدار الحكومات ، والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة برجال مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومة والإدارة ، والتربية والإعلام ، والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلامي بسماته وخصائصه .

٧ ـ حركة علمية قوية دولية ، تُعَرِّف الطبقة المثقفة الجديدة ، بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت للعالم المتمدن ، أن الفقه الإسلامي وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يوم من الأيام ، هي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدي الناس .

٨ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية ، وفي مشاعر الأمة وأحاسيسها ، وتجريد أمة عن حضارتها الخاصة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيب كبير للذوق الديني الخاص ـ وطابع هذه الأمة الخاص ، مرادف لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلا بد للحكومات الإسلامية والمجتمعات الإسلامية من التخطيط

المدني الإسلامي المستقل ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، ولا بد من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها ، وفي دوائرها وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ومنتزهاتها ، وإلى حد في مكاتبها وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلامي نموذجاً للحياة الإسلامية والمثل الإسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوة صامتة للإسلام.

٩ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلامي ، حضارة قوية عصرية ، مؤسسة على الإيمان ، والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب ، على القوة والإنتاج والرفاهية وحب الابتكار في جانب آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمتهم وبلادهم ، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غرب وشرق ، يستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميل وقرين ، إن كانوا في حاجة إلى أن يتعلموا من الغرب كثيراً ، فهو في حاجة إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منهم ، أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب.

١٠ ـ إقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجو المناسب ، المساعدة على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادة وبركة ونصر من الله ، وسعي لتكوين قيادة موحدة تقوم على مبدأ الشورى الإسلامي ، والتعاون على البر والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الأقل ـ بعدم وجود الإمامة العامة ، أو الخلافة الإسلامية التي كلف بها المسلمون ، وسيحاسبون عليها.

١١ ـ أما البلاد غير الإسلامية فالقيام بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به ، بأساليب حكيمة تتفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر ، أما البلاد التي فيها الأقليات المسلمة ، فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية ، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي ،

والخواء الروحي ، والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد ، حكومة وشعباً ، حتى تهيأ للإسلام أن يثبت جدارته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغي والقيادي في هذه البلاد.

الأمل في القادة المخلصين الجادين الواقعيين :

إنَّ التاريخ شاخصٌ ببصره في مطلع هذا القرن إلى من يحقق مطالب العصر والإسلام التي شرحناها ، ويقوم بهذه التجارب الجريئة الحكيمة ، والمؤرخ ممسك قلمه يسطر به سطور الثناء والإجلال ، ويقلده الزعامة الحقيقية في العالم الإسلامي ، والعبقرية ، والعصامية في التاريخ الإسلامي.

إنَّ الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، وآذنت بالأفول والزوال ، إنها لا تعيش ، ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ، وجدارتها للحياة والبقاء ، بل لأنها ليست في هذا المجال ـ من تعاسة الحظ ـ حضارةٌ تحل محلها وتسد فراغها. إنَّ جميع الحضارات المعاصرة ، والقيادات الحديثة اليوم لا تعدو نوعين ، إما هي مقلدةٌ جامدةٌ ، وصورةٌ شاحبةٌ للحضارة الغربية ، وإما هي ضعيفةٌ ، هزيلةٌ ، مريضةٌ ، سقيمةٌ ، منسحبةٌ ، منهزمةٌ ، لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة ، أو تقف معها جنباً إلى جنب ، فإذا قامت هذه الدول الإسلامية ، والعالم الإسلامي بصورة عامة لسدِّ هذا الفراغ الذي سيحدث بعد نهاية الحضارة الغربية ، وانسحابها عن مسرح القيادة ، ردَّ إليه منصب قيادة الجنس البشري ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرة ثانية ، المنصب الذي لا يفوض إلا إلى أمة فتية أبية ، تحمل كلَّ عناصر البقاء والاستمرار ، والتقدم والازدهار ، سنة الله في الأرض ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

❋ ❋ ❋

حاجة العالم إلى مجتمع إسلاميٍّ مثاليٍّ أفضل

هذه المحاضرة ارتجلها العلامة الندوي في حفلة عامة ، نظّمها فضيلة الشيخ عبد الله علي بصفر يوم ٢٢/ رجب ١٤١٠ هـ الموافق ١٧/ فبراير ١٩٩٠ م في جدّة .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإنه يشرفني ويسعدني أكثر مما يسرني أن أتحدَّث إلى هذه المجموعة الطيبة ، إلى هذه المجموعة المختارة، والصفوة من العلماء والمشايخ والموجِّهين للمسلمين ، والقادة الدينيين ، إنها كذلك مسؤوليةٌ كبيرةٌ ضخمةٌ ينوء الأقوياء بحملها ، فإنَّ الحديث إلى هذه المجموعة المختارة التي هي موضع ثقة المسلمين ، وموضع حبِّ المسلمين ، المجموعة التي تلقى آذاناً صاغيةً ، وقلوباً واعيةً على منابر المساجد ، وفي المناسبات الأخرى ، لهو بمثابة الحديث إلى آلاف من المسلمين .

إنَّ الإنسان إذا خيِّر بين أن يتحدث إلى الجماهير الحاشدة مباشرةً أو على إذاعة من الإذاعات؛ لفضل أن يتحدث على الإذاعة ،لأنَّ الإذاعة تبلغ صوته ، وتبلغ رسالته إلى آلاف من المستمعين بل إلى الملايين في بعض الأحيان ، فحديثي إلى هذه المجموعة الموقرة في الحقيقة حديثٌ على الإذاعة ، ولكنها ليست إذاعةً صناعية ، وليست إذاعةً حكومية ، وإنما هي إذاعةٌ دعويةٌ ، وإذاعةٌ توجيهية ، وإذاعةٌ قيادية ، وإذاعةٌ روحية .

إنِّي أحار في نفس الوقت بماذا أتحدَّث إليكم؟ وأنتم ـ الحمد لله ـ ممَّن يستفاد منهم ، ويتتلمذ عليهم ، وسيدور حديثي حول حاجة اليوم الكبرى في ضوء دراستي وفي ضوء سياحاتي وجولاتي ، ليس في المنطقة الشرقية الإسلامية فقط ، بل في المنطقة الغربية ، والمركز الحضاري ، والمركز القيادي في العالم ، كأمريكا ، وأوربا ، وكالشرق غير الإسلامي كشبه القارة الهندية ، وما جاورها من البلاد .

إنَّ الحاجة الكبرى اليوم أيها السادة: هي وجود مجتمع مثالي نموذجي برضاء الله تبارك وتعالى ، ويكون في صالح الإنسانية ، ويكون نموذجاً بل مرآة للتعاليم الإسلامية في العقائد أولاً ، ثم في الأخلاق ، والمعاملات ، وشُعبَ الحياة ، هذا المجتمع المفقود ، لا أقول معدومٌ ، وإني أعيذ نفسي أن أقول هذه الكلمة ، ولكنه مجتمعٌ مطلوب في الواقع ، ومجتمعٌ محتاجٌ إليه ، إنَّه لا يغير وضع العالم في هذا الوقت شيء مثل ما يغير وجود هذا المجتمع المثالي الإسلامي ، وإنَّ الإسلام ما شقَّ طريقه إلى الأمام كما تعرفونه جميعاً ـ ولا أقول: إني أزيد في معلوماتكم ـ إنَّ الإسلام ما شقَّ طريقه إلى الأمام ، وما فتح الله له هذه الفتوح العظيمة التي لا تزال موضع دهشة المؤرخين ، والمتبصرين ، والناقدين ، ولم يستطع الإسلام أن ينشىء نمطاً جديداً من الحياة ، وأن يجلب الشعوب والأمم ، والعقول ، والقلوب ، والنفوس والأرواح ، في كمٍّ وكيف ليس لهما مثالٌ في التاريخ الإنساني ، لم يستطع الإسلام أن ينجز أو يحقق هذا المطلوب ، وأن يصل إلى ما وصل إليه في الماضي ، ولا تزال له آثارٌ باقيةٌ ليس بتعاليمه وتوجيهاته فحسب ، ولا بمبادئه ومثله ، بل المجتمع الحيُّ الذي يسعى على القدم ، ويتكلم باللسان ، ويعمل باليد ، ويشعر بوجوده في الحياة في الخارج.

لقد كان هذا المجتمع مفقوداً بل كان معدوماً منذ قرون بل منذ آلاف من السنين ، وكانت التعاليم الخلقية في الصحف السماوية ـ إذا كانت هذه الصحف السماوية على أصلها ، وإلا ضاع منها الكثير ، وحُرِّف منها الكثير ـ ولكن لم يكن يوجد مجتمع يتنفس فيه الإنسان ، ويشمُّ فيه رائحة الإيمان ، ويشعر بالنفس الإيماني والشعور الإيماني ، وتملأ جوارحه ، وتغمر قلوبه نفحاتٌ ربانية ، نفحات روحانية ، يشعر في ذلك بالسعادة الحقيقية ، ويشعر بأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة ، ومن الشقاء إلى السعادة ، ومن العذاب إلى النعيم.

هذا المجتمع الذي أوجده محمدٌ ﷺ ، وكان مركزه الأول في المدينة

المنورة ، ثم امتدَّ هذا المجتمع حتَّى تخطَّى الحدود ، وبلغ إلى أقصى الأرض ، هذا المجتمع هو الذي جلب القلوب والنفوس إليه ، وكان أكبر برهان ، وإنَّ ألف برهانٍ في جانب ، وألف دلائل عقلية في جانب ، ووجود هذا المجتمع ووجود هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يمثلون هذا المجتمع كان كافياً ، كان الإنسان إذا دخل في هذا المجتمع انجذب إلى هذا المجتمع بقلبه وقالبه ، وعشق هذا المجتمع وما أحب أن يفارق هذا المجتمع ، وأراد أن يعيش فيه ، ويموت فيه ، يروى عن سيدنا الإمام ابن شهاب الزهري ، وهو من كبار التابعين ، وممن عليه الاعتماد في رواية الحديث ، يقول :

«لما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس ، وكلَّم الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»(١) .

وذلك في فترة ما بين صلح الحديبية وفتح مكة ، لأنه قد سمح لهم وتيسر لهم لقاء أقاربهم ، وقضاء بعض الوقت معهم ، ورؤيتهم عن كثب ، وقضاء النهار معهم ، فرأوا أنهم نمطٌ آخر من الإنسانية ، ونموذجٌ آخر ، لا يكذبون ، ولا يسبُّون ، ولا يغضبون غضباً مفرطاً ، ويؤثرون على أنفسهم وأبنائهم ولو كان بهم خصاصة ، ويذكرون الله قياماً ، وقعوداً ، ويحتسبون في كلِّ عمل ، لا يعملون عملاً إلا بإيمان واحتساب ، كأنَّ بيوتهم قطعةٌ من الجنة ، قطعةٌ من جنة الفردوس ، لا جدال فيه ، ولا سباب فيه ، ولا غيبة فيه ، ولا حسد فيه ، ولا مراء فيه ، فكانوا يسلمون ، يأتي الواحد إلى خاله ، ويأتي الثاني إلى عمه ، ويأتي الواحد إلى ابن أخته ، وإلى ابن عمه كما جرت العادة ، لأنه قد أزيلت تلك السدود التي كانت بين أبناء قريش ، بين الكفار من قريش ، وبين المسلمين ، وأمنوا على نفوسهم وأرواحهم ، وجاؤوا يزورون إخوانهم وأقاربهم .

وإذا قضوا معهم أياماً ، كانوا يفكرون ، فقد رزقهم الله تعالى سلامة

---

(١) سيرة ابن هشام ١ ق٢ ص٣٢٢ .

الفكر ، إنهم استعرضوا الوضع ، فقالوا: نحن من نسلٍ واحد ، من ذرِّيةٍ واحدة ، نحن بنو عدنان ، نحن بنو قريش ، ثم لغتنا واحدة ، يتكلَّمون بالعربية ، ونحن نتكلم بالعربية ، ثم إنَّ غذاءهم واحد يأكلون كلَّ ما نأكل ونأكل ما يأكلون ، ثم إنَّ لباسنا واحد ، لأنَّ العرب كانوا يلبسون لباساً واحداً وزيّاً واحداً ، من أين جاء هذا الفرق ، من أين جاء هذا الفرق الهائل ، هذا الفرق المدهش ، من أين وقعت هذه الفجوة العميقة بين حياتنا وحياتهم ، هؤلاء كأنهم ملائكة ، ونحن بشر ، إنهم أسلموا بعد ذلك ، وعلى كلِّ حال هم من قبيلة رسول الله ﷺ ، فكانوا يرون هذا الفرق الهائل فيفكرون؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى رزقهم سلامة الفكر والقدرة على الموازنة والاستعراض الصحيح ، فقالوا: إنما جاء هذا عن طريق الإسلام ، لماذا لا نسلم؟ فأسلم هذا العدد الكبير؛ لأنهم رأوا الإسلام بأعينهم يسعى على قدميه ، ويتكلَّم بلسانه ، ويلمسونه لمساً؛ لأنَّ القضية ليست قضيةً فكرية ، أو قضية مقارنةٍ بين الديانات ، أو قضية عقلية قياسية ، بل أصبحت قضيةً عينية ، قضيةً مشاهدة.

أيها السادة! إننا الآن في حاجة إلى مثل هذا المجتمع ، وقد قرأتم في التاريخ: أنَّ هرقل إمبراطور الروم مرَّةً سأل أحد رجال قواته ، أو أحد قادة جيشه ، فقال: يا فلان! بالله أخبرني أنا أرسل جيشاً بعد جيش ، وكتيبةً إثر كتيبة ، هذا الجيش الذي هزم الإيرانيين في الأمس القريب ، ودمَّرهم ، وكسر شوكهم ، وتغلغل في بلادهم ، كيف يعجز هذا الجيش عن أن يتغلب على جيش المسلمين الذين ما مارسوا الحروب ، ولم تكن لهم تجارب حربية مثل ما كانت للإيرانيين! كانت إيران إمبراطوريةً راقيةً من أرقى الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ ، إنهم كانوا يعرفون الأساليب الحربية كما نعرف أو أحسن منا ، كيف استطعنا أن نهزمهم ، ولا نستطيع أن نهزم هؤلاء العرب البدو ، سكّان الخيام ، ورعاة الإبل؟ كيف لا يستطيع هؤلاء القادة المحنكون الذين هزموا إيران بالأمس أن يتغلبوا عليهم؟ صفهم لي ، قال: أو تعفيني يا جلالة الملك؟! قال: لا! صفهم لي ، قال: إذاً تسامحني ، فقال له: قل ما شئت. قال: هؤلاء بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ، هم

عباد ليل ، وأحلاس خيل ، إذا دخلت في مسجدٍ في الليل لم تستطع أن تسمع صوتهم لدوي ما يقرؤونه من القرآن ، لهم دوي كدوي النحل ، ولا يأخذون شيئاً من دكان إلا إذا أدَّوا ثمنه ، وإذا سرق ابن أميرهم قطعوا يده ، فقال: والله إن صدقت فإنَّهم سيصلون إلى موضع قدمي هاتين! وهكذا كان.

هذا المجتمع هو حاجة الإنسانية الآن ، لقد ارتقت المدنية كما تعرفون إنها وصلت إلى آخر نقطة ، إلى أوجها ، استطاع الإنسان اليوم أن يسبح في الجوِّ ، استطاع أن يصل إلى القمر ، وكما يقول الدكتور محمد إقبال: «إن الذي أسر أشعة الشمس ، ووصل إلى القمر ، لم يعد يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان» وكما قال عالمٌ هندي لفيلسوف بريطاني ، كان هذا البريطاني الإنجليزي يتبجح ، ويذكر رقي المدنية ، والفتوح التي حققتها المدنية الغربية والصناعة الغربية ، قال: إننا قطعنا رمالاً طويلة ، أو عويصة ، وإننا قطعنا في كذا من الساعات في السيارات ، ونحن نسير من مكان إلى مكان بالرحلة الجوية بالطائرة في كذا من الوقت ، ونحن فعلنا كذا وكذا ، فقال هذا العالم الهندي: نعم ، إنكم استطعتم أن تطيروا في الجو كالطير ، واستطعتم أن تسبحوا في الماء كالسمك ، ولكنكم لا تحسنون المشي على الأرض كإنسان ، فالمدنية الغربية في الحقيقة متناقضة ، إنها وصلت إلى أرقى مدى من الصناعة ، ومن الفتوح العلمية ، والفتوح الاكتشافية ، ولكنها أفلست في الإنسانية ، أفلست في البشرية.

نحن الآن في حاجةٍ إلى أن نحاول أن ننشىء مجتمعاً نموذجياً مثالياً في بلدٍ من بلاد الإسلام ، وإني أقول لكم ، وأؤكد لكم: إنه إذا وجد هذا المجتمع لجاء الجوابون ، لجاء التواقون ، لا أقول الجوابون أقول التواقون ، لرؤية هذه المدنية من أقاصي الدنيا ، ليقضوا يوماً واحداً في هذا المجتمع ، إنَّهم سئموا الحياة الآلية فعلاً ، إنهم يملكون العالم بالقوة السياسية ، والحربية ، والمالية ، ولكنَّهم قد سئموا هذه المدنية ، وإنهم في شوق إلى أن يجدوا مجتمعاً سليماً ، مجتمعاً صالحاً ، مجتمعاً مثالياً مجتمعاً خلقياً ، فإذا سمعوا أنَّ في أي جهةٍ من جهات الشرق الإسلامي ،

في أي مكانٍ من أرض الله وُجد هذا المجتمع لجابوا الآفاق ، وقاموا بالرحلات الطويلة الباهظة لرؤية هذا المجتمع ، نحن في أشد الحاجة لننشىء هذا المجتمع ، وهذا لا يكون إلا إذا كان عن طريق المنابر في المساجد ، وعن طريق التوجيهات التربوية ، وعن طريق الدروس الدينية؛ لأنَّ المسلمين الآن لا يزالون على خيرٍ ما داموا مرتبطين بالعلماء ، وبالتوجيه الديني ، وبالدروس الدينية ، فيجب أن نزيل ذلك التناقض الذي حدث في حياة المسلمين.

لقد أصبحت حياة المسلمين وحداتٍ متنافرة ، بل في بعض الأحيان وحداتٍ متناقضة ، وحدة دينية فيها صلاةٌ وصيام ، ولكنْ فسادٌ في المعاملات ، وضعفٌ في الأخلاق ، وإخلالٌ بالواجبات والفرائض ، وهكذا ، وإذا كانت هناك بيئةٌ صالحةٌ في ظلال الدين ، فهنالك حياةٌ غير صالحة في البيوتات ، الحياة العائلية ليست حياةً مثالية دينية ، يجب أن تجمع هذه الوحدات كلُّها ، فتكون حياةُ المسلمين وحدةً واحدةً ، لا مقسمة موزعةً من وحدات كثيرة ، فيقال: إذا أردتم أن تأخذوا صورةً مشرقة للإسلام والمسلمين ، فعليكم بالمساجد ، ومن يدخل في المساجد من غير المسلمين؟ .

أذكر لكم بهذه المناسبة مثالاً من تجربتنا في الهند ، بلد الأغلبية غير الإسلامية ، قمنا في الهند بحركة تسمى «حركة رسالة الإنسانية» نخاطب بها المسلمين ونوجهها إلى غير المسلمين أيضاً ، فندعو إلى الأخلاق الصالحة ، والحياة الشرعية النزيهة ، وإلى التسامي عن عبادة المادة ، وعبادة الأموال ، والرشا ، والخيانات ، والجنايات ، وندعو إلى حياةٍ شريفةٍ نزيهةٍ خُلُقية ، وبذلك أقول للمسلمين: تستطيعون أن تتولوا قيادة هذه البلاد؛ لأن هذه البلاد في سبيل انتحار جماعي ، وفي سبيل انهيار مفزع ، ليس المجتمع الهندي وحده ، بل كل مجتمع ، أقول لكم عن تجربة ومشاهدة: كل مجتمعٍ في العالم يسعى بسرعة إلى الانهيار الجماعي ، والانتحار الجماعي ، أنا أقول لهم: إنكم إذا كنتم ممثِّلين للإسلام وللأخلاق الإسلامية وللحياة الإسلامية فتستطيعون أن تنقذوا هذه البلاد ،

ثم الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠٥] فأنتم بذلك تستطيعون أن يكرمكم الله مرةً ثانية بقيادة البلاد ، وقد لفتُّ أنظار المسلمين إلى مواضع الضعف في حياة المسلمين أيضاً ، مثلاً في المعاملات ، في الأخلاق ، في التجارات ، ومثلاً في الوظائف ، وفي أداء الواجب ، وقلتُ لهم: أصلحوا أنفسكم أولاً ، ثم قودوا البلاد ، ثم تسلَّموا مسؤولية إنقاذ البلاد ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] ليس النبيُّ ﷺ على الأرض بيننا الآن ، ولكن أمته لا تزال ، لا يسوغ أن تنهار بلادٌ ، وأن تسقط بلادٌ ، وأن تكون فريسةَ الدَّمار والانهيار والانتحار مع وجود الأمة الإسلامية فيها ، فأنتم المسؤولون أمام الله ، ومسؤولون في التاريخ كيف انهارت هذه البلاد؟ وكيف غرقت هذه السفينة وأنتم من ركابها ؟ كيف تغرق سفينة وأنتم ركابها؟ إنكم تستطيعون أن تجدفوا هذه السفينة إلى النجاة ما دمتم على السفينة ، مع زملائكم الركاب الآخرين، فأنتم تجدفون هذه السفينة ، فقودوا البلاد قيادةً خلقيةً ، قيادةً إنسانيةً. إنَّ الناس ينظرون إليكم بنظرة إجلال وتقدير ، أما المنافسات السياسية فقط ، وأما الحروب الطائفية فقط ، وأما الاصطدامات المادية فقط ، وأما التكالب على المادة ، هذا لا يرفعكم ، ولا يشرِّف قدركم ، ولا يرفع منزلتكم في عيون الآخرين ، أنتم إذا تجردتم عن الأنانية ، وإذا تجردتم عن الشهوانية ، وإذا تجردتم عن عبادة المادة ، وإذا رثيتم للإنسان مهما كان ، هنالك يكرمكم أهل البلاد ، وينظرون إليكم كالمنقذين.

إنني ألقيت كلمةً في مناسبةٍ في ملتقى كبيرٍ في إحدى مدن الهند الكبيرة ، عاصمة من عواصم الولايات ، وحذَّرتُ الناس من الأخطار التي تتحدَّى البلاد ، فقلت:

إنَّ المجتمع الهندي يمشي بخطىً سريعةٍ إلى الدَّمار ، والبوار من أجل انتشار الرشوة ، وعبادة المادة ، وصوَّرتُ لهم وضع البلاد ، فجاء زعيم من زعماء الطوائف وأراد مقابلتي ، فخشيت أن يوجه إليَّ أسئلة يناقشني ،

ولكن بعد ذلك سمحت فجاء ، وقال: إنني قد سمعت كلمتكم بالأمس ، فوصلت إلى نتيجةٍ ، وهي أنّكم تهتمون بهذه البلاد أكثر منا ، أنتم تهتمون بهذه البلاد ، وأن وضع البلاد يقلقكم أكثر مما يقلقنا! فقلت: هذه والله شهادة لها قيمة! هكذا يجب أن يكون المسلمون في هذه البلاد حتى ينظر إليهم مواطنوهم كمنقذين للبلاد ، ويرجعون إليهم كما يرجع الإنسان الغريق إلى سفينة.

هكذا يجب أن يكون في البلاد الإسلامية وخصوصاً في مركز الإسلام مجتمعٌ ممثل ، مجتمعٌ حيٌّ متحرك ، مجتمعٌ يمكن أن يُلمس باليد ، ويُشعر به في جميع مرافق الحياة، في جميع نواحي الحياة، هذا هو الشيء الذي يتعطّش إليه العالم كله ، غربياً كان أم شرقياً ، إنه موزع بين المراكز من القيادات الغربية والشرقية ، لكنه ليس في حاجةٍ أكثر من حاجته إلى وجود مجتمعٍ صالحٍ ، مجتمعٍ مثاليٍّ نموذجيٍّ ، يطبق تعاليم الإسلام ، ويفكر في مصير الإنسانية ، يتألّم لما يرى حوله من أزماتٍ ، ومحنٍ ، وإهاناتٍ للإنسانية ، ونسيانٍ للخالق ، واستعباد الإنسان للإنسان ، هذا المجتمع هو حاجة العصر الكبرى ، وأنتم تستطيعون أن تنشئوا هذا المجتمع أولاً في هذه البلاد المقدسة التي فيها نشأ ، وهنا ولد ، وهنا شبَّ ، وهنا ترعرع ، ومن هنا خرج ، وفتح الآفاق ، وفتح العالم ، فالمسؤولية ترجع إليكم أولاً ، وإن شاء الله نترسم خطاكم ، ونمشي خلفكم. والعالم الآن ، أقول لكم بصراحة: العالم الآن؛ لا يقيم وزناً كبيراً للرفاهية وللرخاء وللثراء الفاحش ولوسائل المعيشة لما يعود على أهل البلاد بالرخاء والثراء ، العالم لا يهابه ، ولا يقيم له وزناً كبيراً ، إنما يقيم وزناً للمثل ، والمبادىء ، والأخلاق ، والمعاملات ، وأسلوب الحياة ، ونمط الحياة.

أنا لا أكفر بالنعمة ، بل أشكر الله تعالى على ما أنعم الله به علينا من وجود آلات الترفيه ، ومن آلات المدنية ، من كثرة السيارات ومن الأنوار المنيرة للبلد ومن هذا المستوى الرفيع من المدنية ، أقول: هذا كله من فضل الله ، أنا لا أكفر بنعم الله ، ولكن العالم لا يقيم له وزناً كبيراً ، إنما يقيم الوزن الكبير للأخلاق ، وللمجتمع المثالي ، الإنسان إذا دخل في هذا

البلد سمع اسم الله تبارك وتعالى ، رأى الناس يخشعون في المساجد ، رأى الناس يخدم بعضهم بعضاً ، إنَّ القادمين من الغرب لا يدهشون إذا دخلوا مطاعمنا وفنادقنا ، وعندهم أكبر من هذه الفنادق ومن هذه المنازل ، ولكنهم هم يجلّون ، ويقدرون ، وقد يخشعون في بعض الأحيان إذا رأوا هنالك حياة صادقةً ، بسيطةً بعيدةً عن التكلفات ، وعن التنميق ، وعن التنافس المادي ، وعن المظاهر. الحقائق غالبةٌ على المظاهر ، أما إذا كانت المظاهر غالبة على الحقائق، فهم الذين اخترعوا هذه المظاهر ، ومنهم استوردنا هذه المظاهر ، وهم أهل البضاعة ، ثم لا يقيمون لها وزناً كبيراً ، أما إذا دخلوا هنا ورأوا السكينة تغشى المدينة كلها ، يعني قلوبهم تشعرهم بأنها تشعر بسكينة ، تشعر بالخشوع لله تبارك وتعالى ، تشعر بالاحترام للإنسانية ، تشعر بالتواضع وبالبساطة ، هنالك يخضعون ويدخلون في الإسلام أفواجاً ، وهكذا دخل الناس في الإسلام أفواجاً ، رأوا حياةً بعيدةً عن مخيلاتهم ، وبعيدةً عن تجاربهم كلَّ البعد ، هؤلاء بشرٌ مثلنا ، لا فرق بيننا وبينهم ، يجوعون ، ويعطشون ، ويمرضون ، ويصحّون ، هم خاضعون للنواميس البشرية ، ولكنهم كأنَّ هنالك عالماً آخر أمامهم ، تعرفون أنَّ رجلاً أسلم ، وهو جبار بن سلمى ، وكان مستبعداً أن يسلم ، فقالوا له: كيف أسلمت؟ قال: والله إنَّ قصة إسلامي أنني واجهت مسلماً ، اسمه حرام بن ملحان طعنته برمح ، ودخل هذا الرمح من جانب ، وخرج من جانب آخر ، فلما خرَّ صريعاً ، قال : «فزت ورب الكعبة»[١]! قلت ما معنى هذا؟ هل أنا في حلم أم هذا كاذب ، والإنسان لا يكذب عند الموت ، فإذا كان يكذب في بعض الأحيان فعند الموت لا يكذب ، وما جرب على العرب الكذب ، ولا النفاق ، إنما كان النفاق من خصائص المدينة جاء عن طريق اليهود ، هكذا كانوا يفسرون أنَّ الآيات التي نزلت في النفاق ، وفي ذم المنافقين كلها مدنية؛ لأن النفاق ما كان يوجد في مكة ، فالطبيعة العربية ضد النفاق ، وضد الكذب ، إنه استغرب وحار: طعنت

---

(١) راجع البداية والنهاية ج٤ ص٧٠ ـ ٧٢ ، دار الفكر ، بيروت.

رجلاً برمح ، ودخل الرمح من جانب وخرج من جانب ، وخر صريعاً يشحط في دمه ، ويلفظ نفسه الأخير ، إنه أيقن أنَّ زوجه ستكون أرملة ، وأبناءه سيكونون أيتاماً ، إنَّه حُرِم كلَّ لذة في الدنيا ، فكيف يقول: «فزت ورب الكعبة!» ما هذا الفوز؟ قال له: فسر لي السبب ، ومعنى الكلمة التي قالها ، فقيل: إنه كان يشير إلى الجنة ، إنَّه يعتقد ، ويؤمن بأنه إذا قُتل في سبيل الله فإنه يدخل الجنة ، فإنه يكون مستحضراً لهذه الجنة ، ناظراً إليها ، فقال: فزت ورب الكعبةَ ، فأسلمت ، يقول: هذه قصة إسلامي عرفت أن وراء هذه المظاهر عالماً آخر ، أنَّ وراء هذه الحقائق التي آمنا بها وسلمناها ، بنينا حياتنا كلها عليها ، أنَّ وراء هذه الحقيقة حقيقة أكبر منها ، وهي حقيقة الإيمان بالله تبارك وتعالى ، وحقيقة وجود الله تعالى ، والجنة ، والنار ، والثواب ، والعقاب ، فكان هذا سبب إسلامي».

هذا الذي يحتاج إليه العالم الآن ، تجارب جديدة ، مشاهداتٌ جديدة ، مشاعر جديدة ، ومغامراتٌ جديدة ، اكتشافاتٌ جديدة ، أما هذه المظاهر فمهما تضخمت المدنية ، ومهما بلغت أوجها ، وبلغت إلى ما لا نستطيع أن نتصوره الآن ، يمكن أن تصل المدنية إلى أكبر قمَّةٍ بعد قليل ، ولكن هذا لا يدهش الإنسان الغربي ، ولا الإنسان المادِّيّ ، ولا الإنسان غير المسلم ، الهندوسي مثلاً ، والمجوسي ، والنصراني ، إنما تحمله على التفكير من جديد ، وعلى استئناف النظر ، وعلى قلب التصورات والمسلمات ، هو شيءٌ ما كان يحلم به ، وما كان يصدقه ، وهو أنَّ الرجل الذي هو على عتبة الموت ، بل قد عانقه الموت ، يقول: فزت ورب الكعبة! ما معنى الفوز؟ إنهم عندهم مقاييس معدودة للفوز ، ما هو الفوز عندهم؟ تملك أكبر قدر من المال ، تملك أكبر قدر من القوة السياسية ، اعتلاء كرسي للحكم ، النفوذ في العالم الخارجي ، الشهرة العالمية ، الشرف والكرم ، حفلات تكريمية ، ما كان عندهم قياس ، ولا افتراض لمثل هذا الفوز ، يموت الإنسان ويفارق كل شيء في هذه الحياة ، يفارق كلَّ لذةٍ في هذه الحياة ، ويعود لا يملك شيئاً ، ويقول: فزت ورب الكعبة! هذه الكلمة فعلت في قلب هذا العربي الذي أسلم ، عملت في قلبه هذه

الكلمة ، وفي مخِّه ، وفي عقله ما لا تعمل كتب كثيرة ، بل مكتبات عظيمة من الاستدلال ومن الدلائل العقلية والعلمية ، هذا الذي يحتاج إليه الإنسان اليوم ، وأكثر ما ينظر إليه العالم ، وحقٌّ له أن ينتظر هذا من هذه الجزيرة العربية ، ومن البلاد العربية مثل الشام الحبيب المسلم ، ومصر كنانة الإسلام والعراق بلاد الرافدين ، وغير ذلك من البلاد العربية ، أولاً ينتظر العالم أن يتعرف بهذا في هذه البلاد ، ثم ينتقل هذا إلى بلاد المسلمين الأخرى .

أنتم أيها السادة والحمد لله موضع ثقة وأنتم الموجهون ، أنتم القادة ، نسعى كلنا في إيجاد هذا المجتمع الإسلامي في أي بقعةٍ من بقاع العالم ، ثم لا يكون هذا شيئاً مغموراً ، بل يعلم العالم جميعاً أنَّ هناك مجتمعاً إسلامياً ، هنالك يتهافت الناس عليه تهافت الفراش على النار ، نعم؛ لأن العالم الآن يملك كلَّ شيء إلا هذا . هذه النقطة التي أريد أن ألفت نظركم إليها قبل أن أغادر هذه البلاد ، أتركها أمانة عندكم ، فأنتم موضع أمانة وثقة ، إنكم من فوق المنابر ومن حلقات الدروس توجهون المستمعين إلى أين يحيوا حياةً إسلاميةً كاملةً ، وحدةً كاملة لا وحدات مبعثرة ، وحداتٍ متناقضة ، مسلمٌ في العقيدة ، ولكنه نازل هذه المنزلة من المعاملات ، في الأخلاق ، في التجارة ، في الوظيفة ، في الجوار ، لا! مسلم من العقيدة إلى الكلام مع الناس ، وإلى المشي في الأسواق ، وإلى قضاء الحياة ، مسلمٌ من أوله إلى آخرة ، هذا الذي أفتتح به هذا المجلس ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] استقاموا ، ومعنى الاستقامة الشمول ، ليس معنى الاستقامة الثبوت فقط ، بل يدخل في معنى الاستقامة الثبوت ، والشمول ، هؤلاء هم المستقيمون الذين تشمل حياتهم كلَّ جوانب الإسلام ، العقائدية ، والخلقية ، والعملية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والإدارية .

هذه كلمتي التي حضرتني الآن ، وفي الحقيقة أعتذر إليكم إذا كنت قد تخطيت بعض الحدود ، وما عرفت قدري ، وما عرفت نفسي ومن أخاطبهم ، الله سبحانه وتعالى يعفو عني ، وتسامحونني كذلك ، وأدعو الله

تبارك وتعالى أن يقرَّ عيوننا برؤية هذه الحياة الإسلامية الكاملة في هذه البلاد المقدسة ، ويعيد جميع البلاد الإسلامية إلى الإسلام الكامل الحنيف ، ويردَّ ما ضاع من أيدي المسلمين ، ويعيدها للمسلمين مرةً ثانية ، ويوفقنا للمحافظة عليها ، وأداء حقها.

* * *

الإسلام مستهدفٌ لحركات الإبادة العالمية!

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في الجلسة الاستثنائية التي عقدتها رابطة العالم الإسلامي في ٢٧/٣/١٤١٥ هـ الموافق ٣/٩/١٩٩٤ بدعوة من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رَحِمَه الله تعالى ـ المفتي العام للمملكة العربية السعودية وذلك للاستنكار لما تضمنه مشروع برنامج الدول للسكان والتنمية الَّذي تَمَّ عقده برعاية الأمم المتحدة في القاهرة في الفترة ما بين ٥ ـ ١٣ سبتمبر ١٩٩٤ م.

نتحف بهذه الكلمة الضافية الصريحة القراء الكرام لما تحتوي من إشارات واضحة نحو المخططات اليهودية والنصرانية الَّتي التقت اليوم على نقطة القضاء على الكيان الإسلامي ومستقبله، وهدم معالم العقيدة الإسلامية والقيم الخلقية ومعنوية الأمة الإسلامية، بكل ما يمكنها من وسائل التدمير وأساليب التخريب الهائلة.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين خاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

سادتي وإخواني!

يعلم المطلع على تاريخ الإسلام والمسلمين ، بل على تاريخ العالم أن المسلمين ؛ وبالأصح الأمة الإسلامية والدين الإسلامي استُهدفت لحركات الإبادة ، ومحاولة القضاء على الكيان الإسلامي ومستقبله ، ولكن كان ذلك بشكلٍ عام عن طريق الهجمات العسكرية ، والزحف العسكري ، وكان من أشدها الهجوم التتاري الذي كان يهدف إلى قطع دابر المسلمين والقضاء على دولهم ، وحكوماتهم ، وقوتهم العسكرية ، وكانت غارةً شعواء قطعت الرجاء والأمل في إحباط هذه الجهود المدمِّرة ، والحروب المستأصلة حتى كان من الأمثال السائرة ، «إذا قيل لك: إن التتر انهزموا فلا تصدِّق» وكان يليه في الخطر والعنف الهجوم الصليبي وإن كان سابقاً على الهجوم التتاري زمناً؛ الذي اشتركت فيه الدول الأوربية ، والقيادات العسكرية ، والدوافع الدينية ، والسياسية. وكان من أهدافها الاستيلاء على المقدسات الإسلامية ، والمراكز الدينية الرئيسية. ولكن من الحقائق التاريخية الخارقة للعادة والبعيدة عن القياس والتقدير السابق أنَّ كلتا الغارتين الرهيبتين فشلتا في تحقيق غاياتهما؛ وذلك لنصر الله للمسلمين ، وتهيئة أسبابه بتوفيقه لاجتماع كلمة الدعاة الرَّبانيين المخلصين الذين أخضعوا التتار رغبةً لا رهبةً للدخول في الإسلام ، فأسلم التتار عن بكرة أبيهم ، ووُفقوا لإنشاء حكومات إسلاميةٍ قويةٍ واسعة ، واحتضان الحضارة الإسلامية، والعلوم الدينية، والسيرة الإسلامية ، وأما ما يتصل بالهجوم الصليبي فكان من لطف الله تعالى ونصره للإسلام أن قيَّض لإخفاق هذه الغارة ومراميها وجهودها الملك الصالح المجاهد صلاح الدين الأيوبي «وما حديث حليمة بسرّ».

ولكن مع وجود هذه الحقائق كان من أسباب إخفاق هذه الجهود المدمِّرة المعادية للإسلام: أنَّه لم يكن عند قادة هذه الهجمات مخططٌ عقليٌّ عميقٌ وأهدافٌ تطويريةٌ تحويلية، إنما كانت محاولاتٌ عسكريةٌ يدفع إليها ويغري بها حبُّ الاستيلاء العسكري، وبسط الحكم السياسي.

ولكن الواقع الرهيب الذي نواجهه ونشعر بخطره على وجود الإسلام والمسلمين كأمة ذات رسالةٍ وعقيدةٍ ودعوةٍ وشرفٍ وحرية، هو أن الذكاء اليهودي والشطارة اليهودية ومراميها لبسط نفوذها على العالم وتحويل العالم كلِّه ـ بما فيه من عقائد، وآداب، وحضارات، وقيم، ومعايير ـ إلى بساطٍ للشطرنج يلعبون عليه بحريَّة، ويستطيعون تحويل ما عليه من دمىً ولعبٍ من جانبٍ إلى جانبٍ آخر، ومعاملة الجيل البشري بكل ما فيه من علماء، وعقلاء، وأدباء، ومفكرين، ومؤلفين إلى جيلٍ خاضع للنفوذ اليهودي خضوع الدواب والجمادات، وهذا ما جاء صريحاً وواضحاً في كتب اليهود، وكتاباتهم[1]، يعرفها المطلع على كتبهم، ومخططاتهم، ومطامعهم، وبرامجهم، التقى هذا الذكاء الذي يعرف به اليهود قديماً واستباحتهم لكل منكر ومستهجن في سبيل تحقيق غاياتهم. وقد أشار إليه القرآن الكريم إشارةً لطيفةً، وجاء ذلك صريحاً في الكتب التي نشرت عن أهداف الصهيونية ومراميها أخيراً، التقى هذا الذكاء والتخطيط الرهيب الدقيق المبيد للفضائل الإنسانية، ومساعي الأنبياء والمصلحين، وتعليمات الدين، مع القوة المسيحية ووسائلها وإمكانياتها رغم وجود أكبر تناقض في الديانتين، فالمسيحيون يؤمنون بأن المسيح ابن الله، واليهود يتهمونه وأمَّه وينسبون إليهما ما يعلمه الجميع.

وقد احتضنت ذلك، وتبنته بعض الدول المسيحية الغربية وعلى رأسها الحكومة الأمريكية، وذلك بانخداع أكثرها، ووقوعها فريسةً للنفوذ الإسرائيلي المهيمن على السياسة، والصحافة، والآداب، ووسائل

---

(١) ليرجع للتفصيل كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» وكتب أخرى في الإنجليزية وغيرها بقلم الكتاب اليهود والمسيحيين.

الإذاعة في أمريكا وخارجها ، فأصبح ذلك محاولة إبادةٍ معنويةٍ خلقيةٍ عقائديةٍ بالنسبة للمسلمين بصفة خاصة؛ لأنهم هم وحدهم أصحاب دينٍ خالدٍ عالميٍّ قويٍّ ، وأصحاب حكومات كثيرةٍ ، ولا يزالون أصحاب قوَّةٍ إيمانيةٍ ، ودوافع إصلاحيةٍ ثورية ، فكانوا هم الخطر الأكبر على هذا المخطط اليهودي المسيحي، وعائقاً أكبر في سبيل تحقق أماني اليهود ونجاحها.

وكان من ضمن تلك الجهود والمؤامرات والمخططات القضاء على قوة المسلمين الإيمانية والمعنوية ، وفي مقدمتها محاولة القضاء على شخصية الأمة الإسلامية المميزة ورسالتها بالدعوة إلى التجرد من المبادىء الدينية ، والقيم الخلقية ، والميزات الإيمانية ، فتعيش حياةً جاهليةً كالجاهلية الأولى ، أو كحياة الدَّواب ، والأنعام في غابةٍ أو صحراء.

ثم استعانت أخيراً بالدعاة ضد «التنمية» التي عرف بها المسلمون بصفةٍ خاصةٍ بفضل تعليماتهم الدينية الطبعية ، ويشكلون بذلك خطراً عل الجبهة المعادية لهم ، والقوة العمرانية ، والمدنية والعسكرية ضد الجبهة اليهودية ، والمسيحية. فبدأت بعض القيادت المتآمرة والمؤتلفة ضدَّ مستقبل الإسلام والمسلمين وقوة المقاومة التي يملكونها بإقناع بعض الحكومات الإسلامية ، والقيادات المسلمة بوضع العوائق والعراقيل في سبيل التنمية في الأقطار الإسلامية بطرقٍ غير طبيعية ، وغير شرعية ، وغير خلقية ، هذا إلى غير ذلك من المخططات والمؤامرات الدقيقة التي تحاك للتخلص من نفوذ المسلمين المعنوي ، والعددي ، والمبدئي ، والعقائدي.

فليكن المسلمون بصفة عامة والحكومات والقيادات المسلمة بصفة خاصة على حذرٍ من هذه المؤامرات والمخطط التدميري ، ويكونوا على بينةٍ من الأمر. ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ. وما علينا إلا البلاغ.

* * *

العالم الإسلاميُّ على مفترق الطريق

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة القيمة في د ار الشبان المسلمين بالقاهرة خلال رحلته الأولى لمصر عام ١٩٥١م.

فشاع ذكر هذه المحاضرة في الناس، وعلق عليها الأستاذ أحمد الشرباصي، ثم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي، ثم الشيخ محمد الغزالي، ثم الأستاذ عبد المنعم خلاف تعليقات طيبة.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد! فإنَّ التخوُّف من «الانتفاضة الإسلامية» قد بلغ إلى حدِّ الحساسية الزائدة ، والنظر إلى أشياء دقيقة بالمكبرة و«التجوس»[١] في عددٍ من الأقطار الإسلامية والعربية ، حتى وصل ذلك إلى المخافة من العمل ببعض التعاليم الإسلامية فردياً ، والظهور بالمظهر الإسلامي ، والتكثير من الاستشهاد بالكتاب والسنة ، والإنكار على بعض المنكرات ، وتقليد الغرب تقليداً أعمى ، فضلاً عن المطالبة بتطبيق الأحكام الشرعية ، وتمثيل الحياة الإسلامية والطراز الإسلامي في بلد إسلامي يحكمه المسلمون .

وقد بلغ هذا التخوُّف والعمل بمقتضاه كإخضاع نظام التربية ، ودور التعليم ، ووسائل النشر والدعاية ، والصحافة والإذاعة للتخلص والأمان من النفوذ الديني والغيرة الإسلامية ، والمشاعر الدينية ، إلى أن كان هنالك مجال مسوغ للإشفاق من الردَّة الدينية العقائدية ـ لا سمح الله بذلك ـ فضلاً عن الردَّة الفكرية والثقافية ؛ التي بدت طلائعها وأماراتها في كثيرٍ من البلاد الإسلامية المحكومة بالاستعمار الأجنبي ، الإداري والثقافي ، بحكم طبائع الأشياء ، ونتائج الجهود والمساعي ، وعدم وجود ما يقابل ذلك في القوة والتنظيم ، والعزم والتصميم .

ومن نتائج هذا التخوُّفِ ، والإشفاق ، والحذر الشديد ، من وجود الشعور الدينيِّ القويِّ في الجماهير ، والاعتزاز بالدين ، والطموح إلى أن تسود الحياة الإسلامية ـ بجميع شُعَبها ومناحيها ـ على البلاد التي تدين بالإسلام من قرونٍ متطاولة ، وفي مجتمعاتٍ ورثت الإسلام كابراً عن كابر ،

---

(١) تجوس : تسمع إلى الصوت الخفي .

وجاهدت في سبيله ، وفتحت بلاداً قاصية ، ومثلت الحضارة الإسلامية الزاهية ، وأنتجت الثقافة الغنية الزاهرة؛ اللتين يندر أو يعدم نظيرهما في تاريخ الحضارات والثقافات العالمية ، من نتائج ذلك أن ينشأ في هذه الأقطار والبلاد التي كانت فريسة هذا التناقض البعيد الأثر ، العميق الجذور ، بين الطبقات الحاكمة أو القائدة الزعيمة ، وبين الجماهير ، والشعوب صراعٌ فكريٌّ وعاطفيٌّ ، وعدم تحمس لتحقيق غاياتها ومشاريعها ، فيكون في ذلك تضييع قوى وطاقات ، ومواهب وجدارات ، كانت البلاد في غنى عنها ، بل كانت في حاجةٍ ملحّةٍ إلى تعاون وثيق ، متبادل ، وثقة لا غنى عنهما لبلادٍ تريد التقدم والاكتفاء الذاتي والتخلص من النفوذ الأجنبي ، فيكون في ذلك جهادٌ في غير جهاد ، ونضالٌ في غير عدو.

ثم تكون النتيجة الحتمية لهذه العملية النقلية ، غير الطبيعية والعقلية ، أن تفقد هذه الأقطار الحماس الديني ، والقدرة على المغامرة والمخاطرة بالنفس والنفيس في سبيل تنفيذ أوامر الله في خلقه ، وصوغ الحياة والمجتمع وفق تعاليمه ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[١].

وتلك خسارةٌ لا تعوّض بشيءٍ آخر من الوسائل والطاقات ، والتعاليم والتقدُّم في الصناعة والعلم ، وبهذه الطاقة والميزة فتح العرب المسلمون ـ ومن تبعهم من الشعوب المسلمة على أيديهم ـ البلاد القاصية الغنية القوية؛ التي مرت على حكمها قرون متطاولة ، وأنشأت حضارةً راقيةً ، واتخذت قدوةً ومثالاً ، واعتبرت رمز تقدم وشرف في العالم القديم ، وأنشأت قانوناً انتشر في الآفاق ، وعلوماً وآداباً كانت سمة «للعقلانية» والتقدُّم ، كالإمبراطورية البيزنطية ، والإمبراطورية الساسانية ، وشبه القارة الهندية ، الممتازة في العلوم الرياضية ، والطبية ، والفلسفية ، وما كان

---

(١) كما قال ربعي بن عامر ممثل الجيش الإسلامي في العراق لرستم قائد الجيوش الإيرانية الأكبر ، راجع البداية والنهاية لابن كثير: ج/ ٧.

ذلك إلا لوجود الحماس الديني ، والحنين إلى الشهادة ، والشوق إلى الجنة ، والعمل بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

وإذا ضاعت هذه الثروة ـ لا قدر الله ـ وهذه الميزة التي امتاز بها المسلمون الأولون ، ومن كان على شاكلتهم ، في قرون تلتهم ، وهو الإيمان القوي الحيُّ بالله المتغلغل في أحشائهم ، والمسيطر على عقولهم ومشاعرهم ، والمستهين في سبيل العمل به بكلِّ خطرٍ وخسارة ، ومجازفةٍ ومغامرة ، وحب الرسول الكريم ـ ﷺ ـ الغالب على كلِّ حب ، واتخاذه قدوةً وأسوةً ، والحرص على نشر تعاليمه وأسوته في العالم ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والاستهانة بزخارف الحياة ، لم يكن لذلك بديل فيما يمتاز به الغرب من علومٍ وصناعات ، واختراعاتٍ واكتشافاتٍ ، حتى في القنبلة الذرية التي هي آلة التدمير الكبرى.

وقد يكون من نتائج إغفال تنفيذ الشريعة الإسلامية في بعض البلاد الإسلامية القديمة الأصيلة ، وفقد الغيرة على التشريع الإسلاميِّ وتطبيق بعض جوانب الشريعة الإسلامية في تلك البلاد ، زوال أو ضعف الغيرة الدينية في الشعوب الإسلامية القاطنة في بلاد عجمية قاصية دخل فيها الإسلام قديماً عن طريق دعاة الإسلام ومجاهدي العرب ، وحماسهم الديني في سبيل بقاء الحرية في العمل بالشريعة الإسلامية في حياتها الفردية والعائلية ، كما كان في قضية المحافظة على قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين ، حتى نجح في ذلك المسلمون في الهند بفضل جهدهم وغيرتهم على الدين والشريعة ، رغماً عن إصدار المحكمة حكماً بإلغاء هذا القانون ، وإيجاب العمل بقانون موحَّدٍ منافٍ لتعاليم الإسلام وتشريعه ، وصمود الشعب الهندي والصحافة في المطالبة بتوحيد القانون ، وما كان نجاح المسلمين في الدفاع عن قضيتهم إلا بسبب الغيرة على التشريع الإسلامي ، وحماسهم في الدفاع عنه ، هذا فضلاً عن تمتعهم بالحرية في

العمل بأحكامٍ إسلاميةٍ شرعيةٍ عديدةٍ كأداء صلاة الجمعة في وقتها ، وفي المساجد ، وفي وقت العمل في الإدارات والمكاتب .

وقد فاق هذا التخطيط ـ وتنفيذه في بعض البلاد الإسلامية والعربية ـ وهو صوغ هذه الشعوب الإسلامية والعربية ـ حضارياً ، وثقافياً ، وشعورياً ، وعاطفياً على شاكلة الغرب ـ وقطع صلتها عن الغيرة الإسلامية والعواطف الدينية ، والشعائر الإسلامية ، والهتافات الدينية كلَّ تحدّ للوجود الإسلامي ، وكلَّ مواجهة ومقاومة للكيان الإسلامي في القديم . نذكر من هذه التحديات والمحاولات للقضاء على نفوذ هذه الأمة ، وبقائها كأمة حرَّةٍ قويةٍ ذات نفوذ وإمكانيات في رقاع واسعة من العالم ثلاثةً :

الأول : الحملة الصليبية التي كانت تقودها عدَّة دولٍ أوربيةٍ قوية ، وقادةٌ محنكون ، وكان من أهدافها التسلُّط على القدس ، وفلسطين أولاً ، ثم التقدم إلى الجزيرة العربية والحرمين الشريفين ، وإفقاد المسلمين منبع دينهم ، ومركز شرفهم ، وكان هذا الهجوم ـ على عنفه واتساعه وتنظيمه ـ يخلو من تخطيط دينيٍّ وحضاريٍّ بديل ، وهدف القضاء على العقيدة الإسلامية والمشاريع الدينية ، وقد قيض الله لمقاومة هذا الهجوم العنيف الخطر قائداً بطلاً مؤمناً ، وهو السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فجمع تحت لوائه ـ لنزاهته وإخلاصه وبعده عن المنافسات الدولية ، والمطامح الشخصية ـ الشعوب الإسلامية والعربية ، وهزم الصليبيين هزيمةً منكرةً ردَّتهم على أعقابهم ، وقطعت آمالهم ، ومطامحهم .

وكان المثال الثاني الهجوم التتاري الذي لم يكن له مثيل في العنف والقسوة والهمجية في تاريخ الإنسانية القريب ، فضلاً عن التاريخ الإسلاميِّ المحدود ، وقد تمَّ لهم الفتح وإبادة الأقطار الواسعة ذات الحضارات الراقية ، والقوة العسكرية الفائقة ، كتركستان ، وإيران ، والعراق ، والشام ، وقد اقترن فتحه للبلاد بالخضوع العقلي والعاطفي لانتصارهم ، وتفوقهم في الفنون الحربية ، حتى كان المثل السائر : صدِّق كل شيء ، ولكن إذا قيل لك : إن التتار انهزموا فلا تصدِّق .

ولكن لم يكن هذا الهجوم مدعماً بحضارةٍ ، أو عقيدةٍ ، أو دعوةٍ ، إنما كان هجوماً عسكرياً مدوخاً مدمراً ، لم يفكر قادته في حينٍ من الأحيان في أن يقدموا بديلاً للدين الإسلامي ، أو الحضارة الإسلامية ، فكان غير جديرٍ بالبقاء طويلاً ، وغير لائقٍ بملء فراغ أو إبدال حضارةٍ بحضارة ، ودينٍ بدين ، وقانونٍ بقانون ، فاستطاع بحول الله وتوفيقه العلماءُ الربَّانيُّون ، والدعاة المخلصون ، والوزراء المسلمون نقلهم من لا دين إلى دين ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ، وأسلم التتار عن بكرة أبيهم ، وأسسوا دولاً إسلاميةً قويةً واسعة ، ودافعوا عن الإسلام (إذا احتيج إلى ذلك) وكان منهم علماء ، ومؤلفون ، وصالحون ، وربانيون[١] .

ويتلو هذين التحديين للإسلام والبلاد الإسلامية : الاستعمار الغربي المنبسط في عدد محدود من البلاد الإسلامية ، والدول الإسلامية ، إدارةً وحكماً ، وسياسةً ونفوذاً ، والمسيطر على عددٍ أكبر ثقافةً ، وتفكيراً ، وقيماً ، ومفاهيم ، وخضوعاً فكرياً ، وقد زال هذا الاستعمار ـ إدارياً وسياسياً ـ من أكثر البلاد الإسلامية ، وكان العدد الأكبر من قادة الحرب ضد الاستعمار الأجنبي الأوربي من علماء الدين ، والمتدينين من زعماء المسلمين ، وكان لذلك الأثر الأعمق في نفس الشعب ، لاقتران هذه المقاومة بتعاليم الدين ، واستخدام لغة الدين ، والتعاليم الإسلامية لتحرير البلاد ، ولكنه لا يزال مسيطراً على كثيرٍ من الأقطار الإسلامية فكرياً ، وثقافياً ، وقيماً ، ومفاهيم ، وإصابة بمركب النقص .

أما الخطران الأولان الهجوم الصليبي والهجوم التتاري فلم تكن معهما دعوةٌ ، ولا حضارةٌ ، ولا فلسفة ، ولم تكونا تقدمان بديلاً للدين الإسلامي وحضارته ، ومجتمعه ، وكانا بالطبيعة هجومين عسكريين ، وغارتين إقليميتين محدودتين ، ولم تكونا يملكان ما يملأ فراغ دينٍ وعقيدة ،

---

(١) راجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول طبع في دار ابن كثير بدمشق ، وكتاب البروفيسور آرنلد (Preeching oh islam) وكتاب (Changez) لمؤلفه هيرلد ليمب .

وحضارة ، وثقافة ، بخلاف الخطر المعاصر الذي يواجه الأقطار الإسلامية العربية المعاصرة ، ويتحدّى بقاء تأثير الدين الإسلاميِّ في الجيل الجديد ، ودوره في صوغ الحياة وتكوين العمليات ، ومواجهة . . . . أحق بأن ينتبه له ويحسب له حساب ، ويعنى به المعنيون بالإسلام وبقائه بنفوذه ومكانته في البلاد الإسلامية والعربية ، وقدرته على القيام بدوره في الاتصال بالله والرسول ، وبقاء العقيدة الإسلامية والغيرة عليه ، بل التحمس لها ، والحرص على نثرها ونشرها .

وقادة الأقطار الإسلامية السياسيون ، وحكام البلاد الإداريون مخيَّرون بين سياستين ومنهجين للعمل .

الأول : أن يثبتوا غيرتهم على الإسلام ، وتمسكهم به ودفاعاً عنه ، وإيثاراً له ، على ديانات أخرى ، ومناهج أخرى للعقيدة والسلوك ، والقيم والأقدار والمبادىء ، والحضارات ، مع الاستعداد للانتفاع بالعلوم العصرية والاكتشافات الحديثة ، والتقدم العلمي والصناعي و«الحكمة ضالَّة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ بها» وتطوير النظام التعليمي والعسكري ، والصناعي حسب مقتضيات الزمان ، وبمقابلة العلم بالعلم ، والقوة بالقوة ، والصناعة بالصناعة .

وبهذا المنهج للقيادة ، والإدارة ، والسياسة ، وبهذا الموقف الهادف الحكيم ، المؤسَّس على الإخلاص لله وخشيته ، ومجاراة الأمة في مشاعرها ومراعاة ما تدين به وتتفانى في سبيله وتغار عليه ، والاعتراف بالحقيقة والواقع وعدم إضاعة القوة والوقت في تحصيل ما يثير سلامة الأمة ، وما يفقد ثقتها ، وما يستنفد القوى والطاقات في غير طائل يحرز هؤلاء القادة والحكام ـ بحسب السنة الإلهية والوعود القرآنية وما تحقق وثبت بالتواتر في التاريخ الإسلامي القيادي ـ حباً وإخلاصاً وتفادياً ، وتفانياً من الشعب المسلم ، وأهل البلاد المسلمين (الذين يكوِّنون الأكثرية ، ويملكون النفوذ والتأثير) التأييد التام والتحمس العام في تحقيق مطالبهم ، وتحقيق غاياتهم ، والحرص على بقائهم في مراكز سلطتهم ، ومكانتهم في

القيادة والزعامة ، يحرزون إخلاصاً وتحمساً ، لا يجدونهما عن طريق الإرهاب أو الترغيب ، والمراقبة ، والتفتيشات والعقوبات ، والاعتقالات ، وحتى عن طريق تأييد الحكومات الأجنبية ، والأساليب الاستراتيجية ، وعن طريق الصحافة والإذاعة ، والنشر والدعاية ، وصدق الله العظيم ، ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٦٣].

وبذلك تتفادى البلاد الكثير من المؤامرات والمشاغبات ، وبذل القوة والجهد في القضاء على المخالفات والثورات ، وعلى وجود القلق وعدم الارتياح في نفوس العدد الأكبر من أفراد الشعب المسلم ، وعدم وجود التحمُّس في نفوس الأكثرية من الشعب لمقاومة هجومٍ أجنبي ، أو غارةٍ خارجية .

أما إذا كان الواقع ضدَّ ذلك ، وكان بين القادة والحكام ، وبين أفراد الشعب ـ الذين يشكلون الأكثرية ، وعليهم العمدة في الأمن والرفاهية والأزمات والخطوب ـ خليجٌ عميقٌ واسعٌ في الاتصال بالدين ، وحبِّه والغيرة عليه ، والحرص على تطبيقه في الحياة وتنفيذه في المجتمع والحكومة ، بل كانت هنالك مظاهر وأمارات خفية أحياناً ، وجلية أحياناً أخرى ، في عدم ارتياح هؤلاء القادة والحكام لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، وتخوُّفهم من نفوذه ، وسيطرته على نفوس الشعب وعقوله ، وإشفاقهم من تحمُّس الشعب الديني وغيرته عليه ، والمناداة به ، والمطالبة في بعض الأحيان بتنفيذ بعض أحكام الشريعة الجلية الرئيسية أكثر من إشفاقهم من تهديد عدوٍّ في الخارج ، وتحدٍّ أجنبي ، وقد يكونون في بعض الأحيان منفذين لإشارات من دولة أجنبية كبيرة ، مرددين لصوتها ، محققين لغرضها ، كالتخوف من التمسك بالمبادىء ، أو المبدئية والأصولية ، الذي يدخل فيه التمسك بتعاليم الإسلام والوقوف عند حدوده ، وأوامره ، وتحليل ما أحلَّ ، وتحريم ما حرَّم ، فيكون في ذلك وجودُ قلقٍ ، وعدم ارتياح ، وصراعٌ فكريٌّ وشعوريٌّ في الشعب كانت الشعوب الإسلامية والبلاد الإسلامية في غنى عنه .

وبهذا التباعد بين القيادات والسلطات، والشعوب والجماهير تنشأ فجوةٌ عميقةٌ واسعةٌ بين القادة والحكام، وأهل البلاد المسلمين الغيارى على دينهم والمحبين لوطنهم، وعدم تفاهمهم ـ فضلاً عن عدم تعاونهم ـ لا يملأ هذه الفجوة أكبرُ مجهودٍ أو تأييدٌ من حكومات أجنبية، وتفقد بذلك القيادات والسلطات أعظمَ ثروةٍ، وأكبرَ قوةٍ، هي بذل النفس والنفيس في سبيل الله، والاستماتة في سبيل تحقيق ما يردده الله ورسوله ودينه، والوفاء للأئمة المسلمين وقادة البلاد والحكام المخلصين الصالحين. وهي قوة أبدت العجائب والخوارق في تاريخ الإسلام الطويل الحافل، وأخضعت البلاد والأقطار التي لا نسبة بينها وبين البلاد الإسلامية في العدد، والقوة العسكرية، للإسلام، أو للدين الإسلامي، أو الحكم الإسلامي، وهي قوةٌ لا تزال موجودةٌ في نفوس المسلمين، وفي الأقطار الإسلامية ـ على علاتها ومحنها، أو مؤامرات حيكت حولها ـ ويمكن الاستفادة منها، وتسخيرها لغاياتٍ لا تعود على هذه الأقطار الإسلامية، بل تعود على العالم المتمدِّن المغمور بخيرٍ لا يعدله خير، وبسعادةٍ لا تساويها سعادة.

فهل من المعقول أن تبقى الأقطار الإسلامية في صراع فكريٍّ وعقائديٍّ، وقلقٍ شعبيٍّ جماهيريٍّ، وعدم وجود ثقةٍ وتقدير، وحبٍّ وتفانٍ بين الشعوب وأهل البلاد الذين لا تزال أكثريتها متمسكةً بالدين محبةً له، غيورةً عليه. وبين قادتها وحكامها. ويكون في هذه البلاد جهادٌ في غير جهاد. ونضالٌ في غير عدو، أم من الخير ومقتضى الحكمة والعقل الإنساني ـ فضلاً عن العقل الإيماني ـ أن يكون هنالك انسجامٌ وتوافق، وثقةٌ متبادلة، بل عاطفة من الفداء والتفاني في تأييد هؤلاء القادة المسلمين الغيارى على الدين، المجاهدين في سبيله، الحريصين على بقائه، وازدهاره، وانتصاره؛ طلباً لرضا الله تعالى، وإيثاراً للآخرة على الدنيا، وتقليداً للخلفاء الراشدين، والحكام الصالحين، والقادة المخلصين المجاهدين، ويتفادوا بذلك عن كلِّ ما هم في غنىً عنه من صراعٍ وقلق، وقمعٍ للثورات، وأمنٍ من تقلُّب الحكومات، وتجسس للمؤامرات والمخططات.

وصدق الله العظيم:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

* * *

قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم
ودورها في العالم

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في الموسم الثقافي الَّذي نظمته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لدولة قطر في عام ١٩٩٥ م ١٤١٥ هـ.

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : الآية : ١٢٣] إنَّ هذه الآية تختصُّ بمعركة بدر ، وفيها عبرةٌ كبيرةٌ ، ودرسٌ خالدٌ لنا ، ومثيرٌ لهممنا ، وعزائمنا ، ومعينٌ لموقفنا وهدفنا في كل عصر وبيئة .

تعلمون أنَّ العالم الإسلاميَّ كله ـ بما فيه من حكوماتٍ وإماراتٍ ، ومظاهرَ رخاءٍ وثراء ، وعلمٍ وفنٍّ ، ومكتباتٍ ومدارسَ وجامعاتٍ ، ومراكز للنشاط ـ كلُّ ذلك مدينٌ لانتصار المسلمين في معركة بدر ، فلو أن المسلمين كانوا فريسةَ الأهداف الفاتكة المدمِّرة التي كانت تحملها قريش ، وانهزم المسلمون ـ لا قدَّر الله ـ في معركة بدر ، ما كان للعالم الإسلامي وجود ـ بما فيه من مظاهر عظمة ، ومظاهر عزة ، ومظاهر قوة ـ هذا هو الواقع التاريخي الذي لا ينكر .

اسمحوا لي أن أقول : إن كلَّ مدينة إسلاميةٍ ورقعةٍ في العالم الإسلامي الواسع المأهول ، بل العالم الإسلامي الواسع حتى شبه القارة الهندية ، ووجود الجالية الكبيرة الإسلامية في الهند ، والمسلمون في مصر ، والمسلمون في سورية ، وفي العراق ، وتركيا ، والمغرب الأقصى ، والمسلمون في الشرق العربي الإسلامي ، وجنوب آسيا الشرقي ، كلهم ـ بما فيهم من اختلافٍ في العناصر ، والقوميات ، والجنسيات ، وفي الأنساب ، والثقافات واللغات ـ كل ذلك مدينٌ لانتصار المسلمين في معركة بدر .

فلو انهزم المسلمون ـ لا قدر الله ـ في بدر ، لما كان للعالم الإسلامي

وجود ، ولما كان للدعوة الإسلامية أن تشق طريقها إلى الأمام ، وأن تسخر القلوب ، وأن تفتح البلاد ، وأن تؤسس الحكومات ، وأن تنشىء المؤسسات العلمية ، والمكتبات الغنية ، وأن تنشىء النوابغ ، والعبقريين ، والأولياء ، والصالحين ، والدُّعاة المصلحين.

ولكن الذين يكثرون القراءة ، ويطالعون كتب السيرة والتاريخ ، قد يمرُّون بقطعةٍ تاريخية تسترعي انتباههم ، وتستوقفهم متأملين ، يمرون بها مراً سريعاً عابراً ، حين كان من المعقول المتوقع أن يقف القارىء أمامها متأملاً حائراً.

من ذلك أنَّ رسول الله ﷺ لما استعرض الواقع في ساحة بدر ـ واستعراض الواقع لا ينافي مكانة النبوة ـ لما استعرض الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ الواقع ، ورأى الفرق الشاسع البعيد بين عدد المسلمين وبين عدد الزاحفين المشركين ، الذين جاؤوا من مكة ليستأصلوا شأفة الإسلام وليقضوا عليه وعلى مستقبله نهائياً ، وبين عدد المسلمين الذين جاؤوا لتخييب هذه الأهداف المدمرة ، قد جاؤوا للجهاد في سبيل الله ـ كان الفرق هائلاً ، وكانت الفجوة سحيقةً بعيدةً ، واسعةً طويلةً ، كانوا ألف رجلٍ مسلحين بالسلاح التام من قريش ، وثلاثمئة وثلاث عشر رجلاً[1] في الجيش الإسلامي ، والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على ما خصهم الله تعالى به من الاعتماد على نصر الله ، وعلى قدرة الله تبارك وتعالى لا يتغافلون عن الواقع.

فلما استعرض الرسول ـ ﷺ ـ هذا البون الشاسع البعيد ، وهذه الهوة الواسعة بين جيش الكفار الزاحفين ، وبين المسلمين المدافعين ، ورأى أنه لا يمكن أن يكون انتصار المسلمين بالقوة فقط ، والسلاح فقط ، لا بدَّ من إغاثة الله تبارك وتعالى لهؤلاء المستضعفين ، ونصره المعجز الخارق

---

(١) رواه أحمد والبزَّار والطبراني. وكذلك أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي ، وفي فتح الباري أن هذا هو المشهور عند ابن إسحاق وجماعة من أهل المغازي: ج/٧. ص ٢٩١ . وقد جاء في روايات وكتب سيرة أعداد أخرى ، وهي أرقام متقاربة.

للعادة ، المنافي للقياس ، فقام يصلِّي ، ويبتهل ، حتى رقَّ قلب سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وسلّى رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولكن الرسول ـ ﷺ ـ قال كلمةً خالدةً ، تسترعي انتباه العقلاء ، وأولي الأفهام ، والدارسين للتاريخ والسيرة في كل زمان ، لما استعرض الواقع ، ورأى أن المعركة بين هؤلاء ـ ألف جندي مسلح ، وثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً ، غير مسلحين بالسلاح التام ، منهم بعض الغلمان ـ ونظر إلى المحيط نظر المتبصِّر ، ونظر الواقعي ، قال : «اللهم إن تُهلك هذا العصابة لا تُعبد»[(١)] .

كلمة معجزةٌ من معجزات رسول الله ﷺ! من يستطيع أن يقول هذا لله سبحانه وتعالى! إن فعلت هذا كان كذا ، وإن فعلت هذا كان كذا! والرسول المجتبى ، والرسول المحبب ، والرسول المكرم ، والرسول الذي قضى الله تعالى بخلود رسالته ونصره ، قال: «اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا تُعبد» .

يا رب إن هزمت هذه العصابة لا يلحق بالدنيا ضررٌ كبيرٌ ، لا يصيب الإنسانية خطبٌ كبيرٌ ، أو تطورٌ عظيمٌ ، لا تزال الدول كما كانت ولا تزال الثروات كما كانت ، ولا تزال المكاسب كما كانت ، ولا تزال العبقريات كما كانت ، لا تزال المدنية كما كانت ، ولكن شيئاً واحداً لا يكون ، وهو عبادتك وحدك ، ونفاذ شريعتك ، وبقاء دينك الحنيف؛ لأن هذه العصابة ـ على قلتها وضآلتها وحرمانها من أسلحة الدفاع القوية الكثيرة ـ هي العصابة الوحيدة على وجه الأرض التي تدعو إلى التوحيد والتي تعبد الله وحده ، والتي تؤمن بأنَّ الله هو المصرف للكائنات ، وهو القادر المقتدر ، وله الحقُّ وحده في العبادة والطاعة ، ولشريعته وأحكامه الحقُّ الوحيد في النفاذ والطاعة المطلقة .

كان من المتوقع أن يقف القارىء الواعي ، المؤمن بجلال الله وعظمته

---

(١) جاء في صحيح مسلم ، وسيرة ابن هشام ، وكنز العمال: «اللهم إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض» وجاء في بعض الروايات: «اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبداً» دلائل النبوة للبيهقي: ج/ ٢ ، ص/ ٥٠ .

وغناه ، وبمقام الرسالة والنبوة ، وبما خصَّ الله تعالى به نبيه - ﷺ - المجتبى من معرفة صفات الله الأحد ، الصمد ، القادر ، القاهر ، الغنيِّ ، القويِّ أن يقف برهة من الزمان حائراً خاشعاً متأملاً أمام هذا الكلام الذي نُقل عن الرسول الأعظم - ﷺ - في هذا الموقف الرهيب الطالب للخشوع والرضا بالقضاء ما معناه: اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا يكون الدين لك وحدك.

هنالك أجاب الله هذا الدعاء؛ لأنَّ هذه الكلمة ، كلمة موحاة ، كلمة ملهمة من الله تبارك وتعالى ، والله تبارك وتعالى هو عالم الغيب والشهادة ، فنصر الله المسلمين رغم قلة عددهم ، وضآلة أسلحتهم ، وكونهم حفنة[1] أمام هذه الكثرة الكاثرة ، وهذا الجيش العرمرم ، فنصر الله المسلمين.

فثبت من ذلك أنَّ وجود المسلمين ، وأنَّ بقاء المسلمين ، وأنَّ شوكة المسلمين مدينة لقيامهم بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، ولعبادة الله وحده ، وليكون الدين كلُّه لله ، وشريعته نافذة.

ولو فقدوا هذه الميزة ، وأقول لكم بكل صراحة - وسامحوني - لو كان المسلمون كلهم أصحاب إماراتٍ وحكومات ، وأنا أحمد الله تبارك وتعالى على وجودها وأدعو لها بالبقاء والاستمرار ، وأدعو لها بالرُّقي والازدهار - لكني أقول: لو فقدت الأمة الإسلامية هذه الصفة الوحيدة وهي الدعوة إلى الله تبارك وتعالى وعبادته وحده ، والطاعة المطلقة له ، وتنفيذ شريعته وأحكامه على الفرد والمجتمع ، وصياغة الحياة والمدنية وفق تعاليمها وأحكامها ، وملكوا الدنيا كلَّها؛ لما كان لبقاء المسلمين ضمان؛ لأن رسول الله - ﷺ - قال:

«اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا تُعبد».

هذا - بالتأكيد - لا يقوله إلا رسولٌ موحى إليه ، وصاحب مقامٍ عند الله تبارك وتعالى ، قال: «اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا تُعبد».

---

(١) الحَفنة والحُفنة: ملء الكفين.

فأقول لكم بكلِّ صراحة: إن المسلمين لو اعتزلوا عن حمل رسالة الإسلام، وتناسَوا هذه المسؤولية التي عُقدت بهم، والتي عُلقت عليهم لما كان لبقائهم ضمان في العالم، على رغم ما يملكون من طاقاتٍ عسكرية، ومن طاقاتٍ عددية، ومن ثرواتٍ اقتصادية، ومن فرصٍ متاحة، فكلُّ ما يملكونه من حولٍ وطولٍ لا ينفعهم؛ لأن الله تبارك وتعالى إنما نصرهم لقول الرسول ـ ﷺ ـ: «اللهم إن تُهلك هذه العصابة لا تُعبد».

يكون كل شيء: تقوم الحكومات، وتزدهر المدنية، ويتضخم الثراء، ويتوسع العلم، كلُّ شيء يكون، ولكن الشيء الوحيد الذي لا يكون هو عبادتُك وحدَك، وحمل رسالتك، ودعوتك، وأن يكون الدين كله لله ـ عز وجل ـ تُنفذ أوامره، وتجري أحكامه، ويخضع نظام الحياة لأوامره وتعليمات دينه.

فالشيء الذي يجب أن يحتفظ به المسلمون أكثر من كلِّ شيء، ويغاروا عليه أكثر من صحتهم، وأكثر من حكمتهم، وأكثر من لباقتهم، وأكثر من سياستهم ودعايتهم، وأكثر من تملكهم للدول العظيمة: هو أن يكونوا دائماً دعاةً إلى الله تبارك وتعالى، حاملين لواء التوحيد، مؤثرين للآخرة على الدنيا، مؤثرين لرضاه ونفاذ أحكامه على كلِّ وطرٍ وهدف، وتشريعٍ وتقنين، فهذه هي الضمانة، وهذا هو التكفل لبقاء المسلمين.

أجاب الله تعالى دعاء الرسول ـ ﷺ ـ وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم وبقائهم، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية ـ بمعانيها الواسعة ـ بهم، وقيامهم بها، ودعوتهم إليها، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين عبادة الله تعالى ـ بمعانيها الواسعة ـ ورواجها، وازدهارها في العالم، ونهوضهم بالدعوة إليها على مستوىً عالميٍّ، وفي إطارٍ آفاقي؛ انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة، ولم يبق على الله لهم حق وذمة، وأصبحوا ـ كسائر الأمم ـ خاضعين لنواميس الحياة، وسنن الكون.

بل كانوا أخسَّ مكانةً، وأقلَّ قيمةً من الأمم الأخرى، إذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم، وكان ما أخبر الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ

بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [سورة الفرقان ، الآية : ٧٧].

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبرُّوا بهذا العهد ، وتذكَّروا أنهم إنما نُصروا على عدوهم ـ وقد كان يأتي عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر ـ وتُركوا على ظهر الأرض ؛ لأنَّ عبادة الله منوطةٌ بهم على أرض الله .

بهذه الرسالة انبثُّوا في العالم ، وحملوها إلى الملوك ، والسوقة ، والأمم ، وفي سبيل ذلك هاجروا ، وجاهدوا ، ولأجل ذلك حاربوا ، وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعوثون من الله تعالى إلى الأمم ، وحاملو راية الإسلام في العالم ، وأنهم محسنون إلى الناس ، منقذوهم مما هم فيه من اتباعِ للهوى ، وعاداتٍ وتقاليد جاهلية ، وهواياتٍ ومظاهر يرتبطون بها ارتباطَ الأسير بالسلاسل والأغلال ، عبوديةٍ يعتقدونها ملوكية ، ويعيشون عيش الطائر في القفص ، عيالاً على غيرهم ، حتى في مأكلهم ومشربهم ، ويحسبونه بلاطاً وقصراً ، وخدماً وحشماً ، وهو في الحقيقة قفص ، والقفص قفص ، ولو كان من ذهب ومن أمثلته ونماذجه الرائعة حديثٌ دار بين رجلٍ من عسكر المسلمين الفاتحين في إيران ، وقائد الجيوش الفارسية وأميرهم رستم :

طلب رستم من سعد ـ رضي الله عنه أن يرسل إليه من يُكلمه ، ويعرف منه غاية الغزو ، وذلك قبل القادسية ، فأرسل سعد ربعيَّ بن عامر ـ رضي الله عنه ـ رسولاً إلى رستم ـ قائد الجيوش الفارسية وأميرهم(١) ـ فدخل عليه وقد زين مجلسه بالنمارق المذهَّبة والزرابي ، وأظهر اليواقيت واللآلىء

(١) طلب رستم من قائد الجيش الإسلامي أن يرسل إليه رجلاً من المسلمين ليعرف ما الذي دفع عرب البادية إلى محاربة أقوى جيش ، وأرقى مملكة ، فإذا كان الدافع تحصيل ما يحتاجون إليه من ميرة وكسوة وأسباب معيشة؛ دَفَعَ إليهم وتفادى من الحرب نتائجها. وقد بين رسول المسلمين : أنَّ الذي دفعهم إلى هذا الإقدام ، هي الرحمة بهم لا الرحمة بأنفسهم ، وإخراجهم من الضلال إلى الهداية ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، كما سيأتي .

الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سريرٍ من ذهب ، ودخل ربعي ـ رضي الله عنه ـ بثياب صفيقة ، وسيفٍ وترس ، وفرسٍ قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه .

فقالوا له : ضع سلاحك .

فقال : إني لم آتكم ، إنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلا رجعت .

فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكّأ عل رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها .

فقالوا له : ما جاء بكم؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك ، قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله .

قالوا : وما موعود الله؟

قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي .

وهذا الحوار القصير ـ الذي جاء في تاريخ الغزو الإسلامي والدعوة الإسلامية ، وتاريخ المسلمين ـ بقي مطموراً مغموراً ، يمرُّ به القارىء مراً سريعاً ، لا يتأمَّل في قيمته الدعوية العميقة الجريئة ، وفي دوافعه الإيمانية القوية ، ومصدره ، وهو تغلغل الدعوة الإسلامية النبوية في أحشاء هذا العسكري المسلم؛ الذي لا يعرف التاريخ إلا اسمه وأصله ، وهي بادية العرب .

إن الوضع في العالم الحديث ، وفي الغرب الذي يملك القيادة ـ الفكرية، والمبدئية ، والحضارية ، والسياسية ـ لا يختلف عن العصر

الذي ظهرت فيه دعوة الإسلام ، وانتشرت فيه دعاته يحملون رسالة الإسلام إلى البلاد والمجتمعات ، والشعوب والحكومات .

كان مثالاً رائعاً من أمثلته ، ونموذجاً مثيراً للاستغراب والدهشة ما حكيناه من حوارٍ بين ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ ، أحد الأعراب القادمين من بادية العرب ، وبين رستم رئيس قادة الجيوش الإيرانية ، والذي كان يلي إمبراطور إيران في المكانة ، والهيبة ، والإجلال ، والبون بين الوضع السائد على الإمبراطوريتين ـ الساسانية والرومانية ـ وما كان تحتهما من مدن ومجتمعات ، ومقاييس ومستويات ، وأعراف وشائعات ، وبين الغرب الواصل إلى أوج المدنية ، العائش على قمتها ، المتمكن من توجيه العالم حضارياً ، وثقافياً ، واقتصادياً ، وسياسياً ، ومبدئياً ، وفكرياً ، ليس بعيداً وكبيراً .

فالبون بين الوضعين السائدين على العالم الشرقي في القرن السادس المسيحي ، والعالم الغربي في القرن العشرين أقل من البون بين هاتين الرقعتين ، مساحةٍ جغرافية ، ومساحةٍ زمنية .

والجاهلية(١) ـ بمعانيها الواسعة ـ ضاربةٌ أطنابها على الغرب المتحضر المثقف الراقي ، وفي أرقى الجاهليات التي سجلها التاريخ ، وعرفها المؤرخون ، لا يتحكم فيها إلا النفع الماديُّ ، أو تسلية النفس ، أو «الأبيقورية»(٢) أو المنفعة السياسية ، أو الاقتصادية ، وتجعل الدين قضيةً شخصيةً محدودةً في أمكنةٍ خاصة ـ الكنائس ـ وأزمنةٍ خاصة ـ وهي الأعياد الدينية ـ لا دخل لها في السلوك الفردي ، أو الجماعي ، أو السياسي ، أو الاقتصادي .

---

(١) الجاهلية هي الحياة أو المدنية التي تنشأ وتبقى بعيدة ومستغنية عن تعاليم النبوة والتوجيهات السماوية لمنهج الحياة والتعايش من العقيدة إلى السلوك والأخلاق والاستحسان والاستهجان .

(٢) مدرسة فلسفية إغريقية تحكم على الأشياء وتركها واختيارها على أساس اللذة التي تحصل من العمل بها ، أو تركها .

ويعيش الغرب في سجنٍ أوسع من سجن الملوك القدماء ، وفي قفصٍ أجمل ، وأزهى من قفص الأمراء المدلَّلين ، أو الحكام المخدومين في القديم ، وهو سجن أو قفص الموضات (fashions) والأعمال الرتيبة ، والأعراف والمستويات التي يتوقعها الجمهور ، ويطالب بها المجتمع والعصر من ملابس ، أو مساكن ، أو مظاهر.

وبذلك لا يختلف الغرب المتحضر المتحرر المتنور ، عن العصر الذي سبق الإسلام أو عاصره ـ في الإمبراطورتين العظيمتين ـ البيزنطينية والساسانية ـ فكانت في العصر الجاهلي الأول عبادة آلهةٍ ، ومعبوداتٍ قديمةٍ موروثة ، أو مصنوعةٍ منحوتة ، وفي الغرب عبادة النفس والشهوات ، والفائدة ، واللذة ، والمنافع السياسية والاقتصادية ، وكان اعتماد الملوك ، والأمراء ، والحكام ، والأغنياء ـ في القديم ـ على الخدم والحشم ، والعادات ، والتقاليد ، وأدوات الزينة والراحة ، وكانوا متقيدين بها ، وعائلين عليها ، كطائرٍ مدللٍ ، أو سجينٍ مكرم ، والرجل الغربي مهما بلغ من الثراء والرخاء ، والحكم والقضاء ، مرتبطٌ ـ أو مربوطٌ ـ بموضاتٍ وتقاليد يفرضها المجتمع ، وأعرافٍ ومستويات ، ويُحكمُ بها على ما بلغه الرجل الغربي من العزِّ ، والشرف ، والرخاء ، والثراء ، فكان كلُّ واحد منهما ـ الجاهلي القديم والعصري الحديث ـ في حاجةٍ إلى أن يخرج من السجن إلى الفضاء ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

ولكن من الذي يمثِّل دور ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ في إطار فرديٍّ أو جماعيٍّ ـ ويواجه الغرب ، أو الغربي المالك لأزمة الأمور ، كرئيس الجمهورية ، أو رئيس الوزراء في عاصمة من عواصم الغرب ، أو مركز من مراكز القيادة السياسية والاقتصادية ، فيواجهه كما واجه ربعي بن عامر قائدَ قوّاد الفرس رستم الذي كان ينوب عن إمبراطور الدولة الساسانية ، ويبلغه هذه الرسالة الصادقة الجريئة ، المخلصة البريئة ، التي ليست في صالح فردٍ أو جماعة ، بل هي في صالح الإنسانية ، وفي صالح الشعب ، الحاكم والمحكومين؟

إنَّما كان ذلك مسؤولية هذه الأمَّة الإسلامية ، وقادتها ، ودعاتها ، ومفكريها ، وكتَّابها ، ولا تزال هذه المسؤولية قائمةً ، ومستقبل العالم مرتبطٌ بها .

«لقد تضخَّم العلم ، وتقدَّمت الصناعة في أوربا ، ولكنَّها بحر الظلمات ، ليست فيه عين الحياة .

إنَّ تجارتها قمارٌ يربح فيه واحد ويخسر فيه ملايين .

إن هذا العلم والحكمة والسياسة ، والحكومة التي تتبجح بها أوربا ، ليست إلا مظاهر جوفاء ، ليست وراءها حقيقة .

إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون دروس المساواة الإنسانية ، والعدالة الاجتماعية .

إنَّ الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي ، والتنزيل الإلهي ، غايةُ نبوغها تسخيرُ الكهرباء والبخار .

إنَّ المدنية التي تتحكم فيها الآلات ، وتسيطر فيها الصناعات ، تموت فيها القلوب ، ويقتل فيه الحنان ، والوفاء ، والمعاني الإنسانية الكريمة .

إنَّ شعار الحضارة الحديثة الفتكُ ببني آدم الذين تقوم عليهم تجارتها ، وتنفقُ سلعَتُها ، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود ، الذي انتزع نور الحقِّ من صدور بني آدم .

إنَّ العقل ، والحضارة ، والدين حلمٌ من الأحلام ما لم يعد هذا النظام رأساً على عقب .

إنَّها حضارةٌ شابة ـ بحداثة سنّها ، والحيوية الكامنة فيها ـ ولكنها محتضرةٌ تعاني سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر ، وتقتل نفسها بخنجرها ، ولا غرابة في ذلك ، فإنَّ كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار ، ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود .

إنَّ أساس هذه الحضارة ضعيفٌ منهار ، وجدرانها من زجاج لا يحتمل صدمة .

إنَّ الفكر المارد الذي أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم.

إنَّ العصر يتمخض عن عالمٍ جديد، وإنَّ العالم القديم الذي حوّله الغربيون مكاناً للقمار ـ يقامر فيها بأمن العالم وكرامة الأمم ـ يلفظ نفسه.

إنَّ عقلها الجريء يغير على ثروة الحب، وينمو على حساب العاطفة، وإنَّ عماليقها، وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون ـ حتى في ابتكارهم وثورتهم ـ عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة[١].

وأقول لكم إخواني:

أقول لكم: لو أن قريشاً الذين فقدوا أعضاء أسرهم في معركة بدر وفي ساحة أحد، لو رفعوا قضيةً ضدَّ المسلمين، وقالوا: إنا عرضنا الثراء، إنا عرضنا الزواج الكريم، إنا عرضنا الشرف العظيم على رسولكم، فأبى ورفض، وقال: ما بعثت لهذا، فكيف تعيشون هذه الحياة.

لا تهمُّكم إلا المعيشة الباذخة، لا يهمُّكم إلا تحقيق المطالب البشرية، وقضاء مآرب النفس، لا دعوة ولا جهاد.

توجد عبادة الله وحده، ولكن لا توجد الدعوة إلى أن يكون الدين كلُّه لله، وتنفذ شريعته وأحكامه.

إنا عرضنا عليكم الأموال، وعرضنا عليكم الفرص الكريمة، والمعيشة الطيبة الباذخة، وأسباب الترف، وعرضنا كلَّ ذلك على نبيكم عرضنا عليه الفرص الطيبة المتاحة لعيشةٍ باذخةٍ مترفةٍ، ناعمةٍ مشرفةٍ، فرفض وقال: ما بُعثت لهذا، إنما بُعثت لأدعوكم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وليكون الدين واحداً، لأنَّ الدين عند الله الإسلام، إنا حاربناكم؛ لأنكم تريدون أن تقيموا الدولة للإسلام، ويكون الإقبال والتهافت على الإسلام، أنتم كنتم تقولون: العبادة لله وحده، هو المتصرف في الكائنات، وهو المدبر، وهو

---

(١) ملتقط من «روائع إقبال» للعلامة الندوي.

الخالق ، وهو الرازق ، وكنا ننكر هذا ، فوقعت الحرب بيننا وبينكم ، وقتل من قتل من عظمائنا ، وزعمائنا ، وأشرافنا .

لكنكم أقبلتم على الدنيا ، وتهافتم عليها تهافت الفراش على النار ، تريدون أن تكونوا باذخين ، مترفين ، وتتهيأ لكم الأسباب ـ أسباب النعيم ، أسباب الترف ، وأسباب التنعم واللذة ـ ما نرى فيكم هماً ، وما نرى فيكم حماساً إسلامياً ، وما نرى لكم السيرة الإسلامية الأولى التي كان يعيشها أصحاب نبيكم ـ ﷺ ـ .

معذرةً إليكم ، ومعذرةً إلى ضميري وشعوري الإسلامي ، إنَّ كثيراً من البلاد والمدن ، ولا سيما إذا دخل فيها غير مسلم ، دخل فيها دارس للتاريخ ، أو الذي يستطيع أن يقارن بين الماضي والحاضر ، رأى أن الحياة لا تختلف كثيراً ، إنما هو نشاطٌ لكسب المعيشة ، وحماسٌ لجمع المال والمادة ، وحماسٌ لقضاء الأهواء والشهوات ، وحرصٌ على التكالب على الدنيا ، وتفضيلٌ لغير مسلم على مسلم في التجارة والمصانع ، لمصلحةٍ تجاريةٍ ، ومردودٍ من الربح ، فهذه حقيقة مؤلمة .

يا إخواني : إن أسلوب الحياة التي يعيشها المسلمون الآن لا يتَّفق مع رسالة الإسلام اتفاقاً كلياً ، ولا يتَّفق مع أهداف الرسول ـ ﷺ ـ ، ولا يتَّفق مع الغاية التي خرج لأجلها المسلمون من المدينة إلى بدر ، وقاتلوا في سبيل الله على سبيل العموم .

فعلينا أن ننتبه إلى هذه النكتة ، وهو أنه قد صدَّق الله تبارك وتعالى ما قاله الرسول ـ ﷺ ـ ونصر المسلمين في بدر ـ على قلَّة عددهم وعلى ضآلة سلاحهم ـ فلمَّا نصرهم الله كان معنى ذلك أن الله صدَّق ما قاله الرسول ـ ﷺ ـ ، وكان عند الله قيمة لهذا :

«إن تُهلِك هذه العصابة لا تُعبد» .

فأبقى الله سبحانه وتعالى المسلمين ، ونصرهم ـ على قلة عَدَدهم وعُدَدهم ـ على أعدائهم من قريش ، فنشأ مجتمعٌ إسلامي ، وحياةٌ إسلامية في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وبعد وفاته في عهد الخلفاء

الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ وفي عهودٍ كثيرةٍ وطويلة.

ولكن الآن ـ مع الأسف ـ ضيعنا الشيء الكثير من هذه الأهداف ، ومن هذه الغايات ، ومن هذه الروح والعواطف ، ومن هذه الدوافع الدينية الإيمانية ، إنَّما نريد أن نرى هنا وفي كلِّ بلدٍ عربيٍّ يقطنه المسلمون ، حياةً إسلاميةً سائرةً ، ملحوظةً ، ومرئية ، مجربةً ، ملموسةً ، يلمس الإنسان تلك الحياة: الاستقامة على التوحيد ، والاستقامة على الإيمان بالله ، الاستقامة على إيثار الآخرة على الدنيا ، الاستقامة على خشية الله تعالى ، الاستقامة على تفضيل الإيمان والإسلام وأهلهما على من لا يدين بدين الإسلام ، رغم ما يحصل من النفع على استخدامه ، والاستقامة على العمل بشريعة الإسلام بكل شُعَبها رجالاً ونساءً ، والاستقامة على دعوة العالم ـ حتى العالم الغربي ـ إلى عبادة الله وحده ، وأن يكون الدين كله لله.

والحمد لله رب العالمين
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

أوربا ، أمريكا ، وإسرائيل
كشف حقيقة صارخة ، تنبيه على خطرٍ داهم

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في دار العلوم ـ ندوة العلماء ـ بمناسبة افتتاح العام الجديد للمعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي بدعوة من المسؤولين عنه .

بمناسبة افتتاح «المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلاميّ في ندوة العلماء عامه التعليمي الجديد ، أرى من المناسب أن أنبهكم ـ أيها الطلبة الأعزاء! على خطر الساعة وتحدِّي العصر حتى تكونوا على حيطةٍ وحذر ، وعلى بينة من الأمر ، وحتى تتسلحوا وتستعدوا لمواجهة الوضع بالاقتناع الكامل بصلاحية دين الإسلام لمسايرة هذا العصر المتطور العلمي ، وقيادته ، وإنقاذه من المتاعب والمآسي ، وحتى تستطيعوا أن تقنعوا غيركم بذلك بإزالة شبهاتٍ تحوم حول الإسلام وتعاليمه وأحكامه ، وإبراز محاسنه في أسلوب متين جذاب .

أقول بكل صراحة : إنَّ أمريكا وإسرائيل القوتين الصليبية والصهيونية قد أجمعتا رغم وجود أكبر تناقض بينهما على أنَّ الإسلام وحده يتحدَّى نظامهما السياسي والفكري ، ويحبط خطتهما للاستيلاء والسيطرة على العالم كله .

وإنَّ تأسيس هذا القسم للدعوة والفكر الإسلامي في الواقع تحقيقٌ للأهداف والغايات التي كان قد توخاها مؤسسو ندوة العلماء ، والقائمون عليها السابقون ، كان مؤسس ندوة العلماء الشيخ محمد علي المونغيري ـ رحمه الله تعالى ـ ، قد قام بدورٍ هامٍّ في مقاومة فتنة التبشير النصراني والقاديانية ، ومن خلال مناظراته مع المبشرين النصارى والقاديانيين ، شعر بحاجة العلماء المسلمين وخريجي المدارس الدينية الإسلامية إلى الاطلاع على الأخطار المستجدة وإعداد الدراسات المقارنة لمواجهتها ، وإيجاد القدرة والجدارة لإزالة الشعور بمركَّب النقص من الطبقة المثقفة التي تملك بصفةٍ عامة زمام القيادة سياسياً ، وفكرياً ، وعلمياً ، والإيمان الراسخ بأبدية الإسلام وخلوده وحاجة النوع البشري إليه في كل دور وعصر ، والاقتدار على إثبات أنَّ الإسلام وحده هو سفينة النجاة والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ، وطريق الإنسانية الحقة بالدلائل القاطعة ، والبراهين الساطعة .

فنظراً إلى هذه الحقيقة الصارخة جاء ـ ولو بتأخير ـ تأسيس هذه الشعبة

الهامة سدّاً لحاجةٍ ملحّةٍ ، وتعبيراً لحلمٍ من الأحلام التي كان قد حلم بها مؤسسو ندوة العلماء.

فأولاً يجب عليكم أن تفهموا بأنَّ دين الإسلام دين أبديٌّ خالد: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] يشمل هذا الإعلان الربانيُّ كلَّ زمانٍ ومكان، كما أنَّ أسباب وطرق حصول رضا الله، ومعرفة سخطه، والحقائق الغيبية الأبدية لا تتغيَّر، ولا تتبدل، وعلى العكس من ذلك فإن الزمان دائماً في تغير وتطور بالطبيعة، ولو لم يكن كذلك لما كان ذلك زماناً، لأنه يضادُّ الوقوف والركود، كما أنَّ الاتجاهات، والنظريات، والحركات، والمتطلبات، والانطباعات، ودوافعها دائماً تتغيَّر، وتتحرَّك، وتنتقل من طورٍ إلى طور ومن لونٍ إلى لون، تقوم مختلف الحركات في مختلف الأزمان، وتحاك مؤامرات، وتوضع مخططات، وتنشأ جبهات ضدَّ الإسلام، وتقوم حكوماتٌ جديدة، وتتجدَّد مقتضياتها، ومصالحها، ومتطلبات أغراضها بوجهٍ مستمر، سواءٌ كانت هذه المصالح سياسيةً، أو حربيةً، اجتماعية، أو عائلية، كما يقتضي كلُّ نظامٍ وحكومةٍ جوّاً صالحاً، وأرضاً خصبة لها لتدين لها الرعية، وتخضع أمامَ أربابها، ويعتز باختيار حضارتهم وأسلوب حياتهم حتى في المأكل، والمشرب، والملبس، وتحقيقاً لهذا الهدف لا تزال تُستخدم وسائل جديدةٌ، وآلات حديثةٌ، وخاصةً في هذا العصر العلمي الراقي الحديث.

يشهد التاريخ أنَّ المؤامرات، والمخططات التي حيكت، ودبرت ضدَّ الإسلام في الماضي باءت بالفشل، ولم ينجح الأعداء فيما قصدوه بها من إلحاق الضرر بدين الإسلام، ووَقْف مدِّه العظيم، وخرج الإسلام ظافراً منتصراً من جميع هذه المشكلات العصيبة والمؤامرات الدقيقة التي كان بعضها يكفي للقضاء على ديانةٍ قويةٍ، قديمةٍ، أو تحريفها على الأقل، كما وقع مراراً في تاريخ الأديان.

يدلُّ التاريخ على أن غارة التتر، والحروب الصليبية كانتا حاسمتين للإسلام، والعالم الإسلامي، لا يوجد لهما نظير سعةً، وعمقاً في تاريخ

العالم ، وتختلفان عن المؤامرات والأخطار الأخرى التي واجهها الإسلام في رحلته الطويلة الواسعة ، كان يبدو أنهما تقضيان على الإسلام بوصفه دعوةً عالميةً ، وقوةً سياسيةً وحريةً دينيةً ، وتجعلانه محدوداً في رقعةٍ من الأرض مخصوصةٍ ، أو في عنصرٍ خاصٍّ ، أو في قوميةٍ مخصوصة ، لا نفوذ له ، ولا شخصية ، على المستوى العالمي.

حدثت الغارات الصليبية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، وغارات التتر في القرن السابع الهجري القرن الثالث عشر الميلادي بقيادة جنكيز خان ، وهولاكو.

وأول جيش للصليبيين توجَّه إلى الشام سنة ٤٩٠ هـ ، واستولى في ظرف عامين على مدن «الرها» و«أنطاكية» وأكثر قلاعها ، وأخذوا بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) حتى توسَّعت أطماع النصارى إلى أن همَّ «ريجي نالد» والي كرك الزحف على الحرمين الشريفين وتفوَّه بما يتضمن الاعتداء على مدفن الرسول ﷺ وأبدى نواياه الخبيثة ، ففي هذه المرحلة الخطيرة قيض الله تبارك وتعالى لقمع هذه الفتنة العمياء ، وردَّ هذا الخطر العظيم على أعقابه السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي يندر نظيره في الإخلاص ، والورع ، والتقوى ، والشغف بالجهاد ، والحنين إلى الشهادة ، والاستماتة في سبيل الله ، والغيرة الدينية ، والحمية الإسلامية ، وحبِّ النبيِّ الكريم ﷺ ، هزم السلطان صلاح الدين الأيوبي الصليبيين شرَّ هزيمة ، وذاد عن حوزة العالم الإسلامي ، وأعاد مجد الإسلام ، وعزَّه وكرامته ، وأدخل على روح النبي العالية ﷺ الغبطة والسرور ، واجتمع المسلمون جميعاً تحت رايته الإسلامية ضدَّ الصليب الحاقد.

ولا يغيبنَّ عن البال أنَّ التقدم والازدهار في التمدُّن ، والحضارة ، والانتشار ، والشيوع في العلوم التجريبية والطبيعية الذي شاهده العالم في قرونٍ متأخرة لم يكن في ذلك الوقت ، وكذلك لم يكن لدى أوربا آنذاك ما جاءت به فتوحاتُها ، واستعماراتُها فيما بعد من مشروع صوغ العالم صياغةً جديدةً ، وإحداث ثورةٍ في الفكر والحضارة ، ومشروع غسيل

المخ ، لأجل ذلك لم تكن هذه الغارات إلا غارةً عسكرية فحسب ، ولم يكن هدفها إلا الاستيلاء على المقدسات الإسلامية فحسب ، ولم يكن هدفها إلا الاستيلاء على المقدسات الإسلامية فحسب ، وأخذ الثأر من المسلمين الذين استولوا على المملكة الصليبية الشرقية ومقدساتها ، ومولد المسيح نفسه أصبح تحت حضانتهم وسيطرتهم ، لأجل ذلك فإنَّ الأخطار التي أحدقت بالعالم الإسلامي بعد ذلك بعدة قرون بسبب استيلاء أوربا وأمريكا على العالم سياسياً ، وعلمياً ، وحضارياً ، وبسبب استعمار الغرب البلدان الشرقية ، وإصابة العالم الإسلامي بالانحطاط ، لم يكن أي شيء من هذا في ذلك الحين .

وكان «ريجي نالد» الصليبي الحاقد والي «كرك» قد طمع في الإغارة على الحرمين الشريفين أيضاً ، وكما يقول المؤرخ الشهير لين بول : نهض لمقاومة هذا الخطر عماد الدين زنكي ، وأكمل مهمة أبيه ابنه البار الملك العادل نور الدين الزنكي ، ولكن النجاح التام والفتح المبين كان منتظراً للسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي هزم القوة الصليبية هزيمةً نكراء في معركة حطِّين في يوم السبت ١٤/ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (تموز ١١٨٧ م) ، وفتح الله للمسلمين فيها فتحاً مبيناً ، وبالتالي حرر بيت المقدس من براثنها ، فذهبت الأطماع الخبيثة ، والنوايا الشنيعة للصليبيين هباءً منثوراً ، وذلك بفضل الله تبارك وتعالى ، ونصرته ، وحمية السلطان صلاح الدين الأيوبي الدينية المتدفقة ، وغيرته الإيمانية المتأججة .

انتقل السلطان إلى رحمة الله ـ عز وجل ـ في اليوم ٢٨/ صفر سنة ٥٨٩ هـ (١١٩١ م) ، رحمه الله رحمةً واسعةً؛ وجزاه أحسن ما يجزي به عباده المجاهدين الصالحين الأخيار .

لا يخفى عليكم أنَّ أوربا في القرن الثاني عشر الميلادي لم تكن على ما وصلت إليه في القرن الثامن عشر ، والتاسع عشر الميلادي من اكتشافاتٍ علمية ، واختراعاتٍ جديدةٍ ، ومطامع استعمارية ، وإعدادٍ للآلات الحربية ، وصناعةٍ للأسلحة الفتاكة ، وترويجٍ للأفكار اللادينية ، والنظريات المادية

البحتة، ونفوذٍ سياسيٍّ، وسيطرةٍ اقتصادية، لأجل ذلك فإنَّ الغارات الصليبية على عنفها، واتساعها، وتنظيمها، ومع أنها لو نجحت ـ لا قدَّر الله ـ لمهدت الأرض لإشاعة ونشر النصرانية وغلبتها على المقدسات الإسلامية، وأصابت المسلمين بالذلّ والهوان سياسياً فحسب، لم تكن خطراً مثل الخطر الذي واجهه العالم الإسلامي والعربي في القرن التاسع عشر، والعشرين، وخاصةً بعد ما عرضت بريطانيا وفرنسا حضارتيهما، وفلسفتيهما للحياة إلى العالم، وجعلتاهما رمزاً للتنوُّر والتقدُّم، وتقليدهما، وتبنيهما؛ لائقاً بالاعتزاز والافتخار في البلدان الإسلامية والعربية المستعمرة.

وإنَّ غارات التتر كانت مجرد غزوٍ عسكري، لم يكن مدعماً بحضارةٍ، أو عقيدةٍ، أو دعوةٍ ورسالة، والتجارب تدلُّ على أنَّ الفاتح العسكري الناجح لا يتقيَّد بالحدود، والثغور العسكرية، بل يؤثر في الشعب المفتوح بأسلوب حياته، وأفكاره، وعقائده، وآدابه، وكما قلت لكم: كان التتار لا يملكون ديناً، ولا حضارةً، ولا دعوةً ولا رسالةً. لأجل ذلك لم يشكِّل استيلاؤهم، وسيطرتهم عسكرياً خطراً مثل الخطر المعاصر الذي أريد أن أنبهكم على خطورته، وفظاعته، وسعته، وعمقه، وممَّا لا شك فيه أنَّ غارة التتار لا يوجد لها مثيل في العنف، والقسوة، والهمجية في تاريخ الإنسانية كلِّها فضلاً عن التاريخ الإسلامي المحدود، إنَّها هزَّت العالم الإسلامي هزَّاً عنيفاً من أقصاه إلى أقصاه، كان اتجاه التتار إلى جهة يرادف معنى التدمير، والإبادة، والذلة، وانتهاك الأعراض، فكلُّ بلادٍ أو دولةٍ توجهوا إليها أبادوها، وخرَّبوها، وإنَّ العالم الإسلامي كلَّه ولا سيما الجزء الشرقي منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء عن بكرة أبيه، دخل هؤلاء الوحوش بعد ما خضبوا أرض العالم الإسلامي كله بدماء أهله، وأتوا عليه في بغداد دار الخلافة الإسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر في ذلك العصر بقيادة حفيد جنكيز، هولاكو خان، ودمَّروها تدميراً، فتارةً يحمرُّ ماء دجلة بدماء أهل بغداد، وأخرى يسودُّ بسبب إلقاء الكتب المحرقة فيه، وكانت مناراتٌ عاليةٌ ترفع برؤوس المسلمين المقطوعة تبدو من بعيد، فغلب على

الناس التشاؤم واليأس ، حتى بدؤوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ، ومقاومتهم مستحيلةٌ ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى سار المثل : «إذا قيل : إن التتر انهزموا فلا تصدق» ، ولكن ذلك إنما كان هجوماً عسكرياً مدوِّخاً مدمِّراً ، لم يفكر قادته في حينٍ من الأحيان في أن يقدموا بديلاً للدين ، أو الحضارة الإسلامية ، فكان غير جديرٍ بالبقاء طويلاً ، وغير لائقٍ بملء فراغ ، أو إبدال حضارةٍ بحضارة ، أو دينٍ بدين ، هذا وفي جانبٍ آخر استغلَّ العلماء الربانيون ، والدعاة المخلصون ذلك الفراغ الهائل الفكريَّ ، والعلميَّ ، والعقائديَّ ، والدعويَّ الذي كان يتوافر في حياة التتار ، فقاموا بتعريفهم بالحضارة الإسلامية ، والقانون الإسلامي ، والرسالة الإسلامية ، فاستطاع بحول الله وتوفيقه العلماءُ الربانيُّون ، والوزراءُ المسلمون نقلهم من لا دين إلى الدين ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ، وكان من الطبيعي أيضاً أنَّ مثل هذه الفتوحات لا تبقى طويلاً بهذا الفراغ الشامل .

وهنا نريد أن نذكر تلك القصة الغريبة النادرة المؤثرة ؛ التي غيرت مجرى التاريخ ، وجعلت العدوَّ اللدود ولياً حميماً ، يقول آرنولد في كتابه الشهير Preaching of Islam «الدعوة إلى الإسلام» وهو يذكر سبب شيوع الإسلام في فرع دولة التتار الإيرانية والتركستانية : «إنَّ إسلام تغلق تيمور خان ملك كاشغر كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى في مدينة بخارى ، يقال له : الشيخ جمال الدين ، وذلك أنَّ تغلق كان قد خرج ذات مرَّةٍ للقنص ، فوجد الشيخ مع جماعة من التجار في الأراضي المخصصة للصيد له ، فغضب غضباً شديداً معتبراً ذلك شؤماً ، ونحساً ، فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يمثلوا بين يديه ، فلما مثلوا ؛ سألهم تغلق في غضب : كيف دخلتم هذه الأرض؟ فأجاب الشيخ بأنَّهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضاً مخصصة ، ولما علم تغلق أنهم من الفرس قال : إنَّ هذا الكلب أكرم أم الإيراني؟ علماً بأن التتار كانوا يعتقدون بالفرس الشؤم والنحس ، ولأجل ذلك كان تغلق قد أمر بحراسة مكان القنص كلِّه لكيلا يتوجه إيراني إليه ، بينما أراد الله تبارك وتعالى أمراً آخر ، أراد أن يدخل هذا الشعب الهمج القوي الباسل الشجاع في حظيرة الإسلام ، وأن يغيِّر عدواً لدوداً للإسلام

حارساً أميناً ومعارضاً معانداً له ، ذائداً مدافعاً عنه ، فأجاب الشيخ جمال الدين: «نعم ، قد كنا أخسَّ من الكلب ، وأنجسَ ثمناً منه لو أننا لم ندن بالدين الحق» ولمَّا راع هذا الجواب الملهم تغلق ، أمر بأن يقدَّم إليه ذلك الفارس الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله: ماذا تعني بهذه الكلمات؟ وما ذلك الدين؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام في غيرة وحماسٍ انفطرت لهما قلب تغلق حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصور له الكفر بصورةٍ مروعةٍ ، اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال: «ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم ، فلتمهلني قليلاً ، فإذا ما آلت إليَّ مملكة أجدادي فعد إليَّ».

هذا ما ذكره آرنولد في كتابه: «الدعوة إلى الإسلام» ولكن المصادر الأصيلة التركية ، والفارسية تذكر هذه القصة في أسلوب أقوى وأعظم تأثيراً ودقَّةً ، فقد جاء فيها: سأل الملك تغلق: هذا الكلب أفضل أم أنت؟ فقال الشيخ جمال الدين: «الآن لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال» ، فقال الملك: ما تعني بذلك؟ الكلب بين يديك ، ويعرف كل إنسان قيمته ، لا أكاد أفهم أيَّ شيءٍ يمنعك من أن تجيب عن هذا السؤال في هذا الوقت؟ فقال الشيخ: إن فاضت روحي وأنا مؤمنٌ مسلمٌ فإني أفضل من الكلب ، وإن متُّ كافراً كان الكلبُ أفضل منِّي بكثير. وقع جواب الشيخ الصادر من قرارة النفس من الملك موقع السهام المسددة ، فقال: إذا ما علمت تتويجي فتعال ، فلم يزل الشيخ يعدُّ الأيام بتوقٍ شديدٍ ، وتلهفٍ بالغ في انتظار تلك الساعة المباركة ، متى يستبشر بنبأ تتويج تيمور ، فيزف إليه أكبر نعمة ، وأغلى هديةٍ في الدنيا والآخرة ، ولكن لم تتحقق أمنيته العظيمة هذه ، وحان أوان رحيله إلى الله تبارك وتعالى ، فقال لابنه رشيد الدين: «لعلَّ الله ـ عزَّ وجل ـ يريد أن يسعد تغلق تيمور بنعمة الإسلام على يديك ، فإنه سيصبح ملكاً عظيماً فلا تنس أن تذهب إليه ، وتقرأ عليه مني السلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذي وعدني به.

ولم يلبث رشيد الدين سنوات عديدة إلا وقد تمَّ تتويج تغلق تيمور ،

فخرج قاصداً تغلق ، تنفيذاً لوصية أبيه وحرصاً على نيل سعادةٍ وأجرٍ لهداية ملكٍ كافرٍ عظيمٍ ورعيته ، ولكن كيف يظفر بالمثول بين يدي الملك ، فكَّر ، وفكَّر حتى اهتدى إلى حيلةٍ غريبة طريفة ، بسط سجادته على مقربةٍ من القصر الملكي ، ولم يزل يؤذن ويصلِّي ، ومضت على ذلك أيامٌ عديدةٌ ولم يبلغ أذن الملك صوت أذانه ، إلا أنه سمعه ذات يومٍ وقت الفجر ، فأقلق ذلك الصوت نفسه ، وأثار غضبه ، فصاح: ما هذا الصوت؟ من يصيح في هذا الوقت، ويزعجني ويؤرقني؟! قيل: هنا على مقربة من القصر رجلٌ يقوم ، ويجلس ، ويصيح هذه الصيحة ، فأمر بإحضاره ومثوله بين يديه ، وهنا أدَّى رشيد الدين رسالة أبيه ، وأمانته ، فذكر الملك ما كان قد حدث بينه وبين أبيه الشيخ جمال الدين ، والوعد الذي قد قطعه له ، قال الملك: حقاً! ما زلت أذكر منذ اعتليت عرش آبائي ، فقال رشيد الدين: إني أشهد أن أبي مات على الإيمان ، وفاضت نفسه ، وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فأقرَّ الملك بالشهادتين ، وأعلن إسلامه ، ثم دعا وزيره ، فقال الوزير: إني مسلم منذ زمان.

وهكذا دخل هذا الفرع من التتار ، وفروعهم الأخرى أيضاً في الإسلام ، وذلك في بضع سنين ، فتجلَّت هذه الحقيقة جلاء الشمس في رائعة النهار مرةً أخرى ، وهي: أنَّ الإسلام لم ولا يزال يملك أكبر نفوذ ، ويتمتَّع بأغرب موهبةٍ في تسخير القلوب ، والنفوس ، وكسب الأنصار ، والأصدقاء من نفس الأعداء الألداء ، والمعارضين المعاندين ، وإن التتر لم يسلموا رسمياً فحسب ، بل برز فيهم عددٌ كبيرٌ من العلماء ، والفقهاء ، والمجاهدين ، والدعاة ، والربانيين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدَّوا دورهم الكبير في حماية حمى الإسلام في ظروفٍ دقيقةٍ ، ولحظاتٍ عصيبةٍ من التاريخ ، يقول مؤرخ ذو بصيرةٍ نافذة: «إن هناك شعبين اثنين دخلا في الإسلام بصفتهما شعبين ، لم يكن فرد من أفرادهما إلا وقد دخل في الإسلام ، هما: العرب والترك ، وإني أقول: التتار كذلك دخلوا في الإسلام عن بكرة أبيهم ، والواقع أنَّ كلَّ عصر يتطلَّب الدعاة الحكماء الذين يطلعون على نفسية المخاطب ، وأسلوب العصر ، ولغته ، ويقتدرون على

التكلم بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما قال الله ـ عز وجل ـ في كتابه الحكيم : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] لو قمنا بعمل الدعوة طلباً لرضا الله ـ عز وجل ـ فحسب ، وبالحكمة ، فلا مانع أن تثمر الدعوة أثمارها في هذا العصر أيضاً ، فإنها تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها ، ولا تبديل لكلمات الله ، وفعلاً نشاهد آثار الدعوة الإسلامية في كل بقعةٍ من بقاع العالم ، ولكن أكبر تحدٍّ ، وأعظم خطرٍ في العصر الراهن أن قوتي العالم العظيمتين ، الصليبية والصهيونية قد أجمعتا على القضاء على الحميَّة الدينية ، والغيرة الإسلامية ، وانتزاع روح الاعتزاز بالدين ، والافتخار بالانتماء إلى دين الإسلام ، وإلى خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ من الأمة الإسلامية ، وإحلال الشعور بمركب النقص ، والاستحياء بإظهار نسبتها إلى الإسلام محلَّ ذلك ، لقد كنت قلت في الندوة العلمية حول الاستشراق والمستشرقين والإسلام؛ التي كانت قد عقدتها أكاديمية العلامة شبلي النعماني بأعظم كره (الهند سنة ١٩٨٠ م) : إنَّ القوى الغربية قد أصابت حيث أدركت أنَّ مجرد الغلبة العسكرية ، والتفوق ، والتنظيم ، والاستقرار السياسي والأسلحة الحديثة الفتاكة ، والأساليب الحربية الدقيقة ، والاستراتيجيات العسكرية العلمية لا تكفي لاستعباد شعبٍ وبلدٍ وإبقائهما في العبودية إلى مدةٍ طويلة ، بل لتحقيق هذا الهدف «النبيل» لا بدَّ من إيجاد الشعور بمركب النقص في ذلك الشعب ، وإزالة الحمية الدينية والغيرة الملِّية من قلوب أهله حتى لا يستطيع أحدٌ منهم أن يقوم أمام الطبقة الحاكمة مرفوع الرأس شامخ الأنف ، وتحقيقاً لهذا الغرض قامت حركة الاستشراق برعاية الحكومات الكبرى في العالم . ولكن كثيراً من المسلمين يحسنون بها الظن ، ويعتقدون أنَّ المستشرقين يشتغلون بالتحقيق ، والبحث ، والدراسة ، والتصنيف ، والتأليف خدمةً للعلم ، ولمجرد إشباع غرائزهم العلمية ، وأذواقهم التحقيقية ، كلَّا! بل تعمل وراء هذه النشاطات والأعمال أغراضٌ استعمارية ، وسياسيةٌ ، ورعايةٌ حكومية ، هذا خطرٌ عظيمٌ لعصرنا هذا ، يجب عليكم أن تطَّلعوا على أبعاده ،

وأطرافه، ومراكزه، ووسائله، كان في أوربا وأمريكا جنودٌ مجندةٌ من المتشرقين تتمتَّع بكلِّ نوعٍ من الرعاية والمعونة. صبت جهودها على تأليف الكتب التي لا تهاجم الإسلام مباشرة، فإنهم كانوا يعرفون جيداً أنَّ الهجوم على الإسلام مباشرةً يؤدي إلى استفزاز المسلمين، وإشعال غيرتهم الإيمانية، وحميتهم الإسلامية، وإحداث ردود فعلٍ فيهم ضدَّ ذلك، فغيَّروا الأسلوب القديم بأسلوبٍ جديدٍ علميٍّ أخطر منه، يمتاز بأن القارىء لا يكاد يشعر بسهولةٍ بما يدسه المؤلف بشطارةٍ ودهاءٍ في كتابه من سموم وأكاذيب وأباطيل، ومن معانٍ معارضةٍ للحقائق الثابتة، وذلك في ظروف الدلائل البراقة، والبراهين الخدَّاعة، يؤثر كلُّ ذلك على قارىءٍ وادع ساذج، ويجعله ينساق إلى ما يشاء المؤلف المتشرق أن يسوقه إليه، وهو يشعر بأنَّ ذلك هو الحق، وتتزعزع ثقته بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، الفقه الإسلامي، ويعتريه الشعور بمركب النقص نحو حضارته، وثقافته، وتاريخه. إنَّ من يقرأ كتابات المتشرقين يبدأ يظنُّ أنَّه كان على أدنى مستوى من العلم، والمعرفة، والثقافة حتى الآن، وأنَّه لم يكن مطلعاً على السقطات والنقائص المتوافرة في تراثنا الإسلاميِّ، لم يتمَّ تدوين الحديث والفقه إلا بتأخيرٍ كثيرٍ، ولا يكاد يعرف هذا المسكين الحِكَم والمصالح العظيمة التي لجملتها هذا التأخير، تاريخ تدوين الحديث النبويِّ الشريف لوجدنا أنَّ توفيق الله وتأييده كان حليفاً لهذا العمل الجليل، بل كان معجزةً، وآيةً من آيات قدرة الله تبارك وتعالى، ساهم في هذا العمل من بخارى، وتركستان عباقرةٌ كانوا آياتٍ في الذاكرة والذكاء، لا يوجد لهم نظير من قرونٍ وأجيالٍ في التاريخ، وعلى سبيل المثال نذكر هنا قصَّةً من حياة الإمام البخاريِّ، يرويها أبو أحمد بن عدي الحافظ، فيقول: سمعت عدَّة من مشايخ بغداد يقولون: «إنَّ محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا، وأرادوا امتحان حفظه، فعمدوا إلى مئة حديث، فقلبوا متونها، وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسنادٍ آخر وإسناد هذا المتن لمتنٍ آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس، لكلِّ رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضر المجلس أن يلقوا ذلك على

البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعةٌ من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخاري ، «لا أعرفه» فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحدٍ حتى فرغ والبخاري يقول: «لا أعرفه» وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ، ويقول: «فهم الرجل» ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز ، والتقصير ، وقلة الحفظ ، ثم انتدب رجلٌ من العشرة أيضاً ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال: «لا أعرفه» فسأله عن آخر؟ فقال: «لا أعرفه» ، فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول: «لا أعرفه» ، ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاريُّ لا يزيدهم على: «لا أعرفه» فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول ، فقال: أما حديثك الأول: فقلت كذا وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة. فردَّ كلَّ متنٍ إلى إسناده ، وكلَّ إسنادٍ إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقرَّ الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل» قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصة: «قلت: هنا يخضع للبخاري! فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب ، فإنه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرَّةٍ واحدة»(١).

كذلك لما احتاجت الأمة الإسلامية إلى حركة تدوين الفقه قيض الله تبارك وتعالى لهذه المهمة الجليلة رجالاً يعدون من الأفذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الإنسانية فقهاً ، وأمانةً ، وإخلاصاً ، وكفايةً ، كان منهم الأئمة الأربعة أبو حنيفة (م ١٥٠ هـ) ومالك (م ١٧٥ هـ) والشافعي (م ٢٠٤ هـ) وأحمد بن حنبل (م ٢٤١ هـ) ، وقد رزق الله تبارك وتعالى هؤلاء الأئمة الفقهاء تلاميذ نجباء ، يعجز تاريخ التشريع كله عن الإتيان بمثلهم ، قاموا

---

(١) مقدمة فتح الباري: ص/ ٤٨٦ ، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

بعلمهم ، وزادوا في ثروته ، ولمَّا ازدهر التفكير العقلي البحت بانتقال العلوم اليونانية ، والسريانية إلى العربية ، وأقبل الناس عليها ، وخاصةً في العراق ودار الخلافة بغداد ، وسيطرت نظريات وعقائد المعتزلة على كثيرٍ من العقل والأذهان ، وصار كثيرٌ من طلبة العلم الشبان ، وممن يحبون الظهور والتفوق على الأقران ، يظهرون الاعتزال تظرفاً ، وتنوراً ، وأصبح شبه المقرر لدى كثيرٍ: أنَّ المعتزلة يمتازون بدقَّة النظر ، واتساع الفكر ، والتحقيق ، وتزعزعت عقائد كثير من المسلمين ، وحدث تبلبلٌ فكريٌّ بشيوع الفلسفة وأفكار «الباطنية» في المجتمع الإسلامي ، ففي هذا الوضع نهض المتفلسف العصيب الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل من ذرية أبي موسى الأشعري ، والإمام أبو منصور الماتريدي ، والإمام الغزالي ، والإمام ابن تيمية الذين قاموا بالدفاع عن عقيدة أهل السنة في حماسةٍ وإيمان ، ودحضوا حجج الفلاسفة ، والباطنية ، حتى عادت ثقة أتباع أهل السنة بعقيدتهم إلى نفوسهم ، وزالت عنهم مهابة الفلاسفة ، وسيطرتهم.

وكذلك لم يزل ولا يزال ينهض في كل عصرٍ ومصرٍ مصلحون ، ومجدِّدون ، وعلماء ربانيون لمسح الغبار عن وجه الإسلام المشرق ، بإزالة البدع ، والخرافات ، والعادات ، والتقاليد الجاهلية ، وترويج العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وإشاعة السنة النبوية ، يقوم هؤلاء المجدِّدون بصيانة الإسلام من تحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين.

والدليل على أنَّ الاستشراق وأعماله التحقيقية والتأليفية كانت تهدف خدمة الاستعمار الغربي: أنَّ الاستشراق ونشاطاته قد ضعفت ضعفاً ، وكسدت كساداً بعد ما طوى الاستعمار الغربي بساطه من البلدان الشرقية ، وليس ذلك مصادفةً ، ولا أصاب وسائل الإعلام الانحطاط والضعف ، بل ازدهرت وتقدَّمت أكثر بكثير من ذي قبل ، وقطعت أشواطاً بعيدة في الرقي والتقدُّم ، ولكن نشاهد مع ذلك أنَّ حركة الاستشراق قد أصابها الركود والجمود ، والآن لا يصدر عن المتشرقين كتاب ، ولا مقال قيم إلا نادراً ، وفوق ذلك يخلو عملهم الآن مما كان يتسم به قبل من تحقيقٍ ، ودقَّة نظر ، وسعة دراسة ، ومعلومات. إنَّ دلَّ ذلك على شيءٍ فإنه يدل على أنهم لم

يكونوا يتوخَّون وراء حركة الاستشراق إلا زعزعة عقيدة المسلم ، وإضعاف ثقتهم بدينهم ، وصلاحيته لمسايرة الزمان وتطوراته ، وإثارة الشكوك والشبهات حول القرآن الكريم ، ككتابٍ أنزله الله تبارك وتعالى على خاتم الأنبياء محمد ﷺ وككتابٍ محفوظٍ ومصونٍ من كلِّ نوع من التحريف والتبديل ، وحول الحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي وعلم الكلام ، وإحداث سوء الظن بالشخصيات الإسلامية وكلِّ ما يمتُّ بصلةٍ ما إلى الإسلام ، فأكبر خطر في هذا العصر أنَّ الجيل الجديد المثقف قد اعتراه الشعور بمركب النقص ، وما المسؤول عن ذلك إلا الكتب الإنجليزية ، والفرنسية التي قام بتأليفها المستشرقون ، ويطالعها هذا الجيل بشعور من التنور والاحترام والتقديس ، فإنَّها تحمل مواد سامة ومعارضةً للمذاهب والأديان السماوية بصفةٍ عامة ، وللإسلام بصفةٍ خاصة .

إنَّ أعظم ما يحزن ، وأكبر ما يقلق مسلماً بصيراً : أنَّ البلدان العربية عادت هدفاً لأمريكا ، وإسرائيل ، ونجح هجومهما وغزوهما عقلياً وفكرياً إلى حدٍّ كبير ، حتى إنَّ الطبقة المثقفة التي نشأت ، وترعرعت في أحضان الثقافة الغربية ، والتي تعتلي بصفةٍ عامةٍ عرش الحكومة وتتقلد مقاليد الأمور والحكم ، وتملك زمام الفكر والتعليم والتربية ، قد أصابها الشعور بمركب النقص ، والوهن والضعف في إيمانها وعقيدتها واليأس من مستقبل الإسلام ، وتتصدر البلدان العربية الإسلامية مصر ، والجزائر ، حيث بلغ خوف قيادتهما من الانتفاضة الإسلامية إلى حدٍّ كبيرٍ من الحساسية الزائدة ، ومن نتائج هذا التخوف والذعر والإشفاق والحذر الشديد من وجود الشعور الديني القوي في الجماهير ، والاعتزاز بالدين ، والطموح إلى أن تسود الحياة الإسلامية بجميع شُعبها ومناحيها على البلاد ، إنه نشأ صراع فكري وعاطفي بين الطبقات الحاكمة أو القائدة الزعيمة ، وبين الجماهير والشعوب المسلمة ، ولا يخفى على من له إلمام بتاريخ استقلال الجزائر وطرابلس والمغرب ، ومصر من الاستعمار : أنَّ الذين قاموا بقيادة حركة التحرير ، وغامروا في سبيل ذلك بالنفس والنفيس والغالي والرخيص ، هم

العلماء والمشايخ وخريجو المدارس الدينية العربية ، وزعماء الحركات الإسلامية ، ولكن اليوم عاد هؤلاء العلماء والدعاة أكبرَ خطرٍ للبلاد وأمنها وسلامتها ، واعتبر الإمام حسن البنا وسيد قطب خطراً فاستشهدا مع كثير من زملائهم ورفاقهم ، فكلُّ ما يمت إلى الإسلام بصلةٍ ، وما يظهر من عملٍ ببعض التعاليم الإسلامية على مستوى فردي ، أو ظهور بمظهر إسلامي والإكثار من الاستشهاد بالكتاب والسنة ، والإنكار على بعض المنكرات ، وتقليد الغرب تقليد الأعمى فضلاً عن المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وتمثيل الحياة الإسلامية ، والطراز الإسلامي ، كل ذلك يشكِّل في نظر حكومة الجزائر خطراً أكبر من هجوم أجنبي ، أو غارةٍ من عدو ، بل تهاب هذه الحكومات من الصحوة الإسلامية أكثر مما تخاف من إسرائيل ، وهجومها المفاجىء . هذه مأساة كبيرة ، إنَّ بلداً إسلامياً عربياً قد قاد العالم الإسلامي والعربي فكرياً ، وعلمياً ، وأدبياً في الماضي زمناً طويلاً ، بل يقود اليوم أيضاً ، ويحتضن أكبر مؤسسة تعليمية ، وتربوية مثل : «الجامع الأزهر» حيث يعلم أفلاذ كبد إفريقية والبلدان الإسلامية والعربية بكثرةٍ كاثرةٍ ، وعددٍ هائل ، وقد أنجبت عدداً كبيراً من العلماء ، والدعاة ، والمصنفين ، والمحققين والأصوليين ، والشعراء ، والأدباء ، والمصلحين ، والقضاة ، مثل هذا البلد تحارب قيادته الإسلام والشريعة الإسلامية بجميع طاقاتها ووسائلها وبشيءٍ من العنف والهمجية .

إنَّ التحدِّي المعاصر والوضع الباعث على القلق أنَّ البلدان العربية تتخوَّف من الدعوة الإسلامية ، وفي جانبٍ آخر لا توجد بها حركةٌ منظمةٌ قويةٌ ، أو جماعةٌ تجذب الناس إليها ، أو داعية يستثير فيهم الحمية الإسلامية ، والغيرة الدينية ، ويشعل شعلة الإيمان ، وينفخ روح الجهاد ، وحبَّ النبيِّ الكريم ﷺ الذي يغلب على كلِّ حبٍّ ، ويرسخ الاستهانة بزخارف الحياة والحنين إلى الشهادة ، وعاطفة التفاني في سبيل الله تعالى .

إنَّ البلدان العربية الإسلامية التي ندين لها في ديننا ، وعقيدتنا ، ومعرفتنا لحقيقة الإنسانية ، والمشاعر النبيلة ، وغايتنا ، وواجباتنا هي التي بلغت الرسالة الإلهيـة الأخيرة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وهي منّـةٌ

عظيمةٌ على النوع البشري كلِّه ، لا تعدلها جميع المنن التي منَّ بها عليه الحضارات الكبرى الراقية والعظماء من الملوك ، وكبار الفلاسفة ، والعلوم الإنسانية ، والمعارف البشرية جمعاء .

إنَّ الدعوة الإسلامية قد خفت صوتها ، بل اختنق في العالم العربي اليوم وبعد قمع حركة «الإخوان المسلمون» لا يكاد يسمع حسيسٌ من الدعوة إلى الله ، وإلى تطبيق الشريعة على جميع المجالات ، وإلى رفض القوانين الوضعية المطبقة على هذه البلدان ، وسبب ذلك أنَّ الدعاة المسلمين الأكفاء ، والعلماء الربانيين ، وأهل الحركات الدينية اضطروا للهجرة ومغادرة الوطن بما نالوه من أرباب السلطات والحكومات من اضطهادٍ ، وظلمٍ ، وعنفٍ ، وبربريةٍ ، ونتيجة لذلك قد أتى على مصر نفسها حينٌ من الدهر لم يكد يتصور أهلها ، ولا يدور في خلدهم بصفةٍ عامةٍ : أنَّ المسلمين أيضاً يستطيعون أن يؤثروا على عالم اليوم ، لما صدر كتابي : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» بادىء ذي بدء من القاهرة كتبت صحيفةٌ مصريةٌ متعجبةٌ معلقةٌ على الكتاب ، وكنت مقيماً في مصر يومذاك «هل المسلمون أيضاً يستطيعون التأثير على العالم؟ هل خسر العالم شيئاً بانحطاط المسلمين؟ هل فقد شيئاً بغيابهم عن قيادة العالم ، كتابٌ غريب؟! عنوانه مثيرٌ للدهشة والعجب! ما للمسلمين ، وعددهم ، ووضعهم ، ووسائلهم وللتأثير على العالم؟» .

وإن كنت قد استوحيت ذلك من شعر محمد إقبال ـ رحمه الله تعالى ـ في قصيدته : «برلمان إبليس» في ديوانه الأخير : «أرمغان حجاز» (هدية الحجاز) ، وصف ، وصوَّر فيها جلسةً برلمانية ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ، وكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التي تهدِّد مهمَّتهم في العالم ، وتحبط مساعيهم ، أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ، ووجهات نظرهم ، فحكم على هذه الآراء والدراسات وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة . وقال : «إن كنت خائفاً فإني أخاف أمَّة لا تزال شرارةُ الحياة والطموح ، كامنةً في رمادها ، ولا يزال فيها رجالٌ تتجافى جنوبهم عن

المضاجع، وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً، ولا يخفى على الخبير المتفرس: أنَّ الإسلام هو فتنة الغد، وداهية المستقبل، ليست الاشتراكية، ولا شيء آخر»، وفي الأخير يقول: «يا ويلتنا! ويا شقوتنا! لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسَّه»[١].

إن أعضل مرضٍ، وأكبر خطرٍ للبلدان العربية اليوم أنَّها لا تزال تزداد يأساً وقنوطاً من مستقبل الإسلام، لا تكاد تفهم أنَّ الإسلام هو وحده سفينة النجاة للعالم من كلِّ نوعٍ من المشكلات، والمآسي، والأزمات، سواءٌ كانت سياسيةً، أو اجتماعية، خلقيةً، أو دينية، ماديةً، أو روحية، ولا شك في أنَّ هذا العمل من أهم واجبات الوقت ومسؤوليات الساعة.

لا بد أن تتسلحوا بالكفاءات، والمواهب، والصفات التي تمكنكم من التأثير حتى على الناطقين بالضاد، وهذا يتطلب أن تكون لغتكم فصيحةً، بليغةً، مؤثرةً، وأسلوبكم أخاذاً، جذاباً، وثقافتكم واسعةً، عميقةً، ونيتكم خالصة مخلصة، حتى يندفع العرب قائلين: ما أحسن هذا الكلام! ما أحسن هذا الأسلوب! وما أسمىٰ هذه الرسالة، ونحمد الله ـ عز وجل ـ على أن المجمع الإسلامي العلمي بندوة العلماء يقوم بإصدار كتب ومؤلفات ينظر إليها إخواننا العرب بعين التقدير والإعجاب، ويقرؤونها بطربٍ ونشوةٍ. ذات مرَّةٍ كنا جالسين متحدثين في بيت الأخ العزيز الأستاذ عبد الله عباس الندوي بمكة المكرمة، وبهذه المناسبة كان عبد الحكيم عابدين موجوداً، رأيته يطالع في كتاب: «الإسلام بين لا ونعم» لابن أخي الأكبر محمد الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ ثم استأذنت للحظات، وقمت، فلما رجعت بعد دقائق وجدت الأستاذ عابدين لا يزال مقبلاً على الكتاب، وعيناه تدمعان، ثم توجه إليَّ سائلاً: من صاحب هذا الكتاب يا أستاذنا أبا الحسن؟! فأخبرته: ابن أخي، فقال: اقرأ عليه مني السلام.

إنَّ إيجادكم لكفاءاتٍ، وإشعال مواهب للقيام بعمل الدعوة خير قيام في

---

(١) من «روائع إقبال» باختصار.

العالم العربي سيكون من أعظم مآثركم، وأكبر فعالكم في الدنيا والآخرة، والله سبحانه وتعالى قد هيأ أسباب ووسائل ذلك، فعليكم بالعزم الأكيد على أنكم لا تدَّخرون وسعاً في تحلية نفوسكم بصفات داعيةٍ مسلمٍ ناجح، وإيجاد كفاءاتٍ فيكم، تضمن لكم النجاح في مجال الدعوة في العالم العربي خاصةً، فإنه رغم ما فيه من خيرات وحسنات ومن معاني الكرم والشرف لا يوجد لها نظير في أي شعبٍ آخر من شعوب العالم، بأمسِّ حاجةٍ إلى دعوة التصلب في العقيدة، والاستقامة في الدين، والتمسك بالشريعة في جميع نواحي الحياة، ورفض الأفكار المنحرفة المستوردة، ومن مؤلفاتي: «إلى الإسلام من جديد»، و«الطريق إلى المدينة» «الإسلام، أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية»، و«العرب والإسلام»، «أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين»، «أجاهلية بعد الإسلام أيها العرب؟!»، «إلى الراية المحمدية أيها العرب»[1]، وسلسلة الأسمعيات، كتب تهز العرب هزاً وتدهشهم، وتذكر مكانتهم ومسؤوليتهم نحو العالم الإنساني، وأيضاً، تحرِّك حميتهم، وهممهم ومشاعرهم، إنَّ عجمياً هندي الثقافة يخاطبنا ويدعونا إلى دين آبائنا، وإلى القيام بعملنا وواجباتنا نحو الإنسانية، وإنَّ ثقته وإيمانه بالإسلام وبمستقبله أقوى وأمتن من ثقتنا وإيماننا بكثير، لو وفق الله تبارك وتعالى أحداً منكم لذلك، ونفع به الذين بلغوا الرسالة الإلهية الأخيرة إلى النوع الإنساني، وآذنوا رحيل الشرك والكفر من العالم، وأسعدوا بعقيدة التوحيد النقية لكان له ذلك أكبر ذريعة وأحسن وسيلة للتقرب إلى الله ورضاه، ولا بدَّ أن تكون هذه العاطفة في خريجي مدارسنا الدينية العربية أقوى وأشد من غيرهم، فإننا نفهم الدين مباشرة عبر لغة إخواننا العرب، وليست عقيدتنا هذه وإيماننا هذا إلا غيضاً من فيض جهود آبائهم وتضحياتهم في سبيل الدعوة والجهاد، فهم أولى وأحقُّ بأن نرد إليهم النعمة التي قد أنعم بها علينا آباؤهم وأجدادهم كما يرد تلميذٌ بارٌّ إلى أستاذه الحبيب الكريم، وخادمٌ إلى

---

(١) قد طبعت جميع هذه الكتب مصححة ومنقحة في «دار ابن كثير» بدمشق عام ١٩٩٩م.

سيده المطاع المحبب ، الجميلَ بالجميل ، والنعمةَ بالنعمة ، لأجل ذلك فإنَّ إنشاء كلية الدعوة والفكر الإسلامي في ندوة العلماء يبعث على السرور والتفاؤل ، ويستحقُّ زملاؤنا ، ورفاقنا التهاني ، والثناء على ذلك.

نصيحتي إليكم يا أبنائي الطلبة أنكم إذا تخرجتم من هذه الدار فلا تتخرجوا إلا مبلِّغين ، ودعاةً إلى الإسلام الذي هو دينٌ خالد أخيرٌ أنزله الله تبارك وتعالى هدايةً ورحمةً للعالمين جميعاً لا يأتي بعده دين إلى يوم القيامة ، وهو منهجٌ شاملٌ لجميع نواحي الحياة الإنسانية جمعاء ، وصالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان ، وهو وحده يستطيع إنقاذ العالم من جميع مشكلاته ومصائبه. لا يمكن التقدُّم والازدهار إلا بالعودة إلى هذا الدين ، ولا يمكن الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة إلا بالتمسك بشريعته ، ولا تنزل بنا رحمةٌ ونصرٌ من عند الله تبارك وتعالى إلا بالعمل بمقتضياته ومتطلباته في كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة ، لا بدَّ أن ترسخوا هذه الحقيقة الأبدية في أذهان المسلمين بصفةٍ عامة ، وفي أذهان الطبقة المثقفة منهم بالثقافة العصرية بصفةٍ خاصة ، فإنها منبهرة بالحضارة الغربية اللادينية ، والآن يتخوف منها أن تعجب بالحضارة الهندوسية الوثنية ، فعليكم أن تستعدوا استعداداً تاماً للقيام بهذا العمل الجليل المبارك ، ولا يدور في خلدكم أبداً أن تستغلوا معرفتكم للغة العربية ، وإتقانكم فيها وقدرتكم على التكلم والكتابة بها في الحصول على وظيفة من الوظائف في بلدٍ عربيٍّ وكسب المال وجمعه ، فليس ذلك ثمناً لنعمتكم هذه العظيمة ، بل هو نكرانٌ للجميل ، وكفرانٌ بالنعمة ، وإحباطٌ لجهود وتضحيات الشيخ محمد علي المونغيري مؤسس هذه الدار وزملائه وأعوانه: الشيخ ظهور الإسلام الفتحفوري ، والعلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني ، وممن أسهموا في ترقية هذه المؤسسة العلمية والتربوية كالعلامة شبلي النعماني ، ومن أبنائها الكبار الممتازين مثل العلامة السيد سليمان الندوي ـ رحمهم الله تعالى ـ وجزاهم أحسن ما يجزي به عباده المخلصين ، والعلماء الربانيين.

إنَّ الاعتراف بالنعمة والشكر على هذه النعمة أن تكونوا دعاةً مبلِّغين ، وتقوموا بتطهير أذهان المسلمين من الشعور بمركب النقص ، والإعجاب

بالحضارات الغير الإسلامية، وبإعادة، وتجديد الثقة والإيمان في نفوس المسلمين بالإسلام وشريعته من جديد. هذا، وفي جانبٍ آخر يجب أن تستنطقوا العرب لكي يقولوا: «هذه بضاعتنا ردت إلينا».

اللهم وفق لما تحب وترضاه، وصلى الله تبارك وتعالى على خير خلقه سيدنا ومولانا محمدٍ وآله وأصحابه أجمعين.

* * *

مخططاتٌ جديدة للقضاء على الإسلام

هذه كلمة الوفود ارتجلها العلامة الندوي في الجلسة الافتتاحية لدورة المجلس التأسيسي الخامسة والثلاثين لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، في الفترة ما بين ٧ ـ ١٥/ شعبان ١٤١٨ هـ وديسمبر ١٩٩٧ م .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد!

حضرات السادة! إنَّ هذا اللقاء الكريم الوقور الهادف العالمي ـ بالنسبة إلى العالم الإسلامي ـ قد جاء في مكانه ، وفي أوانه ، أما أنه قد جاء في مكانه؛ فلأنه يعقد في مكة المكرمة ، البلد الذي طلع منه الصبح الصادق للبشرية كلِّها ، فبدَّد الظلام ، وأنقذ الإنسانية من السقوط في الهاوية ، وقد أشرفت على السقوط فيها ، وكانت على طرف منها ، فمن هنا طلع الصبح الصادق ، فبدَّد الظلام ، على قول الله تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وكانت هذه الجاهلية قد ضربت أطنابها ، ومدَّت ظلالها على العالم البشري بطوله وعرضه ، وقد قصَّر أكثر كتُاب السيرة إذا أطلقوا الجاهلية على العرب وعلى البلاد العربية فقط ، فسمّوها الجاهلية العربية ، إنما كانت هذه الجاهلية جاهلية عالمية ، آفاقية ، كونية ، معنوية ، دينية ، عقائدية ، خلقية ، مبدئية ، تصرُّفية.

فجاء الإسلام ، وطلع الصبح الصادق للبشرية الذي أشرق به النهار ، فمن هنا طلع الصبح الصادق ، ولم يكن هذا الخير وهذه السعادة مقصورةً على فترة خاصةٍ ، أو على طراز من المدنية ، إنما كانت عامةً ، شاملةً للعقيدة والعمل ، والتصرف ، وحتى الفكر والتخيل.

ثم إنَّ هذا المؤتمر الموقر قد جاء في أوانه كذلك ، فقد جدَّت مؤامراتٌ ومخططاتٌ جديدةٌ للقضاء على الإسلام ، للقضاء على نفوذه ، وللقضاء على حيويته ، وللقضاء على تطبيق الإسلام والشريعة ، فهنالك مخطط دقيقٌ، شاملٌ، كاملٌ، عامٌّ، وترأسه قوتان: إحداهما غربية وأخرى غير

غربية ، فهناك مخطط دقيقٌ ، وقويٌّ ، وعبقريٌّ ، إذا رأينا إلى الجانب الفكري ، وإلى الجانب العملي ، وهو أن يفقد الإسلام نفوذه العالمي ، وأن يفقد المسلمون خصائصهم الإسلامية والإيمانية ، والعقائدية ، والعملية ، والخلقية ، والفردية ، والاجتماعية ، ويبقى الإسلام كدين من الأديان السابقة التي لا تعرف إلا بالأسماء فقط ، وبالإشارة في كتب التاريخ ، فهنالك مخططٌ دقيق جداً ، ترأسه قوة غربيةٌ كبيرة ، أو كبرى القوى ، وطاقةٌ أخرى في آسيا في الشرق ، التقتا لمشاركتهما في هدفٍ خاص ، ولنظرهما الثاقب الدقيق إلى أنَّ الإسلام هي القوة الوحيدة العالمية التي تستطيع أن تمنع سيرهما وأن تعوق نشاطهما ، وانتصاراتهما ، ونفاذ مخططاتهما ، فالآن ساعةٌ دقيقةٌ جداً ، للتفكير وللتشاور ، ولتحكيم العقل والتجارب ، وكذلك ما أكرم الله به هذه الأمة من وحدة الكلمة ، ووحدة العقيدة ، ووحدة المبدأ ، فإنما جاء هذا المؤتمر بحمد الله وحده وتوفيقه في مكانه اللائق المناسب ، وفي أوانه الطالب لهذا الوعي ، ولفهم الخطر ، وللتيقظ لهذا المُخطط الدقيق الذي ينفَّذ الآن ، وهو أن يفقد الجيل الإسلامي الجديد ثقته بالإسلام ، ثقته بخلود الإسلام وبجدارة الإسلام ليس للبقاء وحده ، بل للقيادة والسيادة ، هذا هو العدو المهدِّد لهم والخطر الداهم عندهم ، وفي مخيلتهم ، هو الخطر الوحيد في العالم ، أقول ذلك عن دراسةٍ ـ والحمد لله وحده ـ عن دراسةٍ وتجربة ، وسياحةٍ ، واحتكاكٍ ، ومشاركةٍ في كثير من المؤتمرات ، وفي كثيرٍ من الاجتماعات واللقاءات ، إنَّ أوربا ، وإن أمريكا ، وإسرائيل إنما تخاف فقط من بقاء الإسلام ، لا يرون شيئاً مانعاً لهم ومنافساً لهم ، أو معوقاً لهم ، أو مثبطاً لهم ، أو باعثاً لهم بعض المشاكل إنما يجب علينا الآن أن نتيقظ وأن نعي هذا الخطر الداهم ، والخطر المهدِّد للإسلام الذي لم أر له مثيلاً في دراستي القاصرة المحدودة ، ولكن الدراسة العامة المتنوعة للتاريخ ، لم توجد هنالك قوةٌ سياسيةٌ ، أو اجتماعيةٌ ، أو فكريةٌ ، أو فلسفيةٌ خافت من الإسلام مثلما تخاف هذه القوى ، تخاف هذه الانتفاضات وهذه الاحتكارات للقوة العالمية ، والاحتكارات للقوة السياسية ، فيجب علينا نحن أن نستيقظ ،

وأن نفهم ، ونحسب لهذا الخطر الداهم حسابه الخاص به ، وحسابه الجدير به ، واللائق به.

أقول هذا وأعتذر إذا كان هذا الكلام قد طال بعض الطول في هذا المجلس الموقر الذي تحضره العقول المفكرة ، والنفوس المجربة ، فنحن الآن أمام مؤامرةٍ سياسيةٍ ، ومخططٍ دقيق اجتماعيٍّ ، وعلميٍّ ، وثقافيٍّ ، وسياسيٍّ للقضاء على نفوذ الإسلام العالمي ، فتبقى هذه المخططات التي تدبرها هذه القوى الكبرى حرَّةً طليقةً آمنة مأمونةً من أيِّ مواجهةٍ ، ومن أيِّ خطر.

فنسأل الله التوفيق على فهم هذا الخطر ، ووعي هذا الخطر ، ثم التيقظ له ، والاجتماع والالتقاء لمواجهته ومقابلته ، وما ذلك على الله بعزيز.

ولهذا البلد ، وفي ظلال هذه الحكومة القائمة على توقير الشريعة ، وعلى تنفيذ الشريعة ، وعلى إجلال كلام الله تبارك وتعالى ، وإحلاله المحل اللائق بالسنة النبوية ، نرجو أن يكون من هنا انطلاقةٌ واعيةٌ مدبرةٌ ، ومؤسسةٌ على حسن النية والإخلاص والفكر الصحيح ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً للعمل المخلص بدراسة الأوضاع العالمية ، والحساب لها بدقةٍ وتفكير ، وما ذلك على الله بعزيز.

❊ ❊ ❊

القـاديانيـة مـؤامـرةٌ خطيـرةٌ
وثـورةٌ علـى النُّبـوَّة الـمحمَّديـة

جَهَّـزَ العلامة الندوي هذه البحث القيم بمناسبة «مؤتمر العلماء المسلمين للنظر في قضايا الدعوة الإسلامية» الذي تعقده ندوة العلماء لمحاربة الفتن العمياء التي تسود مجتمعات المسلمين في العالم كله ، وتساندها الدول الكبرى ، والجهات المعادية للإسلام والمسلمين ، ومن أبرز هذه الفتن وأخطرها فتنة القاديانية التي تتحدَّى عقيدة ختم النبوة ، وهي مؤامرةٌ خطيرةٌ تبنَّاها أعداء الإسلام في الدول المادية في العالم ، ولم يدَّخروا وسعاً في تعميق جذورها في العالم الإسلامي كله ، وقد أصبحت لها مراكز قويةٌ ، وعملاءُ مخلصون لسادتهم في جميع دول العالم ، ولا سيما في الغرب المادِّي الذي يتربَّص بالدعوة الإسلامية وحملة لوائها الدوائر ، ويتحيَّن الفرص لتقويض أركانها .

ولصدِّ تيار القاديانية الجارف قرَّر العلامة الندوي عقد هذا المؤتمر والتشاور مع كبار علماء الإسلام في هذا الموضوع .

وهذا البحث القيم ينوِّر نظرة العلاَّمة نحو موضوع ختم النبوة ، وقلقه الكبير على ما ينال المتنبئون الكذابون بمعاضدة القوى الاستعمارية من تشجيعٍ ، وقوةٍ ، ودعمٍ في العالم اليوم ، ويقع المسلمون فريسةَ هذا الدجل والافتراءِ .

﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين خاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإنَّ إنهاء سلسلة بعث الأنبياء نعمةٌ ربانيَّةٌ ، وخصيصة من أبرز خصائص الأمة الإسلامية ، وإنَّ العقيدة الإسلامية التي نحن عليها تؤكد لنا أنَّ الدين قد اكتمل ، وأنَّ محمداً ﷺ هو الرسول الآخر الذي لا رسول بعده ، وهو خاتم النبيين ، وأنَّ الإسلام دينٌ كامل ، لا ينقصه شيء ، وهو نظامٌ كاملٌ شاملٌ لجميع ما يحتاج إليه البشر إلى يوم الدين ، وأنَّه موهبةٌ من الله ، ونعمةٌ ربانيَّةٌ أكرم الله بها هذه الأمة ، وجعلها خصيصةً لها ، ومما أفاد به القرآن الكريم هذا الواقع في الآية التالية آذان من الله ، وإعلان صريحٌ مجلجلٌ صدع به ربُّ السموات والأرض ، إذ قال سبحانه وتعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٤٠].

وكلمة «خاتم» (بفتح التاء) و«خاتم» (بكسر التاء) كلاهما يفيدان معنى واحداً وهو الآخِر بكسر الخاء ، الذي ليس بعده شيء . يقول ابن منظور في لسان العرب : خاتمهم (بفتح التاء) وخاتمهم (بكسر التاء) أي : آخرهم ، وفي تاج العروس في شرح القاموس : خاتم النبيين : أي : آخرهم .

وكتب الراغب الأصبهاني في مفردات غريب القرآن : خاتَم النبيين وخاتِم النبييـن (بفتح التـاء أو بكسرها) لأنه ختم النبوة؛ أي : أتمها بمجيئه ، وأوضح الزمخشري هذه الكلمة في الكشاف بما يلي : خاتم النبيين ، أي : آخر الأنبياء ، وفسر صاحب البحر المحيط كلمة : «خاتم بالتعبير التالي :

والمعنى : أنه لا أحد نبيٌّ بعده ، ومن المفسرين يقول صاحب معالم التنزيل : خاتَم النبيين بفتح التاء : أي آخرهم ، هذه الآية نصّ في أنَّه لا نبيَّ

بعده ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ عن جماعة من الصحابة». [انتهى].

فالعقيدة بقطع سلسلة بعث الرسل على شخص سيدنا محمد ﷺ بجميع أنواع الرسالات السماوية ، والنبوات الإلهية عقيدةٌ عليها إجماع الأمَّة سلفها وخلفها ، والذي يؤمن بأحدٍ أنَّه كان نبيّاً بأي معنى من معاني النبوة؛ فهو كافر ، لم يمسسه إيمانٌ ، بل هو مرتدٌّ بلا نزاع.

وعوداً إلى شرح كلمة: «خاتم» ، فأقول: إن لها قراءتين ، ففي قراءة حسن وعاصم هي بفتح التاء وعند أئمة القراءة الآخرين هي بكسر التاء ، وحاصل المعنى واحد أي: خاتم الأنبياء ، فلا نبيَّ بعد سيدنا محمد ﷺ على الإطلاق بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، وبأيِّ معنى من معاني النبوة ، والكلمة تفيد معنى: «الآخِر» بكسر الخاء كما تفيد معنى: «المهر» الذي يختم به على ظرف مغلق ينبىء أنَّه مانع لإدخال شيء جديد ، وإنه مما أجمع عليه المسلمون من عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى جميع العصور أنَّ رسول الله ﷺ كان آخر الأنبياء والمرسلين ، وكلُّ من سولت له نفسه أن يدَّعي النبوة؛ فهو كاذب أفّاك ، ومما جاء به الخبر كما رواه الإمام البخاريُّ رحمه الله في صحيحه ، وورد في كتب الصحاح والسنن واللفظ لمسند الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين! إنكم تقرؤون آيةً في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال: وأيُّ آية؟ فقال قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة ، الآية: ٣] ، فقال عمر رضي الله عنه: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية يوم عرفة يوم جمعة ، ويروى: أنَّه رضي الله عنه أفاض قائلاً: لسنا في حاجة إلى اتخاذ يوم عيداً جديداً ، فالآية نزلت في يوم هو يوم عبادة واجتماع للمسلمين ، وكان قد اجتمع في ذلك اليوم عيدان ـ يوم عرفة ويوم جمعة ـ والآية المحكمة المعنى تصرِّح من دون إيهام أو غموض بنهاية النبوة ، وإكمال نعمة الدين على أمة سيدنا محمد ﷺ.

الـصيانـة مـن شتـات الـفكـر :

من مكاسب هذه العقيدة أنها صانت الأمَّة الإسلامية من أن تصبح فريسةً للحركات الهدَّامة ، والدعوات إلى التشتت والافتراق ، والنعرات التي ارتفعت بين حينٍ لآخر طوال التاريخ الإسلامي ، وكان من شأنها أن تمزِّق الوحدة الإسلامية وتحوِّلها إلى أممٍ متفرقةٍ بدل أمةٍ واحدةٍ متماسكة ، ومن مكاسب هذه العقيدة أنَّ الإسلام ظلَّ مصوناً من تلاعب المحرفين ، ومن شرور المتنبئين الذين برزوا في وقفات من التاريخ في أمكنةٍ مختلفة ، وقد أعطت هذه العقيدة ـ عقيدة ختم النبوة ـ المسلمين مكاناً آمناً ، وحصناً محصَّناً في التاريخ ، فلم يتجسر الغزو عليهم متهوِّر ادَّعى النبوة ، هادفاً إلى خلق كيان متغاير عن كيانِ الدين الإسلامي ، ومن منطلق هذه العقيدة استطاع المسلمون الدفاع عن حوضة الدين ، وردِّ كيد الأعداء في نحورهم ، وما أكثر كيداً لم تنج منه أمة من الأمم السابقة ، فما هي إلا عقيدة ختم النُبوَّة التي كست الأمَّة الإسلامية درعاً عن شتات الفكر وتمزُّق الوحدة ، وأصبحت ضماناً لها أن تبقى حلقةً مفرَغَةً مستحكمةً ، ولولا هذا الحصار المنيع كانت هذه الأمة قد تفرقت إرباً إرباً ، وكان لكلِّ فرقة مركز متغاير عن غيره ، وكانت هناك وحداتٌ مستقلةٌ مميزة ، ولكلِّ وحدة تاريخٌ منفصلٌ عن الآخر ، ولكلِّ جماعةٍ أمجادٌ يفتخرون بهم وأسيادٌ يتعزُّون بهم ، وللعقيدة أيادٍ بيضاء على الحياة والحضارة ، وإنه شرفٌ للإنسانية عظيم أن يُعلَنَ عنها أنها قد أدركت النضج ، وبلغت الرشد ، فاستحقت أن تتحمل الأمانة ، وتؤدي رسالة السماء ، وليس المجتمع البشري بعده في حاجة إلى وحيٍ جديدٍ ، أو رسالة جديدةٍ ، ومن ثَمَّ تخلق هذه العقيدة في الإنسان اعتداداً بالنفس وثقة بشخصيته ، وإنه عَلِمَ بذلك أنَّ الدين قد بلغ قِمَّةً من الكمال الذي أراد له خالق السموات والأرض ، فلا يحتاج إذاً إلى رجعة على أعقابه رجعة قهقرى ، وهو خليقٌ بأن يستفيد ويفيد بما خلق الله له في الأرض ، ولينظر إلى ما أوتي فعلاً من الخيرات ، والحسنات ، والنصح والوصايا ، ويعمل بموجبها لتتمَّ بها السعادة المنشودة لكافة البشر .

إنَّ عقيدة ختم النبوة تقود المؤمن بها إلى الأمام بدلاً عن أن تدفعه إلى الوراء ، وتحض الإنسان على استخدام طاقاته في مصالح العباد والبلاد ، وترشده إلى مواطن الخدمة البشرية ، وميادين تصلح للزرع والإنتاج ، وإن لم يكن هذا ، وسعى وراء كل ناعق ، ولم ينته من النظر إلى السماء منتظراً إلى تلقي التوجيه والإرشاد عن طريق الوحي والإلهام ، ظل هائماً تائهاً طول حياته على غير هدى ، وضلَّ عن سواء الطريق ، أقول هذا عن بيِّنة من الأمر ، فقد زعم المرزا القادياني أنَّ الأرض كانت عقيمةً جدباء ، وكانت الإنسانية كأودية قفراء قبل وجوده ، ولما تشرفت به الأرض تهلَّلت ، وأنبتت ، وأتت بكلِّ زوجٍ كريم ، فإن كانت الأرض مجدبةً كما زعم المرزا في بيت شعر له؛ فمن يضمن أن لا يحذو ثانٍ وثالثٌ حذوه ، فيدعي النبوة ليستعمر الأرض من جديد ، ويبقى العالم قفراً ينتظر نبياً جديداً في كلِّ عصر ومصر ولنعم ما قال الشاعر الإسلامي الحكيم محمد إقبال رحمه الله في إحدى محاضراته :

«إنَّ بقاء الدين والشريعة مرهونٌ بالكتاب والسنة ، وإنَّ بقاء الأمة الإسلامية أمةً واحدة منوطٌ بعقيدة ختم النبوة ، وإنَّ هذه الأمة أمةٌ واحدة ما دامت تؤمن بمحمد ﷺ خاتم النبيين لا نبيَّ بعده».

تـجاسـر الـقاديانية وابتداعهـا :

تتميَّز القاديانية بين الحركات المعادية للإسلام التي نشأت بين حينٍ لآخر بميزة انفردت بها ، وهي أنَّ الحركات المعادية الأخرى كانت ولا تزال تهدف نظام الحكم الإسلامي ، أو الشريعة الإسلامية ، بينما تهدف القاديانية صميم روح الإسلام ، وهي إذاً مؤامرةٌ ضدَّ النبوة المحمدية ، وثورةٌ وغزوٌ على خلود رسالة الإسلام ، وتحدٍّ سافر تجاه وحدة الكلمة ، وعروة الإسلام الوثقى ، وبذلك قد تعدَّت القاديانية الحدود الشرعية للدين ، الحدود التي تقام حاجزة لحفظ الثغور ، إنَّ الدكتور محمد إقبال مُحِقٌّ فيمـا ذهب إلـيه في مقـالٍ لـه منشور في جريدة (STATESMAN) الشهيرة ، قـال فيه : «الإسـلام ـ لا شكَّ ـ جماعـةٌ دينيةٌ لها حدودٌ معلومةٌ ،

وهي الإيمان بالله وحده ، وبالأنبياء المرسلين ، وبختم الرسالة السماوية على سيدنا محمد ﷺ ، وهذا الجزء الأخير (الإيمان بختم النبوة) يكون خطّاً فاصلاً مميزاً ، وهو المقياس الوحيد لمعرفة شخصٍ ، أو جماعة هل هو من الجماعة الإسلامية أم لا؟ وأقول على سبيل المثال : إن أتباع فرقة : «برهمو سماج الهندوكية» يؤمنون بالله ، ويعترفون بأن محمداً ﷺ كان رسولاً من الله ، ولكنهم لا يعدُّون من المسلمين؛ لأنهم مثل القاديانيين ، يؤمنون بتواتر بعثة الأنبياء واستمرار نزول الوحي ، ولا يصدِّقون بختم النبوة على شخص رسول الله ﷺ ، وفيما أعلمه ، ما تجاسرت فرقةٌ من الفرق المنسوبة إلى الإسلام بالاعتداء على الثغور ، وتجاوز الحدود ، ما سوى القاديانية ، خذ مثلاً البهائية التي نجمت في إيران ، فقد أنكرت رسالة سيدنا محمد ﷺ وكفرت به صريحاً ، ولكنها مع ذلك أعلنت أنها فرقةٌ خارجةٌ عن الإسلام ، إني متأكد بواقع ، وأؤمن به : أنَّ الإسلام باعتباره ديناً مُنَزَّلاً من الله ، وباعتباره مجتمعاً وملَّةً ، يرجع إلى شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، وإنِّي أرى أنَّه أمام القاديانيين طريقان لا ثالث لهما ، فإمّا يتبعوا البهائية ، فيعلنوا انفصالهم عن الإسلام ، أو يتركوا التأويلات لمعنى ختم النبوة ، ويدخلوا في الإسلام من جديد ، فإنَّه من المعلوم بداهةً أنهم يهدفون من وراء تأويلاتهم أن يعدُّوا من المسلمين للمكاسب السياسية[١] .

العصر الإسلامي مليء بالحوادث والتحوُّلات ، يشهد تاريخ الأمَّة الإسلامية بأنَّها واجهت كثيراً من التغيُّرات والتحوّلات في عصرها المديد ، ولِما أنَّ الدين الإسلامي دينٌ عالميّ وآخِر الأديان السماوية فكان مما لا بدَّ منه أن يتعرَّض له جميع أقسام النوع البشري ، ويواجهه جميع التحوُّلات التي تحدث في كلِّ مكانٍ وزمان ، وكان من الطبيعي أن تتصارع معه القوى المعادية بكل ما أوتيت من شكيمةٍ ، وشدّة لم تمرَّ بمثلها أمَّة من الأمم في تاريخها الطويل ، فالزمن الذي عاصرته الأمَّة الإسلامية مليء بالتحوُّلات والتقلُّبات ، كذلك التحدِّيات التي واجهتها الأمَّة لم تتعرض لها أمَّـةٌ أخرى

---

(١) حرف إقبال : (القاديانية : تحليلها وتجزيتها) .

في التاريخ ، خلود رسالة الإسلام واستمرارها رهينٌ لتدابير إلهية من وراء الغيب ، إن الله ـ جلَّت قدرته ـ قد تكفَّل بقاء دينه ودبر له من عنده تدابير ، نشاهد منها اثنين بصفة خاصة ، وذلك لمكافحة تلوُّنات العصور وتلوّثات البيئات الاجتماعية وتأثيراتها المنعكسة على المجتمعات البشرية ، أحدهما : أنه سبحانه وتعالى بعث رسوله الأمين ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بدينٍ كاملٍ شاملٍ لجميع ما يحتاج إليه الإنسان على اختلاف زمانه ومكانه ، وليكون مستعداً لمواجهة مستحدثات عصره ، وحلِّ مشاكله ، وقهر العقبات والسدود الموضوعة في طريق الدعوة إلى الله ودينه ، كما تكفَّل له ـ والتاريخ خير شاهد على ذلك ـ أن يخلق من بين عباده في كلِّ عصرٍ أفراداً ليقوموا ـ جماعات أو فرادى ـ بحماية هذا الدين ومواجهة كلِّ ما يستجدُّ من صعوبات وعقبات ، بكل قوَّةٍ ونشاطٍ وعزيمةٍ غريبة تفوق مدى المقادير والقياسات ، وقد أنعم الله عليهم بمواهب نادرةٍ في تربية الرجال ، وتخريج عباقرةٍ في التضحية والتفاني في الله وفي دينه ، الأمر الذي لانجد له في تاريخ الديانات نظيراً ، وليس هذا ـ كما يبدو جليّاً ـ حادث وقع صُدفةً ، أو رآها الناس خلسة ، بل أمرٌ من الله ، وحكمةٌ من حكمه ، فكلما وجد داء أوجد له دواء ، وما من سم إلا وقد خلق له ما يحتاج إليه من الترياق في حينه ومكانه[١] .

كثـرة الـمتنبئيـن فـي الأديـان السابقـة :

يعرف المطّلع على تاريخ اليهودية والمسيحية أنَّ كثرة الذين ادَّعوا النبوة كانت فتنة لكلٍّ منهما في أوساط أتباعهما ، وحلقات نفوذهما ، وأنها أحدثت أزمةً (CRISIS) صعب عليهم الخروج منها ، ومشكلةً استعصى حلُّها ، وقد تنبّه الكاتب إلى هذه النكتة بالذات بما كتبه العلامة الحكيم محمد إقبال ـ رحمه الله وجعله من المكرمين عنده ـ أنَّ إنهاء سلسلة بعث

---

(١) ليرجع للتفصيل والاطلاع على الشواهد والنماذج إلى كتاب العلامة الندوي : «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» : ص/ ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ .

الأنبياء (أو ختم النبوة ، كما اصطلح عليه الناس أخيراً) مكرمةٌ إلهية قد خصَّ الله بها هذه الأمة ، وأنَّها لنعمةٌ من الله غاليةٌ أن أعلن نهائياً بأن لا نبيَّ بعد محمد ﷺ ، كأنه أعلم الإنسان أنك لست في حاجةٍ إلى أن ترفع رأسك مراراً إلى السماء في انتظار الوحي ، بل عليك أن تنظر إلى الأرض (التي جعلك الله فيها خليفته) واستخدم طاقاتك في صلاحها وإصلاحها ، وفي عمرانها ، وفي تنمية خيراتها وتوزيع ثمراتها ، وإقامة العدل بين أهلها وتوفير أسباب الهُدى والرشد بما يعود على البشر بالفلاح في الأرض ، والنجاة في الآخرة ، عليك أن لا تضيع فرصة الحياة في النظر إلى السماء بين حينٍ وآخر ، تستمطر إلهاماً ، وتستنزل نبيّاً ، وازداد العلامة محمد إقبال قائلاً: «إنَّ ختم النبوة نعمةٌ من الله جنَّب بها الله الأمة من فوضوية الأفكار ، وموضوعية التشتت والانتشار»(١) ورأى كاتب هذه السطور أن يدرس بنفسه كتباً في تاريخ اليهودية والنصرانية في هذا الضوء لمزيدٍ من الاقتناع والتفصيل ، فتبيَّن له أن علماء اليهود والنصارى وقعوا في حيص وبيص من كثرة الأنبياء المزيَّفين ، وكانوا يندبون مصير دياناتهم إذا اتسع الخرق على الراقع ، فما من يومٍ إلا ويطلع عليهم رسولٌ جديدٌ بوحي جديد ، وليس لديهم ميزان يزنون به صدقهم من كذبهم ، أو مقياس يقيسون به ما هو الأصل ، وما هو الزيف ، فكانت طاقاتهم الفكرية تذهب هدراً في تشخيص دجّال ، وتعيين كاذب أفّاك ، وظلت اليهودية والنصرانية تائهةً في حلِّ هذه العقدة طوال قرون عديدة.

يقول البرت م. سيمسن (AlBERT M.SAYMSON) عضو الجمعية التاريخية الأمريكانية البريطانية في موسوعة الأديان والأخلاق:

«يوجد في تاريخ اليهود ذكر كثيرٍ من الدجَّالين الذين ظهروا بعد هزيمة اليهود ، وزوال حكوماتهم في الأجيال اللاحقة ، وكان هؤلاء الدجالون يمنّون قومهم باستعادة أوطانهم التي أخرج منها آباؤهم وكان أمثال هؤلاء الدجالين يخرجون عادةً في أراضٍ كان اليهود فيها عُرضة للظلم والقسوة ،

---

(١) ليرجع إلى مجموعة محاضرات العلامة محمد إقبال في مدراس.

ووجد فيهم أمارات الغضب والثورة ، وكان أكثر هذه الحركات تتَّسم بلون السياسة ، وخاصَّةً في الزمن الأخير أصبح اللون السياسي يعمُّ كلَّ حركة وإن كان اللون الديني غير مفقود منها ، ولكن مما لا شكَّ فيه أن بُناةَ هذه الحركات الدينية السياسية أتوا ببدعات ليوسعوا بها مناطق نفوذهم؛ خسرت بها أصول التعليمات اليهودية ، فتنجم منها فرقٌ جديدةٌ كانت نهايتُها أن تنضمَّ في المسيحية»(١) .

ويقول البروفيسور هارت فورد (HEART FORD) أستاذ تاريخ الكنائس اليونانية والرومية والشرقية في مدرسة أصول الدين ، عن الأزمة التي ابتليت بها المسيحية :

«إن المتنبئين الذين يدَّعون لأنفسهم الحكمة لما فوق الطبيعة (SUPERIOR WISDOM) سرعان ما فقدوا ثقتهم الشعبية ، وأشعروا الكنائس وزعماءها بخطر يُحدِق حول الرفاهية التي كانوا فيها ، ولكنه لم توجد طريقة بعد لتأديبهم واضحة معروفة في استطاعتها كبح جماح الدَّجَّالين المزيفين الذين كانوا يدَّعون : أنّ الله يكلمهم ، ويُطلِعهم على أسراره ، ولم يكن أيُّ معيارٍ عندهم يميزون به صدقهم عن كذبهم ، وكان مما لا بدَّ منه وجود مقياس يعرفون به دجلهم ، وإن لم يكن هناك معيار لأحدثت الكنيسة أصولاً تقي بها مبادىء الديانة من التشتت والانحراف والوقوع في طريق الإلحاد ، ومن ثَمَّ تحتفظ بها»(٢) .

كيان القاديانية ومنشؤها الواقعي وأسيادها :

إنه أمرٌ مؤكدٌ علمياً وتاريخياً أنَّ القاديانية سقطت من أحشاء السياسة الإفرنجية ، فمن الواقع التاريخي : أنَّ حركة الجهاد التي تولاها وقام بها الإمام المجاهد المعروف الشهيد أحمد بن عرفان رحمه الله (١٢٤٦ هـ ـ ١٨٣٠ م) هي الحركة التي أشعلت نيران الحُبِّ والتفاني لدين الله ، والجهاد في سبيله في قلوب المسلمين ، وأوجدت فيهم من الحماس والشجاعة

---

(١) ENCYCLOPAEDIA OF RELIGIONS AND ETHICS).

(٢) ENCYCLOPAEDIA OF RELIGIONS AND ETHICS,P.383.

ما لا نهاية لهما ، وقد احتشدوا تحت لواء الجهاد حاملي رؤوسهم على أكفِّهم وهم آلافٌ من النفوس المؤمنة ، وقد أقلق هذا الحماس الجياش مضاجع الحكم البريطاني الغاشم على الهند.

مما تفيد الأخبار الموثوقة والشهادات التي أدلى بها أناس أماناتهم فوق مستوى الشبهات أنَّ الذين بايعوا على يد الإمام الشهيد أحمد بن عرفان بلغ عددهم ثلاثة ملايين نفر ، كما أنه واقعٌ تاريخي لا يقبل الجدل: أنَّ الذي تنبه لخطر سيطرة الإفرنج بعد الجهاد الذي قام به السلطان الشهيد تيبو (١٢١٣ هـ ـ ١٧٩٩ م) كان هو شخص الإمام الشهيد وجماعته ، وهم الذين تحمَّسوا لمجابهة هذا الخطر قبل المعركة التي خاضها المسلمون ، ومنيت جهودهم بالنكسة ما يُطلق عليه الإنجليز «بالغدر» ، وكان الإمام الشهيد رائد حركة التحرير ، وتنبه للخطر الداهم ، وفكَّر في طرق إنقاذ البلاد من براثن الاستعمار ، فمن الوثائق التاريخية كتاب الإمام الشهيد الموجَّه إلى عاهل كواليار المدعو «دولت راؤ سندهيا» وإلى وزيره «هندو راؤ» قال فيهما قولاً صريحاً:

«إن الشرذمة الأجنبية ، مجموعة الغرباء من تجار البضاعات المستورة يبسطون سلطانهم على أراضينا ، فلننهض جميعاً لمقاومتهم ، ونحفظ بلادنا من هذا الخطر المحدق بنا ، وننظر فيما بعد من يتولى المسؤولية ، ومن يملك الصلاحيات».

وكان في مقدمة المجابهين للسيطرة الاستعمارية الإمام الشهيد وجماعته[١].

يعرف المطَّلعون أنَّ البيعة التي كان الإمام الشهيد يأخذها من أتباعه كانت البيعة على تصحيح العقيدة والتوحيد الشامل لجميع أنواعه ، واتِّباع السنة ، والعمل بالشريعة ، وتزكية النفس ، وكان المبايعون يجدون أنفسهم تندفع إلى الجهاد في سبيل الله اندفاعاً قوياً وعزيمةً تأبى الفتور ، ومما يفيد دليلاً على صحة ما قلت: أنَّ اللواء بخت خان ـ الذي كان قائد قوات الملك بهادر شاه ظفر ، المسؤول عن الدفاع ضدَّ قوات الإنجليز ـ لما بايع على يد

(١) ليرجع إلى «سيرة الإمام الشهيد» للعلامة الندوي بالأردية والإنجليزية.

الشيخ كرامت علي الجونفوري وهو من كبار الخلفاء المعروفين للإمام الشهيد أحمد بن عرفان ـ رحمة الله عليهم ـ طلب منه أن يعاهد على أن يحارب الإنجليز.

ومن غرائب تاريخ الهند الإسلامي حديث أولئك المحكوم عليهم بالإعدام شنقاً، ثم تبدل الحكم إلى السجن المؤبد، تلك القصة التي تدلُّ على مدى شعور الإنجليز المستعمرين بخطورة هذه الفئة المجاهدة في سبيل الله، تحت قيادة الإمام الشهيد رحمه الله.

في المحكمة الإنجليزية بمدينة «أنبالا» في ٢/ ٥/ ١٨٦٤ م سيق إليها أربعة من رؤساء حركة الجهاد والتحرير، وهم السادة الأفاضل: يحيى علي العظيم آبادي، أحمد الله العظيم آبادي، محمد جعفر التهانيسري، وعبد الرحيم الصادقفوري (رحمة الله عليهم رحمة الأبرار من الشهداء والمجاهدين) حكم عليهم القاضي الإنجليزي بالإعدام شنقاً على تهمة المؤامرة والنشاط العملي ضد الحكم الإنجليزي في الهند، استمع المجاهدون إلى الحكم عليهم بالموت، وقد تهلَّلت وجوههم فرحاً مستبشرين بما وعده الله للمجاهدين الشهداء في سبيله، وكانت هذه التجربة فريدةً للإنجليز فلم يملكوا نفوسهم إلا أن أبدوا بما شهدوا ورأوا: رجال يحكم عليهم بالموت فبدلاً عن أن تعلو وجوههم الكآبة، ويغشاهم الكمد والأحزان إذا هم مستبشرون، تلمع عيونهم بالبهجة والسرور، هذا ورئي المحكومون عليهم بالموت شنقاً فرحين بما استبشروا، وهم في زنزانات السجون، فتقدَّم إليهم أحد الحكام الإنجليز يسألهم: أيها الجناة الثائرون! أنتم على باب الموت واقفون، وسوف ينفذ عليكم الأمر قريباً بين يوم أو يومين، ولكني لا أرى آثار الحزن والتحسُّر على وجوهكم، فما هو السبب؟ فرد عليه الشيخ محمد جعفر رحمه الله قائلاً: ولم لا نفرح وقد شرَّفنا الله بالشهادة، وهي أحلى أمانينا في حياتنا الدنيا، وأعرب زملاؤه عن مثل هذا الشعور بالغبطة والابتهاج.

فكر الإنجليز وقدروا، وإذا القاضي يرجع إليهم وهم في زنزاناتهم ليقول لهم:

«أيها الثوار المجرمون! أراكم تفرحون بما حكم عليكم ، وأنتم تحسبون أنكم تنالون بذلك الشهادة في سبيل الله ، وإنَّا لا نريد أن يكون لكم ما تريدون وتنالوا ما تتمنون ، وعلى هذا بدَّلنا أمرنا فيكم وقرَّرنا نفيكم إلى جزائر الأندمان والسجن المؤبد فيها» .

وتوفي منهم الشيخ يحيى علي في جزيرة بورت بلير بعد ما قضى أربع سنوات سجيناً فيها ، أما الشيخ محمد جعفر التهانيسري فقد أطلق سراحه بعد أن أبلى في الله البلاء الحسن صابراً محتسباً ١٨/ عاماً في السجن ، وعاد الشيخ أحمد الله إلى الهند عندما أطلق سراحه .

وفي عصر يليه قام الشيخ محمد أحمد السوداني معلناً المهدوية والجهاد في سبيل الله في أرض السودان ، فدُكَّ به صرح الاستعمار الإنجليزي دكةً عنيفة لقَّنت المستعمر درساً جعل الإنجليز يحسبون للإسلام ألف حساب ، ثم شاهدوا ذيوع حركة السيد جمال الدين الأفغاني للوحدة الإسلامية وقبولها العام في جموع المسلمين ، فعرف دهاةُ الاستعمار الإنجليزي ـ ولهم خبرة طويلة بمعرفة عقلية المسلم ونفسيته ـ أنّ الدافع الوحيد القوي للمسلمين هو الدين أولاً وآخراً إلى تقديم التضحيات ، وهو العامل المحرِّك ، والمقيم ، والمقعد فيهم ، وقد استطاعوا إخضاع المسلمين سياسياً ولكنهم فشلوا في قهرهم عقلياً ، نعم إنَّ الإنجليز استطاعوا أن يملكوا أراضيهم ، ولكنهم فشلوا أن يكسبوا عواطفهم ، فرأوا أن يأتوا بكيدٍ آخر ، وهو أن يومأ إلى شخص من بينهم ينصب نفسه على مركز ديني كبير ليحتشد المسلمون حوله ، وليجمّعوا على يده ، وليكن هذا الشخص من بطانة الحاكم المستعمر ، وموضع ثقته ، فاقد الغيرة ، ومغسول الدماغ يجعل الإنجليز آمنين مطمئنين يحكمون ما يشاؤون ، وكان الإنجليز يعرفون أنَّ المسلم لا يُؤتى به إلا عن هذا الطريق ، ولا طريق أهدى للإنجليز لنيل مقاصدهم وإخضاع المسلمين فكرياً وعقلياً من هذا المكر الفاحش ، وقد وجد الإنجليز بغيتهم في شخص المرزا غلام أحمد القادياني الذي كان يعاني مرض التشتُّت الفكري ، وكان يجد في نفسه طمعاً جامحاً ورغبةً مُلِحَّةً

لنيل السيادة الدينية ، وليكون صانعاً ومخترعاً لدين جديد ، وليكون له أتباعٌ ومؤيدون ، واسماً لامعاً في التاريخ مثل اسم سيدنا محمد ﷺ ، وبذلك أصبح للإنجليز ضالةً يفقدونها ، ورجلاً مرتقباً ، فبدأ الرجل يؤدي دور التلميذ البـارع والعميل المطوّع ، فسرعان ما ادعى لنفسـه منصب التجديد ، ثم تدرَّج إلى أن نصَّب نفسه مهدياً ، وبعد مضيٍّ أيام جاء بفرية الادعاء بأنه صار «مسيحاً موعوداً» ، وبعد زمنٍ أعلن أنه نبيٌّ مبعوث ، وبذلك حقق الإنجليز ما أرادوه من هذا الشخص ، ولا شك أنَّ هذا الشخص قد لعب دوره بكل لباقة ، كما أن الإنجليز لم يقصروا في التعهد به ، ورعايته ، وتوفير التسهيلات له ، والدفاع عنه ، كما كان المرزا برّاً مطيعاً لأسياده ومربيه ، وشاكراً لأنعم الإنجليز عليه ، فيثني عليهم خيراً ، ويشكرهم في كلِّ مناسبة ، ويقول : إن وجوده رهين لمكرمات الإنجليز ، وعطفهم الأبوي ، ووصف نفسه في إحدى كتاباته بأنَّه غرسٌ للحكومة البريطانية ، ويكتب في طلبٍ له مقدّم إلى حاكم إقليم بنجاب في ٢٤/ ٢/ ١٨٩٨ م :

«إني أقدّم التماسي إلى مقام الدولة السامية أن ترعى الحكومة هذا الشخص العاجـز الذي ينتمي إلـى أسرة وفيـة للدولة منذ خمسين عاماً ، إنها أسرة متفانية في حبِّ الدولة ، مستعدة لتقديم كلِّ غالٍ ورخيص في سبيل إرضائـها ، الأسرة التي اعترف الحكام الكبار في رسائلهم أنَّ أفراد هذه الأسرة أفرادٌ أوفياءٌ ، وخَدَمة مطيعون بلا مراء ، فالرجاء أن يراعي الحكام حقوق غرسهم ، وأن يستـعملوا الحـزم والـتيقظ والبحث عن الواقع في المعاملـة معه ، وأن يوعَـزَ إلى الحكام أن يـنـظروا إلى شخصي، وأسرتي، وجماعتي، وخلاَّني، بعين العطف واللطف والترحم»[(١)] .

ويقول في رسالةٍ أخرى يذكر فيها خدماته ، ووفاءه للإنجليز :

«قضيت معظم أيام حياتي في تأييد الحكومة الإنجليزية والإخلاص لها بالخدمة ، وقد ألَّفت كتباً ، ورسائل في إلغاء الجهاد ، ووجوب الطاعة

---

(١) تبليغ رسالت : ج/ ٧ ، ص/ ١٩ .

للحكومة الإنجليزية ، ونشرت إعلانات بعدد لو جمعت في مكانٍ كانت خليقة بأن تملأ خمسين خزانة ، وقد أوصلت هذه الكتب إلى مصر ، والشام ، ورومة ، وكابل[١] .

ويقول في مكان آخر :

«لقد عشت منذ حداثة عمري ، وقد قاربت اليوم الستين أكافح بقلمي ولساني لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية ، والنصح لها ، والعطف عليها ، وإلغاء مبدأ الجهاد الذي يدين به الجهلة منهم ، والذي يحول بينهم وبين الإخلاص بهذه الحكومة ، وأرى أن كتبي قد أثرت في قلوب المسلمين ، وأحدثت تحوُّلاً في مئات آلافٍ منهم»[٢] .

ويقول في نفس الكتاب :

«إني لواثق بأنه كما يزيد عدد أتباعي يقلُّ عدد المؤمنين بمبدأ الجهاد ، فإنَّ الإيمان بي مسيحاً ومهدياً يتضمن معنى الإنكار بمبدأ الجهاد»[٣] .

ويقول في مكانٍ آخر :

«إني ألفت عشراتٍ من الكتب بالأردية والفارسية والعربية أثبت فيها : أنَّه لا يحل الجهاد أصلاً ضد الحكومة الإنجليزية التي أحسنت إلينا ، بل بالعكس من ذلك يجب على كلِّ مسلم أن يطيع هذه الحكومة بكلِّ إخلاص ، وقد أنفقت على طبع هذه الكتب أموالاً ، وأرسلتها إلى البلاد الإسلامية ، وإنِّي أعرف أنَّ هذه الكتب قد أثرت تأثيراً عظيماً في أهل هذه البلاد (الهند) وقد كوَّن أتباعي جماعةً تفيض قلوبهم إخلاصاً لهذه الحكومة ، والنصح لها ، إنهم على جانب عظيم من الإخلاص ، وأنا أعتقد أنهم بركة لهذه البلاد ، ومخلصون لهذه الحكومة ، ومتفانون في خدمتها»[٤] .

---

(١) ترياق القلوب ـ للمرزا غلام أحمد القادياني .

(٢) ضميمة شهادة القرآن . (الطبعة السادسة) .

(٣) ضميمة شهادة القرآن . (الطبعة السادسة) .

(٤) رسالة إلى الحكومة الإنجليزية .

فـي سبيـل الإنجليـز :

وقد أمدَّت هذه الحركة وهذه الفئة الحكومة الإنجليزية بخير جواسيس لمصالحها ، وأصدقاء أوفياء ، ومتطوعين متحمسين كانوا موضع ثقة الحكومة الإنجليزية ، ومن خيار رجالها ، خدموا الحكومة الإنجليزية في الهند ، وخارج الهند ، وبذلوا نفوسهم ودماءهم في سبيلها بسخاء ، مثل عبد اللطيف القادياني الذي كان في أفغانستان يدعو إلى القاديانية ، وينكر على الجهاد ، وخافت حكومة أفغانستان أن تقضي دعوته على عاطفة الجهاد وروح الحرية التي يمتاز بها الشعب الإفغاني فقتلته ، كذلك الملاَّ عبد الحليم ، والملاَّ نور علي القاديانيان ، عثرت الحكومة الأفغانية عندهما على رسائل ، ووثائق تدلُّ على أنهما عميلان للحكومة الإنجليزية ، وأنهما يدبّران مؤامرة ضدَّ الحكومة الأفغانية ، وكان جزاؤهما القتل ، كما صرح به وزير داخلية أفغانستان سنة ١٩٢٥ م ، ونقلت ذلك «الفضل» صحيفة القاديانيين الرسمية بسرورٍ وإعجاب في ٣/ مارس من ذلك العام .

وبقيت الجماعة القاديانية في عهد مؤسسها وبعده معتزلةً عن جميع الحركات الوطنية وحركات التحرير والجلاء في الهند ، صامتةً ، بل شامتةً لما دهم العالم الإسلامي من رزايا ونكبات على يد المستعمرين الأوربيين وعلى رأسهم الإنجليز ، مقتصرةً على إثارة المناقشات الدينية والمباحثات حول موت المسيح وحياته ونزوله ونبوة المرزا غلام أحمد ، التي لا اتصال لها بالحياة العامة والمسائل الإسلامية والحركات التي كانت مظهراً للغيرة الإسلامية والشعور السياسي في هذه البلاد .

إن بيت المرزا كان ذا صلة قوية صلة الوفاء والإخلاص والطاعة بالحكومة الإنجليزية التي تأسست في بنجاب حديثاً آنذاك ، وقدمَّ غير واحدٍ من أفراد هذه البيت تضحياتٍ جسيمةً لدوام العزِّ والبقاء والتقدم للحكومة البريطانية ، ودافعوا عنها وجاهدوا لها في مواقف حساسة ، يقول المرزا في «الاشتهار واجب الإظهار» وفي فاتحة كتابه : «كتاب البرية» :

«أنا من بيتٍ صادق الولاء للحكومة ، وكان أبي المدعو / المرزا مرتضى وفيّاً مخلصاً للدولة ، وكان ممن يؤذن له بالجلوس على الكرسي في الإيوان ، وهو الشخص الذي ذكره المستر جرائفان في تاريخ أعيان بنجاب ، وكان الرجل ممن قام بجانب الحكومة الإنجليزية وظهر لها في حوادث عام ١٨٥٧ م وكان هو الرجل الذي قدَّم خمسين فرساً وفارساً أيام الغدر (معركة التحرير التي خاضها المسلمون ضد الإنجليز عام ١٨٥٧ م) ولا يزال عندنا بعض خطابات الاستحسان التي وجهها الحكام إلى آبائنا ، وقد ضاع منها الكثير ، وصُور ثلاثٍ منها مدرجة في الحاشية ، وكان شقيقي الأكبر غلام قادر خان تولَّى خدمة الدولة بعد موت جدِّي ، وكان جندياً في معسكر الإنجليز عندما قام المفسدون بمحاربة الدولة على ممرِّ «تمون»(١) .

وفــاتــه:

ادعى المرزا غلام أحمد القادياني عام ١٨٩١ م أنَّه هو المسيح الموعود ، وفي نفس العام نصب نفسه نبيّاً مرسلاً فأنكر عليه العلماء المسلمون ، وعارضوه ، ومن بين المنكرين المتحمسين ضدَّه كان الشيخ الفاضل ثناء الله الأمر تسري رئيس تحرير مجلة «أهل الحديث» في مقدمتهم ، وأصدر المرزا إعلاناً في ١٥/ أبريل ، قال فيه مخاطباً الشيخ الأمر تسري :

«إن كنتُ كذاباً مفترياً كما تزعم في كلِّ مقالة لك فإني سأهلك في حياتك ، لأنِّي أعلم أن المفسد الكذاب لا يعيش طويلاً ، وفي عاقبة الأمر يموت ذلاًّ وحسرةً في حياة ألدِّ أعدائه ، حتى لا يتمكن من إفساد عباده ، وإن لم أكن كذاباً مفترياً ، وإني مشرف بالتكليم مع الله ، ومسيح موعود ، فإنكم أنتم المكذبون ستواجهون أشدَّ العقاب الذي لا يملكه الإنسان بل يملكه الله وحده ، مثل تسليط الطاعون ، والهيضة ، وسوء الأسقام ، فإن لم تمرض بها في حياتي فلست مرسلاً منه» .

---

(١) كتاب البرية : ص/ ١٤٢ ـ ١٤٤ .

وبعد مضيٍّ عامٍ من هذا الإعلان ، في ٢٥/ مايو عام ١٨٠٨ م أصيب المرزا في مدينة لاهور بانطلاق البطن الشديد مصحوباً بالقيء ، وكان ذلك ليلاً بعد العشاء ، وعولج في حينه ، ولكن كان الضعف والإرهاق في ازدياد مستمر ، وأوشك على الهلاك حتى تنفس النفس الأخير في يوم الثلاثاء الموافق ٢٦/ مايو عام ١٨٠٨ م.

أدلى والد زوجته المير ناصر نواب بالبيان التالي:

«كنت في ليلة أصيب فيها سيدنا المرزا بالمرض ، عدت إلى مكاني ونمت ، ولكن عندما اشتد عليه المرض أيقظني أهلي ، وعندما حضرت عند سيدنا قال لي: يا مير ناصر! إني مصاب بالهيضة الوبائية ، ولم يزد سيدنا على هذا قولاً فيما أعتقد إلى أن توفي في اليوم الذي وليه».

ولقد أرادت مشيئة الله وقدره أن يرزق فضيلة الشيخ الأمر تسري عمراً طويلاً فتوفي في الثمانين من عمره ، في ١٥/ مارس عام ١٩٤٨ م ، أي بعد أربعين عاماً من وفاة المرزا غلام أحمد.

وأخيراً ـ لا آخراً ـ قد انتهيتُ بعد دراستي الواسعة المتنوّعة المُتقصَّية ، ـ أقول ذلك مع الاعتذار ـ للمحاولات الهادفة المتنوّعة اللَّبقة ، ليفقد هذا الدين ـ الذي هو الرّسالة السَّماوية الأخيرة ، والدين العالمي الخالد ـ نفوذَه العميق ، وسلطانه الفريد ، ولتفقد هذه الأمةُ وحدتها وعالميّتها وسلطانها الروحي والاجتماعي والسيّاسي الذي لا نظير له في تاريخ الديانات والدعوات ، ودراستي للمحاولات اللَّبقة لتحريف الدين ، وإضلال المسلمين ، وظهور المتنبئين في فتراتٍ من التاريخ ، وذلك حين عكوفي على تأليف سلسلة كتاب: «رجال الفكر والدعوة في الاسلام»[1]؛ إذ كان لا بُدَّ فيه من التنويه بالهجمات ، والدعوات ، والمخطّطات التي كانت

(١) ظهرت منه أربعة أجزاء في اللغة العربية ، وخمسة أجزاء في اللغة الأردية وأربعة أجزاء اللغة الإنجليزية ونالت كلها قبولاً عظيماً ورواجاً عاماً منذ صدورها، وقد صدرت له طبعات عديدة بالعربية والأردوية والإنجليزية.

خطراً على الإسلام ، وكان لا بدَّ من مقاومتها ، والقضاء عليها ليبقى هذا الدين على أصالته ونفوذه ، ووحدته ، وعالميَّته ، ودوامه على الأصالة.

انتهيتُ بعد هذه الدراسة الشاملة المتقصّية الأمينة ، إلى أنَّ المُخطَّط الدَّعوي والادِّعائي القادياني أعظم خطراً ورهبة على أصالة هذا الدين وقوته وسلطانه ، وعالميَّته ، وآفاقيَّته ، وقدرته على أن يقوم بدوره الإصلاحي والبنائي في كلِّ زمانٍ ، وينقذ العالم والإنسانية من الجاهلية بجميع أنواعها ومظاهرها ، ويكون هو الدين الواحد بعقائده وعباداته وأحكامه ومظاهره ، ومدنيَّته ـ إلى حدٍّ بعيد ـ.

وذلك لأنَّ الدعوة القاديانية اجتمع فيها الطموح الفردي ، وحبُّ السُّلطة والنفوذ ، وما يتبع ذلك من منافع شخصية ، وطائفية ، ومادِّية ، مع الإيعاز البريطاني والأهداف الاستعمارية والسياسية الدقيقة العميقة ، ـ كما تبيّن ذلك مما سبق من اعتراف مؤسِّسها ، واحتضان الحكومة البريطانية لهذه الدعوة وحمايتها ـ فأصبحت بذلك قضيةُ الطائفة القاديانية ودعوتها من أعظم القضايا المتنوِّعة الكثيرة ، التي يواجهها الإسلام والمسلمون في أنحاء العالم ، دقّةً ، وخطورةً ، ومحنةً ، وخطراً على وحدة الإسلام والمسلمون ، وعَالمية الإسلام ، وإنسانيَّته ودوامِه ووحدته ، وأختم ذلك بما سبق من كلام العلامة محمد إقبال ، بأن بقاء هذا الدين على أصالته مرتبطٌ بالكتاب والسنة ، وبقاء هذه الأمة كأمَّةٍ واحدةٍ مرتبطٌ بعقيدة ختم النبوة.

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيِّين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

مـاذا خـسـر الـعـالـم بانـحطـاط المـسلميـن؟

هذه المحاضرة القيمة ألقاها العلامة الندوي في شهر آذار ١٩٨٧م، في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، أمام أساتذتها وطلبتها الّذين عيّنوا له موضوع المحاضرة عن كتابه الشهير «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» فلبّى العلامة هذه الدعوة وألقى هذه المحاضرة الّتي نقلها المحقق عن الشريط المسجّل.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ رسوله الكريم وعلىٰ آله وصحبه وبارك وسلم ، أما بعد: أيها السادة يسرني ويسعدني في هذه المناسبة الكريمة أن أجيب عن السؤال الأول الَّذي تقدم به أخونا الكريم ، فإن مؤلف الكتاب إذا سمع الناس يتحدَّثون عن كتابه وعن مجهوده العلمي فإنه بحكم الطبيعة يحمد الله ويتفاءل بذلك ، وإنني كمؤلِّف حقير وكمساهم في العمل الإسلامي الكبير أغتبط بهذه الفرصة وأغتبط بهذا السؤال ، وليس ذلك بغريب فإنني إذا رأيت الناس من الطبقة المثقفة في مؤسسة علمية وفي مركز علمي ثقافي كبير كجامعة الملك عبد العزيز في جدة في هذه البلاد المقدسة ، إذ رأيت إخوتي المعنيين ببحوث علمية ، يعتنون بهذا الكتاب الَّذي كان باكورة مؤلفاتي ، ولعل كثيراً من الإخوة في هذا الاحتفال لا يعلمون أن هذا الكتاب كان بداية تاريخ التأليف ، وقد ألفت هذا الكتاب وأنا قد جاوزتُ الثلاثين من عمري ، وكان الموضوع أضخم من أن يتناوله مثلي في مثل هذه السن المبكرة وفي بلد بعيد عن مركز الإسلام وعن مركز الثقافة الإسلامية وعن مركز اللغة العربية ، فإنني كنت ولدت في الهند ونشأت فيها ، ولم يقدر لي أي سفر خارج الهند ، فكانت الرحلة الأولىٰ المباركة التي وفقني الله لها هي الرحلة التي قمت فيها بأداء فريضة الحج سنة سبع وأربعين الميلادية يعني بعد تأليف هذا الكتاب ، بأربع سنوات تقريباً أو ثلاث سنوات ، فكانت في الحقيقة مغامرة علمية لم أكن مُتهيئاً لها ، وكان من الجسارة العلمية إن لم تكن من الوقاحة أن أتناول هذا الموضوع ، الَّذي كان جديراً بقلم أكبر من قلمي وبعقل أوسع من عقلي وبتجربة أطول وأوسع من تجربتي كمؤلّف ، ولكن الله يفعل ما يشاء ، كأني كنتُ أشعر بدافع يدفعني ، برغبة غامضة ملحة لم أستطع أن أغالبها ، كأن سائقاً يسوقني إلىٰ الكتابة في هذا الموضوع ، ولو استشرت العقل واعتمدت علىٰ تجارب المؤلفين ، وعلىٰ مقاديرهم ومكانتهم العلمية لأحجمتُ ، ولعدلت عن هذه الفكرة ، ولو ذكرتُ لأحد من العقلاء العلماء ، أصحاب الأقلام المؤلفين ،

لأشاروا علي بالعدول عن الخوض في هذه المعركة العلمية العقلية ، ولكنه كان من الخير أنني لم أستشر أحداً كما يقول الدكتور محمد إقبال الشاعر المعروف: ليس من الخير أن تستشير عقلك دائماً ، فنحّ عقلك جانباً في بعض الأمور ، فإن العقل يصور لك الخوف في معارك خطيرة ، ويشير عليك بالابتعاد عن مثل هذه التجارب الخطيرة.

أعتقد أنه كان خيراً لي أنني لم أذكر ولم أتحدث في هذا الموضوع إلىٰ كبار العلماء وكبار الكتاب في الهند ، إنني كنت أشعر بسائق داخلي يسوقني إلىٰ التحدث في هذا الموضوع ، وكانت المراجع التي كنت أستشيرها في هذا الموضوع قليلة لأن ذلك العهد كان قريباً بالحرب العالمية الثانية ، وكانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند والبلاد العربية ، فكانت الهند تستورد قليلاً من البضاعة العلمية والبحوث العلمية والمراجع التاريخية والثقافية التي كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عامة ، ومصر بصفة خاصة ، ولكنني كنت مدفوعاً ، لم أكن في ذلك ـ في الحقيقة ـ مخيراً بل كنت مسيراً ، كأن هاجساً يهجس في ضميري ويقول لي: لا بدّ من وضع كتاب في هذا الموضوع ، وكان الاسم طريفاً في الحقيقة.

كان من أسباب استرعاء هذا الكتاب انتباه كثير من الناس وإثارته لدهشة كثير من الناس أن الموضوع كان طريفاً مبتكراً «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» هل للمسلمين صلة وثيقة بالمصير العالمي ، بالأوضاع العالمية حتى يجوز أن يقال: ماذا خسر العالمُ بانحطاط المسلمين ، أو ماذا سيصبح العالم ويجني بتقدم المسلمين؟

كان الناس اعتادوا في ذلك العصر وقبل العصر الَّذي ألف فيه هذا الكتاب أن ينظروا إلىٰ المسلمين كشعب وكأمة ، إذا أعطينا المسلمين حقهم كأمة ذات رسالة وذات دعوة ، فإن المؤرخين والكتاب والباحثين اعتادوا أن ينظروا إلىٰ المسلمين كعنصر من عناصر النوع الإنساني الكثيرة ، ولكن تشجع المؤلف ، مؤلف هذا الكتاب ، وتخطى هذه الحدود المرسومة وخرج من الإطار التقليدي الَّذي فرض علىٰ المؤلف والكتاب في العرب

والعجم ، فأراد أن ينظر إلىٰ العالم من خلال المسلمين ، وشتان بين النظرتين ، نظرة ينظر بها إلىٰ المسلمين من خلال العالم ، من خلال الحوادث التي تجري في العالم ، من خلال التطورات التي تحدث في العالم . المسلمون شعب من الشعوب يخضعون لما يجري في العالم في إطار عام واسع ولكن قلما يكون النظر إلىٰ العالم من خلال المسلمين ، إنهم كانوا يبحثون دائماً ماذا خسر المسلمون بسبب الحادث الفلاني؟ بسبب التطور الفلاني ، بسبب انقراض الحكومة الفلانية ، ماذا خسر المسلمون بسبب نهضة الغرب الحديثة ، ماذا خسر المسلمون بسبب الثورة الصناعية الكبرىٰ التي حدثت في الغرب ، ماذا خسر المسلمون بانقراض الحكومة المغولية مثلاً هنا في الشرق ، أو بانقراض الخلافة العثمانية؟ وماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثير من قلاع الإسلام والمسلمين ، ماذا خسر المسلمون بفقرهم في الاقتصاد وفي السياسة ، وفي القوة الحربية ؟!

كان ذلك الطريق المرسوم التقليدي الَّذي اعتاده الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ ألهمني وشرح صدري أن أكتب في موضوع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ كأن المسلمين هم العامل العالمي ، العامل المؤثر في مجال الأمور في العالم كله ، ليس في منطقة جغرافية أو منطقة سياسية خاصة ، إنه كان فتحاً جديداً في الحقيقة ، وأنا أعتقد أن هذا الكتاب إنما استرعىٰ انتباه كثير من الناس علىٰ صغر سن المؤلف وعلىٰ قلة بضاعته في العلم ، لا لأنه ألف تأليفاً لم يسبق له كتاب يعرف به في مصر وفي غير مصر ، إن السر في قبول هذا الكتاب ذلك الاهتمام من القراء هو أنه كتب وبحث من مستوىٰ رفيع ، من مستوىٰ الأمة الإسلامية التي ترغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، فأنا مع كل اعترافي بفقري في العلم وقلة بضاعتي في الثقافة أحمد الله سبحانه وتعالىٰ ـ ولا يستغرب أن يحمد المؤلف علىٰ توفيق الله وعلىٰ إلهامه ـ أنه وفقني لتأليف هذا الكتاب في هذه السن المبكرة وفي هذا الزمن المبكر ، ووفقني لأن أبحث وأن أطرق هذا الموضوع من ناحية جديدة وبأسلوب جديد «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؟

هل المسلمون في وضع يمكن أن يقال: إن العالم يخسر شيئاً بانحطاطهم؟ هل المسلمون علىٰ مستوىٰ يجوز أن يقال إن العالم قد خسر شيئاً بتقهقرهم وبتراجعهم وبتخلفهم عن مجال القيادة العالمية؟ إنني أخاف وأخشىٰ أن كثيراً من الكتاب الإسلاميين الَّذين كانت لهم مواقف جليلة ، وكانت لهم سوابق عديدة أنهم فكروا هذا التفكير ، إن الحروب الَّتي تراكمت علىٰ المسلمين مع تاريخ الإسلام ، وإن مركب النقص الَّذي أصيب به الجيل الجديد ، الجيل المثقف ، كان يعوق كثيراً من الباحثين أن يربطوا قضية المسلمين بقضية العالم ، بقضية الإنسانية ، أين المسلمون من القيادة العالمية: المسلمون فقراء ، المسلمون ضعفاء ، المسلمون محكومون من الغرب ، المسلمون خاضعون للثورات الحديثة ، فهل يصح أن يربط مصير العالم أو مصير الإنسانية بمصير المسلمين ، بواقع المسلمين؟ لا إن كثيراً من الناس لم يكونوا يصدقون في ذلك الحين أن المسلمين لهم من الأهمية والخطر والتأثير ومن المكانة ما يؤهلهم لهذا البحث ، ويسوغ للمؤلف أن يؤلِّف كتاباً فيبحث عن مدىٰ خسارة العالم الإنساني ، العالم المعاصر بانحطاط المسلمين ، إن الموضوع كان خطيراً ، وكان البحث فيه شبه مجازفة وشبه مغامرة علمية ، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ أعان علىٰ ذلك .

ألفت هذا الكتاب علىٰ تردد ، علىٰ تخوّف مني ، لأنني كنت جديداً في مجال التأليف خصوصاً في اللغة العربية ، فإنني لم أكن قد زرت بلداً عربياً قبل تأليف هذا الكتاب بل بعد تأليفه بأربع سنوات أو بخمس سنوات ، إنما كانت صلتي باللغة العربية صلة دارس ، صلة تلميذ ، يولد بعيداً أو يعيش بعيداً عن مركز الثقافة العربية وعن مركز العلوم الإسلامية الأصلية ، ولكن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه وقوّى علىٰ ذلك ، فألفت هذا الكتاب علىٰ تخوف وعلىٰ شك .

كان يساورني شك أحياناً هل ينال هذا الكتاب تشجيعاً؟ هل ينال هذا الكتاب تقديراً في البيئات العربية الخالصة ، وفي البيئات الإسلامية البعيدة ؟ فأرسلت فصلاً عن هذا الكتاب في التعريف به ، إلىٰ الدكتور أحمد

أمين بك وهو رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر ، وكنت أمنّي نفسي بأن هذا الكاتب الإسلامي الكبير ، هذا المؤلّف المصري الشهير الَّذي نالت كتبه خصوصاً سلسلة فجر الإسلام وضحىٰ الإسلام الَّتي كان لها دوي في الأوساط العلمية ، كنت أمني نفسي وأتمنىٰ علىٰ الله أن ينالَ هذا الكتاب من اهتمام منه ، ولكني فوجئتُ بكتاب تلقيته منه فيه التشجيع والتقدير ، ويطلب مني نموذجاً من هذا الكتاب ، فأرسلت إليه فوافق علىٰ فكرة هذا الكتاب وإصداره من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكانت لجنة موقرة ، وقدم له مقدمة لم تكن فيها تلك القوة الَّتي كنت أتوقعها من رجل مثله ، من باحث إسلامي كبير ، ولكن صدور هذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر فتح لهذا الكتاب طريقاً إلىٰ الأوساط العلمية ، وكان الترحيب به واستقباله فوق تقديري وفوق ما كنت أتوقّع .

بقي أن أجيب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ يصعب علىٰ المؤلّف ـ كما تعلمون ـ من جرب التأليف أن من أصعب الأمور علىٰ المؤلف أن يلخص الكتاب الَّذي ألفه وسهر عليه وبذل فيه وقتاً طويلاً واعتمد المراجع الكبيرة أن يلخصه في دقائق ، ولكني سأحاول أن أجيب عن السؤال ، فأنا أولىٰ بالإجابة عنه .

في الحقيقة إن العالم قد خسر جوهره ، خسر أغنىٰ ما عنده وأحوج ما يكون إليه ، قد خسر قيمته في الحقيقة بانحطاط المسلمين ، لأن المسلمين هم الَّذين كانوا يضفون علىٰ هذا العالم القيمة المعنوية وجدارة الحياة والبقاء والغاية الرشيدة التي يتجه إليها العالم .

ما هي غاية الحياة؟ لماذا خلق هذا الكون؟ لماذا خلقت هذه الوسائل الكثيرة الوفيرة التي بثها الله علىٰ الأرض في الجو؟ لماذا أودع الله هذه القوة الهائلة في العقل الإنساني؟ لماذا خلق الله هذه الطاقات البشرية الهائلة في طبيعة الإنسان ، هذه كلها أسئلة وجيهة ، كان المسلمون هم الَّذين يعللون ويفسِّرون هذه الخصائص البشرية ، التي تمتاز بها البشرية ، كان المسلمون وحدهم حاملي رسالة أكرمهم الله تعالىٰ بها عن طريق محمّد خاتم الأنبياء

عليه الصلاة والسلام ، وكان للمسلمين وحدهم أن يفسروا هذا المخطط الدقيق الواسع الشامل الَّذي خلق الله عليه الكون وهذه الحكمة الدقيقة العميقة التي خلق الله لأجلها الإنسان واستخلفه في هذه الأرض : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ لماذا حملها الإنسان؟ ولماذا يقول الله تبارك وتعالىٰ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ولماذا أعرض الملائكة عن الإجابة عن السؤال الَّذي وجهه الله تعالىٰ فقالوا : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ ما هو السر للخلافة الإلهية ، سر خلافة الإنسان عن الله تبارك وتعالىٰ ، هذه كلها أسرار ، هذه كلها أسئلة عميقة ، أسئلة وجيهة لها كل الوجاهة ولها كل الأهمية ، وهذه الأسئلة مطروحة أمام المكتبة العالمية ، أمام كبار الباحثين ، كبار العقلاء ، وكبار الفلاسفة والمؤرخين ، هذه الأسئلة مطروحة أمامهم تفرض عليهم أن يجيبوا عنها ولا يستطيعون أن يجيبوا عنها إلاَّ إذا فهموا الرسالة السماوية ، وإذا فهموا الغاية الرشيدة التي خُلق لأجلها الإنسان ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، إن هذه اللغزة البشرية ، اللغزة الكونية التي لا توجد لغزة أكبر منها وأدق منها ، لا نحلّها إلا إذا فهمنا الرسالة التي اختير لها المسلمون ، وهذه القيادة البشرية التي اختير لها المسلمون ، فإذا فهمنا لماذا خلق المسلمون عرفنا لماذا خُلق هذا الكون ، إذا فهمنا لماذا اتصلت الأرض بالسماء أو اتصلت السماء بالأرض عن طريق الوحي ، عرفنا سر خلافة الإنسان ، وعرفنا الغاية الَّتي يجب أن تتجه إليها الأجيال البشرية في كل زمان ومكان.

ماذا كان العالم لو لم يكن المسلمون؟ وإذا كان هذا الكون ، وكانت هذه الأسرار الطبيعية ، وهذا الجو الفسيح وهذا الكون الزاخر وهذه النشاطات الباهرة وهذه القوة الكونية ، ولم تكن الرسالة الإسلامية والأنبياء ، كان هذا الكون كله ، وكانت هذه المسيرة التي قطعتها الأجيال البشرية خلال هذه المدة رحلة لا غاية لها ، كلمة لا معنى لها ، وكانت كلها حيرة وضلالاً ، كانت كلها تيهاً وفساداً ، كانت كلها عبثاً وضرباً من اللهو ، فالإسلام هو الَّذي يفسّر هذا الكون ، والرسالة الإسلامية الَّتي أكرم بها

المسلمون ، والوصاية العالمية الَّتي اختير لها المسلمون ، هي التي تستطيع أن تفسِّر هذه المسيرة الإنسانية كلها والغاية التي يتجه إليها العالم ، فلما تراجع المسلمون وانسحبوا عن ميدان القيادة ، وتخلَّوا عن دورهم القيادي التوجيهي الإرشادي ، كان هذا العالم كله كغابة موحشة تزخر بالحيوانات المفترسة والدواب السائمة والأسود الضارية والنمور الفتاكة والذئاب والكلاب العاوية ، وكانت غابة تتحكم فيها شريعة الغابات وقانون العصابات ، وكانت الأمم كلها قطعاناً من الغنم لا راعي لها ولا قائد ، ترد حيث تشاء وتصدر من حيث تشاء ، وكانت الإنسانية كلها وهي مسلّحة كفيلٍ هائج يدوس ما شاء ويقتل بأقوىٰ الأسلحة الأطفال ويخرب القرىٰ ويدمر الخلائق الإنسانية .

هذا شأن الغرب . فلما تخلىٰ المسلمون عن قيادة العالم أصبح الغرب كفيل هائج ، كرجل سكران عنده سيف بتّـار ، وسكين حادة ، لا يعرف كيف يستخدمها في صالح الإنسانية في بناء هذا الكون الجديد ، كيف يستخدمها في خدمة الإنسانية ، وهذا كله لأن المسلمين تخلّوا عن دورهم القيادي وعن مسؤوليتهم المشرفة الَّتي أكرمهم الله بها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ وأنا قلتُ في الكلمة التي ألقيتها ممثلاً ونيابةً عن الأعضاء والمندوبين الَّذين حضروا في مؤتمر الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، قلت : إن بعثة الأنبياء السابقين كانت بعثة مفردة ، ولكن بعثة نبينا محمد ﷺ كانت بعثة مقرونة مزدوجة ، كانت بعثة نبي مقرونة ببعثة أمة ، فكانت هنالك بعثتان ، بعثة نبي للأمة ، وبعثة أمة للأمم كلها ، وإلىٰ ذلك أشار الله سبحانه وتعالىٰ بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ إنها أمة مخرجة ، إنها أمة مخططة ، أمة مقصودة ، لم تكن مصادفة ، لم يكن نهوضها أو خروجها مجرد مصادفة ، وحادثاً تاريخياً ، لا ، إنها مخطط إلهي ، تقديـر العزيـز الحكيم ، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ يقول الله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ فالمسلمون هم قوامون لله ، وأكثر من ذلك

صراحة ما ثبت بالحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال لبعض من بَعَثَهم إلىٰ اليمن ، أو إلىٰ قبيلة من القبائل : «**بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين**» فكانت البعثة المحمدية هي البعثة المقرونة المزدوجة ، بعثة نبي ، وبعثة أمة ، أمة مبعوثة ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم قد أحسنوا فهم هذه الحقيقة ، وجرت هذه الحقيقة علىٰ لسانهم من غير تكلف ، فقال ربعي بن عامر في الحديث الَّذي تحدث به إلىٰ رستم قائد قواد الفرس فقال : «الله ابتعثنا» ولم يقل إنما خرجنا ، نهضنا ، لا ، الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده . . . الخ ، فهو يقول : الله ابتعثنا .

فلما كان المسلمون مبتعثين ، وكانت الأمة مبعوثة مبتعثة يراد بها إرشاد البشرية وهداية البشرية ، ويراد بها قيادة العالم إلىٰ الخير ، كانت كارثة كبرىٰ ، مأساة عالمية لا تقاس بمقياس ولا تقدر بالمقاييس الصناعية ، لما تخلىٰ المسلمون عن تبعتهم ، وعن هذه المسؤولية الضخمة المشرفة الَّتي أكرمهم الله بها ، كانت كارثة العالم كله ، يتسكع ويتيه في المتاهات ، والمتابعات العقائدية ، والمتاهات السياسية ومتاهات التخطيط المدنية والحضارية ، ﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ إنه لا مصدر للنور إلا مصدر واحد وهو مصدر الوحي ، مصدر الهداية الإلهية مصدر الرسالات السماوية ، وكان المسلمون مختصِّين بهذا المصدر ، هم الَّذين شرفهم الله تعالىٰ بالاصطفاء من هذه المنابع الدينية الأصلية ، فلما تخلىٰ المسلمون عن تبعتهم وتكاسلوا وتقاتلوا وانطووا علىٰ نفوسهم ـ قصة طويلة ـ حكاها المؤرخون وحكيتها في كتابي «ماذا خسر العالم . . » في الباب الثاني «أسباب تأخر المسلمين» قصة تقرؤونها مفصلة في كتب التاريخ ـ فلما انطوىٰ المسلمون علىٰ نفوسهم وشغلوا بأنفسهم وشغلوا بالقتال فيما بينهم ، ونزع الله عنهم القيادة لأن الأرض يرثها عباده الصالحون الأمناء ، وإن الأرض يرثها القوي الأمين ، وكانت شقاوة للإنسانية .

كان اليوم الَّذي تخلَّىٰ المسلمون فيه عن القيادة هو اليوم الَّذي يجب أن لا ينساه العالم يجب أن يحتفل به كأشقىٰ يوم وأظلم يوم وأسود يوم وأنحس

يوم في تاريخ الإنسانية ، هذه قصة خسارة العالم بانحطاط المسلمين ، بإيجاز وإجمال ، لا أريد ـ وسيكون جناية على الكتاب ـ أن ألخص لكم حتى تستغنوا عن مطالعة الكتاب ، فلا أريد أن أحول بينكم وبين هذا الكتاب ، إنني لا أريد أن ألحق بهذه الكتاب ضرراً وأجني عليه وعلىٰ مؤلِّفه فإنني أدعكم ومطالعة الكتاب ، فمهما أطلت واسترسلت في حديثي هذا فإنني لا أستطيع أن ألخص لكم الموضوع الَّذي استغرق نحو أربعمئة صفحة ، لا أستطيع أن ألخصه في حديث دقائق أو في حديث ساعة .

هذه نهاية الحديث ، بدأنا بماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، وننتهي إلىٰ قولنا ماذا ربح العالم بتقدُّم المسلمين ، والله سبحانه وتعالىٰ يقرب البعيد ويجعل المستحيل ، والَّذي نفض الناس أيديهم منه ويئسوا منه يجعله ممكناً ، والله تبارك وتعالىٰ يقول الحق وهو يهدي السبيل .

* * *

بين الصّورة والحقيقة

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في حفل عام ، حضره آلاف من المسلمين ، عقدته جماعة التبليغ في سنة ١٩٤٩م في مدينة لكهنؤ (الهند) ونقلها إلى العربية الأستاذ محمّد الحسني ـ رحمه الله ـ رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» .

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

أيها الإخوة! إن كلَّ شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرقٌ كبير رغم الشبه العظيم. تميزون بينهما بسهولة في حياتكم ، تعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة ، وأضربُ لذلك مثلين : هذا مثل للثمار المصنوعة من الخزف ، تتراءى للناظر كأنها تفاح ، ورمان ، وبرتقال ، وعنب ، وموز ، لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة؟ وأين طعم هذه الثمار ورائحتها؟ إنها ليست إلا للزينة أو المال.

إنكم ترون في المتحف كلَّ نوع من السباع والأنعام، والطيور الجميلة ، والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد ، والذئاب ، والأفيال ، والذباب ، وفيها كل طائر جارح ، وكل سبع مخيف ، ولكنها جثثٌ هامدة لا حراكَ بها ، وأجساد ميتة محشوَّة بالليف والقطن ، ليس فيها رمق من حياة ، وقوة تهجم بها وتصول ، حتى لا تحسّ منها من أحد ، ولا تسمع لها رِكْزاً.

إن الصورة لا تستطيعُ أن تسدَّ مكانَ الحقيقة ، وتنوب عنها ، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة ، وتأتي بما تأتي به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها. فإذا وقع صراعٌ بينهما انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتملَ عبء الحقيقة ، فإذا وكل أحد إلى الصورة وظيفة الحقيقة ، أو عوّل عليها في مهمة خانته الصورة ، وخذلته أحوج ما يكون إليها.

والصورة ـ ولو كانت مهيبة هائلة ـ تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لأن الحقيقةَ الحقيرة أقدرُ وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة ، وإن الولدَ يقدر أن يسقط الأسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة؛ لأن الولد يحملُ حقيقة ، ولو حقيقة صغيرة ، والأسد ليس إلا صورة؛ ولو كانت صورة مهيبة.

إن هذا العالم الذي نعيشُ فيه عالم الحقيقة والأمر الواقع ، وقد خلق الله

كل شيء على حقيقته ، فللمال حقيقة ، وحبّه فطري طبعي ، ولأجل ذلك وردتْ عنه الأحكام ، ووضع الله فيه التأثير والجذب. وللأولاد حقيقة ، والحنان إليهم وحبهم فطري ، ولأجل ذلك وردت الأحكام في الشرع عن تربيتهم وتعليمهم. وكذلك للحاجات الطبيعية ، والميول الفطرية حقيقة لا تجحد ، ولا تغلب تلك الحقائق إلا حقيقة أقوى ورغبة أعظم وأشد.

إننا نحتاج إلى حقيقة الإسلام والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم ، أما صورة الإسلام فهي عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها ، وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل؛ لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أيِّ حقيقة.

ولذلك نرى اليوم بأعيننا أنَّ صورةَ الإسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة؛ لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدساً رائعاً ليس لها سلطان وتأثير ، وأن صورة إسلامنا ، وصورة كلمتنا ، وصلاتنا اليوم لا تقدر أن تتغلب على عاداتنا الحقيرة ، وتقهر شهواتنا الخسيسة ، أو تثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان.

إن الكلمة التي كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والأرواح ، وكانت تهون على الناس ترك المألوفات؛ وقهر الشهوات ، والشهادة في سبيل الله وبذل الأرواح والأنفس لله ، واحتمال المكاره وتجرُّعَ المرائر في سبيل الله ، هي عاجزة عن أن تحمل الناس على ترك فرشهم بعد أن استغرقوا في النوم طول الليل ، ويقوموا لصلاة الفجر.

نعم ، الكلمة التي كانت تغلب على شهوة الخمر ، فتحول بين الإنسان وبين الكأس وهي على راحته ، فيمتنع عن شربها؛ لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه أن يشرب الحرام ، ها هي الآن قد أصبحت لا تملك أمراً ولا نهياً.

سرِّح طرفك في تاريخ الإسلام ، وتجول في فصوله وأوراقه ، يظهر لك أن كلمة الإسلام التي كان الصحابة وكان المسلمون في القرون الأولى يتلفظون بها ، كانت ذات حقيقة ثابتة ، وكانت كشجرة طيبة أصلها ثابت

وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وكلمتنا نحن ألفاظ مجردة، ونطق فارغ، ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها في حياة الأمة. ثم إننا مع ذلك نحاول أن نطبق حياة أصحاب النبي ﷺ على حياتنا، ونرجو أن تؤتي هذه الكلمة أكلها كل حين، وتحدث ما أحدثت في الماضي، حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تساءلنا، وقلنا: «ألسنا مسلمين؟ ألسنا نصلي ونصوم؟ ألا نتلفظ بكلمة الإسلام ونرددها صباح مساء؟! فلماذا هذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين؟! وإذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم؟! وأين ثمرات شجرة الإيمان؟! وأين نتائج الصلاة والصيام؟! وأين ما وعد الله من النصر المبين، والاستخلاف والتمكين؟!

لا تخدعنا أنفسنا!! ولنعلم أنهم كانوا أصحاب جد وحقيقة في الدين. لقد كانت كلمتهم حقيقة، وكانت صلاتهم حقيقة، ونحن متجردون عن هذه الحقائق، فرجاء أن تثمر الصورة ما أثمرت الحقيقة، وتغني غناءها، إنما هو وهم وخيال، وضرب من المحال.

أما قرأتم في التاريخ أن خبيباً رضي الله عنه رفعوه على الخشبة، وتناولوه بالرماح والأسنة، حتى تمزق جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يئن، فقالوا له: «أتحب أن يكون محمد ﷺ مكانك؟» فيضطرب ويقول: «والله لا أحب أن يفديني بشوكة يشوكها في قدمه»!.

يا أبناء الإسلام! إن الذي ثبته في هذا المكان، وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة في حب الرسول هل هي صورة الإسلام؟ لا، بل هي الحقيقةُ التي مثلت بين عينيه الجنة، والرماح تنوشه وتعبث بجسمه، وناجته، وقالت: صبراً يا خبيب، فما هي إلا لمحات وثوان، وها هي الجنة تنتظرك، ورحمة الله ترتقبك، فإذا احتملت آلام هذا الجسد الفاني والحياة الزائلة العابرة، نلت السعادة الدائمة، والحياة الباقية.

هذه هي اللذة الروحية، وحقيقة الحب والإيمان التي أبت على خبيب أن يُطْلَق ويُؤذى رسول الله ﷺ بشوكة في قدمه، فهل تستطيع الصورةُ أن تحمل صاحبها على هذا الإخلاص والتفاني، والثبات على العقيدة والصبر

على الموت؟! كلا إن الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام ، بل حتى الخيالات والأوهام. وقد بدا لنا ذلك في الاضطرابات الطائفية الماضية في الهند ، فإن أناساً من المسلمين قد غيروا صورة الإسلام خوفاً مما مرَّ بخاطرهم من الفزع ، وخشية الموت ، وما ثار في رؤوسهم من معارك خيالية حامية ، واختاروا شعارَ الكفر ، وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلّين بالصورة ، فارغين عن الحقيقة.

هاجر سيدنا صهيب رضي الله عنه ، فلما كان في الطريق اعترضته جماعة من مشركي مكة ، وقالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريدُ أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركةُ بين حقيقة الإسلام وحقيقة المال ، ودارت بينهما رحى الحرب ، فانتصرت حقيقةُ الإسلام على ضدها ، وقال لهم صهيب: «أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي أتخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم ، قال: فإني قد جعلتُ لكم مالي[1]» وهكذا انطلق صهيب بدينه ، متجرداً من ماله ، فرحاً مسروراً ، كأنه لم يفقدْ شيئاً ، ولم يخسر شيئاً.

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة ، فلما رآه رجالٌ من بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد؟! ونزعوا خطامَ البعير من يده ، وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقةُ الإسلام بحب الزوج والولد ، فما لبثت أن انتصرتْ عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه وولده تحت رعاية الله ، وهاجر وحيداً ، هل الصورة تستطيع ذلك؟ وهل يقدر أصحابُها على ترك الزوجات والأولاد في سبيل العقيدة والدين؟ كلا! بل سمعنا أن أناساً قد ارتدوا عن دينهم للمال ، والأزواج ، والأولاد ، وغير ذلك من متاع الدنيا وزخارفها.

كان أبو طلحة مقبلاً على صلاته ، فإذا طائر يدخل في بستانه ، ثم لا يجد الطريقَ للخروج ، ويميل إليه قلبُ أبي طلحة ، فلما انصرف من صلاته

---

(١) سيرة ابن هشام (ج٢ ص ١٢١).

تصدَّق بهذا البستان: لأنه لا يحب أن يشغله شيءٌ عن حقيقة صلاته، وينازع قلبه!.

إن للبستان حقيقة، ولثمره وأكله حقيقة، ولا تغلب هذه الحقائقَ إلا حقيقةُ الإسلام، وإن صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة، ولذلك لا تقدر أن تقاومَ أدنى الحقائق المادية.

لقد كان في حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين، وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ مئتي ألف أو يزيدون، فإذا نصراني كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فيقول خالد رضي الله عنه: والله لوددتُ أن الأشقر براء من توجِّيه، وأنهم أضعفوا في العدد(١).

بم كان خالد رضي الله عنه مطمئناً، ولِمَ لَمْ يشغل خاطره هذا العدد الهائل، ولِمَ لَمْ تكبر في عينه جنود الروم الكثيفة؟ ذلك لأنه كان مؤمناً بالله، واثقاً بنصره، ولأنه كان يعلم أنه على الحقيقة، وأن مقابله صورة فحسب، وأن الروم صورة فارغة عن الحقيقة، وكان يعتقد أن الصورة مهما كثرت، لا تقدر أن تقاومَ حقيقة الإسلام.

لا شك أننا نتلفَّظُ بكلمة الشهادة والتوحيد، ومنا مَنْ يعرف ما يقول، ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر، إن أصحاب النبي ﷺ والمسلمين الصَّادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة، فإذا قالوا لا إله إلا الله اعتقدوا أنه لا إله غيره، ولا رب غيره، ولا رازق غيره، ولا نافع ولا ضارّ إلا هو، له الملك والحكم، والخلق والأمر، وبيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه، وأخلصوا له الحب، والخوف، والسؤال والرجاء، والعبادة، والدعاء، وأصبحوا عباداً حنفاء، شجعاناً أقوياء، لا يهابون العدو، ولا يخافون الموت، ولا يبالون بلومة لائم.

---

(١) الأشقر: فرس خالد، وكان قد حفي، واشتكى في مجيئه من العراق (البداية والنهاية ج٨ ص٩).

نرجع إلى أنفسنا ، ونفكر هل هذه هي الحقيقة متغلغلة في أحشائنا ، ومتسربة في عروقنا وشرايينا ، وهل غرسُ حياتنا يُسقى بهذا الماء؟ معذرة وعفواً أيها السادة ، إنا نخافُ ألا يكون الأمر كذلك ، وأن نصيب الصورة في حياتنا أكثر من نصيب الحقيقة ، وذلك موضع الضعف في حياتنا ، وسرّ شقائنا ومصائبنا ، إننا جميعاً نؤمن أن الآخرة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل إننا حاملون لحقيقة الإيمان كأصحاب النبي ﷺ ، ومَنْ تبعهم بإحسان؟ وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول الله ﷺ يقول: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فرمى بما معه من التمر ، وقال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي ، هذه ، إنها لحياة طويلة ، وقاتلهم حتى قتل؛ لأن الجنة كانت عنده حقيقة لا يشكُّ فيها ، فمن أيقن يقول كأنس بن النضر: إني لأجدُ ريحَ الجنة من دون أُحُد.

أتى رجلٌ من المسلمين يوم اليرموك ، وقال للأمير: إني قد تهيأت لأمري ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ ، قال: نعم! تقرئه عني السلام ، وتقول: يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً.

أفيقول هذا إلا من يوقن أنه مقتول في سبيل الله ، وملاقٍ رسولَ الله ، ومجتمع به في نعمة الله ، وأنه مكلّمه ومحدِّثه ، فإذا حصل لرجلٍ مثل هذا اليقين ، فما الذي يمنعه من استقبال الموت؟! وما الذي يحول بينه وبين الشهادة؟!

إن أكبر انقلاب وقع في تاريخ هذه الأمة ، هو أن الصورةَ احتلت مكان الحقيقة ، واستولت على حياة الأمة ، وذلك من عهد بعيد في التاريخ ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة ، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة الإسلامية كجدار ينصبه الفلاح في حقله كيلا يحلّ فيه الطير والوحش ، ولا تزال الطيور تظن أنه إنسان ، أو حارس ، فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكي ، أو حيوان جريء ، فيجد أنه ليس بشيء ، هنالك تدخل الطيور والوحش في هذا الحقل وتعيث فيه ،

وتتلف زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الإسلام مدة طويلة جداً ، فلم تجترىء عليهم أممُ العالم ، ولم يدر بخلد أحدٍ أن يمتحن هذا الشبح المخيف ، ويتحققه.

ولكن حتى متى؟ لما أغار التتارُ على بغداد ، افتضح المسلمون ، وظهر إفلاسهم في الروحِ والقوة المعنوية ، من ذلك الحين أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظَ عليهم ، وتذود عنهم المكروه ، وتدفع عنهم غارات الأمم ، فإن الصورة لا تقومُ إلا على الجهل والغرور ، فإذا انكشف الغطاء وزاح الستار ، تبين الصبحُ لذي عينين.

وإنَّ ما نرى ونقرأ في تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم في ميادين القتال ، إن كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لا غير ، وقد فضحت الصورة في كل معركة وحرب ومقاومة واصطدام ، ولكن الذنب علينا ، حملنا الحقيقة على ظهر الصورة ، فلم تستطعْ حمله ولم تمسكه ، وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا ، وكذبت أمانينا ، وخذلتنا في الميدان.

تكرر الصراعُ بين صورة الإسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفي كل مرة تنخذل وتنهزم الصورة ، ويعتقد الناس أنه هزيمة الإسلام وخذلانه ، وبذلك هان الإسلامُ في عيون الناس. زالت مهابتُه عن القلوب ، ولا يدري الناس أنَّ حقيقةَ الإسلام لم تتقدم إلى ساحة الحرب منذ زمن طويل ، ولم تتنازل أممَ العالم ، وإن الذي يبرز في الميدان هو صورة الإسلام لا حقيقته ، وخليق بالصورة أن تنهزم ، وتضمحل أمام الواقع والأمر الجدّ.

هاجمت بعضُ الدول الأوربية في الحرب الأولى تركيا الإسلامية ، تركيا التي أرعبت أوربا كلها ، وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا في هذه المرة حاملةً لصورة شاحبة للإسلام ، وقد فقدت شيئاً من حقيقة الإيمان ، ففشلت في المقاومة ، وفقدت كثيراً من ممتلكاتها.

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية في فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية عليلة الروح ، وقد أطفأت المادية الأوربية جمرةَ القلوب ،

وشعلة الجهاد في سبيل الله ، وحببت إليها الحياة واللذات ، ثم إنها تتخلف تخلفاً كبيراً في المعدات الحربية ، والتنظيمات العصرية ، فكانت الحربُ بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعاً بين صورة الإسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ، فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كلِّ صراع بين الصورة والقوة.

إنَّ الصورة لها منزلةٌ ومكانة عند الله تعالى ، لأنه قد عاشت فيها الحقيقة قروناً طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه ، وكذلك نعرف لها الفضل؛ لأن الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإيمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الإيمان والإسلام ، فلنحافظ على هذه الصورة ، ولنتمسك بها ، ولكن لا ينبغي أن نقنَع بها ، ونستهين بالحقيقة والروح.

يا أبناء الإسلام ، إنَّ وَعْدَ الله من النصرة والفتح في الدنيا ، والنجاة والغفران في الآخرة. كلُّ ذلك محصورٌ في حقيقة الإسلام ، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٩] لاشك فإن الخطاب في هذه الآية للمسلمين ، ومع ذلك اشترط لإيمان العزة في الأرض والعلو والشوكة ، وقال في موضع آخر: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر: ٥١] وقال أيضاً: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] ورغم أنَّ جميعَ تلك الوعود كانت على أساس الإيمان والأعمال الصالحة ، اشترط أن يكون في المسلمين حقيقة الإيمان والتوحيد.

إن أكبر مهمة دينية في هذا العصر ، وأعظم خدمة ، وأجلّها للأمة الإسلامية ، هي دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام ، فلمثل هذا فليعمل العاملون ،

ويبذلوا جهودهم ومساعيهم في بث روح الإسلام في جسم العالم الإسلامي ، ولا يدخروا في ذلك وسعاً ، فبذلك يتحول شأنُ هذه الأمة ، وفي نتيجته شأن العالم بأسره ، فإنَّ شأنَ العالم تبعٌ لشأن هذه الأمة ، وشأن الأمة تبعٌ لحقيقة الإسلام ، فإذا زالت حقيقةُ الإسلام من الأمة المسلمة ، فمن يدعو العالم إلى حقيقة الإسلام ، ومن ينفخ فيه الروح؟ قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه : «أنتم ملح الأرض ، فإذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام؟ !» .

وقد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح ؛ لأن السوادَ الأعظم للأمة مجرد عن الروح ، فارغ عن الحقيقة ، فكيف تعود الروحُ والحقيقة في الحياة الإنسانية مرة أخرى؟ !

إن في هذا العالم أمماً لا تزال فارغةً عن الحقيقة والروح منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولم يَبْقَ فيها إلا عدة معتقدات مرسومة ، وبضع صور حقيرة مجردة عن الروح ، وانتهت حياتنا الدينية والروحية الحقيقية ، حتى إن إنشاء أمة بأسرها أيسر من إصلاح هذه الأمم ، وتجديد حياتها الدينية والخلقية ، والذين نهضوا لإصلاحها ، وبذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل ، قد أخفقوا ولم يفلحوا في مهمتهم ، رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التي حدثت في هذا العهد من الطبع والنشر ، والتأليف والإذاعة ، والتعليم والتربية ، وطرق الدعاية والتأثير ؛ وذلك لأن عروة دينها قد انفصمت انفصاماً تاماً ، وانقطعت علاقتُها عن منبع الحياة الدينية ، والخُلُقية ، والروحية .

أما الأمة الإسلامية فلا تزال ـ على علاَّتها وضعفها ـ مستمسكة استمساكاً ما بعروة الدين ، وهي الإيمان بالله والرسول ، واليقين بالدار الآخرة والحساب ، لم تتركها البتة ، ولم تنقطعْ عنها انقطاع الأمم الأخرى ، بل إن إيمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزري بإيمان كثيرٍ من خواصِّ الأمم الأخرى ، وعليتهم ، ويفوقه متانة ورسوخاً وحماسة ، ثم إن كتابها لا يزال في يدها لم يتناوله التحريف ، ولم يعبثْ به العابثون ، كما

فعلوا بالصحف الأولى ، ولا تزال سيرةُ الرسول وأسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة إلى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الإيمان سريعة الاتقاد ، والشقّة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة إلى تجديد الإيمان ، والرجوع إلى الدين ، والتتبع لروحه ، والتحلي بحقيقته.

لستُ قانطاً من ظهور حقيقة الإسلام في هذا العصر ، ولا نصدق ما يقال بأن الزمن قد تغير ، والمسلمين قد ابتعدوا جداً عن روح الإسلام ، فلا أمل في حقيقة الإسلام وغلبتها من جديد ، انظروا إلى ورائكم ترون جزر حقيقة الإسلام قائمة منتشرة في فجر التاريخ ، وإن الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت ، وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الإسلام وتجلت في ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، أو عصر من عصور التاريخ الإسلامي ، غلبت وانتصرت ، وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم. وكادت الأحوال والأمور أن تعود إلى ما كانت عليه في الماضي السعيد ، وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول.

وإن حقيقة الإسلام في هذا العصر إذا ظهرت وتمثلت في جماعة ، تستطيع أن تذلل كل عقبة ، وتهزم كل قوة ، وتأتي بعجائب وآيات من الإيمان والشجاعة والإيثار ، يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل عن تعليل حوادث الفتح الإسلامي ، وأخبار القرن الأول .

* * *

الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في حفل تكريمه الّذي عقده اللواء محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين في مصر في ٤/ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ (١٣ ـ ٣ ـ ١٩٥١م) بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.

وأحب العلامة الندوي أن يتحدث في هذه المناسبة الكريمة عن الدعوة الإسلامية في الهند وأدوارها وأطوارها ، واعتبر هذا الحديث القيم هدية من بلاده لقادة الفكر والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي.

تأسست الدولةُ الإسلامية في الهند في القرن الخامس الهجري ، واحتضنت العلم والدين ، وقصدها العلماء والأشراف من أقصى العالم الإسلامي ، وأوى إليها كل من نبا به بلده ، أو ضاقت عليه أرضه ، واجتمع فيها آلاف من أهل الدين والعلم نزحوا من بلادهم في فتنة التتار ، وقصدها أهلُ الهمم العالية والنفوس الكبيرة من المجاهدين والدعاة ، بإشارات غيبية ومبشرات صادقة ، أو برغبة في الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية ، فنشطوا في الجهاد والدعوة ، وانتشر الإسلامُ بسرعة غريبة بتأثير أخلاقهم الطيبة وشخصيتهم القوية ، وقد أسلم مئاتُ آلاف من الوثنيين على يد الشيخ معين الدين الجشتي (م ٦٢٧هـ) في أجمير ، وما جاورها من البلدان ، وأسلم آلاف في بنجاب على يد الشيخ إسماعيل اللاهوري (م ٧٤٨هـ) والشيخ فريد الدين الأجودهني (م ٦٦٤هـ) وأسلمت كشمير كلها على يد السيد علي بن الشهاب الهمداني (م ٧٨٦هـ) .

الدولة الروحية بجوار الدولة المادية :

ولما أصاب الدولة الإسلامية ما أصاب شقيقاتها في الشرق كله من الترف والبذخ ، وأصبحت لا تمثّل من نواحي الحياة الإسلامية وواجبات الحكومة الإسلامية إلاّ الناحية المادية ، ولا تهتم إلاّ بجباية الأموال وتعيين العمال ، وارتفعت الحسبة ، وركبت الحكومات رأسها ، وطغت المادة ، أسَّس رجالُ الدين دولاً مستقلة في جنب هذه الحكومات ، كانت أعظم سلطاناً ، وأعمق نفوذاً من هذه الحكومات ، واستقلت هذه الدولُ الروحية بالناحية الروحية والخلقية ، وكان القائمون على هذه الدول يحكمون القلوب والأرواح ، وكثيراً ما شُوهد أن الملك كان يحكمُ على البلاد كلها ، ويحكم عليه وعلى بلاطه وأزواجه وأولاده وبطانته رجلٌ من الصالحين ، قد لا يجد قوت يومه ، وقد يكون دوابّ هذا الملك أشبع وأنعم عيشاً منه .

وقد شُوهِد في بعض الليالي المظلمة أن السلطان شمس الدين الأيلتمس

(م ٦٣٣هـ) الذي دانتْ له البلادُ كلها ، وخضع له ملوكُ الهند عن آخرهم يستفتح باب الشيخ قطب الدين يختار الكعكي لعله نام على طوى ، ويسلِّم عليه تسليم مملوك على ملك ، ثم لا يزال يغمز رجله ، ويكبس بدنه ، ويذرف الدموع على قدميه حتى يسليه الشيخ، ويُبشِّره ، ويأمره بالانصراف.

وقد طلب علاء الدين محمد شاه الخلجي ، وهو من أعظم ملوك زمانه من الشيخ نظام الدين الدهلوي (م ٧٢٥هـ) أن يأذنَ له بالحضور فأبى ، وكان مع ذلك تأثيره في المجتمع الهندي الإسلامي ، وفي رجال الحكومة وحاشية الملك ، وهم القدوة في البلد عميقاً وواسعاً ، وقد أصبح الدينُ شعارَ الناس؛ الذين لهم اتصالٌ بالشيخ ، وعمرت المساجد ، وقلّت المنكرات ، وفشت الأمانة والصدق والنصح في التجار ، وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصي والذنوب ، وازدحم المبايعون على بابه ، إلى غير ذلك مما حكاه المؤرخ البرني في تاريخه ، وكان له ولخليفته الشيخ نصير الدين محمود الأودهي نوع إشراف ديني ـ على اعتزالهما عن الدولة ـ على الحكومة الإسلامية ، وكان اختيارُ الملك الصالح فيروز تغلق ، وهو من أفضل ملوك الهند ، وأرشدهم للملك ، ومبايعة الناس بتوجيه الشيخ ، وترشيحه ، وكان قد وعده بالدعاء له لطول الحكم والتوفيق إذا قام بالعدل ونصر الإسلام ، وكان عهده من أزهر العهود الإسلامية ، وأنضرها في الهند.

صلة الملوك بالشيوخ وإجلالهم لهم:

وكان الملوك يعتزّون بدعاء هؤلاء الفقراء ، ويتفاءلون بكل ما ينطقون به ، فما حكاه المؤرخُ الهندي محمد قاسم صاحب (تاريخ فرشنة) أن السلطان إسكندر بن بهلول اللودهي (م ٩٢٣) كان في ناحية بعيدة عن دهلي ، فلما أخبر بوفاة أبيه ، وأنه بويع بالإمارة قصد شيخاً صالحاً في ذلك البلد لم يعلم عن الحادث شيئاً ، وطلب منه أن يقرأ عليه العلم ، ورضي الشيخ بذلك ، وجاء الملكُ بكتاب «الميزان» وهو أول كتاب يدرس في علم الصرف ، وأوله: «اعلم أسعدك الله في الدارين أن الكلمة ثلاثة أقسام»

وطلب من الشيخ أن يقرأ فيتبرك بذلك. فقرأ الشيخ «اعلم أسعدك الله في الدارين» وما عنده فكرة عن غرضه، فاستعاده الملك ثلاثَ مرات، والشيخ يردِّد قول المصنف: «اعلم أسعدك الله في الدارين». وبعد ذلك أطبق الملك الكتابَ، وقال: لقد نلتُ بغيتي، فما كان قصدي التعلم، وقد تعلمتُ ما فيه كفاية، وإنما أردتُ أن يدعوَ لي الشيخ بالسعادة في الدارين، وقد كان ذلك، فحسبي من هذا الدرس هذا الدعاء الذي أثق بأنه مُستجاب إن شاء الله. وقد كان هذا فعلاً.

والحديث بالحديث يُذكر فقد كان هذا الملك من أعظم سلاطين الهند، وقد كان عهده من أزهر العهود الإسلامية، ملكاً وديناً وعلماً، وأيمنها، ومما يستدل به على سعادته ورشده وسلامة قلبه وصلاحه؛ أنه لما سار إلى جونبور لإخماد الفتنة التي أحدثها أحدُ ملوك المسلمين، دعا له بعضُ العلماء بالنصر والفتح، فتغير لونه، وظهرت الكراهةُ في وجهه، فَسُئِل عن ذلك، فقال: إذا كان الفريقان من المسلمين فلا محلَّ للدعاء لفريق بالنصر والظفر، فإن ذلك يستلزمُ انكسار الفريق الثاني ووقوع المقتلة فيه، وذلك مما يجبُ أن يحزنَ له المسلم، ويمتعض منه، بل يجدر في ذلك المحل أن يُدعى بالصلح والاتفاق، ومما يعرف به مقدار حفاوة الملوك بالعلماء والصالحين، وإيثارهم على أنفسهم؛ أن الشيخ شهاب الدين الدولة آبادي صاحب تفسير (البحر المواج) لما مرض، واشتد به الوجع في جونفور قاعدة البلاد الشرقية، عاده السلطان إبراهيم الشرقي (م ٨٤٠هـ) ودعا عند رأسه أن يكون فداءً له فيموت، ويعيش الشيخ زمناً طويلاً؛ لأنه جمال وبركة زمانه.

سرّ خضوع الملوك للشيوخ والدعاة وسيرتهم:

وهكذا كان رجالُ الدين وعباد الله الذين تجردوا عن الشهوات وطلب الجاه والمال، وزهدوا فيما عند الملوك، فخضع لهم الملوك، وأتوهم صاغرين، ورفضوا الدنيا، فجاءت راغمةً تخدمهم، وكان هؤلاء الشيوخ يقومون على الدولة الروحية وإدارتها بنشاط وتيقظ؛ أعظم من نشاط

الملوك ، وسهرهم على مصالح بلادهم وإدارتها ، وقد كان الواحد منهم يشرف على الحياة الدينية والحياة الخلقية في طول الهند وعرضها ، ويرسل الدعاة ، وينصب المعلمين والمصلحين ، ويملأ الثغور ، ويضبط الأطراف ، ويراقب سير الحكومة ، ويكافح المادية الطاغية ، ويقاوم التيارات الجارفة .

فتنة أكبر ، والخطر الأكبر على الإسلام في الهند :

استمر الحالُ إلى فجر القرن الحادي عشر الهجري ، وقد تولى عرشَ المملكة الإسلامية الهندية السلطانُ جلال الدين أكبر ، وهو ملك أمي لم يقرأ ولم يكتب ، وقد ولد ونشأ وأبوه همايون بن بابر في حالة الفرّ من مكان إلى مكان ، يطارده منافسه في الملك شيرشاه السوري ، فنشأ الولد ـ وارث الدولة التيمورية العظمى ـ مهملاً لم يتلق شيئاً من العلم والتربية ، ورزق عقلاً كبيراً وهمة وثابة ، وجلس على عرش أبيه ، وهو شاب في مقتبل العمر ، وعنده رغبة جامحة في الدراسة والبحث ، فجمع حوله عدداً كبيراً من العلماء ، والتف حوله علماء الدنيا بطبيعة الحال ، وكان مُولَعاً بمطارحة العلماء ومناظرتهم ، وطمع العلماء في رفد الملك وصلاته ، وتنافسوا في إرضائه وسروره ، كلٌّ يريد أن يستأثرَ به الملك ، ويحلّه في نفسه المحلَّ الأرفع ، ويطلق يديه في المملكة والأموال ، ولم يكن عندهم شيء يثبتون به براعتهم وتفوقهم إلاّ هذا العلم الذي يحملونه ، والدين الذي يدينون به ، فأجروا خيلهم في هذا الرهان ، ووضعوا علمهم في الميدان ، وتناقروا كالديكة ، هذا يغزل وذلك ينقض ، وهذا يثبت وذلك يردّ ، والملك يستمع وينصت إلى مناظراتهم الدينية ومباحثاتهم العلمية ، وهو أمي لا يستطيعُ أن يحكم ويستقل بفكرته ، فنشأت عنده الشكوكُ ، وتزعزعت العقيدة ، واضطرب في الحقائق الدينية اضطراباً عظيماً ، وأصبح يشكُّ في الحقائق الدينية ، ثم رأى من أخلاق العلماء ، وممثلي الدين ، وحبهم للجاه ، ونهامتهم للمال ، وتحاسدهم وتباغضهم ما أساء ظنه بالعلماء أولاً وبهذا الدين الذي يمثلونه ثانياً ، فهذا رئيسُ القضاة يموت فيخرج من بيته لبنات من ذهب كان قد اكتنزها ، وهذا المحدّث كان يكيد لمنافسه ويدبر مؤامرة

عليه ليسقطه ويهينه ، إلى غير ذلك ، وكان الملك مرهف الحس ، قوي العاطفة ، سريع الحكم ، فحكم على هذه الجماعة بالفساد ، وأقصاها ، وأقصى معهم الدين.

بطانة سوء من العلماء:

ثم زاد الطين بلّة أن حظي عنده أخوان من أسرة علمية كبيرة ، ومن كبار أذكياء العصر ، ونوابغ الوقت ، وهما أبو الفضل المؤرخ الأديب صاحب (آيين أكبري) وأبو الفيض فيضي من كبار شعراء الفارسية ، ومن المتضلعين في العلوم العربية ، صاحب (سواطع الإلهام) التفسير غير المنقوط في اللغة العربية ، وكانا غريبي الأطوار ، فيهما شذوذ علمي ، وقد لقيا من علماء عصرهما من الازدراء ، وعدم الاحتفال ، ومن المجتمع من الانصراف والإعراض ، ما أثار فيهما روح الانتقام والغضب ، وحلاًّ من نفس الملك محلاًّ لم يحلّه أحدٌ بذكائهما الباهر ، وشعرهما الرقيق ، وأدبهما الرفيع ، ودراستهما الواسعة ، وكان أبو الفيض أقربهما إلى الملك ، وألصق الناس به ، فسوَّل للملك الدعوى بالاجتهاد المطلق ، وأنه صاحب دورة جديدة ، وأن عصر نبوءة محمد ﷺ قد انتهى على هذا الألف ، وبدأ عهد إمامة السلطان أكبر ، فأعلن نسخ نبوة محمد ﷺ وانتهاءها ، وفاتحة عصر جديد للسلطان ، فيه الكلمة النافذة ، والأمر المطاع.

معاداة الإسلام:

ثم ظهرت له فكرةُ التقريب بين الأديان ليتفادى الخلافَ بين الديانات ، وتجتمع الهند كلها تحت لواء واحد ، وعلى دين واحد ، فلفَّق الديانات ، وابتكر مزيجاً غريباً من الطقوس والعبادات والشعائر الدينية المختلفة ، فكان يتعبد على طريق براهمة الهند ، ويتقلد الخيط علامة لهم ، ويولي وجهه إلى الشمس ، ويرطن بكلمات تقديس لها ، ولم يزل ـ بتأثير محيطه ـ يبتعدُ من الدين الإسلامي ، ويقرب ، ويمتزج بالبراهمة خاصة حتى نشأ عنده شبهُ عنادٍ للدين الإسلامي ، وبغض له ، ولشارعه. فكان يسوءُه أن يسمي أحدٌ في بلاطه ابنه محمداً ، وحرم ذَبْح البقرة في طول الهند

وعرضها ، وأباح الخمر والخنزير ، وأصبح الإسلامُ غريباً مطارداً في بلاد استمرت فيها الحكومة الإسلامية خمسة قرون في عهد رجل يتسمَّى بالإسلام ، وينحدر من سلالة مسلمة ، لها غَيْرة على الإسلام ، وهكذا اتجهت الهندُ كلها إلى الإباحية والكفر ، وكادت جهودُ القرون المتطاولة ، ودماء النفوس البريئة تضيع وتذهب سُدى .

حاجة التجديد إلى عبقري :

كان خطبُ الهند والإسلام أعظم من أن يقومَ له الأقزامُ من رجال الدين والمنتسبين إلى العلم ، فليستِ المسألةُ مسألة أفراد وجماعات ، أو مسألةِ بدع وخرافات ، إنما هي مسألةُ انحراف دولة من أعظم دول الأرض ، على رأسها رجل من أكبر ملوك العصر ، وحوله رجالٌ من أعلم رجال الوقت ومن أذكاهم ، إنها خطة مدبرة ، ومؤامرة محكمة على الإسلام ، يبيتها أقوى الناس وأقدرهم .

إن الانقلابَ الديني كان يطلبُ رجلاً عملاقاً في العلم والشخصية ، وفي العقل والمواهب ، إنه كان يحتاجُ إلى عبقري عظيم ، ومجدد كبير ، يتجرد لمقاومة هذا التيار العنيف الجارف ، فيحوله من جهة إلى جهة ، ويغير مجرى التاريخ .

الإمام أحمد السرهندي :

إن لله في دينه شؤوناً ، ومن شؤونه أن يخلقَ لكلِّ عصر ، رجلاً من رجال الإسلام ، ولكل غرض سهماً من السهام التي لا تطيش ، فإنَّ الله قد تكفَّل بحفظ هذا الدين القويم ، والذكر الحكيم ، لقد وجد هذا المصلحُ في شخص رجل يقال له (الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي) تخرج في علوم عصره ، كما تخرج أكبر عالم ، وبرع فيها ، وجمع إلى كفايته العلمية ، ودراسته المتقنة ، تربية الروح ، وتهذيب النفس ، والإخلاص لله ، ودوام الذكر ، وحضور القلب ، تخرج في ذلك على شيخٍ كبير من شيوخ الطريقة النقشبندية الشيخ عبد الباقي البدخشي ، نزيلِ دهلي ، واستعان به أبو الفيض (الفيضي) فيما التوى في كتاب (سواطع الإلهام) فرأى عنده

القريحة الوقادة ، والعلم الحاضر ، وعرضت عليه المناصب في الدولة فرفضها؛ لأنه لم يُخلق ليشارك في إدارة هذه الدولة الجائرة ، إنما خُلِق ليقوِّمها ، أو يكسرها ـ إذا لم يستطع أن يقوِّمها ـ وينشىء منها دولة إسلامية جديدة.

رأى الشيخُ أحمد اتجاهَ الدولة ومعاداتها للدين ، ومحاولة القضاء على الإسلام في هذه البلاد ، فاهتزت مشاعره ، وتكدر صفو حياته ، وطار نومه ، وملكت هذه الفكرةُ عليه شعوره وعقله ، وأصبح لا يفكر إلاَّ في إصلاح الحال ، والرجوع بالدولة إلى وضعها الإسلامي ، والمحافظة على مستقبل الإسلام في هذا القطر العظيم.

الخطر في الثورة العسكرية:

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، ولا أمل في إنجاح الثورة ، فهو رجلٌ فريد وحيد ، لا يملك إلاَّ قلبه وقلمه ، ولا أمل في الانقلاب العسكري فالدولةُ شابة فتية ، لم يصبها شيء من الهرم والضعف ، بل قد توسَّعت ، وتوطدت ، فأصبحت إمبراطورية عظيمة ، وهي الإمبراطورية الثانية التي عرفتها الهند بعد إمبراطورية أشوكا ، وقد كسب الإمبراطور أكبر ودّ أمراء الهند ، وإقبالها بتزوجه فيهم ، وتقريبهم إلى نفسه ، فأصبحت دولة راسخة ، مشيدة البنيان ، موطدة الأركان ، لها وزراء من كبار راجبوت ، وجيش قوي من أقوى جيوش العالم ، وأحسنها تدريباً ، ونظاماً ، ومالية عظيمة ، فكيف يقاوم هذه الدولة المنظمة وكيف يؤدِّي رسالته ، ويقوم بمهمته؟ إنها لمهمةٌ تنوءُ بالعصبة أولي القوة ، فكيف بفردٍ فقير يسكن في قرية؟!

من أين يبدأ الإصلاح؟

ولكن الشيخ أحمد صمَّم على أداء رسالته ، واهتدى في تفكيره المخلص المجهد إلى نقطة مهمة ، وهي نقطة الفتح ، إن الملك قد أفسده المفسدون ، فثار على الدين ، وانحرف عن الجادة ، ولكن ليس هو الدولة كلها ، وليس هو الشعب كله ، وقد كتب عليه الموت ، وهو خاضعٌ للسنن

الإلهية ، فيموت ويخلفه غيره ، فلا بد أن أؤدي رسالتي ، وأتصل ببلاطه ، وأركان دولته ، ولا موجبَ للقنوط من الفطرة الإنسانية ، فالصلاحُ فيها أصيل ، والفساد عليها طارىء ، فلأجرِّب ولأحاول ، وإن الله ناصر من نصره ، وخاذل من خذله.

الأسلوب الحكيم:

جرد الشيخُ أولاً نفسه وفكره من كلِّ أمل وطمع فيما عند هؤلاء من مال ونشب وعزّ وجاه ، وركَّز فكره على الإصلاح والنصيحة ، حتى رأى أنَّ ما عندهم من دنيا لا يساوي في نفسه إلّا جيفة عليها كلاب ، ثم اتصل برجال البلاط الملكي وأركان الدولة ، وتعرَّفَ إليهم ، فإذا هم يجلّونه ، ويحلُّونه من نفوسهم محلاًّ لا يحلُّونه المتملقين والمتزلفين ، ويعرفون أن هذا الرجلَ من طراز آخر غير الطراز الذي جربوه ، إن هذا رجلٌ قد تمرد على المادة ، وتمرد على المجتمع ، وخرج من سلطان المطامع والشهوات ، ورأوا فيه من قوة النفس والحرية ومعاني الإنسانية السامية ما لم يروه في نفوسهم ، ورأوا أنفسَهم أقزاماً ، لا يتطاولون إلى إنسانيته الرفيعة ، ورجولته الشامخة ، فخضعوا له كما يخضعُ كلُّ صغير للكبير ، وكل فقير للغني ، وتضاءلوا أمامه كما تتضاءل الكثبان والربى أمام الطود الشامخ ، والجبل الناطح للسحاب.

وهنا يقعُ بالسلطان أكبر حادث الموت ، ويخلفه ابنه جهان كير ، وهو يحمل للشيخ من التقدير ما لم يكن يحمله هو ، ولكن بلاطه لا يخلو ممن يضمرُ للشيخ العداء ويحسده ، فدبَّروا له المكيدة ، زينوا للملك أن يطلبه ويمتحنه ، وحضر الشيخُ فعلاً ، وكان من العادات المتبعة أن كلَّ من يدخل على الملك يسجد له تحية ، فامتنع الشيخُ وحيَّاه بتحية الإسلام ، فثار ثائرُ الملك ، وسجنه في معتقل كواليار ، ولبث في السجن بضع سنين ، يشتغلُ بالعبادة ، ويدعو المسجونين إلى الإسلام ، فأسلم على يده ـ كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية ـ مئات من المسجونين.

ثم ظهرت للملك براءةُ الشيخ ، وعلوّ منزلته ، فأطلقه ، ودعاه ، وأكرم

مثواه ، وقضى الشيخُ شهرَ رمضان عند الملك ، والملك يصلي خلفه التراويح ، ويذاكره ، ويفيد منه في الدين ، حتى رسختْ في قلبه محبته ، وعلتْ في عينه منزلته ، فردَّ الشيخَ إلى وطنه مكرَّماً مبجَّلاً .

التأثير في بلاط الملك ورجال دولته :

ونشط الشيخُ في التأثير في بلاط الملك ، ورجال دولته ، وجيشه ، وراسلهم وراسلوه ، وبايعه منهم كثير ، وأحبه أكثر ، وتأكدت الصداقةُ بينهم ، فكان الشيخُ يكتب إليهم رسائل رقيقة مرققة ، تأخذ بمجامع القلوب ، وتهز النفوس ، وهي من أبلغ الرسائل ، وأعظمها تأثيراً في القلوب ، يصوِّر لهم غرابة الإسلام في بلاده فيبكي ويُبكي ، يقول في رسالة : «واحزناه ، واحسرتاه ، وامصيبتاه ، إن أتباع محمد ﷺ ـ وهو محبوبُ ربِّ العالمين ـ غرباء ، مهانون في بلادهم ، وأعداؤه مكرمون ، إن الباطلَ بارزٌ منصور ، وإن الحق مخذول مستور» .

ويقول في رسالة : «لقد أتى على الإنسان والمسلمين حينٌ من الدهر في هذه الديار ـ يعني به عهد الملك أكبر ـ إذا عمل مسلم بحكم شرعي يسجن ، ويعاقب ، ويهان ، ويعذّب ، والديانات كلها حرة متمتعة بكل حق ، لقد شمت بالمسلمين الأعداء ، وسخروا منهم ، وأصبحوا هدفاً لكل تجريح وإهانة» .

ويستثير هممَ رجال الدولة المسلمين ، ويستنهضهم لخدمة الإسلام ، وإقالته من عثاره ، فيكتب إلى خانخانان ـ وهو قائدُ قواد الجيش ، والركن الأعظم للدولة ـ : «إن ميدان البطولة الإسلامية لا يزال خالياً ينتظر فارساً من فرسان الإسلام ، فهل تسبقُ إلى هذه السعادة ، وتحرز قصب السبق ، وتنصر هذا الدين المظلوم ، وتغضبُ لهذا الحق المهضوم ، وتبلغ بجهادك إلى حيث لا يبلغه المتعبدون الصائمون ، فحيهلا يا أهل الغيرة والفتوة ، ويا أهل الشهامة والمروءة» .

وهكذا يكتبُ إلى خان أعظم أكبر الأمراء في عهد جهانكير ، والسيد فريد أحد الوزراء والمستشارين في الدولة ، وقد نفذ بروحانيته في قلوبهم ،

وسيطر على عقولهم ، حتى كان يملي عليهم الأحكام كما يملي ملك البلاد ، فيمتثلون أمره ، وينفذون رغباته ، ويوجِّه الدولة وهو قاعدٌ في زاويته بسرهند توجيهاً دينياً بواسطة تلاميذه الروحيين ، وخدمه المخلصين ؛ الذين يديرون دفَّة الحكومة .

سمع مرة أن الملك جهانكير يفكر في أن يجمعَ حوله جماعةً من كبار العلماء الذين يشيرون عليه في أمر الدولة ، واستعان بوزارته أن يختاروا له هؤلاء العلماء ، فحذَّرهم الشيخُ من سوء العاقبة والوقوع فيما وقع فيه الملك أكبر ، وتورطت بسببه الدولة الإسلامية في الإلحاد والكفر . فقال : إياكم أن تجمعوا حول الملك علماءَ السوء المتنافسين ، ورجال المادة الطامعين ، وقطاع الطريق ، ولصوص الدين ، فيفسدون فكرةَ الملك ، ويضرون الدِّين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، ولكن اختاروا له صفوةً من العلماء الذين تجردوا عن حب المال والجاه ، وأخلصوا لدينهم ، أو اختاروا له رجلاً واحداً ممن يتقي الله ، ويخشاه من الراسخين في العلم[١] .

يتغير اتجاه الدولة ، وترجع الهند إلى الإسلام :

وظل الشيخُ مثابراً على دعوته إلى وفاته (سنة ١٠٣٤هـ) حتى تغير اتجاه الدولة ، وتغيرت سيرة الملك ونفسيته ، وأصبحت الدولة تتقدَّم كل يوم من حسن إلى أحسن ، فخلف جهان كير ابنه شاهجهان وكان له في الشيخ رأي جميل ، ومعه صلات طيبة . هذا هو الملكُ الذي لما جلس على عرش الطاووس الذي كلفه ملايين من الجنيهات ، وكان تحفة فنية ، نزل عنه ، وخرَّ لله ساجداً ، وقال : عجباً لفرعون جلس على عرش من الآبنوس ، فقال : أنا ربكم الأعلى ، وها أنا ذا أسجد لله شكراً ، وأقع له ساجداً ، مقراً بعبوديتي وضعفي ، وقدرته وكبريائه ، وبذلك تستدلون أيها السادة على تغيُّر النفسية ، وتطور الدولة .

---

(١) اقرأ كتاب العلامة الندوي للاطلاع على حياة الإمام السرهندي الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع في دار ابن كثير بدمشق .

السلطان أورنك زيب من غرس الإمام السرهندي:

وخلف شاه جهان السلطان العظيم الملك الصالح أورنك زيب عالم كير، وهو ممن عني أولاد المجدد بتربيته وثقافته، فنشأ متعبداً متبعاً للشريعة، فقيهاً في الدين، غيوراً عليه، حريصاً على تطبيق أحكامه، وإصلاح المجتمع الفاسد، وتقويم الحكومة الزائغة، وكان الشيخ محمد معصوم ابن الشيخ أحمد السرهندي، وخليفته، مهتماً بتربيته ومستقبله، يخاطبه في رسائله «بناصر الدين، ومعقل الشريعة» وقد طلب منه الأميرُ الشاب أن يرسلَ له من يربيه التربية الروحية، فأرسل إليه ابنه الشيخ سيف الدين السرهندي يعلمه ويفقهه في الدين؛ حتى ظهرت فيه آثارُ الصلاح، وبشّر به الشيخ سيف الدين والده الشيخ محمد معصوم، وأزال من قصره المنكرات.

مآثر أورنك زيب الإسلامية:

وأراد الله بالمسلمين في الهند خيراً؛ إذ كان أورنك زيب خليفة أبيه شاه جهان في الإمبراطورية المغولية، فانتصر به الدينُ، وعزّ المسلمون، وهان الكفر، وزالت المنكرات، وبطلت المكوس الجائرة، ووضعت الجزية على غير المسلمين.

ويذكر المؤرخون من استقامة أورنك زيب على الشريعة الإسلامية، ومن عبادته، وصلاحه، ما يدهش رجالَ هذا العصر، فقد حفظ القرآن بعد جلوسه على العرش، وجمع أربعين حديثاً وشرحها، وأمر بتدوين الفتاوى لتكون دستوراً للمملكة، وألف له لجنة كبيرة من العلماء، وكان يشرف على هذه اللجنة، ويطلع على عملها يومياً، ويقرأ قبل النوم كلَّ ما كتب في هذا الموضوع؛ وهي الفتاوى المشهورة (بالفتاوى الهندية) ويواظب على الجمع والجماعات، ويلتزم صلاة الجمعة في جامع دهلي وإن كان بعيداً عنه، ويصومُ ثلاثة أيام في الأسبوع، ويحيي ليالي رمضان بالتراويح، ويخرج زكاة ماله، وكان شديدَ الإنكار على المنكر، شديد المحاربة للبدع والغناء والمزامير، وكان مع هذا التدين أكبر الملوك الذين

عرفتهم الهند ، وأوسعهم ملكاً ، وأعظمهم سلطاناً ، وأقدرهم على الإدارة ، وأعلمهم بالسياسة ، وقد انقلبت به الحكومةُ المغولية من دولة ثائرة على الدين ثم دولة منحلة ، إلى دولة متمسكة بالدين ، محافظة عليه.

نجاح الإمام السرهندي في مهمته وأهدافه:

وهكذا استطاع رجلٌ وحيد بقوة إرادته ، وصدق عزيمته ، وإيمانه القوي ، ومعرفته بقيمة نفسه ، واحتفاظه بقوته ، وإبائه من أن ينفقها فيما لم تخلق له ، وما لا يعود على الإسلام بطائل ، وتجرده للدعوة ، وتركيز جهوده كلها على إنهاض الإسلام من كبوته في هذه الديار.

لقد استطاع هذا الرجلُ بهذا التوفيق؛ أن يحدث انقلاباً في الحكومة واتجاهها ، واستطاع أن يقضي على عقيدة وحدة الوجود التي تغلغلت في أحشاء التصوف ، والأدب والشعر ، وعلى فكرة استقلال الطرق عن الشريعة ، وعلى كثيرٍ من العقائد والأفكار والعادات؛ التي تسربت إلى المسلمين من الجاهليات المختلفة.

ضعف الحكم الإسلامي في الهند:

ثم توالى على عرش الدولة التيمورية بعد أورنك زيب ملوك ضعاف ، من طراز الخلفاء العباسيين في بغداد في العهد الأخير ، لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ينصبون ويعزلون كالأطمار البالية ، واضطرب حبلُ الدولة ، وكثرت الفتنُ والمصائب ، وهكذا لم تعد الدولةُ مركزَ الحياة ، ولم يبق لها السلطان والقدرة على توجيه البلاد ، حيث إذا صلح الملك صلحت الدولة ، وصلحت البلاد كلها ، فليس مركز الملك الجالس على عرش دهلي مركز القلب في الجسم إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، إنما هو صورةٌ لا تنفع ولا تضر ، إذاً فلا بدَّ من العناية بالشعب مباشرة بدل الحكومة ، والعناية بإصلاحه ، وتربيته ، وتثقيفه الإسلامي.

الإمام ولي الله الدهلوي :

هنا قام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[١] (م ١١٧٦هـ) المشهور بالشيخ ولي الله ، وهو أحدُ حكماء الإسلام ، ونوابغه ، وكبار المفكرين الإسلاميين ، من طراز الإمام الغزالي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، فلاحظ خمسَ نقط في حياة الشعب الهندي .

خطته في الإصلاح :

١ ـ إن كثيراً من المسلمين قصروا في فهم (التوحيد الإسلامي) وأحاطت بعقيدتهم غيوم من الجهالات ، والظنون الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، فلا بُدَّ من إبراز هذا (التوحيد) في نقائه ووضوحه ، وشرح ما كان عليه أهلُ الجاهلية من اعتقاد في الله ؛ حتى يظهر الفرق بين عقيدتهم وبين ما جاء به الإسلام .

٢ ـ الشعب ليس له اتصال مباشر بالكتاب والسنة ، وقد حال العلماءُ بينه وبين دراسة القرآن ، وفهمه ؛ بعلَّة تعذر فهمه للعامة ، وخوف انحلال سلطتهم الروحية ، وسيادتهم العلمية ، فلم يترجموا ألفاظ القرآن إلى لغة البلاد ، ولم ينشروا كتبَ الحديث ، فلا بُدَّ إذاً من نقل معاني القرآن وأحكامه إلى لغة البلاد ، والإقبال على كتب السنة وحديث رسول الله ﷺ .

٣ ـ ثقافة علماء الهند ضعيفة ضئيلة في العلوم الدينية ، وبضاعتهم مزجاة في الحديث خصوصاً ، فلا بُدَّ من نشر علم الحديث ، فدرس الصحاح والموطأ ، وأقبل الناس على دراسة هذه الكتب ، حتى أصبحت للهند مكانة مرموقة في العالم الإسلامي في خدمة الحديث بفضل جهود هذا البيت العظيم ومؤسسيه .

٤ ـ لاحظ أن العالم الإسلامي سوف يستقبل عصراً عقلياً ، وثورة فكرية ، فلا بُدَّ من إيضاح الفكرة الإسلامية وجلائها ، وبيان أسرار الدين ،

---

(١) اقرأ للاطلاع على حياته بالتفصيل الجزء الرابع من سلسلة العلامة الندوي لـ «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

وحكمه ، وأصول التشريع الإسلامي . ولا بد من شرح نظام الخلافة في الإسلام ، وأساليب الإسلام وأسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، فألف كتباً لا تزال فريدة في مكتبة الإسلام العامرة منها (حجة الله البالغة) و(إزالة الخفاء في خلافة الخلفاء) .

٥ ـ لاحظ أنه لا أملَ في نهضة الأسرة الملكية الهندية ، وتجديد لباب الدولة التيمورية ؛ لأنه ـ كما قال ابن خلدون ـ : «إذا نزل الهرم بدولة لا يرتفع» فلا فائدة في بذل القوة لإصلاحها وتقويتها ، ولابُدَّ من إعداد جماعة تحدث انقلاباً إسلامياً ، وتؤسس دولة إسلامية جديدة على أساس ديني علمي جديد .

نجاحه في عمله :

قام الشيخُ ولي الله وأصحابه بمهمة هذا التجديد الإسلامي خير قيام ، فنشروا العلم الصحيح ، وأذاعوا مصادرَ الدين الأولى ، وألفوا كتباً دسمة قوية مبتكرة ، تمهد العقول والنفوس لإحداث انقلاب إسلامي ، وإنشاء دولة إسلامية ، وخرَّج تلاميذ ورجالاً ، يقومون بهذه المهمة ، وقام بعده نجله الأكبر سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي (١٢٣٩هـ) فدرس وألف ، وخرج ، وخلف التلاميذ الكبار والعلماء الفحول ، نشروا علم الحديث ، وشمروا عن ساق الجد في نصر الدين ، ومحاربة البدع ، والدعوة إلى الكتاب والسنة ، وتزكية النفوس ، حتى نفقت سوقُ الحديث ، وقامت دولةُ العلم ، واستعدت النفوسُ للنصر المؤزر للدين .

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ورفقته وتأثيرهم في الحياة :

وفي الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري ، قام السيد الإمام أحمد ابن عرفان الشهيد ؛ الذي تخرج على الشيخ عبد العزيز ، ومعه الشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغني بن الشيخ ولي الله الدهلوي ، فدعا الناس إلى الدين الخالص والتوحيد واتباع السنة ، وحارب الشرك والجاهلية والبدع محاربة سافرة شديدة ، وبث في الشعب روحاً دينية قوية لم تعهدْ من قرون متطاولة ، ودعا الناسَ إلى الإيمان والإحسان والتقوى والجهاد في سبيل

الله ، وقام بجولات واسعة في الهند تاب في خلالها ألوفٌ من المسلمين ، وأقفرت الحانات ، وغصَّت المساجد ، وكسدت سوقُ البدع ، والتف حوله المخلصون والعلماء الربانيون ، وخرج للحج عام ١٢٣٦هـ ومعه أكثر من سبعمئة رجل ، وتشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين في هذا السفر ، وكان الناسُ يقصدونه من كل صقع ويدخلون في الخير أفواجاً ، حتى لم يحرم ذلك المرضى في المستشفى ، وكان الناس يتساقطون عليه كالفراش ، وأسلم عددٌ كبير من الكفار ، وكان من تأثير مواعظه ، ودخول الناس في الدين ، وانقيادهم للشرع أن وقفت تجارةُ الخمر في كلكته ـ وهي كبرى مدن الهند ، ومركز الإنجليز ـ وأقفرت الحانات ، واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة؛ لكساد السوق ، وتعطل تجارة الخمر .

وبعد الرجوع من الحج نادى الإمام وأصحابه بالهجرة والجهاد في سبيل الله ، فهان على المتَّصلين بهم بذل نفوسهم ، والهجرة من أوطانهم والتخلي عن أموالهم ، وتلقوا التربية الحربية ، ثم هاجروا مع إمامهم السيد أحمد ، ووزيره الشيخ إسماعيل إلى بلوجستان ، ومنها إلى أفغانستان ، فحدود الهند الشمالية ، حيث حاربوا «السك» الذين كانوا قد احتلوا بنجاب ، وأذاقوا المسلمين سوء العذاب ، وهزموهم غير مرة ، وكذلك كلّ مَنْ وقف في سبيلهم من أمراء الأفغان ، وهم يريدون أن يوغلوا في الهند ، ويجلوا الإنجليز ، ويؤسِّسوا دولة إسلامية تمتد من الهند إلى حدود أفغانستان ، وهكذا تتصلُ الدول الإسلامية بعضها ببعض؛ حتى تكون سلسلة من حكومات إسلامية ، وأسَّسوا فعلاً دولة في الأرض التي فتحوها ، وتقع فيها مدينة «بشاور» ، وطبقوا نظام الإسلام المالي والإداري تطبيقاً دقيقاً ، وظهر منهم من تنفيذ أحكام الشرع على أنفسهم وعلى غيرهم ، ومن الجمع بين العبادة ، والجهاد ، والأمانة ، والعدل ، والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والرحمة بالمسلمين ، والشدة على المحاربين من الكفار ما جدَّد ذكريات القرن الأول .

ولكن لم تشأ أهواءُ رؤساء القبائل الأفغانية ومصالحهم المالية أن تبقي هذه الحكومة؛ التي تحكم بما أنزل الله ، وتفرض عليهم أحكام الإسلام

المالية والقضائية ، فثاروا على عمالها ، وقتلوهم ركعاً وسجداً ، وهاجر بقيةُ المجاهدين مع إمامهم إلى وادي «بالاكوت» في طريقهم إلى كشمير؛ التي كانوا يريدون أن يتخذوها مركزاً لنشاطهم ، وهنا حصلت آخرُ معركة بينهم وبين جيش عظيم من «السك» الذي اهتدى إليهم بدلالة بعض المأجورين من المسلمين ودهمهم ، وقتل الإمام وكبار أصحابه ، وذلك سنة ١٢٤٦هـ ، واعتصمت البقيةُ الباقية بالجبال ، ولم يزالوا قائمين على الحق ، مرابطين على الثغر ، مشمرين عن ساق الجد ، إلى آخر ساعة ، جزاهم الله عن الإسلام خير الجزاء[١] .

مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنة والعاملين بالحديث :

ونشطت حركةُ نشر الحديث والدعوة إلى الكتاب والسنة ، ونبذ البدع والخرافات ، بعد ما قام تلاميذُ الإمام ولي الله الدهلوي وأنجاله وأحفاده بتدريس كتب الحديث ، ومحاربة البدع ، والعادات الجاهلية المحلية ، وقام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والعلامة محمد إسماعيل الشهيد بالدعوة إلى الدين الخالص ، والعقيدة الصحيحة السنية ، والرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح ، والقرون المشهود لها بالخير ، ونشطت العقول ، وتحركت الهمم ، وكثر الدعاةُ إلى الدين والمكافحون للفساد ، وكثر المعتنون بعلوم الكتاب والسنة ، والمؤلفون في المقاصد الدينية ، في اللغة الأردية الشعبية في أسلوب سهل واضح .

ونشأت من هذه الحركة التعليمية الدعوية مدرستان تنفقان على الأساس ، وتختلفان في المنهاج ، إحداهما مدرسة «صادق بور»[٢] السلفية ، رائدها العلامة ولايت علي العظيم آبادي ، من كبار خلفاء السيد الشهيد ، وأحد العلماء الربانيين في الهند في العهد الأخير ، وهي متشبعة بروح دعوة التجديد ، والجهاد التي قادها السيد الشهيد ، والعلامة

(١) انظر للاستزادة من أخبار الإمام الشهيد كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» للعلامة الندوي .

(٢) صادق بورجي من أحياء مدينة «بتنة» عاصمة ولاية بهار ، كانت مركزاً لأنصار السيد الشهيد .

الشهيد ، وهي تتسم بالجمع بين الدعوة ، وروح الجهاد ، والعمل بالحديث ، وتزكية النفوس ، وعمارة الباطن ، على طريقة السيد الشهيد ، والإمام ولي الله الدهلوي ، والمجدد السرهندي .

والثانية: مدرسة للعلامة السيد نذير حسين الدهلوي (المتوفى ١٣٢٠م) وهو تلميذ الشيخ محمد إسحاق بن أفضل الدهلوي ، سبط الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، وقد اشتغل بتدريس الحديث الشريف مدة طويلة ، ورحل إليه العلماء والأساتذة من أقاصي البلاد ، وتخرج عليه علماء كبار ، درسوا وألفوا في الحديث ، منهم العلامة شمس الحق الديانوي ، ومولانا محمد بشير السهسواني ، والحافظ عبد المنان الوزير آبادي ، والعالم الرباني السيد عبد الله الغزنوي الأمرتسري ، وابنه السيد عبد الجبار الغزنوي(١) ، وآخرون ، كان شعارهم العمل بالحديث ، وعدم التقيد بالتقليد ، وتختلف درجاتهم وأساليبهم في التمسك بهذا الشعار ، والدعوة إليه .

وينخرط في هذا السلك المؤلف الكبير العلامة السيد صديق حسن القنوجي البهوبالي المتوفى (١٣٠٧) وهو معاصر للسيد نذير حسين الدهلوي ، وتخرج على تلاميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، والشيخ محمد إسحاق بن أفضل ، وعلى علماء الهند المحدثين ، وقد خدم علومَ السنة بالتأليف والنشر ، وبذل الأموال الطائلة ، واحتضان العلم والعلماء .

ثـورة الـهـنـد ، وردّ فـعـلهـا :

وفي سنة (١٨٥٧م) ثار المسلمون ثورة عظيمة للتخلص من الإنجليز ، ولكن أخفقت هذه الثورة ، وحلَّت الحكومة الإنجليزية محل شركة الهند الشرقية ، فكان الأمرُ أشد. ودخلت الهند في حكم بريطانيا المباشر ، وكونت الإمبراطورية الإنجليزية ، فتسرب اليأس إلى نفوس المسلمين ، وفقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم ، وضعفت روح المقاومة ، وهاجر كثيرٌ

(١) وكانا أقرب إلى مدرسة السيد الشهيد من زملائهما الآخرين؛ بالجمع بين العمل بالحديث ، والربانية الصافية ، والروحانية القوية .

من العلماء ورجال الدين إلى الحجاز ، وأصبحوا يعتقدون أن الحكم الأجنبي في الهند ضربة لازب ، وانبث دعاةُ المسيحية والقسس في القرى والمدن يدعون إلى المسيحية علناً ، ويشنّعون على العقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية ، ويعلنون أن دولة الإسلام قد زالت ، وأن عهده قد انقضى ، ودخلت الهندُ في الحكم المسيحي ، فليتهيأ المسلمون لاستقبال هذا الحكم ، وليقبلوا على دين الحكومة ، وطبقت الحكومة نظام التعليم المدني ، وهو يهدفُ إلى تخريج طراز من الناشئة ، لا يصلح إلّا لإدارة جهاز الحكومة الإنجليزية وتنفيذ برامجها ، وكثيراً ما كان أفراد الجيل الجديد ينسلخون عن الإسلام انسلاخاً كلياً ، ويثورون على الحضارة الإسلامية ، والديانة الإسلامية بتأثير التعليم والتربية في مدارس الحكومة؛ التي كان يديرها الإنجليز ، أو أشباه الإنجليز ، وبسبب «مركب النقص» الذي أصيب به المسلمون في عصر الاحتلال ، ودهشة الفتح التي أصابتهم ، فأصبح المسلمون في عقر دارهم ، يغزون سياسياً وثقافياً ودينياً ، وانقطع الأمل في كل ثورة ، وانقلاب عسكري.

معهد ديوبند وخدمته للدين:

ولم ير العلماءُ أمامهم طريقاً إلّا فتح المدارس العربية ، والمعاهد الدينية ، فأنشؤوا هذه المعاقل ليحتفظوا ببقايا الحياة الإسلامية ، وليكافحوا تيار الغرب المدني والثقافي ، ويخرجوا منها دعاة الإسلام والوعاظ والمرشدين وعلماء الدين ، فليحفظوا على المسلمين دينهم ، ويعيدوا الثقة إلى نفوسهم ، فأسَّس مولانا محمد قاسم النانونوي (م١٢٩٧هـ) (مدرسة ديوبند) سنة ١٢٨٣هـ ، وأسس مولانا سعادت علي(مدرسة مظاهر العلوم) في سبهارنفور في نفس ذلك العام ، ثم تواترت المدارس الدينية في أنحاء الهند ، وقد كان لهذه المدارس فضلٌ كبير في نشر الدين والدعوة الإسلامية ، وفي نشر الثقافة في طبقات الشعب ، ومحاربة البدع والخرافات ، وبث الروح الدينية في الجماهير ، وقد نجحت هذه المدارس في رسالتها الدينية نجاحاً باهراً.

وكان لأحد أبناء دار العلوم ديوبند ، وهو الشيخ أشرف علي التهانوي (م١٣٦٢هـ)[1] سهم كبير في نشر العقيدة الصحيحة ، وإصلاح النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، والدعوة إلى الله. وقد عمل وحدَه عمل مجمع علمي كبير ، وألف كتباً ورسائل تربو على ثمانمئة ، وقد انتشرت انتشاراً كبيراً ، وأثرت في المجتمع الهندي الإسلامي تأثيراً عظيماً.

سر نجاح هذه المدارس :

وسرُّ نجاح هذه المدارس ـ كديوبند ، وشقيقاتها ـ في أداء رسالتها ، ونشر الدين والعلم ، أنها لم تكن تنال مساعدةً من الحكومة ، وكانت قائمة على أساس الزهد والتضحية والجهاد ، فأثار ذلك فيها روح المقاومة والجهاد ، وقوة العمل والنشاط ، ثم إن أبناءها المتخرجين لم يكن لهم أملٌ ـ بطبيعة الحال ـ في وظائف الحكومة والرواتب الضخمة ، لأنهم تخرجوا من مدارس حرة لا صلة لها بالحكومة ، فألجأ ذلك أكثر المتخرجين إلى الانقطاع إلى الشعب دون الحكومة ، والتجرد للدعوة ، والخدمة دون المناصب والرواتب ، وهكذا وجد دعاة متجردون محتسبون متطوعون ، يقتنعون بالكفاف ، وينقطعون إلى الدعوة والرسالة ، فقاموا بأعمال إصلاحية لا تقوم بها أكبر دولة.

ندوة العلماء ومعهدها :

ولما رأى بعضُ العلماء أن الهوة قد اتسعت جداً بين التعليم المدني والتعليم الديني ، وحدثت بين المتخرِّجين من المدارس الدينية والمتخرجين من المدارس المدنية فجوة وجفوة تتسعان على مر الأيام ، حتى أصبح أولئك أمة وهؤلاء أمة. ولكل أمة لغة خاصة ، وثقافة خاصة ، ونفسية متميزة ، لا يفهمها الآخر ، بل أصبح التعليمُ الديني في واد والعصر الحديث في واد ، ولا جسر بينهما ، وقد أصبح هذا العصر يطلب من العالم

(١) انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري».

الديني ثقافة أوسع ، وأسلوباً للدعوة أرقى ، وأقرب إلى نفسية هذا العصر ، واطلاعاً على ما تجدَّد من العلوم والأفكار والمسائل والحاجات ، أنشأ القائمون على ندوة العلماء ـ وفي مقدمتهم مولانا محمد علي المونكيري ـ مدرسة دار العلوم في لكهنؤ سنة ١٣١٦هـ ، ورسالتها الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، والتصلُّب في العقيدة والمبادىء ، والتوسُّع في الجزئيات والوسائل ، وقد خرجت علماء ومؤلفين ، كانوا ملتقى الثقافتين ، وبرزخاً بين الطائفتين ، وقد ألفوا في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي كتباً هي خير ما ألف إلى الآن للجيل الجديد ، ولا يزال كتاب «سيرة النبي» في ستة مجلدات كبار للعلامة شبلي النعماني (م ١٣٣٢هـ) وتلميذه الأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي[١] أعظم مؤلف في السيرة النبوية وتعليمات الإسلام ، لا يوجد له نظيرٌ في مكتبة الإسلام الحديثة ، ولا يزال لهذا المركز التعليمي نشاط وإنتاج .

حركة التبليغ وصاحب دعوتها مولانا محمد إلياس :

وأختصر وأزين حديثي هذا بذكر دعوة وحركة دينية قوية ، كان لي شرف الاتصال بها عن كَثَب لا عن كُتُب ، وشرف التعرف بمؤسسها ـ وبالأصح داعيها ـ وقد صحبته مدة ، ورافقته في السفر والحضر ، فهذا لونٌ جديد من الحديث ، وأريد أن أحدثكم أولاً عن صاحب هذه الدعوة ، فإن الفكرة تتضح كثيراً بمعرفة صاحبها ، وهنا أكرر لكم ما تحدثت به من محطة الإذاعة الهندية في دهلي عن صاحب هذه الدعوة ، وتأثري به ، وكان موضوع الحديث : «رجال عرفتهم ، وأعجبت بهم» .

«في سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠) خرجت مع رفيقين أطالع مشاريع التعليم والتربية ومراكزهما في الهند ، وانتهت بي هذه الرحلة إلى دهلي ، ومنها إلى ميوات ، الرقعة التي هي مشهورة في التاريخ باللصوصية والشطارة والنهب والغارة ، حتى كانت أبواب سور مدينة دهلي تقفل من بعد الغروب

(١) توفي رحمه الله في (١٣) من ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ (١٦ نوفمبر ١٩٥٣م).

خوفاً من هؤلاء اللصوص ، فسمعت أنها بحال كبير لإصلاح ديني خُلُقي جديد ، ولما زُرتها وجدتُ انقلاباً مدهشاً في الأخلاق والنفوس ، تنقلتُ في القرى والأماكن ، وتتبعت الأخبار ، فعلمت أن الناسَ الذين كان القتل عندهم أهون شيء ، وقد يقتلون الإنسانَ لأمر تافه ودرهم زائف ، صاروا الآن يحرسون الأموال والأعراض ، ويعفون عن المحارم ، رأيت فيهم إقبالاً على العلم ، وتواضعاً ، وحفاوة ، وضيافة ، ودماثة خلق ، وإيثاراً على النفس ، وألفة ، ومودة ، لا توجدان في هذا العصر المادي ، وعزوفاً عن الشهوات ، وصبراً على المشاق ، وإيماناً ، وصلاحاً ، وعلمتُ أن ألوفاً من الناس هناك تأثروا بهذا الإصلاح ، وانقلبت نفسيتهم انقلاباً عجيباً.

هنالك فحصتُ عن منبع هذا الانقلاب ، فسمعتُ أن لا جمعية ، ولا جامعة ، ولا دعاية ، ولا صحيفة ، ولا كتاب ، إنما هو رجلٌ متواضعٌ في دهلي ، قد بث الروحَ في هذه الأمة المنحطة ، وهذَّب النفوسَ ، ونشر الدين والعلم ، وحَدَا بي الشوق إلى زيارته ، فجئت إلى دهلي ، فإذا هو رجلٌ نحيف ، أسمر اللون ، قصير القامة ، كثّ اللحية ، تشفّ عيناه عن ذكاء مفرط ، وهمة عالية ، على وجهه مخايل الهمِّ والتفكير والجهد الشديد ، ليس بمفوّه ولا خطيب ، بل يتلعثم في بعض الأحيان ، ويضيق صدره ، ولا ينطق لسانه ، ولكنه كله روح ونشاط وحماسة ويقين ، لا يسأم ، ولا يملُّ من العمل ، ولا يعتريه الفتور والكسل.

صحبت (مولانا محمد إلياس) مركز هذا النشاط الذي وصفته مدة طويلة ، ورافقته في السفر والحضر ، فرأيت نواحي من الحياة لم تنكشف لي من قبل ، فمن أغرب ما رأيتُ يقينه الذي استطعت به أن أفهم يقين الصحابة ، فكان يؤمن بما جاءت به الرسل إيماناً يختلف عن إيماننا اختلافاً واضحاً ، كاختلاف الصورة والحقيقة ، وإيماناً بحقائق الإسلام أشد وأرسخ من إيماننا بالماديات والمحسوسات ، وبخواص الأشياء والأدوية ، ومضارها ، ومنافعها ، وبتجارب حياتنا ، فكان كلُّ شيء صح في الشرائع وثبت من الكتاب والسنة حقيقة لا يشك فيها ، وكأنه يرى الجنة والنار رأي عين.

ورأيته في حالة عجيبة من التألم والتوجع والقلق الدائم ، كأنه على حَسَك السَّعْدان ، يتململ تململ السليم ، ويتنفس الصعداء لما يرى حوله من الغفلة عن مقصد الحياة ، وعن غاية هذا السفر العظيم ، وعن خالق هذا الكون ، ومن الاستهانة بقيمة الحياة وتضييعها في غير محل ، ولا أجدُ له مثلاً إلّا كالذي يرى الحريق في بيت وقد أحاطت النيرانُ بأولاده وأسرته ونفائسه ، فيصرخ ، ويضطرب ، ولا يقر له قرار ، وعرفتُ برؤيته معنى الحب ، وفهمت ما رُوي عن العشاق والمتيمين ، ومن استولى عليه الحب ، وصدقت ما نُقِل عن الأنبياء من الحزن ، والقلق ، والحرص على الهداية .

ثالثاً وأخيراً ، رأيتُ في هذا الجسم النحيل؛ الذي كاد يعجزُ عن أن يحمل ثقله روحاً قوية جداً ، وقوة إرادة وقلب ، لم أجدْ مثلها في الشبان الأقوياء ، والأبطال الأشداء ، فكان يتحملُ من المشاق ما ينوء بالعصبة أولي القوة ، وقد يظلُّ في أسفاره أياماً متوالية لا يأكل فيها لشدة الاشتغال ، ويسهر ليالي ، وأعجب ما رأيتُ أنه كان في مرضه الذي توفي فيه لا يستطيعُ القيامَ والقعود ، ولكنه يأتي إلى الصف يتهادى بين رجلين ، ويقوم للصلاة ، ولا يستقل بنفسه ، فإذا كبَّر الإمام تركه الرجلان ، وقام بنفسه ، كأنه غير الرجل ويقوم ويركع ويسجد من دون مساعدة ، حتى إذا سلم الإمامُ خارتْ قوته ، وعاد ضعيفاً لا يستطيع النهوض ، وبقي هكذا شهوراً ، وما فاتته في مرضه صلاةٌ إلى الليلة التي توفي فيها .

الـدعـوة ومـبـادئهـا :

هذا صاحب الدعوة ، وكلمة وجيزة عن الدعوة .

لقد رأى مولانا محمد إلياس ما أصاب المسلمين من التحلل والإفلاس في الإيمان والروح ، والشعور الديني في هذه المدة ، وما أثرت فيهم الحكومة الإنجليزية ، والحضارة الغربية والتعليم المدني ، وغفلة الدعاة ، والاشتغال الزائد بالحياة ، والانهماك بالمادة؛ حتى صارت المدارس الشرعية ، والأوساط الدينية كجزر في بحر محيط ، وأصبحتْ تتأثر

بمحيطها الثائر على الدين ولا تؤثر ، بضعفها وعزلتها عن الحياة ، فرأى أن التعليمَ وحده لا يكفي ، والاعتزال لا يفيد ، والانزواء لا يصحُّ ، ولا بُدَّ من الاتصال بطبقات الشعب ، ولا بُدَّ من التقدم إليها من غير انتظار؛ لأنها لا تشعر بمرضها وفقرها في الدين ويجبُ أن يبتدأ بغرس الإيمان في القلوب ومبادىء الإسلام ، ثم الأركان والعلم والذكر ، مع مراعاةُ الآداب التي تقوي هذه الدعوة ، وتحفظها من الفتن ، منها: إكرام كل مسلم ، ومنها: عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الداعي وترك ما لا يعنيه ، وقد دعا إلى هذا النظام بكل قوته ونفوذه ، ودعا إلى الخروج في سبيل هذه الدعوة وبثّها في القرى والمدن ، وبدأ دعوته بمنطقة هي أحطّ المناطق الهندية خُلُقاً ، وأبعدها عن الدين ، وأعظمها جهالة وضلالة ، وهي منطقة ميوات في جنوب دهلي عاصمة الهند ، ودعا الناسَ فيها إلى الانقطاع عن أشغالهم ، والخروج من أوطانهم لمدة محدودة ، قد تكون شهراً ، وقد تكون أكثر من ذلك ، وعرف أنهم لا يتعلّمون الدين؛ ولا يتغيرون في الأخلاق إلاّ إذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد الذي يعيشون فيه ، وقد قبل دعوته مئاتٌ وألوف من هذه المنطقة ، وخرجوا شهوراً ، وقطعوا مسافات بعيدة ما بين شرق الهند وغربها ، وشمالها وجنوبها ، ركباناً ومشاة ، فتغيرت أخلاقهم ، وتحسَّنت أحوالهم ، واشتعلت عواطفُهم الدينية ، وانتشرت الدعوةُ في الهند وباكستان من غير نفقات باهظة ، ومساعدات مالية ، ونُظُم إدارية ، بل بطريقة بسيطة تشبه طريقة الدعوة في صدر الإسلام ، وتذكّر بالدعاة المخلصين المجاهدين المؤمنين؛ الذين كانوا يحملون في سبيل الدعوة والجهاد متاعهم وزادهم ، وينفقون على أنفسهم ، ويتحملون المشقة محتسبين متطوعين[١] .

وقد توفي إلى رحمة الله تعالى في رجب عام (١٣٦٣هـ) وخلفه نجله الشيخ محمد يوسف ، وقام بأعباء الدعوة خير قيام ، وفي عهده توسَّعت

---

(١) انظر للاطلاع على حياة الشيخ إلياس الكاندهلوي وعلى دعوته إلى الله ، كتاب العلامة الندوي «الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته» صدر من دار ابن كثير بدمشق .

الحركةُ توسعاً كبيراً ، وانتشرت بعثاتها في العالم الإسلامي وفي المغرب ، ودعا إلى الإيمان ، وإيثار الروح على المادة ، والآخرة على الدنيا ، والاعتماد على الله ، وبذل الوسع والطاقة في سبيل الله ، دعوة قوية صريحة أثرت في ألوفٍ من الناس ، فأصبحوا دعاةً متطوعين ، ولا يزال مقرّه «نظام الدين» في دهلي مركز حياة دينية ، ودعوة إيمانية ، يؤمُّها الناسُ من جهات بعيدة(١) .

جهود المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة :

هذا تاريخُ الدعوة الإسلامية في الهند باختصار ، وهذه مراحلها ، وأدوارها ، ووصفها الموجز ، وأنا أعتقدُ أن الدعوة في حاجة دائمة إلى التجديد والتفكير ، والتطبيق بين الإسلام الخالد والعصر المتغير ، واستعراض الشؤون والمسائل ، وما يطرأ على الحياة والعقول من الضعف والقوة ، والجدة والتطور . وأن العصمة لله وحده ، وأنه لم يختم شيء مما أكرم الله به هذه الأمة إلاّ النبوّة التي ختمت بمحمد ﷺ آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وأن كل ما ذكرنا نماذج ومثل للدعوة الإسلامية ، وأنماط لها وأساليب ، ومناهج وطرق يلهمها أصحاب النفوس الزكية في مختلف العصور والبلاد ، أو يؤثرونها في ضوء الكتاب والسنة .

جهود إصلاحية وتربوية أخرى :

وقام روادُ الإصلاح ، ومحبُّو نهضة المسلمين وعزّهم بتجارب كثيرة في مجال الدعوة الدينية ، والتعليم والتربية الإسلامية ، ونشر الفكرة الصَّحيحة ، ومكافحة الغرب الثقافي ، والغزو الفكري ، وإعادة الثقة إلى نفوس الشباب المتعلمين بالتعاليم الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي ، وإزالة العقد النفسية والفكرية ، بأساليب مختلفة وطرق شتى ـ في ضوء تجاربهم ودراساتهم ـ تختلف في النتائج والآثار ، وفي ضيق النطاق واتساعه ، وفي مدى تقبُّل المسلمين لها ، وانتفاعهم

---

(١) توفي مولانا محمد يوسف إلى رحمة الله تعالى في (٢٩) ذي القعدة سنة (١٣٨٤هـ) وخلفه الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي (رحمه الله) ، والدعوة في تقدم واتساع .

بها ، يطول الحديثُ فيها ، وتقصر هذه العجالةُ عنها ، وقد ألفت في التعريف بهذه الجهود والمنظمات وأهدافها ونتائجها ، رسائل وكتب في اللغة العربية ، نُحيل عليها ونشير على القارىء الذي يحبُّ التوسُّع بمطالعتها.

وأنا أعتقدُ كذلك أن جهودَ المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة ، ليست ملكاً لبلد دون بلد ، ولا احتكاراً في شعب دون شعب ، بل هي بضاعةُ المخلصين في كل بلد ، ونبراس المصلحين في كل عصر ، يحقُّ لهم أن يقولوا كلما أهديت إليهم ، ونقلت عن بلاد إلى بلادهم: «هذه بضاعتنا ردت إلينا».

* * *

الدَّعوة إلى الله
حماية المجتمع من الجاهلية ، وصيانة الدين من التحريف

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في دورة مؤتمر الدعوة؛ التي عقدتها الجامعة الإسلامية في مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ، في المدينة المنورة .

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيـد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإنني سأتحدث في هذه المناسبة الكريمة ، وهي «دورة مؤتمر الدعوة» التي تعقدها الجامعة الإسلامية في مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ، ومنطلق الدعاة إلى الله في العالم «المدينة المنورة» عن بعض السمات البارزة التي يجب أن تَتَّسم بها الدعوة والدعاة في هذا العصر ؛ حتى يستطيعوا أن يقوموا بدور الدعوة في أتم وجه ، ويبلغوا رسالة الرسل عليهم السلام ، ويؤثروا التأثير المطلوب.

أما الدعوة الإسلامية فيجبُ أن تكونَ هذه الدعوة جامعةً بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطبين والمجتمع الإسلامي ، وإثارة الشعور الديني ، وبين إكمال الوعي وتنميته وتربيته ، فإن المتتبع لأحوال العالم الإسلامي اليوم وواقع الأقطار الإسلامية ، وحكوماتها ، وشعوبها ، يعرف أن تمسُّك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام ، وحبها له ، هو الحاجز السَّميك ، والسَّد المنيع لكثير من القيادات التي خضعت للحضارة الغربية ، وقيمها ومفاهيمها ، وفلسفاتها ، ونظمها ، وآمنت بها إيماناً كإيمان المتدينين بالديانات ، والمؤمنين بالشرائع السَّماوية ، وفقدت الثقة بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث ، وتطوراته ، وأحداثه ، وكرسالة خالدة عالمية ، فإسلام هذه الشعوب والمجتمعات ، وكونها

لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تندفع إلا لما يجيء عن طريقهما ، وما يمسُّ قلبهما ، ويخاطب ضميرهما ، يعوق كثيراً من هذه القيادات عن نبذ الإسلام نبذاً كلياً ، وإعلان الحرب عليه ، وقد لجأت بعضُ هذه القيادات في ساعات عصيبة إلى إثارة هذا الإيمان والحماس الديني ، واستخدامهما لكسب المعركة ، أو الانتصار على العدو حين رأت أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وإلى إيمان هذه الشعوب السليمة المؤمنة ، فرفعت هتاف التكبير «الجهاد» و«الشهادة» في سبيل الله ، ومحاربة العدو الكافر المهاجم ، كما فعلت الجزائر في حربها مع الفرنسيين ، وباكستان في حرب (١٩٦٥م) ، وجربت فائدة هذا الإيمان ، وقوة هذه العاطفة .

فأصبح إيمانُ هذه الشعوب ، وتمسّكها بالإسلام ، وتحمُّسها له ، هو السور القوي العالي الذي يعتمدُ عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثير من القيادات والحكومات الإسلامية في حظيرة الإسلام ، فإذا تهدم هذا السور ـ لا سمح الله بذلك ـ أو تسوَّره دعاةُ الكفر واللادينية ، أو تيار الردة الفكرية والحضارية ، فالخطر كلُّ الخطر على الإسلام في هذه البلاد ، ولا يمنع هؤلاء القادة المحاربين للإسلام ، والمضمرين له العداء والحقد شيء من أن يخلعوا العذار ، ويطرحوا الحشمة والتكلف ، ويجرّدوا هذه الأقطار والشعوب العريقة في الإسلام من كل ما يمتُّ إلى الإسلام بصلة ، فإن الشيء الوحيد الذي يخافون معرته ، ويحسبون له حساباً هو ثورة هذه الشعوب على هذه القيادات بدافع الإيمان والحماس الإسلامي ، فيفقدهم ذلك ما يتمتَّعون به من كراسي الحكم ، ومركز القيادة ، فإذا زال الحاجزُ لم يقفْ في وجههم شيء .

إذاً فيجبُ على دعاة الإسلام والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية الاحتفاظ بهذه البقية الباقية من الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير ، والمحافظة على الجمرة الإيمانية من أن لا تطفىء .

ولا يصحُ الاقتصارُ على تحريك الإيمان ، وإثارة العاطفة الدينية في نفوس الشعوب والجماهير ، بل يجبُ أن تضمّ إليه تنمية الوعي الصحيح ،

وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتميز بين الصَّديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، فقد رأينا أن الشعوبَ التي يضعف فيها هذا الوعي ، أو تحرمه يتسلط عليها ـ رغم تمسكها بالإسلام ، وحبِّها له ـ قائد منافق ، أو زعيم ماكر ، أو عدو جبار ، فيصفق له الشعب بكل حرارة ، ويسير في ركابه ، فيسوقها بالعصا سوق الراعي لقطعان من الغنم ، لا تعقل ولا تملك من أمرها شيئاً ، ولا يمنعها تمسكها بالإسلام ، وحبها له من أن تكون فريسة سهلة ، أو لقمة سائغة للقيادات اللادينية ، أو المؤامرات ضد الإسلام.

وقد كان ما يمتاز به المجتمعُ الإسلامي الأول المثالي الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بفضل التربية النبوية الدقيقة الشاملة بالجمع بين الدين المتين الذي لا مغمز فيه ، والإيمان القوي الذي لا يعتريه وهن ، وبين الوعي الناضج الكامل؛ فكانوا لا يخدعون ولا ينخدعون ، ولا يسيغون شيئاً ينافي الإسلام ، وينافي العقل ، والذي يضرّهم ويجني عليهم أو يوقعهم في خطر أو تهلكة ، قد بلغوا من الرشد ، واستكملوا الحصافة والنصح ، فلا يؤخذون على غرة ، ولا يقعون في شرك ينصبه العدو الماكر ، يخطئون ولكن لا يصرون ولا تتكرر منهم غلطات وتورطات ، وقد جاء في حديث صحيح: «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين» بخلاف الشعوب الفاقدة الوعي ، فهي تلدغ مرة بعد مرة ، وذلك لأنَّ رسولَ الله ﷺ أخذهم بتربية وتعاليم آمنوا بها عن الوقوع في الشباك ، وامتنعوا بها عن قبول ما لا يتفقُ مع تعاليم الإسلام ، وآدابه ، والفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، فكان مجتمعاً نموذجياً مثالياً في كل شيء.

أعرض لكم ـ على سبيل المثال ـ مثالين من هذا العقل الحصيف ، والوعي الكامل:

الأول: أن النبي ﷺ قال مرة: «انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً» وهو مثل جاهلي قديم ، وعُرف من أعراف العرب الأولين ، تمسك به العربُ في جاهليتهم كما قال العلامة الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث في كتابه

الجليل «فتح الباري» فكان المتوقع المعقول أن يتلقَّاه الصحابةُ ـ وقد نشؤوا في الجاهلية ، وعاشوا في الجزيرة ـ إما بالقبول وإما بالسكوت .

وقد صدر هذا الكلامُ من النبي المعصوم الذي لا ينطقُ عن الهوى ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤] وقد عُرِف حبهم لنبيهم ﷺ وفداؤهم له بالنفس ، والنفيس ، وكان حباً لا نظير له في تاريخ الديانات والرسالات ، وفي تاريخ الحب والطاعة العالمي ، وكان تفسيراً للحديث المشهور: «لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من أهله وولده والناس أجمعين» وجاء في بعض الروايات: «من نفسه» ، ولكن كل ذلك لم يمنعهم عن التساؤل أو الاستيضاح ، فإنَّ ظاهر الكلام كان ينافي ما فهموه من تعليم الإسلام ، وما شاهدوه من تربية الرسول وأخلاقه ، وما آمنوا به من مبدأ الإنصاف والمساواة ، وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ﴾ [النساء: ١٣٥] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨] فقالوا: يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ، هنالك فسَّره رسول الله ﷺ تفسيراً يتفق مع تعاليمه السابقة الدائمة ، فقال: «تمنعه من الظلم ، فذاك نصرك إياه[1]» هنالك اقتنع الصحابةُ رضي الله عنهم ، وشُفيت صدورهم ، فازدادوا إيماناً على إيمان ، وهو مثالٌ بليغ رائع من أمثلة الوعي الإيماني العقلي الذي كان شعاراً لصحابة الرسول ﷺ والصدر الأول .

والمثال الثاني: أنَّ رسول الله ﷺ أرسل سرية ، وأمر الصحابةَ بطاعة الأمير ، وقد كان في هذه السرية ما لم يرض الأمير ، وشكَّ في انقيادهم له ، فأمر بالحطب ، فجمع ، وأمر بالنار فأشعلت ، ثم قال: خوضوها ، فامتنع الصحابةُ رضي الله عنهم عن طاعته في ذلك ، لأنه: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وقالوا: إنما فررنا من النار ، ولما رجع إلى المدينة شكا إلى رسول الله فصوَّب فِعْلَهم ، وقال: «لو دخلوا فيها لم يزالوا

---

(١) حديث متفق عليه .

فيها» وقال: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»[1].

وكانت نتيجة ضَعف بعض الشعوب المسلمة القوية في إيمانها، الغنية في مظاهرها الإيمانية، ومراكزها الدينية، وثروتها العلمية، أنها كانت فريسة سهلة للهتافات الجاهلية، والنعرات القومية، أو العصبيات اللغوية والثقافية، ولعبة القيادات الداهية، والمؤامرات الأجنبية، وذهبت ضحية سذاجتها، وضعفها في الوعي الديني، والعقل الإيماني، كما وقع في باكستان الشرقية في ١٩٧١م، المصادفة ١٣٩١هـ، قامت فيها مجزرة إنسانية هائلـة، وما ذلك إلا بسحر دعوات العصبية اللغوية والعصبية الوطنية على هذا الشعب المسلم، المؤمن الذي كان له تاريخ مجيد في البطولات الإسلامية، وخدمة الإسلام والعلم، ونهض فيه علماء كبار، ودعاة إلى الله، وغصّت بلادها بالمساجد والمدارس، وكانت عاصفة هوجاء هبت ثم ركدت، ونار حامية التهبت ثم انطفأت، ولكنها زلزلت أركان الإسلام في هذه المنطقة، وأضعفت الكيان الإسلامي، وكانت حجة لأعداء الإسلام الذين يقولون: إن الإسلام لا يستطيع أن يقاوم العصبيات القومية، ولا يقتلع جذورها من نفوس أتباعه.

وواجب ثالث مقدس من واجبات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية هو صيانة الحقائق الدينية، والمفاهيم الإسلامية من التحريف، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصة، وبيئات مختلفة، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ، وهي خاضعة دائماً للتطور والتغيير، فيجب أن نغارَ على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات، وعلى الأعراض والكرامات، بل أكثر منها وأشد؛ لأنها حصون الإسلام المنيعة، وحماه، وشعائره، وإخضاعها للتصورات الحديثة، أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءة إليها لا إحسان، وإضعاف لها لا تقوية، وتعريض للخطر لا حصانة، ونزول بها إلى المستوى الواطىء المنخفض، لا رفع لشأنها

(١) اقرأ القصة بطولها في سنن أبي داود كتاب الجهاد.

كما يتصور كثيرٌ من الناس. فإذا قلنا: الحج مؤتَمر إسلامي عالمي ، لم ننصف للحج ، ولم ننصف لمن يخاطبه ، ونريد أن نفهمه حقيقة الحج وروحه ، ولما شرع له ، ولم ننصح لكليهما ، وأن روح الحج وسرّ تشريعه غير ما تعقدُ له المؤتمرات صباح مساء ، ولو كان الحج مؤتمراً إسلامياً عالمياً لكان له شأن ونظام غير هذا النظام ، وجو غير هذا الجو ، ولكان النداء له مقصوراً على طبقات مثقفة واعية فقط ، وعلى قادة الرأي ، وزعماء المسلمين[1] .

كذلك حقيقة العبادة ، وحقيقة الصلاة ، وحقيقة الزكاة والصوم ، فلا يجوز العبث بهذه المصطلحات ، والتجني عليها ، وإخضاعها للفلسفات الجديدة ، وتفسيرها بالشيء الذي لا ثقة به ، ولا قرار له ، وقد استخدمت هذه «الاستراتيجية الدعائية» الباطنية في القرن الخامس الهجري فما بعده ، ففسروا المصطلحات الدينية بما شاؤوا وشاءت أهواؤهم ومصالحهم ، وتفننوا فيه ، وأتوا بالعجب العجاب ، وحققوا به غرضهم من إزالة الثقة بهذه الكلمات المتواترة التي هي أسوار الشريعة الإسلامية ، وحصونها ، وشعائرها ، ونشر الفوضى في المجتمع الإسلامي ، والجماهير المسلمة ، وإذا فقدت هذه الكلمات التي توارثتْ فهمها الأجيال المسلمة وتواتر في المسلمين ، وأصبح فيها مساغ لكل داع إلى نحلة جديدة ، ورأي شاذ ، وقول طريف ، فقد أصبحت قلعةُ الإسلام مفتوحةً لكل مهاجم ، ولكل منافق ، وزالت الثقةُ بالقرآن والحديث واللغة العربية ، وجاز لكلِّ قائل أن يقول ما شاء ، ويدعو إلى ما شاء ، وهذه فتنةٌ لا تساويها فتنة ، وخطر لا يكافئه خطر .

إنَّ مفاهيم هذه الكلمات معينة ـ على اتساعها ، وبلاغتها ، وعمقها ، وكثرة معانيها ـ وإن الأمة توارثت هذه المفاهيم المعينة ، كما توارثت أشكال الصلاة والصوم والحج ونظمها الظاهرة ، وتناقلتها ، وحافظت

---

(١) راجع معرفة أسرار الحج ومقاصد الشريعة الإسلامية فيه في كتاب العلامة الندوي: «الأركان الأربعة» طبع الدار الشامية ـ بيروت ، ودار ابن كثير بدمشق .

عليها من غير أقل انقطاع ، أو أقصر فترة ، وإنه معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] و﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ وهو معنى الحديث المشهور الذي صحَّ معناه : «لا تجتمع أمتي على الضلالة»[١] .

وقد أثبت شيخُ الإسلام ابن تيمية أن سنة واحدة من السنن الكثيرة لم ترتفعْ من هذه الأمة بشكل كلي ، وأنها لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق .

والكلمات هي الوسيلة الوحيدة لنقل المعاني والحقائق من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى عصر ، ومن إنسان إلى إنسان ، فإذا وقع الشكُّ في مدلول هذه الكلمات ومصداقها ، أو صار التلاعبُ بها هيناً ، اضطربت دعائم الدين ، وتزلزلت أركانه ، وهذا يعمُّ التاريخ والشعر والأدب؛ لذلك كانت الفوضى اللغوية (Linguistic Anarchy) أشد خطراً وأكثر ضرراً من الفوضى السياسية[٢] Poht cal Anarchy .

وليست قضيةُ الأسماء والمصطلحات من البساطة بالمكان الذي يتصور كثيرٌ من الناس ، فإنها تؤثر في النفس تأثيراً خاصاً ، وتثير معاني وأحاسيس ذات الصلة بالماضي ، وذات الصلة بالعقائد والأعراف أحياناً ، ولذلك كره رسولُ الله ﷺ أن يقال «العتمة» مكان العشاء ، و«يوم العروبة» بدل

---

(١) انظر البحث في هذا الحديث في محاضرة العلامة الندوي في الجزء الثالث من هذا الكتاب بعنوان «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

(٢) ومن أمثلة هذا التلاعب بالمصطلحات الدينية : أن أستاذاً في إحدى جامعات الهند الكبرى ، وهو يدرس اللغة العربية وآدابها ، ألقى محاضرة في دورة مؤتمر الدراسات الإسلامية الأخيرة ، قال فيها : إن المراد بكلمة «الصلاة» حيثما وردت في القرآن مطلقة «الحكومة المحلية» أو «الإقليمية» ، والمراد بالصلاة الوسطى «الحكومة المركزية» أو «الخلافة العامة» وكان المقال باللغة العربية ، وقد رددتُ عليه في حينه ، وقلت في تعليقي عليه : إنه تلاعب بالقرآن وبالعقل ، وتمهيد لفوضى لغوية فكرية ، وفتح الباب للإلحاد على مصراعيه ، ونالت هذه الكلمة رضا المستمعين ، وتلقوها بالقبول والاستحسان.

الجمعة ، واستبدال كلمة يثرب بمدينة الرسول أو بالمدينة ، ولها أمثلة أخرى في الشريعة الإسلامية.

وكذلك أحذركم أيها الإخوان مما لوحظ من بعض الكُتَّاب من الضغط على أن هذه الأركان الدينية ، وفرائض الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج؛ وسائل لا غايات ، إنما شُرعت لإقامة الحكم الإسلامي ، وتنظيم المجتمع المسلم ، وتقويته ، وأحذركم من كل ما يحطُّ من شأن روح العبادة والصلة بين العبد وربه وامتثال الأمر ، ومن التوسع في بيان فوائدها الخُلُقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية أحياناً ، توسُّعاً يخيل للمخاطب أو القارىء أنها أساليب تربوية أو عسكرية أو تنظيمية ، قيمتها ما يعودُ منها على المجتمع من قوة ونظام ، أو صحة بدنية وفوائد طبية؛ فإن أول أضرار هذا الأسلوب من التفكير أو التفسير أنه يفقد هذه العبادات قيمتها وقوتها ، وهو امتثال أمر الله ، وطلب رضاه بذلك ، والإيمان والاحتساب والقرب عند الله تعالى ، وهي خسارة عظيمة لا تُعوَّض بأي فائدة ، وفراغ لا يملأ بأي شيء في الدنيا.

والضرر الثاني: أنه لو توصَّل أحدُ المشرعين أو الحكماء المربين إلى أساليب أخرى ، قد تكون أنفع ، أو يخيل أنها أنفع لتحقيق هذه الأغراض الاجتماعية أو التنظيمية أو الطبية؛ لاستغنى كثيرٌ من الذين آمنوا بهذه الفوائد عن الأركان والعبادات الشرعية ، وتمسَّكوا بهذه الأساليب أو التجارب الجديدة ، وبذلك يكون الدينُ دائماً معرَّضاً للخطر ، ولعبة للعابثين والمحرفين.

وهذا لا ينافي الغوص في أعماق هذه الأركان ، والأحكام ، والحقائق الدينية ، والكشف عن أسرارها ، وفوائدها الاجتماعية ، وقد أفاض علماءُ الإسلام قديماً وحديثاً في بيان مقاصد الشريعة الإسلامية ، وأسرار العبادات ، والفرائض ، والأحكام الشرعية ، وألفوا كتباً مستقلة ، وكتبوا بحوثاً جلية ، كالغزالي ، والخطابي ، وعز الدين بن عبد السلام ، وابن قيم الجوزية ، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، ولكن كل ذلك من غير

تحريف لحقيقة هذه العبادات والأحكام ، والغاية الأولى التي شُرعت لها ، وهي امتثالُ الأمر الإلهي ، والتقرب إليه بذلك ، والإيمان ، والاحتساب فيها ، ومن غير إخضاع لها للفلسفات العجمية أو الأجنبية في عصرهم ، ومن غير خضوع لسحرها وبريقها.

وأحذركم ثانياً أيها الشباب من كل ما يقلّل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجلي ، من عبادة غير الله ، والسجود له ، وتقديم النذور والقرابين ، وإشراكه في صفات الله من قدرة ، وعلم ، وتصرف ، وإماتة وإحياء وإسعاد وإشقاء ، وأحذركم من الاكتفاء بالتركيز على شناعة الخضوع للحكومات ، والنظم الإنسانية ، والتشريعات البشرية ، وتحويل حق التشريع للإنسان ، وأن ذلك هو وحده عبادة الطاغوت والشرك ، وأن الوثنية الأولى ، وعبادة غير الله قد فقدت أهميتها ، وإنما كانت لها الأهمية في العصر القديم ، العصر البدائي ، وأنه لا يقبلُ عليها الآن إلا الرجل الجاهل الذي لا ثقافة له ، ففضلاً عن أنَّ هذه الوثنية ، والشرك الجلي لا يزال له شيوع وانتشار ، ودولة وصولة ، يجربه كلُّ إنسان في كل زمان ومكان ، فإنها الغاية الأولى التي بعث لها الأنبياء ، وأنزلت لها الكتب السماوية ، وقامت لها سوقُ الجنة والنار. وكانت دعوةُ جميع الأنبياء تنطلق من هذه النقطة ، وكانت جهودُهم مركزةً على محاربة هذه الجاهلية ، والقرآن مملوءٌ بذلك بحيث لا يقبل تأويلاً[1].

وإنَّ كل ما يقلل من أهمية محاربة الشرك الجلي ، وعبادة غير الله سواء كانوا أشخاصاً أو أرواحاً ، أو ضرائح ومشاهد ، والعناية بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات فحسب ، إحباط لجهود الأنبياء ، واتجاه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوي إلى المنهج الجديد السياسي ، وهو تحريفٌ لا محالة ، هذا من غير أن أقلِّل من قيمة التركيز على أن التشريع لله وحده ، وله الحكم والأمر وحده ، وأن من يدعو إلى طاعة نفسه الطاعة

(١) اقرأ على سبيل المثال سورة «الأعراف» وسورة «هود» وسورة «الشعراء» والحديث عن كل نبي ودعوته.

المطلقة العمياء منافس للرب والطاغوت ، وأنه يجبُ أن يُدعى إلى التشريع الإلهي ، وإلى إقامة الحكم الإسلامي القائم على منهاج الكتاب والسنة ، ومنهاج الخلافة الراشدة ، وألاَّ يدّخر سعي في ذلك ، ولكن من غير أن يكون ذلك على حساب الدعوة إلى التوحيد والدين الخالص ، ومحاربة الوثنية والشرك ، فإنها لا تزال في الدرجة الأولى ، وهي أكبر انتشاراً ، وأعظم خطراً في الدنيا والآخرة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ١١٦] و﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] وقد قال : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣٠].

أما ما يتَّصل بصفات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية ، وجنود الدعوة إلى الله ، فإنني أركز في هذا الحديث المعجز على نقطة واحدة ، وهو أنه يجبُ أن يكون الدعاةُ يمتازون عن الدهماء والجماهير ودعاة النظم الجديدة والفلسفات الجديدة ، والفلسفات السياسية والاقتصادية بقوة إيمانهم ، وحرارة قلوبهم ، وزهدهم في زخارف الدنيا ، وفضول العيش ، ونهامة للمادية ، ومرض التكاثر ، فإنهم لا يستطيعون أن يؤثروا فيمن يخاطبونهم ، ويحملوهم على إيثار الدين على الدنيا ، والآجلة على العاجلة ، وتلبية نداء الضمير والإيمان على نداء المعدة ، والنفس ، والشهوات ، وإشعال مجامر قلوبهم التي انطفأت ، أو كادت تنطفىء ، إلا إذا شعر الناس فيهم بشيء لا يجدونه في قلوبهم وحياتهم؛ فإن الناس ما زالوا ولا يزالون مفطورين على الإجلال لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطور على احترام القوي ، والفقير مفطور على احترام الغني ، والأمي مفطور على احترام العالم ، حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم ، أما إذا رأى الناس علماء ودعاة لا يقلون في حب المادة ، والجري وراءها ، والتنافس في الوظائف والمناصب ، والإكثار من الثراء والرخاء ، والتوسع في المطاعم والمشارب ، وخفض العيش ، ولين الحياة ، فإنهم لا يرون لهم فضلاً عليهم ، وحقاً في الدعوة إلى الله ، وإيثار الآخرة على الدنيا ،

والتمرد على الشهوات ، والتماسك أمام المغريات ، وقد قيل : «إن فاقد الشيء لا يعطيه» وكذلك القلب الخاوي لا يملأ قلباً آخر بالإيمان والحنان ، وأن الموت لا ينشىء الحياة ، وأن البرودة لا تعطي الحرارة ، وأن الرماد الذي لا تكمن فيه جمرة لا يلهب القلوب الخامدة ، ولا يحيي النفوسَ الميتة ، والكشافُ لا ينير الطريق إذا كانت قد نفدت شحنته ، فلا بُدَّ أن تشحنَ القلوب بشحنة جديدة ، وإذا كانت بطارية من غير شحنة كانت أقل غناء وقيمة من عصا يحملها الإنسان ، فقيمة البطارية الشحنة ، وقيمة الشحنة النور ، فإذا لم تكن شحنة ، أو كانت شحنةَ ولا نور ، فالعصا خيرٌ منه .

أسألكم أيها الإخوان : أليس هذا العصر هو العصر الذي انتشر فيه العلمُ ، وكثرت فيه وسائل الإعلام والتربية ، وازدهرت فيه الخطابة والكتابة ، وبلغت حدَّ الشعر والسحر ، وعمَّت الجامعات في كل مكان ، وتدفق السيل من المطبوعات والمنشورات من المطابع ودور النشر ، ونبغ فيها علماء ، وباحثون ، ووعاظ ، ومرشدون ، فلماذا فقد العلماء والموجهون التأثير في النفوس والقلوب في صدِّ تيار المادية ، والاستغلال ، والجشع ، والنهامة للمال؟

هذه البلاد العربية ـ بما فيها البلاد المقدسة ـ أصبحت مصداقاً لما أخبر به الرسول ﷺ في إحدى خطبه قبل وفاته : «ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسطَ عليكم الدنيا كما بُسطت على مَنْ كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم» .

وأخوف ما نخاف أن تكتسحَ هذه البلاد الموجةُ العارمة من التكاثر في الأموال ، واستغلال حاجة الناس ، وضعفهم ، والانتهازية ، وهي الموجةُ التي لا تعرف الرحمة والهوادة ، ومكارم الأخلاق التي عُرف بها العرب في العصر الجاهلي ، وربما يعود ذلك خطراً كبيراً على الحج ومركزه ، ويمكن أن يشكل محنة للوافدين إليه ، فيضطر الدعاة في صد هذه الموجة إلى مكافحة خلقية وحملة دعوية تربوية تنظم لإصلاح الحال ، وإيقاظ

الضمير ، وإثارة الغيرة الإسلامية ، والشعور البين ، وتنطلق من المنابر والصحف ، والإذاعة ووسائل الإعلام ، وتجند لها الطاقات ، والألسن ، والأقلام.

وسمة الدعوات الحية المخلصة التي تقتبس النور من مشكاة النبوة ، وتسير على نهجها ، أنها تجسّ نبض المجتمع جسّاً صحيحاً أميناً ، وتهتدي إلى الداء الحقيقي ، ومواضع الضعف في جسم هذا المجتمع ، وتضع الأصبع عليها ، وتضرب على الوتر الحسَّاس ، من غير محاباة أو مداهنة ، ولا تكترث بألم هذا المجتمع أو ملامه ، كما فعل شعيب في دعوته ، فوجَّه دعوته ـ بعد الدعوة إلى التوحيد ـ إلى إيفاء الكيل ، والوزن بالقسطاس المستقيم ، وشنَّع على التطفيف ، إذ كان ذلك عيب المجتمع الذي بُعث فيه ، وسمته البارزة ، وكذلك فعل غيره من الأنبياء.

وهذه كانت سُنَّةُ الدعاة إلى الله من المخلصين الرَّبانيين في تاريخ الإسلام ، فكانوا ينتقدون المجتمع في الصَّميم ، ويصيبون المحزَّ ، ولذلك كان وقعُ كلامهم في النفوس عظيماً وعميقاً ، وما كان يسعُ المجتمع أن يتغافَل عنهم أو يمر بهم مراً سريعاً ، أو يمني نفسه بأنه إنما يعنون غيره من المجتمعات التي سبقت ، أو المجتمعات التي لم تخلق بعد ، وهذا كان شأنُ الحسن البصري في مواعظه؛ إذ كان دائماً يشيرُ إلى النفاق الذي كان داء المجتمع الإسلامي ، وهو في أوج مجده ورخائه ، ويذم حب الدنيا وطول الأمل ، وهذا كان شأنُ الشيخ عبد القادر الكيلاني ، فيدعو إلى التوحيد الخالص ، وقطع الرجاء ، والخوف من غير الله ، أنه لا يضر ولا ينفع سواه؛ لأن الناس كانوا قد ربطوا مصيرهم بالخلفاء والأمراء وأصحاب الحول والطول والأمر والنهي في العاصمة ، وهذا كان شأن ابن الجوزي في مواعظه الساحرة ، ومجالسه المزحومة ، فإنه كان يشنع على الحياة اللاهية الماجنة التي كان يحياها كثيرٌ من الناس في بغداد ، وعلى الذنوب والمعاصي التي كانت تقترف جهاراً ، والمنكرات التي شاعت ، فكان مئات وآلاف من الناس يتوبون ، ويقلعون عن الذنوب ، وكان نشيج يعلو ، وقلوب ترق ، وعيون

تدمع ، وموجة من الإنابة ، والرقة تكتسحُ الجموع الحاشدة؛ لأنه كان يمسُّ القلوب ، ويصور الواقع ، ولا يكتفي بالكلام العام والوعظ التقليدي(١).

وهنا أنقلُ إليكم قطعة من كتابنا: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» والمؤلف يتحدَّث عن الإمام أحمد بن حنبل وزهده:

«وقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام ، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار وغيّر مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي ، أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام ، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين ، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب ، إلا وله نزعة في الزهد ، وتغلب على الشهوات ، وسيطرة على المادة ، ورجالها ، ولعلَّ السر في ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة؛ ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ في الأمم ، كانوا زهاداً في الحياة ، مُتمرِّدين على الشهوات ، وبعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأن الزهدَ يثيرُ في النفس كوامنَ القوة ، ويشعل المواهب ، ويلهب الروح ، وبالعكس إن الدعة والرخاوة تبلد الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب.

وهناك تعليلات أخرى يوافق عليها علمُ النفس ، وعلم الأخلاق ، ولا أُطيل بذكرها ، وأقتصر على هذه الملاحظات التاريخية ، وألحَّ على أن منصبَ التجديد والبعث الجديد يتطلب لا محالة زهداً ، وترفعاً عن المطامع ، وسفساف الأمور ، ويأبى الاندفاع إلى التيارات ، ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخية ، والعيشة الباذخة الثرية ، إنما هو خلاف للرسول الأعظم ﷺ ، وقد قيل له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. وأمر بأن يقول لأزواجه: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا

(١) اقرأ تفاصيل مجالس ابن الجوزي وتأثيرها في كتاب «صيد الخاطر» بتحقيق الأستاذ يوسف علي بديوي ، طبع دار اليمامة بدمشق . و«رحلة ابن جبير».

﴿جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨] وهذه سُنَّةُ الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم، ومَنْ يرشح نفسه، ويمينها بهذا المنصب الخطير ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣][1].

ومنْ أبرز سمات الدعوة التي يقوم بها الأنبياء وخلفاؤهم؛ أنها تقومُ على الإيمان بالآخرة، والتحذير من عقابها، والترغيب في نعمائها وثوابها، ويكون مناط العمل فيها الإيمان والاحتساب والأجر والثواب، لا على الإغراء بالفوائد الدنيوية والجاه والمنصب والمال والملك، فإنه أساسٌ ضعيف منهار، ولا يتفق مع طبيعة دعوات الأنبياء، والمساومة فيه سهلة، وقد يملك أعداؤهم وخصومهم والقادة السياسيون مثله أو أكثر منه، ومن رضع بلبان هذه المطامع لم يمكن فطامه عنها، ولا يصحُّ الاعتماد عليه، وإنما يبنون دعوتهم على رضا الله وثوابه، وما أعده الله لعباده المؤمنين، وما وعدهم به على لسان أنبيائه، من نعيم لا يزول ولا يحول، والصحف السماوية ـ غير صحف العهد القديم والتوراة ـ[2] مملوءة بالحديث عن الآخرة، والاهتمام بها، والبناء عليها، وقد جعل الإسلامُ الإيمان بها عقيدة أساسية، وشرطاً لصحة الإيمان والنجاة، وقد جاء في القرآن صريحاً ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وهنا أستعير لنفسي من نفسي ما قلتُه في إحدى المحاضرات، التي ألقيتُها في هذه الجامعة العزيزة سنة (١٣٨٢هـ) تحت عنوان: «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» وأختم به هذا الحديث، مؤملاً في أن تكون هذه السمات التي تحدثتُ عنها شعار الدعوة التي يقوم بها الدعاة المتخرجون في هذه الجامعة، أو القائمون بأعبائها في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، قلت وأنا أتحدثُ عن الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية:

---

(١) رجال الفكر والدعوة الجزء الأول ترجمة الإمام أحمد بن حنبل «ص: ١٣٢».
(٢) فقد تجردت بعد التحريف، من ذكر الأخرى ونعمائها والترغيب فيها بطريقة عجيبة.

«ولم تكن دعوةُ الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة أو الإشادة بها كضرورة خُلُقية ، أو كحاجة إصلاحية لا يقومُ بغيرها مجتمع فاضل ، ومدنية صالحة ، فضلاً عن المجتمع الإسلامي وهذا وإن كان يستحقُّ التقدير والإعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما أن الأول: منهج الأنبياء ، إيمان ووجدان ، وشعور وعاطفة وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره ، وتفكيره وتصرفاته ، والثاني : اعتراف وتقدير وقانون مرسوم ، وأن الأولين يتكلمون عن الآخرة باندفاع والتذاذ ، ويدعون إليها بحماسة وقوة ، والآخرين يتكلَّمون عنها بقدر الضرورة الخُلقية ، والحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الإصلاح ، والتنظيم الخلقي ، وشتَّان ما بين الوجدان والعاطفة وبين الخضوع للمنطق ، والمصالح الاجتماعية .

* * *

العوامل التي تتكفل بنجاح الدعوة وتوجيه الأمة

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، في شهر ربيع الأول سنة (١٤٠٠هـ) وحضرها طلاب الجامعة وأساتذتها والمسؤولون عنها في عدد كبير .

وقد رأس الحفل سعادة الدكتور عبد الله الزايد ، نائب رئيس الجامعة .

أيها الإخوان ، أقول لكم : إن الأشياء الكفيلة الضامنة لنجاح الدعوة إنما هي عوامل معدودة ، أستطيع أن ألخصها في عاملين أساسيين :

أولهما : أن تملك الفكرة وتهيمن على مشاعر الداعي ، وأن تجري منه مجرى الروح والدم ، وأن تمتزج بنفسه ، هنالك يكون الداعي هو الداعي الموفق الملهم ، المؤيد من الله الذي سيكتب له النصر ، ولا يكتب له أي إخفاق أو فشل .

فالشرط الأول ألا تكون الدعوة صناعة أو حرفة أو فناً ، وألا تكون حذلقة ومجرد براعة في الخطابة ، بل تكون عقيدة وفكرة ، وإيماناً يستحوذُ على النفس الإنسانية ، ويملأ جميعَ جوانب النفس ، حتى إذا أراد الإنسان أن يتخلى عنها لم يستطع ولم يقدر ، هذا كان شأن سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يوم الردة ، هل تستحضرون الكلمة الخالدة التي نطق بها والتي غيرت مجرى التاريخ؟!

طُلب مني أن ألقي الكلمة الأخيرة في المؤتمر الآسيوي الإسلامي الأول في كراتشي ، وأمامي نخبة من قادة الفكر الإسلامي ، ومن قادة العالم الإسلامي ، فاستعنت بهذه الكلمة ، وقلت لهم : ما هي تلك الكلمة التي ستكون رائدة هذا المؤتمر ، فيحملها الذين يتصرفون من هذا المؤتمر؟ قلت لهم : إن الكلمة التي تحملونها من هنا هي الكلمة التي جرت على لسان أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يوم الردة ، ومَنْع الزكاة : «أينقص الدين وأنا حي؟» .

أنتم المسؤولون أمام الله يا إخوتي الطلبة ، أبنائي شباب المسلمين والعرب! أنتم مسؤولون أمام الله ، درستم في هذه الجامعة المباركة ، وأي مكان أقرب إلى مدرسة الرسول ﷺ وإلى صفة المسجد النبوي التي درس فيها كبار الصحابة ، وحفظوا ، ووعوا أحاديث رسول الله ﷺ ، وتخرج منها مثل أبي هريرة راوية الحديث ، ووعاء من أوعية العلم ، أي جامعة أقرب

إلى هذه المدرسة من هذه الجامعة ، إذاً فمن أي جامعة تتوقع أن يخرج منها دعاة تملكهم الدعوة؟!

والله لو استطعتُ أن أنقشَ هذه الكلمة على صدر كل واحد منكم لفعلت ، يا ليتها كانت هذه الكلمة مكتوبة في كل بيت على لوحة بقلم عريض : «أينقص الدين وأنا حيّ؟» .

أما الشيء الثاني : فهو التجرد عن المطامع ، والزهد في الدنيا ، لا أعني به زهداً نصرانياً ، ولا زهداً رهبانياً .

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد : ٢٧] الآية .

ولا رهبانية في الإسلام ، ولكن الدعوة تحتاج إلى شيء من سمو النفس وعلو الهمة ، والتجرد عن المطامع ، والزهادة في المناصب والوظائف الكبيرة .

إن من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنكم تنافسونهم في ملكهم ، وفيما وسع الله به عليهم ، فإنهم يشكون في إخلاصكم ، ويكونون حرباً عليكم ، فأوضحوا لهم أنكم لستم طلاب ملك ، ولا منتجعي جاه ومنصب ، ولا رواد ثروة ورخاء ، أو مدفوعين من شحّ وحرص .

قيل لشيخ الإسلام ابن تيمية : يقال : إنك تريد الملك ، فقال في دهشة وقوة : أنا أريد الملك؟! والله إن ملك التتار لا يساوي عندي درهماً ، وقد كانت دولة التتار أكبر دولة ، وأكبر قوة على وجه الأرض في ذلك الحين .

وإن أحد المربين في الهند الذي نفع الله به خلقاً كثيراً ، عرض عليه ملك دهلي مالاً طائلاً ، فقال له : لا شأن لي به ، قال : لا بد من أن تقبل شيئاً مما أعطاني الله ، فقال : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء : ٧٧] فإذا كانت الدنيا كلها قليلة : فقارة آسيا ـ طبعاً ـ أقل منها ، والهند أقل منها ، ثم دهلي أقل منها ، وأنت لا تملك إلا هذا ، فكيف أرزؤك في هذا الزهيد اليسير؟!

وأحكي لكم قصة وقعتْ في دمشق ، كان الشيخ سعيد الحلبي من كبار الأساتذة والمربين في القرن الماضي ، وكان ـ مرة ـ يلقي درساً في جامع من جوامع دمشق ، فجاء إبراهيم باشا ـ الحاكم العام لسورية ـ وإبراهيم باشا مَنْ تعرفونه في القسوة والعنف ـ ودخل ووقف أمام الباب ، وكان الشيخ يشكو ألماً في رجله ، وكان ماداً رجله إلى الأمام؛ لأنه كان مستنداً إلى جدار المحراب ، ويلقي الدرس ، فكانت رِجْله إلى الباب فدخل إبراهيم باشا ومعه المحافظون العسكريون ، والشرطة ، فانتظر وتوقع أنه سيقبض رجله ، ولكنه لم يفعل ، وخاف أصحابه عليه من السيف ، وقبضوا ثيابهم لئلا يصيبها دمٌ زكي ، دم عالم تقي ، وبقي إبراهيم باشا واقفاً ، ثم رجع ، وأرسل صرَّة من دنانير ذهبية مع أحد الخدم ، وقال: تقدم إلى سيدنا الشيخ سعيد الحلبي ، وتقول له: هذه هدية من إبراهيم باشا ، فلما جاء بها الخادم إليه قال كلمته البليغة الحكيمة؛ التي هي أبلغ من ألف قصيدة ، قال: قل لسيدك إن الذي يمدُّ رِجْلَه لا يمدُّ يده.

فالإنسان مخير ، إما أن يمدَّ رجله وإما أن يمدّ يده ، فإذا مدَّ رجله لا يسوغ له أن يمدَّ يده؛ لأنه تناقض.

وقد جُبِل الناسُ على حب من زهد فيما عندهم والبغض لمن ينافسهم فيما يحرصون عليه ، هذه هي الطبيعةُ البشرية منذ آلاف السنين ولا تزال ، فأنتم إذا أردتم أن تؤثروا في نفوس من توجهون إليهم الدعوة ، فأوضحوا لهم أولاً ، وطمئنوهم أنكم لستم طلاب ملك ومال وطلاب رئاسة وجاه ، وطلاب مناصب ووظائف ، إنما أنتم تفعلون ذلك شفقة عليهم ، ورقّة بهم ، وعطفاً عليهم ، وخوفاً من أن يصيبهم مكروه.

أنا تليمذٌ صغير لتاريخ الإصلاح والتجديد ، وإن هواياتي ـ وإن كانت متعددة ـ ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ ، وخاصة تاريخ الإصلاح والتجديد ، فما رأيتُ تجربةً في القرون الأخيرة ـ أعني: بعد القرن الثامن على الأقل ـ أنجح وأكثر توفيقاً من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السرهندي في القارة الهندية ، وقد حكيتُ قصته في الجزء

الرابع من كتابي: «رجال الفكر والدعوة» الذي سيصدر إن شاء الله قريباً باللغة الأردية، وستقرؤون هذه القصة بالتفصيل.

تقرؤون فيه أنه كيف استطاع الرجلُ الأعزلُ المجرد من كل سلاح، والمجرد من كل ثروة مادية، والمجرد من كل جيش، أن يحوِّل التيار في الإمبراطورية المغولية العظمى؛ التي كانت في الدرجة الثانية بعد الإمبراطورية التي لم تكن إمبراطورية ـ بعد الإمبراطورية العثمانية ـ أكبر منها مساحة، وأكثر منهما فتوحاً ونجاحاً، ، كان على رأسها الملك القوي القاهر الذي اتسعت له الفتوحات الواسعة العظيمة؛ وهو جلال الدين أكبر، وكان هذا الإمبراطور نشأ في قلبه عداء للإسلام، وحقد عليه؛ لأنَّ مَنْ ينحرف عن الإسلام، ويثور عليه أقبح وأشد من الذي نشأ في الكفر، كما حكيتُ لكم في حديثي بالتفصيل في محاضرتي بعنوان: «عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي» وفي هذه الجامعة نفسها، ولأنَّ الذي يخرجُ من النور إلى الظلام يكون أعمش، وأقل إبصاراً من الذي نشأ في الظلام، ثم إنه يُصاب بمركَّب النقص.

فكان الإمبراطور جلال الدين، نشأ فيه عداء شديد للإسلام، ومن الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيعُ أحد في بلاطه أن يُسمِّي ابنه محمداً؛ لأنه كان يكره هذا الاسم، فترك الناس التسمية بهذا الاسم، وكان مَنْ يذبح بقرة في عهده يُعاقب بالقتل، وكان قد فتح الخمارات، وشجَّع الناس على شرب الخمور، وأكل لحم الخنزير، وكان قد تأثر بالبرهمية والوثنية الهندية. كان يتَّجه بالمملكة إلى الطابع الهندي البرهمي، والفلسفة الهندية القديمة[1].

هنالك قيَّض اللهُ ـ تعالى شأنه ـ لمكافحة هذا التيار، ومقاومة هذه الفتنة العظيمة الشيخ أحمد السرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ) فجلس في ركن من أركان بيته، وبدأ يفكر في شقّ الطريق لمكافحة هذا التيار، فجعل يراسلُ

(١) راجع للتفصيل محاضرة العلامة الندوي في هذا الجزء بعنوان «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها».

الملك وأهل البلاط ، من الوزراء الكبار ، والأمراء العظام ، ويثيرُ فيهم النخوة الإسلامية ، والحمية الدينية ، ويقول لهم: يا جماعة ، أنتم مسلمون وأولاد المسلمين ، وقد شرَّفكم الله تعالى بنعمة الإسلام ، ورغم ذلك نرى أتباع محمد ﷺ ـ وهو حبيبُ ربِّ العالمين ـ أذلاء في هذه البلاد التي فتحها المسلمون ، وأراقوا عليها أزكى دمائهم ، وصرفوا لها أفضل عبقرياتهم ، وأحسن مواهبهم كيف تحتملون هذا الوضع ، وكيف ترضون بذلك يا عباد الله؟!

صار يثيرُ فيهم كامنَ الإيمان ، ويُحرِّك فيهم العرقَ الإسلامي الذي لا يخلو منه قلبُ أيِّ مسلم ، وما زال يثيرُ فيهم النخوة الإسلامية ، ويُواصل العمل ، وبقي هكذا مدة طويلة يراسل ، ويكتب ، ويقابل حتى كسب عدداً من الأمراء ، فكانوا أنصاره وتلاميذه ، ومات جلال الدين أكبر ، وخلفه ابنه نور الدين جهانكير ، وطلبه إلى بلاطه ، ولم يسجدْ له الشيخ تعظيماً كما كانت العادة في البلاط ، فسجنه فبقي في السجن سنتين ، ثم أمره بأن يبقى في المعسكر ، ويرافقه لمدة ثلاث سنين ، فصبر على هذه الحالة ، وعرف جهانكير أنه من طراز آخر ، وأنه عالم رباني مخلص ، زاهد في الدنيا محب للخير فأحبه وأجله ، وبدأ يهتم برفع شعائر الإسلام وبناء المساجد في المناطق والقلاع التي كان يفتحها ، واحترام الإسلام والمسلمين.

ولم يزل يُجري اتصالاته بالأمراء المسلمين وكبار الوزراء؛ حتى كوَّن مجموعةً مؤمنة ذات حمية دينية ، فقلب التيار ، وغيَّر مجرى التاريخ ، فكان جهانكير أفضل من أبيه أكبر ، وكان ابنه شاهجهان أفضل من أبيه جهانكير ، ومما يدلُّ على ذلك أنه لما صنع له «عرش الطاووس» الذي صرف عليه الملايين ، وتربَّع عليه نزل بعد هنيهة ، وقال: لقد كان فرعون سفيهاً ، إنه جلس على عرش آبنوس ، وادعى الألوهية ، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولكني أنا مسلم ، ثم سجد لله شكراً ، ثم جلس على العرش.

وخلفه أورنك زيب عالمكير ، ذلك الذي دوَّن الفتاوى الهندية ، وطبق

الأحكام الشرعية ، ونصب الجزية على الهندوس ، وكان من أفقه الملوك الذين عرفناهم في العصور الأخيرة ، ومن أغير الملوك على الإسلام ، ومن أكثر الناس حرصاً على اتباع السنة لا تفوته جمعة ولا جماعة ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً ، وشرحها.

كلُّ ذلك بجهود رجل واحد فقير أعزل ، ولكنه تملكته العقيدة ، وسيطرت عليه الفكرة ، وتشبثت به الغاية النبيلة ، حتى أصبح لا يملك نفسه ، ولا يقدر على التحول من موقفه ، وقد أثبت للملوك أنه لا يريد الملك ، وقال لهم: إذا صلحتم أنتم فأنتم أولى للحكم ، لا أشاطركم ، ولا أنافسكم في ملككم ، وأدعو الله تعالى لكم بالتوفيق والنجاح ، وخذوا أنتم الزمام بأيديكم ، وطبقوا الأحكام الشرعية ، وتوجَّهوا بهذه البلاد إلى الإسلام.

هذان عاملان أساسيان في رجال الدعوة: أحدهما: تملك الفكرة وسيطرتها على نفسه ، والثاني: التَّجرُّد عن المطامع الدنيوية ، والزهد في المناصب ، والملك.

وأكتفي بذلك ، وأرجو أن يكون هذا بلاغاً للمستمعين النبهاء الأذكياء أبنائنا أبناء الجامعة الإسلامية ، وعسى الله أن ينفعنا جميعاً لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

وأعود لأقول لكم: إنه ينبغي أن تكون كلمتكم الرائدة: «أينقص الدين وأنا حي؟!».

والسلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته ، وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

روائع من أدب الدعوة
في القرآن والسيرة

لمَّا تحقَّق حلمُ جامعة ندوة العلماء القديم في صورة افتتاح المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي عام (١٤٠٠هـ) كان من نجاح هذه السنة الدراسية ، أنها ازدانت بسلسلة من محاضرات العلامة الندوي ،وقد تركَّزت موضوعاتها على أسلوب الدعوة في القرآن والسيرة ، وكان العلامة الندوي أجدر الناس وأحراهم بإلقاء المحاضرات على الطلاب في هذا الموضوع الدقيق ، ذلك أولاً؛ لأنه درس اللغة العربية دراسة عملية دقيقة ، وتفهم روحها البلاغية ، ومارس الكتابة والكلام فيها بأسلوب بليغ ، حاز من أهل اللغة التقدير والإعجاب ، وثانياً؛ أنه تخصَّص في علوم القرآن وتفسيره ، ورسمها بصورة عميقة أيضاً ، ثم انخرط في تدريسه مدة طويلة ، ومن اطلع على كتاباته ومؤلفاته عرف أنها تعتمد على القرآن قبل أن تعتمد على غيره ، وتستمدُّ منه الروح والقوة والإيمان ، وذلك سرُّ قوتها وتأثيرها ، فكان خير من يدخل في موضوع قرآني مهم ، ويبحث فيه عن جدارة وكفاءة.

وهذه المحاضرات من السلسلة القرآنية ، تشرح للقارىء قصص القرآن ، وأساليب دعوة الأنبياء شرحاً مبدعاً مثيراً ، يُنِير جوانبَ عديدة من دعوة الأنبياء ، وأسلوب حوارهم مع أممهم ، ومواجهتهم لردِّها عليهم ، وهي تفتحُ آفاقاً جديدةً لعلوم القرآن ومعانيه أمام الدعاة وباحثي ودارسي القرآن.

المحاضرة الأولى

حكمة الدعوة ومرونتها ومجاراتها لكل بيئة وعصر

أحمد الله ، وأثني عليه بما هو أهله ، وأُصلِّي على نبيه ﷺ ، ثم قال :

*** تحقيق أمنية قديمة :**

وبعد فإنني أحمد الله تبارك وتعالى على هذا اللقاء الكريم السعيد ، فإني أري في ذلك تحقيقاً لأمنية قديمة ، بل ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وإننا نلتقي اليوم على صعيد التفكير والتأمل في مناهج الدعوة ، وفي أساليبها ، وفي طرقها ، وفي آدابها ، وإن هذا الموضوع في الحقيقة قيمة هذه المؤسسة العظيمة؛ التي قامتْ قبل تسعين سنة تقريباً .

ما هو أسلوب الدعوة في القرآن؟ أو بم يوصي القرآن الداعي إلى الله؟ وما هي مناهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة؟ وما هي الآداب التي يحبُّ القرآنُ أن يتحلَّى بها الداعي إلى الله؟ هل هناك أحكام وتوجيهات معينة محدودة في القرآن يأخذ بها الداعي ، ويدرسها الطالب في مدرسة الدعوة؟

هذا موضوع له أهميةٌ كبيرة؛ لأنه يتصل بالقرآن ، ويتَّصل بالدعوة ، فكيف إذا التقى هذان الجانبان المشرقان المنيران المثيران في موضوع واحد؟!

*** القرآن كتاب هداية ودعوة، قبل أن يكون كتاب أحكام وشريعة:**

إنَّ القرآنَ هو كتاب هداية ودعوة قبل أن يكونَ كتاب أحكام وشريعة ـ مع كل إجلالنا وتقديرنا للأحكام والشريعة ـ إن الأحكام والشريعة لا غِنى عنها، ولكن القضية، قضية الأولية، قضية الطابع الغالب، وقضية الغاية التي يدور حولها القرآن، فأنا أعتقد ـ في ضوء دراستي القاصرة المحدودة ـ أن القرآن هو كتاب هداية ودعوة، قبل أن يكون كتابَ أحكام وشريعة؛ لأن الهداية هي الأساس للإيمان، والدعوة هي الأساس لنقل هذا الإيمان، فإذا كان هذا هو الشأن، فلا شكَّ في أن القرآن هو كتاب هداية ودعوة قبل أن يكون كتاب شيء آخر.

*** الدعوة لا يمكن أن تخضع لقوانين مرسومة، وتتقيد بها:**

فما هي الأحكام التي يشرحها القرآنُ الكريم في موضوع الدعوة؟ وما هي الأداب التي يؤكدُ عليها القرآن، ويدعو إليها؟ هل هناك قوانين مرسومة، وأحكام مضبوطة للدعوة؟ إنني أعتقدُ أن الدعوة لا يمكنُ أن تخضعَ لقوانين مرسومة، وأحكام مضبوطة؛ لأنَّ الدعوة تعتمد على المحيط وعلى الظروف والبيئة، وعلى الجو والملابسات، فإذا كانت الدعوةُ تعتمدُ على الواقع وهو يختلف، وإذا كانت الدعوةُ تعتمدُ على الارتجال، ولا أريد الارتجال الكلامي اللساني، إنما أريدُ الارتجال العقلي، والذي يُسمِّيه أهل البلاغة بحضور البديهة، وإذا كانت الدعوةُ تعتمدُ كذلك على مكامن المرض، ومكامن الضعف في النفس الإنسانية، وفي المجتمع الإنساني، فإنه ما يمكن أن يقال: يجب على الداعي أن يفعل كذا ويتكلم بكذا، ويظهر في المظهر الفلاني وإن بان المظهر البلاغي، وبدأنا نشرع هذه الأحكام، ونرسم هذه الخطوط وإن كانت خطوطاً عريضة، ونقول: تنطلقُ الدعوةُ من الخط الفلاني إلى الخط الفلاني، ولا تتخطى هذه الحدود والخطوط، فقد يتورط الداعي فيما تورَّط فيه سيد مع خادمه، كما تحكي حكاية لطيفة، تقول القصة: إن رجلاً استخدم خادماً، وكان هذا الخادمُ ذكياً قانونياً،

طلب من السيد أن يضعَ له قائمة الواجبات ، ما هي الواجبات التي أكلف بها ، فوضع له قائمة ، تعمل كذا في الوقت الفلاني ، وتعمل كذا ، وتذهب إلى السوق ، وتحضر لنا الحاجيات اليومية من لحوم وخضر وغير ذلك ، وتقوم بالخدمة الفلانية ، فأخذ هذه القائمة واحتفظ بها ، ومرة ركب هذا السيد جواداً ، ولكنه لسوء الحظ ارتبكت رِجْله في الركاب ، وأراد أن يتغلَّب على هذه المشكلة فما نجح ، وكان الخادمُ واقفاً ، فاستعان به ، وقال: أغثني يا فلان ، فأخرج الورقةَ من جيبه ، وفتحها ، ومدَّها إليه ، وقال: أين في هذه القائمة أن السيد إذا ارتبكت رجله بالركاب فإني أعينه ، والسيد يعاني مرحلة فاصلة بين الموت والحياة ، يخشى عليه أن يسقط ، أو أن يتورَّط في مشكلة أخرى ، ولكن هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة ، وكان أميناً عليها ، مرتبطاً بها ، ورفض أن يعينه ، لأنه غير مكلف بهذه الخدمة ، لذلك يقول الشاعر العربي ، وقد كان العرب على جانب عظيم من سلامة الفطرة ، ومن الانتفاع بتجارب الحياة:

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً فأرسلْ حكيماً ولا توصه

*** دعوة لها مساحة زمانية ومساحة مكانية:**

أما الدعوة فأمرها بعيد ، وساحتها واسعة جداً ، ولها مساحة زمانية ومساحة مكانية ، وكلتاهما واسعتان ، أما المساحة الزمانية فهي تمتدُّ من مصدر الدعوة ـ إذا كان نبياً ، وإذا كان مؤسس دعوة كبيرة ـ إلى ما لا نهاية له ، كذلك لها مساحة مكانية ، واسعة ، فقد يكون الداعي في الشرق ، وقد يكون في الغرب ، وقد ينتقل الداعي من الشرق إلى الغرب ، فإذا كان قد تمرن على طبيعة الشرق؛ فإنه لا يستطيعُ أن يقوم بمهمته في الغرب.

*** الإيجاز والإعجاب في آية الدعوة ، سعتها وعمقها:**

فكان من إعجاز القرآن أنه لم يتعرَّضْ لأحكام تفصيلية في موضوع الدعوة ، وإنما وكلها إلى العقل السليم ، وإلى الذوق المستقيم ، وإلى العقيدة الراسخة ، والفكرة المتغلغلة في الأحشاء ، ثم حاطها بسياج واسع ، هو السياجُ الوحيد الذي يستطيعُ أن يحيط بالدعوة ، وهو قوله

تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] تشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية، وأبعاد التقيد الذي جاء فيها، فأطلق، وقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾، ما حدَّد، وما عيَّن شيئاً معيناً خاصاً، فمثلاً تدعون الناس إلى الإيمان بالله وحده، وإلى العقيدة الصحيحة، وتحثون على الصلاة، تدعون إلى مكارم الأخلاق، وإلى الفضيلة، أو تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسانية، و﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يحوي كل شيء، إنه يمتد ويسع الآفاق، ليست هذه الآفاق فقط، إنها آفاق الأديان السماوية، وآفاق الحاجات البشرية، والحياة الإنسانية، فاستحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ ﴾ وهو لا يختص بالخطابة، ولا يختص بالكتابة، ولا يختص بالوعظ والنصيحة، إنما قال: ﴿ ٱدۡعُ ﴾، والدعوة عامة تشمل هذه المعاني كلها، وهذه الأساليب كلها. ثم قال ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وأي كلمة أوسع أفقاً، وأعظم إطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾؟!

إن الحكمة ـ الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية ـ لا أعتقد أنها من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى، وكذلك ﴿ ٱلۡمَوۡعِظَةِ ﴾ كلمة مطلقة، و﴿ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ أيضاً كلمة مطلقة، وهنا جاء القرآن يحلُّ هذه المشكلة، فأطلق وقيد، وأوجز وأعجز، فقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ الآية.

وقد جاءت هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدَّث عن أكبر داع من الأنبياء قبل الرسول ﷺ، وهو سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقال:

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

ثم بعد ذلك يقول: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ لهذه الآية صلة خاصة بدعوة

سيدنا إبراهيم ، هنالك خيط يربطُ بين سيدنا إبراهيم وبين أمر الدعوة ، إن ورود هذه الآية في سياق الحديث عن سيدنا إبراهيم يدلُّ على أن سيدنا إبراهيم كان آخذاً بهذا الطريق ، ملتزماً لهذا الأدب ، وكانت دعوته مؤسَّسة على الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن.

*** الأمثلة والنماذج عنصر هام ، استخدمه القرآنُ فيما يتعلق بالدعوة:**

ولكن هنا عنصر آخر ، استخدمه القرآن ، واعتمد عليه ، وهو من أهم العناصر ، ومن أكبرها تأثيراً ووقعاً في النفس ، وإعانة على أداء هذه المهمة ، وذلك العنصر هو الأمثلة العملية والنماذج الشخصية ، فالقرآنُ إذا كان قد ترك الأحكام التفصيلية الدقيقة ، والقواعد المضبوطة المعينة للدعوة ، فإنه قد ملأ هذا الفراغ ـ إذا كان فراغاً ـ بنماذج من سيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن دعوتهم ، وهي نماذج مؤثرة في القلوب ، ساحرة للنفوس ، فإن النماذج لها من التأثير ما لا يكونُ لأيّ عنصر آخر ، لا للعناصر المنطقية ، ولا للعناصر الكلامية الجدلية ، ولا للعناصر النفسية ، فكلُّ الصحف السماوية من أولها إلى آخرها اعتمدت على النماذج العملية ، وهي قطعٌ بديعة تستهوي النفوس ، من سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأكثرها مقتبسة من سير أربعة من كبار الرسل ، أولهم سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وثانيهم سيدنا يوسف ، وثالثهم سيدنا موسى ، ومسك الختام هو خاتم الأنبياء والرسل محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

*** نموذج من دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه:**

والقرآن لم يغفل نكتة مهمة جداً ، وهي أنه إذا كان قد اقتصر على نماذج نبوية فقط ، فكان للإنسان أن يقول ـ في أي زمن من الأزمان ـ أين نحن من هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ هؤلاء هم الذين أكرمهم الله بالرسالة وبالوحي والنبوة ، وأيّدهم بروح منه ، فكيف نقلدِّهم؟ وكيف نستطيع أن نترسَّم خطاهم؟! فعرض القرآنُ نموذجاً لإنسان لم يكن نبياً ، ولم يكن من كبار أصحاب الرسل ، هو مؤمنٌ من آل فرعون ، والقرآن اكتفى بقوله:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ ﴾ [المؤمن : ٢٨] يعني : أن أحواله وظروفه لم تسمحْ له بإظهار دينه ، ولو كان على ذروة عالية من الإيمان لأعلن إسلامه ، كما أعلن سيدنا أبو بكر ، وكما أعلن سيدنا عمر ، وكما أعلن سيدنا أبو ذر ، ولكنه مؤمن كان لا يزالُ يكتم إيمانه ، وقد مكَّنته هذه الفرصة ـ وهي عدمُ ظهور إيمانه ، وإعلانه الحرب على قومه ـ من ظهوره في مظهر صديق ناصح ، وزميل محب للخير لإخوانه ، وهي فرصةٌ يجبُ أن يستفيد منها الداعيةُ الحكيم الذي يكون في هذا الوضع ، ويستفيد منها الداعية الذي لا يكونُ في هذا الوضع ، فيتلقى منه دروساً في ترقيق الكلام وتنويعه ، والتبصير بالواقع ، وقصص الماضين ، وعواقب الأمور ، وكلاًّ وعد الله الحسنى .

❊ ❊ ❊

المحاضرة الثانية

نموذجان من دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

* نموذجان من دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

ليكن موضوع حديثنا اليوم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهنالك نموذجان من دعوته ، إذا قارن الإنسانُ بين هذين النموذجين ملكته روعة الحكمة ، وروعة الدعوة النبوية ، ونموذج حين دعا والده ، ونموذج حين دعا قومه ، وترون تنوُّع الأسلوب ، وليس تنوع الأسلوب فقط ، بل تنوُّع فَهْم النفسية ، والدخول إلى أغوار النفس الإنسانية ، فإذا تأملتم في الآيات التي وردتْ في دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لوالده ، عرفتم كيف يدعو الولد الوالد ، ثم إذا قارنتموه بالأسلوب الذي دعا فيه قومه ، عرفتم أسلوباً آخر يليقُ بالمقام ، فأنا أقرأ لكم أولاً الآيات التي وردت في دعوته لوالده .

* دعوة الولد للوالد :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤١ ـ ٤٥] .

*** إثـارة للـحنـان الأبـــوي:**

أولاً تتأملون في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ﴾ لهجة فيها الرقة ، وفيها البر ، وفيها التواضع ، وهذا يرجعُ إلى الذوق السليم ، كذلك كان الذين قد تذوقوا القرآن ، وتشرَّبوا روحه ، إذا قرؤوا آيات العذاب كان يرتعدُ صوتهم ، ويحمرُّ وجههم ، وإذا قرؤوا آيات الرحمة ترقُّ قلوبهم ، وتلينُ أصواتهم ، فالولد إذا خاطب أباه بقوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ﴾ أثار فيه الحنان الأبوي ، وكان يمكنُ لإبراهيم أن يصيح فيقول: يا سيدي ، أو يقول: يا شيخَ الكهان ، لأنه كان كاهناً ، ولكنه يقول: ﴿ يَٰٓأَبَتِ﴾ تعمد إبراهيم هذه الكلمة ليصل بها إلى أعماق قلبه ، ويثير فيه الحنان ، فالولدُ مهما بلغ الغضبُ من والده إذ ناداه بقوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ﴾ يا والدي الكريم ، رقَّ وتهيأ لسماع كلامه.

إن إبراهيم أثـار فيه الحنان قبل أن يثير فيه الإيمان ، والحنان يسبقُ الإيمان أحياناً فقد يكون الوالدُ حنوناً ولا يكون مؤمناً ، فهذا الحنان هو الذي يستطيعُ الإنسان أن يعتمدَ عليه ، ولا ينبغي للداعي الحكيم أن يغفل هذا الجانب ، وإذا أغفل هذا الجانب فإنه أساء إلى نفسه ، وأسـاء إلى دعوتـه إذا كان غليظـاً ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالرسولُ عليه الصلاة والسلام رعى هذا الجانب مع عمه أبي طالب ، فخاطبه في مواضع دقيقة محرجة بقوله: «يا عم» فقال حين رأى حيرته في أمر الدعوة إلى الإسلام ، وارتباكه فيها ، وتخوفه من معرَّة قريش: «يا عم ، لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمر في يساري ، على أن أتركَ هذا الأمر ، ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وكانت نتيجة هذه الرقة مع الصرامة ، وإثارة العاطفة الإنسانية في أبي طالب ـ مع إيثاره لدين آبائه ـ أن قال له ، ـ وقد خاطبه بقوله: يا بن أخي ، كما خاطبه رسولُ الله ﷺ بقوله: «يا عم» ـ: «اذهب يا بن أخي فقلْ

ما أحببتَ ، فو اللهِ ما أسلمك لشيء أبداً»[1] .

*** حسن اختيار سيدنا إبراهيم للدلائل :**

ثم إن سيدنا إبراهيم اختار من الدلائل في إثبات كون هذه الآلهة لا تستحقُّ العبادة ، الأشياء المحسوسة الملموسة اليومية ، لم يبدأ بالأشياء التي تعتمدُ على المنطق ، وتعتمد على الذكاء النادر ، وتعتمد على بحوث علمية ، أو نظرات فلسفية ، إنما اختار الشيء الذي يفهمه الطفل ، لأن والده كان في الطفولة العقلية ، وإن كان متقدماً في السن ، فخاطبه كما يخاطب الطفل : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم : ٤٢] ، ثم قال : ﴿ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾ [مريم : ٤٣] وهذا من دواعي السرور للرائد العاقل ، فينبغي أن يفتخر ويستبشر بتفوق ولده في العلم والمعرفة ، والعقل والوعي ، وما كان فيه شيء من المبالغة وخرق العادة؛ لأن هذا يقع كثيراً ، يتعلم الولد ولا يتعلم الوالد ، ويكون الولد أعلم من والده ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ [مريم : ٤٣ ـ ٤٤] .

إن كل آية من هذه الآيات وراءها معانٍ عميقة ، وحِكَم دقيقة ، إنه لم يذكر الشيطان بصفات تدقُّ ، وبصفات يلتوي فهمها على هذا الرجل الساذج البسيط؛ الذي بلغ من غباوته أن كان ينحت الأصنام ثم يعبدها ، وإنَّ أكبر جنايات إبليس ، أنه كان للرحمن عصياً ، ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم : ٤٥] .

*** الاعتماد على الفطرة والواقع في دعوته عليه السلام لقومه :**

ويقترن هذا الأسلوب بالأسلوب الذي دعا به سيدنا إبراهيم قومه ، تعرفون الفرق ، فيقول القرآن : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : ٦٩ ـ ٧٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام (ق١) (٢٦٥ ـ ٢٦٦) .

تتأملون في هذه الآيات ، وتعرفونها من أولها إلى آخرها ، فأولاً تتفكرون في حكمة سيدنا إبراهيم في الدعوة؛ لأنه لم يقترح من نفسه أسماء أو صفات لهذه الآلهة ، حتى لا يثير هؤلاء فيردّون عليه وينكرونها ، بل استنطقهم أولاً فقال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ، وهنالك يلجأ إلى الدلائل المنطقية ، أو الإشارات الفلسفية ، وقال: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ فإن الحياة الإنسانية تدور حول هاتين النقطتين ، يسمع الإنسان إذا دُعي ، وينفع ويضر إذا استُعين ، هذا الخيطُ الذي يربط فرداً بفرد ، ووجوداً بوجود ، ومؤسسة بمؤسسة ، اختار هذين الشيئين وهما القطبان اللذان تدورُ حولهما رحى الحياة كلها .

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ هذا الذي كان يريدُ سيدنا إبراهيم أن يقولوه ، فهذا هو جواب العاجز ، جواب المنقطع ، يعني: ما هو الدليل على هذه الأسماء؟ هل لها مسمّيات؟ وهذه الأصنام المنحوتة ، والأوثان المنصوبة ، والآلهة الخيالية الأسطورية الأخرى ، هل لها فائدة في الحياة؟ وقدرة على العمل ، ومكنة من النفع والضرر ، وسند من العلم؟ .

*** استفاد ثروة الذكاء والبيان ، وطاقة الدفاع عن النفس من المخاطب:**

وتستمرون في دراسة هذه الآيات تنتقلون من معنى إلى معنى ، فتفهمون الفرقَ بين الأسلوبين ، وفهم سيدنا إبراهيم العميق الدقيق ، للنفسية الإنسانية ، وقدرته وبراعته في الدخول إلى مداخل النفس الدقيقة ، وإلى أغوارها العميقة ، وكيف استخرج كلَّ ما عندهم من ثروة ذكاء ، وثروة بيان ، وثروة دفاع عن النفس ، وآخر سهم في كنانتهم كانوا يستطيعون أن يطلقوه: ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فسيدنا إبراهيم استنفد كلَّ ما عندهم من قدرة جواب فأصبحوا مفلسين ، أصبحوا فقراء ، أصبحو لا شيء عندهم .

ثم بدأ يوجِّه إليهم الدعوة ، ويدعوهم إلى الله وإلى التوحيد ، فقال:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢].

* المنهج القرآني إثبات مفصل، ونفي مجمل:

هنالك نكتة عجيبة من معجزات القرآن، وهو ما نبّه عليه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية، فقال: إنَّ فلاسفة اليونان إذا عرفوا واجبَ الوجود، أو المبدأ الفيَّاص ـ على حدِّ تعريفهم ـ فإنهم يتوسَّعون، ويُدقِّقون في نفي ما لا يليقُ به عندهم (من الصفات وغيرها) أما إذا تعرَّضوا للإثبات فإنهم يختصرون ويجملون، ففي الفلسفة نفي مفصل، وإثبات مجمل، بالعكس من القرآن، فهنالك إثباتٌ مفصَّل ونفي مجمل، في وصف الله تعالى، في أسمائه وصفاته، وكذلك في الأديان السماوية، وتعاليم الأنبياء إثبات مفصَّل، ونفي مجمل[1]» اقرؤوا القرآن في الإثبات والحديث عن الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

واقرؤوا قوله تعالى في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وكذلك يقول شيخُ الإسلام: إن مئات من أساليب النفي لا تقوم مقام إثبات واحد، وقد صدق، فإن هذه الحياة التي نعيشها، والتي عاشتها البشرية الأولى كلها، إنما عاشتْ على الإثبات، ما عاشتْ على النفي، النفي نسبة ضئيلة جداً إلى الإثبات.

---

(١) المعنى مأخوذ من «كتاب النبوءات» لشيخ الإسلام ابن تيمية، والتعبير للعلامة الندوي.

*** الانطلاق والتدفق في الحديث عن الله تعالى:**

فسيدنا إبراهيم قال في جواب قولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فاكتفى بالنفي المجمل، ولكنه لما جاء إلى ذِكْر الله تعالى، والدعوة إليه توسَّع، واستعان بالإثبات المفصل، فقال:

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٢].

خمس خلال، هنالك خصلتان فقط: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ لكنه لما ذكر الله تعالى، وتحدَّث عنه، كأنه شعر بطرب، وجاشت نفسه، فتوسَّع في الحديث عنه تعالى.

إن الإنسان إذا ذاق شيئاً لذيذاً فإنه يلوكه ويمضغه، ويُديره في الفم، أما إذا كان الشيء مرّاً ـ ولا بُدَّ منه ـ فإنه يبتلعه ابتلاعاً، ويتخلص منه بسرعة.

فلما ذكر الله تعالى تحركت العاطفةُ فيه، وجاش فيه الإيمان، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

*** مناسبات لطيفة:**

هنالك جاشتْ نفسُه مرة أخرى، فثار يدعو الله تعالى، مع أنه ليست هذه مناسبة الدعاء، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥].

وهنالك خطر أبوه بباله وتذكره، فإنه كان من القادة إلى هذه الوثنية،

والسادن الكاهن المعروف في البلد ، فقال : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء : ٨٦] .

ثم استحضر القيامة ، فقال : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٧ ـ ٨٩] .

واقرؤوا أخيراً : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٢] .

* * *

المحاضرة الثالثة

نموذج من دعوة سيدنا يوسف عليه السلام

أما بعد ، فنربط الحديثَ بالحديث الماضي ، ونمسك الخيط الذي تركناه بالأمس .

عرضنا عليكم نموذجين من نماذج الدعوة النبوية الحكيمة البليغة التي تمثلت في قطعتين معجزتين من قطع القرآن الدعوية البلاغية ، إحداهما : القطعة التي تمثلت فيها دعوةُ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لوالده ، التي جاءت في سورة مريم ، والقطعة الثانية : التي جاءت فيها دعوةُ سيدنا إبراهيم لأبيه وقومه في سورة الشعراء .

والآن نعرضُ عليكم نموذجاً آخر ، نموذج دعوة سيدنا يوسف عليه وعلى آبائه السلام ، فنتلو عليكم أولاً الآيات التي تتصل بهذه القصة من سورة يوسف ، يقول الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤١].

*** المحيط الفريد الذي قامتْ فيه دعوته عليه السلام:**

وقبل أن نشرحَ هذه الآيات نريدُ أن نخيل لأذهانكم المحيط الذي قامت فيه هذه الدعوة؛ التي اكتنفتها، فأولاً يجب عليكم أن تعرفوا مَنْ هو يوسف؟ هو ابنُ سيدنا يعقوب، وهو ابنُ سيدنا إسحاق، وهو ابنُ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، جدّ الأنبياء، وإمام دعوة التوحيد في عصره، وبعد عصره، ويوسف هو الذي يقول الرسولُ ﷺ فيه: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم» فهو عريقٌ في العراقة، عريق في النبل، عريق في النبوة، عريق في معرفة الله تبارك وتعالى، عريق في الأخلاق العالية، وقد تحدثتْ عنه الصحف السماوية، وتحدَّث عنه تاريخُ النبوءات والأدب والدين؛ أنه كان آيةً في الجمال، وأن الله سبحانه وتعالى قد أكرمه بجمال الخَلْق والخُلُق، وكان الجمالُ فيه كاملاً منسقاً، قد التقى في شخصه الكريم جمال الخَلْق والخُلُق، والجمال الصُّوري بالجمال المعنوي، والجمال العقلي ـ إذا صح هذا التعبير ـ وجمال الشعور والعاطفة وجمال الرقة والكرم، فكان جميلاً بكل معنى من معاني الجمال، وقد تجلَّى هذا الجمال في كلامه، وفي كل تصرفاته، وفي كل خواطره.

وقبل أن نتذوّق هذه القطعة الدعوية البيانية البلاغية الرائعة[١] يجب علينا أن نستحضرَ الأجواء التي اكتنفتْ هذه الدعوة، اقرؤوا معي الآيات التي وردتْ في قصته من قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٣٥] فسيق إلى السجن، وأُدخل فيه بتهمة برّأه الله منها كما برأ من دمه الذئب، فدخل في السجن سجيناً مُفترى عليه، والسجون تتلقى

(١) من الغريب أن هذه القطعة المعجزة الجميلة قد تجردت في التوراة، وإذا قارن الإنسان بين قصة يوسف في القرآن، وقصة يوسف في بائبل (BIBLE) وجد الأولى تتسم بروح الهداية والدعوة، والعبرة والموعظة، ووجد الثانية مليئة بالأعداد والأرقام والمساحة.

الأحكام وتنفذ ، لا شأنَ لها بالتحقيق ، إنما تتسلَّم المسجونين ، كما نتسلم نحن البريد ، لا نعرف ماذا فيه ، وقد تكون برقيةً تحمل نبأ مفجعاً ، وبرقية تحمل بشرى ، كذلك السجّانون الموكلون بالسجون ، يتسلّمون من صدر عليهم حكمُ السجن والاعتقال ، كما يتسلّمون السلع والجمادات ، أمسكوا بيد سيدنا يوسف وهم لا يعرفون بيته ، ولا شرفه ، ولا براءته ، وأدخلوه في بقية المسجونين ، وإذا لم تتوفر وسائل التحقيق خارجَ السجن ، فكيف تتوفر داخل السجن؟ يغلق بابه على مَنْ فيه ، ولا يدخل إليهم الهواء النقي ، والسجن عالم صغير ، والمسجونون عندهم فراغٌ في الوقت ، وفرصة طويلة للحديث .

*** موضع احترام وتقدير وثقة :**

ولكن في أيام قليلة لفت يوسفُ الأنظارَ ، وأصبح حديثَ السجن ، وقد بدَّد نورُه هذا الظلام المحيط به ، هدوء ورزانة ووقار وسكينة ، وذكر وتسبيح ، وخُلُق وتواضع ، وعطف وكرم ، فاضطر أهلُ السجن إلى أن يحترموه ، وكانوا في ذلك مضطرين ، كأن سائقاً يسوقُهم إليه ، وكان كله من تقدير الله سبحانه وتعالى .

ثم ماذا حدث؟ رأى اثنان من أهل السجن منامين غير عاديين ، أما أحدهما : فقد رأى أنه يعصر خمراً ، وقد شُغِل بهذا المنام ، وسيطر على تفكيره ، وعلى مشاعره ، والثاني : رأى أنه يحملُ فوق رأسه خبزاً ، تأكل الطيرُ منه وفيه شيء من الغرابة ، وقد ألهمهما الله تعالى أن يرجعا في ذلك إلى يوسف ، وهذا ما هدتهما إليه سلامة الفطرة ، وقوة الملاحظة ؛ التي لا يخلو منها إنسان .

والتجربة القصيرة التي عاشها أهل السجن ، وأكثر الناس يعتمدون على التجربة والمشاهدة أكثر مما يعتمدون على العلم والمنطق ، وحكيا رؤياهما ، قال : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] .

*** معنى الإحسان:**

وما معنى الإحسان في هذا المكان؟ هل كان يوسف يملك شيئاً من المال كان قد أخفاه، فهو يوزعه عليهم؟ هذا الذي يتبادرُ إلى ذهننا إذا سمعنا كلمة الإحسان، ولكنه شيء غير معقول، وغير ممكن العمل بالنسبة إلى يوسف والوضع الذي كان فيه.

الإحسان: هو الإتيان بشيء في درجة أكمل وأجمل بصفة أجمل وأفضل، ولذلك لما سُئِل رسولُ الله ﷺ، وقيل: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» هذا هو الإحسان. فقالا: إنا نراك من المحسنين في العبادة، إنا نراك من المحسنين في الكلام، إنا نراك من المحسنين في المعاملة، وكان سيدنا يوسف ـ كما قلت لكم ـ قد أحاطتْ به هالات من هذه التهمة، ومن الشائعات، وآثرت كلمة «هالات» لأن سيدنا يوسف كان قمراً، فهذا القمر الإنساني كانت تحيطُ به هالات من التُّهم والشبه والظنون والقياسات، لماذا أدخل السجن؟ لعله فعل كذا، أو فعل كذا، ولكن انشقت عنه هذه الهالات، وأحاطت به هالة أخرى، وهي هالة الإعجاب، وهالة التقدير والثقة.

*** أهم من الرؤيا المفزعة، وأجدر بالاهتمام:**

لقد عرف يوسف أن الرؤيا الغريبة أفزعتْ كلَّ واحد منهما، فساقتهما إليه، وذلك مبلغُ علمهما، ومناط اهتمامهما، لا يعرفان السعادة والشقاء إلا في هذه الحياة، ، لكن يوسف الذي نشأ في أحضان النبوة، وفتح اللهُ بصيرته ونورها، وهيأه للنبوة والرسالة، كان يعرف أنَّ الذي يتناسيانه هو أهم من هذه الرؤيا، وهو الإيمان بالله ـ بفاطر هذا الكون ومدبره ـ وعقيدة التوحيد التي لا يشوبها شرك، وهل الحياة ـ مهما طالت واتسعت ـ إلا رؤيا يراها الناس؟ وكانا إلى معرفة تأويل هذه الرؤيا أحوج وأفقر، وكان جهله وتناسيه أكبر خطراً، وأشد ضرراً، فرأى ـ بما فطره الله عليه من الرحمة والنصح والإخلاص ـ أن ينبههما للخطر الحقيق، ويزودهما بالعلم النافع الأساسي، وقد صادف من العقل وعياً، ومن النفس انتباهاً ـ ولو في قضية

تافهة ـ وذلك لا يدوم ، ولعلَّ هذه هي الفرصة الأخيرة للحديث معهما ، فأراد ألا يضيعها ، وأن يبذرَ في هذه التربة التي أصبحت ندية ناعمة ، البذرة الكريمة ، فاتخذ من مناسبة تفسير الرؤيا مدخلاً لتوجيه الدعوة إلى الله ، وأثار فطرتهما السليمة للتوصُّل إلى عقيدة التوحيد الواضحة السائغة.

*** الجمال الرائع في فتح الحديث:**

وأريدُ أن تنتبهوا إلى الجمال الرائع في فتح الحديث ، فمن مظاهر الحديث الجميل: جمال المدخل؛ لأن المدخلَ له أهميةٌ كبيرة ، إذا كان مدخل الحديث الجميل مدخلاً غير جميل ، أثر في جماله ، وأساء إليه ، وكذلك البناء الجميل ، يجبُ أن يكون مدخله جميلاً ، ينشرحُ له الصدر ، ويُشجِّع على الدخول.

إن يوسف بدأ الحديث بالتأكيد لهما ، أنه يستطيعُ أن يفسِّر النبأ الذي جاءا لأجله وقصداه ، وأنه لم يكنْ هذا القصد خطأ ، وأنهما ما ضلاَّ الطريق ، وإنما وصلا إلى غايتهما ، وهو الرجلُ المطلوب الكفؤ ، الذي يستطيع أن ينجدهما ويرشدهما ، فإن الأصل النفسي العميق أن صاحب الحاجة يريدُ أن تُقضى حاجته في أقرب وقت ، المريض إذا ذهب إلى طبيب يشخص المرض ، ويصف الدواء ، والطبيب يماطله ويماطله ، يقول: سأراجعُ الكتبَ من المصادر الطبية ، وسأراجع فلاناً وفلاناً في البلد ، ثم أحاول أن أعالجك ، فالمريض المسكين يتألم قلبه ، وينقطع أمله ، ويرجع خائباً ، وربما لا يرجعُ إليه بعد ذلك.

فالشيء الأول أن يثيرَ الإنسانُ الثقة في ذلك الرجل الذي ساقته الحاجة إليه ، ويقنعه بأن علاجه عنده ، وأن طلبته وحاجته ستُقضى عنده ، فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

يعني: أن حاجتهما ستُقضى سريعاً ، لأنهما كانا في السجن مرتبطين بقوانين السجون والمعتقلات ، فما كان لهما أن يجلسا بجواره طويلاً ، فأراد أن يطمئنهما أن حاجتهما ستُقضى سريعاً ، فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ وهنالك تفسيران للآية:

١ ـ التفسير الأول:

إن سيدنا يوسف عليه السلام قال: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: تأويل هذا الطعام يعني حقيقة هذا الطعام، فأراد أن يوجد الثقة فيهما عن طريق إظهار قدرته على التنبؤ بشيء لم يره، فاستعان به على إيجاد الثقة في نفوسهما.

٢ ـ التفسير الثاني:

وأنا لا أستسيغُ هذا التأويل، أولاً لأنه إخبار بالغيب. ثم إن السجونَ ليس هنالك تنوع كبير في الأطعمة، فباستطاعته ـ بكل سهولة ـ أن يخبرهما بنوع الطعام الذي سيحضر، فأي ألمعية لسيدنا يوسف عليه السلام، وأي براعة في الإشعار بنوع الطعام الذي سيحضر؟ وجاء في التوراة أن سيدنا يوسف عليه السلام كان مشرفاً على المطعم، إن صحَّ هذا فإنه لا غرابة لمشرف المطعم في أن يخبر أي نوع من الطعام سيحضر، فأنا أميلُ إلى التفسير الثاني الذي ورد في بعض كتب التفسير، وهو أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويل هذه الرؤيا، حتى يطمئنا أنهما لا يحتاجان إلى جلوسٍ طويل، ولا يملاَّن، ولا يأتي السجان فيقول: اذهبا إلى مكانكما، ومَن الذي أذن لكما بالحضور هنا؟ فقال: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

وكانت مصر على جانبٍ كبير من الحضارة، وتنظيم الحياة المدنية، فالمفروضُ أنه كانت هناك مواعيد مضبوطة للطعام، وكان وقت الطعام قد حضر، فلذلك قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ الآية.

*** تنشط النفوس لسماع الحديث بشيء لذيذ حبيب:**

ثم هناك نكتة حضرتْ لي الآن، وهي أنَّ بين المسجونين وبين الطعام الذي يأكلونه في السجن صلة قوية، فلما ذكر الطعام أثار فيهم الشوق، وانتعشت قلوبُهم لسماع ذكر الطعام، فالطعام حبيبٌ إلى كل إنسان، ولكنه إلى المسجون أحبّ وألذ وأشهى، فلما ذكره يوسف انتعشت نفوسهما، وتهيأت آذانهما، فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ الآية.

ثم تثور فيه الطبيعةُ النبوية ، فلا يرد الفضلَ في ذلك إلى ذكائه ، ولا إلى براعته ، بل يردُّ الفضلَ إلى الله ، ومن هنا ينتقل انتقالاً حكيماً قلما يوجد له نظير ، فقال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ فكان المدخل الكريم إلى النصيحة التي يريدها ، وانظروا كيف ينتقل من تفسير الرؤيا- قبل أن يفسرها ـ إلى الدعوة الحكيمة ، وكان ذلك مما لايسيغه ، ولا يتحمله هؤلاء المسجونون ، الذين ساقتهم الحاجة إليه ، وكانا قد فزعا بهذه الرؤيا المفزعة ، وجاءا فزعين مرتاعين ، فكيف يحتملان هذا الحديث الطويل ، فقال لهما: إنه لا يرجعُ الفضل في ذلك إلى ذكائي وبراعتي، بل يرجع الفضل إلى الله ـ تعالى ـ.

ومن هنا يدخلُ من هذا المدخل اللطيف الرقيق الخفيف على النفوس إلى الدعوة ، تستحضرون حكمته في الدعوة أنه لم يكنْ يستطيعُ أن يقول: صبراً أيها الإخوة ، أيها الزملاء الكرام ، سأفسِّر لكم الرؤيا ، ولكن اسمعوا مني أولاً ، إن هناك شيئاً أهم من هذا ، كيف كانوا ينشطون لسماع هذا الكلام ، وهذا الحديث الذي لم يتعودوه ، وما جاؤوا لأجله؟ فقال من غير انفصال طويل ، بل في لحظة واحدة.

*** الانتقال الخفيف الرقيق إلى عرض الدعوة:**

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ استحضروا الجو الذي وقعت فيه هذه الدعوة الحكيمة؛ التي لا أعرفُ مثلها دعوة إلا دعوة الرسول ـ ﷺ ـ وسأعرض عليكم نموذجاً منها، ولم أمر بأي نموذج من نماذج الدعوة في تاريخ الدعوة، والدعاة أدق وأعمق منها ، حيث بدأ الحديث بقوله: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ . . . ﴾ إلى أن قال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ ، كيف انتقل إلى الحديث عن الرب ، وإلى التوحيد ، هل هناك انتقالٌ أخفّ ، وأرق ، وألطف وأسرع من هذا الانتقال؟ فكأنه يقول: ما كنت لأفسر لكم هذه الرؤيا ، وأنا الإنسان الضعيف العاجز الذي لم أملكْ نفسي أمام هذا الأمر ، وأراد الناسُ أن يزجُّوني في السجن ، فلم أستطع أن أقاومهم ، وكيف يستطيعُ الإنسانُ الضعيفُ العاجزُ الذي يُساق إلى السجن فلا يملك شيئاً ، أن يصلَ إلى هذه القمة الشامخة من العلم بنفسه ، بل ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾.

*** رحلة طويلة يطويها سيدنا يوسف في لحظة واحدة:**

ثم أثار سؤالاً آخر، وهو: لماذا علمني ربي؟ ومن هنا انتقل انتقالاً آخر، إنها رحلةٌ طويلة في طريق الدعوة، لكن سيدنا يوسف بحكمته، وبروحانيته الشفافة، وقلبه المشرق، وبفكره النقي الرباني، استطاع أن يطوي هذه الرحلة الطويلة التي قد يطويها الدعاة والحكماء والفلاسفة في عددٍ من السنين، استطاع أن يطويها في لحظة واحدة، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

هنالك شعر سيدنا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه الآن في موقف قوي، في موقف عال؛ كأنه طلع جبلاً، أو ربوة عالية، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]؟، وكان لو قدَّم هذا قبل ذلك الكلام، لكان كلاماً ثقيلاً على آذانهما وعلى قلوبهما، ولكن هنا استطاع أن يقول، وحقّ له أن يقول: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

لاحظوا هذا التقديم والتأخير، ولاحظوا هذا الترتيب القرآني، الترتيب الحكيم، وكان لو استمر في الكلام كان الكلام ممجوجاً، ولكنه شعر بقوة في نفسه، وشعر بحسن استماع منهم لما كان يقرأ في وجوههم أنهم تهيؤوا لاستماع هذا الصوت الذي يأتي من السماء؛ لأنه دعوة الله للعبيد عن طريق الأنبياء والمرسلين، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أشعروا بالنبرة التي تختلفُ عن النبرة الأولى، كانت النبرة الأولى رقيقة لطيفة خفيفة، فجاءت هذه النبرة قوية، متدفقة بالحياة، متدفقة بالثقة، وكان ذلك من أقرب الطرق إلى فهمهم، أما لو استعان بأشياء منطقية وكلامية، لما كان لهم أن يفهموا منه ذلك.

*** إعجاز قرآني عجيب:**

ثم قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: ٤٠] إنها أسماء من غير مُسمَّيات، إنها أسماء لا حقيقة لها، أسماء عند اليونان، وأسماء عند البراهمة الوثنيين،

وأسماء عند غيرهم من أمثالهم ، إن الإعجاز القرآني يكمنُ في أنه أطلق عليه كلمة الأسماء. إن الذي قرأ تاريخ الديانات وتاريخ المثولوجيا ، يعرف إعجازَ هذه الآية ، إنه ليس هناك إلا أسماء محضة ، أين الآلهة؟ أين إله المطر؟ وإله الحرب؟ وأين إله الحب؟ وإله الجمال؟ أين هذه الآلهة؟ التي لا وجود لها إلا في الذهن ، وفي القائمة الخيالية؟ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ، ولا تزال هذه الآية معجزة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وليست الوثنية إلا أسماء ، وقد فضح القرآنُ الوثنية بقوله: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾.

*** طريقة الداعي الملهم:**

وهنالك شعر سيدنا يوسف بأن الفراغ الذي وُجد في قلوبهم قد ملىء ، وليس من الحكمة الآن أن يطيل الكلام ، ويتوسَّع في الحديث عن التوحيد ، والطبيب النطاسي يعرف مقدارَ الوجبة من الدواء ، ومدى صلاحية المريض وحاجته ، فلا يزيد عليها ، إنها طريقةُ الداعي الملهم ، الداعي المؤيد من الله ، إنه يشعر أنه قد وصل إلى نقطة لا يجوزُ له أن يتخطاها ، ولأجل ذلك فإن من يضع القوانين المحددة للدعوة أو التربية يجني عليها ، على إطلاقها وحريتها وحيويتها ، ويجني على الدعاة[1].

وإلى اللقاء في عرض نموذج دعوة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

* * *

(١) اتفق العلامة الندوي أن يلقي محاضرة في ١٧/ ٤/ ١٤٠٠هـ ، في قاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وكان عنوانها «حكمة الدعوة وصفة الدعاة» ، جاء فيها حديث عن دعوة سيدنا يوسف ، وتفتحت له جوانب من الجمال والروعة البيانية في هذه القطعة ، فضمها العلامة الندوي إلى هذه المحاضرة التي سبقت محاضرة الجامعة الإسلامية بشهور عند تحرير هذه المجموعة ، إكمالاً للفائدة.

المحاضرة الرابعة

أمثلة من دعوة سيدنا موسى عليه السلام وحكمته النبوية

*** لوحة جميلة أخرى من الدعوة النبوية :**

نعرض عليكم اليوم لوحة جميلة أخرى من الدعوة النبوية ، دعوة سيدنا موسى ، الدعوة التي كلف بها ليبلغها إلى فرعون ، وهذه الصورة تختلف عن الصورة التي قدمناها قبل هذا ، وعن الصورة التي نقدّمها بعدها كذلك ، في ثلاثة جوانب ، تختلف هذه الصورة في طبيعة الدعوة ، وفي وضع الداعي ، وفي واقع المدعو إليه .

فهذه الدعوة التي قام بها سيدنا موسى ـ أو كلف بها على الأصح ـ تختلف في نفس الدعوة ، إنها لا تختلفُ عن دعوات الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام في الأسس ، وفي الأهداف ، وفي الأجزاء الرئيسية ، الدعوة إلى الله ، والدعوة إلى التوحيد ، والدعوة إلى الإيمان بالبعث والنشر وبالحياة الآخرة ، والإيمان بصفات الله تعالى والحقائق الغيبية ، ولكنها تختلفُ في جانب واحد ، وهو أنَّ هذه الدعوة اقترنتْ بها مهمة أخرى اقترنت بها مهمة إنقاذ بني إسرائيل من عذاب فرعون ومن اضطهاده .

*** مهمة سيدنا موسى تختلف عن مهمة الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام :**

إنَّ الأوضاع التي وُلد فيها سيدنا موسى ، وعاش فيها ، والأجواء

والملابسات التي اقترنت به ، جعلت مهمته تختلفُ عن مهمة الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، اختلافاً يسيراً ، وهو أنه كُلِّف أن يقول لفرعون كلمة صريحة أنه جبار ، وأنه تسلط على بني إسرائيل ، أولاد الأنبياء المؤمنين بالله ، والمؤمنين بعقيدة التوحيد وحدهم في ذلك العصر ، لم تكن القضيةُ قضية أمة من الأمم ، ولا قضية مجموعة بشرية من المجموعات الكثيرة التي كان يزخر بها العالم ، ولا تزال هذه المجموعات على وجه الأرض ، لو كانت القضية قضية أمة مضطهدة ، قضية أمة تسلّط عليها جبار سخر الأمة ليقضي مآربه ، وأخذها بالسخرة الظالمة ، والقسوة البالغة ، والاضطهاد الديني؛ لكان أمراً يسيراً ، فهذا يقعُ كثيراً ، وقع في كل فترة من فترات التاريخ ، وسيقع في كلِّ حقبة من أحقاب الزمان .

*** ميزة بني إسرائيل في معاصريهم :**

ولكن لم تكن القضية بهذه المكانة من البساطة والسهولة ، كانت هذه الأمة هي الأمة الوحيدة التي كانت تؤمنُ بالله إيماناً صحيحاً ـ على علاَّتها ، وعلى ما كانت تُعاني من أدواء خُلُقية ودينية كذلك ـ ولكنها كانت هي البقية الباقية التي كانت تؤمن بالله إيماناً صحيحاً ، تؤمنُ بالتوحيد ، وهي الأمينة على عقيدة التوحيد ، فقد ثبت تاريخياً أن بني إسرائيل كانوا في كل فترة من فترات التاريخ ، على رغم أدوائهم الكثيرة ، ورغم انحطاطهم الخُلُقي والاجتماعي ، متمسِّكين بعقيدة التوحيد ، وقد أتى على الناس حينٌ من الدهر لم يكنْ لعقيدة التوحيد وجود إلا في اليهود؟ ولذلك عدَّ المفسرون أشرفية السلالة الإسرائيلية بكونهم محافظين على عقيدة التوحيد في الظلام السائد على العالم من الشرك والوثنية(١) .

لم تكن القضية أن بني إسرائيل وقعوا تحت سنابك خيل فرعون وجنوده ، ووقعوا تحت رحمته وهو قاسٍ جبار ، بل إن القضية أن بني إسرائيل كانوا حاملين لعقيدة التوحيد ، وحاملين للإثارة للنبوات السابقة ،

---

(١) فإن الله يؤكد هذا المعنى ، ويكرر فيقول : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٤٧] .

كانت عندهم الأمانة العزيزة ، البقية من تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

*** ألقيت على عاتقه عليه السلام مهمتان :**

فسيدنا موسى يختلف عن الأنبياء الآخرين؛ لأنه ألقيت على عاتقه مهمتان : مهمة دعوة فرعون إلى الله الواحد القهار الذي لا شريك له في الملك ، ولا في التشريع ، ولا في أي شيء ، ومهمة أخرى وهو أن يدعوَ فرعون إلى أن يترك بني إسرائيل وشأنهم ، ويفكّ أسرى بني إسرائيل ، فقد جاء في القرآن صريحاً : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه : ٤٧] .

هذا هو الجانبُ الذي يميز دعوة موسى عن دعوة الأنبياء الآخرين ، وكان موقفاً حرجاً ، لماذا؟ لأن لسيدنا موسى قصة ، قصة فريدة ، وحياته حياة من طراز آخر .

*** أراد فرعون ألا يولد مولود عادي في بني إسرائيل ، وأراد الله أن يولد أكبر مولود :**

إنه وُلد في جو قاتم خانق قاتل ، إن فرعون وجه تعليماته إلى «قسم المخابرات» كما تقول المصطلحات الحالية ، إلى شرطته ألا يدع أحداً يُولد في بني إسرائيل ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

إن فرعون قد خطَّط تخطيطاً دقيقاً ، تخطيط الحكومات المنظَّمة ألا يولد في بني إسرائيل مولود جديد ، وينقرض جيل بني إسرائيل ليتخلص منهم تماماً ، وتبقى طبقة النساء ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم .

إنه قرر كملك صاحب حول وطول ، وأراد ألا يولد أيّ مولود عادي ، وأراد الله أن يولد أكبر مولود ، وأرهب مولود ، أراد أن ينجو ، وأن يتفادى ، وأن يستريح من مولود يشكل خطراً على حكمه ، وخطراً على مشاريعه ، وخطراً على مخططاته ، ولكن الله سبحانه وتعالى خيَّب مخططه؛ لأنه أمر أن يُولد موسى الذي كان يذبح له الأطفال ، إنما كانوا

يقتلون الأبناء في حساب موسى ، ولكن المولود الذي كان فرعون يخشاه ، وكان يرصد له ، ولد ، ثم أراد ألا يعيش فعاش ، وأراد ألا ينشأ فنشأ ، وأراد ألا يشب فشب ، وكيف عاش وكيف نشأ ، هذا من عجائب التاريخ الإنساني ، ومن معجزات قدرة الله تبارك وتعالى ، إنه نشأ في أحضان ألدّ عدو ، وفي حجر أعدى عدو يُوجَد على وَجْه الأرض .

* خارق للعادة :

تستحضرون هذا الجو الذي كان جواً خارقاً للعادة ، وكل شيء فيه خارق للعادة ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٨ ـ ١٣] .

ثم خرج من غير استئذان ، وكان منه من قتل القبطي ـ أحد أعضاء الأسرة الحاكمة ، أو الشعب الحاكم ـ ما حكاه القرآن ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] .

هذا من معجزات الإيمان ، ومن معجزات القدرة الإلهية ، ومن الآيات البينات ، إن الله يكل هذه المهمة إلى فرد موقفه أضعف من كل فرد من أفراد بني إسرائيل .

* محنة لقوة النفس وقوة الإيمان :

الشيء الثاني : أن سيدنا موسى الذي حكى القرآنُ قصَّته في سورة القصص في تفصيل أكثر ، وفي سور أخرى تارة بإجمال ، وتارة بتفصيل ،

هذا الذي يُؤمر بالدعوة ، وفي كل منهما محنة عظيمة للإيمان ، ومحنة التوكل على الله ، ومحنة لقوة النفس ولقوة الإيمان ، محنة المطالبة بحرية بني إسرائيل ، فهذا الشيء الذي يجعل سيدنا موسى عنده شيء من الارتباك ؛ لذلك يقول القرآن على لسانه في سورة الشعراء : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : ١٤] وهو الذي أشار إليه فرعون بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩] فهذا يجعل سيدنا موسىٰ مرتبكاً بعض الارتباك ، ومتردداً بعض التردد ، عندما أكرم وأمر بأداء هاتين المهمتين ، وتبليغ هاتين الرسالتين ، ولكنه سبحانه وتعالى كان أعلم بأن موسى هو الرجل المهيأ ، والرجل المختار لهذه الدعوة .

والآن تأتي أمامنا قطعة من القرآن فيها امتحان لسيدنا موسى كنبيّ ملهم ، وكداعٍ حكيم ، يجمعُ بين الغيرة على هذه الدعوة وبين الفقه الدقيق العميق لها ، ولابُدَّ أن يكونَ النبيُّ هو الأسوة ، والمثل الكامل في منهاج الدعوة ، هذه هي النقطةُ الدقيقةُ الحاسمة بين الدعاة المقيضين المهيئين للدعوة ، المؤيدين من الله ، وبين الدعاة المحترفين المصطنعين ، المتكلفين المتملِّقين ، المجاملين الذين يسمُّون أنفسهم «واقعيين» .

*** أحبُّ عباد الله إلى أبغض عباد الله :**

فأولاً يجب أن نلاحظَ أن الله سبحانه وتعالى يرسل سيدنا موسى الذي هو حبيبه وصفيه إلى رجل هو أكبر عدوّ له ، يعني هنالك نسبة المضادة ، نسبة التفاوت العظيم الذي لا يقومُ بين رجلين عاديين ، إنما يقومُ بين رجلين هما على طرفي النقيض ، أحبّ عباد الله إلى أبغض عباد الله ، أعظم الرسل في عصره ، يرسلُ إلى إنسان قد تحدَّى القدرة الإلهية ، وقد تحدَّى الكبرياء الإلهية ، وقد جاء في الحديث القدسي : «الكبرياء ردائي ، ومن نازعني ردائي قصمته» ، وقد بلغ من التحدي ومن الوقاحة ، ومن الجراءة على الله آخر نقطة ، ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] فيرسل الرسول الذي يكرم بالرسالة ، يكرم بالاصطفاء ، وبالكلام ، وبالمناجاة مع الله تبارك وتعالى ، يرسله إلى أكبر عدوّ اقترف أكبر ذنب ، ثم قد ضمَّ إلى ذلك أنه ادعى

الألوهية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فيرسل الله تبارك وتعالى مثل هذا الرسول الكريم إلى هذا العدو البغيض الرجيم، ولكن ماذا يقول له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] بعد ذلك لا يمكن أن يتعلل إنسان، ويقول: إني أغلظتُ لفلان القول؛ لأنه كان كذا وكذا، لأنه ما يمكن لإنسان أن يبلغَ إلى هذا المدى من الوقاحة، ومن الصلف، ومن الكبرياء، ومن التحدي لقدرة الله تبارك وتعالى وجبروته، وملكه، فيقول: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥].

قد كان في موقفه ضعف، وحرج، ودقة؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٦ ـ ٥٠].

*** السهم المسموم من كنانة فرعون:**

تفتقت قريحةُ فرعون الشيطانية، وأخذ من كنانته سهماً مسموماً، هو السهمُ الذي لا يطيش، السهمُ الذي لو أطلق على أي واحد من الدعاة الأذكياء الحاذقين؛ الذين درسوا فلسفة الدعوة، ودرسوا علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الجدل والمخاصمة، تحقّق له الفشل الذريع، قال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] هذا من ذكاء فرعون الشيطاني، فإنه أراد أن يحركَ غضب ندمائه الذين كانوا جالسين، أراد أن يتخلّص، وأن يصيدَ بهذا السهم الواحد صيدين، أولاً: أراد أن يشغله عن الدعوة إلى التوحيد، لأن أخوف ما يخافه هو التوحيد؛ الذي يحرك السواكن من القلوب، ويحرك الإيمان الدقيق الكامن في قرارة نفوس هؤلاء؛ لأنهم كانوا بشراً، وكانوا بني آدم، وكان فيهم أصحاب عقول وضمائر، فكان يمكنُ أن يحرك هذا، فأراد أولاً أن يشغل عن هذه النقطة الحساسة التي كانت من أبغض النقط إلى فرعون، وكان من أوحش الناس لها، ثم أراد أن

يأخذ في جواره هؤلاء الذين كانوا جالسين حوله؛ لأنه بقي وحده، وكان مخاطباً وحده، فأراد أن يكسب ودّهم، ويثير حميتهم الجاهلية، فأثار موضوعاً شديد الحساسية بالنسبة لهؤلاء المتكبرين، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ هنالك احتمالان، إما ألا يحابي موسى ولا يجامل، ويقول: هم في جهنم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فماذا تكون العاقبة، هؤلاء تثور فيهم حمية الجاهلية، ويشيطون غضباً، وعلى الأقل أنهم لا يسمعون لموسى كلاماً، إما ينفضون من هناك، وإما يبطشون بسيدنا موسى ـ أكرمه الله وعصمه ـ وإما أن يحدثوا صخباً وغوغاء، ماذا تقول يا موسى؟ قد أهنت آباءنا، وجرحت شعورنا.

* **السر الكامن والإعجاز الكامل:**

وهنالك احتمال آخر، وهو أن يسكتَ موسى أو يجامل آباءهم، فيقول: نحن نحترمهم، وأنهم كانوا على علم كبير، أشياء من المجاملة، فكان لا بُدَّ أن يتمسك فرعون بهذا، ويتشبث به، ويقول: إذا كانوا يستحقُّون الاحترام، وإذا كانوا أجلاء، فإنهم كانوا على عقيدتي، ولكن ماذا قال موسى؟ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢] ثم تخلَّص من هذا إلى ما كان يقوله مثل: «الحديث بالحديث يذكر»، كان يمكن أن يقول: علمها في التاريخ، ولكن إذا قال التاريخ المجرد، أو في قصص الأولين لتحول الموقف، وصار فرعون يخطب ويتكلم، واحتجّ بالتاريخ المؤلف المختلق في عصره، والمدروس في مدارسه، ولكنه قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ تلاحظون التعبير الدقيق، وتخير الكلمات، هنا السر الكامن، والإعجاز الكامل، كان هنالك ألف تعبير، ويستطيع كلٌّ واحد منا إذا واجه هذا الموقف، أو وقع في مثل هذه المحنة أن يتخلص منها بألف تعبير؛ خلّ هذا الذكر، اترك هذا الحديث، هذا في قصص الغابرين، هذا في حديث الأولين.

*** التمسك بالدعوة، وعدم الحياد عنها:**

ولكن موسى لم يترك سبيلَ الدعوة، ولم يترك الخيط الذي كان متمسّكاً به، بل انتقل بسرعة لا تتصوَّر سرعة أكثر منها، وببلاغة لا تتصور بلاغة أبلغ منها، وبحكمة لا تتصور حكمة أقوى وأدق منها، بكلمة واحدة: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ولم يرد أن تطول هذه العبارة؛ لأنه إذا طول هذه العبارة انتهز فرعون الفرصة، واقتحم المعركة، ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ وصل بها إلى ما كان عليه ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ ثم استمر، وبدأ يذكر صفات الله التي كان يتهرب منها فرعون، وهذا الذي كان فرعون يحبُّ أن يتخلَّص منه، والله هناك تأخذ الإنسان هزة وطرب أدبي، وطرب عقلي ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٢ ـ ٥٤].

*** مراوغة[١] فكرية من فرعون واستقامة موسى ونجاحه فيها:**

والمثل الثاني ترونه في سورة الشعراء ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٧] هنالك مراوغة فكرية، بلاغية دعوية، كيف يحاول فرعون أن يتخلص وأن يغطي هذا الموقف، يغطيه بسياسته وبلباقته وبتجاربه، فيريد أن ينتقل من موضوع إلى موضوع، وموسى عليه السلام يأبى إلا أن يواصلَ هذا الموضوع ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وكان فرعون يتوقَّع أن موسى عليه الصلاة والسلام يقول كلمة، ثم

(١) المراوغة: قد تطلق في معنى المخادعة المذمومة، والمقصود هنا التنقل جيئة وذهاباً من مكان إلى مكان، والقيام بحركة مفاجئة في اتجاه جديد، كما يفعل اللاعب الماهر مع منافسه، وأقرب كلمة إليه في اللغة الإنجليزية (Dodge).

تجري المناقشة ، لكن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام اختار الشيء الذي يضرب على الوتر الحساس ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ «ما بينهما» معنى ذلك : أن عرش فرعون قائم على غير قوائم ، لم ينطق موسى عليه السلام : ولم يكتف بقوله : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ ولكنه قال ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ تحداه كذلك ، ووضع الأصبع على موضع الداء ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ .

*** فرعون يطلق السهم الوحيد في كِنانته :**

هنالك أطلق فرعون نفسَ السهم الذي أطلقه في الموقف الأول ، الموقف واحد ، ولكن القرآن يتنوع بحكايته ، ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ يعني ألا تثورون ، ألا تغضبون؟ ألا تقومون للدفاع عني؟ أفقدتم الأنفة والشعور بالغيرة؟ ألا تستمعون؟ وقبل أن يتكلم هؤلاء ، أو يحركوا ساكنهم ، قال : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ هنالك كذلك حاول فرعون مرة ثانية أن يتخلص من هذا الموقف الحرج ، ومن هذه الأزمة التي واجهته ، فقال : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ وهنالك رجا فرعون أن موسى يدافع عن نفسه ، يقول : لست مجنوناً ، هذا كان متوقعاً عن صاحب عقل ، وقد أثبت ذكاءه ، وسلامة ذهنه؛ في مناسبات كثيرة .

*** آخر سهم في كبد فرعون :**

فعرف فرعون موضعَ الداء في النفس الإنسانية ، أنَّ الإنسان إذا أُهين ، أو أن الإنسانَ إذا انتقد أنّه ينسى كل شيء ، ويدافع عن نفسه كأني به أسمع وأرى ، كان يتوقع أن موسى ينسى دعوته ، وينسى كل شيء ، ويقول : من يقول أنا مجنون؟ اطلبوا الأطباء يفحصون عني فحصاً طبياً ، ويقدِّموا إليك تقريرهم ، فكان هذا رجاء فرعون في قوله : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

ولكن موسى أجابه بقوله : ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٨] ، لم يدافع عن نفسه ، ولم يقل أي كلمة في الدفاع عن نفسه ، إنه كان مرسلاً من الله تبارك وتعالى ، مكلفاً بالدعوة ، فقضية

الجنون والعقل هذه قضايا بالنسبة إلى هذه الدعوة الكريمة الجليلة ، قضايا لا قيمة لها في المجتمع الذي يسودُ فيه الشرك ، في المجتمع الذي تسود فيه الوثنية ، في المجتمع الذي تشيعُ فيه الجنايات والجرائم ، في المجتمع الذي تهتكُ فيه الأعراض ، في المجتمع الذي يقتلُ فيه الأبرياء ويُقتل الأطفال ، ما أهمية الجنون؟ إنه تناسي هذه التهمة ، وقال: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هذا آخرُ سهم في كبد فرعون؛ لأنه كان يعتقدُ أنه ربّ المشرق والمغرب في مصر ، وكان يعتقد أن العالم في مصر ، وكان يعتبر أن الذي يملكُ مصر ، ويحكم مصر فهو ربُّ العالم ، فلما قال ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إنه حطم البناء الذي قامت عليه دعوى فرعون ، وقام عليه عرشُ فرعون ، وحكمه .

هذا مثالٌ من أمثلة الدعوات النبوية وحكمتهم ، وهذه الصورةُ الثانية تختلفُ في الدعوة والداعي والمدعو إليه ، الدعوة هي دعوة معقدة دقيقة ، والداعي موقفه دقيق وحرج ، والمدعو إليه أكبر ملك؛ لذلك هذه الصورة تستحقُّ الاهتمام منا ، وتستحق الدراسة ، وتستحق التأمل الدقيق ، واستيحاء الحكم ، والنتائج العميقة ، والبعيدة المدى ، من هذا النموذج الذي عرضه القرآن في حكاية سيدنا موسى ، وفي حكاية دعوته .

* * *

المحاضرة الخامسة

موسى عليه السلام مع قومه «بني إسرائيل»

*** الحرب الداخلية قد تكون أشد خطراً من الحرب الخارجية:**

كان الحديثُ عن موقف سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في الدعوة أمام فرعون ، الملك الجبار ، فكيف كان موقفُه أمام قومه بني إسرائيل؟ فإن الحربَ الداخلية قد تكون أشدَّ خطراً ، وأكثر دقة من الحرب الخارجية: إنَّ الحربَ بين رجلٍ ومنافسه الذي لا يتَّصلُ به بنسب وبعقيدة ، قد تكون أهون من الحرب التي تكونُ بين الرجل وأهل بيته ، بين الرجل وعشيرته ، بين الرجل وبني جلدته ، الذين يلتفتون معه على نسب أو دم ، أو وطن أو جنس ، فكيف كانت مواقفُ موسى عليه الصلاة والسلام أمام قومه؟

*** أربعة مواقف واضحة حاسمة لسيدنا موسى مع قومه:**

وإجابة عن السؤال الوجيه نقول: إننا إذا تأمَّلنا في القرآن الكريم ، وجدنا لسيدنا موسى أربعة مواقف واضحة حاسمة مع قومه ، ونريد أنْ نصلَ بذلك إلى نتائج ذات قيمة في منهج الدعوة ، وفي موقف الدعاة ، كيف يجبُ أن يكون موقفهم مع أحب الناس ، ومع أقرب الناس إليهم ، ونتلقى منهم درساً خاصاً ، هو أنَّ موقفَ الداعي أمام قومه ، أو أمام أعدائه أو أمام أقرب الناس إليه ، يكون دائماً موقف الداعي ، يعني: أن طابع الدعوة يغلبُ على هذا الموقف ، مهما تنوَّع هذا الموقفُ في الطبيعة ، ومهما اختلفت المناسبات ، ولكنه دائماً هو الداعي ، وهو يتكلَّم بلغة الدعوة ، ويرمي إلى الدعوة ، ويضرب على الوتر الحسَّاس ، ويقصد من كلِّ ذلك

غرس الدعوة في نفوسهم ، وتهيئة النفوس لقبول هذه الدعوة ، ونبذ كلّ ما عارض الدعوة ، وأضرَّ بها ، أو جنى عليها ، إنَّ مهمة سيدنا موسى تختلف باختلاف البيئة ، وباختلاف الظروف المحيطة ، وباختلاف المجتمع والجو الذي ولد فيه وعاش .

*** موقف نبيّ داع لا موقف زعيم سياسي :**

إنَّ مهمة سيدنا موسى التي طالب فيها فرعون ـ بأمر من الله ـ بإطلاق حرية بني إسرائيل ، فيها شيء من الالتباس ، وهو الذي أريد أن أنبهكم عليه . إنَّ كل من وقف هذا الموقف تغلب عليه الحمية السياسية ، وتثور فيه الحمية القومية ، ويخاطب بلسان السياسة أو بلسان «الحقوق» أو بلسان الاحتجاج ، شعب مستعبد مضطهد بأسوأ معاني الكلمة ، ولا قول أبلغ من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩] وقول الله تعالى في سورة القصص : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

إن كل من كان شأنه هذا ، ويقف مدافعاً عن قوم ، ويريد أن يحررهم ، ويتحدى القوة المتغطرسة الظالمة التي قهرته ، وداست كرامته ، وأهانته في أعز الأشياء عنده ، إن شأنه أن تتغلب عليه النفسية القومية ، ويخاطب بلسان السياسة ، وبلسان المطالبة بالحقوق ، والمطالبة بالحقوق لها لغة خاصة ، ولها تعبيرات خاصة .

ولكن الشيء الذي أريد أن ألفت نظركم إليه ؛ أن موسى عليه السلام ، شأن جميع إخوته الأنبياء والمرسلين ، كان نبياً مرسلاً ، والذي اصطفاه الله تبارك وتعالى لكلامه ، وكان داعياً إلى الله ، وإلى الإيمان والعقيدة قبل كل شيء ، فأريد أن تلاحظوا ، وتتأملوا في الآيات التي سأقرؤها عليكم ، كيف استطاع سيدنا موسى ، وكيف أعانه الله تبارك وتعالى على ألا يرجح كفة الاحتجاج ، وكفة المطالبة بالحقوق ، أو كفة الغضب والحمية القومية

على كفة الدعوة ، ففي مثل هذه المناسبات الحساسة الدقيقة ، ينسى الإنسان كلَّ شيء ، وتثور فيه الحمية الجاهلية ، وتتغلب عليه النزعة القومية ، ويتكلم بلسان القوميين السياسيين ، ولكن كيف أن الله تبارك وتعالى أعان سيدنا موسى على ألا يدع هذه النزعة تغلب الإيمان القوي ، ودعوة فرعون إلى الله ، وبيان الحقائق الدينية ، وسنة الله تبارك وتعالى في خلقه ، وسنة الله تعالى في الأمم والأجيال ، وفي الخلق ، الآن نتلو عليكم الآيات.

*** أرادوا أن يصيدوا عصفورين بسهم واحد:**

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

أرادوا أن يصيدوا عصفورين بسهم واحد ، عصفور فرعون ـ إذا صح أن يسمَّى عصفوراً ـ وعصفور قومه ، قالوا لفرعون الكلمة التي كانت تثير فرعون وتهيجه ، هو قولهم: ﴿ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وأما الكلمة التي كانت تثير عباد العجل ، وعباد الأصنام فقولهم: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ جمعوا في هذه الكلمة بين الجانبين ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾.

*** الروح النبوية تتجلَّى في أروع مظاهرها:**

في مثل هذه المناسبة الرهيبة ، وفي هذا المقام الذي تثور في الإنسان الحمية والنخوة ، لم ينسَ موسى منهج الكلام الذي التزمه دائماً ، والرسالة التي كان يحملها ، وهنا تتجلَّى الروح النبوية في أروع مظاهرها ، تصوَّروا لو وقف هذا الموقف أي واحد من الدعاة وأي واحد من العلماء ، لخاطب فرعون وقومه بدل أن يخاطب قومه ، ولكن موسى خاطب قومه؛ لأنهم هم المخاطبون الأولون ، وعليهم الاعتماد ، وبهم يبدل الله تبارك وتعالى الوضع.

*** موقف الداعي المستقيم الذي هيأه الله لأمر عظيم:**

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ

﴿عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. قال موسى: استعينوا بالله، ما قال: اعتمدوا على العدد الكثير الذي تتمتعون به، اعتمدوا على ما أكرمكم الله به من الذكاء والمواهب الأصيلة؛ لأن بني إسرائيل معروفون بالذكاء من قديم الزمان، وفي المواهب الفطرية.

إن موسى عليه الصلاة والسلام لم يتعرض لشيء مما كان يمتاز به بنو إسرائيل، ولا شك أن بني إسرائيل كانوا يمتازون بالشيء الكثير، وكان موسى من أدرى الناس به، ولكنه أبداً لم يلجأ إلى أي شيء، ماذا قال؟ كأنه كان واقفاً على منبر في مسجد من المساجد، فيقول: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا موقف المدعي الأمين، الداعي المستقيم، الداعي الذي هيأه الله لهذا الأمر العظيم، هنا الدعوة إلى الله، هنا الدعوة إلى التوكل، هنا الدعوة إلى تفويض الأمور إلى الله تبارك وتعالى، هنا الدعوة إلى الصُّمود، وإلى الثبات أمام تهديدات فرعون؛ التي جاءت في قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ ليست هذه الأفعال هي الأفعال المؤقتة، بل إنا فوقهم قاهرون؛ بشكل دائم، بشكل ثابت، قال موسى لقومه ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ الكلمة كان لها وقع، وكان لها تأثير خاص إذا قيلت أمام فرعون، قال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون، ولا لبني إسرائيل، إذا كان موسى زعيم أمة أو شعب، أو قائداً قومياً، كان له أن يقول: إن الأرض لنا، إن الأرض لبني إسرائيل، هذه اللغة التي يحسنها وحدها القوميون، إنَّ الأرض ليست للإنجليز، إنما هي لأهل الهند، مصر لأهل مصر، سورية لأهل سورية، إنكلترا لأهل إنكلترا، أمريكا لأهل أمريكا، يقول أمام فرعون: الأرض لله، ولا يقول إنها أرض الآباء، مع أنهم سكنوها منذ قرون، ولهم حق عليها، وهم «بلديون» مواطنون ما لهم حقوق، كما كانت للأقباط وللأسرة الحاكمة، قال موسى لقومه ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ﴾، وإذا عرفتم، واطمأننتم أنكم إذا ورثتم هذه الأرض، وخرج فرعون، إنكم ستملكونها إلى آخر الأبد، إن هذا خلاف لسنَّة الله تبارك

وتعالى ، ومنافٍ لعدله ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني: هذه الأرض ليست ملكاً لأحد ، ولا يستطيع شعب أن يحتكرها ، وأن يتملكها تملكاً دائماً ، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما جاء في سورة يونس: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

*** الشيء الذي يفتت الكبد ، ويقطع القلب:**

والشيء الثاني الذي هو أدق عندي حين أقبل عليه قومه بنو إسرائيل ، وقالوا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ [الأعراف: ١٢٩] هذا كان أشد وأنكى من قول فرعون: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ لم تكن لهذه الكلمة شدة وثقل على موسى مثل ما كان لقولهم هذا؛ لأن موسى عليه الصلاة والسلام بعث لينقذ بني إسرائيل ، ويهديهم إلى الله تبارك وتعالى ، ويخلصهم من هذا العذاب المهين ، ولكنهم كيف كان موقفهم من هذه النعمة ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ ، وكان ذلك كما حكاه القرآن في سورة يس: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ ﴾ [يس: ١٨] يعني: كنت شؤماً علينا ، الشيء الذي يفتت الكبد ، ويقطع القلب ، وهو أن القوم الذين يجاهد الإنسان في سبيلهم ، ويتنازل عن كل شيء ، ويجازف بحياته ، يعاملونه بالنكر والكفران ، وجحود النعمة ، إنهم إذا لم يشكروا هذه النعمة ويقدروها ، وكان الأفضل لهم أن يسكتوا ، ولكن ماذا قالوا: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ معنى ذلك أنهم يتشاءمون بميلاد سيدنا موسى ، ويقولون: كنت سبب شقوتنا وبلائنا من قبل أن ترد إلينا ، وكنت سبب شقوتنا وبلائنا بعد ما جئتنا ، ونحن في عذاب مستمر.

*** الداعي داع في كل شيء:**

فماذا كان جوابُ موسى؟ هنا موقف آخر من مواقف الداعي المختار الملهم ، لم يغضب موسى ولم ينفعل ، كأنه لم يسمع هذه الكلمة ، الكلمة الخسيسة التي صدرت من أفواههم ، وتلقى هذا الكلام الموجع بسكينة

الأنبياء ووقارهم ، قال : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] .

الداعي داع في كل شيء حتى أن لو قلت : إنه في طعامه وشرابه داع ، وفي بيته ومع أهله وبين أبنائه داع ، وفي أفراحه داع ، وفي أحزانه داع ؛ لكنت صادقاً ، وهكذا نرى في سيرة الرسول ﷺ أنه كان داعياً في كل شيء ، في كل حركة وسكون ، كأنه يقول ذلك باسماً ، متهلل الوجه ، لم تغيره هذه الكلمة الكنود ، التي صدرت من بني إسرائيل ، فقال : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ولكن لا تغرنكم أنفسكم مرة ثانية ، ولا تخدعكم نفوسكم ، فأكملها بقوله : ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ لا أن تتمتعوا بخيراتها كما تتمتَّع الأقباط ، كما يتمتع فرعون وملؤه ، لا ، ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] .

وهنا الشاهد في هذه الآية : كيف يكون موقف الداعي ، كيف تسيطر الدعوة على كل كلمة ، تصدر من لسانه ، وعلى كل عمل يصدر من أعضائه وجوارحه .

*** أراد موسى شيئاً ، وأراد الله شيئاً :**

والموقف الثاني : موقف دقيق ، وموقف حرج ، هو الموقف الذي لما خرج سيدنا موسى ببني إسرائيل ؛ لينجو بهم من أرض العذاب ، ومن أرض الذل والهوان ، ومن أرض السّخرة الظالمة ، والاضطهاد الفظيع ، إلى برِّ السلام ، وإلىٰ شبه جزيرة سيناء ؛ التي كانت خارجة عن إمبراطورية فرعون ، فلما خرج موسى بهم ، وقد أراد الله تبارك وتعالى شيئاً ، وأراد موسى شيئاً ، وأراد بنو إسرائيل شيئاً ، وأراد موسى أن ينجو ببني إسرائيل ، وأراد الله تبارك وتعالى أن يغرق فرعون وجيشه .

قطع موسى طريقَه في ظلام الليل ، فكان هناك قطعة صغيرة كانت تصل بين شبه جزيرة العرب وبرّ إفريقية ، أو الحلقة البرية التي كانت تربط بين قارة إفريقية وقارة آسيا ، وأولها شبه جزيرة سيناء ، ولكن موسى أخطأ الطريق في ظلام الليل ، ولم يكن هذا الخطأ من المصادفات ، بل كان من المقررات ، كان من المدبرات التي دبرها الله تعالى ، فهنا أخطأ موسى الطريق ، وتوجه إلى البحر بدل أن يتوجَّه إلى البر ، وكان الطريق قصيراً ، ولكنه أخطأ في الليل ، ولما أصبح وأسفر الصباح فوجىء بأن البحر أمامه وجيش فرعون وراءه ، قالوا: ما لنا حيلة ، وصاروا يشكون ، وصاروا يسيئون الظن بموسى على عادتهم ، فقالوا: أنت احتلت لتأتي بنا إلى هذا المكان لنقع في شبكة فرعون ، ماذا كان غرضك؟ لماذا جئت بنا إلى هنا؟ إنما جئتَ بنا إلى هنا لكي نكون فريسة فرعون وجيشه ، واللقمة السائغة لهذا الطاغية ، البحر أمامنا والجيش وراءنا ، ماذا نعمل هنا؟ وهنا ينجلي موقف الداعي ، فقد جاء في سورة الشعراء: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] ماذا يكون جواب السياسيين القوميين في هذه الحالة؟ لا بد أن يقولوا: نحن قد وضعنا مخططاً دقيقاً مدروساً من قبل ، قد وضعنا مشروعاً كفيلاً بالنجاح ، ونحن على هدى ، ونحن على بصيرة ، وأنا مستيقظ ، وأنا متأكد بأننا سنصلُ إلى البر بسلام.

*** كلا إن معي ربي سيهدين:**

ولكن ماذا كان جواب موسى الأمين والمؤمن العليم ، قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

قال ذلك بكل ثقة واعتزاز ، وبكل طمأنينة وإيمان ، وكل كلمة في هذه الآية عامرة بالإيمان ، دافقة بالثقة ، ناطقة بالتوكل على الله ، والاعتماد على قدرته ، وعلى أن هذا الإسراء كان بأمر من الله وهو العزيز الرحيم ، الرب الكريم الذي لا يخدع عبده ، ولا يخلف وعده ، إذاً فلا خوف من البحر الزاخر ، ولا خطر من العدو القاهر.

ومثل هذا لا يتوقع ، ولا يعقل من ملك كريم ، ومن أب رحيم ، بل من إنسان ذي مروءة وشرف ، فكيف يتوقع ويخشى من إله هو أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين.

إن موسى ـ على جلال الموقف ، ودقة الوضع ـ لم يساوره خوفٌ ولم يخامره شك ، لأنه كان يعرفُ ـ وهو النبيُّ المرسل ـ أن الله الذي أمره بالإسراء ببني إسرائيل ، هو غالبٌ على أمره ، لم يفلت منه زمام الكون حتى يفاجئه أمر لا يمكن التغلُب عليه ، إذاً فلا مجال للشك ، ولا محل للخوف ، فقال في قوة وحماس : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ .

قارن بين هذه القصة التي حكاها القرآنُ عن سيدنا موسى وبين ما حكاه القرآنُ نفسه عن خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ ، وهو قوله تعالى ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة : ٤٠] واقرؤوا في شرحها ، واستعراض الواقع الدقيق ما جاء في الجامع الصحيح للبخاري[١] ، وفي كتب السيرة ، فقد جاء فيها : «بينما هما (رسول الله ﷺ ورفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه) في الغار[٢] ، إذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال : يا رسول الله ، لو أنَّ أحدهم رفع قدمه رآنا ، قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟! واستشعروا الشبه العجيب بين نبيين عظيمين ، فرق بينهما المكان والزمان والبيئة والملابسات ، ولكن جمعت بينهما النبوة والإيمان القوي الوثيق؛ الذي هو سرُّ إيمان ملايين من البشرية ، ومعرفتهما لقدرة الله تعالى ورحمته وحكمته ، معرفته يمتاز بها الأنبياء ، ولا يصل إلى قمتها الفلاسفة والحكماء ، وكبار العلماء والعقلاء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

* لماذا كان؟

اقرؤوا قول الله تعالى : ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ

---

(١) باب قوله تعالى : ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ كتاب : التفسير.

(٢) غار ثور.

فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٨].

* * *

المحاضرة السادسة

دعـوة مـؤمـن مـا زال يـكتـم إيـمـانـه
نمـوذج لـدعـوة غـيـر نـبـي

*** دعـوة مـؤمـن مـا زال يـكتـم إيـمـانـه:**

كان الأولى والأجمل أن نصلَ الحديث عن سيد الدعاة ، وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ بالحديث عن الأنبياء السابقين مثل سيدنا إبراهيم ، وسيدنا يوسف ، وسيدنا موسى الذي تحدثنا به بالأمس ، ولكن أريدُ أن أجعلَ الحديثَ العبق العطر عن سيد الدعاة ﷺ؛ وعن دعوته التي هي بمثابة سيدة الدعوات مسك الختام ، ونجعل هذه النقطة هي نهاية المطاف في هذا الطواف العلمي الدعوي القرآني.

ونقدم الحديث عن مؤمن من آل فرعون ، وقد قلتُ لكم إن القرآن الكريم لو اقتصر على الحديث عن الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم أجمعين ، لكان لقائل أن يقول: هم طراز خاص ، هم غرس الله تبارك وتعالى ، ومهبط الوحي ، ومدرسة النبوة ، قد هيأ قلوبهم ونفوسهم حتى ألسنتهم للقيام بأعباء الدعوة ، فكيف نقيس أنفسنا عليهم؟ إن هذا لا يشجعُ على البدء بالدعوة في مجتمعنا؛ لأن الأمثلة التي ضربها القرآن للدعوة إلى الله إنما تدور حول هؤلاء الأنبياء فقط.

هنالك رأيت أن أضمَّ إلى الحديث عن الأنبياء السابقين ، حديثاً عن رجلٍ شرح اللهُ صدره للإيمان ، وهداه للإسلام عن طريق نبي عصره ، وهو سيدنا موسى وهذا هو مؤمن من آل فرعون الذي يتحدث عنه القرآن ، وأتلو

عليكم أولاً هذه الآيات التي تتصل بهذا الرجل ، وبدعوته :

يقول الله تبارك وتعالى حكاية عن فرعون : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٢٦ ـ ٣٥] .

*** حوار في منتهى البلاغة والحكمة ، ومعرفة مداخل النفس :**

هذا هو الحوار الذي دار بين فرعون وبين مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، وهو حوارٌ في منتهى البلاغة والحكمة ومعرفة مداخل النفس ، وهو مثال بليغ الحوار يدور بين ملك كبير وملأ قومه ، وبين هذا الرجل الذي اهتدى وآمن بالله .

وإني كلما قرأت هذا الحوار في هذه الآيات ، ملكتني روعةُ بيانه ، ووقفت أمام هذا الحوار خاشعاً مقدراً ، متذوقاً لهذه الحكمة البليغة ، ولهذا الذوق الرفيع ، ولهذه المعرفة الدقيقة بمكامن النفس ومداخلها والعمل بقول الله تعالى : ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

رجل لا نعرف عنه شيئاً ، ماذا كان مستوى ثقافته؟ وأين نشأ وتربى؟

وكيف تلقى هذه الدروس؟ وكيف وصل إلى هذه الذروة من الحكمة والبلاغة؟ ولكنه الإيمان الذي يصنع العجائب ، الإيمان الذي يجعلُ من الأبكم ناطقاً ، ومن الأصم سامعاً ، ومن المشلول ماشياً بل ساعياً ، ومن الأعزل محارباً .

* «الاستراتيجية» : الحاكمية الملكية :

قال فرعون : ﴿ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ وهذه هي الاستراتيجية الحاكمة الملكية التي استخدمها جميع الملوك والقادة السياسيون؛ لاستفزاز النخوة في النفس الإنسانية ، وقد جمع ذلك بين النقطتين ، نقطة تتصل بالعقيدة ، والعقيدة محترمة عند كل ملة وعند كل جيل ، كانت عقيدة فاسدة ، أو عقيدة صالحة ، عقيدة تستند إلى وحي ورسالة ، أو عقيدة تنبع من قلّة العقل والسفاهة والطيش ، ولكنها محترمة في كلِّ ملة ، وفي كل عصر ، واعتاد الناسُ أن يدافعوا عنها ، ويثوروا لها ، فقال : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ فإذا كان أحد في بلاطه ، وفي ملئه لايملك قوة العقيدة ، فإنه استعان بشيء آخر وهو التخويف من نشر الفوضى ، والقلق ، وارتفاع الأمن ، وانتشار الاضطراب في المملكة ، وهذا الذي يخافه كلُّ من كان محباً لبلاده أو لوطنه ، فقال : ﴿ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ .

وقال موسى : ﴿ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ هذا كلام موسى ، إنه سمع كلمة فرعون التي كانت تتدفق بالكبرياء ، وبالتبجح ، وبالصلف ، فقد قال فرعون في مناسبة : ﴿ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٥١] .

لما صدرت هذه الكلمة المتكبرة من فم فرعون ، قال موسى : ﴿ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ .

*** كلمة رقيقة رفيقة، تثير الشرارة الأخيرة من العدل، وقوة المقارنة:**

هنالك قام رجلٌ مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، قد ثار فيه الإيمان، وثار فيه الشعور بالكرامة الإنسانية، والشعور باحترام حسن المرامي والمقاصد، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ هذه كلمةُ استعطاف، وهذه كلمة تدعو إلى التأمل، ما ذنب هذا الرجل؟ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟ ليس له ذنب إلا أنه يقول: ربي الله، فإذا قال أحد: ربي فرعون، لا تقتلونه، وإذا قال فرعون بنفسه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لا يستحق القتل؟ أين العدل يا جماعة؟ ألا تعقلون؟! رجل ينسبُ الربوبية إلى مَنْ أخرجه من العدم إلى الوجود، نقله من طور إلى طور، خلقه وربَّاه، وأنشأه وغذَّاه، وأطعمه وسقاه، وحفظه ووقاه، فإذا عزا هذا الرجل هذه الربوبية المطلقة المحيطة إلى صاحبها، وإلى مصدرها أنتم تريدون أن تقتلوه، أما الذي ينسب الربوبية إلى غير محلها، إلى مَنْ لا يستحقها، إلى من هو مربوبٌ ألف مرَّة، مربوبٌ منذ نشأته، منذ كان روحاً في صُلب أبيه، وجنيناً في بطن أمه، فكان موضعَ العناية الكريمة والربوبية الرحيمة، فما هذا الجور، ما هذا الظلم؟، فهذه كلمة رقيقة تثير البقية الباقية، والشرارة الأخيرة من العدل، ومن قوة المقارنة التي فُطر عليها الإنسان، المقارنة بين الفاضل والمفضول، المقارنة بين الخالص والزائف، المقارنة بين المالك والمغتصب، إنه أراد أن يحرك هذه القوة الكامنة في نفوس كل هؤلاء الذين كانوا يشهدون هذا المشهد، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟!

*** الاحتجاج بالمشهود المعهود على الهدف المطلوب المنشود:**

ثم دعم كلامه واحتجاجه بقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، هذا احتجاج بالمشهود المعاين؛ لأن موسى عليه الصلاة والسلام قد جاء بالمعجزات الباهرة ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ هذه كلها مشاهدات لا يماري فيها الإنسان، إنه يماري في أشياء

منطقية ليس لها وجود إلا في الذهن ، يماري في أشياء عقلية على مستوى عالٍ من العقل ، ولكنه لا يستطيعُ أن يماري في المشاهَد المحسوس ، فقال: ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ .

ثم إنه لجأ إلى طريقة نفسية رقيقة ، يستطيع كلُّ إنسان أن يفهمها ، ويستطيع أن ينصت لها ، ويتخير الطريق الأقوم الأسلم ، وقد خاطبهم باللغة التي يفهمونها ، فقال: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ .

قال: يا قوم لا تورطوا أنفسكم في مشكلة لا مخرج منها ، تأملوا في هذا الرجل الذي يدَّعي أنه نبي مرسل من الله ، وأنه قد جاء من السماء ، لكم طريقان: إما أن تبطشوا وتنكلوا به ، وتنتقموا منه ، وفيه خطر ، إذا كان صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، أما ـ أعاذه الله تبارك وتعالى من ذلك ـ إذا كان كاذباً فلا حاجة لكم فيه ، إن كذبه هو كفيل بهلاكه ، وبانطفاء سراجه ، إن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعضُ الذي يعدكم ، إن يك كاذباً فلستم مسؤولين عنه .

*** الاحتجاج بسنَّة الله التي لا تتغير:**

ثم إنه استعان بشيء ثالث ، وهو الاحتجاجُ بسنَّة الله التي لا تتغير ولا تحابي أحداً ، فيقول: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إخوتي لا يغرنكم هذا الملك العريض ، وهذا الجاه الكبير ، هذه المملكة الواسعة الأطراف ، وهذه الوسائل الوفيرة ، وهذه الثروة الهائلة ، يا قوم ، لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، لا شك أنكم ظاهرون ، لا شك أن لكم السلطة النهائية ، السلطة العليا ، لا شك أنكم أصحاب حول وطول ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، هنالك لفت هذا الداعي الكبير نظرهم إلى سُنَّة الله التي لا تتغير ، فيقول: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ إنكم تعتقدون أنتم الأعلون ، ولا شيء أعلى منكم ، ولا شيء فوق رؤوسكم ، فأنتم المنتهى في كل شيء ، المنتهى في القوة ، المنتهى في السلطة ، في الأمر والنهي ، ولكن هنالك قوة أخرى تؤمنون بها كحقيقة ، لكنكم

تشركون في بعض صفاتها ، قال فرعون: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لا حجة في ذلك ما أريكم إلا ما أرى ، هذا استسلامٌ في الحقيقة ، كان فرعون يحتاجُ إلى دليل من الصحف السَّماوية ، أو إلى دليل منطقي مثلاً ، ولكنه يقول وكأنه يعترف بعجزه: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ هذا ليس بدليل ، هذا يقوله كل غاوٍ ، وكل جاهل؛ ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هذا مجرد الدعوى ، لا بينة معها: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ .

* الاعتبار بالتاريخ ومصير الأمم البائدة:

وهنالك قاطعه المؤمن وثنى على قوله ، وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [المؤمن: ٣٠ ـ ٣١] يظهر أن فرعون وملأه كانوا يعرفون عاقبة هذه الأمم ، وكان عندهم شيء من علم بتاريخ هذه الأمم التي كانت بعد عاد وثمود ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ .

* التحذير من الآخرة:

ثم يقول: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يعني عليكم أن تعتبروا إذا بقي ملك لا يحول ولا يزول ، فكان الواجب أن يبقى ملك عاد وثمود ، فإذا لم يبق ملك عاد وثمود ، فلا ضمانَ لملككم ، كيف تعتقدون أن ملككم هو الذي سيبقى ويدوم ، وملك هؤلاء قد انقرض ، وطوي بساطه ، ما هو الفارق بين ملككم وملكهم؟ إذا كان هنالك الفارق الإيماني ، إذا كان هنالك فارق من الأخلاق ، إذا كان هنالك فارقٌ من الرشاد والهداية ، فأنتم لا تتَّصفون به ، ولا تدعونه ، وحياتكم تدل على أنكم تنهجون نهجهم ، وأنكم تسيرون على دربهم ، فإذا انقرض عاد وثمود والذين من بعدهم ، فأنتم كذلك إلى الانقراض ، وستسيرون إلى ما ساروا إليه ، ما هو الخط الفاصل بينكم وبينه؟

ثم يقول: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم ينادي بعضهم بعضاً ،

وكان هذا قد ألفه ملأ فرعون كلهم ، فكانت عندهم أعياد وكانت عندهم مواكب ، وكانت عندهم خرجات يخرجون فيها ، وكانت هنالك غوغاء وصخب ، كانوا يعرفون ماذا يقع هنا ، فقال: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ هذا الذي يشعر فرعون بوقعه في نفسه؛ لأن أكره الشيء إليه هو الانهزام ، كان لا يتصوَّره؛ لأنه كانت له جيوش جرارة كثيفة ، ولم يعرف الهزيمة ، فهذه الكلمة يعرف معناها ، ويعرف وقعها في نفسه ، ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ .

*** إثارة نقطة جديدة حكيمة:**

ثم إن هذا المؤمن الداعي الحكيم قد أثار نقطة جديدة ، نقطة حكيمة ، وهو أشار إلى علة الطبيعة البشرية ، وداء من أدواء المجتمع البشري القديم ، وهو عدمُ تقدير النعمة في محلها ، وفي وقتها ، هذه علّة قديمة في الطبيعة البشرية ، إن الإنسان يستهين بالمعاصر ، ويستخف بقيمته ، ويتناساه ما دام هو يعاصره ، ويعيش معه ، فإنه لا يقيم له وزناً ، هذه علَّة من علل الطبيعة البشرية؛ التي حفظها تاريخها وأدبها وشعرها وقصصها وحكاياتها وأساطيرها ، الاستهانة بالحاضر والإجلال للماضي ، التنكر للمعاصر ، والتجهم له ، والإنكار لفضله ، والاعتراف والخضوع للماضي ، كلما مضى رجلٌ قالوا لم يكن مثله ولن يكون مثله ، أما ما دام حياً فهو بشر ونحن بشر ، فإذا انتقل من هذا العالم، وفارق الحياة ، فهنالك مدائح سخية ، وقصائد رنانة ، وهنالك مبالغات وتهويل ، هي الطبيعة التي حرمت الأجيال البشرية ، والمجتمعات الإنسانية الانتفاع بأفضل ثمارها ، وأفضل أفرادها في حياتهم ، وقد حذَّرهم من هذا النكد وإنكار الفضل ، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

إن يوسف كان نسيج وحده ، وقريع دهره ، ومن أين يأتي مثل يوسف؟ هذا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، الملك العادل الرحيم ، لا أبداً ، ما دام حياً ، فكلُّ الناس كانوا يعيبونه ، وينسبون إليه الأشياء ، فيقول: إياكم أن

تعودوا إلى مثل هذه المحنة ، فلا تقدرون قدر موسى ، حتى إذا أذن الله له بالرحيل ، وانتقل من هذا العالم ، كأني بكم تقولون : إنَّ موسى كان منحة من الله تبارك وتعالى ، وما سبقه رسول مثله ، ولا يأتي بعده مثله ، وأنا أحذركم من هذا : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ .

* سمة فرعون الرئيسية التي حالت بينه وبين الحق :

تأمّلوا في كلمة ﴿ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ إنا لا نصدق أنه سيأتي نبي بعد يوسف يكون مثله ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

وفي الحقيقة : إن مصدر هذا الحرمان والكفران ، ومصدر هذا العناد والمكابرة هو التكبر ، يخاطبهم مثل سيدنا موسى في مكانته ، وفي سموه ، وفي قوة دعوته ؛ التي أثرت في سحرة فرعون فنقلتهم من معسكر فرعون إلى معسكر الدعاة إلى الله ، إلى معسكر الشهداء في سبيل الله ، كأنهم نشؤوا في أحضان النبوة مدة طويلة ، ولكن عهدهم كان قريباً من سيدنا موسى ودعوته ، ولكن سيدنا موسى هو الذي شقّ صخور قلوبهم ، وأنبت فيهم الإيمان ، فخرجوا من هذا المعسكر الفرعوني وهم يقولون : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ وإنا مستعدون لنيل هذه العقوبات كلها .

يخاطبهم ، ويدعوهم إلى الله ، ولكن فرعون لم يتأثر ، لماذا؟ السِّمة التي يتسم بها فرعون ـ وهي السِّمة الرئيسية ـ هو التكبر ، فيريد القرآن أن يركِّز عقولنا ، وتأملاتنا على نقطة هامة جداً ، وهي التكبر ، وهذه الكلمةُ قد تكررت في هذه الآيات مراراً : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

*** النقطة التي يلتقي عليها سيدنا موسى في دعوته ، ومؤمن من آل فرعون في موعظته :**

ثم يقول : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٤ ـ ٣٥] فمفتاح القصة ، ومفتاح شخصية فرعون ، ومفتاح هذه القصة هو التكبر ، التكبر هو الذي حال بين فرعون وبين الانتفاع بدعوة سيدنا موسى ، وكان سيدنا موسى قوّى الشعور بهذه النقطة ، وكان مؤمن من آل فرعون كذلك قوّى الشعور بهذه النقطة ، النقطة التي يلتقي عليها سيدنا موسىٰ في دعوته ، ومؤمن من آل فرعون في موعظته ، هي نقطة النعي على التكبر والتركيز عليها ، كلّ يشير إلىٰ هذه النقطة ، هذه النقطة الفارقة التي تحول بين فرعون وملئه وبين الانتفاع والاهتداء بالهدي الذي جاء به سيدنا موسىٰ .

*** الضرب على الوتر الحساس :**

وقد جاء في هذا الحوار التنبيه علىٰ تفاهة الدنيا ، وعدم ثباتها وبقاء الآخرة ودوامها ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر : ٣٨ ـ ٣٩] .

إن أكبر حجاب كان لفرعون هو الملك العريض الذي كان يتباهى ، ويتبجح به ، فيقول : إن هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار ، فضرب علىٰ الوتر الحسّاس ، ثم ذكر قانون المجازاة العادل الذي لا يحابي أحداً ، فقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : ٤٠] .

*** الدعوة إلى معرفة المخلص النافع من الفاحش الخادع :**

ثم هنا كذلك يثير نقطة خاصة ، وهي عاقبة عدم التمييز بين النافع

والضار ، وبين المخلص النافع والغاشّ الخادع ، فيقول: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [المؤمن: ٤١ ـ ٤٢] .

ويقول: قارنوا بين الدعوة التي أقوم بها وبين الدعوة التي يقوم بها فرعون ، انا أدعوكم إلىٰ سبيل النجاة ، أنا أدعوكم إلىٰ الله الرحيم الغفار وهو يدعوكم إلى نفسه ، وإلى طريق الهلاك والبوار.

ثم يقول: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

هنالك نبّه هذا الداعي الكريم على أن دعوة فرعون هي دعوة طفيلية ، وكل دعوات الجاهلية هي دعوات طفيلية غير مقصودة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وهي لا تستند إلى عقل ، ولا إلى علم ، ولا إلى دعوات الأنبياء ، تنبتُ على سطح الأرض «كالحشائش الشيطانية» التي تنبتُ في الحقول والمزارع ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هل عندكم من سلطان؟ هل عندكم من برهان؟ لا ، إنما هي التي تريدها أهواؤكم ومصالحكم فقط.

*** الخط الذي ينتهي إليه كلُّ داع مخلص:**

ثم أخيراً جاء بكلمة فيها الرقة ، وفيها التفويضُ إلى الله ، وفيها الرحمة ، وفيها المجهود الأخير ، وهو القولُ الذي يلجأ إليه كل داع مخلص ، لا شيء وراء ذلك ، وهو قوله: ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

وهذه خيرُ نهاية لموعظة ولدعوة إذا لم ينتفع بها ، فهذا هو الخط الذي ينتهي إليه الداعي.

هذا حوار فريدٌ في أسلوبه ، وهذا هو الحوارُ الذي حفظه القرآن ، وخلده في أسلوبه الحكيم وبلاغته ، وفي ترتيبه ، وفي الانتقال من نقطة إلى نقطة ، وفي خير بداية وخير نهاية ، هذا الحوار الذي يجبُ أن يكون نبراسنا

في توجيه الدعوات ، وفي القيام بأعبائها ، وفي الإيفاء بحقوقها ، إذا واجهنا قوة جبارة .

فهذا مثل أردتُ أن أضمَّه إلى أمثلة الدعوات النبوية التي هي النقطة الأخيرة التي يصلُ إليها الداعي ، وهذا نموذجٌ من دعوة رجل لم يكن نبياً ، ولم يكن من أخصِّ أشخاص سيدنا موسى ، ولا يدلُّ القرآن على هذا ، بل يصفه بقوله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ ﴾ فنستطيع أن نتعلَّم منه كثيراً ، ونتلقى منه دروساً ذات قيمة كبيرة في منهج الدعوة .

* * *

المحاضرة السابعة

نموذجان من دعوة خاتم الرسل وحكمته

*** النموذج الأول من دعوته ﷺ على جبل الصفا:**

نبدأ ونتخير من هذه المواقف الدعوية الجليلة الرائعة؛ التي هي كلها معجزات لسيد المرسلين، وخاتم النبيين ﷺ. موقفه ﷺ - هو الموقف الأول كداعٍ - على جبل الصفا، وهو النموذج الأول من دعوته ﷺ، وأريد أن تستحضِروا الجوَّ الذي بدأ فيه رسول الله ﷺ دعوته، وتعيشوا تلك المشكلة التي كانت تكتنف هذه الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وإلى التوحيد، ونَبْذ الشرك والوثنية، والحياة الجاهلية التي كانوا يحيونها، وأرجو أن تنتقلوا بعقولكم وتصوراتكم - إن لم تستطيعوا أن تنتقلوا بنفوسكم وبأجسادكم - إلى تلك البيئة التي قام فيها رسول الله ﷺ منذراً ومبّشراً ومبلّغاً لرسالات ربه.

*** النبوة هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحس وعالم الغيب:**

إنَّ الذي كان يريدُ رسول الله ﷺ أن يقوله لقريش أولاً، وللعرب ثانياً، ولأهل عصره ثالثاً، وللعالمين وللجيل البشري كله رابعاً وأخيراً، إنما كان ذلك يعتمدُ على شيئين: على وجود عالم آخر غير هذا العالم المادي الحسي؛ الذي كانوا فيه، عالم لا يشاهد ولا يقع تحت سيطرة الحواس الخمس التي كانوا يملكونها، ثم كان يعتمدُ ثانياً على وجود النبوة؛ لأن النبوة هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحس الذي نعيشه وبين عالم الغيب، كل جسر - يصل بينهما - مكسور مهدم، وكل قارب ينقل المسافرين إليه

غائب مفقود ، هذا عالم ـ كما قلت لكم ـ ليس للحواس الخمس وللعقل الذي يتأسس على هذه الحواس الخمس إليه؛ سبيل .

*** متى يؤدي العقل دوره؟**

فالعقل إنما يعتمد على الحواس الخمس ، فكلٌّ ما تقدمه إليه الحواس الخمس ، من محسوساتها ومحصولاتها ، ومن النتائج التي توصلت إليه ، يستخرج منها العقل نتائج خطيرة ، هذا هو شأن العقل ، إنما يقوم بناؤه على ركام تقدمه إليه الحواس الخمس البشرية ، وحيث تتعطل هذه الحواس ، يتعطل العقل ، فوظيفةُ العقل تنحصر في أنه يستخرجُ من هذه المعلومات التي تقدمها الحواس ، ويتوصل من هذه المقدمات إلى نتائج كبيرة ، فحيث لا مقدمات لا نتائج ، وحيث لا محسوسات لا معقولات ، هذه هي النقطة الحاسمة في تاريخ الفلسفة والعقل الإنساني ، التي أغفلها كثيرٌ من الفلاسفة ، وكثير من مدَّعي العقل ، إنهم بحثوا العقل كأنه شيء مستقل ، وكأنه يعملُ بنفسه ، ويشق طريقه بنفسه . ولكن ليس ذلك بصحيح ، فالبحوث الأخيرة التي تهيأت الآن في نطاق الفلسفة ، أثبتت أن العقل عاجز حيث لا يوجد عمل الحواس ، هنالك يقفُ العقل حائراً مدهوشاً لا شغل له .

*** بُعْد أهل العرب عن النبوات شكَّل مشكلة كبرى :**

فالمشكلة الرئيسية أن أهل العرب بصفة عامة ، وأهل مكة بصفة خاصة ، كانوا بعيدي العهد بالنبوات ، وبتصوّرهم لعالم الغيب ، فقد غابت هذه القنطرةُ التي كانت تصل بين عالم الغيب ، وبين عالم الحس ، فلما فقدت هذه القنطرة أصبحوا يجهلون عالم الغيب جهلاً كلياً ، لذلك يقول القرآن في أسلوبه المعجز الموجز : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ، ويقول : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : ٦٦] ويقول الله تبارك وتعالى في سورة يونس : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس : ٣٩].

*** المشكلة أن رسول الله ﷺ أراد أن يخاطب قوماً لم يتعلموا «حروف الهجاء» من الدين:**

فالمشكلة الرئيسية أن رسول الله ﷺ أراد أن يُوجِّه دعوته إلى قوم ليس عندهم مفاهيم وتصورات دينية بدائية ، كأنه ما عندهم مفاتيح العلم ، خذوا أكبر ذكي أو عبقري فوق العادة ، وهو لا يعرف حروف الهجاء للغة ، أو خذوا أحد كبار الأساتذة في جامعة كامبردج أو في مختبر من مختبرات أمريكا التي اكتشفت الطاقة الذرية ، وهو لا يعرفُ «العربية» وقولوا له: عندك يوم بكامله ، تطالع هذه الصحيفة وتقرؤها لنا في المساء ، ولا يجد أحداً يساعده في ذلك ، ويعلِّمه حروف الهجاء: ألف ، با ، تا ، ثا ، جيم ، فهو لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً لأنه ما تعلم حروف الهجاء ، وهكذا نسبة المحسوسات إلى المعقولات ، المحسوسات أمام المعقولات كحروف الهجاء للغة المشكلة ، إن الرسول ﷺ أراد أن يخاطبَ قوماً لم يتعلَّموا حروف الهجاء ، إن عقولهم الضيقة التي نشأت في هذا المحيط المحدود ما كانت تسيغُ النبوة ، فيجب أن تسيغَ النبوة أولاً ، ثم يتقدم الرسول عليه السلام خطوة أخرى.

*** الأنبياء يكونون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود:**

عاشت الأمة العربية وسكان هذا الوادي بصفة خاصة مدة طويلة بعيدة عن المفاهيم الدقيقة ، والمصطلحات العلمية ، والبحوث اللاهوتية ، ولكنها فاقت وتميزت بسلامة فهمها ، وسرعة إدراكها ، وحبها ، وخضوعها للواقع ، وعلىٰ ذلك اعتمد الرسول ﷺ في شرح مركز «النبوة» ، و«النبي» في هذه الحياة ، وتبرير حقه في الإنذار والإنباء ، ومخالفة المألوف المعروف المشاهد بالعيان ، والإخبار بما لا يراه الإنسان ، فكان أبلغ من ألف دليل يستندُ إليه أئمة الكلام وأئمة اللاهوت ، وكانت جميع المراحل التي اجتاز بها الرسول الأعظم ﷺ وجميع الوسائل التي اتخذها واستخدمها في هذه المهمة المقدسة الدقيقة ، مطابقة للطبيعة والبيئة ، وهكذا الأنبياء لا يلتجئون ـ في أداء مهمتهم ، وتبليغ رسالتهم ـ إلى الصناعة ، والتكلف ،

والاستعارة، والاستيراد، ويكونون من التافه الموجود، الشيء العظيم المفقود.

*** كان الرسول عربياً يعرف عادات العرب:**

ولم يكن ذلك عصر الصحافة والإذاعة، وعصر آلات نشر الصوت وتضخيمه، فما هو السبيلُ إلى حشر سكان الوادي إلى مكان مخصوص في زمن مخصوص، وما هو السبيل إلى السيطرة على عقولهم ونفوسهم حتى ينفضوا أيديهم من أشغالهم، وملذّاتهم، ويخفّوا إلى مكانه فزعين مسرعين؟ كان الرسول ﷺ عربياً، يعرف عادات العرب وتقاليدهم وشعاراتهم وتأثيرها في نفوسهم ومجتمعهم، واستعان بذلك في سبيل هذه الغاية التي لا غايةَ أفضل منها، اعتاد العرب إذا أحس أحدٌ منهم بخطر، وبعدوّ يريد أن يفاجىء، ويأخذ القوم على غرّتهم، أو بعدوّ كامن قاعد بالمرصاد قد غفل عنه أهل البلاد، أن يرتقي أحدُهم قمة جبل أو ربوة، ويصرخ بأعلى صوته: «يا صباحاه» أو «واصباحاه» فيفزع القوم، ويأخذون عدَّتهم، ويخرجون على بكرة أبيهم لمواجهة الخطر الداهم، والعدو المهاجم.

ما هو هذا الخطر الذي كان يقلق مضاجعهم، ويحول بينهم وبين راحاتهم ولذّاتهم، وما مدى تأثيره وضرره في حياتهم، النوع الوحيد من الخطر الذي كانوا يعرفونه هو العدو فقط، يقتل منهم كثيراً، وينهب أموالهم، ويستاق إبلهم، وماشيتهم، ويلحق بهم الأضرار.

*** العدو الذي يعيش في «الداخل» أضر وأفتك من كل عدو في الخارج:**

هانت هذه الأخطار والأضرار ـ على ضخامتها وواقعيتها ـ في عيون الأنبياء والرسل، إنهم عرفوا أن أكبر خطر هو الجهل بصانع هذا الكون، ومدبره، وصفاته الحقيقية، وحقوقه، وخطر الحياة الجاهلية التي كان يعيشها أهلُ ذلك العصر، وسكان هذا الوادي، والأخلاق التي اتّسم بها هذا المجتمع الجاهلي (يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويأتون

الفواحش ، ويقطعون الأرحام ، ويسيئون الجوار ، ويأكل القوي منهم الضعيف)[١] .

رأى النبي ﷺ هذا العدو الذي يعيش في نفوسهم ، وفي عقائدهم ، وأخلاقهم (ليس في الخارج) وكان في نظره ـ ﷺ ـ أضر وأفتك من كل عدو في الخارج .

إن هذا الخطر ـ الذي نبع وانبثق من داخلهم ـ أعظم من كلِّ خطر عرفوه في كلِّ حياتهم الجاهلية الطويلة ، وفي مجتمعهم العربي القبلي ، وإن عداوة نفوسهم أشد وأدق من عداوة كلِّ قبيلة منافسة ، ومن كل جيش محارب ، وإن أسلوب حياتهم يثير سخطَ الله القادر القاهر ؛ الذي لا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحبُّ في الأرض الفساد .

*** أصدق صوت في أصدق مناسبة :**

فخرج رسولُ الله ﷺ وصَعد على جبل الصفا ـ وهو أقرب الجبال إليهم ـ ونادى بأعلى صوته : «يا صباحاه» ، وقد شهد هذا الوادي بأنه كان أصدق صوت في أصدق مناسبة ؛ لأن مثل هذه المناسبات لم يكنْ من العادة أن يكذب الإنسانُ فيها ـ بخلاف هذه المدنية المزورة ـ وقد سمع أهلُ مكة صيحة معروفة مألوفة ، تخرج من فم أصدق رجلٍ عرفوه في بلدهم ، سمّوه بأنفسهم «الصادق الأمين» وفهموا معناها ومطالبها ، وأمامهم سلسلة طويلة من التجارب والحوادث ، ولم يتأخروا في تلبية هذا النداء جاء في كتب السيرة ، فاجتمع الناسُ بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث إليه رسوله .

*** كان العرب عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين :**

فقال رسول الله ﷺ حين اجتمعوا : «يا بني عبد المطلب ، يا بني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريدُ أن تغير عليكم صدقتموني؟» كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربي ﷺ ووجَّه إليهم هذا السؤال ، أميين غير مثقفين لم يدرسوا الفلسفة وعلم المنطق ، ولم يألفوا

---

(١) من حديث جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي ملك الحبشة .

التعمق والتدقيق ، ولكنهم ـ كما قلت ـ كانوا واقعيين عمليين؛ رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم ، وسرعة الإدراك ، واستعرضوا الواقع ، واستعرضوا المحيط الذي وقف فيه هذا الخطيب النذير ، واستعرضوا وضعه الطبيعي ، رأوا رجلاً جربوا عليه الصدق ، والأمانة ، والنصيحة ، وحب الخيرِ ، قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء الجبل والسفح المقابل ، وهذا الذي لا يشتركُ فيه مخاطبوه ، فعرفوا من غير شك وتأمّل طويل ، أن له الحق أن يتحدَّث عما في سفح الجبل المقابل من عدو رابض ، وخطر كامن ، وليس لهم حق ـ وقد حال الجبلُ بينهم وبين السفح المقابل ـ أن يكذبوه ، وينفوا رؤيته على أساس أنهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فرصة المشاهدة وحقّ الشهادة ما لم يعطهم ، وكانوا عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين ، فقالوا: نعم ، إنك إذا قلتَ أن وراء الجبل خيلاً تريدُ أن تغيرَ في الليل ، أو تغير على غرة منا صدقنا.

*** الأنبياء يقفون على قمة جبل من النبوة ، يطلون منها على دنيا الحس ودنيا الغيب:**

وقد نجح رسولُ الله ﷺ بحكمة النبوة التي خصَّه الله بها وبلاغته العربية التي أكرمه الله بها ، وقد صوَّر لهم مركز النبوة والأنبياء الفريد الدقيق ووضعهم الشاذ ، الذي يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم ، وأبناء جنسهم وعصرهم ، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزعماء عادة ، فقد وقفوا على قمة جبل من النبوة يطلون منها على الجانبين ، الجانب الحسي بحكم البشرية ، والاتصال بعالم الغيب تحت الإرادة الإلهية ، وبحكم النبوة التي يكرمهم الله بها ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] وليس لأذكى إنسان وأعظم عالم ، وأكبر عاقل أن يكذبهم ، وينفي مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم في هذه المشاهدة ، ولا يرى ما يرونه ، مثل بسيط جداً: أنا واقف أمام هذا الشباك ، وأنتم وجوهكم إلى هذا الجانب ، وأنا أقول: الله أكبر! قد سقط فلان ، أو خرج

فلان ، فهل يجوز لكم أن تكذبوني ، وأن تنفوا ، وتقولوا: لا؟ هذا لا يمكن ، هذا غيرُ معقول ، كلكم تعرفون أنكم مدبرون لهذا الجانب ، ومقبلون إلى ذاك الجانب ، وأنا مقبل إلى هذا الجانب ، ومدبر إلى ذاك الجانب ، فأنا لي حقُّ الشهادة ، وحق الإخبار بشيء لا ترونه أنتم ، شيء بسيط ، ومعقول ، ويومي ، وليس لأذكى إنسان أن يكذبه ، ربما يكون منكم أحدٌ أبصر مني ، وأعقل مني ، ولكن رغم هذه الحدة في البصر لا يجوزُ له أن يكذب ما أرى.

كذلك ليس لأذكى إنسان ، وأعظم عالم ، وأكبر عاقل أن يكذب الأنبياء ، وينفي مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم في هذه المشاهدة ، ولا يرى ما يرونه ، كما لا يجوزُ لمن وقف في سفح الجبل أن يكذب من قام على قمته ، وأخبر بما وراء الجبل ، وتحدث عما وراء الأكمة[(١)].

*** مكابرة الفلاسفة والحكماء:**

فإذا حاجّهم وخاصمهم أسير لحسه ، قالوا محتجين مستغربين: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: ٨٥] ، وكان العرب الأميون أعقل ـ في هذه المرحلة البدائية ـ من الفلاسفة والحكماء الذين كذبوا أخبار الرسل ، وشكوا في الحقائق التي جاؤوا بها على أساس عدم مشاهدتهم واطلاعهم ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: ٣٩].

*** القضية هو الإيمان بوجود عالم لا يُرى:**

ولما تمت هذه المرحلة التي كان لا بُدَّ منها ، تقدم الرسولُ ﷺ خطوة ثانية ، ودخل المرحلة الثانية النهائية ، فقال: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[(٢)].

كان لهم أن يقولوا: من أين رأيتَ هذا العذاب ، بأي شيء تنذرنا ، ولكنه أولاً وقف على قمة الجبل ، ثم سألهم: هل إذا أخبرتكم بأن هنالك

---

(١) من تعبيرات العرب «من وراء الأكمة» والأكمة: التل.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (ج٣ ص ٣٨).

خيلاً تريد أن تغيرَ عليكم هل أنتم مصدقي ، قالوا: نعم ، هناك قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يرى هذا الجانب الخلفي للجبل ، وهو وجود الغيب بالنسبة إليهم ، ويرى الجانب الأمامي ، فكان يجمعُ بين العالمين ، العالم الغيبي المؤقت المجلي بالنسبة إليهم ، والعالم الحسي المشهود الممتد أمامهم ، حتى إذا وقفوا في سفح هذا الجبل لم يروا ذلك العالم الذي يراه الرسول ، فهنالك عالم وراء عالم ، في الحقيقة القضية هو الإيمان بوجود عالم لا يرى ، فإذا تحقق الإيمان بإمكان وجود عالم مهما كان بسيطاً ، فتح الطرق؛ لأنه إذا ثبت عالم واحد يمكن أن يثبتَ ألف عالم ، فالشيء الذي يضغطُ عليه صاحب الحجة هو الإيمان بإمكان وجود عالم ، أو حقائق لا تأتي تحت الحس ولا تبصر ، فإذا آمن إنسانٌ بوجود حقيقة واحدة غيبية ، فهو مكلف بالإيمان بوجود ألف حقيقة.

*** الخطر الحقيقي الذي تناساه أهل مكة وأهل العصر:**

قال الرسولُ ﷺ: «إني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد» ، أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهددهم ، والذي هو طبيعة هذه الحياة التي يحيونها ، العقائد التي يدينون بها ، والأصنام التي يعكفون عليها ، والعادات الظالمة ، والأخلاق الجاهلية التي يتمسَّكون بها ، وبالاختصار هذه الجاهلية الجهلاء التي يعيشون عليها ، لا إيمان ، ولا علم ، ولا عدل ، ولا تقوى ، إن طبيعة هذه الحياة والفساد الشامل في المجتمع ، والمعيشة الضنك ، والقلق النفسي ، والعذاب الداخلي في هذه الحياة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] ويقول: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

*** تفرد الأنبياء بمعرفة خواص العقائد والأعمال والأخلاق والعادات:**

إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما تعرض لبيان ضرر هذه الحياة

والمجتمع المادي والاقتصادي ، أو الإداري والسياسي؛ لأن هذا لم يكن من موضوع الرسول ولا من موضوعات الرسالات السماوية ، الهدف الذي يرمي إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، هو العذابُ الدائم بعد هذه الحياة التي يهون ، ويصغر أمامه كل ألم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾[الرعد: ٣٤] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طـــه: ١٢٧] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦].

*** سبيل الأنبياء والمرسلين وسبيل الفاحصين والمكتشفين:**

لقد اطلع العلماء والفاحصون على خواصّ الأدوية ، وعرفوا كثيراً من طباع الأشياء والقوى المودعة في الموجودات ، وكونوا العلوم والمعلومات التي انتفع بها الناس ، وشكروا أصحابها ، واعترفوا بفضلهم ، وتفرد الأنبياء بمعرفة ذات الله ، وصفاته ، وأحكامه ، ومرضاته ، وبخواص العقائد والأعمال ، والأخلاق ، صحيحها وسقيمها ، صالحها وفاسدها ، وما تجر ، وتستتبع من سعادة وشقاء في الدنيا ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار في الآخرة ، وخصَّهم الله ـ بقدر ما يريد ـ بعلم ما يكونُ بعد هذه الحياة ، وفي ذلك العالم من حشر ونشر ، وإنعام وعذاب ، ونعيم وجحيم: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

*** جواب الأنبياء الأخير:**

لقد وقفوا ـ عليهم السلام ـ على جبل النبوة يشرفون منها بقدر ما يريد الله على عالم الغيب والشهادة ، ويخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنية في المستقبل القريب والبعيد ، وما يكمن لها من خطر وضرر ، ثم ينذرون قومهم شفقة وإشفاقاً وحباً وإخلاصاً ، وإذا نازع منازعٌ هذا الحق الطبيعي العقلي ، وهذه البداهة، وشك أو شكّك في مركزهم، المركز الذي خصهم الله به، قالوا في نصيحة وإخلاص وتألم وإشفاق: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وكما قال مؤمن من

آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

* **مثال بليغ للحكمة النبوية والبلاغة العقلية:**

وأذكر لكم نموذجاً رائعاً آخر، يختلفُ كلَّ الاختلاف في الطبيعة والبيئة والدوافع التي دفعت إليه، ولكنها قطعة رائعة، ومثال بليغ للحكمة النبوية، والبلاغة العقلية ـ ليست البيانية ـ فحسب ـ والقيادة الحكيمة المؤثرة في أغوار النفوس وأعماق القلوب، وهي جديرة بأن تكون موضعَ دراسة مؤرخي النبوات، والقيادات الروحية، وعلماء البلاغة، وأساتذة علم النفس.

إن رسول الله ـ ﷺ ـ لما وزع سبايا ومغانم حنين في الجعرانة على أشراف قريش، كما تعرفون، وقرأتم في السيرة، أنه أعطى قريشاً، فأجزل لهم العطاء، أعطى أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل، وفلاناً وفلاناً، وكان نصيب الأنصار فيها قليلاً، اعتماداً على إيمانهم، وعلى حبهم، وصلتهم الدقيقة العميقة الدائمة بالإسلام ونبيه ـ ﷺ ـ.

هناك تقاول بعضُ الشباب، فقالوا: إن رسول الله ـ ﷺ ـ خص بني قبيلته بأكبر نصيب من العطاء والمغانم، وبلغ هذا رسول الله ـ ﷺ ـ فحسب له حساباً، لأنه النبي المربي، وليس النبي فقط، فأمر بجميع الأنصار في حظيرة، فاجتمعوا، وقال: «لا يدخل الحظيرة إلا الأنصار» ولما اجتمعوا كلهم قال لهم:

* **لله ولرسوله المن والفضل:**

«ما هذه القالة التي بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم»؟

فاستحيوا وقالوا: لا شيء يا رسول الله، إنما هم بعض الشباب قد وسوس لهم الشيطان، ثم قال: «أما أتيتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم» قالوا: لله ولرسوله المن والفضل.

*** إثارة الإيمان واليقين والحب الدفين:**

ولم يبتدر رسولُ الله ﷺ بالكلام، بل أراد أن يتكلم بلسانهم، أثار فيهم الشعور الإنساني، وألهمهم المعاني، فقال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ » لله ولرسوله المن والفضل، قال: «والله لو قلتم لصدقتم ولصدقتكم، أتينا مكذباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك. وعائلاً فواسيناك؟

أي زعيم، وأي قائد، وأي مرب، وأي صاحب فضل يستطيعُ أن يشهدَ على نفسه بهذا، والله لولا أن هذه الكلمات قد وردتْ في السيرة النبوية، وفي حديث صحيح، أصله في الجامع الصحيح للبخاري، وقد ذكره الحافظ ابنُ القيم في «زاد المعاد» بسياق أوسع وأشمل، لولا أنها قد وردتْ في الصحاح وفي كتب السيرة، لما كان لأي مسلم أن ينطق لسانه بهذه الكلمات، أما أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك!».

*** أوجدتم علي في لعاعة من الدنيا؟**

ثم قال بعد أن أثار نفوسهم، وأجرى عيونهم، وفتح الأغلاق من قلوبهم: «يا معشر الأنصار! أوجدتم علي في لعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم».

انظروا كيف أوجد في نفوسهم الثقة التي كانت كفيلة بحسم كلّ ما ساور نفوسهم ـ إن كان هناك شيء قد ساور نفوسهم ـ وقال: أوجدتم علي في لعاعة من الدنيا (واللعاعة: خضرة ناعمة) تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ثم قال الكلمة المثيرة البليغة التي ما يمكنُ أن تطلق أو تنطلق من فم إلا وتفجر الأنهار، وتشق الصخور، وتأتي بالمعجزات.

*** الأنصار شعار والناس دثار:**

«أما ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب للناس بالشاه والبعير إلى رحالهم، وترجعون برسول الله ـ ﷺ ـ إلى رحالكم، والله لولا الهجرة

لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ووادياً ، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكتُ شعب الأنصار ووادِيها ، الأنصار شعار ، والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» .

ثم ماذا كان؟ كان الشيء المتوقع الطبيعي ، هملت عيونهم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسمة وحظاً .

*** أروع نموذج في الآداب البشرية والآداب الإنسانية :**

والله لو بحثنا ـ ولي مشاركة في بعض اللغات غير العربية فضلاً عن اللغة الأردية ـ لو بحثنا في أدب الأمم والديانات ، ما وجدنا موعظة أبلغ من هذه الموعظة ، وعلماً بالنفس الإنسانية أكثر عمقاً ، وأكثر صدقاً من العلم النبوي .

هذان النموذجان من أروع النماذج التي دونت ، وسجلت في الآداب البشرية ، وفي المكتبات الإنسانية .

* * *

المحاضرة الثامنة

تمثيل جعفر بن أبي طالب للإسلام والمسلمين في مجلس النجاشي ملك الحبشة

*** نموذج دعوة وحكمة لأحد السابقين من هذه الأمة :**

لقد ضممنا إلى دعوات ثلاثة أنبياء من كبار الرسل ـ إبراهيم عليه السلام ويوسف عليه السلام وموسى عليه السلام ـ وحوارهم مع أمتهم ـ أمة الدعوة وأمة الإجابة ـ حواراً لفرد ، لم يكن له حظّ من النبوة والرسالة ، ولا شرف البعثة إلى أمة من الأمم ، أو مجتمع من المجتمعات البشرية ، إن جلَّ أمره أنه كان من المؤمنين بنبيّ عصره ، قد شرح الله صدره للإيمان والحكمة ، وفتق قريحته للكلام الرقيق الدقيق ، والموعظة الحسنة البليغة ، وكأنه مخطط قد خطط على هدوء وروية ، فتجرد من «الارتجالية» والحشو والفضول يتراجع عنه صاحبه ، أو يندم عليه أو يعتذر ، وذاك شأن من هيأه الله للدعوة ، وأخلص لدينه ، ولم يرد إلا وجه الله ، أو إبراء ذمته .

وحين انتهينا في المحاضرة الماضية من عرض نموذجين لدعوة سيد الأنبياء والرسل ، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ـ والسيرة النبوية لا تنقطع عجائبها ، ولا تنفد دررها وجواهرها ـ ننتقل إلى عرض نموذج من نماذج بعض المؤمنين الذين نشؤوا في أحضان النبوة ، وكانوا غرس التربية النبوية ، وزرع الدعوة الإسلامية الأولى ، وهم كثير ،

نختار من بينهم جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي»(١).

*** الموقف الدقيق الرهيب الذي دعا إلى هذا الكلام:**

وقبل أن أعرض نموذج هذه الدعوة ، وندرسه دراسة بلاغية ونفسية ودعوية ، يحسن بنا أن نستعرضَ ، ونتمثَّل المحيط الدقيق الذي اكتنف هذه الدعوة ، والموقف الرهيب المحرج الشائك؛ الذي وقفه جعفر للكلام والخلفيات التي تختصّ بهذا الموقف.

كان من خبر هذا المجلس الذي دعا إلى هذا الكلام ، والموقف الذي وقفه جعفر بن أبي طالب ، شارحاً للإسلام ، وعارضاً لدعوته ، ما رواه أصحاب السيرة: أنه لما رأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يُصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن لها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» فخرج عند ذلك جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فكانت أول هجرة في الإسلام ، وكانوا عشرة رجال ، أمروا عليهم عثمان بن مظعون ، ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً.

ولما رأت قريش أن هؤلاء قد آمنوا ، واطمأنوا بأرض الحبشة؛ بعثوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بن الوائل(٢) ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته مما يُستطرف من متاع مكة ، وقدما على النجاشي ، وقد استمالا البطارقة ، وأرضياهم بهداياهم ، وتكلم في مجلس الملك ، فقالا: إنه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ، ولم

---

(١) قاله رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ، راجع الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب: المغازي ، باب: عمرة القضاء . القصة بطولها «السيرة النبوية» للعلامة الندوي طبع في دار ابن كثير بدمشق.

(٢) وكانا من دهاة العرب.

يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم؛ لتردهم إليهم ، فهم أبصر بهم ، وأقرب إليهم ، وقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما .

*** الوصف الماكر المنفر للاجئين المسلمين :**

تأملوا في هذه الكلمة التي قد صبّ فيها صاحباها ذكاءهما وحنكتهما ، وتجلت فيها براعتهما السياسية الماكرة ، لقد وجَّها إلى فريستهما وهدفهما ـ وهي هذه القلة المؤمنة اللاجئة إلى هذا البلد النائي الغريب ـ سهاماً مسمومة تصيب المقتل ، وقد هوّنا من شأنهم أولاً ، وصوراهم تصويراً يدعو إلى الاستخفاف والسخرية ، فقالا : إنه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، والكلمة لها معنى خاص في بلاط الملك الكبير؛ الذي لا يضمُّ إلا النوابغ من الأمراء والوزراء ، والمحنكين من البطارقة والعلماء ، وقد استفزا في الملك وحاشيته شعورَ المقت والكراهة ، والنخوة والكبرياء حين قالا : «فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم» .

وقد تظاهرا في هذه الكلمة بالنزاهة والعدل والحياد والتحاكم إلى العقل السليم ، والعرف الشائع ، فما قيمة دين لا يمتّ بصلة بدين من الأديان المنتشرة ، المعترف بها عند الناس وعند الحكومات ، وإنما هو دينٌ محدث ، ينحصر في نطاق ضيق من الشباب الأغمار ، ثم أضافا إلى ذلك قولهما الذي يقبله كلُّ عاقل في عامة الأحوال :

«قد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أبصرُ بهم ، وأقرب إليهم» .

*** الوضع الدقيق المحرج :**

إن هذا الكلام قد صدر عن ذكاء ودهاء ، وقدرة على استمالة الملك ، وحاشيته ، وكسب تأييده ، وعطفه ، وقد زاده قوة وتأثيراً موقف البطارقة ، وبطانة الملك ، فقد قالوا : «صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما» إنه موقف

دقيق رهيب ، لو وقفه أي إنسان لحار واضطرب ، وانسدَّتْ عليه الطرق ، ودارت به الأرض الفضاء ، فإما أرتج عليه الكلام ، وإما تورط فيما لا تحمد عاقبته ، ولا تؤمن غائلته ، وكان الواجب على كل من يقف هذا الموقف أن يتحرز مما يثير تساؤلاً ، أو ينقل هذا المجلس الوقور إلى مجلس بحث ومناظرة ، وأخذ وردّ ، ونقض وإبرام ، وكان الواجب عليه كذلك أن يتوقّى من كلِّ ما يجرح شعورَ الملك المسيحي ، الحامي لدينه ، فيعتبره هجوماً على عقيدته ، وما يدين به ، فينبض عرقه المسيحي ، وتتحرك فيه عاطفة الدفاع عن ديانته وأمته ، وكذلك كان يجبُ عليه أن يبتعد عن البحث العلمي الفلسفي ، والتعمق في عرض العقيدة وطرحها ، فقد كان المجلس يضمُّ كبارَ علماء الدين النصراني الذين لا يرون فوقهم أحداً في التقعر ، وشق الشعرة في القضايا الدينية والكلامية .

*** المنهج الحكيم الذي آثره جعفر بن أبي طالب :**

فماذا كان من جعفر بن أبي طالب إزاء هذه الشبكة الدقيقة التي بسطها له رسولا قريش ، وأي منهج فضله للكلام في هذا الموقف الدقيق الرهيب؟

يبدو للقارىء الذي يقرأ ما أجاب به جعفر في مجلس النجاشي لأول وهلة أنه حديث بسيط مرتجل ، تحدث به جعفر ، ولا يتوقّع من عربي نشأ في محيط ضيق منعزل عن العالم ، بعيد عن الثقافة والأساليب السياسية ، أكثر من ذلك .

ولكنه كلام حكيم قد جاء في أوانه ومكانه ، وقد دلَّ على بلاغة صاحبه العقلية ، قبل أن يدلَّ على بلاغته العربية البيانية ، ولا يعلل ذلك إلا بإلهام من الله ، وتأييد هذا الدين الذي أراد الله أن يتم نوره ، وأن يظهر على كل دين ، ويدل على سلامة الفطرة ، ورجاحة العقل اللتين فاق فيهما بنو هاشم قريشاً ، وفاقت فيهما قريش العرب كلهم ، فقد فضل جعفر أن يكون جوابه حكاية حال لما كان عليه أهل الجاهلية في الجزيرة العربية ، ولما آل إليه أمرهم بعد ما أرسل الله رسوله فيهم ، ودعا إلى الله وإلى الدين الحنيفي السمح ، ومكارم الأخلاق ، وآمنوا به واتبعوه ، وحكاية حال ـ خصوصاً إذا

لم يجانب فيه صاحبها الصواب ـ أبعد شيء عن المناقشة والمناظرة ، وأقدر شيء على غرس المعاني المقصودة ، وتحقيق الأهداف المنشودة ، والتهيؤ للتأمل والإنصاف ، وحسن الاستماع .

*** كلمة جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي :**

والآن اسمعوا ، جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يتكلم في مجلس الملك ، ويقول :

أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، والصيام ـ فعدّد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث .

فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا؛ خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك!

*** أثر حديث جعفر في المجلس الملكي :**

يقول أصحاب السير : سمع النجاشيُّ كلَّ ذلك في هدوء ووقار ، ولعل ما أبداه جعفر من الثقة بعدله ، وحسن جواره ، كان عوناً على ذلك ، والملوك العقلاء يحرصون دائماً على حسن الصيت ، وطيب القالة ،

وتحقيق حُسْن الظن بهم ، ثم قال: «هل معك ما جاء به صاحبكم عن الله من شيء»؟

قال جعفر: نعم! قال النجاشي: فاقرأه علي ، فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم.

وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ، ثم أقبل على رسولي قريش ، فقال: انطلقا ، فلا والله لا أرسلهم إليكم.

*** محنة عقيدة وبديهة:**

ولم تنتهِ المشكلة هنا ، فقد كان على المسلمين أن يواجهوا محنة أخرى ، قد تكون أشد من الأولى ، فقد أطلق عمرو بن العاص آخر سهمٍ من سهام جعبته ، وهو سهمٌ مسموم ، فغدا على النجاشي من الغد ، وقال له: أيها الملك! إنهم ليقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأقبل الملك على المسلمين ، فقال: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟.

قال جعفر بنُ أبي طالب : نقول فيه ما جاء به نبينا ﷺ ، هو عبد الله ورسوله ، وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فضرب النجاشيُّ بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال: «والله ما زاد عيسى ابن مريم على ما قلت مقدار هذا العود».

لو كان رجلٌ مكانَ جعفر بن أبي طالب ، فواجه مثل هذه الأزمة والمشكلة الطريفة ، لم يكن غريباً أن يداهن ، أو يحابي ، أو يراعي دقة الموقف ، ويجيب جواباً سياسياً ، ويخرج من هذا المضيق بكلمة لبقة لا تصرح ببشرية سيدنا عيسى ابن مريم ، وقد كان بليغاً ، حاضر البديهة ، متصرفاً في الكلام ، ولكنه كان ممثلاً للعقيدة الإسلامية الصافية ، خير تمثيل ، قائماً في هذا المجلس الملكي مقام الرسل والأنبياء ، من غير رسالة ولا نبوة ، فما كان له أن يداهن ، أو يمزج الحق بالباطل ، فجاء بكلام صريح واضح ، ولكن في بلاغة وحكمة ، وفي اتزان وتناسب دقيق ، وكلام فصل لا فضول فيه ولا تقصير.

*** انتصار في معركة حامية :**

فكان عاقبة هذا الإخلاص والصدق ، ونتيجة هذه البلاغة والحكمة ، أنه خرج من هذا المأزق منتصراً كريماً سليماً ، وكسب المعركة ، وقد جاء في الخبر : أن النجاشي ردَّ المسلمين رداً كريماً ، وأمنهم ، وخرج رسولا قريش ـ عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بن وائل ـ من عند الملك مقبوحين ، وأقام المسلمون بخير دار مع خير جار[1] .

ونكتفي بهذا النموذج الرائع من أدب الدعوة ، وحكمتها في موقف دقيق رهيب ، ومجلس وقور مهيب؛ لرجلٍ من أصحاب النبي ﷺ وأهل بيته ، قد آتاه الله الحكمة ، وفَصْل الخطاب ، وفي ذلك قدوة للدعاة والمرشدين ، ودرس للعلماء والمتأدبِّين .

* * *

---

(١) راجع السيرة النبوية؛ للعلامة الندوي (ص: ١٥١ ـ ١٥٥) نقلاً من سيرة ابن هشام (ق ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٨) .

حكمة الدعوة وصفة الدعاة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في قاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، في (١٧/ ٤/ ١٤٠٠ هـ) بناءً على طلب من طلاب الجامعة .

وكان الاجتماع حاشداً ، يضمّ الطلاب والأساتذة ومسؤولي الجامعة ، واكتظت القاعة حتى ما بقي فيها موضع إنسان ، ورأس الحفل نائب رئيس الجامعة معالي الدكتور الشيخ عبد الله الزايد .

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

صاحبَ السعادة نائب رئيس الجامعة ، وزملائي الأساتذة ، والمربِّين ، وأبنائي الطلبة المجدين .

إنَّ من الأمثال السائرة في الأدب الأجنبي أن هنالك شيئين لا يخضعان لقانون مرسوم ولحدود معينة ، وهما الحب والحرب ، أما الحبُّ فأتركه للأدباء والشعراء يبحثون فيه ، وأما الحرب فلا شأنَ لي بها ، ولكني أعدلُ عن هذا المثل الأجنبي الذي لا ينمُّ عن روح إسلامية وتفكير إسلامي ، أعدل عنه إلى مثل آخر ، وإلى أصل من الأصول ، وهو أنَّ التربية والدعوة لا تخضعان لقانون مرسوم ، فإن التربية نظام معين خاص ، إنني لا أستهين ـ وأنا أثير هذه النقطة ـ بقيمة المكتبة العظيمة التي ألفت في فن التربية ، ولا أستهين بجهود المربين المطلعين على التجارب العملية ، والمناهج التربوية العالمية ، ولكني قلتُ في مناسبة في حديث كنتُ أتحدث به في إحدى كليات التربية في بلد عربي كبير : إنني أعتقدُ : أن المعلم لا يكون معلماً حتى يكون ملهماً ، وكذلك أقول ، ولا أطلق كلمة الإلهام بمعنى المصطلح الشرعي ، ولكن التربية هي التي تفتق القريحة ، وتشعل المواهب ، وتلهم المعاني البعيدة إذا سنحت لها مناسبة ، وكذلك الدعوةُ لا يمكن أن تخضعَ لقانون خشب مرسوم معين ، وضعه البشر ، أو وضعه رجال الدعوة ، إنَّ من يُخْضِع الدعوة أو الدعاة لقانون مرسوم ، أو لقائمة من رؤوس الأقلام ، أو من الغايات ، ربما يصطدم بتجربة قاسية .

عندنا حكاية لا بأس أن نحكيها أمامكم : إن رجلاً استخدم خادماً، وكان هذا الخادم ذكياً طلب من السيد أن يضعَ له قائمة الواجبات ، ما هي الواجبات التي أكلف بها ، فوضع له قائمة : تعمل كذا في الوقت الفلاني ، وتعمل كذا ، وتذهب إلى السوق وتحضر لنا الحاجيات اليومية من لحوم وخضر، وغير ذلك، وتقوم بالخدمة الفلانية، فأخذ هذه القائمة، واحتفظ

بها ، ومرة ركب هذا السيد جواداً ، ولكنه لسوء الحظ ارتبكت رجله في الركاب ، وأراد أن يتغلبَ على هذه المشكلة فما نجح ، وكان الخادم واقفاً ، فاستعان به وقال: أغثني يا فلان ، فأخرج الورقة من جيبه ، وفتحها ، ومدَّها إليه ، وقال: أين في هذه القائمة أن السيد إذا ارتبكت رجله بالركاب فإني أعينه ، والسيد يعاني مرحلة فاصلة بين الموت والحياة يُخشى عليه أن يسقط ، أو أن يتورط في مرحلة أخرى ، ولكن هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة ، وكان أميناً عليها ، مخلصاً لها ، مرتبطاً بها ، فأبى ، ورفض أن يعينه؛ لأنه غير مكلف بهذه الخدمة.

فأخشى أننا إذا قيدنا وفسَّرنا الدعوة بتفكيرات عصرية ، أو تفكيرات عملية تقومُ على التجربة ، وعلى طبيعة العصر ، وعلى طبيعة البيئة ، فإننا نجني على الدعوة ، ونجني على المجتمع.

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حلَّ هذه المشكلة ، وجاء القرآن المعجز ، الكتاب الخالد ، الكتاب الذي لا تبلى جدتُه ، فتوسط بين التفريط والإفراط ، وقال: ـ وإني أحمد الله تعالى ـ على أن القارىء اختار هذه الآية في تلاوته ـ وهذه معجزة من المعجزات القرآنية التي لا تعد ولا تحصى ، والمعجزة لا يستحضرها الإنسان إلا إذا عاصرها ، وعاشها.

ولما وقع حادث وفاة الرسول ـ ﷺ ـ وغلب المسلمون على أمرهم ، فقد كثيرٌ منهم رشده ، ووقف سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: من قال: إن محمداً ـ ﷺ قد مات فسأضرب عنقه ، فجاء سيدنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وتلا هذه الآية الكريمة:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية.

هنالك ذاق المسلمون ـ وفيهم كبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لذة هذه الآية ، وشهدوا روعتها ، وإعجازها ، وكأنما نزلت الآية الساعة ، ونحن لو قرأنا هذه الآية مئات من المرات لم نذق هذه اللذة ، ولم نشعر كما شعر الذين قد شهدوا هذا الحادث الفريد في تاريخ الأمم ، وفي تاريخ الديانات.

وكذلك قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥] الآية.

تستشعرون إعجاز القرآن في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وتشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية، وأبعاد التقييد الذي جاء فيها فأطلق، وقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ما حدد وما عين شيئاً معيناً خاصاً، فمثلاً تحثون على الصلاة، تدعون الناس إلى مكارم الأخلاق، تدعون الناس إلى الفضيلة، تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسانية، و﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يحوي كل شيء، إنه يمتد ويسع الآفاق، ليست هذه الآفاق فقط، إنها آفاق الحاجات الإنسانية، آفاق الحياة الإنسانية، فاستحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ ﴾ وهو لا يختصُّ بالخطابة، ولا يختصُّ بالكتابة، ولا يختص بالوعظ والنصيحة، إنما قال: ﴿ ٱدْعُ ﴾ والدعوة عامة تشمل هذه المعاني كلها، وهذه الأساليب كلها، ثم قال: ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وأي كلمة أوسع أفقاً، وأوسع إطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾؟!

أعترف أمامكم أن الحكمة ـ الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية ـ لا أعتقدُ أنها من الممكن ترجمتها، أو نقلها إلى لغة أخرى، وكذلك «الموعظة» كلمة مطلقة، والحسنة أيضاً كلمة مطلقة، وهنا جاء القرآنُ يحلُّ هذه المشكلة، فأطلق وقيد، وأوجز وأعجز، فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ الآية.

ولكن هناك نماذج من الدعوة الحكيمة، نماذج رائعة خالدة على مر العصور، وعلى مر التاريخ، وعلى مدى تاريخ الدعوة، جاءت في القرآن، وأختار منها نموذجاً جاء في القرآن، ونموذجاً جاء في السيرة النبوية المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ.

من هذه النماذج تستطيعون أن تفسروا الدعوة، وأن تطبقوها تطبيقاً عملياً، وأن تستلهموا المعاني الدقيقة التي انطوى عليها هذا النموذج الرائع، فأذكر ـ أولاً ـ قصة دعوة سيدنا يوسف ـ عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام ـ التي جاءت مفصلة في سورة يوسف، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

إخوتي، استحضروا ـ أولاً ـ الملابسات التي رافقت هذه الدعوة، والجو الذي اكتنف هذه الدعوة، لم تكن هذه الدعوة إلى الله بالأمر الميسور وبالأمر الهين، إنها تنطلق في جوّ رهيب مظلم، قلق، في بيئة تقف سدّاً منيعاً أمام الغاية النبيلة الشريفة؛ التي يتوخّاها سيدنا يوسف عليه السلام، إنه دخل السجن كرجل متهم بجناية شنيعة، وموقف المتهم دائماً؛ موقف ضعيف، فهو لا يكون في موقف الداعي الكريم المبجّل الذي تجلُّه القلوب، والداعي الوقور المحترم، وهو وإن كان بريئاً من هذه الجناية كبراءة الذئب من دمه كما يقوم المثل العربي، ولكن الحادث كان قد وقع، التهمة قد وجِّهت، والمحكمة قد حكمت، وشاع في الناس أن يوسف قد ارتكب جريمة شنيعة، إنه خان سيده في أعزِّ ما عنده، وفي أكرم ما عنده، هذا موقف ضعيف، ولكن سيدنا يوسف لما دخل السجن لفت الأنظار، وحلَّ في القلوب موقع الحبيب الأثير المفضل المكرم، وكان ذلك من التخطيط الحكيم، وتقدير العزيز العليم.

إنَّ زميلين من زملاء السجن، وإن لم يكونا زميلين له؛ لأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وأما هما فقد ارتكبا جنايات خُلقية، ولكن على كل حال جمع بينه وبينهما سجن واحد، ومعتقل واحد، رأى كلٌّ منهما رؤيا، وألهمهما الله ـ تعالى ـ كما أنهما عرفا بتجربتهما وفراستهما الإنسانية ـ التي يكون لكل إنسان حظّ منها ـ أن الرجل الوحيد الذي يستطيعُ أن يفسر هذه الرؤيا هو يوسف، هذا الذي دخل السجن جديداً، وكانت تلوحُ عليه سيما النجابة والنسب الرفيع وسيما الصالحين، فجاءا إليه، وحكى كل واحد منهما رؤياه:

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ ﴾ [يوسف: ٣٦] الآية.

فالنقطة التي أريدُ أن أنبهكم عليها ، وستكون هذه النقطة مَدَداً لكم ، وتقوم مقام مئة كتاب .

إنَّ هذه الآيات تشتملُ على نقطتين ترجعان إلى علم النفس ـ وعلم النفس عالمي بشري ـ أولاً : التأكيد لهما أن يوسف يستطيع أن يفسر النبأ الذي جاءا لأجله وقصداه ، وأنه لم يكن هذا القصد خطأ ، وأنهما ما ضلاَّ السبيل ، إنما وصلا إلى غايتهما ، وهو الرجلُ المطلوب الذي يستطيع أن يرشدهما ، فإن الأصلَ النفسي العميق أن صاحب الحاجة يريدُ أن تُقضى حاجتُه في أقرب وقت ، المريض إذا ذهب إلى طبيب يشخص المرض ، ويصف الدواء ، والطبيب يماطله ، ويماطله ، يقول : سأراجع الكتبَ من مصادرها الطبية ، وسأراجع فلاناً وفلاناً في البلد ، ثم أحاول أن أعالجك ، والمريض المسكين يتألم قلبه ، وينقطع أمله ، ويرجع خائباً ، وربما لا يرجعُ إليه بعد ذلك .

فالشيء الأول أن يثيرَ الإنسانُ الثقةَ في ذلك الرجل الذي ساقته الحاجة إليه ، ويقنعه بأن علاجه عنده ، وأن طلبته وحاجته ستُقضى عنده ، فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ﴾ [يوسف : ٣٧] الآية .

يعني : أن حاجتهما ستُقضى سريعاً؛ لأنهما كانا في السجن مرتبطين بقوانين السُّجون والمعتقلات ، فما كان لهما أن يجلسا بجواره ـ طويلاً ـ فأراد أن يطمئنهما أن حاجتهما ستُقضى سريعاً ، فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا ﴾ الآية ، وهنالك تفسيران للآية :

١ ـ التفسير الأول : أن سيدنا يوسف عليه السلام قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله ، أي : تأويل هذا الطعام ، يعني : حقيقة هذا الطعام ، فإنه أراد أن يوجدَ الثقة فيهما عن طريق إظهار قدرته على التنبؤ بشيء لم يره ، فاستعان به على إيجاد الثقة في نفوسهما .

وأنا لا أستسيغ هذا التأويل ، أولاً لأنه إخبار بالغيب ، ثم إن السجون ليس هنالك تنوع كبير في الأطعمة ، فباستطاعته ـ بكل سهولة ـ أن يخبرهما

بنوع الطعام الذي سيحضر ، فأي ألمعية لسيدنا يوسف عليه السلام ، وأي براعة له في الإشعار بنوع الطعام الذي سيحضر ، وجاء في التوراة أن سيدنا يوسف عليه السلام ، كان مشرفاً على المطعم ، إن صحَّ هذا فإنه لا غرابة لمشرف المطعم في أن يخبر أي نوع من الطعام سيحضر ، فأنا أميلُ إلى التفسير الثاني الذي ورد في بعض كتب التفسير ، وهو أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويل هذه الرؤيا حتى يطمئنا أنهما لا يحتاجان إلى جلوس طويل ، ولا يملان ، ولا يأتي السجان فيقول : اذهبا إلى مكانكما ، ومن الذي أذن لكما بالحضور هنا ، فقال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما .

وكانت مصر على جانب كبير من الحضارة ، وتنظيم الحياة المدنية ، فالمفروض أنه كانت هناك مواعيد مضبوطة للطعام ، وكان وقت الطعام قد حضر ، فلذلك قال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ ﴾ الآية .

ثم هنا نكتة حضرت لي الآن ، وهي أن بين المسجونين وبين الطعام الذي يأكلونه في السجن صلة قوية ، فلما ذكر الطعام أثار فيهم الشوق ، وانتعشت قلوبهم بسماع ذكر الطعام ، فالطعامُ حبيبٌ إلى كلِّ إنسان ، ولكنه إلى المسجون أحب وألذّ وأشهى ، فلما ذكره يوسف انتعشت نفوسهما ، وتهيأت آذانهما ، فقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ الآية .

ثم تثور فيه الطبيعة النبوية ، فلا يرد الفضل في ذلك إلى ذكائه ، ولا إلى براعته ، بل يرد الفضل إلى الله ، ومن هنا ينتقل انتقالاً حكيماً قلَّما يوجد له نظير ، فقال : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ فكان المدخلُ الكريمُ إلى النصيحة التي يريدها ، وانظروا : كيف ينتقل من تفسير الرؤيا ـ قبل أن يفسِّرها إلى الدعوة الحكيمة ، وكان ذلك مما لا يسيغه ولا يتحمله هؤلاء المسجونون الذين ساقتهم الحاجة إليه ، وكانا قد فزعا بهذا الرؤيا المفزعة ، وجاءا فزعين مرتاعين ، فكيف يحتملان هذا الحديث الطويل ، فقال لهما بأنه لا يرجع الفضل إلى ذكائي وبراعتي ، بل يرجعُ الفضل إلى الله ـ تعالى ـ ومن هنا يدخل من هذا المدخل اللطيف الرقيق الخفيف على النفوس إلى

الدعوة ، تستحضرون حكمته في الدعوة أنه لم يكن يستطيعُ أن يقول : صبراً أيها الإخوة ، أيها الزملاء الكرام ، سأفسِّر لكم الرؤيا ، ولكن اسمعوا مني أولاً ، إن هناك شيئاً أهم من هذا ، كيف كانوا ينشطون لسماع هذا الكلام ، وهذا الحديث الذي لم يتعوَّدوه ، وما جاؤوا لأجله ، فقال من غير انفصال طويل ، بل في لحظة واحدة :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ استحضروا الجو الذي وقعت فيه هذه الدعوة الحكيمة التي لا أعرفُ مثلها دعوة إلا دعوة الرسول ـ ﷺ ـ وسأعرض عليكم نموذجاً منها ، ولم أمر بأي نموذج من نماذج الدعوة في تاريخ الدعوة وتاريخ الدعاة أدق وأعمق منها ، حيث بدأ الحديث بقوله : ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ ﴾ إلى أن قال ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ كيف انتقل إلى الحديث عن الرب وإلى التوحيد ، هل هنالك انتقال أخفّ وأرق وألطف وأسرع من هذا الانتقال ، فكأنه يقول : ما كنت لأفسِّر لكم هذه الرؤيا ، وأنا الإنسان الضعيف العاجز ؛ الذي لم أملك نفسي أمام هذا الأمر ، وأراد الناس أن يزجُّوني في السجن ، فلم أستطع أن أقاومهم ، وكيف يستطيع الإنسانُ الضعيف العاجز الذي يُساق إلى السجن ، فلا يملك شيئاً ؛ أن يصل إلى هذه القمة الشامخة من العلم بنفسه ، بل ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ .

ثم أثار سؤالاً آخر وهو : لماذا علمني ربي؟ ومن هنا انتقل انتقالاً آخر : إنها رحلة طويلة في طريق الدعوة ، ولكن سيدنا يوسف بحكمته ، وبروحانيته الشفافة ، وقلبه المشرق ، وبفكره النقي الرباني استطاع أن يطوي هذه الرحلة الطويلة التي قد يطويها الدعاة ، والحكماء ، والفلاسفة في عدد من السنين ، استطاع أن يطويها في لحظة واحدة ، فقال : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ .

هنالك شعر سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ أنه الآن في موقف قوي ، في موقف عال ، كأن طلع جبلاً ، أو ربوة عالية : فقال : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ وكان لو قدم هذا قبل ذلك الكلام ، لكان كلاماً ثقيلاً على آذانهما وعلى قلوبهما ، ولكن هنا استطاع أن

يقول ، وحق له أن يقول: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ لاحظوا هذا التقديم والتأخير ، ولاحظوا هذا الترتيب القرآني ، الترتيب الحكيم ، وكان لو استمر في الكلام ، كان الكلام ممجوجاً ، ولكنه شعر بقوة في نفسه ، وشعر بحسن استماع منهم لما كان يقرأ في وجوههم أنهم تهيؤوا لاستماع هذا الصوت الذي يأتي من السماء؛ لأنه دعوةُ الله للعبيد عن طريق الأنبياء والمرسلين ، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أشعروا بالنبرة التي تختلف عن النبرة الأولى ، كانت النبرة الأولى رفيقة لطيفة خفيفة ، فجاءت هذه النبرة قوية متدفقة بالحياة ، متدفقة بالثقة ، وكان ذلك من أقرب الطرق إلى فهمهم ، أما لو استعان بأشياء منطقية وكلامية؛ لما كان لهم أن يفهموا منه ذلك.

ثم قال: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ إنها أسماء من غير مسميات ، إنها أسماء لا حقيقة لها ، أسماء عند اليونان وأسماء عند البراهمة الوثنيين وأسماء عند غيرهم من أمثالهم ، إن الإعجاز القرآني يكمن في أنه أطلق عليه كلمة الأسماء ، إن الذي قرأ تاريخ الديانات وتاريخ الميثولوجيا يعرف إعجاز هذه الآية أنه ليس هناك إلا أسماء محضة ، أين الآلهة؟ أين إله المطر؟ وإله الحرب؟ أين إله الحب؟ وإله الجمال؟ أين هذه الآلهة التي لا وجودَ لها إلا في الذهن وفي القائمة؟ ﴿ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ ولا تزال هذه الآية معجزة إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، وليست الوثنية إلا أسماء ، وقد فضح القرآنُ الوثنية بقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ .

وهنالك شعر سيدنا يوسف بأن الفراغَ الذي وجد في قلوبهم قد مُلِيء ، وليس من الحكمة الآن أن يطيلَ الكلام ، ويتوسَّع في الحديث عن التوحيد ، إنها طريقةُ الداعي الملهم ، الداعي المؤيد من الله ، إنه يشعرُ أنه قد وصل إلى نقطةٍ لا يجوزُ له أن يتخطاها؛ ولأجل ذلك فإنَّ مَنْ يضع القوانين المحددة للدعوة أو التربية يجني عليها ، على إطلاقها وحريتها

وحيويتها ، ويجني على الدعاة ، ولما شعر سيدنا يوسف أنه لا تتسع نفوسهم ، ولا تتهيأ لسماع نصيحة أكثر من هذا؛ وقف ، وبدأ يفسر الرؤيا .

وقد تجلَّى في هذه القطعة القرآنية جمال يوسف ، الجمال الحقيقي ، الروحي ، والجمال الفكري ، والجمال النبوي في أروع مظاهره .

ولكن من الغريب أن هذه القطعة المعجزة قد تجرَّدت عنها التوراة ، فقد قارنت بين قصة يوسف في القرآن ، وقصة يوسف في (Bible) فدهشت عند ما رأيت أن هذه القطعة التي هي من أجمل القطع الأدبية ، فضلاً عن أنها من القطع الدينية التي لم ترد في التوراة ، تجد فيها الأعداد والأرقام والمساحة ، كان الشيء الفلاني كذا من الأذرع والأشبار ، ولكن تجرد العهد القديم (Bible) بطوله وعرضه عن هذه القطعة الجميلة ، وتعرض للتابوت أن كان كذا من الأمتار ، وأن لباسه كان كذا وكذا ، وأنه تشقَّق من هنا وهناك ، ولكن هذه القطعة التي تسحر النفوس ، وتلهم المعاني ـ التي لم تتعرض لها التوراة ـ تمثل نموذجاً رائعاً من نماذج الدعوة في القرآن الحكيم .

وأذكر لكم نموذجاً رائعاً آخر :

إن رسول الله ـ ﷺ ـ لما وزع سبايا ومغانم حُنين في الجعرانة على أشراف قريش ، كما تعرفون ، وقرأتم في السيرة ، أنه أعطى قريشاً ، فأجزل لهم العطاء ، أعطى أبا سفيان ، وعكرمة بن أبي جهل ، وفلاناً وفلاناً ، وكان نصيب الأنصار فيها قليلاً ، اعتماداً على إيمانهم ، وعلى حبهم ، وصلتهم الدقيقة العميقة الدائمة بالإسلام ونبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

هناك تقاول بعضُ الشباب ، فقالوا : إن رسول الله ـ ﷺ ـ خصَّ بني قبيلته بأكبر نصيب من العطايا والمغانم ، وبلغ هذا رسول الله ـ ﷺ ـ فحسب له حساباً؛ لأنه النبي المربي ، وليس النبي فقط ، فأمر بجمع الأنصار في حظيرة فاجتمعوا ، وقال : «لا الحظيرة إلا الأنصار» ولما اجتمعوا كلهم قال لهم :

«ما هذه القالة التي بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم» .

فاستحيوا وقالوا: لا شيء يا رسول الله ، إنما هم بعضُ الشباب قد وسوس لهم الشيطان ، ثم قال: «أما أتيتكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: لله ولرسوله المن والفضل!

ولم يبتدر الرسولُ ـ ﷺ ـ بالكلام ، بل أراد أن يتكلم بلسانهم ، فأثار فيهم الشعور الإنساني ، وألهمهم المعاني ، فقال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل ، قال: «والله لو قلتم ولصدقتم ولصدقتكم ، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك؟» أي زعيم ، وأي قائد ، وأي مربّ ، وأي صاحب فضل يستطيعُ أن يشهدَ على نفسه بهذا؟ والله لولا أن هذه الكلمات قد وردت في السيرة النبوية ، وفي حديث صحيح أصله في الجامع الصحيح للبخاري ، وقد ذكره الحافظ ابنُ القيم في «زاد المعاد» بسياق أوسع وأشمل ، لولا أنها قد وردتْ في الصحاح وفي كتب السيرة؛ لما كان لأي مسلم أن ينطق لسانه بهذه الكلمات: أما أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك!

ثم قال بعد أن أثار نفوسهم ، وأجرى عيونهم ، وفتح الأغلاق من قلوبهم: «يا معشر الأنصار! أوجدتم عليّ في لعاعة من الدنيا ، تألَّفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم؟!» انظروا ، كيف أوجد في نفوسهم الثقة؛ التي كانت كفيلة بحسم كل ما ساور نفوسهم ـ إن كان هناك شيء قد ساور نفوسهم ـ وقال: «أوجدتم عليَّ في لعاعة من الدنيا (واللعاعة: خضرة ناعمة) تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم» ثم قال الكلمة المثيرة البليغة التي ما يمكنُ أن تطلق ، أو تنطلق من فم إلا وتفجر الأنهار ، وتشق الصخور ، وتأتي بالمعجزات.

«أما ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهبَ الناسُ بالشاء والبعير إلى رحالهم ، وترجعون برسول الله ـ ﷺ ـ إلى رحالكم؟! والله لولا الهجرةُ

لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناسُ شِعْباً ووادياً ، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكتُ شِعْب الأنصار ووادِيها ، الأنصار شعار ، والناس دِثار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» ويحلو لي أن أقول ، وأردِّد هذا الكلام في مدينة الأنصار :

«اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» ثم ماذا كان؟ كان الشيء المتوقع الطبيعي؛ هملت عيونهم حتى أخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ـ ﷺ ـ قسمةً وحظاً.

والله لو بحثنا ـ ولي مشاركةٌ في بعض اللغات غير العربية فضلاً عن لغتي الأردية ـ لو بحثنا في أدب الأمم والديانات ، ما وجدنا موعظةً أبلغ من هذه الموعظة ، وعلماً بالنفس الإنسانية أكثر عمقاً وأكثر صِدْقاً من العلم النبوي.

هذان النموذجان من أروع النماذج التي دونت وسجلت في الآداب البشرية ، وفي المكتبات الإنسانية.

أيها الأخوة ، أقول لكم ـ والوقت ضيق ـ إن الأشياء الكفيلة الضامنة بنجاح الدعوة إنما هي عوامل معدودة ، أستطيع أن ألخصها في عاملين أساسيين :

أولهما: أن تملك الفكرة ، وتهيمن على مشاعر الداعي ، وإن تجري منه مجرى الروح والدم ، وأن تمتزج بنفسه. هنالك يكون الداعي هو الداعي الموفق الملهم المؤيد من الله؛ الذي سيكتب له النصر ، ولا يكتب له أي إخفاق أو فشل.

فالشرط الأول ألا تكون الدعوة صناعة ، أو حرفة ، أو فناً ، وألا تكون حذلقة ، ومجرد براعة في الخطابة ، بل تكون عقيدة وفكرة ، وإيماناً يستحوذُ على النفس الإنسانية ، ويملأ جميع جوانب النفس ، حتى إذا أراد الإنسان أن يتخلى عنها لم يستطع ، ولم يقدر. هذا كان شأنُ سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يوم الردة ، هل تستحضرون الكلمة الخالدة التي نطق بها ، والتي غيَّرت مجرى التاريخ.

طلب مني أن ألقي الكلمة الأخيرة في المؤتمر الآسيوي الإسلامي الأول

في كراتشي ، وأمامي نخبة من قادة الفكر الإسلامي ، ومن قادة العالم الإسلامي ، فاستعنت بهذه الكلمة ، وقلت لهم: ما هي تلك الكلمة التي ستكون رائدة هذا المؤتمر ، فيحملها الذين ينصرفون من هذا المؤتمر ، قلت لهم: إن الكلمة التي تحملونها من هنا هي الكلمة التي جرت على لسان أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يوم الردة ، ومنع الزكاة: «أينقص الدين وأنا حيّ؟» .

أنتم المسؤولون أمام الله يا إخوتي الطلبة ، يا أبنائي شباب المسلمين والعرب ، أنتم مسؤولون أمام الله ، درستم في هذه الجامعة المباركة ، وأي مكان أقرب إلى مدرسة الرسول ـ ﷺ ـ وإلى صفة المسجد النبوي؛ التي درس فيها كبار الصحابة ، وحفظوا ووعوا أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ وتخرج منها مثل أبي هريرة راوية الحديث ، ووعاء من أوعية العلم ، أي جامعة أقرب إلى هذه المدرسة من هذه الجامعة؟! إذاً فمن أي جامعة نتوقّع أن يخرج منها دعاة تملكهم الدعوة؟!

والله ، لو استطعت أن أنقشَ هذه الكلمة على صدر كل واحد منكم لفعلت ، يا ليتها كانت هذه الكلمة مكتوبة في كل بيت على لوحة بقلم عريض: «أينقص الدين وأنا حيّ؟»

أما الشيء الثاني: فهو التجرد عن المطامع ، والزهد في الدنيا ، لا أعني به زهداً نصرانياً ، ولا زهداً رهبانياً ، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] الآية.

ولا رهبانية في الإسلام ، ولكن الدعوة تحتاج إلى شيء من سمو النفس ، وعلوّ الهمة ، والتجرد عن المطامع ، والزهادة في المناصب والوظائف الكبيرة.

إنَّ من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنكم تنافسونهم في ملكهم ، وفيما وسّع الله به عليهم ، فإنهم يشكون في إخلاصكم ، ويكونون حرباً عليكم ، فأوضحوا لهم أنكم لستم طلاب ملك ، ولا منتجعي جاه ومنصب ، ولا رواد ثروة ورخاء ، أو مدفوعين من شح وحرص.

قيل لشيخ الإسلام ابن تيمية : يقال : إنك تريد الملك ، فقال في دهشة وقوة : أنا أريد الملك؟! والله ، إن ملك التتار لا يساوي عندي درهماً. وقد كانت دولةُ التتار أكبر دولة ، وأكبر قوة على وجه الأرض في ذلك الحين.

وإن أحد المربين في الهند الذي نفع الله به خلقاً كثيراً ، عرض عليه ملكُ دهلي مالاً طائلاً ، فقال له : لا شأنَ لي به ، قال : لا بُدَّ من أن تقبل شيئاً مما أعطاني الله. فقال : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء : ٧٧] فإذا كانت الدنيا كلها قليلة ، فقارة آسيا ـ طبعاً ـ أقل منها ، والهند أقل منها ، ثم دهلي أقل منها ، وأنت لا تملك إلا هذا ، فكيف أرزؤك في هذا الزهيد اليسير؟!

وأحكي لكم قصة وقعتْ في دمشق ، كان الشيخ سعيد الحلبي من كبار الأساتذة والمربين في القرن الماضي ، وكان ـ مرة ـ يلقي درساً في جامع من جوامع دمشق ، فجاء إبراهيم باشا ـ الحاكم العام لسورية ـ وإبراهيم باشا مَنْ تعرفونه في القسوة والعنف ـ ودخل ووقف أمام الباب ، وكان الشيخ يشكو ألماً في رِجْله ، وكان مادّاً رِجْله إلى الأمام؛ لأنه كان مستنداً إلى جدار المحراب ، ويُلقي الدرسَ ، فكانت رجله إلى الباب ، فدخل إبراهيم باشا ومعه المحافظون العسكريون والشرطة ، فانتظر وتوقع أنه سيقبض رجله ، ولكنه لم يفعل ، وخاف أصحابُه عليه من السيف ، وقبضوا ثيابَهم لئلا يصيبها دمٌ زكي ، دم عالم تقي ، وبقي إبراهيم باشا واقفاً ، ثم رجع ، وأرسل صرَّة من دنانير ذهبية مع أحد الخدم ، وقال : تقدم إلى سيدنا الشيخ سعيد الحلبي ، وتقول له : هذه هدية من إبراهيم باشا ، فلما جاء بها الخادم إليه ، قال كلمته البليغة الحكيمة التي هي أبلغ من ألف قصيدة ، قال : قل لسيدك : إن الذي يمدُّ رجله لا يمدُّ يده.

فالإنسانُ مخير ، إما أن يمدَّ رجله وإما أن يمدَّ يده ، فإذا مدَّ رجله لا يسوغُ له أن يمدَّ يده؛ لأنه تناقض.

وقد جُبل الناسُ على حب مَنْ زهد فيما عندهم ، والبغض لمن يُنافسهم فيما يحرصون عليه ، هذه هي الطبيعة البشرية منذ آلاف السنين ولا تزال ،

فأنتم إذا أردتم أن تؤثروا في نفوس مَنْ توجهون إليهم الدعوة ، فأوضحوا لهم أولاً ، وطمئنوهم أنكم لستم طلاب ملك ومال ، وطلاب رئاسة وجاه ، وطلاب مكاسب ووظائف ، إنما أنتم تفعلون ذلك شفقة عليهم ، ورقة بهم ، وعطفاً عليهم ، وخوفاً من أن يصيبهم مكروه.

أنا تلميذٌ صغير لتاريخ الإصلاح والتجديد ، وإن هواياتي وإن كانت متعددة ، ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ ، وخاصة تاريخ الإصلاح والتجديد ، فما رأيت تجربةً في القرون الأخيرة ـ أعني بعد القرن الثامن على الأقل ـ أنجح وأكثر توفيقاً من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السرهندي في القارة الهندية ، وقد حكيتُ قصته في الجزء الرابع من كتابي: «رجال الفكر والدعوة» الذي سيصدر إن شاء الله قريباً باللغة الأردية ، وستقرؤون هذه القصة بالتفصيل.

تقرؤون فيه أنه كيف استطاع الرجلُ الأعزلُ المجرَّد من كل سلاح ، والمجرد من كل ثروة مادية ، والمجرد من كل جيش؛ أن يحول التيار في الإمبراطورية المغولية العظمى التي كانت في الدرجة الثانية بعد الإمبراطورية العثمانية الكبرى في الشرق الأوسط ، وفي البلاد العربية والتركية ، إن هذه الإمبراطورية التي لم تكن إمبراطورية ـ بعد الإمبراطورية العثمانية ـ أكبر منها مساحة ، وأكثر منهما فتوحاً ونجاحاً ، وكان على رأسها الملك القوي القاهر؛ الذي اتسعت لها الفتوحات الواسعة العظيمة ، وهو جلالُ الدين أكبر ، وكان هذا الإمبراطورُ نشأ في قلبه عداء للإسلام ، وحقد عليه؛ لأنَّ من ينحرف عن الإسلام ، ويثور عليه أقبح وأشد من الذي نشأ في الكفر ، كما حكيتُ لكم في حديثي بالتفصيل في محاضرتي بعنوان: «عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي» وفي هذه الجامعة نفسها ، ولأن الذي يخرج من النور إلى الظلام يكون أعمش ، وأقل إبصاراً من الذي نشأ في الظلام ، ثم إنه يُصاب بمركب النقص.

فكان الإمبراطور جلال الدين ، نشأ فيه عداء شديد للإسلام ، ومن الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيع أحدٌ في بلاطه أن يسمِّي ابنه محمداً؛

لأنه كان يكره هذا الاسم ، فترك الناسُ التسمية بهذا الاسم ، وكان من يذبح بقرة في عهده يُعاقب بالقتل ، وكان قد فتح الخمارات ، وشجَّع الناس على شرب الخمور ، وأكل لحم الخنزير ، وكان قد تأثر بالبرهمية والوثنية الهندية . كان يتجّه بالمملكة إلى الطابع الهندي البرهمي ، والفلسفة الهندية القديمة[1] .

هنالك قيَّض الله ـ تعالى شأنه ـ لمكافحة هذا التيار ومقاومة هذه الفتنة العظيمة الشيخ أحمد السرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) . فجلس في ركن من أركان بيته ، وبدأ يفكر في شق الطريق لمكافحة هذا التيار ، فجعل يراسل الملك وأهل البلاط ، من الوزراء الكبار ، والأمراء العظام ، ويثير فيهم النخوة الإسلامية ، والحمية الدينية ، ويقول لهم : يا جماعة ، أنتم مسلمون وأولاد المسلمين ، وقد شرفكم الله تعالى بنعمة الإسلام ، ورغم ذلك نرى أتباع محمد ﷺ ـ وهو حبيب رب العالمين ـ أذلاء في هذه البلاد التي فتحها المسلمون ، وأراقوا عليها أزكى دمائهم ، وصرفوا لها أفضل عبقرياتهم ، وأحسن مواهبهم ، كيف تحتملون هذا الوضع ، وكيف ترضون بذلك يا عباد الله؟ .

صار يثيرُ فيهم كامن الإيمان ، ويحرك فيهم العرق الإسلامي؛ الذي لا يخلو منه قلب أيّ مسلم ، وما زال يثيرُ فيهم النخوة الإسلامية ، ويواصل العمل ، وبقي هكذا مدة طويلة يراسل ، ويكتب ، ويقابل ، حتى كسب عدداً من الأمراء ، فكانوا أنصاره وتلاميذه ، ومات جلال الدين أكبر ، وخلفه ابنه نور الدين جهانكير ، وطلبه إلى بلاطه ، ولم يسجدْ له الشيخ تعظيماً كما كانت العادة في البلاط ، فسجنه ، فبقي في السجن سنتين ، ثم أمره بأن يبقى في المعسكر ويُرافقه لمدة ثلاث سنين ، فصبر على هذه الحالة ، وعرف جهانكير أنه من طراز آخر ، وأنه عالم رباني مخلص ، زاهد في الدنيا ، محب للخير ، فأحبه وأجله وبدأ يهتم برفع شعائر الإسلام ،

---

(١) راجع للتفصيل محاضرة العلامة الندوي في هذا الجزء بعنوان : «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» .

وبناء المساجد في المناطق والقلاع التي كان يفتحها ، واحترام الإسلام والمسلمين.

ولم يزل يجري اتصالاته بالأمراء المسلمين وكبار الوزراء؛ حتى كون مجموعة مؤمنة ذات حمية دينية ، فقلب التيار ، وغيّر مجرى التاريخ ، فكان جهانكير أفضل من أبيه أكبر ، وكان ابنه شاهجهان أفضل من أبيه جهانكير ، ومما يدلُّ على ذلك أنه لما صنع له «عرش الطاووس» الذي صرف عليه الملايين ، وتربع عليه نزل بعد هنيهة ، وقال: لقد كان فرعون سفيهاً ، إنه جلس على عرش آبنوس ، وادعى الألوهية ، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولكني أنا مسلم ، ثم سجد لله شكراً ، ثم جلس على العرش.

وخلفه أورنك زيب عالمكير ، ذلك الذي دوَّن الفتاوى الهندية ، وطبّق الأحكام الشرعية ، ونصب الجزية على الهندوس ، وكان من أفقه الملوك؛ الذين عرفناهم في العصور الأخيرة ، ومن أغير الملوك على الإسلام ، ومن أكثر الناس حرصاً على اتباع السنة ، لا تفوته جمعة ولا جماعة ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً وشرحها.

كل ذلك بجهود رجل واحد فقير أعزل ، ولكنه تملكته العقيدة ، وسيطرت عليه الفكرة ، وتشبثت به الغاية النبيلة ، حتى أصبح لا يملك نفسه ، ولا يقدر على التحوُّل من موقفه ، وقد أثبت للملوك أنه لا يريد الملك ، وقال لهم: إذا صلحتم أنتم فأنتم أولى للحكم ، لا أشاطركم ، ولا أنافسكم في ملككم ، وأدعو الله تعالى لكم بالتوفيق والنجاح ، وخذوا أنتم الزمام بأيديكم ، وطبقوا الأحكام الشرعية ، وتوجهوا بهذه البلاد إلى الإسلام.

هذان عاملان أساسيان في رجال الدعوة: أحدهما: تملك الفكرة ، وسيطرتها على نفسه ، والثاني: التجرُّد عن المطامع الدنيوية ، والزهد في المناصب والملك.

وأكتفي بذلك ، وأرجو أن يكون هذا بلاغاً للمستمعين النبهاء الأذكياء ،

أبنائنا ، أبناء الجامعة الإسلامية ، وعسى الله أن ينفعنا جميعاً لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

وأعود فأقول لكم: إنه ينبغي أن تكون كلمتكم الرائدة: «أينقص الدين وأنا حي؟»

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

أميـر قـافلـة الأمّـة الإسـلامـيَّـة الـيـومَ

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في حفلة أقامها البروفيسر عبد الغفور (وزير الزراعة والصناعة في حكومة باكستان) ترحيباً وتكريماً له ، وذلك لدى ختام المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول في ٩/يوليو/ ١٩٧٨ م ، وقد حضرها قادةُ الأحزاب السياسية المختلفة ، وممثلو الجبهات الدينية والشعبية والاجتماعية والثقافية ، وخيرة المثقفين والأدباء ، والصحفيون ، ورجال العلم والدين .

قال بعد الحمد والصلاة:

الحديث الذي يصدر عن القلب فينفذ في القلب:

أيها السادة، أشكركم أولاً على هذا الحب والثقة اللذين وضعتموهما فيّ، وتجشمتم الحضور للاستماع إلى حديثي رغم تهطال الأمطار.

إن هنالك مناسبات تجعل الإنسان يرى اللغة والكلمات ـ التي هي وسيلة عادية للتعبير عن الأفكار والعواطف، والمشاعر والأحاسيس ـ عاجزة قاصرة عن التعبير والإفصاح.. وتعلمون أني دائماً أبدي أفكاري بالقلم وباللسان، حسبما تقتضيه المناسبة، وطبيعة الموقف، ووضع الحديث والفكرة، ولكني أريد أن أصارحكم دون تلعثم، أني أرى أكبر كمية وأوفر ثروة من اللغة والكلمات غير كافية للإبداء عما في القلب، حين تشكّل عدد المستمعين من خيرة المثقفين، وعصارة أصحاب الرأي والفكر وخلاصة الطبقة الذكية؛ التي هي بمنزلة العقل والقلب من الشعب المسلم... فهنالك أريد أن يتحدث العقل ويستمع العقل، أو يتحدث القلب ويستمع القلب، ولم يخترع العلم ـ رغم تقدمه الهائل المدهش ـ إلى اليوم آلة تنقل إليكم ـ مع حديثي خفقان قلبي، واهتزاز ضميري، وتموّج مشاعري.

وإني الآن في صراع نفسيّ، لا أكاد أدري من أين أبدأ حديثي، وكيف أوجز كلامي، وقد كنت أنا في الحديث الذي ألقيته في ختام المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول بالأمس، انتقيت للتلاوة ثلاثة أبيات: عربي وفارسي وأردي، وقد ترددت بعض الوقت فيما يتصل باختيار اللغة؛ التي أتحدث فيها إلى الحضور، فأولاً دار بخلدي أن أوثر الأردية بالكلام؛ لأنها اللغة التي ينطق بها، ويفهمها معظم عدد المستمعين، لكني استحييت من اللغة العربية، فهي لغة القرآن والإيمان، ولغة رابطة العالم الإسلامي الرسمية التي كنت أتحدَّث من منصتها، فرأيت أن أحلَّ مشكلتي باختيار

بيت بيت من تلك اللغات الثلاث التي لي إلمام بها ، وبما أن كثيراً منكم ، أو أكثركم لم يكن حاضراً ، فها أنا أعيد إنشادها أمامكم :

وقع اختياري من الشعر العربي على البيت الآتي :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي فأنتِ بمرأىً من سعاد ومسمع

وقلت : إنكم أيها السادة! كلكم «سعاد» وكلكم سعداء ، والحمد لله .

وكان بمستطاعي أن أختار من الشعر الفارسي بيتاً من قصائد أي من «عرفي» أو «نظيري» أو «حافظ» أو «جامي» فحول الشعراء في إيران ، لكني استحييت من الشاعر الإسلامي الدكتور محمد إقبال الذي هو أكبر شاعر فارسي أنجبته هذه الديار ، بل هذا العصر ، فلم أستطعْ أن أفارقه إلى غيره من «عرفي» أو «نظيري» ، فوقع اختياري من شعره على هذا الشعر الدافق بالحياة الناطق عن الواقع :

تا تو بيدار شوي، ناله كشيد م ورنة عشق كاريست كه بـآه وفغان نيزكنند

يقول : «حرصاً على أن تنتبهوا أيها الإخوة ، وأن أوقظ فيكم نائماً ، وأحرك فيكم ساكناً ، أرفع نشيجي ، وأرتفع بانتحابي ، وإلاّ فإن «الحب والعاطفة» شيء يستطيع أن يمارسه الإنسان في هدوء ، وفي صمت ، ودون إبداء عن الحرقة والجوى» .

واخترتُ من الشعر الأردي البيت الآتي :

أمير جمع هين أحباب درد دل كه لـ بهر التفات دل دوستان رهـ رهـ نه رهـ

يقول الشاعر ـ الذي تلقب في الشعر بلقب «أمير» ـ :

«إن الإخوة والأحباء مجتمعون ، فتحدث إليهم عن شجونك وأحلامك وأحزانك وآمالك ، وانتهز الفرصة ، فربما لا تجد مثل هذه اللفتة الكريمة الحانية منهم مرة أخرى» .

وإنما أعدتُ الحديث لأن هذا البيت الأخير يتفق مع الجو الآن أيضاً .

أيها السادة! أرى أننا ـ بصفتنا شعباً مسلماً ، يحمل رسالة ، ويحتضن دعوة ، ويملك الأمر والنهي ، ويتمتع بالثقل السياسي ، ويصلح للقضاء

على الظلم والعدوان ، ولتعليم درس العدل والمساواة ، وتبليغ الرسالة الإلهية إلى العالم من مستوى عال ـ اجتزنا بيومين حاسمين حساسين :

١ ـ حينما كانت الدولة العثمانية تجتاز مرحلة مصيرية حاسمة في حياتها ، وكان لها أن تقرر: هل تبقى كدولة مرفوعة الرأس ، مسموعة الكلمة ، مرهوبة الجانب ، تملي إرادتها على الدول والحكومات ، وتؤثر في خريطة العالم السياسية ، أم لا؟ هل تبقى كدولة حارسة أمينة للأمة الإسلامية والرسالة المحمدية ، أم لا؟

والواقع أن هذا التقرير كان بعيد المدى، عميق الجذور، مترامي الأبعاد، فلم يكن تقرير مصير الشعب العثماني ، بل كان تقرير مصير الشعب المسلم في أرجاء العالم ، وذلك أن الرسالات قد يرتبط مصيرُها بمصير الشعب الحامل لها؛ لأن الرسالات ليست شيئاً يتعلق بين السماء والأرض ، كما أن الأمم لا تعيش في الجوّ ، وإنما تعيشُ على هذه الأرض ، على كلٍّ فكان للأمّة الإسلامية أن تقرر يوم ذاك ، أأنها تفرض سيطرتها السياسية على الشعوب والأُمم ، وتثبت أهميتها في حوادث الوقت ، ووقائع العصر ، وفي تغيير مجرى التاريخ ، أم لا؟ وكان هذا يوم من اليومين.

واليوم الثاني هو ما نعيشه اليوم وبلدنا واقف على منعطف حساس:

إن باكستان اليوم واقفة على منعطف دقيق ، والتاريخ حابس أنفاسه ، وكاتب الخطّ ممسك بقلمه ، مستعد للتسجيل ، ينتظر ويترقب ، إن هنالك مناسبات كثيرة يمكن أن يرى فيها الإنسان الأَرضي ـ إذا كانت رؤية الأمور الغيبية بالإمكان ـ كيف يجلس كاتب الخطّ ينتظر ويرتقب القضاء الإلهي ، ولا أقول: إنه ينتظركم ، ولكن أقول: إنه ينتظر القضاء الإلهي الذي لا رادّ له ، وهذا القضاءُ يتوقف على أمور كثيرة ، ولا يتوقف عليها ـ حاشا لله ـ لأن الله محتاج إلى أحد ، بل ذلك يرجعُ إلى السنة الإلهية ، فإن الله تعالى ينظر إلى مدى إخلاص الأمم ، وعزمها وطموحها وصلاحيتها ، وهناك تقديرات وقضاءات تتبدل وتتغير ، ويمكن تبديلها ، وذلك هو «التقدير

المعلق» في التعبير العلمي القديم ، فهذه «التقديرات المعلقة» يمكن أن ترى العيون «المبصرة» ـ إذا كان عند أصحابها رصيد كاف من دراسة عميقة للقرآن الكريم ـ كأنَّ كاتب التقدير ينتظر القضاء الإلهي بصددها ، ويترقب ما يكتبه فيما يتصل بالأفراد أحياناً ، وفيما يتصل بالجماعات أحياناً أخرى ، ومثل هذا الوقت قد تساوي كل لحظة من لحظاته قروناً ، لأن زلّة واحدة وقتذاك قد تغرق سفينة أمة بأسرها، وما أصدق ما قاله الشاعر الفارسي :

«ذهبتُ أنتزع الشوك من قدمي ، فاختفى محمل الحبيب عن نظري ، لم يستغرق هذا العمل إلاّ لحظة من الوقت ، ولكني تخلّفت عن ركب الأصدقاء بمسافة قرن كامل» .

أيها السادة! إن الشاعر قد يشير في شعره بقوة مخيّلته ، وصفاء قريحته إلى معانٍ بارعة ذات الدلالات العجيبة ، لم تتحقق مصاديقها بعد ، وقد تتحقق بعد سنين طوال ، وربما بعد قرون وأجيال ، فتأتي تفسيراً صادقاً لذلك الشعر ، فتتجلى روعته ، وجماله ، وعمق معناه ، ومن هنا فإني لا أكاد أتأكد من أن الشاعر ـ الذي قال هذا البيت الخالد ـ قد مرَّ في الواقع بهذه القصة التي حكاها في بيته الرائع ، فقعد أحد من رفاق قافلته يستخرج الشوك ـ الذي نفذ في داخل قدميه في بعض الطريق ـ من عقب قدميه ، فمضت القافلة بعيداً ، وتخلف عنها . . . لا أدري ما كانت هذه القافلة ومن كان هذا المسافر ، وما هي المعاني التي أرادها الشاعر في هذا البيت ، وإلى أي حادث أشار ، ولكني على يقين بأن هذا الحادث ـ بجميع محتوياته ـ لم يكن مصداق هذا البيت الحيّ .

إن هذا الشاعر لم يخطر منه على بال أنه ستبرز هناك دولة ، وستنهض هناك قوة ، وستسير هناك قافلة ، قافلة الأمة الإسلامية ، ويتخلف رفيق من هذه القافلة ـ وهو باكستان ـ عن رفاقه ، من أجل أن ينتزع شوكاً من قدمه ، ـ ولا أريد أن أشير إلى هذه الأشواك بالتحديد؛ لأن ذلك يقلل من قيمة هذا البيت ، ويحطّ من شأن «الموقف» ، وأترك هذا الأمر إليكم لكي تتصوروا ما شئتم من الأشواك التي أصابت الأرجل ، والجروح التي أصابت

القلوب ـ ولكن الواقع أن هذا البيت لم ينطبق على واقع ما من ذي قبل كما ينطبق على الواقع الذي نعيش نحن اليوم.

*** الرفيق العظيم من رفاق ركب الأمة الإسلامية:**

حقاً إن باكستان رفيق جليل من رفاق قافلة الأمة الإسلامية، والقافلة ماضية في الطريق، فإذا ما قعد هذا «المسافر الجليل» ينتزع «أشواكاً» أصابت رجليه، وتأخر في العمل، أو غلبه النوم، أو هبَّ يتخاصم مع أحد من «المسافرين» فإذاً أخاف أن يتخلف.

أيها السادة! إن زلَّة واحدة في هذا الوقت تحدث تحوّلاً جذرياً في مصير الأمة الإسلامية، وإن صنيعكم ـ خطأ كان أم صحيحاً ـ سيترك تأثيراً بعيد المدى على مصير الأمة الإسلامية، وربما يضع في مصيرها قفلاً، فقد مفتاحه ـ لا قدر الله ـ.

ومن ثم فأنتم في موقف حسَّاس دقيق يتطلب تضحيات جساماً، ومن المؤسف جداً أن الإسراف في استخدام هذه الكلمة الشريفة، والأخطاء في مواضع استعمالها قد أفقداها تأثيرها، وإلّا فإنها شيء ما إن قرع السمع حتى تقشعر منه الجلود، وترتجف له القلوب، لكننا ـ مع الأسف ـ أصبحنا اليوم كلما نستخدم الكلمة لا تتطرق منها الأذهان إلّا إلى التضحية بالوظائف، أو التضحية بشيء زهيد من المرتّبات والمناصب.

أيها الأخوة! إن التضحية شيء مقدس ينتهي نسبه إلى سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، إن لكل شيء نسباً، فنسب المساجد كلها على أرجاء الأرض، ينتهي إلى بيت الله في مكة ـ المسجد الذي بناه سيدنا إبراهيم عليه السلام ـ وكل مسجد لا يتصل نسبه بمسجد إبراهيم هذا، فلا يستحق أن يسمَّى بيت الله، وإنما هو «مسجد ضرار»، وكذلك كل مدرسة لا ينتهي نسبها إلى صفّة المسجد النبوي على صاحبها الصلاة والسلام، فلا تستحق أن تسمى مدرسة؛ لأنها ـ إذاً ـ منطلق الجهل والضلال، وليست موضع دراسة وعلم وهدى، وعلى ذلك فـ «التضحية» التي لا يتصل نسبها بروح الإيثار والإخلاص، والوفاء والولاء لدى سيدنا إبراهيم، وروح

الصبر والرضا ، والتوكل والفداء؛ لدى ابنه ذبيح الله إسماعيل عليهما السلام؛ فإنها ليست بصحيحة النسب ، وذات أصل كريم ، وعرق عريق.

*** ثلاثة أنواع من التضحية:**

والظروف تتطلب منكم اليوم ثلاثة أنواع من التضحية ، ولكل نوع منها إمام في تاريخنا الإسلامي ، فهناك نوع من التضحية قام به سيدنا خالد بن الوليد في ساحة معركة اليرموك ، ونوع آخر قام به سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه إزاء سيدنا معاوية رضي الله عنه قضاء على الاضطراب في صفوف المسلمين ، ونوع ثالث من التضحية قام به عمر بن عبد العزيز رحمه الله من أجل إعادة المجتمع الإسلامي إلى الحياة الإسلامية والسيرة المثالية ، وذلك بتحويل حياته من النعومة إلى الخشونة ، ومن الترف إلى الكفاف، والقناعة باليسير القليل، وأحداث تحوّل كلي في كل جوانب حياته، والتغاضي عن مصالح عائلته وأعضاء أسرته ، وهذه الأنواع الثلاثة من التضحية يحتاج الشعب المسلم الباكستاني اليوم أن يقوم بها في وقت واحد معاً.

التضحية التي قام بها سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه تعلمنا ألا يتقطب الجبين لو عزل صاحبه عن منصب قيادة الجيوش ، وهو في ساحة المعركة يحرّك الأجناد ، ويقود الجيوش ، ويطارد الأعداء ، حتى يسجل له التاريخ أمثال هذه الكلمات الذهبية الناصعة الغرّاء التي سجلها لخالد بن الوليد ، والتي عصارتها: لو كنت أجاهد من أجل عمر بن الخطاب ، وابتغاء رضاه ، لتوقفتُ عنه ، ولكني إن أقاتل في سبيل الله ، وابتغاء وجهه الكريم ، وطمعاً في رضاه وثوابه ، فلن يفتّ شيء في عضدي ، ولن يقلل من حماسي ونشاطي.

وقد شهدت الدنيا كيف صدق خالد في وعده ، ولم يتغير قيد شعرة عما كان عليه من الحماس للجهاد ، والشوق للشهادة ، والشغف بإعلاء كلمة الله ، إن التاريخ البشري كله يعجز عن أن يقدم لذلك نظيراً. إن المؤرخ يقف مشدوهاً واجماً أمام هذه الثقة بالله ، وشدة الشكيمة ، وغاية العزيمة ، التي كان يتمتع بها سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه ، حيث يعزل امرأً ـ خلال

المعركة الحامية ـ كان قد اقترن اسمه بالفتح والانتصار اقتراناً أصبح الفرقُ بينهما عسيراً ، حتى صار رمز الفتح والانتصار (SYMBOL). كان يتساءل الناس: خالد يخوض المعركة أم لا؟ فإذا علموا أنه موجودٌ سيخوض المعركة ، يتأكدون من كسب المعركة ، وكانت القلوب تمتلئ أملاً ورجاءً وجذلاً وسروراً ، كانوا يتوكلون أصلاً على الله ، ولكنهم كانوا يتفاءلون بوجوده في المعركة ، لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطو هذه الخطوة الجريئة الخطرة ـ من أجل أن يضرب مثالاً رائعاً لهذه الأمة إلى يوم القيامة ـ التي أعتقد أنه لم يخطها أحد في تاريخ الحروب والمعارك ، ولم يركب هذا الخطر العظيم ، يأتي الرسول من المدينة المنورة ، ويسلم إلى خالد مرسوم عزله ، ونصب أبي عبيدة مكانه ، وهو يباشرُ الحرب ، ويعلم الجنود كلهم أن خالداً لم يعدْ قائداً لهم أو قائداً للجيوش الإسلامية ، وهنالك يقول خالد هذه الكلمات الأمينة المؤمنة المذكورة أعلاه.

* إيثار مصالح الأمة على جميع المصالح والأغراض الشخصية:

والنوع الثاني من التضحية الذي يجب عليكم أن تقوموا به ، هو: أن يُؤْثِروا مصالح الأمة على المصالح الشخصية ، والمصالح الحزبية ، والمصالح القومية ، بل أتقدم خطوة فأقول: على مناهج العمل والخطة التي اخترناها للعمل الإسلامي؛ لأن الأحزاب يجب أن تكون في خدمة الأمة والإسلام لا بالعكس ، وقد قلتُ مراراً ، وفي كثير من المناسبات والحفلات أنه لو تطلبت مصالح الأمة أن تمحى هذه الأحزاب والجماعات كما تمحى العبارة الخاطئة ، لأكون أول من يتشرف بهذه السعادة ، ويحوز هذه الكرامة ، وتلك هي التضحية التي تلقينا درسها من صنيع خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه.

أما التضحية التي قام بها سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فربما لا يكاد يدرك خطورتها وأهميتها كبار مؤرخينا ، لكنها في الواقع لا تقل أهمية عن أي تضحية مخلصة عظيمة.

كان الحسن رضي الله عنه سبط الرسول ﷺ ، وكانت السيوف بأيدي أنصار علي رضي الله عنه مشهرة لم تغمد بعد ، وكل من استعرض الظروف وحلَّل الملابسات ، وقلّب الأحوال ، كان له أن يقول : إن القوة العسكرية الكبرى لا تزال وفية للحسن ، بالإضافة إلى العلاقة العاطفية التي كانت تربطُ بينه وبين المسلمين ، والدلائل الشرعية التي كانت تؤيده ، فكان سبط الرسول ، والخليفة الراشد ، تمت البيعة على يديه .

لكنه استعرض الواقع فوجده مريراً ، رأى أن مثل هذا الصراع لم يعد منتجاً ، وقد استنفد مقداراً صالحاً من قوة والده العظيم ، وجهده ووقته ، فتنازل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه عن اجتهاد منه ، وعلى بصيرة . . هذه تضحية كبيرة .

وتضحية أخرى قام بها أخوه الحسين ضد يزيد على اجتهاد منه كذلك ، ولا أرى هناك تناقضاً بين الاجتهادين ، أو تخالفاً بين الرأيين ، ولا تسمح لنا المناسبة أن أتحدث عن الأسباب التاريخية ، لكني أرى أن الأحكام تتبدل بتبدل الظروف والملابسات ، فكان اجتهادُ الحسن صواباً بالنسبة إلى ظروفه ، وكان اجتهادُ الحسين صحيحاً بالنسبة إلى أوضاعه ، وكلاهما أخذاً بالعزيمة ، وعملاً بالحكمة ، ولم يجبن أحدٌ منهما ، ولم يستكن ، ولم يتخاذل ، وإني لن أؤمن بأن الحسن تنازل عن الخلافة من ضعف ، أو عن ضغط خارجي ، بل كان ذلك قضاء تنبأ به جدّه النبي الأعظم ﷺ بقوله :

«إن ابني هذا سيد ، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[1] .

وكذلك التضحية التي قام بها عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه ، لها خطورتها وأهميتها ، فقد كان مضربَ المثل في ظرافته وأناقته ، وفي تنعُّمه وترفهه ، حينما كان والياً للمدينة ، وكان عضواً من أعضاء الأسرة

---

(١) صحيح البخاري ، رواية عن أبي بكر رضي الله عنه ، وقد جاء في بعض الروايات : «وسيصلح الله به» .

الحاكمة ، وقد كانت موضته قدوة ، بل غاية الجمال والكمال لدى الشباب والظرفاء ، وكانت الجواري يتعلَّمن مشيته ـ التي كانت تُسمَّى «المشية العمرية» ـ ويحاكينها من حسنها ، كان يستخشن الثياب الثمينة ، ويزري بالملابس الفاخرة .

لكنه ما إن تولى الخلافة حتى تحوّلت حياته كلياً ، فأرجع مزارعه إلى ما كانت عليه في عهد الرسول ﷺ ، وردّ ضياع أقرب أقربائه إلى بيت المال ، ورفض أرخص ثوب أعد لارتدائه ، واستغلاه ، فاستعبرت عينا خادمه إذ تذكر أنه كان قد ردَّ أغلى الأثواب ، وتفادتها عيناه ، وتنازل في مأكله ومشربه ومستوى معيشته إلى ما ربما لم يتنازل إليه أزهد الزهاد ، وبلغ من تحفظه وأمانته إلى أنه يقوم بالأعمال الرسمية في ضوء الشمعة «الرسمية» التي زيتها من بيت المال ويدخل عليه رجل ، فيستطلعه أحوال المسلمين في منطقته ، إذ يعود الرجل فيستخبره أحوال أسرته وأعضاء عائلته ، فيطفىء الشمعة الرسمية بنفخة من فيه ، ويطلب شمعة شخصية؛ لأن الشمعة الرسمية ليست لتستخدم في الأمور الذاتية والأحوال الشخصية ، إن ذلك كله ـ أيها السادة ـ غيض من فيض ، فإن حياته كلها مثال عجيب فذّ للتحول الخارق المدهش الذي وقع في حياته ، وعبارة عن تضحية قام بها رجل صاحب ضمير واع ، وقلب خاشع ، وإيمان راسخ ، صانع للعجائب ، وخاف الله ربه في سبيل مصلحة الأمة والدولة .

*** القضية تتصل بمصير الأمة الإسلامية :**

أيها السادة لا أدري أكان من سعادة جدّي ، أو من محنتي ، أو من نعمة الله عليّ ، أو من امتحانه إياي ، إذ وفّقني أن أزور وأشاهد العالم الإسلامي عن كثب ، وعن تجربة واختبار ، توفيقاً ربما لم يحظ به أحد في هذا المجلس الموقر ـ على تقديري لجميع السادة الحاضرين ـ وربما كان لي ذلك عن سوء حظ وسعادة جدّ في وقت واحد ، أما سوء الحظ فإني رأيت العالم الإسلامي وهو يمر بظروف وأحوال وخزت ضميري ، وآلمت قلبي ، وجرحت شعوري ، ومزّقت كبدي ، وأما سعادة الجد لأني تمكنت من أن

أرى المسلمين عن كثب ، وأحتكّ بهم ، وأخالطهم ، على كلٍّ فأصارحكم : أن القضية اليوم ليست قضية الأحزاب ، أو قضية الجماعات ، أو قضية المصالح الوقتية ، إنما هي قضية مصير الأمة الإسلامية ، قد تكون العبادات مصونة معمولاً بها ، وقد تكون أنواعٌ من المعاملات محافظاً عليها ، ومأخوذاً بها في حياة الناس ، لكن الشعب الإسلامي أصبح لا يستطيع اليوم أن يفرض ثقله السياسي في خريطة العالم ، ولم تعدْ له كلمة مسموعة في أي قضية ، سواء أكانت قضية المسجد الأقصى ، أو قضية فلسطين ، أو قضية لبنان ، أو قضية قبرص(١) ، هل ترون أن الشعب الإسلامي كله يقدر على أن يقدم في القضية أو يؤخر ، أصبح العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة العثمانية ، لا تستطيع دولة من دوله ، أو أسرة من أسر الشعب الإسلامي أن تفرضَ ضغطها السياسي ، ويثبت ثقلها الدبلوماسي في أي قضية من قضايا العالم الإسلامي .

نعم ، قد استطاع المرحوم جلالة الملك فيصل الشهيد أن يثبت جدارته وأهمية العالم الإسلامي ، ولكنه مضى لسبيله ، ولم يعدْ من يخلفه في موقفه العظيم ، وليست اليوم هناك أي دولة إسلامية تستطيع أن ترغم ـ باحتجاجاتها ، أو بإبداء كراهيتها ، وعدم موافقتها ـ قوة كبرى على مراجعة النفس ، واستخدام التأمل في قضية ما إسلامية .

أهيب بكم ـ يا سادة ـ أن تواجهوا الموقف ، متعالين عن المصالح الجزئية ، وتواجهوا تحدي الوقت؛ بقوة المؤمن الواعي الخبير ، وبجراءة الصديقين والصالحين ، وإذا سنحت لكم فرصة ـ بتوفيق من الله عز وجل ـ فلا تضيعوها في غير موضعها ، ولو كان هناك فرد أو جماعة أثبتت جدارتها ـ ولو بنسبة العشرة في المئة ـ للتعاون معكم في مجال العمل الإسلامي ، فلا بد أن يكون الإخلاص رائدكم ، فتوفروا لها فرصة لكي تستخدم مواهبها ، وتثبت أهليتها ، لا بد أن تضعوا في الاعتبار هذه الملامح والأسارير ، الأسارير التي بدت واضحة على وجه مصير الأمة الإسلامية ،

(١) لم تكن قضية أفغانستان حدثت بعدُ.

إن زلة واحدة منكم ، وأنانية يسيرة ، وعصبية قليلة ، لغوية أو إقليمية ، وثغرة متواضعة في صف الوحدة ، تعود بخطر عظيم ، وضرر كبير على الشعب الإسلامي في أرجاء المعمورة ، وأرجو ألا تحجموا مهما تطلب الموقف اليوم أو غداً عن أن تتنازلوا عن جميع الاعتبارات والمصالح ، والأغراض والمنافع إزاء مصالح الأمة الإسلامية ، وأن تترفعوا عن كل مناسبة ، وعن كل موقف ، وعن كل قضية يمكن أن تزرع اضطراباً نفسياً ، وإذا اضطررتم من أجل ذلك أن تنفضوا أيديكم لبعض الوقت عن المسائل الخلافية ، فلا بد ألا ترددوا ولا تتلكؤوا لدقيقة واحدة ، ويتحتم عليكم ألا تتعرضوا للمسائل الجانبية أو غير الهامة .

وأعتقد أن بعض الحركات الدينية لو أخذت الحذر من بداية الطريق ، ولم تتعرض للمباحث الجانبية والقضايا الثانوية لبعض الحين ، لوجدت الطريق أمامها ممهّدة أكثر من اليوم ، لكنها محاولات بشرية ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

*** القرن الحاضر يظمأ إلى «معتصم» :**

أعتقد أنكم قد أنصفتم حديثي ، واكتنهتم إشاراته وأبعاده ، وأرى فيه كفاية ومقنعاً ، وأتضرع إلى الله المولى الكريم أن يوفقكم أن تكونوا جنة للعالم الإسلامي كله ، بل للمجموعة البشرية كلها ، وللحق والعدل ، والإنصاف والمساواة ، أينما وجدت ، وأن تكونوا بحيث لا يقع ظلم في ناحية من نواحي العالم الإنساني ، احتراماً لكم ، وتقييماً لثقلكم المعنوي ، وأن تكونوا بحيث يستصرخكم مظلوم في ناحية من الدنيا ويقول: «وامعتصماه»! كما استغاثت عجوز مظلومة في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله «وامعتصماه»! فأغاثها المعتصم .

إن العالم اليوم يتطلع إلى «معتصم» والقرن الحاضر بأمس الحاجة إلى هذا المعتصم ، وكما نحتاج إلى إمام الحرم المكي ، ونحترمه نحن جميعاً ، وكما نحتاج إلى عالم ديني حاذق متضلع ، ونكرمه جميعاً ، كذلك

نحتاج ويحتاج العالم كله إلى جماعة تحتضن الحق والعدل ، وتتألم للإنسانية ، وتعيش في حب البشرية .

وبهذه الكلمات أختم حديثي ، وأشكركم جميعاً على أن وفرتم لي هذه الفرصة الثمينة للحديث ، جزاكم الله جميعاً ، وشكر سعيكم .

* * *

طبيعة هذا الدين وسماته البارزة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر ، الّذي عقد في تلمسان (الجزائر) في الأسبوع الأول من شوال (١٤٠٢) الموافق (٢٧/ يوليو ١٩٨٢) .

إن لكل كائن حي طبيعة خاصة ، وسمات بارزة ، وملامح مميزة ، يتكون منها واقع يعبر عنه ؛ «بالشخصية» أو «الذاتية المميزة» ، ويستوي في ذلك الأفراد والجماعات ، والشعوب والأمم ، والديانات والفلسفات ، فما هي شخصية هذا الدين ، وذاتيته المميزة؟ يجب علينا أن نعرفَ ذلك قبل أن نخوض في التفاصيل والتعاليم والآداب المعينة ، فذلك هو المدخل الطبيعي للانتفاع بهذا الدين ، والانصباغ بصبغته.

يجبُ علينا أن نعرف أولاً أن هذا الدين لم يصلْ إلينا عن طريق الحكماء والمفكرين ، ولا عن طريق المقننين والمشرعين ، ولا عن طريق المؤسسين للحكومات والفاتحين ، ولا عن طريق الأذكياء الخياليين ، ولا عن طريق الزعماء والقادة السياسيين ، إنما وصل إلينا عن طريق الأنبياء الذين يُوحى إليهم من الله ، الذين ختمت رسالاتهم برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الذي نزلت عليه الآية القرآنية في حجة الوداع في يوم عرفة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] والذي يقول عنه القرآن : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] فما هي طبيعة هذا الدين ، وما هي سماته البارزة؟ .

١ ـ إن سمة هذا الدين الأولى ، وشعاره المميز الأول التركيز على العقيدة أولاً وقبل كل شيء ، فما زال الأنبياء من لدن آدم إلى خاتم الرسل محمد ﷺ ، يدعون إلى عقيدة معينة يُوحى بها إليهم ، يدعون إليها ، ويطالبون بها ، لا يقبلون عنها صرفاً ولا عدلاً ، ولا يبغون بها عوضاً ولا بدلاً ، وإن أفضل حياة خلقاً وسلوكاً ، ورحمة وبراً ، واستقامة وسداداً ، وإن أنجح إنسان في تأسيس حكومة ، أو إنشاء مجتمع ، أو إحداث انقلاب ، لا قيمة له عندهم إذا لم يقترن كل ذلك بعقيدة جاؤوا بها ودعوا إليها ، ولم تقم كل هذه الجهود على أساسها ، وهذا هو الخط

الفاصل الواضح العريض بين دعوة الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وبين الزعماء والقادة القوميين ، والانقلابيين والثوريين ، والنفعيين والماديين ، وكل من كان مصدر تفكيره غير مصدر تعاليم الأنبياء وسيرهم ، لسببٍ من الأسباب الأصيلة ، أو الطارئة من التعليم والتربية ، أو رد من ردود الفعل ، أو الحب الزائد لتحقق النتيجة المطلوبة ، أو قلب نظام أو انتصار أو انتقام(١) .

والقرآن الذي هو الكتاب السماوي الوحيد المحفوظ من التحريف ، والباقي إلى آخر الأبد ، والسيرة النبوية التي هي السيرة الوحيدة من سير الأنبياء التي يمكن الاعتماد عليها ، والاستفادة منها ، والاحتجاج بها ، مليئان بالشواهد على ذلك ، ونقتصر على أمثلة قليلة .

من ذلك ما حكاه الله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم ، الذي وصفه بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥] وهو قوله تعالى مخبراً وآمراً :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وربما يختلج في بعض النفوس قوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ فلماذا وعد إبراهيم أباه المشرك بالدعاء والاستغفار؟ . وتفسر ذلك آية أخرى في سورة البراءة ، وهو قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ

(١) وقد سرت هذه النفسية في كثير من العاملين في مجال العمل الإسلامي ، والمتذمرين من الأوضاع الفاسدة في هذا العصر ، فيغتفرون لكل من يهتف بهتاف الثورة ، أو يتحدى قوة جبارة ، كل فساد في العقيدة ، وانحراف وزيغ في التفكير ، ويصرفون النظر عن ديانته وسلامة عقيدته ، بل يتهمون كل من يثير هذا الموضوع ، ويتساءل عن عقيدته ، بالتمالؤ مع القوى الأجنبية .

إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

وناهيك بأن سورة «الكافرون» نزلت بمكة حين كان الوضع يقتضي شيئاً من اللين والرقة، وعدم إثارة العداء على أساس العقيدة والعبادة، وتأجيل ذلك إلى وقت يكون الإسلام فيه أقوى، والمسلمون آمن، ولكن القرآن يقول والرسول يعلن:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

ولو كان أحد جديراً بالغضّ عن عقيدته، وصرف النظر عنها، لنصرته، ومنعه وحبه للرسول ﷺ، لكان أبو طالب عم الرسول ﷺ، فقد قال أصحابُ السير عنه: «كان لرسول الله ﷺ عضداً، وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه، ولكن في الصَّحيح أن رسول الله ﷺ دخل على أبي طالب عند موته وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: يا عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وابن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب.

وثبت في الصحيح أيضاً أن العباس قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته عن ضحضاح»[(١)].

وشاهد آخر ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة، قالت: قلت: يا رسول الله! إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان.

المسكين ، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[١].

وأوضح من كل ذلك وأصرح ما رواه مسلم في صحيحه: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: خرج رسول الله ﷺ ، قبل بدر ، فلما كان بحرَّة الوبرة ، أدركه رجل ، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح أصحابُ رسول الله ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك ، قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: لا ، قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك».

قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة ، قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» ، قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء ، فقال له كما قال أول مرة: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: نعم ، فقال له رسول الله ﷺ: «فانطلق»[٢].

٢ ـ والأمر الثاني أن الدافع الحقيقي لدعوة الأنبياء ـ وفي مقدمتهم ، وعلى رأسهم محمد رسول الله ﷺ ـ ولجهدهم ولجهادهم ، إنما هو طلب رضا الله تعالى لا غير ، وهو كالسيف الحاد الذي يقطع كل شيء ، ويأتي على كل شيء ، فلا عرض من متاع الدنيا ، ولا غرض من حكم ورئاسة أو ملك ، ولا طلب علوّ في الأرض ، أو سيطرة على الناس ، أو تمتع برفاهية أو بذخ أو غضب أو حمية ، أو ثار أو ترة ، أو دفاع عن أمة أو بلد يحملهم على ذلك.

وقد تجلى ذلك في دعاء رسول الله ﷺ في الطائف في أروع مظاهره ، إذ قال ، وقد لقي هنا ما لقى من الأذى والجفاء ، ولم يتحقَّق الغرضُ الذي جاء لأجله ، فما أسلم أحدٌ من الناس ، ولكنه يقول في أدق ساعة وفي أحرج الأحوال النفسية:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ،

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير.

يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملَّكته أمري».

وهنا تتجلى الطبيعةُ النبويـة التي رباها الله تعالى وغذَّاها ، فيقول: «إنْ لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسعُ لي»(١).

وهذا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وهو من أولي العزم من الرسل ، يحكي عنه القرآن فيقول: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وقد قضى هذه المدة كلها في شغل شاغل من الدعوة ، وانصراف إليها ، والتماس جميع الطرق ، واتخاذ الأساليب كلها لإقناع الناس بها ، فيحكي القرآن قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩ ـ ١٠].

فماذا كانت النتيجة؟ ، حسبنا ما يقول القرآن:

﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ولكن نوحاً لم يتسخط ولم يعتب ، ولم يعتبر كل مجهوده قد ذهب سُدى ، ولم يؤثر ذلك في مكانته عند الله ، وقربه إلى الله ، وكونه من أولي العزم من الرسل ، فقد كان الله راضياً عنه ، وكان راضياً عن الله ، وقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، بل يقول الله:

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٨١].

ويقول القرآن معلماً ومؤدباً لجميع العاملين في مجال الدعوة والجهاد في سبيل الله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وليس معنى ذلك أن القوة التي يستطيع بها المسلم أن ينفذ بها أحكام الله ، ويزيل بها العقبات التي تعترضُ سبيل الدعوة ، ويُطفىء بها نائرة

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (ح ٢ ص ١٥٠) وزاد المعاد (ج ١ ص ٣٠٢) واللفظ لزاد المعاد.

الفساد في الأرض والانتصار للباطل ، ويكون بها البيئة الهادئة الواعية للحياة الإسلامية المثالية والمجتمع المؤمن المتديِّن الكريم ، شيء يزهد فيه ، وينصرف عنه ، إنما هي فكرة دخيلة غير سليمة ، ورهبانية ما أنزل الله بها من سلطان ، والله يقول في معرض المنّ والأنعام :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

وقال : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

وقد وعد الله بالعلو والغلبة للمؤمنين ، إذا تحققت فيهم الصفات الإيمانية ، وعملوا لرضا الله تعالى ، ولم يكن هدفهم العلو ، فإن العلو نتيجة لا غاية ، ومنحة لا هدف ، فيقول :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

وقد صرح القرآنُ في أكثر من موضع ، أن المطلوب من الله ، والنافع عند الله ، هو القلب السليم ، فقال : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٩] .

ويقول مادحاً لنبيه إبراهيم : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٤][1] .

---

(١) قال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو : القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله تعالى : ﴿في قلوبهم مرض﴾ (تفسير ابن كثير) وقال سفيان الثوري : هو الذي ليس فيه غير الله عز وجل ، (روح المعاني) .

فلنكن على حذر من كلِّ ما يعارض صفة القلب السليم ، ويتحول إلى وثن من الأوثان ، أو حبالة من حبائل الشيطان ، ويكون سهيماً في حب الله تعالى ومشاركاً له ، يقول القرآن: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤٣].

ويقول النبي ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[1].

٣ ـ الأمر الثالث أن الأنبياء عليهم السلام قد اشتدت غيرتهم على ما جاؤوا به من عقيدة ودعوة وشريعة ، فلا يرضون في حال من الأحوال بإحداث تعديل فيها ، أو تغيير لها ، حتى لمصلحة من مصالح الدعوة ، وانتشارها أو انتصارها ، أو للتخفيف من حدة العداء وشدة المعارضة ، فلا مداهنة عندهم ولا مساومة ، ولا تنازل ولا عدول ، ولا إرجاء ولا تأجيل ، والله يقول لرسوله آخر الرسل ﷺ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] ، ويقول: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة: ٦٧] ، ويقول: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩].

ولم يكن موقفُ الرسول ﷺ فيما يتصل بالتوحيد وما يعارضه ، وفي العقائد الأساسية وحتى في أركان الإسلام ، موقفاً سلمياً سياسياً مرناً ، كما عهد من الزعماء والقادة السياسيين الذين يسمّون أنفسهم «واقعيين» و«عمليين».

وقد قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ ـ بعد فتح الطائف ـ وقد أسلموا وسألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم «اللات» لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ ، وما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم رسول الله ﷺ حتى سألوا شهراً واحداً بعد قدومهم ، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ـ وهو من قومهم ـ يهدمانها ، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه».

(١) رواه الشيخان وأبو داود والإمام أحمد في المسند.

ولما فرغوا من أمرهم ، وتوجَّهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، فهدمها المغيرة ، وانتشر الإسلام في ثقيف ، حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم[١] .

ويلتزم الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام في تبليغ رسالتهم ، وفي الحوار مع الأمم التي يبعثون إليها التعابير النبوية؛ التي تتفق مع روح دعوتهم وطبيعة رسالتهم ، ولا يكون فيها إبهام ولا غموض ، فيدعون إلى الآخرة دعوة سافرة ، ويطمعون في الجنة ونعيمها ، ويحذرون من جهنم وعذابها وجحيمها ، كأنهما رأي عين ، ويطالبون بالإيمان بالغيب ، ولا تخلو عصورهم من فلسفات مادية وإن كانت بسيطة وبدائية ، ومن مصطلحات تستخدمها فئاتٌ من الناس ، إنهم لا يجهلونها ، ولا يجهلون أنها عملة سائدة لها رواج وذيوع ، وفيها بريق وجاذبية ، ولكنهم لا يستخدمونها لجلب الناس إليهم ، فيدعون إلى الإيمان بالله وبصفاته وأفعاله ، وبالملائكة ، والقدر خيره وشره من الله ، والبعث بعد الموت ، ويقولون ـ في غير استحياء ومعذرة ـ إن جزاء كل ذلك الجنة ، ورضوان من الله .

وخير نموذج لهذا المنهج النبوي في الدعوة ، ما يراه القارىء في قصة بيعة العقبة الثانية ، فقد خرج عددٌ من المسلمين من الأنصار مع حجَّاج قومهم من أهل الشرك ، واجتمعوا في الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون (٧٣) رجلاً وامرأتان من النساء ، وجاء رسولُ الله ﷺ معه عمه عباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذٍ على دين قومه ، وتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغَّب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فبايعوه ، واستوثقوا منه ألا يدعهم ، ويرجع إلى قومه ، وعرفوا وهم عقلاء ، ما يستتبع ذلك من خطر وضرر ، وإثارة لغيظ القبائل وعداء العرب كلهم ، ونبههم على ذلك عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، فقالوا في جواب ذلك كله : إنا

(١) زاد المعاد (ج ١ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩) ملخصاً.

نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ .

ولو كان أحد مقام نبي الله ﷺ من القادة والزعماء ، ورجال التنظيم الإنساني ، والوعي السياسي ، لكان جوابه أنه يجتمع شملكم بعد فرقة ، ويكون لكم كيان بعد ضعف ، فتستطيعون أن تقيموا دولة ، وتنشئوا قوة ، ولم يكن ذلك أمراً غريباً تأباه عقولهم ، وقد دلت كلُّ القرائن على إمكان ذلك ووقوعه ، وقد قال قائلهم : «إنا قد تركنا قومنا والقوم بينهم العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم ، فندعوا إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»(١) .

ولكن الرسول ﷺ لم يزدْ في جواب سؤالهم : «فما لنا بذلك يا رسول الله؟» على قوله : «الجنة» ، هنالك قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده ، فبايعوه(٢) .

ومِنْ آثار هذه الغيرة أنهم لا يغيرون حكماً من أحكام الشريعة ، ولا يعطلون العمل به لمصلحة سياسية ، ولكثرة من يدخل في دينهم ويكثر السواد ، أو يكسب له القوة والمجد ، وقد نفذوا حدود الله وأحكامه في الأباعد والأقارب ، ولم يعطلوها لشفاعة أحب الناس إليهم ، وقد قال رسولُ الله ﷺ حين شفع أسامة في امرأة من بني مخزوم ، وقد سرقت : أتشفع في حدّ من حدود الله؟! ثم قام فاختطب ، فقال : «أيها الناس ، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدّ ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها»(٣) .

وقد انتقلت هذه الغيرةُ إلى خلفاء الرسل وأصحابهم ، فحافظوا على

---

(١) سيرة ابن هشام (ق ١ ص ٤٢٩) .

(٢) ابن هشام (ق ١ ص ٤٢٩) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الحدود ، باب : حد السرقة ونصابها .

تعاليم القرآن ، وأحكام الشريعة ، ومبادىء الإسلام ، غير محتفلين بما يجرُّ ذلك من إقبال أو إدبار ، أو ربح أو خسارة.

وخيرُ مثال لذلك ما روي في التاريخ عن موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قضية جبلة بن الأيهم الغساني ، وكان من ملوك آل جفنة ، وقد خرج إلى المدينة في خمسمئة من أهل بيته من علّك وغسان ، ودخل المدينة فلم يبقَ بها بكر ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى زيّه ، وخرج عمر للحج ، فخرج معه جبلة ، فبينما هو يطوفُ بالبيت ، وكان مشهوداً بالموسم ، وطىء إزاره رجل من بني فزارة فانحلّ ، فرفع جبلةُ يده فهشم أنف الفزاري ، فاستعدى عليه عمر رضوان الله عليه ، فبعث إلى جبلة فأتاه ، فقال: ما هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمَّد حلَّ إزاري ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ، فقال له عمر: قد أقررت ، فإما أن ترضي الرجل ، وإما أن أقيده منك ، قال جبلة: وماذا تصنع بي؟ قال: آمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ، وهو سوقة وأنا ملك؟! قال: إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية ، قال جبلة: ظننت يا أمير المؤمنين أني أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية ، قال عمر: دعْ عنك هذا ، فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك.

ولما رأى جبلةُ الصدقَ من عمر ، قال: أنا ناظر في هذا ليلتي هذه ، وأذن له عمر في الانصراف ، حتى إذا نام الناسُ وهدؤوا ، تحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام ، فأصبحت مكة وهي منهم بلاقع ، ولم يزدْ عمر حين سمع قصة ما هو فيه من نعيم ومظاهر ملوكية من جثامة بن مساحق الكناني ، الذي وفد عليه ، وجلس معه ، على أن قال: «أبعده الله ، تعجل فانية اشتراها بباقية فما ربحت تجارته»[١].

وليس معنى ذلك أنَّ الأنبياء غلاظ شداد ، لا يستخدمون الحكمة في

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ١٤٢ ، باختصار ، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٨١.

دعوتهم ، ولا يكلمون الناس على قدر عقولهم ، فإن ذلك ينافي النصوص القرآنية ، والسيرة النبوية المحفوظة ، وليس قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤] محصوراً في كلمات ومفردات ، إنما يشملُ المعاني والأساليب ومدخل الكلام ، كما تجلّى ذلك في موعظة سيدنا يوسف مع زميليه في السجن ، وحوار سيدنا إبراهيم وموسى مع ملوك عصرهما وقومهما[١] ، وقد أمر الله نبيه ـ وعن طريقه وبواسطته كل قارىء للقرآن وكل داع إلى الإسلام ـ بقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد كان النبي ﷺ يُوصي أصحابه الذين يرسلهم للدعوة إلى الله ، وتبليغ أحكام الله باللين والرفق ، والتيسير والتبشير ، وقد قال لمعاذ بن جبل وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «يسّرا ولا تعسّرا ، بشّرا ولا تنفّرا»[٢] وقد قال الله لنبيه ﷺ:

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إنما بُعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين»[٣].

والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تُحصى[٤]، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ مفروض في سيرة الأنبياء السابقين؛ للحكمة التي وصفهم الله بها، فقد قال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وقال في أنبيائه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ [الأنعام: ٨٩].

«ولكن كل هذا التيسير والتدريج ، ومراعاة الحكمة والمصلحة ،

---

(١) راجع للتفصيل محاضرة العلامة الندوي في هذا الجزء بعنوان: «روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة».
(٢) صحيح البخاري (ج ٢ ص ٦٢٢).
(٣) صحيح البخاري (ج ١ ص ٣٥).
(٤) اقرأ الفصل النفيس: «باب التيسير» في «حجة الله البالغة» لشيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (ج ١).

والنظر إلى استعداد النفوس ، إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية ، ومما ليس من العقائد ومبادىء الدين في شيء ، أما ما كان من العقائد والمبادىء والفرائض والنصوص ، وما يفرق بين الإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله ، فالأنبياء عليهم السلام على اختلاف عصورهم ، أصلب فيه من الحديد ، وأثبت عليه من الجبال ، لا يعرفون تنازلاً ، ولا يعرفون هوادة ، ولا يرضون مساومة»[(١)].

٤ ـ السمة الرابعة من سمات النبوية وملامح دعوتهم وشعائرها ، هو التشديد على جانب الآخرة واللهج بها ، والإشادة بذكرها ، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم ، ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائماً نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها ، وسعادتها وشقائها ، فهم إلى الجنة في حنين شديد ، ومن جهنم في فزع كبير ، وهو شيء طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم ، واستولى على فكرهم.

والإيمان بالآخرة ، وتمثل ما فيها من سعادة دائمة ، وشقاء دائم ، وما أعدَّ الله فيها لعبادة المؤمنين المطيعين من جزاء ، وللكفار العصاة من عقاب ، هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم ، وبذل نصحهم ، وهو الذي يقلقهم ، ويطير نومهم ، ويكدر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ، ولا يقر لهم قرار.

والقارىء الذكي يلاحظ أن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة ليست كضرورة خلقية ، وكحاجة إصلاحية لا يقومُ بغيرها مجتمع فاضل ، ومدنية صالحة ، فضلاً عن المجتمع الإسلامي ، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما ، أن الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمان ووجدان ، وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره ، وتفكيره ، وتصرفاته ، والثاني اعتراف وتقدير ، وقانون مرسوم ، وإن

---

(١) ملتقط من محاضرة العلامة الندوي : «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

الأنبياء يتكلَّمون عن «الآخرة ، باندفاع والتذاذ ، ويدعون إليها بحماسة وقوة ، ورجال التربية والإصلاح ، وقادة الجماعات العقلاء يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية ، أو الحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي ، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية»[١].

٥ ـ إن الله هو الحاكم الحقيقي ، والحكم المطلق وشرع الدين من حقه ، وقد قال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ١١] ولكن صلة العبد بربه أشمل وأوسع ، وأعمق وأدق ، بكثير من صلة الحاكم والمحكوم ، والآمر والمأمور ، والسلطان والرعية ، وقد لهج القرآنُ الكريم بذكر أسماء الله وصفاته في بسط وتفصيل ، وأسلوب شيق جميل[٢] ، لا يدلان أبداً على أن المطلوب من العبد هو الإيمان بمجرد حاكميته المطلقة ، والإذعان بسلطته العلياء ، وأن لا يشرك آخرين معه في سلطته.

إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الإلهية التي زخر القرآن بذكرها ، وما ورد من الآيات التي فيها مدح الحب لله[٣] ، والحث على ذكره الكثير الدائم ـ تتطلب في صراحة أن يحبَّ العبدُ إلهه وربه بقلبه وقالبه ، وأن يتفانى في طلب رضاه ، وأن يتغنَّى بمجده ، ويُسبِّح بحمده ، وأن يلهجَ بذكره قياماً وقعوداً ، وأن يكونَ ذلك هو شغله الشاغل ، وهمّه الكبير ، وأن

---

(١) انظر كتاب العلامة الندوي «الصراع بين الإيمان والمادية» (ص ٨٩ ـ ٩٠).

(٢) اقرأ على سبيل المثال الآيات الأخيرة من سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [٢٢ ـ ٢٤].

(٣) كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله في قصة يحيى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: ١٣] وما ورد في قصة إبراهيم ، وأمره بذبح إسماعيل ، وما ورد من الآيات التي يصعب إحصاؤها في الحث على ذكر الله ، وذمّ المقصرين فيه كقوله: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] ، وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

يظلّ خائفاً منه ، فزعاً من بطشه وقهره ، وجلاً من غضبه وسطوته ، ملتجئاً إليه في كل حال ، ماداً إليه يد السؤال ، مُتضرِّعاً إليه بإلحاح وإقبال ، متطلعاً إلى جماله الذي هو مصدر الحسن والإحسان ، ومنتهى الفضل والكمال ، تملكه عاطفةُ البذل في سبيله بكل ما عنده ، من نفس ونفيس ، وغال ورخيص[١] .

٦ ـ مما تجب الإشارةُ إليه والتنويه به ـ ونحن في حديث عن طبيعة هذا الدين ، وسماته البارزة ـ أن شأن الأنبياء والرسل ـ وفي مقدمتهم ، وعلى رأسهم أفضل الرسل وخاتم الأنبياء محمد ﷺ ـ مع الأمم التي يبعثون إليها ، ومع الخليقة ، ليس شأن البُرُد[٢] ، وحملة الرسائل ، وبالتعبير العصري «سعاة البريد» الذين يبلغون الرسائل أو الرسالات ، ثم لا شأن لمن تبلغهم هذه الرسائل أو الرسالات ، بالذين كانوا واسطة أو أداة في بلوغ هذه الرسائل أو الرسالات إليهم ، وهم أحرار يفعلون ما يشاؤون ، وصلة الأمم المبعوثة إليهم مع من بعثوا ، صلة مؤقتة قانونية آلية ، لا شأن لها بسيرتهم وبأذواقهم واتجاهاتهم وحياتهم الفردية والمنزلية ، وهذا تصوُّر خاطىء وناقص قد راج في بعض الأوساط التي جهلت مقام النبوة والأنبياء ، وفي عصرنا في بعض الأوساط التي ظهرت فيها فكرة إنكار الحديث وحجيته ، أو سيطر عليها التفكير الغربي ، تقليداً للتصور المسيحي الديني .

وبالعكس من ذلك ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم القدوةُ للإنسانية ، والمثل الكامل في الأخلاق والأذواق ، والأخذ والرد ، والحب والرضا ، ومحطّ العناية والرضا من الله تعالى أحاطت العناية الإلهية ، والقبول الرحماني بنفوسهم ، والحياة التي كانوا يعيشونها ، وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسننهم وطرق معيشتهم ، واختار الله طريق حياتهم من

---

(١) مقتبس من كتاب المحاضر (العلامة الندوي) : «التفسير السياسي للإسلام» (ص ٧٨ ـ ٧٩) ، طبع دار القلم الكويت ، الطبعة الثالثة .

(٢) جمع بريد .

بين طرق الحياة وأخلاقهم من بين أخلاق الناس ، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التي تعوَّدها الناس ، حتى إذا سلكوا شعباً وواديا ً، وسلك الناسُ شعباً وادياً ، كان شعبهم وواديهم أحبّ إلى الله من شعب الناس وواديهم ، ونفذت فيهم وفي كل ما اختاروه ، وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصاً محبة الله ورضاه ، حتى تقليدهم واتباعهم واتخاذ شاراتهم وشعائرهم والتخلق بأخلاقهم والتشبه بهم ، أقرب الأسباب ، وأقرب الطرق ، وأيسرها لجلب محبة الله ، وصار من اتبعهم ، وتشبه بهم ، من المحبوبين ، لأن المشبه بالحبيب حبيب ، وبالبغيض بغيض ، وأصبح ذلك أصلاً من الأصول ، والقانون الذي لا يتبدل ، ولا يتغير على مر الزمان ، واختلاف المكان ، وأصبحت الدعوة إليه عامة وعلانية ، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين ﷺ:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١].

وبالعكس من ذلك كان الميلُ إلى الظالمين والكفار ، وإيثار طريقتهم ، والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله والبعد عنه ، فقال : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود : ١١٣].

وهذا سرُّ ما تسميه الشريعة بخصال الفطرة ، وسُنن الهدى ، وتشيد بها وتحثّ على الأخذ بها ، ومجموع هذه الأخلاق والعادات يحدثُ انصباغاً بصبغتهم ، وهي الصبغةُ التي يقول الله عنها : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨].

وهذا سرُّ تفضيل الله عادة على عادة ، وخلقاً على خلق ، ووضعاً على وضع ، وهيئة على هيئة ، وهذا سرُّ ما تتخذه الشريعة الإسلامية شعاراً لأهل الإيمان ولأهل الطاعة ، وسُنَّة موافقة للفطرة ، وضده علامة للانحراف ، وشعاراً لأهل الجهل والسفاهة ، ولأهل الجاهلية والكفر ، ولا فرق بينهما ، إلا أن الأول كان شعاراً للأنبياء ومن عادتهم واختيارهم ، وفيه

تشبه بهم، والثاني شعار لأهل الكفر، وعادة من عادات الجاهلية، ومن أوضاع الشيطان وأتباعه، وتشبه بهم.

ويندرج تحت هذا الأصل كثيرٌ من آداب الأكل والشرب واللباس والزينة، والنوم والعشرة، والاختلاط، وهو باب واسع من أبواب السنة وفقه الدين.

أما فيما يتصل بالنبي ﷺ، فالحاجةُ إلى العناية بهذه الناحية أشد وأقوى، فلا بُدَّ من تقوية الصلة الروحية والعاطفية بالنبي ﷺ، والحب العميق له؛ الذي يؤثره على النفس، والأهل والولد، كما جاء في الحديث الصحيح[1]، والإيمان به كـ «خاتم الرسل، وإمام الكل، ومنير السبل» والحذر من كلِّ العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحب، وإضعافه على الأقل، وتحدث جفافاً في الشعور، وضعفاً في العمل بالسنة، وتجرؤاً في القول، وانصرافاً عن الافتخار به، والولوع بدراسة سيرته وحديثه، وكلّ ما يحرك هذا الحب ويغذيه[2]، ويدلُّ التأمل في سورة الأحزاب، وسورة الحجرات، وسورة الفتح، وغيرها، على أنَّ المطلوب من المسلم في حق الرسول ﷺ أكثر مما يجوز أن يُسمَّى بالصلة القانونية، وهي الطاعةُ الحرفية فقط، بل المطلوبُ الأدب النابع من القلب، والحب المتغلغل في الأحشاء، وما يعبر عنه القرآن بالتعزير والتوقير ﴿وَتُعَـزِّرُوهُ وَتُوَقِّـرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، وهو الذي مثله الصحابة رضي الله عنهم في حياتهم وسيرتهم.

وقد تجلَّى ذلك في قصة خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة في وقعة رجيع، وقد قال أبو سفيان بن حرب لزيد بن الدثنة حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في

---

(١) جاء في الحديث الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (متفق عليه) وفي حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» (رواه أحمد بن حنبل عن عبد الله بن هشام.

(٢) «القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع» ص: ٧٤ (للعلامة الندوي).

أهلك؟ قال: والله ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[(١)]، وتترّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ يقعُ النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه، حتى كثر فيه النبل[(٢)].

وتترس طلحةُ بن عبيد الله على رسول الله ﷺ في غزوة أحد بيده يقي بها النبي ﷺ، فأصيبت أنامله، وشلّت يده[(٣)] وقد أصيب في غزوة أحد زوج امرأة من بني دينار وأخوها، وأبوها، فلما نعوا لها، قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، وهو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، قال سعدُ بن أبي وقاص: فأشير لها إليه، فلما رأته قالت: كلُّ مصيبة بعدك جلل[(٤)].

ولما رأى عروة بن مسعود الثقفي رسول قريش شأن الصحابة مع رسول الله ﷺ، وتسابقهم في حبه وطاعته، وكان إذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، قال لأصحابه حين رجع: «أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك على كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، فوصف لهم ما رآه»[(٥)] وكتب الحديث والسيرة مشحونة بمثل هذه الأمثلة والنماذج.

وامتاز بهذا الحب وكان له فيه النصيب الأوفر، كل من تشبع بروح هذا الدين، وأراد الله أن ينفعَ به الإسلام والمسلمين، من العلماء الراسخين، والمصلحين والمجدِّدين، والقادة المصلحين، وهذا الحب ـ الخاضع لأحكام الشريعة وآدابها، والمتأسّي بأسوة الصحابة ـ يعينُ على الاتباع

(١) سيرة ابن هشام (ق/ ٢، ص: ١٧٢).
(٢) أيضاً ص: ٨٢، ورواه البخاري في غزوة أحد، في باب قوله تعالى: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني (ج/ ٢ ص: ٢٢٩).
(٤) أي: صغيرة، سيرة ابن هشام (ق/ ٢ ص: ٩٩).
(٥) زاد المعاد (ج/ ١ ص ٣٨٢).

الكامل ، والاستقامة على الشريعة ، ومحاسبة النفس الدقيقة الأمينة ، والطاعة في المنشط والمكره ، ويزيل الأمراض النفسية ، ويزكي النفس ، ويهذب الأخلاق ، فإن موجةَ الحب تجرفُ بالحشيش ، وتسري في النفس سريان النار في الهشيم ، وقد أصبح المسلمون بعد ما كانوا ـ مع الحب لله ولرسوله ـ شعلة من الحياة ، وجذوة من النار ، ركاماً بشرياً ، أو فحماً حجرياً ، بعد عهده بالنار والحرارة.

٧ ـ ومن خصائص هذا الدين: كماله وخلوده ، فقد أعلن انتهاء تعليم البشر العقائد والشرائع ، وما تتوَقّف عليه سعادتهم في الدنيا ، ونجاتهم في الآخرة ، فقال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقد صرَّح القرآنُ بلسان عربي مبين؛ أن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال والوفاء بحاجات البشر ، والصلاحية للبقاء والاستمرار ، فقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وقد نزلت هذه الآية يومَ عرفة في حجة الوداع سنة عشر للهجرة ، وفهم علماء اليهود الأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم ، وتاريخ الديانات أنها كرامة خصّ بها المسلمون ، ومفخرة لهذا الدين ، لا يشاركه فيها دين آخر ، فقالوا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً»(١).

وقد كان انقطاعُ النبوة بعد رسول الله ﷺ تكريماً للإنسانية ، ورأفة بها ، وإعلاناً أن الإنسانية قد بلغت سنَّ الرشد ، ومرحلة النضج والاستواء ، وقد

---

(١) وقد قال عمر في جواب ذلك: إني لأعلمُ حيث أنزلت ، وأين أنزلت ، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت ، يوم عرفة (صحيح البخاري ، كتاب التفسير) يعني: أن ذلك لا يحتاجُ إلى عيد جديد ، فقد كان ذلك عيداً ، والإسلام ليس دين أعياد ، ومواسم للحوادث ، والوقائع الكبيرة ، يحتفل بها ، شأن الديانات الأخرى.

خرجت من إطارها الضيق الذي عاشت فيه أحقاباً ، واستعدَّت لأن تدخل في مرحلة جديدة من العلم والمدنية ، والتعارف والوحدة ، وتسخير الكون وطاقاته ، والتغلب على العوائق الطبعية ، والتقسيمات الجغرافية ، والفوارق السياسية ، وجاء دورُ الاعتماد في مجال الحياة على القوى الطبعية ووسائل العلم ـ مع الاعتماد في العقائد والشرائع على رسالة الله الأخيرة والشريعة الخالدة ـ والعقل المؤمن ، والقلب السليم ، وكان شقاء الأمم في الزمن الماضي بالتباس الأمور ، واختلاط الحق بالباطل ، وكثرة الدعوات المدعية للاتصال الخاص بالسماء ، وتلقي التعليم من فوق كذباً وزوراً ، وتوزيع الناس بين المؤمن والكافر على هذا الأساس ، وقد تكاثر هؤلآء المتنبؤن في البيئات اليهودية والمسيحية ، حتى أحدث ذلك مشكلة شغلت العقول ، واستنفذت الطاقات ، ونشرت الفوضى ، والاضطراب النفسي والعقلي[١].

وقد كان في انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ توفير للجهود البشرية ، والطاقات الإنسانية ، عن أن تمتحن وتستنفذ بعد كل فترة زمنية ، أو على مسافة مكانية في التصديق والتكذيب ، وتوجيه بالإنسان إلى أن ينظر إلى الأرض والكون ، في استخدام مواهبه وطاقاته ، لا إلى السماء بين آونة وأخرى ؛ لينزل للإنسانية وحي جديد ، وعلم مفيد مزيد ، فيتفادى بذلك من بلبلة فكرية ، وصراع مذهبي ، وتمزق اجتماعي .

وقد استطاعت هذه الأمة ـ بفضل هذه العقيدة ـ أن تقاوم المؤامرات الدقيقة ، وتحافظ على وحدتها في الدين والعقيدة ، لا يزال لها مركز روحي موحد ، ومصدر علمي ، وثقافي عالمي ، وشخصية مجمع عليها ، ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً فيجتمع لها الشمل ، وتتوحد لها الكلمة ، ويقوى عندها الشعور بالمسؤولية ، وقوة مقاومة الفَساد ، وإقامة الحق والعدل وموازين القسط ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى

---

(١) راجع دائرة المعارف في الأديان والأخلاق (Encyclopedia of Religion & Ethics) ج/ ٨ ص/ ٥٨٨ ومقال (Edwin Konx Mitchell) في هذه الموسوعة .

الخالص ، لا تنتظر لذلك نبياً جديداً يبعث ، أو إماماً معصوماً ينهض ، فيحقق ما عجز الأنبياء عن تحقيقه ، ويكمل ما تركوه ناقصاً[١] ، ولا تعتمد في الانتفاضة الإسلامية ، وفي النشأة الدينية الجديدة؛ على شيء غامض يجل عن العقول والظواهر ، ويدق فهمه ، ويستغله المغرضون والطامحون من أصحاب النيات السيئة ، والأغراض السياسية ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون»[٢].

٨ ـ ومن خصائص هذا الدين: بقاؤه على أصالته وحيويته ، محفوظاً كتابه مفهوماً ، مصونة أمته من الضلال العام ، والجهالة المطبقة ، والانحراف الاجتماعي ، الذي ابتليت به الأمة المسيحية في عهدها الباكر ، فسمَّاهم القرآنُ الكتاب السماوي المعجز بـ «الضالين»[٣] ، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. والوعد بالحفظ في موضع الامتنان ، يستوجبُ الفهم والشرح ، والعمل والتطبيق ، فلا خيرَ في كتابٍ يبقى مطوياً على غرَّته ، وتنقطع الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة ، وتمضي على ذلك قرون وأجيال ، لا تتبين الأمة فيها حقيقة الكلمات التي يدورُ عليها هذا الكتاب ، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته ، وقد

---

(١) كما يعتقد كثير من الإمامية.

(٢) ملخصاً من كتاب العلامة الندوي «النبي الخاتم» طبع دار ابن كثير بدمشق.

(٣) لا يفهم سر هذه الكلمة ، وحكمة هذه التسمية ـ المختلفة عن اليهود الذين سماهم القرآن بـ «المغضوب عليهم» ـ إلا من كان له اطلاع دقيق على تاريخ نشوء المسيحية وتطورها في أول عهدها ، فقد انحرفت عن الجادة التي تركها عليها المسيح ـ عليه السلام ـ في أول رحلتها ، وسارت على درب مختلف عن الدرب الأول كل الاختلاف ، وتكفي لذلك شهادة واحدة ، وهي شهادة العالم المسيحي (Ernest de Bunsen) فيقول: «إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ، ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، إن مرد النزاع القائم بين المسيحيين الدم ، وبين اليهود والمسلمين ، ليس إلى المسيح ، بل إلى دهاء بولس ، ذلك المارق اليهودي والمسيحي ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتمثيل» (Islam or True Christianity P. 128).

قال لرسوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩].

ولا ثقة بدين لم يعملْ به إلا في فترات قصيرة تتخللها فجوات واسعة عميقة، كان يسودُ عليها الظلام، وتتغلب فيها الجاهليةُ بكل معانيها، فالشجرة التي تبقى أطول زمان وأفضله لا تعطي ثمارها، غير جديرة بالاعتماد وبالاعتناء، وليست الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ولم تصبْ هذه الأمة حاملة الرسالة الأخيرة التي أخرجت للناس، والتي يرتبط بها مصيرُ الإنسانية، بالعقم والجدب الفكري الدائم، ولا تعيش في عمى وضلال عن مقاصده ومتطلباته، ولا تجتمع على ضلالة، وقد جاء في حديث صحيح: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[(١)].

وكل فساد وانحراف يغزو هذه الأمة إنما هو طارىء ودخيل، ومنافٍ لطبيعتها، وهو كالغبار على جوهر أصيل، وذهب وهَّاج، لا يلبثُ أن ينتفض ويتطاير بتأثير القرآن والسنة والدعوة إلى الدين الخالص، وحركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما جاء معناه في حديث آخر: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خذلهم حتى يأتي أمر الله». والدراسة الواسعة الدقيقة لتاريخ الأمة ورجالها يشهد بذلك[(٢)].

٩ ـ وأخيراً إن الإسلامَ يحتاجُ إلى مناخ إسلامي ـ وبتعبير أدق وأكثر وضوحاً ـ إلى طقس، ودرجة حرارة، وبرودة معينة (Temperature)؛ لأنه دين حي إنساني، ليس ديناً عقلياً يعيش في المخ، أو في فلسفة، أو مكتبة، بالعكس إن الإسلام في وقت واحد، عقيدة وعمل، وسلوك وخلق، وعاطفة وشعور، وذوق يسيطر على التفكير والشعور، ويتحكم

---

(١) يقول العلامة السخاوي: «هو حديث مشهور المتن، ذو أسانيد كثيرة، وشواهده متعددة» (المقاصد الحسنة فصل اللام والألف).

(٢) راجع مقدمة كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول، بعنوان «الحاجة إلى الإصلاح والتجديد، والبعث الجديد، واتصالهما في تاريخ الإسلام».

في موازين الأشياء والقيم ، إنه يسبك الإنسان سبكاً جديداً ، ويصوغُ الحياة صياغة جديدة؛ لذلك نرى أن الله تبارك وتعالى يُسمِّي الإسلامَ بصبغة الله ، والصبغة لون شامل وسمة مميزة ، وطابع ممتاز ، وللإسلام حساسية زائدة بالنسبة إلى الديانات الأخرى ، إنه يتأثر أكثر من كل دين ، له حدود معروفة معينة ، لا يمكن أن يتخطاها المسلم ، ولا مفهوم للردة ولا شناعة لها؛ في دين آخر ، بالمعنى الواضح الذي نجده في الشريعة الإسلامية ، والتصور الإسلامي.

ووقائع حياة النبي ﷺ وأحداثها ، وتوجيهاته ، وتعاليمه ، وأسوته ، وسُنَّته ، ـ من مجال العقائد والعبادات ، إلى مجال الأخلاق والمعاملات ، إلى المشاعر والانفعالات ـ تخلق ذلك الجو الذي تخضر فيه شجرة الدين ، وتورق وتثمر ، لأن الدين لا يبقى مستجمعاً لجميع شرائط الحياة وصفاتها ـ منها النمو والتحرك ، والاهتزاز والحساسية ـ بدون العواطف والروح ، والوقائع والأمثلة العملية ، ومجموعتها الحديث النبوي الصحيح ، والسنة المحفوظة ، وبقاء صورة العهد النبوي ـ بجانب القرآن الكريم ـ مسجَّلة ، وبقاء حديث صاحب النبوة ، وصورة جو عهده محفوظة ، معجزة من معجزات الإسلام ، ومزية من مزاياه التي لا تشاركه فيها ديانة ، وذلك شيء طبيعي؛ فإن الدين الذي جاء ليبقى إلى يوم القيامة ، ويقدم للأجيال القادمة في أجواء متباينة ، وبيئات مختلفة ، نماذج عملية موحدة ، يوفر دواعي العمل ، ونوازعه القوية ، ويجسم خروج الحكم الشرعي من حيز التصور والإمكان العقلي ، إلى حيز التطبيق العملي ، ويغذي العقل القلب في وقت واحد ، لا يمكن أن يعيش بدون الجو ، وهذا الجو قد بات مصوناً محفوظاً بفضل الحديث.

وقد أكدت التجارب الطويلة المتصلة التي مرَّ بها تاريخ الأديان والأقوام ، أن مجرد الأمر القانوني والضابطة الرسمية ليس بكفيلين بأن يضفيا على عمل ونشاط ، مسحة من الروح ، والكيفيات المطلوبة ، ولا يستطيعان أن ينشئا المناخ الذي لا بد منه ، وكل القرائن تدلُّ على أن الله تعالى كان يريدُ لجمع القرآن صيانة صحيفة حامله «وبفضل ذلك بقي امتدادُ

الحياة المباركة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ على مدى الأجيال والقرون ، وظلت الأمةُ في كل دور وأدوارها تتنفس في ذلك المناخ الإسلامي الروحاني ، والعلمي والإيماني ، الذي سعد به الصحابة رضي الله عنهم مباشرة ، تعرف بذلك الفرق بين المعروف والمنكر ، والسنة والبدعة ، والأصيل والدخيل ، وتحمل «ميزان الحرارة» (Therma meter) أو مقياس الضغط الجوي (Barometer) الذي يعرف به علماء هذه الأمة مدى ابتعاد المجتمع الإسلامي المعاصر ، أو الجيل الإسلامي الجديد ، عن الحياة الإسلامية المثالية ـ عقيدة وسلوكاً ـ ويتعرفون بالموجات الأجنبية عن الإسلام وتعاليمه التي تغزو هذا المجتمع ، وتحدث فيه انعكاسات وتموجات بعيدة عن الإسلام ومثله وقيمه ، وأهدافه وغاياته ، فيقيمون عليه الحسبة الدينية ، ويكافحون هذا الانحراف عن الخط الإسلامي المستقيم ، ويعيدون الأمر إلى نصابه ، والمياه إلى مجاريها ، لذلك نرى أن جميع حركات الإصلاح والتجديد ، وصيحات العودة إلى الإسلام ، والتعليم الإسلامية ، وأسوة الرسول ﷺ ، نبعت على مسار التاريخ الإسلامي الطويل ، من دراسة كتب السنة والحديث ، وفهمها العميق ، وكان القائمون بها في مختلف الأعصار والأمصار ، عاكفين على دراسة الكتاب والسنة ، ومشتغلين بالحديث تدريساً وتأليفاً ، ودعوة ونشراً ، وكلما ضعفت الصلة بالحديث النبوي أو عم الجهل له ، خفتت أصوات الإصلاح والتجديد والإنكار على شعائر الجاهلية وتقاليدها والردّ على البدع ، وظلّ الأمر كذلك إلى يومنا هذا ، فلا يستغني عن هذا المصدر كلُّ من يريد إرجاع المسلمين إلى الدين الخالص والإسلام الكامل ، والأسوة النبوية ، وعهد السعادة والنور(١) .

(١) راجع للتفصيل الأمثلة والدلائل من التاريخ ، رسالة العلامة الندوي : «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته» (طبع المجمع الإسلامي العلمي في ندوة العلماء ـ لكهنؤ ، الهند) و«نظرات في الحديث للعلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي» تحقيق وتعليق : الأستاذ جلال عبد الحي الحسني الندوي ، طبع دار ابن كثير دمشق .

هذه طبيعة هذا الدين الخاصة به ، وسماته البارزة ، وملامحه المميزة له عن غيره ، التي تتكون منها شخصيته التي يجبُ علينا أن نتعرف بها ، ونغار عليها لنقدر هذه النعمة قدرها ، ونأمن من الالتباس ، وقياس هذا الدين على غيره من الديانات والفلسفات البشرية ، والنظم ، والمناهج الوضعية ، ونكون على بينة من الأمر ، وشعور بعظم المسؤولية ، ودقة الأمانة.

* * *

الإسـلام والـحضـارة الإنـسـانـيـة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة ـ خلال زيارته للكويت على دعوة من وزارة الأعلام فيها بمناسبة احتفالات القرن الخامس عشر الهجري ـ على مدرج كلية العلوم في جامعة الكويت بالخالدية ، مساء يوم الأربعاء (١٨/ صفر ١٤٠٤ هـ) الموافق (٢٣/ نوفمبر ١٩٨٣ م) بدعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

وقد نظمت الحفلةَ وزارةُ الأعلام في الكويت ، وحضرتها الشخصيات البارزة وكبار العلماء والمثقفين في البلد ، وأصغى إليها المستمعون بالقلوب الحاضرة والآذان الواعية .

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

سادتي وإخواني! يسعدني أن أتحدث في بلد إسلامي عربي عزيز كالكويت؛ بدعوة من اللجنة الوطنية الكويتية للاحتفال بدخول القرن الخامس عشر الهجري في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب عن «الإسلام والحضارة الإنسانية» ، وهو موضوع منير مثير ، وثيق الصلة بواقع الحياة ، وحاضر الإنسانية ، ومستقبلها ، ودور الأمة الإسلامية في بناء الحضارة وتوجيهها ، وأن يكون ذلك حين ودعنا عاماً من التقويم الإسلامي ، واستقبلنا عاماً جديداً ، ونحن على أبواب استقبال عام جديد من التقويم الميلادي .

ولكن الموضوع كان أليق بعمل مجمعي منه بمجهود فردي ، فإن الموضوع بطبيعته عالمي إنساني ، يمتد على عدة مساحات واسعة مختلفة ، فالمساحة الزمانية تمتد من القرن الإسلامي الأول (أو القرن السادس الميلادي) إلى هذا القرن الذي نلتقي فيه ، والمساحة المكانية تمتد من أقصى العالم إلى أقصى العالم ، والمساحة المعنوية تمتد من مجال العقيدة إلى مجال الأخلاق والسلوك ، ومن مجال الاجتماع والحياة المنزلية والفردية ، إلى مجال السياسة والتشريع والقانون ، وعلاقات الشعوب والأمم بعضها ببعض ، ومن مجال أنماط المدنية الراقية الرقيقة ، إلى مجال الفن المعماري والأدب والشعر ، والذوق الرفيع ، وكل مساحة من هذه المساحات مساحة واسعة ذات جوانب عديدة فسيحة ، فلا يفي بحق هذا الموضوع إلا مجمع علمي مكون من أساتذة بارعين أصحاب الاختصاص في موضوعهم؛ الذي له اتصال وثيق بهذا الموضوع ، فالموضوع ينوءُ بالعصبة أولي القوة في العلم والدراسة ، والأمينة النزيهة في الحكم على الأشياء ، الجريئة في إبداء الرأي والنتائج العلمية ، فيقوم أحدُ الأساتذة بجانب العقيدة والتفكير الديني ، ويقوم آخر بجانب الاجتماع ، والثالث بجانب التشريع والقانون ، والرابع بمبدأ الحرية والمساواة ، والخامس بحقوق

المرأة ومنزلتها في المجتمع ، وهكذا ، وهو أجدرُ بموسوعة خاصة بهذا الموضوع فضلاً عن كتاب ، فضلاً عن بحث يعد في وقت قصير ، وعلى تشتت بال ، وتزاحم أشغال ، ولكن كما قال الأولون: «ما لا يدرك كله لا يترك كله» ، ولا أبلغ من قول الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وها هو ذا جهد المقل ، وسعي المقصر ، وإلمام بهذا الموضوع الجليل؛ الذي ليس في صالح المسلمين والعرب فحسب ، بل هو في صالح المسلمين والعرب فحسب ، بل هو في صالح العهد التاريخي الذي نعيش فيه ، والمجتمع البشري ، الذي نحن من أعضائه.

أيها السادة! إنَّ من أصعب العمليات ، وأدقها هو تحليل الحضارة التي اختمرت تحليلاً كيماوياً ، وفرز العناصر التي دخلت فيها في عهود مختلفة ، وفترات تاريخية معينة ، وإرجاعها إلى أصلها ومصدرها ، وتحديد مقاديرها ومداها من التأثير والقبول. وتبيين مَنْ يرجع إليه الفضلُ في هذا العطاء الحضاري ، والتغيير الجذري ، فقد دخلتْ هذه العناصر والتأثيرات في الهيكل الحضاري والمجتمع البشري ، وتغلغلت في أحشائهما ، وجرت منهما مجرى الروح والدم ، وتفاعلت ، وتكون منهما مزاج خاص لهذه الحضارة ، شأن عوامل التكوين ، والتربية ، والبيئة ، والأغذية في حياة الفرد ، وتكوين شخصيته الخاصة ، وإلى الآن لم يخترع معمل كيماوي يباشر عمل التحليل التاريخي ، ولا مجهر «الميكروسكوب» (Microscope) يضخم هذه الأجزاء الدقيقة؛ التي لعبتْ دورها في تكوين الحضارة تكويناً خاصاً ، إذاً لا بد من دراسة عميقة واسعة لتاريخ الشعوب والأمم والبلاد والمجتمعات ، حتى نستطيعَ أن نقارنَ بين ماضيها وحاضرها ، ونهتدي إلى عمل الدعوة الإسلامية والبعثة المحمدية في تغيير العقيدة ، وإصلاحها ، والقضاء على آثار الجاهلية ، والفلسفات الوثنية ، والتقاليد الموروثة ، وتحويل التيار الفكري من جهة إلى جهة ، والتغيير الثوري في القيم والمثل ، وتناول المدنيات بالتهذيب والتحسين ، وذلك يحتاج إلى دراساتٍ مضنية ، وإجهاد نفسي وعقلي ، ولكنه عملٌ مفيد إذا لم توفق له مؤسسة علمية كيونسكو (Unesco) أو مجمع في أوربا وأمريكا

بطبيعة الحال ، فلا بد أن يخصّص له مجمع علمي في إحدى عواصم الشرق الإسلامي ، أو جامعة من الجامعات الإسلامية ، ولا شك أنه أنفع وأجدى من كثيرٍ من الأعمال العلمية التي تضطلع بها هذه المجامع والجامعات ، وتجند لها طاقاتها ووسائلها .

إن تحديد مجالات التأثير الإسلامي في الحضارة الإنسانية صعب ، وغير عملي تقريباً؛ لأن هذا التأثير قد اختلط بجهاز الحضارة ، اختلاط الدم باللحم ، وعادت هذه الشعوب والأمم لا تشعر بهذه التأثيرات ، ولا يخطر ببالها في حينٍ من الأحيان أنها عناصر دخيلة أجنبية ، فقد أصبحت جزءاً من أجزائها وتفكيرها ومدنيتها ، وحياتها ، وهنا أستعير ما سبق أن قلته في كتابي : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وأنا أتحدث عن المدنية الإسلامية ، وتأثيرها في الاتجاه البشري :

«صارت طباعُ الناس وعقولهم تتغير بالإسلام من حيث يشعرون ، ومن حيث لا يشعرون ، كما تتأثر طبيعةُ الإنسان والنبات في فصل الربيع ، وبدأت القلوبُ العاصية الجافة ترقّ وتخشع ، وبدأت مبادئُ الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس ، وتتغلغل في الأحشاء ، وبدأت قيمةُ الأشياء تتغير في عيون الناس ، والموازين القديمة تتحول وتخلفها الموازين الجديدة ، وأصبحت الجاهلية حركة رجعية ، كان من الجمود والغباوة المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً ، كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه ، والظهور بمظاهره ، وكانت الأمم ، بل كانت الأرض تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام ، ولا يشعر أهلُها بسيرهم ، كما لا يشعر أهلُ الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك في فلسفتهم وفي دينهم وفي مدنيتهم ، وتشفّ عن ذلك بواطنهم وضمائرهم ، وتنمّ عنه الحركات الإصلاحية التي ظهرت فيهم؛ حتى بعد انحطاط المسلمين»(١) .

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الطبعة السادسة والستون (ص ١٥٩) ، طبع دار ابن كثير بدمشق.

ولكن إذا كان لا بد من تحديد جوانب ومجالات في حياة الأمم والشعوب والحضارة، ظهرت فيها التأثيرات الإسلامية في أجلى أشكالها، نحددها في عشرة من المعطيات الهامة والمنح الأساسية الغالية، التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النوع البشري وإصلاحه وإرشاده، ونهضته وازدهاره، والتي خلقتْ عالماً مشرقاً جديداً، لا يشبه العالم الشاحب القديم في شيء، وهي كما يلي:

١ ـ عقيدة التوحيد النقية الواضحة.

٢ ـ مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية.

٣ ـ إعلان كرامة الإنسان وسموه، وردّ الاعتبار إلى المرأة، ومنحها حقوقها وحظوظها.

٤ ـ محاربة اليأس والتشاؤم، وإزالة إساءة الظن بالفطرة البشرية، واعتبار الإنسان مذنباً بالولادة يحتاج إلى «فداء» خارجي، (كما فعلت المسيحية)، وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان.

٥ ـ الجمع بين الدين والدنيا، وتوحيد الصفوف المتنافرة، والمعسكرات المتحاربة.

٦ ـ تعيين الأهداف، وميادين العمل، والكفاح للسعادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

٧ ـ إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم، وربط مصير أحدهما بالآخر، وتفخيم شأن العلم والحث عليه، وإيجاد حركة علمية وتأليفية لا يوجد مثيلها في تاريخ الأمم والملل والمدنيات؛ التي قامت على أساس الدين، والرسالات السماوية.

٨ ـ استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية، والحث على النظر في الأنفس والآفاق، والتفكير في خلق السموات والأرض، والاهتداء به إلى الحقيقة الكبرى، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

٩ ـ العثور على الوحدة في الوحدات الكونية المبعثرة والوحدات العلمية المنتشرة ، والتي تبدو أحياناً متناقضة متناحرة ، وهي وحدة الإرادة الإلهية في الوحدات الكونية ، ووحدات المعرفة الإلهية والدلالة على فاطر الكون في الوحدات العلمية ، وهو الاكتشاف الهائل؛ الذي غيَّر مصير الإنسانية ، ومجرى فكر البشرية.

١٠ ـ حمل الأمة الإسلامية على قبول مسؤولية الوصاية على العالم ، والحسبة على الأخلاق ، والاتجاهات ، وسلوك الأفراد والأمم ، وتحمل مسؤولية القيام بالقسط ، والشهادة لله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعتبار نفسها أمة قرنت بعثة نبيها ببعثتها؛ لقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقول نبيها: «إنما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

وتدخل تحت كل عنوان قصة طويلة ، واستعراض تفصيلي للحضارات والعصور الجاهلية التي سبقت البعثة المحمدية ، والإنسان الذي ولد بعد البعثة ، استعراضاً دقيقاً أميناً ، وكل عنوان من هذه العناوين موضوع كتاب مستقبل ، قد يمتد على مئات من الصفحات ، ونكتفي هنا ببعض شهادات المنصفين من علماء الشرق والغرب:

يقول (Robert Briffault) في كتابه:(The Making of Humanity)

«ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير ، وآثار حاسمة لها تأثير كبير».

ويقول: «لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هي التي أعادت أوربا إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربا تأثيرات كثيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا».

ويقول جوليفه كستلو في كتابه «قانون التاريخ»:

La Lo Hde L. Histoire: (Jotivet Castelot)

«كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول عظيماً، جرى على أسرع ما يكون، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام ، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة ، قامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ، ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم ، وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون؛ على مشعل النور العقلي ، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساسٌ بالفلسفة ، والفلك ، والكيمياء ، والطب ، والعلوم الروحية ، فأصبحوا سادة الفكر ، مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف ، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة للغاية ، وكانت المدنية العربية قصيرة العمر؛ إلا أنها باهرة الأثر ، وليس لنا إلا إبداء الأسف على اضمحلالها» .

ويتقدم ويقول :

«ولئن كان سادة البلاد أصحاب أثرة ، فإن العمل الذي تم حولهم كان أسمى منهم ، ومنه نشأت مدنية مدهشة ، وإن أوربا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء ، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت إليها سرياناً بطيئاً ناقصاً في القرون الوسطى ، وإن أوربا لتتجلى لنا منحطة جاهلة أمام المدنية العربية ، وأمام العلم العربي والآداب والفنون العربية ، أوربا تدين بالهواء النافع الذي تمتعت به تلك العصور للأفكار العربية ، وقد انقضت أربعة قرون ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية ، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق»[١] .

ويقول لبون (Gustave Lebon) :

«ينسب الناس إلى باكون (Francis Bacon) قاعدة التجربة والملاحظة ، المنطق الاستقرائي (Inductive Logic) وهما الأصل في أساس البحث

---

(١) «الإسلام والحضارة العربية» للأستاذ محمد كردعلي (ج ٣ ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤).

العلمي الحديث ، بيد أن الواجب أن يعترف اليوم أن هذه الطريقة كلها هي من مبتدعات العرب.

واسمحوا لي أيها السادة! أن أنقل هنا بعض شهادات ذات قيمة لما كان للدعوة الإسلامية والفتح الإسلامي من تأثير ثوري في القارة الهندية؛ التي كانت مهد الحضارة والفلسفة والعلوم الرياضية في عهدٍ من العهود ، ثم أمعنت في الوثنية والميثالوجية الهندية والنظام الطبقي الجائر والتزمت ، فكان تأثيرُ الإسلام في هذا الجزء من العالم الشديد التمسك بما عنده من عقائد ونظم وتقاليد؛ دليلاً على قوة تأثير الإسلام ، والحيوية الكامنة في ضميره.

يقول الباحث الهندي المعروف (K. M. Panikkar) وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي ، ودياناته:

«من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام في الديانة الهندوكية كان عميقاً في هذا العهد (الإسلامي) . إن فكرة عبادة الله في الهنادك ، مدينة للإسلام . إن قادة الفكرة والدين في هذا العصر ، وإن سمّوا آلهتهم بأسماء شتى ، قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأن الإله واحد ، وهو يستحقُّ العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة ، وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة (Bhagti) ، ودعوة «كبير داس»[(١)][(٢)] .

ويقول جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند سابقاً:

«إن دخول الغزاة الذين جاؤوا من شمال غرب الهند ، ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند ، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ وحب الاعتزال عن العالم؛ الذي كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ، ويعيشون فيها ،

---

(١) شاعر متصوف ، ينتقد المجتمع الهندي إلى الإصلاح ، اختلف الناس في ديانته.

(٢) íAsurvey of Indian History P. 132

أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء؛ الذين حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية»[(١)].

ويقول أين ، سي ، مهتا (N. C. mehta I.C.S.) في كتابه (Indian Civilization and Islam) (الحضارة الهندية والإسلام) :

«إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلاً من نور ، قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصرٍ مالتْ فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلي ، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية . لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة ، شأنه في الأقطار الأخرى. لقد كان من سوء الحظ أن ظلَّ تاريخ الإسلام في هذا القطر مرتبطاً بالحكومة فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب ، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار» .

وهنا نقتطف قطعة من كتابنا «السيرة النبوية» :

«الحقيقة التي لا مراء فيها أنَّ هذا الدور الذي نعيشه ، وما يليه من الأدوار التاريخية القادمة ، كلها في حساب البعثة المحمدية ، ودعوته العامة الخالدة ، وجهوده المشكورة المثمرة؛ لأنه رفع ـ أولاً ـ هذا السيف المصلت على رقاب الإنسانية؛ الذي كاد أن يقضي عليه ، ثم أغناها بمنح غالية ومعطيات خالدة ، وهدايا طريفة جديدة ، بعث فيها الحيوية والنشاط ، والهمة والطموح والعزة والكرامة ، والهدف الصحيح ، والغاية النبيلة ، واستُهِلَّ ـ بفضل هذه المنح والمعطيات ـ عهد جديد من السمو الإنساني ، والثقافة والمدنية ، والربانية والإخلاص ، وإنشاء الإنسان وتكوينه الخُلُقي والاجتماعي»[(٢)].

أيها السادة! بعد ما شرحناه من عطاء الإسلام الحضاري ، وما أتحف به الحضارة الإنسانية من منح ومواهب ، وما حققه من نجاح وانتصار في إنقاذ

---

(١) Discovery of ixidia P. 335 - 526

(٢) السيرة النبوية (ص ٤٦٧) الطبعة الثانية عشرة ، طبع دار ابن كثير بدمشق.

الحضارة البشرية من الانهيار والانتحار ، ومكّنها من التقدم والازدهار ، لا بد من تقرير حقيقة تاريخية خالدة ، وهو أنَّ عمل التأثير في الحضارة الإنسانية ، واستعراضها بين آونة وأخرى من جديد ، وتطعيمها بالقديم الصالح والجديد النافع ، والحيلولة بينها وبين عناصر التدمير والإبادة والاتجاهات المفسدة الهدامة ، يجب أن يدوم ، ويستمر ، وذلك لسببين :

السبب الأول : أن الأمم خاضعة لعوامل جديدة من الإصلاح والإفساد ، والحياة متحركة متطورة لا تعرف الوقوف والركود ، فلا بُدَّ من مراقبتها حيناً بعد حين ، وسدّ حاجاتها المتجددة ، وقد جدت دعوات وفلسفات مفسدة هدامة في العهد الأخير الذي انسحبت فيه الأمة الإسلامية مع الأسف ، من ميدان قيادة البشرية ، وانطوت على نفسها .

والسبب الثاني : أن الأمة الإسلامية هي أمة الرسالة الأخيرة ، وأمة الخلود ، وأمل البشرية ، فلا بُدَّ أن تظل حاملة لرسالتها ، قائمة بدورها في قيادة الركب البشري ، والوصاية على العالم ، والحسبة على العقائد والأخلاق ، وعلاقة الإنسان بالإنسان ، والأمة بالأمة ، والأمم لا تعيش بالتاريخ ، ولا بما مثلته من دور في الزمن الماضي ، وما حققته من نجاح وانتصار في عهد سابق ، إنما تعيش الأممُ بالجهاد المتواصل ، والنشاط الدائم ، والشعور بالمسؤولية المستمر ، والمخاطرة بالنفس والنفيس في كل زمان ، والجدة والابتكار ، وإنتاج المفيد الجديد ، والصالح المزيد ، فإذا انطوت على نفسها ، وتنازلت عن منصبها ، طويت من سجل التاريخ ، وتناساها الزمان ، فيجب أن تنهض الأمة الإسلامية من جديد بمسؤوليتها الدعوية الحضارية ، التوجيهية القيادية ، مرة ثانية .

وحقيقة علمية تاريخية أخرى ، وهي أن الأمة الإسلامية لا تستطيعُ أن تقومُ بدور التأثير في الحضارة الإنسانية وتوجيهها ، إذا كانت متطفلة على مائدة الحضارات الأجنبية ، تغرف من بحرها ، وتغوص في موجتها إلى الآذان ، إنها لا تستطيعُ أن تسترعي انتباهاً فضلاً عن أن تحمل الشعوب

الأخرى على تقليدها ، إلا إذا كانت مؤمنة عميقة الإيمان بأن حضارتها مستقلة ، ذات شخصية خاصة ، ربانية سماوية ، صالحة لكل زمان ومكان ، قائمة على أسس متينة مستفادة من الكتاب والسنة ، منبثقة من الهدايات الربانية والتعاليم النبوية ، للطهارة والعفة فيها تصور خاص ، فليست الطهارة فيها مرادفة لكلمة «النظافة» وليست العفة فيها يكفي فيها الابتعاد عن الجنايات الخُلُقية فحسب ، بل هي أوسع معنى ، وأكثر شمولاً واحتواء ، وإن حياتها لا تنسجم مع الحضارة الغربية التي نشأت ، واختمرت تحت ضعط عوامل تاريخية خاصة ، وفي بيئة كانت تتحكم فيها المادية ، ويسود عليها ـ في فترات كثيرة وطويلة ـ العداء للدين ، والثورة على الأخلاق والقيم ، وكما يقول أحد خبراء هذه الحضارة وتاريخها (الدكتور العلامة محمد إقبال) بإيجاز: «إن روح هذه المدنية (الغربية) ما عادت عفيفة طاهرة»[١].

وأعتقد أنه من الميسور جداً الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات والمخترعات ، وما وصل إليه العلم الحديث ، وبين ما تمتاز به الحضارةُ الإسلامية من جمال ، وبساطة ، وجدية ، وعناية بالطهارة والنظافة ، والابتعاد عن الإسراف والتبذير ، والإغراق في المظاهر الخارجية ، إذا وفقت الحكومات والمجتمعات الإسلامية للتخطيط المدني المستقل ، البعيد عن التقليد الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، وإذا توفر عندها الذكاء ، والأصالة ، والإيمان ، بفضل التعاليم الإسلامية والحضارة الإسلامية ، التي تنبثق عنها ، وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها.

وفي الأخير ، حيث أنا واقف في بلد إسلامي عربي ، أخاطب سادتي وإخواني العرب ، أختم هذا الحديث بقطعة من قصيدة خاطب بها شاعر

---

(١) ليراجع للتفصيل فصل: «أهمية الحضارة الإسلامية والحاجة إليها» في محاضرة: «الإسلام والحضارة الإنسانية» الموجودة في هذا الجزء ، وفي كتاب العلامة الندوي «العقيدة والعبادة والسلوك» (ص ١٩٨ ـ ١٩٩).

الإسلام الدكتور محمد إقبال الأمة العربية ، لتعرف مكانتها في العالم ، ودورها من بين أدوار الشعوب والأمم[١].

«إن نفس ذلك الأمي[٢] الريان ، نقل صحراء العرب القاحلة إلى روح وريحان . إن الحرية نشأت في أحضانه ، وإن حاضر الشعوب ليس إلا وليد أمسه . إنَّ الجسدَ البشري كان بلا قلب وروح ، فأعطاه القلب والروح ، وكشف اللثام عن جمال وجهه . إنه حطم كلَّ صنم قديم ، وأفاض الحياة على كل غصن ذاوٍ من أغصان العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالاً وقادة مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارة يدوّي الأذان في ساحة الحرب ، وتارة تتحلى الآذان بقراءة «الصافات»[٣] بين صليل السيوف وصهيل الخيول ، إنَّ سيفَ البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي ، مفتاحان لكنوز الدنيا والآخرة» .

* * *

(١) اقرأ القصيدة بكاملها في كتاب العلامة الندوي : «روائع إقبال (١١٢ ـ ١١٣)» .

(٢) يعني بذلك النبي الأمي محمداً رسول الله ﷺ .

(٣) يشير إلى سورة «الصافات» في القرآن الكريم بعد الحمد والصلاة .

دوْرُ الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء ، وتكوين الدعاة ، وحماية الأقطار الإسلامية من التناقص والمجابهة

أعَدّ العلامة الندوي هذا البحث لمؤتمر تكوين الدعاة؛ الّذي عقدته رابطة الجامعات الإسلامية في القاهرة في ضيافة جامعة الأزهر ، والتعاون مع وزارة الأوقاف المصرية في الفترة من (٢٠ ـ ٢٢) شعبان (١٤٠٧ هـ) الموافق (١٨ ـ ٢٠) أبريل (١٩٨٧ م).

ولم يقدر للعلامة الشيخ الندوي أن يحضر المؤتمر ، ويشارك فيه عملياً وجسدياً؛ لعوائق حالت دون ذلك ، وقد أرسل البحث إلى المسؤولين عن المؤتمر قبل انعقاده بمدة كافية.

يقدّم هذا البحث القيم إلى المسؤولين عن الجامعات الإسلامية ، والمؤسسات التعليمية ، والتربوية ، وقادة الفكر ، وموجهي الشعوب والبلاد الإسلامية؛ لما فيه من توجيهات وتجارب وحقائق ليست مقيدة بزمان ومكان ، ولما فيه من تعويض وتلاف عن غيبة صاحب المقال؛ لأسباب قاسرة عن هذا المؤتمر الهادف ، وبالله التوفيق.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

سادتي الأجلاء ، وزملائي العاملين في مجال التعليم والتربية ، وإخواني المعنيين بحاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها ، ورسالتها وشخصيتها.

أنتهز هذه الفرصة الكريمة التي لا تسنح إلاَّ بعد آجال طويلة ، للتحدث في موضوع أعتقد أنه بالنسبة إلى الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي ، قضية حاسمة شديد الحساسية والخطورة ، وأؤمن بإخلاص وفي حماس أنه إذا لم يكن لهذا الالتقاء العلمي التعليمي الإسلامي العالمي الكريم قيمة ونتيجة فيه ، كان التقاءً مباركاً حاسماً يملي تاريخاً جديداً ، ويفتتح عهداً سعيداً للأمة الإسلامية بإذن الله تعالى.

ويزيد هذا اللقاء قيمة ومكانة وجود عدد كبير ، أو أكبر عدد ميسَّر ـ إذا لم أكن مبالغاً أو متفائلاً أكثر ـ من أصحاب الاختصاص في التعليم الإسلامي ، والأساتذة الكبار ، والمشرفين على الجامعات الإسلامية وقادتها وموجهيها ، ويحق لي لذلك أن أخاطب نفسي بما قاله الشاعر العربي القديم ، وأنشد:

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي   فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

*** الغاية الأولى والأساسية من التعليم:**

أيها السادة! وفقني الله أن أقرأ كثيراً مما يتصل بالتعليم والتربية وغايتهما المنشودة ، والفائدة التي يجب أن تُجنى منها ، لكني أكتفي بهذه المناسبة بتقديم شهادة واحدة فيما يتعلق بتعريف العلم ، وتحديد غرضه لخبير تعليمي بريطاني معروف (Sir Prrcy Neinn) من مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية:

«لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً: أن التربية هي الجهد الذي يقومُ به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها ، إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوىٰ الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب ، وتمدّ يدها إلى الأمام»[١].

إن هذا التعريف بالتعليم والتربية هو أروع ، وأجمع ، وأكثر تواطؤاً مع العمل والتطبيق؛ من بين جميع المحاولات التي بُذلت في سبيل التعريف بالتعليم والثقافة.

ما هي غاية التربية؟ وماذا يُراد من ورائها؟ لماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم؟ ولماذا تنفق قوى الأمة بسخاء وعلى طريقة منظمة؟ ألكي يوجد التعليم فجوة بين الأمة وبين ما تعتز به وتتبناه من معتقدات وأغراض ، وتراث حضاري وعلمي وتصورات ، سواء كان كل ذلك مما ينبغي الاعتزاز به أم لا؟ لكن الشيء الذي تحبه ، والمعتقدات التي تعتز بها ، والتصورات والقيم والمثل والعقائد والأفكار التي تتغنى بها ، والتراث الذي توارثته من آبائها وأسلافها ، من وظيفة التعليم الأولى أن يربط بين الأمة وبين هذه الأشياء ، وينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة والنشء الجديد ، ذلك التراث الذي أفرغ عليه سلفها خير قواهم ومواهبهم ، وبذلوا مدة طويلة من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمةُ في سبيله ، وحاربت ، وجاهدت ، وضحّت بعزها وشرفها ومجدها التليد.

ومن الفضول أن نتعرض بهذه المناسبة لما إذا كانت القيم التي حاربت الأمة من أجلها قيماً صالحة أم لا؟ لكن مسؤولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة ، ولا يقتصر على النقل والتصدير فحسب ، بل يعمِّقه في القلوب والأذهان ، ويجعل القلوب والعقول تسيغه ، وتتذوقه ،

(١) دائرة المعارف البريطانية ، بند «التعليم» (Education) The Encyclopedia Britannica.

ولا يعود نابياً لديها أو أجنبيّاً عندها ، بل يعودُ مألوفاً لها ومحبوباً عندها ، ويصير طبيعة لها .

*** أمة محمد ﷺ أمة ممتازة في خصائصها ، ومزاياها ، وصياغتها ، وعناصر تركيبها :**

أرى أن هذا التعريف بالتربية بقلم خبير بريطاني تعريف جامع جداً ، لكن إذا كان الأمر أمر أمة عقائدها وقيمها ليست من عند نفسها ، بل هي نابعة من الوحي الإلهي ، والكلام الإلهي ، والنبوة والرسالة ، والعلم اليقيني الغيبي الأزلي؛ الذي لا يحول ولا يزول ، ولا يتغير قليلاً أو كثيراً ، فهنالك تتضاعف المسؤولية وتتضخم .

فإذا كان هناك تعليم يزعزع عقائد تلاميذه ـ من شعور أو من غير شعور ، عن قصد أو عن غير قصد ، عن خطأ أو عن خطة مدبرة ـ ويزعزع جذور قيمهم في قلوبهم ، ويفكك عُراها ، ويمزقها ، ويثير في قلوبهم شكوكاً وشبهات لا تزول ، وصراعاً نفسياً ، ويتجاوز هذا الصراع الأفراد إلى الحياة الاجتماعية للأمة ، ويتحول الصراع إلى حرب دامية شعواء بين تلك القيم والمفاهيم والتصورات والمعتقدات ، والأفكار والعقائد ، وبين ذلك الجيل المثقف بذلك التعليم ، وتلك الثقافة ، فالأمر أدهى وأمر .

أيها السادة! إني لا أؤمن بالإسلام كتراث (Legacy) ولا أرى ذلك تعريفاً لائقاً بالإسلام ، ولذلك فإني لست مُعْجَباً بالكتب التي وُضعت بعنوان : (Segacy of Islam) و(Heritage pf Islam) إني أرى الإسلام رسالة للحياة ، ولا أراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب ، بل أراه قائداً للزمان ، وموجهاً له ، لا أراه مرافقاً للزمان في رحلة الحياة ، بل أراه مرافقاً للزمان ، ومراقباً له ، فإذا كان هنالك مثقف بالتعليم العالي يقعُ فريسة الشك والارتياب في جميع قيمه وتصوراته ومعتقداته ، أو يعود يراها دُمى يسلي بها الصبيان والأطفال ، أو أسطورة يتعلل بها السذج والجهال ، أو يصبح لا يتحمس لها ، ولا يقاتل في سبيلها ، ولا يدافع عنها ، ولا يغامر من أجلها إذا مسّت الحاجة إلى ذلك ، إذا كان ذلك؛ فإن هذا التعليم عدو

لدود لمن يحصله ، يجب أن يفرَّ منه فرار الإنسان من الليث ، بل أكثر من ذلك .

*** قضيــة الــبـلاد الإســلاميــة أهــم وأكبـر خـطـراً:**

أيها السادة! وحين أتحدثُ إليكم في هذا الحفل الكريم ، وفي رحاب جامع الأزهر الشريف ، فإني أخاطبُ العالم الإسلامي كله ، إن الأمر يصبحُ ذا خطورة وحساسية وتعقيد إذا كان يتعلق ببلد إسلامي ، تعيش فيه أمة ذات شخصية ، وذات خصائص ومميزات ، ذات دعوة ورسالة ، ومكلفة بقيام دور فريد في العالم البشري ، تنبع معتقداتها ، وقيمها ، ومثلها ، وتصوراتها ، وأفكارها ، ووجهات نظرها من الوحي الإلهي ، فإذا كان التعليمُ يحدث صراعاً في مثل هذا الجيل ، ويجعله يخلع معتقداته وتصوراته العريقة بعد ما يتخرج في جامعة عصرية ، ويصبح وكأنه أمة جديدة ، أو أمة أجنبية ، تبدو نابية قلقة بين الشعب المسلم ، ويحصل من ذلك كله تعقيد جديد ، وتحدث مشكلة جديدة ، ويحدث صراع مرير ـ وقد يكون صراعاً دموياً ـ بين هذا الجيل المثقف وبين عائلته الإسلامية وآبائه وأمهاته ، وبين المجتمع الذي هو عضو فيه ، وبين تاريخه وتراثه ، وقيمه ومآثر أسلافه ، وبين منصبه ومكانته التي حباها الله إياه ، وبين رسالة الإسلام والعمل الإسلامي ، وآمال الأمة الإسلامية وأحلامها ، إن كان كل ذلك فإني لا أرى في هذا التعليم خيراً ، ولا أراه خدمةً للإنسانية ، بل إنه خيانة للأمة ، وجناية على الإنسانية .

المسـؤوليـة الأوليـة للجـامعـات فـي بـلـد إسـلامـي :

ومعذرة إليكم فإني لا أشيرُ إلى جامعة بعينها ، ولا إلى المسؤولين عن جامعة محدودة ، وإنما أتعرَّض لأمر مبدئي ، وأريدُ أن أقرر أن المسؤولية الأولى ، والأهم ، والأقدم لجامعة تقوم في بلد إسلامي ، هي أن تؤكد إيمان الأمة بالعقائد والأفكار التي تؤمن بها ، والحضارة التي تحتضنها ، والدعوة والرسالة التي تتبناها ، والخصائص والمزايا التي تحملها ، حتى لا يعود هذا الإيمان إيمان رجل عادي ، أو إيمان رجل الشارع ، بل يكون

إيمانَ عالم ، إيمان مثقف ، إيمان دارس ، ويطمئن عقله كما يطمئن قلبه ، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال : «قلبه مؤمن وعقله كافر» ، مشيراً إلى فيلسوف غربي .

وإذا كان الصراعُ لا يجوزُ بين الفرد والجماعة ، فإنه كذلك لا يجوزُ بين القلب والعقل في حياة المرء الانفرادية ، فإذا كانت هناك جامعة تُسبِّب هذا الصراع ، أو يسببه منهاجها التعليمي ومنهجها العلمي ، ونظامها الإداري ، وبيئتها العلمية ، فذلك شؤم بعده للبلد الذي تقوم فيه الجامعة .

لا بد من اطمئنان القلب والعقل معاً :

إنَّ الغاية الأساسية للجامعات الإسلامية ، أن تُوجدَ الإيمان بتلك الأشياء التي أشرت إليها ، الإيمان الذي يأتي عن طريق العلم والثقافة والدراسة ، وعن الشعور والتفكير ، وعن طريق اقتناع العقل ، وعن الدراسة المقارنة .

وإذا كان هناك رجلٌ إنما يؤمن قلبه ، ولا يطمئن عقله ، وهو يعلِّل عقله ويسليه ، ويحاول ألاَّ يستيقظ عقله ، شأن الأمم غير المسلمة العديدة التي ترى بقاء دياناتها ورقيها في عدم يقظة الشعور ، وتحاول أن يظلَّ أتباعها سادرين في سبات الغفلة ، مسدوداً عليهم منفذ النور والهواء .

ومن هنا وقع بين «الكنيسة» و«العلم» ذلك الصراع الدموي الذي تقرؤون قصته المؤلمة المفجعة في كتاب «الصراع بين الدين والعلم» (Conflict Between) Religion & Science للعالم الأمريكي المعروف «درابر» (Johan Willian Draper) وإنما وقع هذا الصراع لأن الكنيسة كانت ترى أن الخير كلَّ الخير في تبلُّد الشعور الإنساني ، بل كانت تعمل فعلاً على تجميده وإماتته ، وكانت تؤمنُ بأن من الخير والسعادة أن يكونَ الإنسانُ محدودَ العلم ، قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلاً ، وما دام الحالُ على هذا المنوال ، كان الإيمان بالكتاب المقدس راسخاً قوياً ، وكانت المسيحيةُ عميقة الجذور ، بعيدة الغور في المجتمع ، ذلك أن العهدَ العتيقَ كان يشتملُ على كثيرٍ مما لا يؤيده العلم الحديث ، بل ينفيه ويُفنِّده ، فكانت

الكنيسةُ رأت من المصلحة ألا يتيقظ شعورُ المسيحي ، ولا يتفتح وعيه ، ولا يتسع أفقه ، ولا يتقدم العلم ، فحاولت أن تقفَ في وجه العلم؛ لأنها ظنته عدواً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً ، فأنشأت محاكم التفتيش الديني العقائدي (Courts of inquistion) وانتشرت في ربوع العالم المسيحي وعواصمه ومراكزه ، ومنحت الحرية المطلقة في محاكمة أصحاب النظريات العلمية والاكتشافات في عالم الطبيعة والفلك والعلوم الطبيعية ، وإجراء العقوبات القاسية الوحشية على معتنقيها ومعلنيها ، وقد أثبت بعضُ المؤرخين أن ضحايا هذه المحاكم يربو عَدَدُها على عدد المصابين والقتلى في الحرب الكونية الأولى[١].

وقد جرّ هذا الحجر العلمي والفكري ، وفَرضِ إطار خاص ودائرة محدودة من الدراسات وكتب المطالعة على الشباب والدارسين ضرراً كبيراً على مستقبل الدين ، وعقلية الجيل الصاعد ، وأحدث حركة رد فعل عنيفة ضد هذا الاحتكار العلمي والاستبداد الديني والنظر الضيق المتزمت.

درس من تجارب الماضي:

وقد أثبت علم التربية وعلم النفس أن الحجر على الشباب في القراءة والاطلاع، كالحجر على الأطفال القاصرين الذين لم يبلغوا سن الرشد، تجربة مخفقة وعملية مثيرة فيهم التساؤلات والشكوك، والنهامة بالممنوع المحظور ، وأن هذا الصنف من الدارسين غير جدير بالثقة في مواجهة الأفكار الغربية والتحديات العلمية والعقائدية ، إن المنهج التربوي المتزن السليم هو الاطلاع على وجهات النظر والمدارس الفكرية المختلفة مرفقاً ذلك بتوجيه الأساتذة الراسخين في العلم والدين ، مع مناقشتها وعرضها على المحك العلمي والديني وتقرير الصحيح وتزييف الزائف ، وذلك مما يتفق عليه خبراء التربية وأصحاب التجربة والاختصاص في علم النفس وعلم الاجتماع.

يقول ا. وهتني جريسولد A: Whitney Griswald في كتابه مقالات حول التعليم Essays on Education:

---

(١) John Davenport Apology for Muhammad & The Quran.

«كانت عاقبة الرقابة والتعذيب ، الفشل دائماً في التاريخ ، إن أقوى سلاح وأنفذه لمكافحة الأفكار السيئة ، هو سلاح الأفكار الطيبة ، ولا تنبع الأفكار الطيبة إلاّ من منبع الحكمة ، وليس هناك طريق أضمن لحصول الحكمة إلاّ طريق التعليم الحر الذي لا عنف فيه» .

ويقول ثيودر شرويدر Theodope Sehuoeder في كتابه «العبودية العقلية» Intellectual Slavery :

«ساعد الرقابة على الاحتفاظ بمختلف أشكال الظلم ووقايتها ، وننخدع بهذه الوسائل ونحسبها ضماناً لحريتنا وديموقراطيتنا ، لكنها تحرمنا الفراسة التي نحتاج إليها في الطريق الطبيعي للنمو الاجتماعي ، وعادة يجهل هذا الجهل الثورات أكثر دموية» .

واضطرت المسيحية أخيراً أن تضع السلاح أمام مد العلم وسيله الجارف ، وتياره العنيف ، لأنه حاجة الإنسانية ، ومقتضاها الطبيعي ، وعاطفة الإنسان الداخلية ونعمة الله الغالية ، وضرورة العالم البشري. جعله الله لكي يخضر وينمو ويورق ويثمر ، لا لكي يذوي ويذبل ويموت ، وهل تموت الحقائق؟ على كل فإن العلم كسب المعركة وذاقت الكنيسة هزيمة وعاراً وشناراً منقطع النظير أمام العلم وتطلع الإنسان إليه وطلبه الجامح له .

تلك هي الكارثة المشؤومة التي وقعت في العالم المسيحي ، ولكنها تركت آثارها على دنيا البشر كلها وعلى جميع الديانات تقريباً ، وقد جعلت الناس يفهمون أنه لا يمكن أن يتقدم العلم والعقل معاً وأن يساير الدين العلم ، ولا بد هنا بصفتي دارساً للتاريخ أن أعترف ـ مع الأسف ـ أن هذا التصور الخاطىء قد نال بعض نصيبه من المفعول في بعض الدول الإسلامية ولو لبعض الحين ، لكنه ما لبث أن لقي حتفه ، لأنه يتنافى مع روح الإسلام وطبيعته ، ولم يدم هذا الصراع المصطنع في العالم الإسلامي ، وإنما كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحية ، ولكنه غاب وانقشع كسحابة صيف ، أو بسرعة أكثر منها .

مصير العلم مرتبط بالقلم:

أرى أن من واجبات الجامعات الإسلامية أن تحاول ألا تقع فجوة بين العلم والدين كما وقعت بينهما في العالم المسيحي ، أو في دنيا الديانات التي لم تكن فيها رابطة بين العلم والعقل ، بل إن نشوءها كان مديناً للجهل ، فقد تولدت وازدهرت بمعزل عن العلم والعقل بل على غفلة من العلم والعقل ، ففيها مجال لنشوء الفجوة بين العلم والدين وبين العلم والعقل ، ولكن لا يتصور ذلك في الدين الذي أعلن دعوته منذ اليوم الأول بل منذ اللحظة الأولى بما يلي:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

الدين الذي لم ينس هذا القلم المتواضع حتى في الحلقة الأولى من وحيه ، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الأولى من النفحات الربانية ، لم ينس أن يؤكد أن مصير العلم مرتبط بالقلم ، لم ينسه في خلوة غار حراء التي ارتادها نبي أمي يتلقى الرسالة الإلهية لهداية البشرية ، ذلك النبي الذي لا عهد له بالقلم ولم يعرف من ذي قبل كيف يحرك القلم ، ولم يتعلم فن الكتابة والقراءة بتاتاً ، شيء لن يجد الإنسان نظيره في تاريخ العالم البشري ، ولا يمكنه أن يتصور هذا المكان العالي ، لا يمكنه أن يتصور أن ينزل وحي على نبي أمي بين أمة أمية في منطقة لم تعرف القراءة والكتابة معرفة تذكر ، فضلاً عن المدارس والمعاهد ودور التعليم والجامعات ، في الوقت الذي لأول مرة تم فيه اتصال السماء بالأرض بعد قرون ، ولا يبتدىء هذا الوحي بكلمة «أعبد» ولا بكلمة «صل» أو ما إليها من الكلمات المتجانسة ، وإنما يبتدىء بكلمة «اقرأ» يخاطب المنزل عليه بالقراءة ولا عهد له بها ، لكي يقرر ويؤكد له أن الأمة التي يكلف بهدايتها وتربيتها وتعليمها هي أمة ليست ولوعاً بالعلم فحسب ، بل ستكون معلمة العالم مولعة بنشره وتصعيده وترقيته ، والعهد الذي تقوم فيه بوظيفة الهداية والتبليغ والتربية والتعلم ، إنه ليس عهد الأمية والوحشة والجهل ، وعهد

الظلمة والهدم والتخريب ، وإنما هو عهد العلم والعقل والتفكير ، وعهد النظر والحكمة ، وعهد البناء والتعمير ، وعهد حب الإنسانية ، وعهد الرقي والتقدم.

كانت التجربة الفريدة الطريفة ـ لو صح التعبير ـ في تاريخ الديانات وتاريخ العالم أن الوحي الأول الذي نزل على النبي الأمي بين الأمة الأمية كانت بدايته بكلمة «اقرأ» : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالرب ، فحاد عن الصراط المستقيم ، فجاء الوحي الإلهي الذي نزل على النبي الأمي يصله بالله ويربطه بالرب تبارك وتعالى ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الرب ، لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم والتعليم والقراءة باسم الرب الذي وهب النعمة الغالية ومن بها على عباده وهو الذي خلقه ، فلا يتقدم تقدماً متزناً إلّا تحت توجيهه وهدايته ، إن الآية التي نتحدث عنها ، إنها ذات ثورة وانقلاب عظيم في التفكير والعقلية والنفسية ، قرعت الآذان البشرية في بداية الإسلام ، وكان ذلك شيئاً لم يخطر من أحد على بال ولم يتصوره في حال من الأحوال ، لو سئل الأدباء والحكماء والفلاسفة والعلماء في العالم البشري عن مفتتح هذا الوحي الذي سينزل على النبي الأمي ، لم يكن أحد منهم ـ يعرف طبيعة تلك الأمة التي نزل بينها الوحي ويعرف عقليته ـ ليقول إنه سيبتدىء بكلمة «اقرأ» كان لهم أن يتنبؤوا بكل شيء ، ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أن الوحي سيكون استهلاله بكلمة «اقرأ» ، ثم إنه لم يبتدىء بكلمة «العلم» وإنما بالقراءة ، والقراءة تتضمن الكتابة والقلم والورق ، بينما العلم قد يكون وهبياً لا يحتاج إلى القلم والقراءة والكتابة والورق ، مما يدل على أن هذا العلم سيكون وليد القلم ، ووليد الورق ، ووليد الكتابة ، ووليد المكتبات والكتب والمؤلفات والصحف ، ووليد التجارب ، ووليد الذكاء : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ .

هـذا الـديـن لـن يـفـارق الـعـلـم :

مما يجب الانتباه له أن الوحي الإلهي أكد أن طبيعة هذا الدين أنه لن

يفارق العلم ، لأن الرسالة الأولى التي وجهته إلى البشرية تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة ، والمسلم الذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلم حقيقي ، ولا يجوز له أن يدعي أنه ممثل صحيح للإسلام ، ثم يجب الانتباه لهذه الدعوة الثورية : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ كيف ينبه الوحي الإلهي على أن تكون هذه الرحلة ـ رحلة العلم ـ في هداية هاد كامل ، وليس هو إلاّ الله العليم الكريم ، لأن الرحلة طويلة شاقة ، معقدة خطرة ، والطريق وعرة ذات منعطفات تعترضها بحار وأنهار ذات عمق سحيق ، وتتخللها غابات كثيفة فيها سباع مخوفة ، وحيات وعقارب سامة وكل حيوان ضار .

لكنه ليس مجرد علم ، ليس عبارة عن معرفة بالدمى واللعب ، وليس عبارة عن التسلية ، وليس مما يحرش فيما بين الإنسان والإنسان والأمة والأمة ، وليس عبارة عن معرفة طرق ملء البطون ، وعبارة عن تحريك اللسان ولوك الكلمات ، بل هو : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ .

فهل رفع من قيمة القلم أحد في التاريخ البشري أكثر من ذلك؟ حيث يذكر بهذه الأهمية ، وبهذا التمهيد الكريم ، في خلوة غار حراء ، وفي الوحي الأول الذي ينزل من السماء ، ذلك القلم الذي ربما لم يكن بالإمكان تواجده في بيت من بيوت مكة ، لا أكاد أدري لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفائدة أم لا ، ربما وجدتموه في بيت ورقة بن نوفل ، أو أي رجل تعلم الكتابة في ديار العجم ، القلم الذي ربما لا تجدون ذكره في دواوين الشعراء العرب الجاهليين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات وأعدتم القراءة .

عصارة كل علم وثقافة :

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ :

ثم دل على حقيقة خالدة ذات انقلاب عظيم ، وهي أن العلم لا حد له ولا نهاية ، فقال : ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ ، وليس العلم الحديث (SCIENCE) إلاّ انعكاساً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ ، وكذلك التكنولوجيا

ليس إلاّ مظهراً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ، وينزل الإنسان على القمر ، ولا يعني ذلك إلاّ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ويغزو الفضاء ، ويطوي أرجاءه طياً ، ويسخر أشعة الشمس ، ويشق طريقه بين النجوم والكواكب ، ويحلم بالنزول بين السماكين ، إن كل ذلك ليس إلاّ عبارة عن ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

على كل فإن الأمة كان أساسها الأول على القراءة ، وخاطبها الوحي الإلهي الأول بذكر القلم ، إن تلك الأمة لن تفارق العلم والمعرفة ، لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم .

ثم يجب أن يكون في الاعتبار لدى إنشاء كل مدرسة أو جامعة أو اتخاذ منهج تعليمي لتعليم هذه الأمة ، أن يكون الهدف من كل ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد والحقائق التي آمنت بها من ذي قبل ، وأن يتأتى هذا الترسيخ عن طريق القلب والعقل معاً ، ولا يكفي اطمئنان القلب أو العقل فقط ، لأنه حينئذ سيحدث صراع بينهما في الحياة الفردية للإنسان ، وسيتدرج هذا الصراع إلى الحياة الجماعية. . . وعلى ذلك فيتخرج جيل يتصارع مع مجتمعه ، ويتصارع مع دينه وعقيدته ، وتضيع كل القوى في إزالة «الأنقاض» فقد رأى بعض قادة بعض الشعوب والبلاد الإسلامية أنه يجب أولاً إزالة الأنقاض ، وركزوا كل عنايتهم على إزالة الأنقاض من العقائد والحقائق ، واستنفذت هذه العملية كل قواهم ، واستغرقت فرصة أعمارهم ، ولم يتمكنوا من عرض دعوتهم ونشر رسالتهم ، وزرع أفكارهم التي كانوا بصدد نشرها .

فإذا كان هناك منهاج تعليمي يعمق إيمان الأمة بالعقائد والحقائق التي تحتضنها فهو منهاج موفق ، ولا سيما بالنسبة إلى الإنسان المسلم الذي جاء يحمل رسالة ويحتضن دعوة ، فيجب أن يكون منهاجنا التعليمي والثقافي بحيث يرسخ الإيمان في قلب المثقف وقلب الدارس وقلب الطالب الجامعي ، وقلب الفيلسوف وقلب المفكر ، ويجعلهم جميعاً توفر لهم عقولهم دلائل لذلك ، ويستخدمون الثروة العملية القديمة والجديدة

المنتشرة على ظهر البسيطة في تحقيق هذا الغرض الأكبر لتقرير هذه الدعوى الكريمة.

أيها السادة! إذا استطاعت جامعة أن تصنع ذلك فهي الجامعة التي تستحق أن تسمى جامعة إسلامية، وأعتقد أن ذلك خير تعريف لها.

حماية الدين من التحريف والمسلمين من الانحراف:

وعلى حملة علوم الدين وأصحاب الرسوخ والاختصاص فيها من المتخرجين في الجامعات الإسلامية والمدارس الدينية، وعلى الدعاة، عهدة صيانة الإسلام عن التحريف والمسلمين عن الانحراف، والحفاظ على الدين، والذب عن حوزته، ويحتاجون من أجل القيام بذلك إلى الصفات الدقيقة السامية المثالية، والقوة الروحية الداخلية، والثقة بخلود الدين، والغيرة عليه، والقدرة على التمييز الدقيق بين الجاهلية والإسلام والإشراك والتوحيد والسنة والبدعة، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف[١]، ومطالعة تاريخ المصلحين المجددين للدين في عصور مختلفة[٢] إلى ما لا يحتاج إليه بطبيعة الحال من يستعمله الله في نشر دين من الأديان، ولذلك فإن هذا الواجب وضع على عاتق العلماء، ونائبي الرسول ﷺ، وخص به العلماء الربانيون المتفقهون في الدين الغيارى عليه المميزون بين الإسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطلعون على تاريخ الديانات والصحف التي تعرضت لتحريفات المحرفين وأغراض المغرضين، وقد جاء في حديث صحيح: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[٣].

وما كانت لتجري هذه الكلمات العميقة المعاني، والدقيقة الدلالات

---

(١) انظر للتفصيل كتاب العلامة الندوي: «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته»، طبع المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء الكهنؤ ـ الهند.

(٢) ليرجع إلى سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع دار ابن كثير بدمشق.

(٣) مشكاة المصابيح، نقلاً عن البيهقي الفصل الثاني، ص/ ٢٦.

إلاّ على لسان نبي مرسل مصدوق ، فلو قرأتم تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، والمساعي والمجهودات التي قام بها العلماء والأئمة ، والقائمون بحفظ الدين لوجدتم جميع الجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الدين تأتي تحت هذه العناوين الثلاثة ، إن للكلمات أعماقاً وآفاقاً هي أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهوم الرجال ، وتحد بحدود النماذج والأمثال.

ومن واجبات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية هو صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصة ، وبيئات مختلفة ، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ ، وهي خاضعة دائماً للتطور والتغيير ، فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض والكرامات ، بل أكثر منها وأشد ، لأنها حصون الإسلام المنيعة وحماه وشعائره ، وإخضاعها للتصورات الحديثة أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءة إليها لا إحسان ، وإضعاف لها لا تقوية ، وتعريض للخطر لا حصانة ، نزول بها إلى المستوى الوطني المنخفض لا رفع لشأنها كما يتصور كثير من الناس.

العناية بتربية السيرة:

والوظيفة الثانية للجامعات هي تربية السلوك والسيرة ، حتى يكون المتخرجون فيها قدوة للعلماء والدعاة فضلاً عن أفراد الأمة وآحاد الناس ، فلتوجد الجامعات سيرة يربأ صاحبها بنفسه عن أن يبيع ضميره «بحفنة من شعير» إن الفلسفات والنظم المضادة للإسلام ترى أن إنسان اليوم يمكن شراؤه في السوق بقيمة أو بأخرى ، فإن لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية منها. . . وسر النجاح الحقيقي لجامعة ما أن تربي السيرة ، فتخرج رجالاً من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأي قيمة مهما كانت رفيعة غالية ، ولا تستطيع فلسفة هادمة أو دعوة منحرفة ، أو حكومة ذات سياسة خاطئة ، أو قوة مدمرة ، مهما كانت لبقة ذات دهاء ، أن

تشتريهم بأي ثمن غال ، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال أو بلسان الحال :

«نرى العنقاء أكبر أن تصادا» .

يقول الدكتور محمد إقبال :

«إن حرية القلب هي سيادة وسلطان ، أما العناية الزائدة بالبطن فهي مدعاة للموت ، والخيار بيديك ، فإما هذا وإما ذاك ، يا أيها الطائر اللاهوتي! (يخاطب الإنسان المسلم) اعلم أن الموت خير من القوت الذي يقصر جناحك ويمنعك من التحليق» .

من عوامل التأثير في المجتمع وقوة المقاومة للتحديات والمغريات :

ويحلو لي أن أنقل هنا قطعة من كتابي : «رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الجزء الأول)» بمناسبة الحديث عن زهد الإمام أحمد بن حنبل وتوكله على الله وعزوفه الزائد عن أموال الحكومة وعطاء الخليفة والأمراء :

«وقد رأينا الزهد[(١)] والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام : فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار ، وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام ، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين ، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب ، إلاّ وله نزعة في الزهد ، وتغلب على الشهوات ، وسيطر على المادة ورجالها ، ولعل السر في ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة ، ولذلك ترى كثيراً

---

(١) ليس المراد به الزهد الأعجمي أو المسيحي الرهباني ، فلا رهبانية في الإسلام ولا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات ، إنما المراد به سمو النفس والنظر ، والزهد في زخارف الحياة وفضولها وكمالياتها ، والتهافت على حطام الدنيا ، والتنافس في الجاه والمنصب .

من العبقريين والنوابغ في الأمم ، كانوا زهاداً في الحياة ، متمردين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأن الزهد يثير في النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ويلهب الروح ، والدعة والرخاوة تبلد الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب».

روح التضحية والفداء:

والمسؤولية الثالثة للجامعات الإسلامية أن تخرج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمة ، ويستعدون للتضحية والفداء ، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشبع والري والتنعم والتمتع بالحياة ، ويطيبون نفساً بالحرمان ، ما لا يطيبون بالوجدان ، ويصرفون أوقاتهم وقواهم الخيرة ومؤهلاتهم الفكرية والعلمية ، والرصيد العلمي والفكري الذي زودتهم به جامعاتهم ، في رفع رأس الأمة عالياً وفي إعلاء كلمة الله ، وفي صنع أمة ذات رسالة ، وبناء بلد مسموع الكلمة مرهوب الجانب.

فهذان أمران لا بد منهما: الأمر الأول أن توفر الجامعات الإسلامية غذاءً يشبع العقل والقلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطريق في وقت واحد ، حتى يتجها جنباً إلى جنب وبتعاون متبادل ، إلى تعزيز الإيمان بالحقائق والعقائد التي آمنت بها الأمة.

تكوين اختصاصات وقدرات ممتازة في الدراسة والتحقيق:

ولا بد أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرجال ذوي القدرات العالية ، وأريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أن قيمة بلد من البلاد ليست في كثرة جامعاتها ومعاهدها ، إنها نظرية بالية قد تقادم عهدها ، وأصبح أصحابها يعرفون بالرجعية وقصر النظر ، بل القيمة في كثرة أبنائه الذين يثبتون تميزهم واختصاصهم في علم من العلوم وفي مجال من مجالات البحث والتحقيق ، ويقفون حياتهم للبحث والدراسة ، ونشر العلم والثقافة ، وتثقيف الأمة والشعب ، ورفع معنويات أمتهم ، وصنعها أمة ذات قلب وضمير أبيّ ، وفي كثرة الشباب الذين ينقطعون إلى خدمة الدين والعلم والأمة والبلد ، ضاربين الشهرة الكاذبة ورقيهم الشخصي عرض الحائط ، وذلك هو

المقياس الحقيقي الأصيل ، الذي يقاس به البلد والأمة ، وليكن هذا هو المقياس الوحيد في الشرق والغرب ، فلا نقيم لبلد قيمة إلاّ نظراً إلى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة ، والمناصب والجاه ، والتقدم الشخصي ، ويتوفرون على العمل الجاد البناء ، وعلى العمل العلمي الإيجابي النافع ، على رفع مستوى الأمة عقلياً وفكرياً ، وعلى التوصل إلى نظريات علمية ذات أهمية ، وعلى بحث علمي مضن يتطلب الصبر والتحمل على تعزيز البلاد من جميع النواحي.

إن قيمة الشعوب والأمم ـ فضلاً عن قيمة الجامعات والمؤسسات ـ وسر عظمتها وما تستحق به من إجلال وإكبار ، وتقدير واعتراف ، وجود أصحاب تفوق واختصاص وشهرة عالمية ، في علوم وآداب ، ومجالات علمية ، وبحوث واكتشافات جديدة ، وهذه كانت ميزة الأمة الإسلامية فقد كانت للمسلمين الرئاسة العلمية والزعامة الفكرية نحواً من ألف سنة على الأقل[١] ، بإقرار من المؤرخين الأوروبيين.

ومن واجبات المتخرجين في جامعاتنا النابغين أن يهيئوا بديلاً عن كتب المستشرقين وعلماء الغرب في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية ، كالحديث والفقه وأصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي ، التي اعتبرت مرجعاً في هذه المواد ، وقررت في كثير من الجامعات العربية والإسلامية واعتمد عليها كثير من أساتذتها ومن الباحثين في هذه الموضوعات وأصحاب رسائل الدكتوراه ، فبثت السموم في عقول كثير من الدارسين والباحثين الناشئين ، وأنشأت شبهات حول الإسلام والمصادر الإسلامية وأحدثت في نفوسهم يأساً عن

(١) إذا اعتبرنا القرن الثاني الهجري ـ وهو زمن الحكم الأموي الواسع ـ بداية تأثير المسلمين العلمي الفكري في الشعوب والبلاد المتحضرة التي كان يحكمها المسلمون ، وسلمنا استمراره إلى القرن الحادي عشر الهجري ، فقد نشأت الحركة الانتقالية في أوربا Renaissance في القرن الرابع عشر الهجري ، وانتشرت في القرن السابع عشر المسيحي (الحادي عشر الهجري) وتميزت بازدهار الأدب والفن بانبلاج فجر العلم الحديث في الغرب المسيحي.

مستقبل الإسلام ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لهما سهماً كبيراً في الحث على «إصلاح الديانة وإصلاح القانون الإسلامي»(١) وليكن للبلاد الإسلامية والشعوب المسلمة اكتفاء ذاتي في الثقافة والتربية كما يجب أن يكون لها استقلال في مجال السياسة والاقتصاد.

تلك هي أهداف حقيقية يجب أن نصبو إليها ، ونضعها في اعتبارنا ، ونجعلها نصب أعيننا ، أما مجرد التعليم والتثقيف؛ والتأهيل لشغل الوظائف والمناصب ، فليس مما يُثنى به على جامعة ، وليس أبداً مما يجلب الحمد ، ويستخرج الإعجاب.

الغرض الأصيل من العلم والأدب ، هو نفح روح الإيمان واليقين في الحياة والمجتمع :

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التي قامت في هذا العهد العصيب ، وفي هذه البلاد المتأزمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب والقلق الذي يسود جميع الدول الإسلامية منذ مئة عام تقريباً. . . تفككت عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكري والحضاري الغربي ، وحدث صراع نفسي وفكري استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية والفكرية والعلمية لدى الدعاة. . . إن ذلك الوضع غير طبيعي يجب أن يزول في أقرب وقت ، لكي تتوجه هذه القوى والقدرات إلى الأهداف البناءة وإلى إنقاذ البلد ودفع عجلته إلى الأمام.

الحقيقة أن الأدب والشعر ، والفنون الجميلة والحكمة والفلسفة ، والتأليف والتصنيف ، ليس من وراء كل ذلك إلّا غرض واحد ، وهو أن تتولد في صاحبه حياة جديدة ، وإيمان جديد ، وبالتالي في الأمة التي هو عضو فيها والمجتمع الذي هو جزء منه.

وأود أن أنشد لكم أبياتاً قالها شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال وهو

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى بحث العلامة الندوي بعنوان «المستشرقون ، ونفوذهم في ميدان التفكير» في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» ص ١٨٧ ـ ١٩٨ الطبعة الرابعة دار القلم ـ الكويت.

يخاطب الأديب والشاعر ، لأنه ينطبق على الوضع الذي نعيشه جميعاً :

«يا أهل الذوق والنظر العميق! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ولا في صوت مغنّ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلاّ الفتور والخمول والذوي والذبول».

إن الأوضاع التي نمر بها نحتاج فيها إلى أن نأتي بأعجوبة ، وتلك الأعجوبة سوف لن تتحقق إلاّ عن طريق الرسالة الإسلامية ، لأنها وحدها التي تجعل حاملها يصنع المعجزات ويأتي بخوارق العادات ، ويبطل المقاييس ، ويحطم المعايير التقليدية ، ويسخر من كل الموازين التي آمن بها العالم الغربي الجاهلي ، يقول الدكتور محمد إقبال :

«أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعي ، ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر ، وذلك أن الأمم لا يرتفع شأنها ومكانها في خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات».

دور مصر الإسلامية القيادي في العالم الإسلامي :

إن مصر الإسلامية اليوم بفضل ما سجل لها التاريخ من دور رائع في إنتاج عدد كبير من المؤلفين والمحققين ، والمحدثين والمؤرخين ، والقادة والمجاهدين ، وما قامت به من دور حاسم في الحروب الصليبية[1] والغزو التتاري[2] ، وما تملكه من وسائل النشر والتصدير ، والقيادة في العلم

---

(١) ذلك عن طريق حاكم مصر وقائدها الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وانتصاره في معركة حطين الفاصلة في ١٤/ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، واستعادته بيت المقدس للمسلمين (بعد نحو تسعين سنة من استيلاء الصليبيين عليه) في ٢٧/رجب ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وصلح الرملة في سنة ١١٩٢ المسيحي.

(٢) إشارة إلى انتصار سلطان مصر المملوكي المظفر سيف الدين قطز ، وقائده ظاهر بيبرس البنقداوي في معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وانهزام التتر انهزاماً عديم المثال غير مجرى التاريخ ، وأعاد الثقة إلى المسلمين ، فقد كان من =

والأدب ، وبفضل وجود الأزهر الشريف ، تحتاج بصفة خاصة إلى هذه القدرة على صنع الخوارق ، والتأثير في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر أو البحر ، لأن عليها تعود مسؤولية بعث الدول العربية كلها بعثاً جديداً ، إن عليها أن تنفخ روحاً جديدة في البلاد العربية الإسلامية ، وتوجد لديها ثقة جديدة ، وإيماناً جديداً ، ونشاطاً جديداً ، وانتعاشاً جديداً ، وطموحاً جديداً ، وقلباً خفاقاً جديداً ، يتحرق على بؤس الإنسانية وشقائها ، وشجاعة جديدة تبعث على المغامرة والاقتحام ، وجرأة خلقية تستطيع بها أن تنفخ الحياة في هذه الأمم والأقوام المشرفة على الهلاك ، التي تزل أقدامها ، وترتعش أعصابها ، وتخفق قلوبها ، وتتعثر عقولها ، وقد كانت مهد الانتفاضة الإسلامية والدعوة القوية إلى الصحوة الإسلامية الشاملة حين ساد الجمود والخمود على كثير من الأقطار العربية ، ولا يزال لها جوهر إسلامي نقي يبرز لامعاً صافياً إذا نفض الغبار عنه.

والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

= الأمثال السائرة ومن المسلمات التي لا تقبل الجدل (إذا قيل لك أن التتر قد انهزموا فلا تصدق).

الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر جبهاتها الحاسمة، ومجالاتها الرئيسية

عقدت رابطة العالم الإسلاميِّ بمكة المكرمة مؤتمراً إسلاميّاً كبيراً حول الدعوة الإسلاميّة في شهر صفر عام ١٤٠٨هـ، ودعت إليه أكثر من ستمئة شخص من رجالات العالم الإسلامي، ومفكريه، وباحثيه الإسلاميِّين ليبحثوا في قضايا الدَّعوة ومجالاتها المختلفة، وكان منهم العلامة الندوي، فقد ساهَمَ العلامة في مداولات المؤتمر بعددٍ من الأحاديث، والبحوث، والمحاضرات، ومنها: محاضرته القيمة في الدعوة الإسلامية التي كان ألقاها مقدماً باهتمامٍ كبيرٍ وضمنه نتائج دراساته العميقة لتاريخ الدَّعوة الإسلاميّة، وقد درسَ العلامة ما قصَّه القرآن الكريم من قصص الدعوة وما وَرَدَ في شأن الدَّعوة من منهجٍ سديدٍ في حديث الرسول ﷺ، واستخلص العلامة من كلِّ ذلك إشاراتٍ مفيدةً وإرشاداتٍ قيِّمةً، وبنى بحثه عليها، فجاء كلامه كخطةٍ توجيهيةٍ جامعةٍ لعلم الدَّعوة الإسلامية.

لقد ذكر العلامة الندويُّ في هذه المحاضرة القيمة إحدى عشرة نقطة للاهتمام بها، ليمكن بها إنقاذ المجتمعات الإسلاميّة بل الإنسانية من الضلال، والضياع الّذي يواجهها، ويمكن بها للدّاعية الإسلامي أداء مسؤولياته الدَّعوية بكمالٍ ونجاحٍ، وأهمُّ هذه النقاط هي وجود دعوةٍ إيمانية قويّةٍ تملأ نفوس المسلمين حماساً وعزيمةً للعمل، وتحيلهم قوّةً تقوم في وجه القوى المضللة، والطاقات الباطلة، ولا تدع في نفوس المسلمين فراغاً تملؤه دعواتٌ منحرفةٌ، ونظرياتٌ فاسدةٌ، والفراغ لا يبقى فراغاً مدَّة طويلة، ثم إنَّ السيل لا يسدُّه إلا سيلٌ، والحديد لا يفلُّه إلا الحديد.

والعالم الإسلامي اليوم يواجه خطراً كبيراً في هذه الناحية فإنَّ المسلمين يجدون من أهل السداد والحقِّ ضعفاً واستنامةً ، في الوقت الّذي تتحمَّس القوى المشبوهة في العالم الإسلامي ، فإذا لم تكن هناك دعوةٌ إيمانيَّة ، صحيحة متحمِّسةٌ قويَّةٌ ، لم يمكن صدُّ الغزو العقائدي والفكري الّذي يغشى العالم الإسلامي من حينٍ لآخر ، ونقطة أخرى لفت الانتباه إليها سماحة الشيخ الندوي في هذه المحاضرة هي ترك حياة البذخ والترف التي تيسَّرت لكثيرٍ من الدعاة والعاملين للإسلام اليوم ووسائلها ، وضرورة اختيارهم لحياة البساطة والشظف التي هي حياة أهل الجدِّ والعمل من الدعاة والمجاهدين ، والتي عاشها أسلافنا العظماء ، ولا يمكن التغلُّب على حبِّ الدنيا وكراهية الموت والاستماتة في سبيل الحق والتضحية بالنفس والمال بغيرها وهي الحياة التي تلقى دائماً من الناس تقديراً لائقاً ، ومحبَّةً وإعجاباً ، ويكون لها تأثيرٌ في النفوس.

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في الجلسة الأخيرة من جلسات المحاضرات ، وذلك في يوم ١٨/ صفر ١٤٠٨هـ مساءً.

وكانت القاعة التي ألقى محاضرته فيها مكتظَّة بالمندوبين والحاضرين ، واتصفت المحاضرة بالأسلوب التركيزي ، والجمع للجوانب المهمَّة من مقتضيات الدَّعوة ، وأسلوب الحكمة في القيام بها ونالت المحاضرة استحسان الجميع ، وأعجب الحاضرون بها ، وكان تعليقهم عليها أنها جديرة بأن تكون مضمون قرارٍ بعينه من بين القرارات الّتي يعدُّها المؤتمر.

الحمد لله وحده ، والصلاة والسَّلام على من لا نبيَّ بعده .

وبعد! فإنِّي أحمد الله تعالى وأشكره على إتاحة هذه الفرصة الكريمة للتحدُّث في موضوع الدعوة إلى قادة الفكر ، والمسؤولين عن الجمعيات والمنظمات الإسلامية ، والعاملين في مجال العمل الإسلامي ، وذلك في مهد الدَّعوة الأول ، ومبعث الرسول ﷺ في البلد الأمين .

وحقَّ لي أن أنشد البيت العربي القديم مخاطباً لنفسي :

حمامة جَرْعى حومة الجندل اسجعي   فأنت بمرأى من سعادٍ ومسمعِ

إنَّ موضوع الدعوة أيها السادة! موضوعٌ مطروقٌ معالجٌ كثرت عنه الأحاديث ، وازدحمت فيه الكتابات والبحوث ، خصوصاً في الزمن الأخير ، وتكوَّنت فيه مكتبةٌ ذات قامةٍ وقيمة[1] ، فأريد أن أحدِّد بحثي في الحديث عن جبهات الدَّعوة الحاسمة ، ومجالاتها الرئيسيَّة ، المقرِّرة لمصير العالم الإسلاميِّ ، فضلاً عن مسيرة الدعوة ، وأركِّز على النقاط المختارة العلمية (في ضوء دراساتي القاصرة ، وفي ضوء الواقع وتجارب الماضي) ، لحماية الأقطار الإسلامية من التحديات والفتن ، وبالله التوفيق .

١ ـ تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشعور الدِّيني فيها ، فإنَّ تمسُّك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام ، وتحمُّسها له ، هو السُّور القويُّ العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثيرٍ من القيادات وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادَّة

(١) وقد صدرت بقلم العلامة النَّدوي كتب ورسائل ومحاضرات في هذا الموضوع ، منها : ١ ـ سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (١ ـ ٤) ، ٢ ـ «روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة» ، ٣ ـ «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» ٤ ـ «حكمة الدعوة وصفة الدعاة» ، ٥ ـ «الدعوة إلى الله ، وحماية المجتمع من الجاهلية ، وصيانة الدين من التحريف» ٦ ـ «منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء» ٧ ـ «دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء وتكوين الدعاة» .

الإسلام ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأيِّ غايةٍ نبيلةٍ ، وهي من أقوى المجموعات البشرية ، وأحسنها سلامة صدرٍ ، وقوة عاطفةٍ ، وإخلاصٍ ، وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحقُّ بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلُّب على المشكلات ، والانتصار على العدوِّ ، كتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدِّين لله ، والابتعاد عن كلِّ أنواع الشرك والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة ، والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النار والدَّمار.

هذا مع تنمية الوعي الصحيح ، وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصَّديق والعدوِّ ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرَّر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية ، والنعرات القوميَّة ، أو العصبيات اللُّغوية والثقافيَّة ، ولعبة القيادات الدَّاهية والمؤامرات الأجنبيَّة ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الدينيِّ ، والعقل الإيمانيِّ.

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، ومن إخضاعها للتصوُّرات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسيَّة والاقتصادية ، والتجنب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية ، لأنَّ هذه الحقائق الدِّينيَّة هي أساسٌ للإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية ، وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصُّحف السَّماوية ، والحذر من كل ما يقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد ، والإيمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله وطلب رضاه ، والإيمان ، والاحتساب ، والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحوُّل يفقد هذه الأمة شخصيتها ، وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كلِّ

ما يقلِّل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشِّرك الجليِّ ، والعادات ، والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات غير الإسلامية ، فإنَّ ذلك يتَّجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماويِّ إلى المنهج الجديد السياسيِّ .

٣ ـ تقوية الصِّلة الرُّوحية والعقلية والعاطفية بالنَّبيِّ ﷺ والحبِّ العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل ، والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل ، والحذر من كلِّ العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحبِّ ، وإضعافه على الأقلِّ ، وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنَّة ، وتجرؤاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكلِّ ما يحرك هذا الحبَّ ويغذِّيه ، ولعلَّ البلاد العربية (بفعل أحداثٍ ، ودعوات قومية) أحوجُ إلى العناية بهذه النقطة ، وأحقُّ بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمَّدية ، وفي لغتها نزل القرآن ، ونطق الرَّسول .

٤ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقَّفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية ، والتربوية ، والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلاميَّة بصلاحية الإسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر ، وتطوراته وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الرَّكب البشريِّ إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى برِّ السَّلام والسَّعادة ، وإنقاذ المجتمع البشريِّ من الانهيار والانتحار الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنَّه ليس «بطارية» قد نفذت شحنتها أو ذبالة قد نفد زيتها ، واحترقت ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النَّجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلاَّ مَنْ ركبها .

إنَّ ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داء هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسؤول عن كلِّ تصرفاتها ، وسبب الردَّة الفكرية والحضاريَّـة ، والتشريعيَّـة التي تكتسح

العالم الإسلاميَّ من أقصاه إلى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة - التي لا تفهم إلاّ لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمَّس إلاّ للإسلام - وسبب حدوث هذا الخليج العميق الواسع بين القيادات والحكومات والشعوب والجماهير ، سبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فيما لا يعود على الأمَّة بفائدة.

٥ - قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب ، المنتشر السائد في العالم الإسلاميِّ رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلاميّاً جديداً ، يتَّفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، لا يبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد أو الماديَّة ، وتصوّر هذا الكون تصوراً مادِّياً ، والعلوم وحداتٌ متناثرةٌ متناقضةٌ ، والطبيعة حرَّةٌ قاهرةٌ ، والتاريخ حوادث غير مرتبطةٍ خاضعةٍ لقلقٍ وصراع دائمين ، ولا يصلح نظام التربية والتعليم إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً ، مهما استنفد من الطاقات ، وكلَّف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقوم العالم الإسلاميُّ على قدميه وبرأسه ، وعقله ، وإرادته ، وتفكيره ، ولا تدار الحكومات والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة برجالٍ مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومة والإدارة ، والتربية والإعلام والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلاميُّ بسماته ، وخصائصه.

٦ - حركةٌ علمية قويةٌ دوليةٌ ، تعرِّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدِّن: أنَّ الفقه الإسلاميَّ وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساسٍ من المبادىء الخالدة التي لن تبلى ، ولن تفقد صلاحيتها في يومٍ من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وتغنيها عن كلِّ قانونٍ وضعته أيدي الناس.

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النَّفس الإنسانية وفي مشاعر الأمَّة وأحاسيسها ، وتجريد أمَّةٍ عن حضارتها الخاصَّة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيبٌ كبيرٌ للذَّوق الدينيِّ الخاص ، وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادفٌ لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضَّيقة ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلا بد للحكومات الإسلامية والجمعيات الإسلامية من التخطيط المدنيِّ الإسلاميِّ المستقلِّ ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النَّقص ، ولا بدَّ من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها وفي دوائرها ، وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ، ومنتزهاتها ، وإلى حدٍّ في مكاتبها ، وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلاميُّ نموذجاً للحياة الإسلامية والمثل الإسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوةٍ صامتةٍ للإسلام .

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كموادَّ خامٍ يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلاميِّ ، حضارةً قويَّةً عصريَّةً ، مؤسسةً على الإيمان ، والأخلاق ، والتقوى ، والرَّحمة والعدل في جانبٍ ، وعلى القوة ، والإنتاج ، والرفاهية ، وحبِّ الابتكار في جانبٍ آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمَّتهم ، وبلادهم ، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غربٍ وشرق ، ويستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميلٍ وقرينٍ ، إن كان في حاجة إلى أن يتعلموا منه كثيراً فهو في حاجة إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلَّمه الغرب منهم أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب .

٩ ـ أقناع الحكومات ـ في بعض البلاد الإسلامية التي مثلت دوراً رائعاً في تاريخ الدعوة والحضارة الإسلامي ـ المشغولة بحرب إبادة للعنصر الإسلامي ، أو عملية «تطوير للإسلام» وتفسيره وفق مصالحها السياسية ، أو أهواء قادتها الشخصية ، بأنها سياسة عقيمة لم تنجح في

بلد إسلامي ، وإقناعها بتوجيه طاقاتها وإمكانياتها إلى عدو مشترك ، وإلى ما يقوي البلاد والأمة. وإقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجوِّ المناسب ، المساعد على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادةٍ وبركةٍ ونصرٍ من الله ، وسعيٍ لتكوين قيادةٍ موحَّدةٍ تقوم على مبدأ الشورى الإسلاميِّ ، والتعاون على البرِّ والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الأقل ـ بعدم وجود الإمامة العامة ، أو الخلافة الإسلامية التي كلف بها المسلمون وسيحاسبون عليها.

١٠ ـ أما بالنسبة إلى البلاد غير الإسلامية ، فالقيام بالدعوة إلى الإسلام ، والتعريف به بأساليب حكيمةٍ تتَّفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر ، أمَّا البلاد التي فيها الأقليات المسلمة ، فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية ، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي ، والخواء الرُّوحي ، والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد ، حكومةً وشعباً ، حتى يتهيَّأ للإسلام أن يُثبت جدارته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيَّأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغيِّ والقياديِّ في هذه البلاد.

١١ ـ وأخيراً لا آخراً هو ما تفرضه طبيعة الإسلام وتاريخه المجيد ، وتقتضيه الفطرة السليمة ، ونفسية الإنسان الدائمة ، والأوضاع السائدة ، هو وجود حركةٍ إيمانيةٍ دعويةٍ إيجابيةٍ قوية في العالم الإسلاميِّ ، تقترن بصفات الرُّجولة ، والطُّموح ، وعلوِّ الهمَّة ، وبعد الرؤية ، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التي تملكت زمام قيادة البشرية ، وأصبحت تتحكَّم في مصائر الشعوب ، والأقطار الإسلامية ، وغير الإسلاميَّة ـ من غير حقٍّ ومبرِّرٍ ـ وذلك بإيمان القائمين بهذه الحركة والدعوة القوية ، وثقتهم بفضل الإسلام ، وحاجة البشرية إليه.

ويقترن نشاط هذه الحركة أو الدعوة الإسلامية بروح التضحية ،

والبطولة ، والجلادة ، والتقشُّف ، والقدرة على المغامرات ـ إن كان لا بدَّ منها ـ فإنَّ الناس ما زالوا مفطورين على تقدير الإيمان القويِّ ، والاعتزاز بالعقيدة والمبدأ ، والاستهانة بالمادة واللذة ، والعزة ، وروح المخاطرة ، وعلى الإجلال لشيء لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطورٌ على احترام القويِّ ، والفقير مفطور على احترام الغنيِّ ، والأميُّ مفطورٌ على احترام الغني ، واللئيم مفطور على احترام الكريم ، ولأنَّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالبطولات والإقدام ، ولأنَّ الواعين والمتتبِّعين لواقع الأمم والبلاد ، وأصحاب الضمائر الحيَّة قد سئموا وضاقوا ذرعاً بسياسة الحكومات والقيادات الغربية والشرقية ، وأصبحوا يمقتونها ، ويكرهونها كرهاً شديداً.

إنَّ وجود هذا الفراغ ـ عدم وجود حركةٍ إيمانيةٍ دعويةٍ إيجابيةٍ قويةٍ ، ومجتمعٍ قويٍّ سليمٍ من أدواء العصر الحديث ، والحضارة الماديَّة الراعنة ، يقوم على تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ـ خطرٌ كبيرٌ على الوجود الإسلاميِّ ، وعلى العقيدة الصحيحة والحياة الإسلاميَّة ، فإنَّ وجود الفراغ في شيءٍ ضروريٍّ وفي مصلحةٍ بشرية شيءٌ غير طبيعي لا يصلح للبقاء طويلاً ، وقد يسبب ذلك نشوء حركةٍ منحرفةٍ زائفةٍ ، فاسدة العقيدة والمنهج ، سلبيةٍ هادمةٍ مدمَّرةٍ ، ويعرف الدارسون لتاريخ الديانات والدعوات والحركات ، وللتاريخ العام ، أنَّه إذا وجدت هذه الحركة المنحرفة واقترن نشاطها ودعاويها بالتضحيات والمغامرات ، وبالتقشف ، ومظاهر الزهد ، وهتافات التحدِّي للطاقات الكبيرة ومواجهتها لتهديداتها وأخطارها ، بشجاعةٍ وصمودٍ ، ونقدها للأوضاع الفاسدة السائدة في بعض أجزاء العالم الإسلاميِّ التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ـ ولو كان في ذلك نصيبٌ كبيرٌ من الدعاية والمظاهرة ، ووسائل الإعلام الجبارة ـ كان له سحرٌ على النفوس ـ خاصةً في أوساط المتعلِّمين وأنصاف المتعلمين ، المتألمين من الواقع المرير الذي تورَّطت فيه بعض المجتمعات الإسلاميَّة ـ سحرٌ لا يبطله وعظُ واعظٍ ، أو مقالٌ لكاتبٍ ، أو استدلالٌ منطقيٌّ أو بحثٌ علميٌّ ، يشهد بذلك تاريخ الخوارج في القرن الإسلاميِّ الأول ، وتاريخ الباطنية والفدائيين في القرن السادس والسابع الهجريين ، وحكايات حسن بن

الصباح وما كان يجري في مركزه قلعة «الموت» وتاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة باسم الإسلام والإصلاح كذباً وزوراً أحياناً كثيرةً ، وبعض الحركات والثورات المعاصرة التي استطاعت أن تجند ألوفاً من الشباب في تحقيق مآربها السلبية وأهدافها الخطيرة ، يضحون بحياتهم في سبيلها متطوّعين مندفعين ، وقد استرعت انتباه العالم واستجابت لها بعض أوساط المعنيين باليقظة الإسلامية والحالمين لمجد الإسلام وعظمته ، من غير أن ينقدوها نقداً بريئاً جريئاً في ضوء النُّصوص القرآنية.

ويعرف قادة المسلمين ومفكروهم ، أنَّ السيل لا يمسكه إلّا سيلٌ مثله ، والتيار لا يدفعه إلّا تيارٌ أقوى منه ، وواقع العالم الإسلاميِّ ـ ومعذرةً ـ اليوم في الجمود والاستنامة والإخلاد إلى الراحة وعدم وجود دعوةٍ إيمانيةٍ قويةٍ ، وروح التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصحيحة ، والأهداف الصالحة ، وعدم اكتفائهم العسكريِّ والفكريِّ ، نذير خطرٍ دائماً ، وممهد الطريق للوقوع في شبكة هذه الدعوات المنحرفة الزائفة التي يجد فيها شباب المسلمين والمتذمرون من الأوضاع الحالية طلبتهم ومنشودهم ، وما يرضي طموحهم ، ويزيل قلقهم ، وإن كان ذلك ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩] ولكنّها نفسية الإنسان وتجربة الأمم ، والحقيقة الأليمة التي يجب أن ينتبه لها كلُّ معنيٍّ بحاضر الإسلام ومستقبله ، وسلامة العقيدة ، وصحّة التفكير ، والإيمان بالله ورسوله وتعاليمه.

وأختم هذا الحديث القصير بقوله تعالى الذي خاطب فيه المجموعة الصغيرة من الأنصار والمهاجرين التي حثها على المؤاخاة ، وربط بها مصير العالم والإنسانية :

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].
صدق الله العظيم.

* * *

مـأثـرة شيـخ الإسـلام الـحـافـظ ابـن تـيميَّـة الـكبـرى الـتـركيـز علـى أنَّ الـنبـوة هـي الـوسيلـة الـوحيـدة للمعـرفـة الصحيحـة والـهـدايـة الـكـاملـة وبعـض مـوافقـات والـتـقـاءات

ألقى العلامة الندويُّ هذه المحاضرة في الندوة العلمية الخاصَّة بشيخ الإسلام الحافظ ابن تيميّة ومواقفه الخالدة ، الّتي عقدتها الجامعة السلفية في مدينة بنارس ، في ٢٩/ ربيع الأول و١ ـ ٢ ربيع الآخر سنة ١٤٠٨هـ الموافق ٢٢ ـ ٢٣ من نوفمبر سنة ١٩٨٧ .

وقد نالت هذه المحاضرة إعجاب المستمعين والحاضرين في الندوة ، وخاصَّة الضيوف العرب الَّذين شاركوا في الندوة وعلى رأسهم معالي الدكتور عبد الله محسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الّذي أُلقيت هذه المحاضرة برئاسته ، فأبدى لها ارتياحه الكبير ، وعبَّر عن موافقته على ما جاء في المحاضرة من تحقيقٍ علميٍّ وتاريخيٍّ جدير بكلِّ اعتناء .

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين.

سادتي وإخواني! يسعدني ، ويشرفني أن أسهم ـ بقدر الإمكان ـ في ندوة علميَّةٍ خاصَّةٍ بشيخ الإسلام الحافظ أحمد ابن تيمية رحمة الله عليه ، وقد كان خليقاً بأن تنظم له ندواتٌ كثيرةٌ في أنحاء العالم الإسلاميِّ ، فإنَّه يصحُّ أن يقال: إن هذا العصر عصر ابن تيمية ، وقد كان لشخصيته ، ودعوته ، ودوره الإصلاحيِّ عودةٌ في هذا العصر ، ولكتاباته وأفكاره واتجاهاته انتفاضةٌ لم تكن لمصلحٍ إسلاميٍّ أو مؤلفٍ من المؤلفين القدامى ، لأسباب تحتاج في شرحها إلى كتابٍ مستقلٍّ.

وقد كانت الهند خليقة بأن تعقد فيها هذه الندوات لوجود صلاتٍ عميقة الجذور بين دعوته وجهاده ، وبين أوضاع هذه البلاد الدينية والعلميَّة ، ولوجود بعض كبار المدافعين عن دعوته ، ومدرسته ، وتحقيقاته ، كحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي من رجال القرن الثاني عشر الهجري[١] وخلفائه ، وتلاميذه ، وتلاميذ تلاميذه ، وما نالت دعوتهم العلمية والإصلاحية في شبه القارة من ترحيبٍ وقبولٍ حسنٍ ، ونشاطٍ وحماسٍ في القرن الثالث عشر وبعده ، وقامت على أساسها مدارس تربويةٌ ثقافيَّةٌ ، وحركاتٌ إصلاحيَّةٌ دعويَّةٌ.

وكانت تجمع بين الدعوة إلى التوحيد الخالص واتِّباع السُّنَّة السنيَّة ، وبين ما كانت تحتاج إليه هذه البلاد ، ويقتضيه الزَّمان من الدعوة إلى تزكية

---

(١) وهو صاحب الكتاب الفريد في موضوعه «حجَّة الله البالغة» توفي سنة ١١٧٦هـ ، وهو المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي ، انظر للاطلاع على حياته بالتفصيل كتاب العلامة الندوي «الإمام الدهلوي» (الجزء الرابع من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام طبع دار ابن كثير بدمشق).

النفوس ، وتربيتها ، والقيام بحركة الجهاد في سبيل الله وتحرير البلاد ، والسعي في إنشاء حكومةٍ إسلاميَّةٍ على منهاج الخلافة الرَّاشدة ، ونقل المراجع الدينية الأصيلة إلى لغة البلاد ونشرها في نطاقٍ واسعٍ ، وإصلاح المجتمع الإسلاميِّ الهندي ، وإنقاذه من رواسب الجاهليَّة الهندية ، والتقاليد والأعراف القديمة التي لا تتَّفق مع تعاليم الإسلام ، والقيام بجولاتٍ دعويَّةٍ واسعةٍ ، والاتصال بالشعب والجماهير اتِّصالاً مباشراً ، وهو ممَّا اتّسمت به ، وامتازت مدرسة حكيم الإسلام الشيخ ولي الله الدَّهلوي م١١٧٦هـ التربوية والإصلاحية ، ودعوة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) الإصلاحيَّة الكفاحية الكبرى[١] .

لذلك أعتقد ـ ومعذرةً إلى من يرجع إليهم الفضل في عقد هذه الندوة ـ أنَّها وإن جاءت في مكانها ، فقد جاءت متأخرةً عن أوانها ، ولكن الأمور مرهونةٌ بأوقاتها ، ولكلِّ شيءٍ أجلٌ مسمًّى .

إنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية كان من أفذاذ المحقِّقين والباحثين ، والمصلحين المجدِّدين في تاريخ الإسلام ، ومن عماليق الفكر الإسلامي ، ومن أجمعهم لشعب الإصلاح المطلوب ، والدور الإصلاحيِّ والتجديديِّ الشَّامل ، منها : تجديد عقيدة التوحيد ، وإبطال العقائد والتقاليد المشركة . ومنها : نقد الفلسفة ، والمنطق ، وعلم الكلام ، وترجيح أسلوب الكتاب والسنة ، ومنها : نقد الديانات والملل المعارضة والمحاربة للإسلام ، والردُّ على الفرق والنِّحَل المنحرفة عن الطريق القويم والثائرة على الإسلام ، فمن الديانات المسيحيَّة المجابهة للدين الإسلامي عقيدةً ودعوةً ، وقوَّةً سياسية ، ونفوذاً مادِّياً[٢] ومن الفرق : «المغالية» التي ما أضرَّ بالإسلام

---

(١) يرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي «سيرة السيدأحمد الشهيد» الجزء ١ ـ ٢ بالأردوية ، وكتاب «إذا هبت ريح الإيمان» بالعربية ، طبع دار ابن كثير بدمشق والمجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ (الهند) .

(٢) ونموذجه كتابه العظيم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» .

والمسلمين مثلها[١] وما شكَّك مثل ما شكَّكت في مدى نجاح جهود سيِّد الرُّسل وخاتمهم في دعوته ، وتربيته ، وفي تميُّز من نشأ في أحضان النُّبوَّة وتخرَّج في مدرسة الرِّسالة السَّماوية والتعاليم النَّبويَّة بطريق مباشرٍ عن الأجيال البشرية ، وأمم الأنبياء في الصَّلاح والاستقامة ، والسموِّ ، والطاعة لله ورسوله ، وشكَّكت في نقاء الكتاب المنزل الأخير ، وبقائه على أصالته ، ونصِّه وفي عقيدة ختم النبوة ووحدة الرسل ـ بما تقوله وتعتقده في الإمامة وأئمتها ـ ومنها : تجديد العلوم الشرعية ، وتنشيط الفكر الإسلاميِّ وتوسيع ثروته ، وتعميقها ، وإثبات الحاجة إلى الاجتهاد ، وكلُّ ذلك في اتِّزانٍ واقتصادٍ ، واعترافٍ للأئمة المجتهدين السابقين بالفضل وردِّ الملام عنهم والتماس العذر لهم .

وتلك كلُّها مآثر علميَّةٌ فكريَّةٌ بطوليَّةٌ ، لا يستهان بقيمتها ، ولا يقلَّل من شأنها ، ولا تتيسر ولا تتوفَّر إلا لمن أراد الله به الخير لهذه الأمة ، وقيّضه للقيام بمهمة الإصلاح والتجديد .

ولكن مأثرته الكبرى الرئيسية في اعتقادي وفي ضوء دراساتي المقارنة ، واستعراضي لتاريخ الفكر الدِّيني ، وما قام عليه من مجتمعاتٍ ومدارس ، وحركاتٍ علميَّةٍ ، وفكريةٍ ، وتأليفيَّةٍ ، هي تركيزه على حاجة البشرية إلى النُّبوَّة ، والضغط على أنها الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة ، والهداية الكاملة ، وهو المدخل الرئيسيُّ الكبير إلى تحديد مكانة شيخ الإسلام التحقيقيَّة والتجديديَّة ، ومنزلته بين علماء الإسلام ، والدعاة ، والمصلحين ، وذلك يحتاج إلى شيءٍ من الشَّرح والإفاضة في الموضوع وبيان «الخلفيات» التي لا يمكن الشعور الحقيقي بمدى أهمية هذه المأثرة ، وقيمتها ، بدون الاطلاع عليها ، «وبضدِّها تتبيَّن الأشياء» .

ماذا يثبته القرآن ويعلنه؟

يلحُّ القرآن على أنَّ الأنبياء هم الأدلَّاء على ذات الله وصفاته الحقيقية ،

---

(١) ومثاله كتابه العظيم «منهاج السنة النبوية» .

وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، التي لا يشوبها جهلٌ ولا ضلالٌ ، ولا سوء فهمٍ ، ولا سوء تعبير ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، ولا يستقلُّ بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدَّة الذِّهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق ، وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] فدل على أنَّ الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى ، وعلم مرضاته ، وأحكامه ، والعمل بها ، الذي تمكَّنوا به من الدخول في الجنة ، والوصول إلى دار النعيم.

وقد ختم الله تعالى سورة جليلةً من سور القرآن وهي سورة الصافات ، وقد نفى فيها ضلال المشركين ، وسوء اعتقادهم ، ونسبتهم إلى الله ممَّا هو منه بريءٌ ، فقال في آخر السورة: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض ، فلما نزه الله نفسه العليَّة ممَّا يتفوَّه به المشركون ، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البليغ ، وسلم ، وأثنى عليهم؛ لأنَّهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق ، وفي الوصف الصحيح الصَّادق ، وكانت بعثتهم منَّةً على الخلق ، ونعمةً على الإنسانية ، ومن مقتضيات الربوبيَّة الرَّحيمة الحكيمة ، فختم كلَّ ذلك بقوله: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٨٢].

ضلال الفلسفة اليونانية وسرُّ شقائها وخيبتها:

إذاً فقد ضلَّ ، وتعب ، وجاهد في غير جهاد من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، وصفاته وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلة ، وكيفية إحاطته به ، وقدرته عليه ، ونفوذ أحكامه فيه عن غير

طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه ، وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع ، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية ، وإنتاجه الضعيف المتواضع ، أو العظيم الضخم في بعض مجالاتٍ علميَّةٍ ، وحقَّ عليهم قوله تعالى : ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٦] .

وهذا سرُّ ضلال الفلسفة الإغريقية الإلهية ، وأقطابها ، ونوابغها ، فقد غرَّهم ذكاؤهم ، وعلومهم ، وآدابهم ، وشعرهم الخصب الغنيُّ ، وملاحمهم العظيمة التي نظموها ، ونبوغهم في علوم الرياضة والهندسة ، والإقليدس ، والفلسفة الطبعية والنجوم ، والفلكيات ، فخاضوا في الإلهيات وفي موضوع الذات ، والصفات ، والخلق ، والإبداع ، فجاؤوا بالسَّخيف المرذول ، وبالتهافت المتساقط ، وبالمتناقض المتضادِّ من الآراء ، والأقوال ، والتحكمات ، والتخمينات ، التي صدق حجَّة الإسلام الغزاليُّ رحمه الله في وصفها بقوله :

«ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، لو حكى الإنسان عن منامٍ رآه؛ لاستدلَّ على سوء مزاجه ، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات؛ لقيل إنها ترَّهاتٌ ، لا تفيد غلبات الظنون»[1] .

وقال في موضع آخر : «لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ، فضلاً عن العقلاء الذي يشقُّون الشَّعر بزعمهم في المعقولات»[2] .

دور ابن تيمية في التركيز على ما جاء عن طريق الأنبياء ، وتزييفه لآراء الفلاسفة :

ويأتي ابن تيمية في القرن الثامن الهجري ، وهذا القرن مسحورٌ مبهورٌ بكلام الفلاسفة والمنطقيين ، فيجعل الردَّ عليهم موضوعه الأثير الحبيب ،

---

(١) تهافت الفلاسفة ص/ ١٠٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص/ ١٢٤ .

ويركز عليه في كتاباته وبحوثه ، فيقول مثلاً معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء :

«يتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدَّعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل ، كيف يتكلَّمون في غاية حكمتهم ، ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ، ويجعلون الحقَّ المعلوم بالضرورة مردوداً ، والباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً بكلامٍ فيه تلبيسٌ ، وتدليسٌ»(١) .

وحقَّ عليهم قوله تعالى : ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف : ١٩] وقوله تعالى : ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف : ٥١] .

المقارنة بين الإلهيَّات اليونانية وعلوم الأنبياء وتعاليمهم :

إنَّه يتعجَّب حينما يتناول مباحث العلوم الإلهية لفلسفة اليونان ، وأقوال فلاسفتهم الذين يقرنونها بالعلوم والحقائق التي يأتي بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يقول في حماسٍ زائدٍ ، وقوَّةٍ بالغة :

«إذا نظر في كلام معلمهم الأوَّل ـ أرسطو ـ وتدبَّره الفاضل العاقل لم يفده إلا العلم بأنَّهم كانوا من أجهل الخلق بربِّ العالمين ، وصار يتعجَّب تعجباً لا ينقضي ممن يقرن علم هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء ، ويرى أنَّ هذا من جنس من يقرن دهاقين القرى بملوك العالم ، فهو أقرب إلى العلم والعدل ممن يقرن هؤلاء بالأنبياء ، فإن دهقان القرية متولٍ عليهم كتولي الملك على مملكته ، جزء من الملك» .

وأمَّا ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء البتة ، وليسوا قريبين منه ، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية ، ولست أعني بذلك ما اختصَّ الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لا ينال غيرهم ، فإنَّ هذا ليس من

(١) منهاج السنة ، ج/٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول في الحاشية ، ص : ٢٧٢ .

علمهم ولا من علم غيرهم ، وإنما أعني العلوم العقلية التي بينها الرسل للناس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الرب ، وتوحيده ، ومعرفة أسمائه ، وصفاته ، وفي النبوءات والمعاد ، وما جاؤوا به من مصالح الأعمال التي تورث السعادة في الآخرة ، فإنَّ كثيراً من ذلك لم يشموا رائحتها ، ولا في علومهم ما يدلُّ عليها ، وأما ما اختصت الرسل بمعرفته ، وأخبرت به من الغيب؛ فذلك أمرٌ أعظم من أن يذكر في ترجيحه على الفلسفة ، وإنما المقصود الكلام في العلوم العقلية ، دع ما جاءت به الأنبياء فإنه مرتبةٌ عاليةٌ»(١) .

«بيَّن ابن سينا أمر النبوءة أنَّها من قوى النفس ، وقوى النفوس متفاوتةٌ ، وكلُّ هذا كلام من لا يعرف النبوءة بل هو أجنبيٌّ عنها ، وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء ، وأطباء ، وهو لم يعرف غير الشعراء ، فاستدلَّ بوجود الشعراء على وجود الفقهاء ، والأطباء ، بل هذا المثال أقرب ، فإنَّ بعد النبوءة عن غير الأنبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر ، ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوءة ، رأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قومٍ لم يعرفوا الأنبياء»(٢) .

ويقول في موضعٍ آخر :

«وأبعد هؤلآء عن النبوءة المتفلسفة والباطنية والملاحدة ، فإنَّ هؤلآء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم ، وهو المنام ، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوءة ، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهذا يضلُّ هو وأمثاله من الفلاسفة ، وابن سينا عظّمها أكثر من ذلك ، فجعل للنَّبيِّ ثلاث خصائص : إحداها : أن ينال العلم بلا تعلُّم ، ويسميها القوة القدسية ، وهي القوة الحدسية عنده ، والثاني أن يتخيَّل في نفسه ما يعلمه ، فيرى في نفسه صوراً نورانية ، ويسمع في نفسه لا في الخارج ، فهكذا عند هؤلآء جميع ما يختصُّ به النَّبيُّ مما يراه ويسمعه

(١) الردُّ على المنطقيين ، ص : ٣٩٤ .

(٢) النبوءات : ص ٢٢ .

دون الحاضرين، إنما يراه في نفسه، ويسمعه في نفسه، وكذلك الممرور[١] عندهم، والثالث: أن يكون له قوةٌ يتصرَّف بها في هيولى العالم بإحداث أمورٍ غريبةٍ، وهي عندهم آيات الأنبياء، وعندهم ليس في العالم حادثٌ إلا عن قوةٍ نفسانيَّةٍ، أو ملكيَّةٍ، أو طبعية، وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعَّال.

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء، وأرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم، فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء، فيضعونها على معانيهم، ويسمُّون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء، ثم يتكلَّمون، ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء، فيظنُّ من لم يعرف مراد الأنبياء، ومرادهم أنَّهم عنوا بها ما عنته الأنبياء، وضلَّ بذلك طوائف، وهذا موجود في كلام ابن سينا ومن أخذ عنه»[٢].

الفرق الأساسيُّ بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته:

وقد أشار إلى نقطةٍ علميَّة مهمَّةٍ وهو يتحدث عن الفرق المبدئيِّ بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته، يقول:

«والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل، ونفى عنها التمثيل، وهي طريقة الرسل، جاؤوا بإثباتٍ مفصَّلٍ، ونفيٍ مجملٍ، وأعداؤهم جاؤوا بنفيٍ مفصل، وإثباتٍ مجمل»[٣].

توارد علميٌّ، والتقاء فكريٌّ عقائديٌّ عجيبٌ:

من الموافقات العجيبة، والالتقاءات العلمية الدَّعوية العقائدية التي تثير العجب والإعجاب، ما يجده القارىء المتتبع من حدَّة التفكُّر والتوصل إلى

---

(١) الممرور: من غلبت عليه المرَّة (خلطٌ من أخلاط البدن، وهو الصفراء أو السوداء) وهاجت، فهو ممرور.

(٢) النبوءات: ص ١٦٨.

(٣) النبوءات: ص ١٥٣.

نتيجةٍ واحدةٍ ، والتركيز عليها ، والإلحاح في سبيلها ، في رسائل مصلح آخر تحقق له من النجاح في تغيير مسير التاريخ ، وإنقاذ البلاد بأسرها من خطر الردَّة الدينيَّة الحضاريَّة العلمية الشاملة ، التي تبنَّاها ، واحتضنها ملكٌ من أكبر الملوك ، وأقواهم إرادةً وصرامةً(١) وحاول تطبيقها بجميع وسائل الحكومات وطاقاتها ، مثل ما حصل له ، وهو الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ، (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ الموافق ١٥٦٣ ـ ١٦٢٤م).

وذلك إن دلَّ على شيءٍ فإنَّه يدلُّ على أنَّ الحق واحد ، وأنَّ الإخلاص والتجرُّد في دراسة الكتاب والسنة ، واللجوء إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والتوفيق الإلهي ضامنٌ بالوصول إلى الحقِّ والصواب ، واللبِّ اللباب ، وصدق الله العظيم:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

عجز العقل والكشف وإخفاقهما في إدراك حقائق ما وراء الطبيعة:

أثبت الإمام السَّرهندي ـ بدوره ـ عجز العقل والكشف وقصورهما في إدراك الأمور الغيبية ، والعلوم التي هي وراء طور العقل ، والمعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته ، وإحراز العلم الذي لا يشوبه شكٌّ ، والحقائق الثابتة القطعية التي لا تخالجها شبهةٌ ـ بحتميةٍ ويقينٍ ، وأنَّ النتائج المكتسبة بهما لا تخلو من الشكِّ والرِّيبة ، والخطأ والزلَّة ، وسوء الفهم ، والتحريف ، ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذات الله سبحانه ـ وصفاته إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وراء طور الحسِّ؛ فإنَّ النبوة وراء طور العقل ، ولا سبيل إلى معرفة

(١) وهو الإمبراطور المغولي جلال الدين أكبر (٩٦٣ ـ ١٠٤١ هـ الموافق ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥ م) ابن الملك نصير الدين همايون بن ظهير الدين بابر مؤسس الحكومة المغولية في الهند ، يراجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي «الإمام السَّرهندي» الجزء الثالث من سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع دار ابن كثير ـ دمشق.

الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه ، وتحميده ، وتمجيده إلا النبوءة ، وتعاليم الأنبياء ، وأخبارهم[١] .

وقد وقع حكماء اليونان بهذا الصَّدد في زلاّتٍ خطيرة ، وأخطاء فاحشةٍ ، فكما أنَّ العقل الخالص ، والعقل المجرد ليس له وجود ، كذلك الكشف الخالص ، والكشف المجرَّد ـ الذي يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية ، والأهواء الداخلية صعب الوجود ، بل عديم الوجود ، وقد زلَّت أقدام الإشراقيين ، وأصحاب صفاء النفس ، وسموِّ الرُّوح ، ووقعوا فريسة الأوهام والجهالات ، كما زلَّ زعماء العقل والفلسفة ، فالعقل والإشراق لا يغنيان في الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئاً ، والبعثة المحمَّدية ، والرسالة النَّبويَّة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله ـ تعالى شأنه ـ وصفاته وأحكامه .

وأعلن الإمام السَّرهندي في قوةٍ ، ووضوحٍ وفي رسائل كثيرة : إنَّ من المستحيل تجرُّد العقل وخلوصه ، وأنَّ العقل ـ كالحواسِّ الأخرى ـ يتأثر بالعقائد ، والمسلمات الداخلية ، والعوامل ، والتأثيرات الخارجية ، وإنَّ كثيراً من استنتاجاته ، وأحكامه تتلوَّن بالألوان الخارجية التي يكون وجودها في داخله ، أو باطنه ، وتمتزج به[٢] .

---

(١) يرجع للتفصيل والاطِّلاع على نصوص الموضوع «رسائل الإمام السَّرهندي» ، أو كتاب العلامة الندوي «الإمام السرهندي» طبع دار ابن كثير ـ دمشق .

(٢) ومن عجيب المصادفات والدلائل على صحة نتيجة البحث العلمي الخاص ، أن الفيلسوف الألماني الشهير إمانويل كانت (Emanuel Kant 1729 - 1804) بدأ ـ بعد قرابة قرنين من وفاة الإمام السَّرهندي ـ البحث الموضوعي ، والتحقيق العلمي في صلاحية العقل لتجرُّده ، وتحرُّره عن البيئة وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات ، والحكم الفاصل في قضيةٍ من القضايا ، إنه عَيَّن حدود العقل ، ودوائره في شجاعةٍ ووضوحٍ ، واستبعد وجود العقل الخالص ، ونشر كتابه الخطير «نقد العقل الخالص» (Critique of qure Reaon) عام (١٧٨١م) الّذي أحدث هزةً واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية ، وكما يقول الدكتور محمد إقبال إنَّه هدم ـ أعمال المتنوِّرين وحوَّلها إلى كومةٍ من تراب» .

The Recons truction of Religioue The ught in islam

وأثبت أنَّ العقل قاصرٌ عن أن يكون حجةً وبرهاناً ، وأنَّ بعثة الأنبياء هي الحجَّة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة .

«ولكن الحقيقة ، ولبَّ لباب العلم ، والعرفان : أنَّه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف إلا طريق الأنبياء الذين شرفهم الله ـ تعالى ـ بمنصب النبوءة والرسالة ، ورزقهم أكبر قسط من العلم بذاته وصفاته ، وبملكوت السموات والأرض ، وأخبرهم ـ مباشرةً ، ومن دون وسائط ـ بما يرضاه وما لا يرضاه ، وبما يأمره ، وما ينهى عنه ، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه ، وأنَّ نبوءتهم ورسائلهم منَّةٌ عظيمةٌ على هذه الدنيا ، ونعمةٌ ظاهرةٌ ، وما يعطونه من علمٍ جليلٍ بذات الله وصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى ـ من غير مشقَّة ، وبدون مقابل ـ لا يمكن إحراز ذرَّةٍ من ذراته ، بالتأملات الفلسفية ، والبحث والاستدلال ، على مدى آلاف السنين ، وبالمجاهدات الشاقَّة ، وتصفية النفس ، والمراقبة ، والتفكير لأعوامٍ وسنين .

وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون[1] .

وبالجملة فإنَّ هذا العمل التجديديَّ ـ وهو التركيز على أنَّ النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة ، والهداية الكاملة ـ له قيمته العلمية ، والعملية الكبيرة ، والأثر البعيد في الحياة في كلِّ زمانٍ ومكان ، وإن كان العصر عصر الفلسفات وما بعد الطبيعات ، أو كان عصر المدنيات ، والتنظيمات ، والسياسات ، كما هو الشأن الآن ، فإنَّ الحياة لا تصلح ، ولا تستقيم إلا في ضوء الهداية السماوية والتعليمات النبويَّة ، وصدق الله العظيم :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ـ ١٦] .

* * *

---

(١) الفكرة مقتبسة من رسائل الإمام السَّرهندي .

المعـوِّقـات الّـتـي تعتـرض طـريقنـا إلـى الله سبحـانـه وتـعـالـى

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندويُّ بدعوة من معالي الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع وزير الحج والأوقاف في المملكة العربية السعودية ـ في منى في مساء اليوم الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٤٠١هـ أمام جمعٍ كبيرٍ من حجاج بيت الله الحرام وعددٍ كبيرٍ من المستمعين الوافدين من مختلفِ الأقطار والبلاد ، نقدّمها هنا نقلاً من الشَّريط المسجّل إلى القراء الكرام ، لما فيها من توجيهات وإشارات حكيمة مفيدة مستفادةٍ من كتاب الله العزيز الحكيم والتأمُّل في القرآن والسيرة النبوية .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد . . .

صاحب المعالي وزير الحج والأوقاف . . .

حضرات المستمعين الكرام . .

إنِّي لا أرى تفصيلاً أدقَّ وأصدق من تصوير الله تعالى في كتابه المبين للحالة النفسية التي تنتاب الإنسان إزاء الابتعاد عن الله سبحانه وتعالى. قال عزَّ من قائل :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨].

وهذه معجزةٌ بيانيةٌ من معجزات القرآن الكريم الكثيرة ، أقول عن نفسي يحقُّ لي أن أشهد على نفسي فيما أراه وأشعر به ـ ويشهد به القرآن فلم أكن أتصوَّر لولا هذه الآيات ـ أن تعتري الإنسان أو يعتري مجتمعاً من المجتمعات البشرية الكثيرة ، وهو في فترة من الفترات الزاهية المتعدِّدة ، حالةٌ نفسيَّةٌ تضيق فيها الأرض بما رحبت.

الإعجاز البيانيُّ في القرآن الكريم :

إنَّني كنت أعرف بأنَّ الأرض قسمان ، لا ثالث لهما ، أرضٌ رحبةٌ ، واسعة الأرجاء فسيحةٌ ، وأرضٌ ضيِّقةٌ ، أما أن تكون الأرض في وقتٍ واحدٍ رحبةً وضيقةً ، رحبةً على بعض أفراد البشر ، وضيقةً على البعض الآخر من البشر ، فوالله ما كنت أتصوَّر هذا لولا هذه الآية القرآنية الكريمة ، ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة : ١١٨].

إنَّ هذا نوعٌ من المتناقضين ، أرضٌ واسعة الأرجاء ، أرضُ الله

الواسعة ، ثم تضيق على بعض النفوس ، وتضيق على بعض المجتمعات البشرية ، فهذا ما لم أكن أتصوَّره .

وكذلك تعبير القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٨] .

هل تضيق نفس الإنسان على الإنسان . . . ؟ هل هذا ممكن؟ ما كنت أتصور هذا أيضاً .

ولكن هنالك حالةٌ نفسيَّةٌ يعيشها الإنسان ، يعيشها فردٌ من أفراد البشر ، أو يعيشها مجتمعٌ من المجتمعات البشرية في بعض الأحيان ، بل وفي أحيانٍ كثيرةٍ مجتمع من المجتمعات البشرية الراقية والمتحضرة ، التي قطعت أشواطاً بعيدةً وواسعةً في مجال العلم ، وفي مجال الحضارة ، وفي مجال الاكتشافات والاختراعات ، ولكنها حالة معيَّنة تمرُّ بها ـ غالباً ـ هذه المجتمعات .

والله سبحانه وتعالى هو الذي يحاسب على القوَّة ، لو وضع أمامنا هذا الواقع ، وهذه الحقيقة الجسمية ، وهي أنَّ الإنسان إذا ضاق عليه صدره ، أو ضاقت عليه نفسه؛ فإنَّ الأرض تضيق عليه بما رحبت ، إنَّني أرى أنَّ هذا المجتمع البشريَّ في هذه الفترة الزمنية التي نعيشها الآن ، وتعيشها أوربا ، وأمريكا ، ويعيشها العالم الإنسانيُّ هي الحالة النفسية التي صورها القرآن الكريم في قول الله عز وجلّ ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة : ١١٨] .

ضاقت علينا نحن الخاضعين للقيم الماديَّة ، للمثل المادِّية ، نحن نعيش هذه الحالة النفسية فكما أنَّ السمكة لا تعيش إلا في الماء ، والإنسان لا يعيش إلا في الهواء ، فكذلك المجتمع البشريُّ مهما بلغ من الرقيِّ ، ومهما بلغ من الازدهار ـ ازدهار المدنية ، وازدهار الصناعة ، وازدهار العلوم ـ فإنَّ هذا المجتمع لا يستطيع أن يعيش عيشةً طبيعيَّةً بنفسيةٍ سليمةٍ مريحةٍ مرضيةٍ كريمةٍ إلا إذا كان مصاحباً للإيمان بالله تبارك وتعالى .

الإيمان بالله يزيد من ثقة الإنسان بنفسه :

مع مفهومنا الذي نعرفه ، فإنَّ من المسلَّم به أنَّنا لا نملك الإيمان لا

نملك زمام الأمور ، نحن نعيش بالتبعية ولا نعيش بالأصالة ، لا نعيش بالثقة في تعاليم ديننا الإسلاميِّ الحنيف ، إننا نعيش مستعبدين سياسياً في كثيرٍ من هذه الأرض ، نعيش مستعبدين ثقافياً وعقلياً ، واسمحوا لي في هذه الكلمة القاسية ، فإنني أشارككم فيها ، ولعلي ما كنت أقلَّ نصيباً منكم ، ولا أقلَّ نصيباً من أي شعبٍ مسلم .

إننا نعيش بالتبعية ، نعيش كلنا مستعبدين مع الأسف الشديد ، ومع المعذرة لديننا ، ومع المعذرة لإيماننا ، وما أحوجنا إلى هذه الأرض المباركة الطيبة انبثق منها النور ، والتي أضفت على العالم الإنساني كلِّه نوعاً من الإيمان تبارك وتعالى ، لم يكن لأوربا مثله ، بل وليس له مثيل في تاريخ الديانات .

فمن هنا تولَّد هذا الشعور ، ومن هنا جاء دور الشعوب في تحقيق الأمن والأمان لهذه الأرض. . . هذه الأرض التي نتحدَّث إليكم منها. . . . إنَّها من فضل الله تعالى .

فشكراً لمعالي الوزير ، لأنَّ هذه الأرض هي التي شحنت نفوسنا بالثقة ، شحنت نفوسنا بالاعتزاز ، شحنت نفوسنا بالإيمان بالله تبارك وتعالى ، ذلك الإيمان المتجدِّد ، المتوقِّد ، المشتعل ، المنفعل؛ الذي ما مرَّ به إنسانٌ منذ ابتدأت أيامه إلى صدره ، هذه الأرض هي التي أضفت على العالم الإنسانيِّ بعضها الفاقد للثقة ، الفاقد للاعتزاز ، اليائس من نفسه ، اليائس من مستقبله ، اليائس من مصيره ، اليائس من مصير الإنسانية جمعاء ، اليائس من كراهية الإنسان لأخيه الإنسان ، اليائس من نصرة الإسلام الذي أكرمه الله به .

هذه الأرض الطيبة الطهور الفريدة هي التي نقلت هذه الثِّقة إلى أبعد أرجاء العالم ، فضلاً عن الأمة الإسلاميَّة التي صارت تسعى على قدميها معتـزَّةً بدينها ، معتزةً بتعاليم نبيِّها ﷺ ، معتزَّةَ بهذه الثقة التي تركَّزت في كمال هدفها ، بهذه الثقة التي كانت ملتهبةً وملهبةً في وقتٍ واحدٍ ، ملتهبةً في نفوس أصحابها ، وملهبةً لنفوس الآخرين .

على كلِّ حالٍ فنحن نتحدَّث في ظلال البيت العتيق ، وفي رحاب الكعبة المشرفة ، وفي رحاب الحرم الشريف مستشعرين بحمد الله في هذا الملتقى الكريم في منى التي تقام فيها شعائر الله تبارك وتعالى ، نلتقي هنا لنلتمس فضائل أصبحت تعيش في وجدان كلِّ مسلم ، ومعذرةً يا إخواني ! فإنَّ البعد عن الله سبحانه وتعالى هو مصدر هذا التعب ، وفقدان الثِّقة بالنفس ، بل حياة التبعية والتطفل ، حياة البلبلة الخاشعة الخاضعة ، حياة الصفقة الخاسرة أمام الضمانات الغربية ، وأمام هذه المظاهر الخلابة.

الأرض الإسلاميَّة مصدر ثقةٍ وإلهامٍ :

قبل كل شيءٍ علينا أن نعيد إلى أنفسنا تلك الشحنة الإيمانية التي أرادها الرسول ـ ﷺ ـ لأصحابه في تلك الأرض القاحلة الجرداء التي لم يكن فيها ما يجذب الطامعين والمغامرين من أولئك المستعمرين ، ومن الحكام المستعبدين ، هذه الأرض التي تجردت من كل ما يجذب النفوس الطامعة ، هذه الأرض كانت مصدر الثقة ، هذه الأرض كانت مصدر الاعتزاز ، هذه الأرض كانت مصدر الإيمان ، الإيمان الذي جعل من الأموات أحياءً ، ومن الضعفاء أقوياء ، ومن الجهلاء علماء ومعلمين ـ حاشا لله ـ المعلمين الذين نقلوا بمعارفهم أفضل المعاني الإنسانية ، ومن الإنسانية البدائيَّة أصبحوا قادة الأمم ، أصبحوا هم الذين يقودون الأمم ، وكانوا يقودون بالأمس الأنعام والإبل ، كلُّ ذلك يذكرنا بهذا الماضي المشرق الوضاء؛ الذي يجب أن تقتحموه ، فهو زادٌ لنا ، ومعرفةٌ لنا ، إنَّ الإسلام دعا إلى الإيمان ، وهو وحده الداعية الذي دعا الشعوب الراقية المتحضرة التي كانت تعيش في ظلمة الجاهلية إلى الإسلام ، وإلى معرفة الخالق جلَّ وعلا ، هذه الحقيقة الخالدة ليست قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو مع الرسول ـ ﷺ ـ والتي ذكرتها الآية الكريمة ونعني بهم: كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أميَّة الواقفي ، لا . . . لا ، وإنما هي قصَّة حضارتنا ، قصَّة مجتمعنا ، مجتمعنا الذي نعيشه الآن ، المجتمع الإسلاميِّ بما فيه من الدم العربي والأعجمي في الشرق والغرب ، واسمحوا لي أن أقول: هذه

القصَّة ، وهذا المجتمع كان يعيش تلك الحالة النفسية التي عاشها هؤلاء الناس أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ عيشةً قصيرةً مؤقَّتةً ، ولكنهم عاشوها على عهد النبي الكريم عليه أفضل الصلاة ، وأزكى التسليم .

هذه الحالة النفسية التي يعيشها المجتمع الإسلامي ـ الآن ـ في مشارق الأرض ومغاربها ، واسمحوا لي أن أقول بكلِّ صراحة ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت في الدول الإسلاميّة وفي الممتلكات الإسلامية ، وفي المنجزات الإسلامية ، وفي هذه الخيرات والنعم الوفيرة التي أكرمنا الله بها ، والتي تركناها ونحن نعيش هذا التفكك ، وتلك الآراء الحضارية ، وبذلك يصدق علينا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة : ١١٨] .

نعم ضاقت علينا الأرض رغم اتِّساعها ، وضاقت علينا أنفسنا ، المشكلة في داخلية أنفسنا .

لا ملجأ من الله إلاّ إليه :

فنحن ـ بني الإنسان ـ نؤمن إيماناً صادقاً مخلصاً ، لا نفاق فيه ، ولا تردُّد فيه ، نؤمن بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فقد آمن بذلك هؤلاء النفر الثلاثة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ .

آمنوا إيماناً مخلصاً ، في هذه الأسابيع المعدودة ـ لمسوا بأيديهم ، وشعروا بأنفسهم ، وقلوبهم ، وعقولهم فحوى هذه الحقيقة : أنَّه لا ملجأ من الله إلاَّ إليه .

والحقُّ أنَّ عندي شكّاً كبيراً في أننا أصبحنا نؤمن بأن : لا ملجأ من الله إلاَّ إليه ، والله إنِّي أشكُّ في ذلك ، لا أشهد لنفسي ولا لأحبِّ إخواني ، لا أشهد بأنهم قد آمنوا بأنه : «لا ملجأ من الله إلا إليه» .

إننا نعيش حياة لا تخلو من النفاق والغشِّ والرياء ، لا تخلو من الدمار ، لا تخلو من الشكِّ ومن التردُّد .

إنَّنا كمسلمين ومؤمنين نؤمن بكلِّ العقائد الإسلامية ، ولكنا أصبحنا

نؤمن في أعماق نفوسنا بأنه لا ملجأ لنا من الله إلا إليه ، فهل آمنت به الجامعات الإسلامية؟

هل آمنت به المجامع العلمية؟ هل آمنت به هيئات الترابط في العالم الإسلاميِّ؟ عندي شكٌّ كبيرٌ في أننا قد أصبحنا نؤمن بقلوبنا ونفوسنا وعقولنا في ذلك.

يجب أن يكون لشعوبنا شعورٌ عقليٌّ ، نفسيٌّ ، قلبيٌّ ، نورانيٌّ ، علميٌّ ، هذا الشعور المفروض هو الشعور المتَّزن ، والشعور العاقل الواعي ، عندي شكٌّ كبيرٌ ـ كما قلت ـ في أننا قد أصبحنا نؤمن بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

كم منا من يعتقد أنه ملجؤه فيما يعكِّر صفوه ، ويعكِّر دمه؟ وفي حالات تقدُّم الصناعة ، والتقدُّم الحضاريِّ ، واكتشاف الثقافة ، هل له من قيمة؟

ولكن يجب إذا أردنا أن ننتقل من هذه الحالة النفسية الكئيبة ، والأليمة ، والحزينة الخانقة التي عاشها أولئك النفر الثلاثة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وما استطاعوا أن يعيشوها لأنَّهم عرفوا أن لا ملجأ لهم من الله إلا إليه ، ولما كان إيمانهم صادقاً بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه ، عند ذلك تاب الله عليهم ، قال عزَّ من قائل في محكم كتابه ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١١٨].

ولا يسبُّ الدهر ، ولا يلقي بالأذى على المجتمع الإسلاميِّ في غير رحمةٍ ، لا في منى ، ولا في المزدلفة ، ولا في عرفات ـ سامحوني ـ إلا إذا أصبح المسلم غير مؤمنٍ بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

والآن هل الطريق ظاهرٌ ومفتوحٌ؟ الطريق الذي كان مفتوحاً ، ولا يزال مفتوحاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هو الطريق الذي يؤمن بكل إخلاص وصدق بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

نجاح النَّدوة في اختيار زمانها ومكانها :

وهذه الندوة خيرُ أوانٍ وخير مكانٍ لشرح هذا الموضوع ، وقد أحسن

معالي الوزير اختيار هذا الموضوع ، وأحسن أيضاً اختيار المكان الذي نحن فيه الآن ، فإنَّ كلَّ حصاةٍ من حصيات هذه البطحاء من صحراء منى ، وكلَّ ذرَّةٍ من ذرات هذه الصحراء تشهد إن كان لها لسان بأعلى صوتها بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه .

يا حجاج بيت الله الحرام! يا قاطني هذه البقعة المباركة بمشاعر الحجِّ المقدسة! حرامٌ عليكم أن تعودوا إلى أماكنكم ، وإلى أوطانكم حتى تؤمنوا هنا في منىً ، وفي عرفاتٍ ، وفي المزدلفة ، وفي رحاب بيت الله بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فإنَّنا والله هذه الساعة التي نعيشها الآن تخدم الإسلام والمسلمين ، وتعدُّ كمؤشرٍ بسيط في تكوين الفكر الإسلاميِّ الصحيح .

وإلى الآن ما علم المسلم حقيقة العالم الإسلاميِّ بفكره ، وبآماله ، وتطلعاته ، وبكل ما يحتويه من ثرواتٍ وخيراتٍ ، كما في هؤلاء القوم بعلمائهم ، وعظمائهم ، ومشايخهم من رجال الدين ، والمرشدين ، والدعاة ، ورجال الحكم ، وأهل الفضل ، ما علم إلى الآن بأنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه ، إنَّ الألم ـ فعلاً ـ أضاع منا الطريق. إنَّ الألم والحزن هما اللذان يسيطران علينا ، ولكن إرادة الله سبحانه وتعالى حينما تنضج ، تنمَّحي الفجوة بين المسلمين في مثل تلك الساعة المباركة الحاسمة التي يكون المسلمون فيها ـ مجموعةٌ كبيرةٌ منهم ـ يتشاورون فيما يهمُّ المسلمين ، وذلك واجب كلِّ مسلم ، وهي في الواقع مجموعةٌ كريمةٌ فاضلةٌ لها الوزن ، ولها العبرة كي يقولوا : «لا ملجأ لنا من الله إلا إليه» وهذه خير ساعةٍ ، وخير مكانٍ ، وخير أوان لأن نقول هذا قبل أن نرجع من هنا ، نقول : لا ملجأ لنا من الله إلا إليه ، نؤمن به ثمَّ نرجع إلى الله ، فإنَّ العودة إلى الله طريق النجاة .

وإنَّني أقرِّر هنا أيها الإخوة أنَّ هذا هو خطُّ الأرض الصَّالحة ، وأنَّ طريق المسلمين في الأرض الصالحة هو الصدقُ ، والواقعية ، والتَّصميم ، صدقٌ مع الله ، صدقٌ مع التعاليم الإسلاميَّة ، يجب علينا أن نقول فيها «لا ملجأ لنا من الله إلا إليه» .

كلمـة خـتـامـيــة :

لم أكن أتصوَّر هذا ، ولكن هناك حالةٌ نفسيَّةٌ يعيشها الإنسان ، يعيشها غيره من أفراد البشر ، وأحياناً يعيشها الإنسان ، وأحياناً يعيشها مجتمعٌ من المجتمعات البشرية ، وفي أحيانٍ كثيرةٍ يعيشها مجتمعٌ من المجتمعات البشرية الراقية المتحضِّرة القاطعة أشواطاً بعيدةً في مجال العلم ، وفي مجال الحضارة ، وفي مجال الثقافة والمخترعات ، ولكنَّها حالةٌ تمرُّ بها هذه المجتمعات ، والله تعالى الذي يحافظ على عقولنا لو وضع أمامنا هذا الواقع ، وهذه الحقيقة الجسمية ، وهي أنَّ الإنسان إذا ضاق عليه صدره ، وإذا ضاقت عليه نفسه ، فإن الأرض تضيق عليه بما رحبت .

هذا أيها الإخوة الكرام! ما أردت أن أقوله في حديثي حول هذا الموضوع وهو أنه : لا ملجأ من الله إلا إليه .

فنحن نعيش تلك الحالة النفسية التي كان يعيشها المسلمون ، ويعيشها العالم الإسلاميُّ في هذه الأيام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

تقدير العزيز العليم

هذه الكلمة ارتجلها العلامة الندوي في قاعة مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في ٢٠/ أغسطس أمام حشدٍ كبير من المثقفين والعلماء وأعضاء الجمعيات والجماعات الدينية والإسلامية في المملكة المتحدة.

سادتي وإخواني! يسعدني أن أتحدَّث باللغة العربية التي كانت ولا تزال هي الوسيلة الكريمة العالمية للتعبير والتعارف ، ولولا هذه اللغة ، لغة الإسلام الرَّسمية دائماً ، ولغة القرآن ، لما كان لي أن أتحدَّث بها في بقعةٍ أوربيةٍ ، وبلدٍ أوربيٍّ ، وفي رحاب جامعةٍ كبيرةٍ عتيقةٍ كتبت لها السيادة والاختصاص في كثيرٍ من العلوم .

إني أوثر اللغة العربية وأقدِّمها ، وإذا اجتمعت عدَّة لغات كان للغة العربية فضلٌ عليها ، أقول ذلك عن إيمانٍ وعن ثقةٍ .

إنَّ وجود هذه الجامعة الإسلامية باختلاف أغراضها ، وأهدافها ، وجنسياتها ، وثقافاتها في بقعةٍ ومنطقةٍ قد حكمت نصف العالم تقريباً ، وكان لها التوجيه العالميُّ والسيطرة ، ليست السيطرة غير السياسية فحسب ، بل السيطرة الفكرية ، والتوجيه العلميُّ ، والثقافيُّ .

إنَّ وجود الجالية الإسلامية في هذه المنطقة الأوربية فرصةٌ ، لا أقول صدفةً ، أنا لا أومن بالمصادفات ، إنَّها تقدير العزيز العليم ، يقول الله عز وجل : ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس : ٣٨] إنَّ القوة الموجِّهة إذا كانت عزيزةً قادرةً فحسب لا تستطيع أن تحقق أغراضها إلا أن تتَّخذ خطَّةً حكيمةً ، فوصف الله نفسه كذلك بالعلم .

إنَّ وجودكم في هذه البلاد ليس صدفةً ، ليست الأغراض الاقتصادية ، والدوافع المادِّيَّة هي التي دفعتكم إلى هذه البلاد ، لا أومن بأنَّ وجودكم هنا صدفةٌ ، إنَّما وجودكم في هذا الاجتماع في هذا العدد ليس كمَّاً فقط ، بل كيفاً كذلك ، ففيكم الأدباء ، والعلماء ، والمؤرِّخون ، إنَّ وجودكم هنا تقدير العزيز العليم ، إنَّه منَّةٌ ومحنةٌ :

إنَّه منَّةٌ لأنها تعود فائدتها إلى الإسلام ، وتعود عليكم بالخير الكثير ، وأكبر نعمةٍ بعد النبوة أن يختار الله عزَّ وجلَّ طائفةً لتمثيل الحياة الدينية ، إنَّ الله قدَّر لكم ، وقيَّضكم لتمثيل الحياة الإسلامية في هذا المجتمع الأوربي .

إنَّها محنـةٌ لأنَّ الأوضاع والدوافع مختلفةٌ ، والمصيبة الكبرى إذا كان الدافع اقتصادياً فحسب ، أو سياسيَّاً فحسب ، فكثيراً ما يضيع القول الحقُّ .

هذه البلاد ـ ومعذرةً إلى سكانها ـ منكوبةٌ ، لأنَّ صلتها انقطعت عن التعاليم النَّبويَّة ، وتاريخ الأنبياء ، وسيرهم ، انقطعت صلتها عن أسباب فلاح الإنسان وسعادته ، كانت النفسية السياسيَّة هي الغالبة عليها ، والنفسية التي تملكها الآن ، وتسيطر عليها هي نفسيةٌ اقتصاديَّةٌ استغلاليَّةٌ .

إنَّ الدعوة ، ومعرفة نفسية الإنسان ، ومقاومة المغريات المادِّية ، والمغريات التي تنبع من القلب ، وأعماق النفس محنةٌ كبيرة .

على كلِّ حال هذه فرصةٌ غاليةٌ جدَّاً لتمثيل الإسلام والحياة الدِّينيَّة ، إنَّ الإنسان مفطورٌ على إجلال شيءٍ لا يجده عنده ، فالفقير مفطورٌ على إجلال الغنيِّ ، والمريض الضعيف مفطور على إجلال الصحيح القويِّ ، والجاهل مفطورٌ على إجلال العالم ، حتى اللئيم مفطور على إجلال الكريم ، والجبان مفطور على إجلال الشُّجاع .

ماذا ينقص هذه البلاد؟ التقدُّم ، الصناعة ، التكنولوجيا ، المراكز العلمية؟ ـ ومعذرةً إلى جامعة أوكسفورد التي يقوم فيها مركزٌ للدراسات الإسلاميَّة ـ لا ينقصها شيءٌ من هذا ، إنما ينقص هذه البلاد الإيمان بالله ، الإيمان الجازم ، الإيمان المالك لأزمَّة الإرادة ، والأهواء ، والشهوات ، ينقص هذه البلاد الإيمان بالآخرة إيماناً حيَّاً قويَّاً ، ينقصها الرحمة والانعطاف للإنسانية ، ورقَّة النفس ، والتجرُّد ، والانقطاع إلى الله ، ينقصها الإيمان الرَّاسخ الحيُّ القويُّ المحرِّك ، الإيمان الذي يملك على النفس إرادتها ، ورغباتها .

أحكي لكم قصةً : كان رجلٌ في الجاهلية يدعى جبَّار بن سُلمى ، كان معروفاً بشدَّته ، وغلظته على المسلمين . كان من أعدى أعداء الإسلام ، قاوم مرَّة في ساحة العرب أحداً من المسلمين اسمه حرام بن ملحان ، فطعن طعنةً في جوفه نفذت من جانب إلى آخر ، طعنةً قاضيةً ، فخرَّ صريعاً ، وقال وهو يلفظ نفسه الأخير : فزت ورب الكعبة! فتخيَّل جبار بن سُلمى ،

ما هذا؟ هاجمته ، فقتلته ، وهو على وشك الموت ، وهو يعرف أنَّ أولاده سيكونون أيتاماً ، وزوجته أرملةً ، وهو يعرف أنَّه قد فقد الحياة ، ومرافق الدنيا ، ونعيمها ، ولذَّتها والمآكل والمشارب ، ولا يمكن أن يسمَّى هذا كذباً ، فإنَّ العرب لا يوجد فيهم الكذب ، ولا النفاق ، إنَّ العرب لم يشاهدوا نفاقاً في مكَّة ، إنما جربوا النفاق في المدينة حيث اليهود ، تصوَّر كل ذلك ، وهل يكذب في الوقت وهو يلفظ نفسه الأخير؟! وقال: أعرف معنى الفوز ، وهو كذلك يعرف معنى الفوز ، الفوز في الكرامة ، والشرف ، والتذوُّق بنعمٍ كثيرةٍ من المآكل والمشارب ، وكلٌّ يعرف معنى الفوز ، فاستغرب ، لماذا قال: فزت وربِّ الكعبة! أنا أراه خاسراً ، قد خسر كلَّ شيءٍ من الدنيا ونعيمها وملذَّاتها ، لما أسلم جبار سأله أحد المسلمين : كيف أسلمت وكنت من أعدى أعداء الإسلام ، ومعروفاً بغلظتك على المسلمين؟ قال: إنَّ قصتي أنِّي هاجمت رجلاً من المسلمين ، فطعنته طعنةً كانت القاضية ، ورأيته يشحط في دمه ، ولم يبك ، ولم يحزن ، بل قال: فزت ورب الكعبة! قالها بكلِّ ثقةٍ وطمأنينةٍ .

تحيَّر جبار بن سلمى ، هل للفوز مستويان ، هل التوى عليَّ فهم هذه الكلمة ، الفوز عند المسلم هو لقاء الله عزَّ وجل ، إنَّه يؤمن أنه سينتقل إلى نعيم الله عز وجل .

إنَّ أكبر شيءٍ يقلب الحقائق ، ويُحدث انقلاباً في شخصٍ هو رؤية شيءٍ وتجربة بشيءٍ لا يجده في مجتمعه .

مسؤوليتكم أن تعرضوا على أهل هذه البلاد شيئاً لم يجربوه ، ولم يعهدوه ، وهو الإيمان ، الإيمان بالله والآخرة ، هو إيثار العاجل على الآجل ، هو التقيُّد بالقيود الخلقية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون ، وعدم عبادة الدُّنيا ، وثرواتها ، وكراماتها ، هذا الشيء هو الذي ينقص هذه البلاد ، المكتبات هنا طافحةٌ ، وفيها كلُّ شيءٍ من العلوم ، والفنون ، والصناعات ، تنقصها الحياة التي تقوم على أساس الإيمان بالآخرة ، وعلى

الصدق ، هذه البلاد جربت كلَّ شيء إلا تعاليم النُّبوَّة ، والحياة الممثلة للكتب السَّماوية.

مما يروى عن الإمام الزُّهري رحمه الله تعالى أنَّه قال: إن العدد الذي أسلم في الفترة التي بين صلح الحديبية وفتح مكة وهي سنتان أكبر بكثيرٍ من العدد الذي أسلم في السنوات التي قبلها وهي ثلاث عشرة سنة في مكَّة وعشر سنوات في المدينة.

لماذا هذا الفرق الكبير؟ كانت هناك حواجز ، قلَّما كان مشركٌ أو كافرٌ يشاهد مسلماً في الحياة الفردية والجماعية ، كانوا يقابلون المسلمين في ساحة الحرب ، فكلُّ معلوماتهم كانت ترجع إلى ساحة الحرب وبعض الصدف ، ولكن لما رفعت هذه الحواجز ، وأمكن لكلِّ قرشيٍّ أن يقابل أخاه ، أو ابنه ، أو أقاربه في المدينة ، فهذا يزور ابن عمِّه ، يرى أنَّه يجوِّع أطفاله وامرأته ، ويجوِّع هو نفسه ويطعم ضيفه ، ويكرم زائره ، وأنه لا يغضب ، إنَّه راهبٌ بالليل وفارسٌ بالنهار ، يرقُّ لكلِّ إنسانٍ ، كانت ألوفٌ من الدلائل ، والبراهين لا تساوي قضاء ليلةٍ واحدةٍ مع مسلمٍ.

فهذا أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه ، ذهب بضيوف النَّبيِّ ﷺ إلى بيته ، وسأل زوجته : هل من طعام؟ فقالت: لا ، إلا ما يكفي الأولاد ، قال: علِّليهم ونوِّميهم ، فإذا قدَّمتِ الطعام ، أطفئي السِّراج وكأنك تصلحينه ، فأطعم ضيوفه وأظهر لهم كأنَّه يأكل معهم ، وبات جائعاً ، وبات أهله جائعين ، فنزلت: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

هذه حياةٌ لم يجربها الغرب ، هذا شيءٌ جاذبٌ ، فيه قوَّةٌ كيماويَّةٌ ، فيه قوةٌ أكبر من الطاقات الكيماوية ، إذا مثلتم هذه الحياة ؛ فإنَّه سيدخل عددٌ كبير من الغربيين في الإسلام.

الشيء الوحيد الذي تفتقر إليه هذه البلاد هو تمثيل حياة إيمانيَّةٍ أخرويةٍ مثاليَّةٍ مبدئيَّةٍ خالصةٍ.

أيها الأساتذة العرب! وصل إلينا الإسلام عن طريقكم ، أنتم الأساتذة ،

ونحن التلاميذ ، حاولوا أن تطبقوا هذه الحياة ، إذا مثلتم هذه الحياة الدينية المثالية في متاجركم ، ومع زملائكم ، في الوظائف ، وفي السوق ، وفي الكليات ، والجامعات ، فإنه سيأتي بالعجب العجاب .

لما غزا السيد الإمام أحمد الشهيد رحمه الله ، زعيم أكبر حركة جهادية في شبه القارة الهندية[١] ، لما غزا بشاور ، وفتحها ، بقي فيها هو وجيشه مدَّة أسابيع ، فأُمسِك يوماً أحدُ المواطنين بيد بعض المجاهدين ، وسأله : هل في عيونكم شيءٌ ، هل تشكون من قصر النظر ؟ قال : لا ، عيوننا سليمةٌ ، كلنا نحمل عيوناً سليمة ، نحن نبصر الشيء البعيد كما تبصرون أنتم ، ولكن ما الذي حملك على هذا السؤال؟ ما الذي دفعك إليه؟ قال : إني أراكم هاجرتم أوطانكم منذ سنوات ، وأنتم شبان ، ما رأيت أحداً منكم ينظر إلى امرأة ، لو كان بعض رجال الدين لا ينظرون إلى النساء لما استغربت ، ولكني أرى كلكم تغضُّون أبصاركم ، مع أنكم شبَّان ، والجيش معروف بحريته ، فالجيش إذا فتح بلداً تصرَّف فيها تصرُّفاً حُرّاً ، فقال ذلك المسلم المجاهد : هذا تطبيق لقوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور : ٣٠] ، وهذه تربية إمامنا .

إذا كانت حياتنا في هذه البلاد كمثل هؤلاء المجاهدين وهم كانوا قبل قرن ونصف قرن تقريباً .

إذا أنشىء في لندن ، أو في أيِّ مدينةٍ أوربيةٍ مجتمعٌ إسلاميٌّ ، مسلمٌ بكلِّ ما في الكلمة من معنى ، مسلمٌ في كلِّ مظهرٍ من مظاهر حياته ، تأكدوا وصدِّقوني أنَّ هذه البلاد ستندفع إلى الإسلام اندفاعاً لن تستطيع الكنائس والرهبان أن يقفوا في سبيله .

الشيء الوحيد الذي ينقص هذه البلاد هو وجود مجتمع إسلاميٍّ مثالي وهذا الذي ينقص العالم الإسلامي كذلك ، ولو وجد هذا المجتمع في بلد

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى رسالة «الإمام الذي لم يوف حقَّه من الإنصاف والاعتراف» وكتاب «إذا هبت ريح الإيمان» للعلامة الندوي .

إسلاميٍّ سافر إليه الناس ليشاهدوه ، واحتملوا في سبيله المخاطر والتكاليف .

وشكراً لكم على الاستماع الكريم ، وعلى هذا التقدير والتكريم ، وصلى الله على خير خلقه وخاتم رسله محمدٍ وآله وصحبه وسلم .

❊ ❊ ❊

الحاجة إلى التركيز على جانبٍ حاسم ومقاومة فتنةٍ متحدِّية في مجال الدَّعوة والإصلاح ، وأمثلته من تاريخ الفكر والدعوة الإسلاميَّة

هذه الكلمة قيِّمةٌ في تاريخ الدعوة والفكر الإسلامي ، ارتجلها العلامة الندوي ، بمناسبة افتتاح العام الجديد للمعهد العالي للدَّعوة والفكر الإسلامي بجامعة ندوة العلماء ، ذلك في ١١/ محرم ١٤١٣هـ ، وقد حضر الكلمة واستمع إليها نخبةٌ وجيهةٌ من طلاب الجامعة وأساتذتها ، وخاصَّةً الطلاب الوافدين الَّذين يدرسون في مختلف الكليات ، ومراحل التعليم بالجامعة.

الحمد لله والصَّلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد:

فأحمد الله تعالى على هذا اللقاء الذي جاء في أوانه ومكانه، وأستطيع أن أقول لكم إنَّه إن تأخر عن أوانه فقد جاء في مكانه، ولا يزال في مكانه، وأعتبره لقاءً أبوياً، أخوياً، مدرسياً، عائلياً، توجيهيّاً، دعوياً في وقتٍ واحدٍ، إنَّه كان من الطبيعي، ومن المعقول بل من الواجب أن تتكرَّر هذه اللقاءات وإن طالت، أو قصرت، وإن اختلفت أمكنتها، وألسنتها، فإنَّ هذا الموضوع الذي سألقي بعض الأضواء عليه؛ إنَّه هو العمود الفقري في النظام التعليميِّ، والتربويِّ الدعويِّ؛ الذي تعيشون فيه، وإنَّ في إمكانه أن يثير فيكم بعض الاهتمام بمعرفة واجبكم، وما يستقبلكم إذا عدتم ـ بمشيئة الله وكرامته ـ إلى بلادكم.

ما هي التحدّيات التي تواجهونها؟ ما هي العراقيل؟ ما هي المشاكل؟ ما هي العقد النفسية السِّياسيَّة التي تُبتَلون بها؟ كان من الواجب أن يكون عندكم بعض تخمينٍ، أو بعض تقديرٍ للوضع الاجتماعيِّ، الدِّينيِّ والسِّياسيِّ الذي ينتظركم، ولا بدَّ لكم أن تواجهوه، وأحمد الله تعالى على أنَّه أتاح هذه الفرصة الكريمة للجلوس معكم، والحديث إليكم.

إخواني! إنَّكم تعرفون أنَّ الدعوة هي رسالة الأنبياء عليهم السلام جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإنَّ الدعوة هي رسالة الأنبياء ووظيفة خلفائهم، بل تعتبر الدَّعوة نَفَس الرسالة ونطقها، إذا تنفَّست؛ كانت الدعوة، وإذا نطقت؛ كانت الدعوة، وإذا سارت؛ كانت الدَّعوة، وهي دعوةٌ معيَّنة صريحةٌ مكشوفةٌ، متفقٌ عليها، لا جدال فيها، هي الدعوة إلى الله تعالى، الدعوة إلى التوحيد الخالص، والإيمان بالله، والإيمان بالرُّسل عامَّةً وبالرسول الخاتم خاصَّةً، والإيمان باليوم الآخر، والدعوة إلى الفضائل، والدعوة إلى إنقاذ الإنسانيَّة من التردِّي في هوَّة الضلال والهلاك، فهذه

الدعوة متَّصلةٌ ، وستظلُّ متَّصلةً إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها ، وهي لكلِّ عملٍ إسلاميٍّ صعيدٌ وأرضيَّةٌ يقوم عليها ، وهي أساسيةٌ ، وهي المبتدأ والمنتهى ، وهذا ما لا شكَّ فيه ، وما زالت هذه الدعوة باقيةً مستمرَّةً نشيطةً مهما تنوَّع الدعاة في عرضها ، واختلفوا في طريقها.

ولكنِّي أريد أن أشير في ضوء دراستي للدَّعوة الإسلاميَّة ، وتاريخ الديانات والشعوب ، وتاريخ الحضارات والفلسفات في هذا الوقت القصير: أنَّ هنالك فجواتٍ أو ثغراتٍ تحدث في حياة الأمم وفي حياة المجتمعات ، قد حدثت في حياة كلِّ أمَّةٍ ، وفي كلِّ ديانةٍ ، وإن لم يُسجّل تاريخها تسجيلاً أميناً مفصَّلاً موثوقاً به ، ولكنه من طبيعة البشر ، ومن طبيعة الديَّانات ، ومن طبيعة المجتمعات البشرية ، وهو أنَّ الإنسان حيٌّ نامٍ ، صاحب شعورٍ ، وصاحب عقليَّةٍ ، وصاحب تجارب ، وصاحب أهواءٍ وميولٍ وشهواتٍ ، وصاحب غاياتٍ وأهدافٍ ، يواجه معارضاتٍ وصراعاً نفسيَّاً ، وفي بعض الأوقات صراعاً سياسيَّاً وصراعاً اجتماعياً ، وفي بعض الأوقات صراعاً خُلقياً ، فإنَّه لا بدّ أن تحدث في كلِّ مجتمعٍ ـ مهما بلغ من العلم الدِّينيِّ ، والصلاح العلميِّ ، ومن الفضيلة الخلقيَّة مكاناً سامياً ـ لابدَّ أن تحدث في هذا المجتمع الحيِّ النامي الذي يسعى على قدميه ، وينطق بلسانه ، والذي تحرِّكه محرّكاتٌ داخليَّةٌ وخارجيَّةٌ كثيرةٌ ، قد تكون مفروضةً عليها ، وقد تنبع من داخلها ، لا بدَّ أن تحدث هناك فجواتٌ ، أو ثغراتٌ.

ولا بدَّ أن تُملأ هذه الثغراتُ والفجواتُ ، تقتضي ذلك طبيعة الدِّين ، وحكمة حامليه وشارحيه ، وتقتضي ذلك الطبيعة البشرية ، ولا يجوز أبداً أن تغفل هذه الفجوات ، والثغرات ، ويقول الدَّاعية والغَيور على الدين: ما لنا ولهذه الفجوات والثَّغرات ، وما الحاجة إلى ملئها والاشتغال بها؟ ما دام الدِّين هو الدِّين الكامل ، هو الدِّين الذي يحتوي عليه كتاب الله العزيز ، والذي وصل عن طريق الحديث وعن طريق الفقه ، أو عن طريق البحوث العلمية؟

لا أبداً ـ إذا بقيت فجوةٌ عميقةٌ ، فجوةٌ حقيقيَّـةٌ يصحُّ أن تسمَّى فجـوة؛ فإنَّه يخشى على هذا المجتمع ـ مهما بلغ من الفضائل الخلقية والتمسّك بالدين ـ يخشى عليه أن يتردَّى ، أو يهوي هذا المجتمع في هذه الفجوة ، فهنالك فجواتٌ وثغراتٌ تحدث، وهي تطلب أن تُملأ وبتعبير أصحَّ أن تُردم.

وكذلك هنالك تشكُّكاتٌ وتساؤلاتٌ قد تبلغ إلى حدِّ التحدِّيات ، تحدٍّ لصحة الدين ، تحدٍّ لإمكان انطباقه في هذا العصر ، تحدٍّ لإمكان العمل به ، تحدٍّ لإمكان القيام به قياماً كاملاً ، هذه التساؤلات (وبالأصح: الاعتراضات ، والتشكُّكات) تحدث في حياة كلِّ أمَّةٍ ، وفي تاريخ كلِّ ديانة ، وهي حدثت ، وستحدث ، وستستمرُّ حادثةً موجودةً طارئةً في كلِّ عصر ومصر ، فهذه ثغراتٌ وفجواتٌ يجب أن تُملأ ، وهذه تساؤلاتٌ وتحدِّياتٌ ، يجب أن يُجاب عنها ، ويجب أن تقابل.

وهنالك معارضاتٌ كذلك ، وتناقضاتٌ يجب أن تستقبل بعقلٍ واعٍ ، وصبرٍ واسع ، وحكمةٍ عاليةٍ ، ونظرةٍ ثاقبة ، هذه كلها من واجبات الدُّعاة.

وأضرب لكم بعض الأمثلة ، والوقت قصيرٌ ، لذا أشير عليكم من غير خجلٍ ومن غير اعتذارٍ ، بأن تطالعوا كتابي: «رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام» فتمرُّون في أثناء سياحتكم في هذا الكتاب ـ الذي هو في عدَّة أجزاء ـ بهذه الثغرات الزَّمنية التي حدثت في تاريخ الإسلام ، وما يتَّصل بالدَّعوة الإسلاميَّة.

أضرب لكم مثلاً بالإمام الحسن البصري رحمه الله ، فالإمام الحسن البصري هو من كبار دعاة الإسلام ، قدَّر الله له زماناً ـ وهو المقدِّر لما يشاء ومتى يشاء ـ كانت هنالك حكومةٌ إسلاميَّةٌ ، بل وفقاً للمصطلح الجديد: إمبراطوريةٌ قويَّةٌ واسعةٌ ، ومجتمعٌ إسلاميٌّ متنوِّع ، وشريعةٌ واضحة المعالم ، واسعة التفاصيل ، وحديثٌ محفوظٌ ، كلُّ ذلك كان هنالك متوفِّراً ، ولكن حدثت هنالك مرحلةٌ جديدةٌ كان يجب أن ينتبه لها ، وإنها جديرة بأن تحدث في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهو وجود النِّفاق ، لم يكن هنالك نفاق عقيدة ، ولكن كان هنالك نفاقٌ خلقيٌّ وعمليٌّ ، وهو وجود تناقض

ما بين التعاليم الصحيحة الإسلامية التي جاءت في القرآن ، وجاءت في الحديث النَّبويِّ المتواتر الصحيح ، تناقض بين السِّيرة الإسلامية المتينة الرَّاسخة ، بين طلب الآخرة ، والسعي لها ، وإيثارها على المنافع الدنيوية ، والجهد في سبيلها ، وبين انتهاز الفرص التي حدثت لوجود حكوماتٍ واسعةٍ غنيَّة ، ذات وسائل وإمكانيات متوفّرة ، فقد انهزمت الإمبراطورية الرومية ، والإمبراطورية الساسانية (الفارسية) أمام الجيوش الإسلامية والغزو الإسلاميِّ ، واستولى المسلمون على هاتين الإمبراطوريتين ، وكانت هنالك فرصٌ سانحةٌ ، فرص مُغريةٌ كلَّ الإغراء لانتهاز هذه الفرص ، لتبوُّء المناصب الرفيعة ، وتملُّك وسائل الرَّفاهية ، والشرف بالتزلُّف إلى الحكام ، ومخالفة الضمير والمبدأ .

هذا ما أحدث تناقضاً ، وتفطَّن له الإمام الحسن البصري بما أوتي من فراسة إيمانية ، وعلمٍ راسخٍ ، ونظرٍ ثاقبٍ ، وربّما كان من حظه إدراك عصر الصحابة ، ودراسة سيرتهم ، وأخلاقهم ، فهو وهب نفسه لمعارضة هذا التناقض الذي حدث في المجتمع الإسلاميِّ الإنسانيِّ الناشىء ، المجتمع الإسلاميِّ الغنيِّ في مواهب ، وفي طاقاتٍ ، وفي ذكاءٍ ، وإمكانياتٍ ، كان الواحد منهم يؤمن بالله كما هو بأسمائه ، وصفاته ، ويؤمن بالرسل جميعاً ، ويؤمن بالآخرة، ويؤمن بالتَّعاليم التي جاءت في القرآن، ولكن كان طموحه، وما وُهبه من ذكاء ، ومقدرة يغريه بأن ينتهز هذه الفرصة ، يذهب إلى الحاكم ويقول ما لا يرضاه دينُه ، ويقول ما لا يتَّفق مع إيمانه ، وعقيدته ، ولكنَّه أراد أن ينتهز هذه الفرصة ، وينال كرامةً ، أو منصباً رفيعاً .

وهذا أحدث تناقضاً في المجتمع الإسلاميِّ ، وكان نفاقاً خلقياً ، وقد جاء في التاريخ : أنَّ هذا أحدث ـ لما قام سيدنا الإمام الحسن البصري لمحاربة هذا النفاق ، ولاستئصال شأفته ، والتغلُّب عليه ـ تساؤلاً في نفوس كثيرٍ من الناس ، قالوا : يا أبا سعيد هل اليوم نفاقٌ؟ لأنهم كانوا يعرفون أنَّ النفاق قد مضى زمنه ، وهذا بحثٌ علميٌّ قد جاء في كتاب «الفوز الكبير» للإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله الدَّهلوي ، هل النفاق داءٌ مستمرٌ؟ وهل يمكن أن يوجد بعد عصر الرسول عليه الصلاة والسلام؟

وشيءٌ آخر أكثر حساسيَّةً ، هو أنه من الصعب بل من المحال تعيين المنافق ، فقيل لسيدنا الحسن البصري رحمه الله : هل اليوم نفاق؟ قال : «لو خرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها» هم في عدد لا يستهان به في المدن ، ثم قيل له مرّة ثانية ؛ قال : لو خرجوا لما انتصفتم من عدوِّكم ، يعني هم الذين يكوِّنون الجيش الإسلامي ، فإذا انسحبوا ، ولم يكن لهم وجود ، لما استطعتم أن تقاوموا ، وتحاربوا عدوَّكم ، لأن قوَّتكم هي المستمدَّة من هؤلاء الذين يعيشون عيش تنعُّم ، وهؤلاء الذين يتَّصفون بالنفاق.

فعارض الإمام الحسن البصري النفاق ، وركَّز عليه عنايته وبلاغته التي ـ أكرمه الله بها ـ ومن المقررات التاريخيَّة الأدبيَّة ، ومن المقررات في التاريخ الأدبيِّ ، أن كان هنالك بليغان لا ثالث لهما ، أبلغ البلغاء الحسن البصريُّ ، والحجَّاج بن يوسف الثَّقفي ، ولكن يكاد المؤرخون للأدب يُجمعون على أنَّ الحسن البصريَّ أبلغ من الحجَّاج ، فوهب نفسه ، ووهب طاقاته ، وكلَّ إمكانياته ، وقوة بيانه ، وقدرة لسانه ، ووهب عنايته وإخلاصه لمحاربة هذا النفاق ولمحاربة هذا التناقض ـ الحادث في المجتمع الإسلاميِّ بحكم الطبيعة ، واتِّساع المملكة ، وتضخُّم الثروة ـ من ذلك تعرفون أنَّه كانت هنالك ثغرةٌ حتى في العهد القريب من البعثة النبوية ، والرسالة السَّماوية.

وهنالك مثالٌ آخر وهو ما حدث في آخر القرن الثاني الهجري ، وهي فتنة عقيدة خلق القرآن ، وهي العقيدة التي تزعَّمها المعتزلة الخاضعون للفلسفة الإغريقية في قليلٍ أو كثيرٍ ، والتنوُّر السَّطحيِّ العاجل أو (العقلانية Rationalism) ولهذه العقيدة لوازم فاسدةٌ ، ونتائج معارضةٌ لحقيقة إعجاز القرآن ، وكونه مُنزّلاً من الله لفظاً ومعنىً(١).

---

(١) إنَّ ما كان يقصد به الدُّعاة إلى هذه العقيدة ، ومعرفة مراميها وغوامضها صعبٌ لضياع كثير من مصادر الاعتزال وكتب المعتزلة بعد خمود هذه الدعوة ، وانقراض عصر المعتزلة ، ولكن مما لا شك فيه أن هذه العقيدة كانت معارضةً لعقيدة السواد الأعظم من المسلمين والصحابة والتابعين ، مُضعفةً لعقيدة إعجاز القرآن ، وكونه منزلاً من الله بكلماته ومعانيه ، فإن الله يقول : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] واللغة لا تتخيل ولا تُفهم إلا مركبة من كلماتٍ وألفاظٍ معيَّنةٍ.

وقد احتضن الخليفة العبّاسيُّ الكبير المأمون بن الرشيد هذه العقيدة وحماها حماية الحكَّام والملوك ، وأصدر سنة ٢١٨هـ رسالةً يأمر فيها بجمع القضاة ، وامتحانهم في عقيدة خلق القرآن ، وعزل من لا يقول بذلك منهم ، وإسقاط شهادة من لا يراها من الشُّهود ، وكانت محنة عقَّدتها وضخَّمتها حمايةُ المملكة وحماسُ القائم عليها .

وهنالك قام لمعارضتها وللوقوف في وجهها ، الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ) وخاطر بنفسه وحياته ، وتركَّزت فيه رئاسة المعارضة ، فحُبس ، ومكث في السِّجن نحواً من ثلاثين شهراً ، وفي أيام المعتصم خليفة المأمون ضُرب بالسِّياط ، ضرب تسعة عشر سوطاً ، يقول السوَّاط : لو ضُرب فيلٌ سوطاً واحداً لصاح ، وهو يقول كلَّ مرة : «إيتوني بشيءٍ من كتاب الله وسُنَّة نبيه حتى أقول به» وقد كان من ثبات ابن حنبل وصُموده وإخلاصه أن انطفأت عقيدة خلق القرآن حتى بقيت مدفونةً في كتب الملل والنحل ، وعلم الكلام ، وانهزمت حكومة هي من أقوى الحكومات وأوسعها في عصرها ، حتى ذُكر اسمُ الإمام أحمد بن حنبل مقتدياً بالصِّدِّيق في الثبات والصمود ، والقضاء على الخطر ، فقيل «أبو بكر يوم الردَّة وأحمد بن حنبل يوم المحنة» .

ثم كان هنالك شخصيةٌ أخرى هي شخصية الإمام أبي الحسن الأشعري (٢٧٠ ـ ٣٢٤هـ) فقد قام بدورٍ حاسمٍ في مقاومة الاعتزال وسلطانه ، فقد كان هذا الاعتزال قد أثر تأثيراً عميقاً في عقلية الشباب الواعي ، فكانوا «يتظرَّفُون» بالانتساب إلى الفلسفة ، ومذهب المعتزلة ، وأصبحت الفلسفة كما يقول الدكتور أحمد أمين «موضةً» (FASHION) يتظرَّف بها الشباب ، ويتنبلون بها ، ويقول بعضهم : أنا معتزليٌّ افعلوا ما شئتم! أنا معتزليّ! وأصبح الاعتزال رمزاً وإمارةً للذكاء والتعمُّق والعقلانية ، حتى في العقائد والمسائل الشَّرعية ، فكان هذا خطراً كبيراً على الفهم الديني الصحيح ، وعقيدة السَّلف المأثورة ، فوفق الله الإمام أبا الحسن الأشعري فاعتزل أياماً ثم خرج ، وهو مقتنع بصحة الشريعة الإسلامية عقيدةً ، وشريعةً ، وعقلاً ،

وعملاً ، مؤمناً بها إيماناً واعياً ، ليس إيماناً عاطفياً فقط ، فصار يفحم المعتزلة ، ويُقنع الشباب المتأثرين بعض التأثُّر ، أو كلَّ التأثُّر بالفكر المعتزليِّ الفلسفيِّ ، فكان يجيبهم كما يجيب معلمٌ حاذقٌ كبيرٌ أطفالاً صغاراً ، وتلاميذ أحداثاً ، فكان يجتمع هناك عددٌ كبير من المتأثرين بالاعتزال ، ويقول: يا سيدي! أجب عن كذا ، يا مولانا! ماذا تقول في هذا؟ يا سيدي! ما المسألة الفلانية؟ فكان يسمع كلَّ هذا ، وكان الناس يتعجبون كيف يحفظ الإمام أبو الحسن الأشعري هذه الآراء ، وبعد ذلك يبدأ يناقشهم ويردُّهم واحداً بعد واحدٍ ، أما فلان؛ فقد قال كذا ، وأقول: هذا ليس بصحيح ، وإِنَّه شيءٌ مفروضٌ ، وشيءٌ غير عقليٍّ ، وقال الثاني كذا ، وقال الثالث كذا ، والرابع كذا ، كان الناس يتصوَّرون أنَّه رجل ملهمٌ ، كيف استطاع أن يحفظ هذه الآراء الشاذَّة المنتشرة المبعثرة التي لا تناسبَ ، ولا التئام فيها ، كيف حفظ هذا ثم يردُّ على كلٍّ كما يردُّ شابٌ أو رجلٌ كهلٌ مكتمل الشباب على أطفالٍ صغار ، وهذا كان من تقدير الله تعالى ، وبدأ الاعتزال يفقد تأثيره ، وسلطته ونفوذه ، والنفوذ شيء خطرٌ جداً ، إذا كان لفلسفةٍ نفوذ ، وكان لها إجلالٌ وأثرٌ في أعماق النفس؛ فهو خطرٌ على الدِّين السماويِّ المنزَّل من الله ، ويسير بالعقل الإسلاميِّ ، والفكر الإسلاميِّ إلى اتِّجاهٍ غير سليم ، إلى اتجاهٍ غير شرعيٍّ ، وغير نبويٍّ.

هذا كان من تقدير الله تعالى ، فقد فقد الاعتزال وجاهته ، وأنا تحريَّت هذه الكلمة بصفةٍ خاصَّةٍ . . . فقد الاعتزال وجاهته العقليّة ، والوزن العقليَّ ، فإذا لم يكن فيه وزن عقليٌّ ، فما قيمته؟ كلُّ قيمته أنها عميقةٌ وأنَّها مؤسسةٌ على الدراسات ، وأنَّها تلائم العقل ، وترضي العقل ، وتُسلّيه ، فإذا فقدت هذه الفلسفة هذه القيمة فقدت كلَّ شيء ، أصبحت مفلسةً ، لا قيمة لها ، ولا جاذبية فيها.

وكذلك شأن حجَّة الإسلام الإمام الغزاليّ في عصره ، والعلامة ابن الجوزي في عصره ، والإمام عبد القادر الجيلي (الكيلاني) في عصره ، وشيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية في عصره ، ومولانا جلال الدِّين الروميُّ

في عصره ، أما المجدِّدون للإسلام ، والدّاعون إلى الله والدين الصحيح ، والمقاومون للتحديات والأخطار على بقاء الإسلام في شبه القارة الهندية ، والمانعون من تحوُّلها إلى الوثنية البرهمية والحضارة الهندية الجاهلية ، والناشرون للكتاب والسنَّة ، والاشتغال بالحديث ، فيمكنكم أن تقرؤوا قصة كفاحهم وجهودهم ، وغَيْرتهم على الدين الأصيل المحفوظ ، ومدى نجاحهم في جهدهم وجهادهم في كتابنا: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الثالث ، والرابع ، والخامس.

فالقضية يا إخواني! هو ملء الفجوة الواقعة في الفكر الإسلاميِّ ، أو في المجتمع الإسلاميِّ ، ومواجهة التحدِّي ، فملء الثغرة ، وملء الفجوة ، ومواجهة الخطر الذي حدث ويحدث بالوجود الإسلامي ، أو بالشريعة الإسلامية واجبٌ ومحتَّمٌ.

وأقول لكم: القضية ليست قضية دعوةٍ جديدةٍ ، القضية: التركيزُ على جانبٍ خاصٍّ ، وقضية الضغط على جانب خاصٍّ ، والتضلُّع بمسؤوليةٍ خاصَّةٍ ، فليس هنالك تعارضٌ أبداً ، إنَّ الدعوة هي الدعوة الإسلامية ، الدعوة النَّبوية ، الدعوة إلى العقيدة الصحيحة ، المقبولة عند الله تعالى ، مهما تباعد الزَّمان ومهما تضخّمت المشاكل ومهما اتَّسع المجتمع ، ومهما تغيَّرت مطالب الزمان ، الدَّعوة هي الدَّعوة ، ولكنَّ الشيء الذي أريد أن ألفت إليه أنظاركم ، هو التركيز على جانبٍ خاصٍّ ، والضغط عليه ووهب الطاقات ، ووهب الإمكانيات ، ووهب القوة الإرادية التي يهبها الله كلَّ إنسانٍ لمواجهة هذا الخطر ، ولملء هذا الفراغ ، ولإزالة هذا التحدِّي.

فما هو الجانب المحدّد المعيَّن الرئيسيُّ في هذا الزمان؟ ما هو الواقع المحدَّد الآن في البلاد الإسلامية؟ هو موضوع حديثي اليوم.

إنها إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة بصلاحية الإسلام ، ليست بصلاحية الإسلام فقط ، بل بصلاحيته للقيادة وحل المشاكل ، ولصياغة المجتمع صياغةً سليمةً عصريَّةً ، جديدةً صحيحةً ، فالجانب الذي أريد أن

أركِّز عليه اهتمامكم الآن ، وأركِّز عليه طاقتكم ، وإمكانياتكم ، وذكاءكم ، ومجهودكم في بلادكم؛ إذا رجعتم بسلامة الله تعالى ، هو إعادة الثقة بصلاحية الإسلام في الطبقة المثقَّفة؛ لأنَّ هذه الطبقة المثقَّفة قد ضعفت الثقة بصلاحية الإسلام فيها ، أو فُقدت تماماً؛ لأن النظام الدَّعويَّ التربويَّ العصريَّ الغربيَّ هو نجح في ذلك نجاحاً ، تسعين في المئة تقريباً ، أو تسعاً وتسعين في المئة ، فإنَّ الطبقة المثقفة التي تخرَّجت من الكليات والجامعات ، أو رجعت من الغرب بعد الدراسة ، أو تخرَّجت من جامعاتها الكبيرة ، لا أقول: إنَّها ضعفت فيها الثقة ، بل هي فقدت ثقتها تماماً بصلاحية الإسلام ، فالآن القضية الرئيسية المركزية عندهم هي إزالة هذه الثقة عن نفوس الشعب ، والتحرُّر من ربقة الإسلام ومن قيوده الشرعية ، والخلقية ، والتشريعية ، والقانونية ، والمدنية.

هذه هي الحرب الحقيقية السافرة التي توجد الآن في البلاد الإسلامية ، ما هي الحرب؟ أقول لكم بكلِّ صراحةٍ ، وعلى بصيرة ، وعن تجربةٍ واختبار ، أنَّه لا حرب في بلدٍ إسلاميٍّ بين الإسلام والصهوينية ، لا حرب بين الإسلام والصليبية ، ولا حرب بين الإسلام والنفوذ الغربيِّ لا حرب بين الإسلام وفساد الأخلاق ، هي حربٌ واحدةٌ ، هي حربٌ بين الطبقة المثقفة الرئيسية التي تملك زمام الحكم وبين الزُّعماء ، وبين الجمهور والشعب لإزالة هذه الثِّقة بصلاحية الإسلام ، إنهم يقولون بلسان الحال: نعم ، الإسلام كان ديناً ، مثَّل دوراً ، دوراً محموداً جزاه الله خيراً ، جزى الله القائمين به ، إنَّ الإسلام هو ردّ على الوثنية السافرة ، وإنَّه أزال وأد البنات ، وإنه أعطى النساء بعض الحقوق ، وإنَّه أزال بعض المنكرات ، وبعض العيوب الخلقية ، وبعض الذمائم من المجتمع العربيِّ ، ولكنَّ خصوم الإسلام يقولون : قد مضى زمنه ، فقد وقف ، وتقدَّم الزمان ، إنما هي قضية القيادة ، وقضية الصياغة للحضارة والقانون ، وأن يتصرَّف ويتحكَّم في حياة الإنسان ، ويقول: هذا حرامٌ وهذا حلالٌ ، وهذا معروفٌ وهذا منكرٌ ، هذا دين وهذا لا دين ، ـ لا ـ هذا لا نسمح بذلك ، الإسلام قد قضى دوره ، الإسلام قد انتهى أجله ، إنه قام بدورٍ محمودٍ في التاريخ ،

إنه قام بعمليةٍ إصلاحيةٍ محدودةٍ في جزيرة العرب وخارج الجزيرة ، ولكن الآن في هذا العصر المتمدِّن الراقي الذي يطير الإنسان فيه في الهواء ، ويسير على الماء ، الذي وصل إلى القمر وركَّز الراية على القمر. إنَّ الإسلام لا يستطيع أن يسايره ، ويقوده ، ويحلَّ مشاكله.

فأنتم يا إخواني! أقول لكم الآن بصراحةٍ وبتركيزٍ ، أنتم أمام القضية الرئيسية الكبرى التي تواجهونها ، بل هي تُفرض عليكم فرضاً رضيتم أم لم ترضوا ، هي قصَّة صلاحية الإسلام للبقاء ، وصلاحيته للقيادة البشرية ، وصلاحيته للسَّيطرة على المجتمع ، هذه القضية ستواجهونها إذا رجعتم إلى بلادكم ، ولا بدَّ لمواجهة هذا التحدِّي ، وهذا الحظر ، لا بدَّ له من دراساتٍ عميقةٍ متنوِّعةٍ تدرسونها في تاريخ الحضارة الغربية ، والفلسفة الغربية ، أو تاريخ إيران وروما ، وماذا خسرت الإنسانية بها؟ وما هي رسالتها للإنسانية؟ وما هي عطاياها؟ فعليكم أن تطالعوا بعض الكتب التي قد عالجت هذا الموضوع ، وأقول لكم ومعذرةً إليكم من ضميري ونفسي: لابدَّ أن تطالعوا بعض الكتب التي وفق الله لتأليفها في هذه البيئة المحدودة الصغيرة هنا ، أنا أحمد الله تعالى بل هذا توفيق من الله تعالى فقط ، ولا يرجع الفضل إلى أحد أبداً ، ـ حاشا وكلا ـ ولكن «ندوة العلماء» أقول لكم بصفة خاصة ، إنما قامت لذلك.

وأنتهز هذه الفرصة للفت النظر إلى هذا ، إنَّ البلاد كانت غنية زاخرة بالمدارس العربية الدينية ، ما كان هنالك فراغٌ أبداً ، لا أسمِّي هذه المدارس احتراماً لها ، كانت البلاد زاخرةً بالمدارس العربية الدينية ، كانت البلاد زاخرةً بالمكتبات العظيمة الغنيَّة ، كانت البلاد زاخرةً بوجود العلماء ، وبوجود العلماء الكبار المدققين المتوسعين في الفقه ، وأصول الفقه ، وفي الحديث ، وفي التفسير ، وفي العلوم الدينية ، ولكن كان هنالك ثغرٌ ، ما هو هذا الثغر؟ هو كيف تخاطب المتخرِّج من الجامعة والكلِّية ، والمتعلِّم في بيئةٍ غربيَّةٍ ، بأيِّ لسانٍ تخاطبهم؟ وما هي الوسائل التي تستخدمها ، ما هو السلاح الذي يستطيع الداعية أن يقاوم أو يحارب به ، ويدافع عن دينه ، وعن ضميره وعن شريعته؟ لذلك قامت ندوة العلماء وأنا أعتذر إذا

قلت: إنَّه كانت هنالك حاجة لظهورها مع وجود هذه المدارس والجامعات الكثيرة، التي كانت حظيت بتقدير من الجماهير المسلمة هنا، وإذا كانت لندوة العلماء قيمةٌ، فإنَّ هذه القيمة هي أن تنتج شباباً يستطيعون أن يستردُّوا القيادة الفكرية من الطبقة المثقفة الناشئة في الجامعات المدنية الغربية، أو في الكلِّيات المدنية الغربية الواقعة في البيئة الغربية، ورضعت بلبانها، ونشأت في أحضانها، تنتزع القيادة الفكرية من هؤلآء وتردُّها إلى الراسخين في العلم، المطمئنين، المقنعين، المنشرحة صدورهم، والواعية عقولهم لفهم الدين الإسلاميِّ، يؤمنون هؤلآء بأبديَّة الإسلام وبصلاحية الإسلام للبقاء في كلِّ عصرٍ ومصر، كقائدٍ موجِّهٍ، وداع، وبأنَّ الشريعة الإسلامية متكفلةٌ بالسعادات الدنيوية والأخروية صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهي أفضل وأجدر بحلِّ المشكلات العائلية، والاجتماعية، والتشريعية من كلِّ قانونٍ وتشريعٍ إنسانيٍّ علمانيٍّ.

فأنتم يا إخواني! لابدَّ أن تستعدوا لهذه المعركة، هذه المعركة التي تنتظركم بصبرٍ نافد، لا أستطيع أن أقول إن آباءكم ينتظرون قدومكم بهذا الجزع، أو بهذه الرغبة، أم هذه المعركة تنتظركم؟ وأنا أميل إلى أنَّ هذه المعركة تنتظركم أكثر مما ينتظركم آباؤكم وإخوانكم الذين فارقوكم، والذين ودَّعوكم إلى هذه البلاد، وحرموا لقاءكم، والحديث معكم، والأكل معكم هذه المدَّة الطويلة، لا، هذه هي المعركة الحامية الحاسمة، هذه المعركة الإلحادية، هذه المعركة العلمانية، هذه المعركة المعادية للإسلام، والمعادية لكل الأديان، هذه المعركة تنتظركم.

فلا بدَّ أن تستعدُّوا لها قبل أن تبتلوا بها، وقبل أن تواجهوها وجهاً لوجه، والاستعداد يمكن هنا، فلا بدَّ أن تقرؤوا الكتب التي ألفت ومعذرتي إلى نفسي قبل معذرتي إلى غيري، لا بدَّ أن تقرؤوا كتاب: «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» وكتاب: «نحو التربية الإسلامية الحرَّة» وكتاب: «إلى الإسلام من جديد» ولا بدَّ أن تقرؤوا كتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ومن غير مؤلفات علماء النَّدوة ـ بما أنا فيه ـ كتاب: «الإسلام على مفترق الطرق» و«الطريق إلى مكة» للأستاذ

محمد أسد المهتدي (ليوبولدويس سابقاً) وكتب الأستاذ سيِّد قطب رحمه الله، والأستاذ أبي الأعلى المودودي في نقد الحضارة الغربية، وبيان الحاجة إلى الإسلام، وقبل ذلك كتاب أستاذنا وأستاذ الجيل الإسلامي المعاصر العلامة السيد سليمان الندوي «الرسالة المحمَّدية» و«السيرة النبوية».

وكذلك تدرسون شعر إقبال، لا أقول أن تقرؤوا محاضراته، لأنِّي لا أوافق على بعض ما جاء في هذه المحاضرات مئةً في المئة في صراحة، وأشرت إلى ذلك في مقدمة «روائع إقبال» ولكن لا بدَّ أن تقرؤوا شعره، وأن تتذوَّقوه، وأقول لكم إنَّ هذا يثير فيكم الذكاء والتذوُّق، ويثير فيكم حماساً إسلاميَّاً قوياً، فتكونون بذلك على مستوىً رفيع وعلى صعيدٍ صاعدٍ عالٍ من الثِّقة بالإسلام ومن القدرة على إقناع المتعلمين الدارسين الجامعيين.

يا إخواني! ويا أبنائي!

إنَّ الزمان لا يتسامح، والأعداء لا يتسامحون أبداً، إنهم قد شمَّروا أذيالهم، وإنهم قد أعدُّوا نفوسهم، وهم واقفون بالمرصاد، يعدُّون الساعات عدّاً، بل يعدُّون الدقائق عدَّاً، لترجعوا إلى بلادكم، فيزاحموكم، أو يصارعوكم ويبدوا لشعبهم أنَّ هؤلآء رجال أمِّيُّون، إنَّهم أبناء جيل ماضٍ، وإنَّهم أبناء جيل القرن التاسع عشر المسيحيِّ، أو قبل هذا، فهم يغيرون عليكم عن طريق العلم، وعن طريق الدِّراسة والصحافة، والإذاعة، وعن طريق النَّدوات العلميَّة، والمحاضرات الجامعية، فعليكم أن تستعدُّوا لهذه المعركة هنا، المعركة الحامية الدامية، وهي معركة بين من يعتقد أنَّ الإسلام هو دينٌ خالدٌ، وهو دين البشرية إلى يوم القيامة، وأنَّه الدِّين الكامل لسعادة البشرية حياةً وموتاً، وخلقياً، واجتماعياً، وتشريعياً، وعبادةً، وحكماً، وسيادةً، ومن يعتقد ويؤمن ويعلن بأعلى صوته: أنَّ الإسلام قد مضى زمنه، وأنَّه لا محلَّ له الآن في هذا العصر الراقي، في هذا المجتمع المتعقِّد المواجه لمشكلات تحدث كلَّ يوم ـ ولا بدَّ أن تستعدُّوا هنا، وأنتم متفاوتون في الفرصة، بعضكم لهم فرصةٌ قليلةٌ، وبعضكم لهم فرصةٌ واسعةٌ، فعلى كلٍّ يجب عليكم أن

تستعدوا للعودة إلى بلادكم قبل الخوض في هذه المعركة ، فلا تعودوا إلى بلادكم إلا وأنتم تتسلَّحون بالسِّلاح الإيمانيِّ العلميِّ العقليِّ العصريِّ ، بسلاحٍ أقوى ، لم يخلق أقوى منه ، ولا يمكن أن يخلق أقوى منه ، ولا بدَّ من السلاح مهما كان الإنسان قوياً وغنياً ، لا بدَّ من أن يتسلّح بسلاح العلم لمواجهة الجيل المثقَّف.

ولا بدَّ أن تحاربوا مركَّب النقص في هذه الطبقة المثقَّفة الثقافة الحديثة المصابة بمركب النَّقص فيما يتَّصل بالإسلام ، وبالشريعة الإسلاميَّة.

هم مبتلون بمركب النَّقص في كل ما يسمعونه عن الإسلام ، أو يقرؤونه عن الإسلام ، ويقولون هذه قصَّة الزمن الماضي ، هذه حكاية للزمن الماضي ، لا قيمة له في هذا العصر ، وهم عازمون على الإبادة المعنوية العقائدية للجمهور عن طريق التعليم ، والتأليف ، والصُّحف ، والمجلات ، والإذاعة ، والنَّدوات.

هذا هو الواقع الذي ينتظركم يا إخواني!

وأسأل الله تعالى أن يوفِّقكم للقيام بهذا الواجب ، وللوفاء بحقِّ الإسلام ، وللوفاء بحقِّ العبودية ، وللوفاء بحقِّ الضمير السليم المسلم ، وللوفاء بالنِّسبة إلى الإسلام ، وإنَّ الله تعالى قد أنعم عليكم بنعمة الإسلام ، فلا بدَّ أن تقدِّروا هذه النِّعمة ، وأن تكافحوا كلَّ ما يهاجم ، وكلَّ ما يعارض ، وكل ما يتحدَّى الإسلام بكلِّ قوَّةٍ ، وبكلِّ وضوحٍ ، وبكلِّ ذكاءٍ ، وبكلِّ استعدادٍ ، وبكلِّ تسلُّحٍ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١١/ محرم الحرام ١٤١٣هـ.

* * *

إبراهيم عليه السلام وبيت الله الحرام

هذا الحديث ألقاه العلامة النَّدويُّ بناءً على طلبٍ من القسم العربي للإذاعة الهندية منذ عقود من السنين ، وهذا هديَّةٌ عظيمة لحجاج بيت الله الحرام .

أيها المستمعون الكرام!

حديثنا اليوم حديث عن عصرٍ قد مضى عليه بضعةُ آلافٍ من السنين، عصرٍ عريقٍ في القدم، ولكن لم يُخلِّف عصرٌ من العصور الماضية من الآثار الباقية الخالدة على وجه البسيطة، وفي أعماق النفوس، وأغوار القلوب، وجذور العقيدة، وصفحات الحضارة مثل ما خلَّف هذا العصر، إنَّه عصرٌ كثرت فيه الدول والحكومات، وازدهرت فيه المدنيات والحضارات، وقامت فيه القصور الشامخة، والأبنية الباذخة، فلكلِّ أمَّةٍ دولةٌ، ولكلِّ دولةٍ عاصمةٌ، ولكلِّ ملكٍ «بلاطٌ» ولكل أميرٍ قصرٌ، ولكل إلهٍ وإلهةٍ معبدُ، ولكلِّ كوكبٍ «هيكلٌ» عصرٍ قد قامت فيه دولةُ الآلهة والكواكب، ونفقت فيه سوق الكهانة والسِّدانة، ولكنَّه عصرٌ قد تجرد عن شيءٍ واحدٍ، تجرد عن رجلٍ مؤمنٍ شجاعٍ يقول بملء فيه، وبأعلى صوته، «ألا لله الدين الخالص» وتجرَّد عن مركزٍ روحيٍّ لا يعبد فيه إلا الله، ولا يدعى منه إلا إلى الله، مركزٍ يجتمع حوله المؤمنون الموحِّدون في أنحاء العالم، وتتفجر منه عين الإيمان والتوحيد، فيفيض في سهول الأرض، وحزونها، وفي أغوارها وأنجادها.

لقد وجد هذا الرجل المفقود في شخص إبراهيم ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢١] رجلٌ أكرمه الله برسالته، واصطفاه بخلَّته ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ثم أمره أن يبني له بيتاً يظلُّ مركزاً روحياً للإيمان والتوحيد، وعبادة الله وحده، والدَّعوة إلى الله، ومثابةً للناس وأمناً.

ولكن أين يقوم هذا البيت؟ إنَّ الحواضر والعواصم التي تزدهر فيها المدنية، ويكثر فيها الخصب، وتنفق فيها التجارات، ويجذب إليها جمال الطبيعة، وزينة الصناعة كثيرةٌ، ولكن اقتضت حكمة الله أن يقوم هذا البيت

في واد غير ذي زرع ، لا طبيعة فيه ، ولا صناعة ، فلا يشدُّ الرحالَ إليه إلا المؤمنون الموحِّدون ، ولا يقصده من أنحاء العالم إلا المخلصون المتجرِّدون ، ووقعت الخيرة على مكة التي لا ماء فيها ، ولا كلأ ، ولا زرع فيها ، ولا ضرع ، وادٍ ضيّقٍ بين جبالٍ سود جرداء ، لا طبيعة تغري ، ولا صناعة تستهوي ، ولا تجارة تشوق ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج : ٢٦].

لقد أتمَّ إبراهيم عمله في صدقٍ ، وإخلاصٍ ، وحماسةٍ ، وإيمانٍ ، وشاركه في ذلك ولده المؤمن المخلص نبيُّ الله إسماعيل بن إبراهيم ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

لقد قام هذا البيت كما أراد الله واجتمع حوله كلُّ ما يزهد الناس في السكنى حوله وقصده من أنحاء بعيدةٍ ، ومن أقاصي البلدان ، فلا تجارة ، ولا صناعة ، ولا عذوبة ماء ، ولا رقَّة هواء ، ولا حسن مظهر ، ولا جمال منظر ، ولكن الله قد قضى أن يكون هذا البيت هو البيت الوحيد الذي يبقى على طول الزَّمان ، ويقصد على بعد المكان ، لا يضارعه في ذلك قصرٌ ملكيٌّ ، ولا معبدٌ دينيٌّ ، يسعى إليه الناس بشقِّ الأنفس ، وعلى الأقدام والأرؤس ، وتأتيه الوفود كلَّ عامٍ من أقصى المعمورة ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج : ٢٧ ـ ٢٩].

لقد أصبح هذا البيت الكريم شعاراً لله تعالى وحرمةً من حرماته ، ورمزاً للتوحيد والعبادة ، فمن عظمه فقد عظم حرمات الله ، ومن أهانه فقد أهان شعائر الله ، وإنَّ أعظم رسالةٍ بهذا البيت هي رسالة التوحيد الذي قام على أساسه ، فليحافظ على ذلك وليتفهمه كلُّ من قصده ، وطاف حوله ،

ونسك ، وذبح ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحجّ ٣٠ ـ ٣٢].

لقد أحب الله النسك وإراقة الدماء في الذبح في هذه الأيام لأنَّه عبادةٌ وشعارٌ من شعائر التوحيد ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج : ٣٦]. ولكنه يقرر أنَّ روح هذا النسك والذبائح والأضاحي هو إرادة وجه الله وامتثال أمره وتوحيده ، ليست هذه الدماء المهراقة ، واللحوم المبضعة ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج : ٣٧].

* * *

فهرس الآيات الكريمة

الآية	رقمها	رقم الصفحة
(٢) سورة البقرة		
﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا . . . ﴾	٢٩	٨٧
﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا . . . ﴾	٣١	٣٦٠
﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ . . . ﴾	٣٢	٣٦٠
﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ . . . ﴾	٣٣	٣٦٠
﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ . . . ﴾	٤٥	٣٠ ، ٥٠
﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ . . . ﴾	٤٩	٤٥٨
﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ . . . ﴾	٦١	٢٢٧
﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ . . . ﴾	١٢٧	٦٣٨
﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً . . . ﴾	١٣٨	٥٤٢
﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ . . . ﴾	١٥٤	٢١١
﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا . . . ﴾	١٨٩	٤٦٧
﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً . . . ﴾	٢٤٩	٢٥٣
(٣) سورة آل عمران		
﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾	١٣	١٥٠
﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾	١٩	٣١٤
﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ . . . ﴾	٢٦	١١٠
﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ . . . ﴾	٢٧	١١٠
﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى . . . ﴾	٣١	٥٤٢

﴿ هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم . . . ﴾ ٦٦ . . . . ٥٩٩

﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ . . . ﴾ ٧٥ . . . . ١٢١

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ . . . ﴾ ١٠٣ . ١٣٢ ، ١٩٤ ، ٣٣٣

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . . ﴾ ١١٠ . ٨٨ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ٣٦١ ، ٥٥٧

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ . . . ﴾ ١١٣ . . . . ١٨٠

﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ . . . ﴾ ١١٤ . . . . ١٨٠

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ . . . ﴾ ١٢٣ . . . . ٢٩٩

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ . . . ﴾ ١٣٣ . . . . ٧٦

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ . . . ﴾ ١٣٩ . ٦٧ ، ٣٧٢ ، ٥٣٣

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ . . . ﴾ ١٤٤ . . . ٤٠ ، ٤٩٨

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ . . . ﴾ ١٥٩ . . . ٤٣٢ ، ٥٣٨

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴾ ١٦٩ . . . . ٢١١

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ . . . ﴾ ١٧٠ . . . ٢١١ ـ ٢١٢

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ ١٩١ . . . . ٥٥٦

(٤) سورة النساء

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ . . . ﴾ ٤٨ . . . . ٤١١

﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ ٧٧ . . . ٤١٩ ، ٥٠٩

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ . . . ﴾ ١٠٤ . . . ٢١١ ، ٢٩١

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ . . . ﴾ ١١٦ . . . . ٤١١

﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ١٢٥ . . . . ٦٣٧

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ . . . ﴾ ١٣٥ . . . ٣٦١ ، ٤٠٥

(٥) سورة المائدة

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . ﴾ ٣ ٤٤ ، ٣٣٨ ، ٤٠٨ ، ٥٢٨ ، ٥٤٥

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ . . . ﴾ ٨ . . . . ٤٠٥
﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ . . . مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ١٥ ـ ١٦ . . . . ٦٠٥
﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ . . . ﴾ ٢١ . . . . ٣٧
﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا . . . ﴾ ٢٢ . . . . ٣٧
﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا ﴾ ٢٤ . . . . ٣٧
﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى . . . ﴾ ٢٥ . . . . ٣٧
﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ . . . ﴾ ٦٦ . . . . ٦٧
﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ . . . ﴾ ٦٧ . . . . ٥٣٤
﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ . . . ﴾ ١١٨ . . . . ٣٦

(٦) سورة الأنعام

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ ٥٧ . . . . ٥٤٠
﴿ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ . . . ﴾ ٨٥ . . . . ٤٨٣
﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ . . . ﴾ ٨٩ . . . . ٥٣٨

(٧) سورة الأعراف

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا . . . ﴾ ٤٣ . . . . ٥٩٨
﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ١٠٧ . . . . ٤٦٩
﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ ١٠٨ . . . . ٤٦٩
﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ . . . ﴾ ١٢٧ . ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١
﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ ١٢٨ . ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ . . . ﴾ ١٢٩ . . . ٤٦١ ، ٤٦٢
﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ ١٥٧ . . . . ٧٦
﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ١٧٦ . . . . ٢٢٢

(٨) سورة الأنفال

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ . . . ﴾ ٢٦ . . . . ١٢٣
﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ . . . ﴾ ٣٣ . . . . ٢٧٨

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ . . . ﴾ ٣٩ . . . . ٥٣٣
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٦٢ . . . . ١٨٨ ، ٢٠٧
﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ ٦٣ ١٨٩ ، ٢٠٧ ، ٢٩٥
﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ . . . ﴾ ٧٣ . . ١١٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٥٩٣

(٩) سورة التوبة

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ . . . ﴾ ٣٤ . . . . ٧٦
﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ . . . ﴾ ٤٠ . . . . ٤٦٤
﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ . . . ﴾ ١٠٢ . . . . ٢٢٦
﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن . . . ﴾ ١١٣ . . . . ٥٢٩
﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ . . . ﴾ ١١٤ . . . ٥٢٩ ـ ٥٣٠
﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ . . . ﴾ ١١٨ . ٢٢٨ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١١ ، ٦١٢

(١٠) سورة يونس

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ . . . ﴾ ١٤ . . . . ٤٦١
﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ . . . ﴾ ٣٢ . . . . ١٤١
﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ . . . ﴾ ٣٩ . . . ٤٧٨ ، ٤٨٣
﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ . . . ﴾ ٤٦ . . . . ٣٥

(١١) سورة هود

﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ٤٠ . . . . ٥٣٢
﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا . . . ﴾ ٦٢ . . . . ١٦٩
﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ ٧٥ . . . . ٥٢٩
﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ . . . ﴾ ١١٣ . . . . ٥٤٢
﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ . . . ﴾ ١١٦ . ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٢

(١٢) سورة يوسف

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ . . . ﴾ ٣ . . . . ٢٢٢

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ . . . ﴾ ٣٥ . . . . ٤٣٩

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ . . . ﴾ ٣٦ . ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٥٠٠

﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا . . . ﴾ ٣٧ . ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣

﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ . . . ﴾ ٣٨ . . . . ٤٣٨

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ . . . ﴾ ٣٩ . . ٤٣٨ ، ٤٤٥ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ . . . ﴾ ٤٠ . . . ٤٣٨ـ٤٣٩ ، ٤٤٥ـ٤٤٦ ، ٥٠٤

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي . . . ﴾ ٤١ . . . . ٤٣٨ ـ ٤٣٩

﴿ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا . . . ﴾ ١٠٠ . . . . ٤٢٥

﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ . . . ﴾ ١٠٥ . . . ١٥٠ ، ١٥١

﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ . . . ﴾ ١١١ . . . . ٢٢٢

(١٣) سورة الرعد

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ . . . ﴾ ٣١ . . . . ١٥١

﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ . . . ﴾ ٣٤ . . . . ٤٨٥

(١٤) سورة إبراهيم

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ . . . ﴾ ٤ . . . . ٥٣٧

﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ . . . ﴾ ٧ . . . . ٢٢٢

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ . . . ﴾ ٢٨ . . . . ٢٢٧

(١٥) سورة الحجر

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ٩ . ٤٦ ، ١٠٠ ، ٤٠٨ ، ٥٤٧

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ٩٤ . . . . ٥٣٤

(١٦) سورة النحل

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ . . . ﴾ ١٢٠ . ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٦٣٧

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ . . . ﴾ ١٢١ ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٦٣٧

﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ . . . ﴾ ١٢٢ . . . ٤٢٨ ، ٤٣٧

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ . . . ﴾ ١٢٣ . . . . ٤٢٨

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ . . . ﴾ ١٢٥ . ٣٢١ ، ٤٢٨ ، ٤٩٩ ، ٥٣٨

(١٧) سورة الإسراء

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا . . . ﴾ ١ . . . . ٢٣٠

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا . . . ﴾ ١٦ . . ١٥٤ ، ١٩٩ ، ٢٢٧

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ . . . ﴾ ٢٠ . . . . ٢٣٥

(١٨) سورة الكهف

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ . . . ﴾ ٦ . . . . ٣٥

﴿ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ١٣ . . . . ٣١

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا . . . ﴾ ١٤ . . . . ٣١

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ . . . ﴾ ١٥ . . . . ٣١

﴿ ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . ﴾ ٥١ . . . . ٦٠٠

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ . . . ﴾ ١١٠ . . . . ٤٨٢

(١٩) سورة مريم

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ . . . ﴾ ٤١ . . . . ٤٣١

﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ . . . ﴾ ٤٢ . . . ٤٣١ ، ٤٣٣

﴿ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ . . . ﴾ ٤٣ . . . ٤٣١ ، ٤٣٣

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ . . . ﴾ ٤٤ . . . ٤٣١ ، ٤٣٣
﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ . . . ﴾ ٤٥ . . . ٤٣١ ، ٤٣٣

(٢٠) سورة طه

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ . . . ﴾ ٤٤ . . . . ٤٥٢
﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ . . . ﴾ ٤٥ . . . . ٤٥٢
﴿ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ٤٦ . . . . ٤٥٢
﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ . . . ﴾ ٤٧ . . . ٤٤٩ ، ٤٥٢
﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ . . . ﴾ ٤٨ . . . . ٤٥٢
﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ ٤٩ . . . . ٤٥٢
﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ . . . ﴾ ٥٠ . . . . ٤٥٢
﴿ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ ٥١ . . . ٤٥٢ ، ٤٥٣
﴿ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ . . . ﴾ ٥٢ . . . ٤٥٣ ، ٤٥٤
﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا . . . ٱلنُّهَىٰ ﴾ ٥٣ـ٥٤ . . . . ٤٥٤
﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي . . . ﴾ ٧٢ . . . . ٤٧٣
﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ ١٢٧ . . . . ٤٨٥
﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ . . . ﴾ ١٣١ . . . . ٤١٤

(٢١) سورة الأنبياء

﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ . . ﴾ ١٠ . . . ٢٠٣ ، ٢٢٦
﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . . ﴾ ٩٨ . . . . ٤٥٣
﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ . . . ﴾ ١٠٥ . . . ٢٧٨ ، ٤٦٢

(٢٢) سورة الحج

﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾ ٢٦ . . . . ٦٣٨
﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ . . . ﴾ ٢٧ـ٢٩ . . . . ٦٣٨

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ . . . ﴾ ٣٠ . . . ٤١١ ، ٦٣٩

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ . . . ﴾ ٣١ . . . ٤١١ ، ٦٣٩

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ ٣٢ . . . . ٦٣٩

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ . . . ﴾ ٣٦ . . . . ٦٣٩

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا . . . ﴾ ٣٧ . . . . ٦٣٩

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا . . . ﴾ ٤١ . . . . ٣١ ، ٣٢ ،
١٠١ ، ٥٣٣

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ . . . ﴾ ٤٦ . . . . ١٥٠ ـ ١٥١

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا . . . ﴾ ٧٣ . . . . ١٦١

(٢٣) سورة المؤمنون

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . . . فَاعِلُونَ ﴾ ١ ـ ٤ . . . . . . ٢٢٦

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا . . . ﴾ ١١٥ . . . . ٣٦٠

(٢٤) سورة النور

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا . . . ﴾ ١٢ . . . ٦٥ ، ١٩٠

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ . . . ﴾ ١٩ . . . . ١٠٦

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . . ﴾ ٣٠ . . . . ٦٢٠

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . . . ﴾ ٣٥ . . . . ٦٨

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ . . . ﴾ ٣٩ . . . . ٥٩٣

﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ . . . ﴾ ٤٠ . . . . ٣٦٢

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا . . . ﴾ ٥٥ . . . ٦٧ ، ٢٩٧ ،
٣٧٢ ، ٥٣٣

(٢٥) سورة الفرقان

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ . . . ﴾ ٤٣ . . . . ٥٣٤

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ . . . ﴾	٦٣	٢٢٦
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ . . . ﴾	٧٣	١٥٠
﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ . . . ﴾	٧٧	٣٠٣ـ٣٠٤

(٢٦) سورة الشعراء

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾	١٤	٤٥١
﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ . . . ﴾	١٩	٤٥١
﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾	٢٣	٤٥٤
﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا . . . ﴾	٢٤	٤٥٤
﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾	٢٥	٤٥٥
﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾	٢٦	٤٥٤
﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ . . . ﴾	٢٧	٤٥٤ ، ٤٥٥
﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا . . . ﴾	٢٨	٤٥٥ ، ٤٥٦
﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ . . . ﴾	٦١	٤٦٣
﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾	٦٢	٤٦٣ ، ٤٦٤
﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ . . . ﴾	٦٣	٤٦٤ ، ٤٦٥
﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ . . . الرَّحِيمُ ﴾	٦٤ـ٦٨	٤٦٥
﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . . . ﴾	٦٩	٤٣٣
﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾	٧٠	٤٣٣ ، ٤٣٤
﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾	٧١	٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦
﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾	٧٢	٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦
﴿ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾	٧٣	٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦
﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾	٧٤	٤٣٤
﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . . . الْأَقْدَمُونَ ﴾	٧٥ـ٧٦	٤٣٥
﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . . . الدِّينِ ﴾	٧٧ـ٨٢	٤٣٥ ، ٤٣٦

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي . . . ٱلنَّعِيمِ ﴾ ٨٣ ـ ٨٥ . . . . ٤٣٦
﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ٨٦ . . . . ٤٣٧
﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . . . بَنُونَ ﴾ ٨٧ ـ ٨٨ . . . . ٤٣٧
﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . . . ﴾ ٨٩ . . . . ٥٣٣

(٢٧) سورة النمل

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ . . . ﴾ ٤٤ . . . . ٦٨
﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ . . . ﴾ ٥٦ . . . . ١٠٣
﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ . . . ﴾ ٦٦ . . . . ٤٧٨

(٢٨) سورة القصص

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا . . . ﴾ ٤ . . . . . ٤٤٩ ، ٤٥٨
﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ . . . لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٨ ـ ١٣ . . . . . ٤٥٠
﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا . . . ﴾ ١٥ . . . . ٤٥٠
﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا . . . ﴾ ٥٨ . . ١٥٤ ، ١٩٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٥
﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ . . . ﴾ ٨٣ . . ٣٤ ، ٤١٥ ، ٥٣٢

(٢٩) سورة العنكبوت

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ . . . ﴾ ٢ . . . . ٣١
﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ . . . ﴾ ٣ . . . . ٣١
﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ . . . ﴾ ١٤ . . . . ٥٣٢
﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ . . . ﴾ ٦٩ . . . . ٦٠٣

(٣٠) سورة الروم

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ . . . ﴾ ٤١ ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٤٨٤

(٣٢) سورة السجدة

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ . . . ﴾ ١٦ . . . . ٢٢٦
﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ . . . ﴾ ٢١ . . . . ٤٨٤

(٣٣) سورة الأحزاب

﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ . . . ﴾ ٢٢ . . . . ٣١
﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . . ﴾ ٢٨ . . . . ٤١٤ ـ ٤١٥
﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن ﴾ ٤٠ . . . ٣٣٧ ، ٥٤٥
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ ٧٢ . . . . ٣٦٠

(٣٤) سورة سبأ

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ . . . ﴾ ١٥ . . ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨
﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ . . . ﴾ ١٦ . ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨
﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا . . . ﴾ ١٧ . . . ٢٢٠ ، ٢٢٨
﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا . . . ﴾ ١٨ . . . ٢٢٠ ، ٢٢٢
﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا . . . ﴾ ١٩ . . . . ٢٢٤
﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ . . . ﴾ ٤٦ . . . . ٤٨٥

(٣٥) سورة فاطر

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ٤٣ . . . . ٤١٥

(٣٦) سورة يس

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ ٦ . . . . ٤٧٨
﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ . . . ﴾ ١٨ . . . . ٤٦١
﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ ٣٨ . . . . . ٦١٦

(٣٧) سورة الصافات

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ . . . ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٧٨ ـ ٨١ . . . . ٥٣٢

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ٨٤ .... ٥٣٣
﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ٩٥ .... ٨٠
﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ... ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ١٨٠ ـ ١٨٢ .. ٥٩٨

(٣٨) سورة ص

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ ٢٠ .... ٥٣٨

(٤٠) سورة غافر

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ...﴾ ٢٦ ... ٤٦٧ ، ٤٦٨
﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ...﴾ ٢٧ .. ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣
﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ ...﴾ ٢٨ . ٤٣٠ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦
﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ٢٩ .. ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧١
﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ٣٠ ... ٤٦٧ ، ٤٧١
﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ...﴾ ٣١ ... ٤٦٧ ، ٤٧١
﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ ٣٢ .. ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٢
﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ ...﴾ ٣٣ ... ٤٦٧ ، ٤٧٢
﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ ...﴾ ٣٤ .. ٤٦٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤
﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ ...﴾ ٣٥ .. ٤٦٧ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤
﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ... حِسَابٍ﴾ ٣٨ ـ ٤٠ .... ٤٧٤
﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ ... ٱلنَّارِ﴾ ٤١ ـ ٤٣ .... ٤٧٥
﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ ...﴾ ٤٤ ... ٤٧٥ ، ٤٨٦
﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾ ٥١ .... ٣٧٢

(٤١) سورة فصلت

﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ ١٦ .... ٤٨٥

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ . . . ﴾ ٣٠ .... ٢٨٢

(٤٢) سورة الشورى

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ١١ .... ٤٣٥

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ . . . ﴾ ٢١ .... ٥٤٠

(٤٣) سورة الزخرف

﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ . . . ﴾ ١٩ .... ٦٠٠

﴿ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ . . . ﴾ ٥١ .... ٤٦٨

(٤٧) سورة محمد

﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن . . . ﴾ ٤ .... ٢١٢

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ٥ .... ٢١٢

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ ٦ .... ٢١٢

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ . . . ﴾ ٧ .... ٢٥٣

(٤٨) سورة الفتح

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ ٩ .... ٥٤٣

(٤٩) سورة الحجرات

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ . . . ﴾ ١١ .... ١١١

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ . . . ﴾ ١٣ .... ٢٣١

(٥٣) سورة النجم

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ ٣ .... ٥٢٨

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ ٤ ..... ٤٠٥ ، ٥٢٨

(٥٧) سورة الحديد

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ ٧ .... ٨٧

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ . . . ﴾ ٢٧ ... ٤١٩ ، ٥٠٨

(٥٩) سورة الحشر

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ٢ ..... ١٥٠، ١٥٢

﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ ...﴾ ٩ ..... ١٥٥، ٦١٩

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ... ٱلۡحَكِيمُ﴾ ٢٢ ـ ٢٤ .... ٤٣٥

(٦٠) سورة الممتحنة

﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ...﴾ ٤ .... ٥٢٩

(٦١) سورة الصف

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ٨ .... ٣٣٦

(٦٦) سورة التحريم

﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ ...﴾ ٨ .... ١٩٢

(٦٨) سورة القلم

﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ ٩ .... ٥٣٤

(٧١) سورة نوح

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ ٥ .... ٥٣٢

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ ٩ .... ٥٣٢

(٧٢) سورة الجن

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم ...﴾ ١٦ .... ٦٧

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ٢٦ .... ٤٨٥

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ...﴾ ٢٧ .... ٤٨٥

(٧٤) سورة المدثر

﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ... ٱلۡيَقِينُ﴾ ٤٢ ـ ٤٧ .... ٢٢٦

(٧٥) سورة القيامة

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ... بَيَانَهُۥ﴾ ١٧ ـ ١٩ .... ٥٤٧

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ... ٱلۡمَسَاقُ﴾ ٢٦ ـ ٣٠ .... ١٤٩

(٧٩) سورة النازعات

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ٢٤ . ٤٢٢ ، ٤٥١ ،
٤٥٢ ، ٤٦٩ ، ٥١٢

(٩٣) سورة الضحى

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ١١ . . . . ٢٢٢

(٩٦) سورة العلق

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ١ . . ٥٧٢ ، ٥٧٣ ،
٥٧٤
﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ . . . بِٱلْقَلَمِ﴾ ٢ ـ ٤ . . ٥٧٢ ، ٥٧٤
﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥ ٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥

(١٠٢) سورة التكاثر

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ . . . ٱلنَّعِيمِ﴾ ١ ـ ٨ . . . . . . ١٥٧

(١٠٩) سورة الكافرون

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ . . . دِينِ﴾ ١ ـ ٦ . . . . . . ٥٣٠

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث **رقم الصفحة**

ـ أ ـ

أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم ٥٣٥
أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة .... ١٨٧ ، ٢٢٨
اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ١٩٧
أشبهت خَلْقي وخُلُقي ٤٩٠
أفلا أكون عبداً شكوراً ٣٦
أما ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس .... ٤٨٧ ، ٥٠٦
إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به ٥٢٢
إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف ٢١٢
أن تعبد الله كأنك تراه ٤٤١
إن رأيته فأقرئه مني السلام ٢١٤
إن ربكم واحد وإن أباكم واحد .... ١١٩ ، ٢٣١
إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ٥٣٤
إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ٥٣٢
إن اليد العليا خير من اليد السفلى ٨
انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ٤٠٤
إنما بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين ٨٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٥٣٨ ، ٥٥٧
إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .... ١٥٥ ، ٤٨٤

الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية ١٩٣
أيها الناس ، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا ٥٣٦

- ب -

بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين ٣٦٢

- ت -

تؤمن بالله ورسوله ٥٣١

- ج -

جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ٨٩

- ح -

الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها ٢٤٥

- ق -

قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة .... ٣٦ ، ٥٦
قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض .... ٧٦ ، ٣٧٠

- ك -

كان ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة ٣٠
الكبرياء ردائي ، ومن نازعني ردائي قصمته ٤٥١
الكريم ابن الكريم ابن الكريم ٤٣٩

- ل -

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي .... ٥٠ ، ٥٣١
اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد . ٣٠ ، ٥٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٠
اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني .... ٣٠ ، ٥٠
لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن لها ملكاً لا يظلم ٤٩٠
لو سلك الناس شعباً وواديا وسلك الأنصار شعباً ١٩٤
لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ١٥٦
ليأخذن الراية غداً رجل يحبه الله ورسوله ٢٣٥

- م -

ما ظنك باثنين الله ثالثهما ٤٦٤
ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط ٤١٢
ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا ٢١٢
ما هذه القالة التي بلغتني عنكم ٤٨٦
مثل القائم في حدود الله والواقع فيهما كمثل قوم ١٧٤
من تعزّى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضُّوه بهن ١٣١
موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ٧٦

- ن -

نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته ٥٣٠

- و -

واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ٢١٢
والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فأقتل ٢١٢
والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله ٢١٢
ويل للعرب من شر قد اقترب ٢٠٠

- لا -

لا تجتمع أمتي على ضلالة .... ٤٠٨ ، ٥٤٨
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ٥٤٨
لا خير في دين لا صلاة فيه ٥٣٤
لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ٤٠٥
لا طاعة لمخلوق في معصية الله ٤٠٦
لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط .... ٣٤ ، ٥٤
لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم ٢١٥
لا يدخل الحظيرة إلا الأنصار .... ٤٨٦ ـ ٥٠٥
لا يلج النار رجل بكى من خشية الله ٢١٢
لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٤٠٤
لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي ٤٠٥

- ي -

يا بني عبد المطلب ، يا بني كعب أرأيتم لو أخبرتكم ٤٨١
يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك ٥٣٠
يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ٤٣٢
يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم ٢٠٨
يسِّروا ولا تعسِّروا ، بشِّروا ولا تنفروا ٥٣٨

فهرس الأعلام

ـ آ ـ

آدم النبوري ١٤

آدم عليه السلام ١١٩

ـ أ ـ

إبراهيم ٢٥٥

إبراهيم باشا ٤٢٠ ، ٥٠٩

إبراهيم الشرقي ٣٧٨

إبراهيم عليه السلام ١٣٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٦٦ ، ٤٨٩ ، ٥١٩ ، ٥٢٩ ، ٥٣٣ ، ٥٣٨ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨

أبرويز ٢٥٥

ابن إسحاق ٣٠ ، ٥٠

ابن أم مكتوم ٢٠٧

ابن تيمية ٣٢٤ ، ٣٨٨ ، ٤٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٣٥ ، ٥٠٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٩ ، ٦٣٠

ابن جدعان ٥٣٠

ابن الجوزي ٤١٣ ، ٦٣٠

ابن حجر ٣٢٣ ، ٤٠٤

ابن خلدون ٣٨٩

ابن سينا ٦٠١ ، ٦٠٢

ابن شهاب الزهري ٢٧٤

ابن قيم الجوزية ٤٠٩ ، ٤٨٧ ، ٥٠٦

ابن منظور ٢٠٥ ، ٣٣٧

أبو أحمد بن عدي الحافظ ٣٢٢

أبو الأعلى المودودي ٦٣٤

أبو بكر الصديق ٣٠ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٢١٦ ، ٣٠١ ، ٤١٨ ، ٤٣٠ ، ٤٦٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٢٨

أبو جهل ٥٣٠

أبو الحسن الأشعري ٦٢٨ ، ٦٢٩

أبو الحسن علي بن إسماعيل ٣٢٤

أبو الحسن ، علي الحسني الندوي ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٤٢ ، ٦٢ ،

٧٣ ، ٨٦ ، ٩٧ ، ١١٥ ، ١٣٥ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٧١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٤ ، ٤٩٦ ، ٥١٤ ، ٥٢٧ ، ٥٥٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٩٤ ، ٦٠٦ ، ٦١٥ ، ٦٢٢ ، ٦٣٦

أبو حنيفة ٣٢٣

أبو دجانة ٥٤٤

أبو ذر ٤٣٠

أبو سفيان ٤٨٦ ، ٥٠٥ ، ٥٣٤ ، ٥٤٣

أبو سلمة ٣٦٨

أبو طالب ٤٣٢ ، ٥٣٠

أبو طلحة الأنصاري ٣٦٩ ، ٦١٩

أبو عبيدة ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٥٢١

أبو عزيز ، أخو مصعب بن عمير ١٣٣

أبو العلاء المعري ١٨٢

أبو الفضل ٣٨٠

أبو الفيض ، فيضي ٣٨٠ ، ٣٨١

أبو محذورة ٢٠٧

أبو منصور الماتريدي ٣٢٤

أبو موسى الأشعري ٣٢٤ ، ٥٣٨

أبو هريرة ٤١٨ ، ٥٠٨

أتاترك ٢٠٧

أحمد ٣٩٠

أحمد إسماعيل اللبيلي ٧٣

أحمد أمين بك ٣٥٨ ، ٦٢٨

أحمد بن حنبل ٣٢٣ ، ٣٣٨ ، ٤١٤ ، ٥٧٨ ، ٦٢٨

أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، ولي الله ٢٠٦ ، ٢٤٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٠٩ ، ٦٢٧

أحمد بن عرفان الشهيد ١٤ ، ١٧ ، ١٠١ ، ٢١٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٦٢٠

أحمد حسن الزيّات ١٨

أحمد زكريا الغوري ١٣

أحمد السرهندي ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤

أحمد الشرباصي ٢٨٨

أحمد عبد العزيز آل مبارك ٧٣

أحمد علي اللاَّهوري ١٦

أحمد الله العظيم آبادي ٣٤٦ ، ٣٤٧

أحمد محمد جمال ١٤٥

الأحنف بن قيس ٢٢٦
أسامة بن زيد ٤٠ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٥٣٦
إسحاق عليه السلام ٤٣٩
الإسكندر ١٢٥
اسكندر بن بهلول اللودهي ٣٧٧
إسماعيل ٣٩٠
إسماعيل عليه السلام ٥٢٠ ، ٦٣٨
إسماعيل اللاهوري ٣٧٦
أشرف علي التهانوي ٣٩٣
إسطفانوس ٤٩
أفضل جيمة ٩٨ ، ١٤٧
أكبر حسين ١٤٤ ، ٣٨٥
البرت م. سيمسن ٣٤٣
البرني ٣٧٧
أنس بن النضر ٢١٤
أنوار الحق ٩٧
أورنك زيب عالمكير ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٢٢ ، ٥١٢
ا. وهنتني جريسولد ٥٧٠
أيدروس ٢١٥
أين ، سي ، مهتا ٥٦٠
اـ ي تشريستنس ١٦٢

- ب -

باكون ٥٥٨
البخاري ٣٣٨ ، ٤٦٤ ، ٤٨٧ ، ٥٠٦
بخت خان ٣٤٦
بريسي ناين ٥٦٥
بلال ٢٠٧
بهاء الدين ، ابن شداد ٢٣٤
بهادر شاه ظفر ٣٤٦
بهرام خان ٢١٥
بوذه ٥٢
بولس ٤٩ ، ٥٠

- ت -

تقي الدين الهلالي المراكشي ١٥
تيبو ٣٤٥
تيمور ٣١٨ ، ٣١٩

- ث -

ثناء الله الأمر تسري ٣٥١ ، ٣٥٢
ثيودر شرويدر ٥٧١

- ج -

جبار بن سلمى ٦١٧ ، ٦١٨
جبلة بن أيهم الغساني ٥٣٧
جرائفان ٣٥١
جرجي زيدان ٢٠٦
جعفر بن أبي طالب ٢١٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤
جكر المراد آبادي ١٣٦
جلال الدين أكبر ١٩٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢
جلال الدين الرومي ٦٣٠
جمال الدين ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠
جمال الدين الأفغاني ٧٠ ، ٣٤٧

جمال عبد الناصر ١٠٥ ، ١٤٣
جنكيز خان ١٢٥ ، ١٢٧ ، ٣١٥ ، ٣١٧
جهان كير ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥
جواهر لال نهرو ١٤٠ ، ٥٥٩
جوليفه كستلو ٥٥٧

- ح -

الحجاج بن يوسف ٦٢٧
حرام بن ملحان ٦١٧
حسن ٣٣٨
الحسن البصري ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧
الحسن بن علي ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢
حسن البنا ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٢٦
حسين أحمد المدني ١٦
الحسين بن علي ٥٢٢
حكيم محمد سعيد ١١٥ ، ١١٦
حمزة ١٢١
حيدر حسن خان الطونكي ١٦

- خ -

خالد بن الوليد ٢٣٩ ، ٣٦٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١
خان أعظم ٣٨٤
خبيب بن عدي ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٣٦٧ ، ٥٤٣
الخطابي ٤٠٩
خولة بنت الأزور ٢٣٩ ، ٢٤٠

- د -

درابر ٥٦٩
دولت راؤسندهيا ٣٤٥
ديانند سرسوتي ٥٤

- ر -

الراغب الأصبهاني ٣٣٧
ربعي بن عامر ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١٧٩ ، ٢١٢ ، ٢٤٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٦٢
رستم ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ١٧٩ ، ٢١٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٦٢
رشيد الدين ٣١٩ ، ٣٢٠
رشيد رضا ١٧
روبرت بريفولت ٥٥٧
ريجي نالد ٣١٥ ، ٣١٦

- ز -

الزركلي ٢٣٥
الزمخشري ٣٣٧
الزهري ٦١٩
زيد بن ثابت ٢١٤
زيد بن الدثنة ٥٤٣

- س -

سائرس ١٣٢
السرهندي ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢

سعادت علي ٣٩٣
سعد بن أبي وقاص ٣٥، ٥٥، ٧٤، ٧٥، ٢١٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٣٠٤
سعد بن الربيع ٢١٤
سعد بن معاذ ٢١٤
سعيد الحلبي ٤٢٠ ، ٥٠٩
سلطان بن محمد القاسمي ٦٢
سلمان الفارسي ٢٤٣
سلمة ٣٦٨
سليمان عليه السلام ٦٨
سليمان الندوي ٣٣٠ ، ٣٩٥ ، ٦٣٤
سيد قطب ٣٢٦ ، ٦٣٤
سيرز ١٢٧
سيف الدين السرهندي ٣٨٦
سينت بال ١٠٠

- ش -

الشافعي ٣٢٣
شاهجهان ١٩٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٢٢ ، ٥١٢
شيلي النعماني ٣٢١، ٣٣٠، ٣٩٥
شرحبيل بن حسنة ٢٤٠
شكيب أرسلان ٢٤٥
شمس الحق الديانوي ٣٩٢
شمس الدين الأيلتمس ٣٧٦
شنكر أجاريه ٥٣ ، ٥٤
شهاب الدين الدولة آبادي ٣٧٨
شيبة ١٢١
شيرزمان ١٣٥
شيرشاه السوري ٣٧٩

- ص -

صديق حسن القنوجي البهوبالي ٣٩٢
صلاح الدين الأيوبي ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٥٦٣
صهيب ٣٦٨

- ض -

ضرار بن الأزور ٢٤٠
ضياء كوك ألب ١٣١

- ط -

الطبري ٢٤٤
طلحة بن عبيد الله ٥٤٤

- ظ -

ظهور الإسلام الفتحفوري ٣٣٠
ظهير الدين بابر ١٩٨

- ع -

عاصم ٣٣٨
عائشة ٣٦ ، ٥٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣١
العباس ٥٣٠ ، ٥٣٥
عبد الباقي البدخشي ٣٨١
عبد الجبار الغزنوي ٣٩٢

عبد الحكيم عابدين ٣٢٨
عبد الحليم ٣٥٠
عبد الحي بن فخر الدين الحسني ١٥ ، ٣٣٠
عبد الرحيم الصادقفوري ٣٤٦
عبد العزيز بن باز ٢٨٤
عبد العزيز الدهلوي ٣٨٩ ، ٣٩٢
عبد العزيز الميمني الراجكوتي ٢٠٥
عبد العلي الحسني ١٥
عبد الغفور ٥١٤
عبد القادر الرأي فوري ١٦ ، ١٧
عبد القادر الكيلاني (الجيلي) ٤١٣ ، ٦٣٠
عبد اللطيف القادياني ٣٥٠
عبد الله إبراهيم ٢٠٢
عبد الله الأشتر ١٤
عبد الله بن أبي ربيعة ٤٩٠ ، ٤٩٥
عبد الله بن أبي أمية ٥٣٠
عبد الله بن مسعود ١٧١
عبد الله الزايد ٤١٧ ، ٤٩٦
عبد الله عباس الندوي ٣٢٨
عبد الله علي بصفر ٢٧١
عبد الله الغزنوي الأمرتسري ٣٩٢
عبد الله محسن التركي ٥٩٤
عبد الماجد الغوري ١٣
عبد المتعال الصعيدي ٢٨٨
عبد المطلب ٥٣٠
عبد المنان الوزير آبادي ٣٩٢
عبد المنعم خلاف ٢٨٨
عبد الودود ٦٢
عبد الوهاب عبد الواسع ٦٠٦
عبيدة ١٢١
عتبة ١٢٠
عثمان بن مظعون ٤٩٠
عروة بن مسعود الثقفي ٥٤٤
عز الدين بن عبد السلام ٤٠٩
عكرمة بن أبي جهل ٤٨٦ ، ٥٠٥
علاء الدين محمد شاه الخلجي ٣٧٧
علم الله بن السيد فضيل الحسيني النقشبندي ١٤
علي ١٢١
علي بن أبي طالب ١٨ ، ١٩٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٥٢٢
علي بن الشهاب الهمداني ٣٧٦
عمر بن الخطاب ٣٤ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ٢٠٠ ، ٢١٧ ، ٢٣٥ ، ٣٣٨ ، ٤٣٠ ، ٤٩٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٤٥
عمر بن عبد العزيز ١٥٧ ، ٢١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢

عمرو بن العاص بن وائل ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٠ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥

- غ -

الغزالي ٣٢٤ ، ٣٨٨ ، ٤٠٩ ، ٦٣٠
غلام قادرخان ٣٥١

- ف -

فتح علي العظيم آبادي ٢١٥
فرعون ١٤٤ ، ١٩٦ ، ٣٨٥ ، ٤٢٢ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥
فريد ٣٨٤
فريد الدين الأجودهني ٣٧٦
فيروز تغلق ٣٧٧
فيصل ٥٢٤

- ق -

قطب الدين المدني ١٤
قطب الدين يختار الكعكي ٣٧٧
قيصر ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٩ ، ١٢٧ ، ٥٤٤

- ك -

ك . م . باينكر ٥٥٩
كامل الشريف ١٤٥
كبير داس ٥٥٩
كرامت علي الجونفوري ٣٤٦
كسرى ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٥٤٤
كعب بن مالك ٦١٠
كمال أتاتورك ١٣١
كولمبس ١٩٤

- ل -

لبون ٥٥٨
لين بول ٣١٦

- م -

المأمون ١٦١ ، ٦٢٨
مارتن لوثر ٥٠
مالك ٣٢٣
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ٢٠٤
محب الدين الخطيب ١٨
محمد إبراهيم شقرة ١٤٥
محمد أحمد السوداني ٣٤٧
محمد إسحاق بن أفضل الدهلوي ٣٩٢
محمد أسد (ليوبولدويس) ١٥٦ ، ٦٣٤
محمد إسماعيل بن عبد الغني ٣٨٩

محمد إسماعيل الشهيد ٣٩١
محمد إقبال ٦٦ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٦٥ ، ١٩٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٧٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٥١٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٩ ، ٥٧٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٦٣٤
محمد إلياس الكاندهلوي ١٧ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧
محمد بشير السهسواني ٣٩٢
محمد بن إسماعيل البخاري ٣٢٢ ، ٣٢٣
محمد بن راشد المكتوم ٢٠
محمد بن قاسم الثقفي ٨
محمد بيك أبو الذهب ٢٠٤
محمد جعفر ٢١٥ ، ٢١٦
محمد جعفر التهانيسري ٣٤٦ ، ٣٤٧
محمد الحسني ٣٢٨ ، ٣٦٤
محمد صالح حرب باشا ٣٧٥
محمد صديق الشبلي ١٣٥
محمد علي جوهر ١٣٧ ، ١٣٨
محمد علي المونغيري ٣١٣، ٣٩٥
محمد الغزالي ٥ ، ٧ ، ٢٢ ، ٢٨٨
محمد الفاتح ٩٤ ، ٢٥٣
محمد قاسم النانونوي ٣٧٧، ٣٩٣
محمد معصوم ٣٨٦
محمد هارون الندوي ١٣
محمد واضح رشيد الندوي ٧٣
محمد يوسف ٣٩٨
محيي الدين أورنك زيب عالمكير ١٩٨
مرارة بن الربيع ٦١٠
مرتضى بن محمد الحسيني الزبيدي ٢٠٤
المرزا غلام أحمد القادياني ٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢
المرزا مرتضى ٣٥١
مسلم ٥٣٠ ، ٥٣١
المسيح ، عيسى عليه السلام ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ٢٨٦ ، ٣٧٣ ، ٤٩٤
مصطفى السباعي ١٨ ، ١٣٣ ، ٢٣٧
معاذ بن جبل ٥٣٨
معاوية بن أبي سفيان ٥٢٠
المعتصم ١٦١ ، ٥٢٥ ، ٦٢٨
معين الدين الجشي ٣٧٦
منير دلة ٢٢
موسى عليه السلام ٣٧ ، ٥٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ،

٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٩ ، ٥٣٨ ، ٥٨٢

المير ناصر نواب ٣٥٢

- ن -

النجاشي ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥٤٤

نذير حسين الدهلوي ٣٩٢

نصير الدين محمود الأودهي ٣٧٧

نصير الدين همايون ١٩٨

نظام الدين الدهلوي ٣٧٧

نوح عليه السلام ٥٣٢

نور الدين جهانكير ١٩٨ ، ٤٢٢ ، ٥١١ ، ٥١٢

نور الدين زنكي ٣١٦

نور علي ٣٥٠

- هـ -

هاروت فورد ٣٤٤

هارون الرشيد ١٦١

هرقل ٣٤ ، ٥٤ ، ١٧١ ، ٢٧٥

الهرمزان ٨٠

هلال بن أمية الواقفي ٦١٠

همايون بن بابر ٣٧٩

هندوراؤ ٣٤٥

هولاكو ٣١٥ ، ٣١٧

- و -

ورقة بن نوفل ٥٧٤

ولايت علي العظيم آبادي ٣٩١

ولي الله الدهلوي ٥٩٦

الوليد بن عبد الملك ٨ ، ٩

الوليد بن عتبة ١٢١

- ي -

يحيى علي العظيم آبادي ٢١٦ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧

يزدجرد ٧٩

يزيد بن أبي سفيان ٢٤٠

يعقوب عليه السلام ٩٢ ، ٤٣٩

يوسف عليه السلام ٤٢٩ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٣٨

فهرس الأشعار

القافية	الشاعر	رقم الصفحة
	- ت -	
ما لقيتِ	-	٢١٣
	- د -	
نيزكنند	محمد إقبال	٥١٦
	- ر -	
نذروا	-	٢١٦
	- ع -	
مسمعِ	-	٥١٦، ٥٦٥، ٥٨٦
مصرعي	خبيب بن عدي	٢١٤
ممزَّعِ	خبيب بن عدي	٢١٤
	- ل -	
هازلُ	أبو العلاء المعري	١٨٢
	- ن -	
حطّينا	الزركلي	٢٣٥
فينا	الزركلي	٢٣٥
	- هـ -	
لاتوصهِ	-	٤٢٧
	- ي -	
الأمانيا	-	٢٣٤
حاليا	-	٢٣٤

فهرس الموضوعات

مقدمة بقلم الشيخ محمد الغزالي ٥
مقدمة عبد الماجد الغوري ٧
ملامح من حياة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ١٤
اسمه ونسبه وأسرته ١٤
ميلاده ونشأته ١٥
جهوده العلمية ونشاطاته الدعوية ١٦
أهم مؤلفاته ١٧
تقدير وتكريم ١٩
رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع ٢٠
وفاته ٢١
أريد أن أتحدث إلى الإخوان ٢٢
الحاجة إلى الإصلاح والتجديد ٤٢
خليج بين الإسلام والمسلمين ٦٢
نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة الزائفة ٧٣
هذه الدنيا وقف مقدَّس ، وليست بدكان تاجر ٨٦
الأمة المسلمة ليست كحشائش الغابة والشجيرات ٨٨
أقيموا محكمة الإسلام ٩٠
المسيحية واليهودية عاجزتان عن التوجيه ٩٢
الأمر يتوقف اليوم كلياً على الإسلام والمسلمين ٩٣
المرحلة الانتقالية للعالم الإسلامي ٩٧

لحظة من الغفلة قد تُخلِّف الركب بمسافة قرون ٩٨
رسالة عزيزة من تربة الأندلس ٩٨
العالم الإسلامي يمر بمرحلة انتقالية ٩٩
الإسلام يحتاج إلى السلطة ١٠١
لا بد من الاهتمام بالغصن الذي يقوم عليه العش ١٠٢
المجتمع كتربة ١٠٤
يجب ألا يكون هناك تأجيل في تطبيق الشريعة الإسلامية ١٠٥
السلحفاة نائمة على بطئها في السير والأرنب دؤوبة ١٠٧
السهم الفعال في كنانة الإسلام ١٠٨
أسباب جلاء المسلمين عن إسبانيا ١١١
الوحدة الإسلامية ومتطلباتها ١١٥
كلمة الوحدة جذابة كالمغناطيس ١١٦
الصراع بين الوحدات ١١٧
مجرد الوحدة لا تحمل قيمة ، وليس لها وزن حبة خردل ١١٨
التصور الإسلامي للوحدة ١١٩
وحدة جديدة فريدة ١٢٠
وحدة العقيدة والهدف ١٢٣
قليل في العدد ، جليل في الهدف ١٢٣
عبء العالم كله على وحدة قليلة متواضعة ١٢٥
الوحدة اللغوية وجناياتها ١٢٦
السبب في الحربين العالميتين : الأولى والثانية ١٢٨
المشكلات التي تواجه المسلمين ١٣٠
أنتم تتشرفون بمنصب الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ١٣٣
الصراع النفسي والقلق الفكري في البلاد الإسلامية وعوامله ١٣٥
إقبال قدوة لطلاب العلوم الغربية ١٣٦
إقبال ومحمد علي جوهر من خريجي المدرسة الغربية ١٣٧
ما هو مصدر الشقاء والاضطراب في العالم الإسلامي ١٣٩

النور والظلام لا يجتمعان ١٤١
الوضع في العالم الإسلامي وضع متناقض ١٤٢
الطبقة الحاكمة ترصد كل إمكانياتها لقهر شعوبها ١٤٣
ما فات فرعون تداركه قادة التربية الغربيون ١٤٤
التعليم العصري حامض يذيب الشخصية ويكونها من جديد ١٤٥
الشخصية الإسلامية لن تتكون إلا بنظام تعليمي ١٤٥
لا بد من تضييق الفجوة بين رغبات الشعوب الإسلامية ١٤٧
درس من الحوادث ١٤٨
إلى الإسلام من جديد ١٥٩
لا بُدَّ من أولي بقية ينهون عن الفساد ١٦٦
أزمة هذا العصر الحقيقية ١٧٦
شلال الإيمان والإخلاص وكيف يستفاد منه ١٨٥
المسلمون في رباط دائم ١٩٥
معجزة الإسلام الخالدة ٢٠٢
مصدر قوة المسلم ٢١٠
درسٌ من قوم سبأ ٢١٩
من معاني الإسراء والمعراج ٢٣٠
الشخصية الإسلامية ووجوب المحافظة عليها ٢٣٦
دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها ٢٤٧
المجتمع الإسلامي المعاصر ٢٥٦
استعراض المجتمع الإسلامي في ضوء الواقع ٢٥٧
واقعان يبدوان متناقضين ٢٥٧
الفارق الأساسي بين المجتمع الإسلامي المعاصر والمجتمعات ٢٥٧
مصدر قوة خارقة للعادة ، والوسيلة الأقوى للبعث الجديد ٢٥٨
توفق قادة المجتمع الإسلامي الماضين في استخدام هذه القوة ٢٥٩
تصوير المجتمع الإسلامي وتنويه بما يمتاز به ٢٦٠
أسباب حيرة العالم الإسلامي ٢٦١

النقاط الرئيسية الحاسمة لتغيير الحال ٢٦٥
الأمل في القادة المخلصين الجادين الواقعيين ٢٧٠
حاجة العالم إلى مجتمع إسلامي مثالي أفضل ٢٧١
الإسلام مستهدف لحركات الإبادة العالمية ٢٨٤
العالم الإسلامي على مفترق الطريق ٢٨٨
قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم ودورها في العالم ٢٩٨
أوربا ، أمريكا ، وإسرائيل كشف حقيقة صارخة ٣١٢
مخططات جديدة للقضاء على الإسلام ٣٣٢
القاديانية مؤامرة خطيرة وثورة على النبوة المحمدية ٣٣٦
الصيانة من شتات الفكر ٣٣٩
تجاسر القاديانية وابتداعها ٣٤٠
كثرة المتنبئين في الأديان السابقة ٣٤٢
كيان القاديانية ومنشؤها الواقعي وأسيادها ٣٤٤
في سبيل الإنكليز ٣٥٠
وفاته ٣٥١
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٣٥٤
بين الصورة والحقيقة ٣٦٤
الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها ٣٧٥
الدولة الروحية بجوار الدولة المادية ٣٧٦
صلة الملوك بالشيوخ وإجلالهم لهم ٣٧٧
سرّ خضوع الملوك للشيوخ والدعاة وسيرتهم ٣٧٨
فتنة أكبر ، والخطر الأكبر على الإسلام في الهند ٣٧٩
بطانة سوء من العلماء ٣٨٠
معاداة الإسلام ٣٨٠
حاجة التجديد إلى عبقري ٣٨١
الإمام أحمد السرهندي ٣٨١
الخطر في الثورة العسكرية ٣٨٢

من أين يبدأ الإصلاح؟ ٣٨٢
الأسلوب الحكيم ٣٨٣
التأثير في بلاط الملك ورجال دولته ٣٨٤
يتغير اتجاه الدولة ، وترجع الهند إلى الإسلام ٣٨٥
السلطان أورنك زيب من غرس الإمام السرهندي ٣٨٦
مآثر أورنك زيب الإسلامية ٣٨٦
نجاح الإمام السرهندي في مهمته وأهدافه ٣٨٧
ضعف الحكم الإسلامي في الهند ٣٨٧
الإمام ولي الله الدهلوي ٣٨٨
خطته في الإصلاح ٣٨٨
نجاحه في عمله ٣٨٩
الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ورفقته ٣٨٩
مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنة ، والعاملين بالحديث ٣٩١
ثورة الهند ، وردّ فعلها ٣٩٢
معهد ديوبند وخدمته للدين ٣٩٣
سر نجاح هذه المدارس ٣٩٤
ندوة العلماء ومعهدها ٣٩٤
حركة التبليغ وصاحب دعوتها مولانا محمد إلياس ٣٩٥
الدعوة ومبادئها ٣٩٧
جهود المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة ٣٩٩
جهود إصلاحية وتربوية أخرى ٣٩٩
الدعوة إلى الله ، حماية المجتمع من الجاهلية ٤٠١
العوامل التي تتكفل بنجاح الدعوة وتوجيه الأمة ٤١٧
روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة ٤٢٤
المحاضرة الأولى ٤٢٥
حكمة الدعوة ومرونتها ومجاراتها لكل بيئة وعصر ٤٢٥
تحقيق أمنية قديمة ٤٢٥

القرآن كتاب هداية ودعوة ٤٢٦
الدعوة لا يمكن أن تخضع لقوانين مرسومة وتتقيد بها ٤٢٦
دعوة لها مساحة زمانية ومساحة مكانية ٤٢٧
الإيجاز والإعجاب في آية الدعوة ، سعتها وعمقها ٤٢٧
الأمثلة والنماذج عنصر هام ، استخدمه القرآن فيما يتعلق بالدعوة .. ٤٢٩
نموذج من دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه ٤٢٩
المحاضرة الثانية ٤٣١
نموذجان من دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٤٣١
دعوة الولد للوالد ٤٣١
إثارة للحنان الأبوي ٤٣٢
حسن اختيار سيدنا إبراهيم للدلائل ٤٣٣
الاعتماد على الفطرة والواقع في دعوته عليه السلام لقومه ٤٣٣
استفاد ثروة الذكاء والبيان ، وطاقة الدفاع عن النفس ٤٣٤
المنهج القرآني إثبات مفصل ، ونفي مجمل ٤٣٥
الانطلاق والتدفق في الحديث عن الله تعالى ٤٣٦
مناسبات لطيفة ٤٣٦
المحاضرة الثالثة ٤٣٨
نموذج من دعوة سيدنا يوسف عليه السلام ٤٣٨
المحيط الفريد الذي قامت فيه دعوته عليه السلام ٤٣٩
موضع احترام وتقدير وثقة ٤٤٠
معنى الإحسان ٤٤١
أهم من الرؤيا المفزعة ، وأجدر بالاهتمام ٤٤١
الجمال الرائع في فتح الحديث ٤٤٢
١ ـ التفسير الأول ٤٤٣
٢ ـ التفسير الثاني ٤٤٣
تنشيط النفوس لسماع الحديث بشيء لذيذ حبيب ٤٤٣
الانتقال الخفيف الرقيق إلى عرض الدعوة ٤٤٤

رحلة طويلة يطويها سيدنا يوسف في لحظة واحدة ٤٤٥
إعجاز قرآني عجيب ٤٤٥
طريقة الداعي الملهم ٤٤٦
المحاضرة الرابعة ٤٤٧
أمثلة من دعوة سيدنا موسى عليه السلام ٤٤٧
لوحة جميلة أخرى من الدعوة النبوية ٤٤٧
مهمة سيدنا موسى تختلف عن مهمة الأنبياء الآخرين ٤٤٧
ميزة بني إسرائيل في معاصريهم ٤٤٨
ألقيت على عاتقه عليه السلام مهمتان ٤٤٩
أراد فرعون ألا يولد مولود عادي في بني إسرائيل ٤٤٩
خارق للعادة ٤٥٠
محنة لقوة النفس وقوة الإيمان ٤٥٠
أحبُّ عباد الله إلى أبغض عباد الله ٤٥١
السهم المسموم من كنانة فرعون ٤٥٢
السرّ الكامن والإعجاز الكامل ٤٥٣
التمسك بالدعوة ، وعدم الحياد عنها ٤٥٤
مراوغة فكرية من فرعون واستقامة موسى ونجاحه فيها ٤٥٤
فرعون يطلق السهم الوحيد في كنانته ٤٥٥
آخر سهم في كبد فرعون ٤٥٥
المحاضرة الخامسة ٤٥٧
موسى عليه السلام مع قومه «بني إسرائيل» ٤٥٧
الحرب الداخلية قد تكون أشد خطراً من الحرب الخارجية ٤٥٧
أربعة مواقف واضحة حاسمة لسيدنا موسى مع قومه ٤٥٧
موقف نبي داع لا موقف زعيم سياسي ٤٥٨
أرادوا أن يصيدوا عصفورين بسهم واحد ٤٥٩
الروح النبوية تتجلى في أروع مظاهرها ٤٥٩
موقف الداعي المستقيم الذي هيأه الله لأمر عظيم ٤٥٩

الشيء الذي يفتت الكبد ، ويقطع القلب ٤٦١
الداعي داع في كل شيء ٤٦١
أراد موسى شيئاً ، وأراد الله شيئاً ٤٦٢
كلا إن معي ربي سيهدين ٤٦٣
لماذا كان؟ ٤٦٤
المحاضرة السادسة ٤٦٦
دعوة مؤمن ما زال يكتم إيمانه نموذج لدعوة غير نبي ٤٦٦
حوار في منتهى البلاغة والحكمة ، ومعرفة مداخل النفس ٤٦٧
الاستراتيجية : الحاكمية الملكية ٤٦٨
كلمة رقيقة رفيقة ، تثير الشرارة الأخيرة من العدل ٤٦٩
الاحتجاج بالمشهود المعهود على الهدف المطلوب المنشود ٤٦٩
الاحتجاج بسنَّة الله التي لا تتغير ٤٧٠
الاعتبار بالتاريخ ومصير الأمم البائدة ٤٧١
التحذير من الآخرة ٤٧١
إثارة نقطة جديدة حكيمة ٤٧٢
سمة فرعون الرئيسية التي حالت بينه وبين الحق ٤٧٣
النقطة التي يلتقي عليها سيدنا موسى في دعوته ٤٧٤
الضرب على الوتر الحساس ٤٧٤
الدعوة إلى معرفة المخلص النافع من الفاحش الخادع ٤٧٤
الخط الذي ينتهي إليه كلُّ داع مخلص ٤٧٥
المحاضرة السابعة ٤٧٧
نموذجان من دعوة خاتم الرسل وحكمته ٤٧٧
النموذج الأول من دعوته ﷺ على جبل الصفا ٤٧٧
النبوة هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحس وعالم الغيب ٤٧٧
متى يؤدي العقل دوره؟ ٤٧٨
بُعد أهل العرب عن النبوات شكَّل مشكلة كبرى ٤٧٨
المشكلة أن رسول الله ﷺ أراد أن يخاطب قوماً لم يتعلموا ٤٧٩

الأنبياء يكونون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود ٤٧٩
كان الرسول عربياً يعرف عادات العرب ٤٨٠
العدو الذي يعيش في الداخل أضر وأفتك من كل عدو ٤٨٠
أصدق صوت في أصدق مناسبة ٤٨١
كان العرب عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين ٤٨١
الأنبياء يقفون على قمة جبل من النبوة ٤٨٢
مكابرة الفلاسفة والحكماء ٤٨٣
القضية هو الإيمان بوجود عالم لا يرى ٤٨٣
الخطر الحقيقي الذي تناساه أهل مكة وأهل العصر ٤٨٤
تفرد الأنبياء بمعرفة خواص العقائد والأعمال والأخلاق ٤٨٤
سبيل الأنبياء والمرسلين وسبيل الفاحصين والمكتشفين ٤٨٥
جواب الأنبياء الأخير ٤٨٥
مثال بليغ للحكمة النبوية والبلاغة العقلية ٤٨٦
لله ولرسوله المن والفضل ٤٨٦
إثارة الإيمان واليقين والحب الدفين ٤٨٧
أوجدتم علي في لعاعة من الدنيا؟ ٤٨٧
الأنصار شعار والناس دثار ٤٨٧
أروع نموذج في الآداب البشرية والآداب الإنسانية ٤٨٨
المحاضرة الثامنة **٤٨٩**
تمثيل جعفر بن أبي طالب للإسلام والمسلمين في مجلس النجاشي . ٤٨٩
نموذج دعوة وحكمة لأحد السابقين من هذه الأمة ٤٨٩
الموقف الدقيق الرهيب الذي دعا إلى هذا الكلام ٤٩٠
الوصف الماكر المنفر للاجئين المسلمين ٤٩١
الوضع الدقيق المحرج ٤٩١
المنهج الحكيم الذي آثره جعفر بن أبي طالب ٤٩٢
كلمة جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي ٤٩٣
أثر حديث جعفر في المجلس الملكي ٤٩٣

محنة عقيدة وبديهة ٤٩٤
انتصار في معركة حامية ٤٩٥
حكمة الدعوة وصفة الدعاة ٤٩٦
أمير قافلة الأمة الإسلامية اليوم ٥١٤
الحديث الذي يصدر عن القلب فينفذ في القلب ٥١٥
واليوم الثاني هو ما نعيشه اليوم وبلدنا واقف على منعطف حساس .. ٥١٧
الرفيق العظيم من رفاق ركب الأمة الإسلامية ٥١٩
ثلاثة أنواع من التضحية ٥٢٠
إيثار مصالح الأمة على جميع المصالح والأغراض الشخصية ٥٢١
القضية تتصل بمصير الأمة الإسلامية ٥٢٣
القرن الحاضر يظمأ إلى معتصم ٥٢٥
طبيعة هذا الدين وسماته البارزة ٥٢٧
الإسلام والحضارة الإنسانية ٥٥٢
دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء ٥٦٤
الغاية الأولى والأساسية من التعليم ٥٦٥
أمة محمد ﷺ أمة ممتازة في خصائصها ومزاياها ٥٦٧
قضية البلاد الإسلامية أهم وأكبر خطراً ٥٦٨
المسؤولية الأولية للجامعات في بلد إسلامي ٥٦٨
لا بد من اطمئنان القلب والعقل معاً ٥٦٩
درس من تجارب الماضي ٥٧٠
مصير العلم مرتبط بالقلم ٥٧٢
هذا الدين لن يفارق العلم ٥٧٣
عصارة كل علم وثقافة ٥٧٤
حماية الدين من التحريف والمسلمين من الانحراف ٥٧٦
العناية بتربية السيرة ٥٧٧
من عوامل التأثير في المجتمع وقوة المقاومة للتحديات والمغريات
روح التضحية والفداء ٥٧٨

تكوين اختصاصات وقدرات ممتازة في الدراسة والتحقيق ٥٧٩
الغرض الأصيل من العلم والأدب ، هو نفح روح الإيمان ٥٨١
دور مصر الإسلامية القيادي في العالم الإسلامي ٥٨٢
الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر وجبهاتها الحاسمة ٥٨٤
مأثرة شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الكبرى ٥٩٤
ماذا يثبته القرآن ويعلنه؟ ٥٩٧
ضلال الفلسفة اليونانية وسرّ شقائها وخيبتها ٥٩٨
دور ابن تيمية في التركيز على ما جاء عن طريق الأنبياء ٥٩٩
الفرق الأساسي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى ٦٠٢
توارد علمي ، والتقاء فكري عقائدي عجيب ٦٠٢
عجز العقل والكشف وإخفاقهما في إدراك حقائق ما وراء الطبيعة .. ٦٠٣
المعوِّقات التي تعترض طريقنا إلى الله سبحانه وتعالى ٦٠٦
الإعجاز البياني في القرآن الكريم ٦٠٧
الأرض الإسلامية مصدر ثقة وإلهام ٦١٠
لا ملجأ من الله إلاَّ إليه ٦١١
نجاح الندوة في اختيار زمانها ومكانها ٦١٢
كلمة ختامية ٦١٤
تقدير العزيز العليم ٦١٥
الحاجة إلى التركيز على جانب حاسم ومقاومة فتنة متحدية في مجال الدعوة والإصلاح وأمثلته ٦٢٢
إبراهيم عليه السلام وبيت الله الحرام ٦٣٦
فهرس الآيات الكريمة ٦٤٠
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٦٥٥
فهرس الأعلام ٦٥٩
فهرس الأشعار ٦٦٨
فهرس الموضوعات ٦٦٩

من تُراث العلاَّمة النَّدوي

جمع وإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

سلسلة رائعة من مجموعات محاضرات ومقالات العلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في موضوعات مختلفة ، صدر منها :

١ ـ دراسات في إعجاز القرآن .

٢ ـ مقالات حول السيرة النبوية .

٣ ـ محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٤ ـ مقالات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٥ ـ مقالات وبحوث حول التعليم والتربية الإسلامية .

٦ ـ مقالات حول أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٧ ـ أبحاث حول الاستشراق والمستشرقين .

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت